رواية

جورجي أمادو

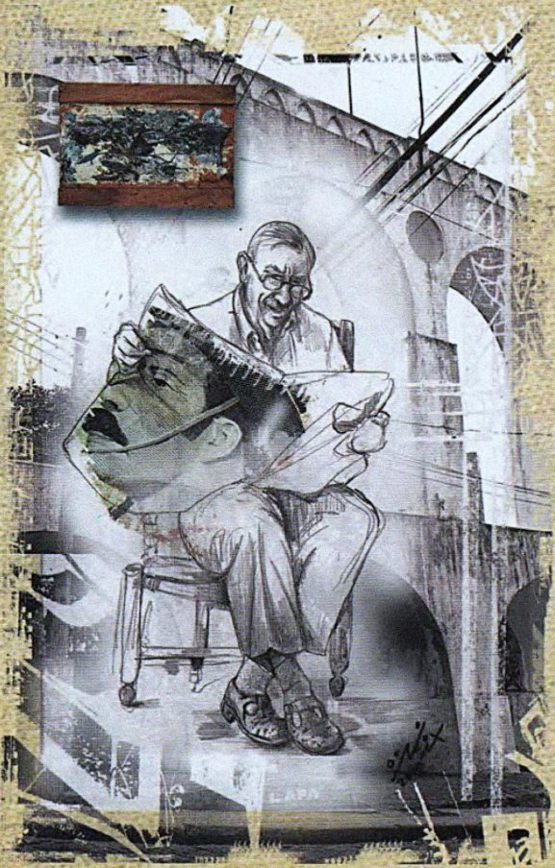

توكايا غراندي

الوجه المظلم

المترجم: عوني الديري

توكايا غراندي

الوجه المظلم

الناشرين

الإمارات العربية المتحدة – أبو ظبي – هاتف 6314468 2 971 + – فاكس 6314462 2 971+
ص.ب 2380 – الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.kalima.ae

لبنان – بيروت – هاتف 786233 - 785108 - 785107 1 961+ – فاكس: 786230 1 961+
ص.ب 5574-13 – الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. s.a.l

الطبعة الأولى 1430هـ – 2009م
ردمك 978-9953-87-344-2

جميع الحقوق العربية محفوظة للناشرين

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم،
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+) – ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 1102-2050 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb – الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي Tocaia Grande
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونيًا من الناشر .The Wylie Agency (UK) Ltd
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © 2008 by Grapiúna - Grapiúna Produções Artísticas Ltda.
All rights reserved
Arabic Copyright © 2008 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

إن هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث "كلمة" والدار العربية للعلوم غير مسؤولتين عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبّر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف، ولا تعبّر بالضرورة عن آرائهما.

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر

توكايا غراندي

الوجه المظلم

رواية

تأليف
جورجي أمادو

ترجمها عن البرتغالية
عوني الديري

مراجعة وتحرير
مركز التعريب والبرمجة

كلمة
KALIMA

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

الإهداء

إلى زيليا، من محط رحال إلى آخر...

إلى أليس وجورج رايارد،

وآني – كلود – باسي وأنطوانيت هاليري

في مدينة باريس،

إلى ليجيا وفرناندو سابينو...

إلى إيتاسوسي ورايموندو سان باريتو،

ذكرى باسيليو دي أوليفيرا...

آراء في الرواية

"وأخيراً أدركت هذه الرائعة لجورجي أمادو هدفها كاملاً ولذلك نضع أنفسنا تحت وصايته، أسرى إبداعه السحري".

"جير الدوفراس
مجلة استو آي

"إنها ملحمة، وكونها كذلك، وفي الوقت الذي يتناول فيه أشخاصاً من لحم وعظم، فإنه يمنحهم بعداً ميتولوجياً ذا بنية مثالية".

إيليو بيللغريني
جريدة فوليا دي ساوباولو

"إنها تحفة روائي وتحفة شعب، فتوكايا غراندي – الوجه المظلم، لا تترك المجال، كتحقيق تصوري، لأي من الروايات المهمة التي قرأتها في حياتي، والتي تم نشرها في العالم، مؤخراً، بأن تفوقها إبداعاً وأهمية".

أنطونيو أوليتو

"من الصعوبة أن نعثر، على عمل أكثر مثاراً للإعجاب في الأدب البرازيلي".
جوزي برازيليرويسيمو

"إنها أفضل رواية لجورجي أمادو بعد غابرييلا".

مجلة فيجا البرازيلية

"إن توكايا غراندي هي قمة عطاء المعلم" وبعظمة متنامية، ففيها تظهر أشكال التأزم وطرق الوصف والإيحاءات بالكلية المسهبة، والتنوعات الشاعرية، لتعبّر عن التجارب السابقة تعبيراً إبداعياً أدركت به النضج المثالي للأعمال الأدبية الكاملة".

أنطونيو حويس

"إن توكايا غراندي كتاب ملحمي، مليء بالحب والتفاؤل، ولا يأتي بمثله إلا من آمن إيماناً طبيعياً بحياة النساء والرجال".

ويلسون لينز
جريدة المساء|السلفادور

"إنها كتاب كبير – هذا كل ما أستطيع أن أفكّر فيه وأنا ألتهم بشراهة صفحات الحياة الممتعة في هذه الرواية".

فرناندو سابينو
جريدة أو غلوبو

"رواية تحتويك وتأسرك. إنها بلا شك ألوهية الفن لدى مبدع، وتكرير شفاف للموهبة، وخلاصة السحر الأدبي".

ماركوس سانتا ريتا

"بعض متون القواميس والموسوعات، وبعض السير الأدبية، تجعلني مولوداً في بيرانغي. إن ما حدث، في الحقيقة، هو العكس: فقد شاهدت بيرانغي تولد وتنمو. عندما مررت من هناك، لأول مرة، رديفاً على سرج مطية والدي، كانت هناك ثلاثة بيوت متباعدة. أما محطة سكة الحديد فكانت بعيدة: في سيكيرودي إشبينيو".

جورجي أمادو
عن كتاب "الريفي الصغير

"الكاكاو – ثمرة طيبة تولد من أوجاعك،
الكاكاو – حياة بلا معنى وموت رخيص".

إيليو بولفورا
من ديوان "أناشيد إلى روح أبي"

"لقد تمكنت الناس من مواجهة الطوفان والطاعون، ولكنها لم تستطع أن تواجه القانون، فسقطت..".

لوبيسينيو
"الشاهد الحي"

"أقول لا حين يقولون نعم، وبصوت واحد لا يتبدل. أريد أن أكشف عن الوجه المظلم وأسلّط عليه النور، ذلك الوجه الذي محوه من مسيرة التاريخ بلؤم وجحود، أريد أن أهبط إلى أعماق البداية المنكرة، وأتحسس الصبر والتجلد على البـــناء بالنضال والدم، والقدرة على مواجهة العنف والسيطرة عليه، وأريد أن أفـــضح طمـــوح ووضـــاعة وقوانين الإنسان (المتحضر).. وأتحدث عن الحب الاباحي ما دام صرح الفضيلة لم يرتفع بعد.. أقول لا حين يقولون نعم، وليس عندي عهد آخر

جورجي أمادو

لماذا هذه الترجمة؟

أقدمت على هذه المشقة، اختياراً، لأنها أيضاً قصة قريتي، شكا، ذلك الامتداد الأخضر، الوديع إزاء البحر، التي بناها آبائي وأجدادي بالنضال والدم، قبل أن تكون توكايا غراندي. ولكن قوانين الإنسان المتحضر، هي الأخرى كانت قد حوّلت شكا إلى أكبر مدينة صناعية في لبنان، فأكلها الغبار، واتسخت سواقيها وشواطؤها، وتخلى عنها أبناؤها الطيبون ضاربين في الآفاق البعيدة تفتيشاً عن جبل بلا غبار، وشاطئ بلا قذارة، ولقمة بعرق الجبين، وإنسان لا يربطه إلا الوعد، لأنهم تعلموا الحياة وقفة عز فقط.

عوني الديري

من هو أمادو؟
ولماذا توكايا غراندي؟

مـــن هـــو هذا الثمانيني المدهش، المتدفقة في عروقه دماء الفتوة، الممتلئ قلبه بالإيمـــان، والمـــتوهجة روحـــه بالنضال؟ من هو هذا الذي تدعيه الأمم، وتحاول التـــيارات الفكرية الكبيرة أن تستقطبه، وتسارع كبريات دور النشر إلى أن تلصق نفـــسها بأدبـــه، لتـــصطبغ به، فإذا ولد اختلفوا في أبيه، والكل ادعاه، وإذا شبّ اختلفوا في ربيبات تكوينه الفكري، وإذا نشأ عاجلتهم نشأته ببهائها المتجدد الذي لا يعرف التكرار ولا يستسلم لصنمية وتحنط ولا يقبل بطقوسية. من هو هذا الذي بلـــغ ســـخط الصهيونية عليه ذروته فواجه سخط فكرها بالازدراء واستمر طوداً شـــامخ الثبات والعلياء في وجه الامتعاض والمكائد لذلك الفكر؟ وبين ريح الفكر الـــصهيوني وإعصار الإبداع الأمادوي المواجه، طلع العرب في البرازيل، وهم هناك أهـــل فكر مُبرِّز، يتحدون هذا وذاك مبينين أن في روحه ذلك الشرق الذي انسلّ إليه عبر عرق سامي، وإلا فلماذا في رواياته الثلاثين استطاع الشاعر جورج مدور أن يحصي ستمائة شخصية عربية راح يحلل فيها ويتبين خصائصها ليخرج بالصفعة الفكـــرية الحـــادة التي جوبه بها الفكر الصهيوني؟ إنه جورج أمادو المولود في عام 1912 في البرازيل، وأمادو تعني "الحبيب" وكم من العائلات العربية التي أقامت في الـــبرازيل والتي ترجمت ألقابها إلى لغة البلاد، حيث استوطنت، فغدا لقب "حبيب" أمادو، ولقب "غنمة" كارنيرو، ولقب "نجار" كاربنتيرو، وقس على ذلك.

وسواء تدفق في عروقه الدم العربي، أم لم يتدفق، لأن دم الأدب واحد في هذا العـــالم، هو دم الإنسان وإن اختلفت فصائله، وإذا كانت فصيلة الأدب الأمادوي برازيلية الجغرافية، ومدارية المناخ، فهي عالمية الأبعاد، إنسانية المنحى، وباهيا، كما يقـــول أمادو نفسه، هي الولاية البرازيلية التي تمتد وتتسع لتبلغ حدود ألمانيا الثلجية دون أن تعرف سبباً لذلك.

في كتابه "الريفي الصغير": "يقولون في بعض الروايات الأدبية إنني ولدت في "بيرانغي" والحقيقة أنني في المرة الأولى التي ذهبت فيها إلى بيرانغي رديفا على كفل حصان والدي، كنت في السنوات الأولى من العمر، ثم رأيت بيرانغي تنمو وتكبر وتزدهر وما "بيرانغي"، آنذاك، إلا قرية ريفية صغيرة في ولاية باهيا، وباهيا هي تلك الولاية البرازيلية الشاسعة التي تعانق البحر المسكون بآلهة الزنوج وقصص حب البحارة الذي يتأجج بين مدِّ الموج وجزره، وباهيا أيضاً تلك المزارع الواسعة، وسع بلدان برمتها، يتعايش فيها الفقر والنعمة ويتحكم الإقطاع الذي تتحطم نواهيه وأوامره على ثوابت الحياة الطبيعية، وهي تلك المرتفعات العذراء التي تقطن الوحوش ربوعها، ويا لروعة تلك الربوع التي يعجز الخيال عن تصورها والحكمة عن سبر أغوار ما فيها من حكم الحياة. هناك بدأ الفتى القادم إلى بيرانغي رديفا يتأمل في الطبيعة والإنسان، وتتكون فيه التجربة التي سيكتب لها أن تدك عروش الأدب ليقيم للأدب عرشاً سيصعب على عُداة الزمن أن تزلزله"

من بحر باهيا، الحالم كطفل، الصاخب كالقضاء والقدر، وعند شواطئه الكأداوات صخورها، الناعمة كثبانها، حيث يرغو الموج ويزبد فيأتي مع رغوته بجثث الغرقى من البحارة العاثرين حظاً، وحيث إذا لان الموج ورقّ، حمل معه زورقاً تنتظر عاشقة وصول حبيب فيه، ومن تلك المنارات الصابرات على هداية سبيل التائهين في لجج إيمنجا آلهة الحب الزنجية، وأوشالا وأوشوسي، والمشارب المنتشرة حيث يذوب اليأس في تأوهات الأناشيد وألحان القيثارات، وحيث يذوب أسى الفقر والحاجة بذوبان الشمس في ذلك الأفق اللانهاية، من هناك طلعت رواية أمادو "بحر ميت"، وأمادو في الرابعة والعشرين، عندما نشرت للمرة الأولى.. وكان قليلاً لرائعته، تلك، أن تترجم إلى أربع وأربعين لغة، وأن تطبع في البرازيل طبعتها السادسة والثمانون، وأن توضع لها المعزوفات الموسيقية الأرقى وتراً، والأجمل لحناً، وأن تنظم رباعيات شعرية، ومسلسلات تلفزيونية، وقصصاً إذاعية، وأن يتوج المخرج الإيطالي "بونتي" مجده السينمائي بفيلم أعطى لصوفيا لورين مجدها الأثيل، عندما أوكل إليها تجسيد دور عاشقة البحار في "بحر ميت"

وكانــت الرحلة الروائية التي بدأها أمادو يافعاً لتستمر عبر مواكبها الثلاثين ونــيف، وها هو في أواخر الثمانينات، وقد بلغ فيها ثمانينه هو، لا يزال ذلك النهر المــتدفق كأنــه الأمــازون قد أرغى وبدأ يهدد الأرض بالطوفان، وكانت روايته الأخــيرة "اختفاء القديسة" وهي ليست أخيرة في غير سياقها عقب ما سبقها من روائــع، وربما طالت به السنون وأعطى المزيد لأن من له يعطى ويزاد، لقد جاءت روايــة "اختفاء القديسة" المفاجأة التي أذهلت النقاد، وتتضح بها الحقيقة التي ظلت ديــنه وديدنه طيلة عمره المديد. كان قد ردّ بعد صدور "توكايا غراندي" رداً على مفاتحــته بــشأن ثقافي: "كيف تريدني أن أقدم على عمل بهذا الحجم وقد غدوت أعــيش مع الموت أكثر مني مع الحياة؟" وكأن كلمته قد أصابت مني مقتلاً فأصبت بنوع من الأسى كان هو حافزي على التجلد بالصبر لنقل "تيريزا باتيستا" و"توكايا غراندي" إلى العربية، مكرساً أوقات الفراغ والراحة وجزءاً من أوقات العمل للقيام بمــا وجــدت أن لا مندوحة من القيام به.. وكانت السعادة التي لا توصف حين ظهرت مؤخراً روايته الجديدة بهية، جليلة، تحمل سر الحكاية الطويلة، المشوقة.

لمــاذا تنكبت عبئاً كنت في غنى عنه، لو لم يكن في الأمر ما يستدعي؟ إن المــسألة هي، قبل أي شيء، مسألة وعي، فقناعة، فموقف. والموقف حركة في اتجــاه ما خدمة لغرض ما، وليس جموداً أو تقوقعاً طي زعانف شائكة.. وحين يكون الوعي وعياً للحقيقة على حساب الواقع، أو لإقامة التوازن بينهما، يدرك المــتأمل خطر اللعبة الثقافية الذي لا يعادله خطر أي حرب مهما كانت أدواتها شديدة الفتك، وفي صراع الأمم فإن من تتقرر له الغلبة هو الذي أجاد شروط اللعبة الثقافية واستطاع أن يصون ذاته في هذه الحرب المستمرة من الأزل وإلى الأبد. ومن ثوابت اللعبة الخطيرة عدم القبول بسياسي أو أديب أو فنان لا يعي خطــورة هذه اللعبة ولا يتصرف بوعي من قناعة بها، أو يتقيد بما تمليه عليه من مواقف. أضف إلى ذلك أن القبول هنا يعادل الرفض، فإما أن يكون السياسي والأديب والفنان ومعهم المؤسسة داخل اللعبة أو أن يكونوا جميعاً على هامشها متفــرجين، يعرفون شروط اللعبة، كمشاهدي مباراة كرة القدم، متحمسين، دون أن يشاركوا في اللعبة. تكونون ونحن معكم، أو لا تكونون ونحن ضدكم بحكم منطق الأشياء.

وبسبب هذه الحقيقة - العبء... وعلى ضوئها الكاشف، تستوقفك الحقيقة المؤلمة في الوطن العربي، والتي تتصل بالموضوع، وهي السهولة في تعميم الخطأ وطمس الحقيقة والتستر على الشطط والارتجال في الاختيار والأحكام المطلقة حيث توجب عدم إهمال النسبية، والاعتبارات النسبية حيث يجب البناء على حقيقة مطلقة، وكل هذا يحدث من ضمن التراتي لمن بيدهم الأمور أهم داخل الحلبة وليس خارجها.. وإلا فكيف استطاع غارسيا ماركيز، وكورتاثار، وغوميز، وبورخيس أن يحتلوا هذه المساحة من الاهتمام، وهم بالمقارنة مع جورج أمادو يتحولون داخل الحلبة من جبابرة إلى لاعبين لاهثين إزاء عبقرية أمادو ومهارته فوق العادية؟ ربما تكون اللغة الإسبانية التي كتبوا بها هي السبب في شغلهم الحيز الأكبر لما لهذه اللغة من ملمين بها تمكنوا من أن ينقلوا أعمالهم إلى العربية بأمانة، بينما اصطدم نقل أمادو إلى العربية بعقبتين: عقبة اللغة البرتغالية التي كتب بها أمادو البرازيلي، وعدم جدية دور النشر العربية في اختياراتها غير المنتظمة لأنها تخبط في منشوراتها، غالباً، خبط عشواء، وليس هناك من يحاسبها، ويبين مبلغ ضلالها في تحويلها عملية الفكر إلى عملية تخضع لمقاييس التجارة والتسويق بحجة "إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون" والأسوأ من كل ذلك أن بعض دور النشر ذات الاستراتيجيات الفكرية الأيديولوجية توهمت أنها في ترجمتها عن غير اللغة التي كتب بها، سيجعلها تضيف مأثرة إلى مآثر منشوراتها اعتقاداً منها بأن جورج أمادو يساري اشتراكي، وبهذا فإن في هذه الدور قد ارتكبت خطأين متعادلين حجماً، هما خطأ الإساءة إلى أمادو حيث يمكن الاعتقاد بأن هذه الترجمات السطحية تكاد تمت بالصلة إلى أدب هذا العملاق، والخطأ الثاني هو اعتقادها بأن اسم جورج أمادو قد يخدم استراتيجيتها الأيديولوجية؛ ويخطئ الكثيرون في ظنهم أن أمادو يساري أحمر، ومناضل بالمعنى المستقطب في القاموس الاشتراكي. إن من يتعمق في كتاباته وطروحاته يمكنه أن يتبين أنه يزدري الصراع الطبقي بمعناه الحركي، ويناضل من أجل إنسانية القيم فيها، والتي هي ليست المفاهيم الوظيفية التي تتلبس بلبوس القيم.. إن ما يفتش عنه أمادو هو إنسان أكبر من جاذبية الطبقة، وأعمق حساً وإيماناً بقضية الإنسان، وهو إذا كان قد ثار على الدولة التقليدية في العالم الثالث، فإن مفهومه للدولة نابع من حاجة الإنسان إلى مؤسسة تتحرك على ضوء

قـيم إنـسانية مجردة استطاعت أن تدرك كنه الله مجردة من كل طقسية وصنمية وذاتـية محنطة بقيم فردانية نرجسية.. وإذا كان أمادو قد كشف عن الوجه المؤلم للإمـبريالية وافتضح نظاميتها المشبوهة، فإنه فتش عن نظام إنساني جديد أبعد ما يكـون عن مفهوم الدولة الاشتراكي بمعناه التقليدي، ودعا إلى نظام الطبيعة الذي تنتظم فيه الأشياء ضمن حيزها وعلى طريق نموها وتطورها الطبيعي، وهذا ما جعله في "تـوكايا غـراندي" يكشف عن التطور الطبيعي كشفاً دقيقاً يفسر فيه النشوء والارتقـاء إلى أن يصل القانون، والقانون، كما يطرحه، قاتل أخطر من الطوفان والطاعـون، ومعه تبدأ الأهواء بالتحكم في الحياة والإنسان.. ثم يصل بعد توكايا غـراندي إلى "اخـتفاء القديسة" حيث يهتك أقنعة "الطوطمية"، وينتهك المفاهيم الدينية التي يتلطى خلفها الهوى، والأنا، والرغبة في الجهل خوفاً من مواجهة الحقيقة أو تحصناً في مواقع ليس أخطر عليها من الحقيقة.

وعودة إلى بدء..

قـبل النهل من ينابيع أمادو الروائية، كانت قراءة الرواية المعاصرة الأميركية اللاتينية، والأميركية الشمالية، والفرنسية، وبلغاتها الأصلية، قراءة ممتعة لا تلبث أن تـتحول مـع الـصفحة الأخيرة إلى شيء ما قد حدث، ولا يلبث هذا الشيء أن يـتحول إلى صورة تحك ذاكرتك عند الاقتضاء لتستجلي بعضاً من ملامحها.. بول – بـوب سولتزر، ريتشارد ماك جل، بيروفيت، ماركيز، كورتاثار، جيرار كلين، جـان فرانسوا دينيو، هارولد روبينـز، برغارد كلافيل، وغيرهم الكثيرون، ولكن أمادو لا يتركك وشأنك لترى الأشياء بحيادية، وخلافاً لهؤلاء فإنه يعطيك من المتعة الـروحية ويدفعك إلى المطاردة المشوقة لشخصياته أكثر بكثير مما يعطيك أولئك، ولكـنه يسلبك راحة البال، وينغص عليك الحلم، وهدوءك في وحدتك، ثم يجعلك متـنازعاً، متصارعاً، متخبطاً لا تقوى على استعادة انعتاقك، والأنكى من كل هذا أنك تجد نفسك منساقاً، ولكن بغير امتعاض، بل مع كثير من الارتياح لكونك قد غـدوت أكثر إنسانية وأعمق وجدانية وأكثر ميلاً إلى التوفيق بين الواقع والحقيقة. وأعظـم مـا في أدب أمادو هو قدرته العجيبة على هتك الأقنعة وتمزيق الستر التي تتلطـى خلفها المظالم، فإذا أنت وجهاً لوجه أمام الحقيقة البشعة المجردة المسحوبة سـحباً من مخابئها العميقة، ولكنك لا تتحسس غير فرح يغمرك بدفء لا تتوقعه،

وبرغبة في أن تضع يدك على العدالة، عدالة الحياة التي هي عدالة الله وقد أصبحت بمتناولك.

في ذكـــرى مرور مئة سنة على تحول إيروزوبوليس إلى مدينة، وبحضور ممثلين عـــن رئاســـة الجمهورية، وكافة الهيئات الرسمية والشعبية، ألقيت الخطب المبجلة وسلطت الأضواء على المنجزات العظيمة التي حققتها السلطات، وتناولت الصحف المناســـبة بالتعظـــيم والثناء على الجهود التي قدمها المحافظ ورئيس البلدية والوزراء وساهم فيها أصحاب الهمم من كافة المراتب والمستويات، ولكن بالنسبة إلى أمادو كـــان الاحـــتفال بإيروزوبوليس تزويراً كاذباً وتعمداً في الانتقاص من الحقيقة بل وتـــشويهها، لأن إيروزوبوليس قبل أن تصبح إحدى أجمل مدن البرازيل وأحدثها كانـــت "تـــوكايا غراندي" التي صنعها ثلاثة.. لبناني، هندي، وزنجي.. وهذه هي الحقـــيقة الـــتي سيهبط أمادو إلى أعماقها المنكرة ليكشف عن وجهها المظلم الذي يستحق العناء، أما وجه إيروزوبوليس المضيء فكذب وتزوير ولا يستحق التوقف عنده.. فإلى توكايا غراندي: الوجه المظلم.

عوني الديري

بغداد في 1991/6/17

المكان

ناتاريو دافونسيكا، رجل ثقة، ينصب كميناً في مكان جميل

1

هـــناك، عند أسفل المنحدر على الضفة اليسرى من النهر، قبل أن يتم بناء أي مسكن، كان قد تمّ حفر المقبرة.. هكذا تكون الحجارة الأولى قد استخدمت ليشار بهـــا إلى القـــبور المسطحة التي تمّ دفن الجثث فيها، قبيل الظهر، عندما كان العقيد دالتـــرو قد وصل، أخيراً، وهو يمتطي صهوة جواده وبرفقته بعض أزلامه – كناية عـــن أربعة من الرجال المسلحين، كانوا قد مكثوا في المزرعة – ليتحقق بنفسه من المدى الذي بلغته الكارثة.. لم يبقَ من المرتزقة واحد ليروي الحكاية.

تأمـــل العقـــيد في الجثث المخضبة بالدم: لقد مات "بريللو" والمسدس في يده دون أن تتاح له الفرصة ليضغط بإصبعه على الزناد وإن مرة واحدة، أما الرصاصة الـــتي قضت عليه فقد اخترقت صدغ رأسه بصورة جعلت العقيد يشيح بنظره عن المـــشهد اشمئزازاً، ويدرك أن تلك المذبحة تعني النهاية. لم يعد لديه أية وسيلة لمتابعة القـــتال، فكظم الأسى في صدره دون أن يترك لأحد أن يلاحظ أي دليل على ما يعتريه، ثم رفع صوته القيادي وأعطى الأوامر.

بالـــرغم من الإعصار الهائل – أمطار غزيرة غير مرتقبة، وغيوم داكنة ملبدة، وهـــزيم رعد يدوي في الغابة الموحشة – كانت بعض الغربان مجذوبة بمشهد الدم واللحوم المهشمة تحلق فوق الرجال المنهمكين في نقل الجثث وحفر القبور.

– بسرعة قبل أن تتعفن الجثث وتفوح النتانة.

2

عدت بهم الجياد، وهم صامتون، إلى أن أدركوا مدخل الجسر الصغير، حيث شـــدّ "ناتاريو" بلجام فرسه مؤخراً خطوها. كان قد اجتاز المسافة إلى هناك على

رأس المـــرافقين الـــذين خرج بهم للمجيء بالعقيد بوافنتورا من مخيم تاكاراس عند محطـــة الـــسكة الحديدية؛ وعندما غدا على مقربة من العقيد تكلم بصوت هادئ رخيم.

– إني أعـــرف مكانـــاً مناسباً يا حضرة العقيد.. وأستطيع أن أريك إياه إذا تفضلت بالقيام بتحويلة صغيرة لا تتعدى نصف الفرسخ. إنه يقع إلى الأمام، قليلاً، بالاتجاه المعاكس لمجرى النهر.

مكـــان مناسب؟ مناسب لأي شيء؟ إن ما يطلعه عليه "السركال" وقع عليه في الصميم وجعل كل أعماقه تنتفض.. إن زوجته المتعمقة بالروحانيات كانت قد أكـــدت مـــراراً أن لبعض الأشخاص موهبة في قراءة أفكار الآخرين.. وفي إحدى المـــرات، بصحبة إبنه فنتورينيا الطالب في كلية الحقوق، فإن العقيد كان يحضر في أحـــد مـــسارح العاصمة عرضاً عن الحواية والتخاطر، فمكث فاغراً فاه تبدو عليه هيـــئة أبله مسكين إلى جانب زوجته الشقراء التي كانت تستحق فحلاً أكثر غواية مـــن ذلك الهزيل ذي اللحية الضئيلة. الزوجة الطويلة النحيلة ذات خدين غائرين وبـــشرة مطلـــية بالأصباغ، بشعة، ولكنها كانت مغرية في التكهن وتقرأ الأفكار المخـــبأة في رؤوس الآخرين كما لو كانت تقرأها مكتوبة على ورقة. أما فنتورينيا الابـــن، الطالب المبتدئ في كلية الحقوق، الدعي، فقد أعطى الضمانة والكفالة بأن كـــل مـــا كان يجري على المسرح لا يعدو كونه خدعاً ولكنه لم يستطع أن يثبت ذلك بالحجة أو البرهان أو بإعطاء تفسير مقنع.. والعقيد يؤثر عدم التعمق في تلك الأمـــور المجهولة: إنه من الرجولة الأسطورية بحيث لا يقلقه شيء في العالم، ولكن حـــين يكـــون الأمر متعلقاً بالقوى الخارقة فإنه كان يشعر برعب حقيقي لا يمكن الـــسيطرة عليه.. على كل حال، إنه بحاجة إلى مكان مناسب، وهذه هي الحقيقة، ولكن كيف تمكن ناتاريو من التكهن بذلك؟

حـــدّق العقـــيد في وجه "السركال" باستفهام، فافترَّ ثغر ناتاريو عن ابتسامة رفيعة؛ وجه هندي عريض، وشعر أسود سابل، ووجنتان نافرتان، وعينان ناعستان ولكـــنهما يقظـــتان. حمل لقب "سركال" بعدما قام بالمهمة الموكولة إليه بصورة مرضـــية، وبـــصفته مـــسؤولاً عن أغراس الكاكاو، واهتم بالآونة الأخيرة، أقصى الاهـــتمام بالقـــتال في الـــصراعات الدامية التي ستصنف الأسياد أصحاب السلطة

والقوة. اكتسب خبرته في تجارب سابقة وهو دائماً في خدمة العقيد بوافنتورا: من شاب هارب من العدالة، تمكن ناتاريو من أن يرتقي تلك الدرجات كلها: مرتزق، فمستزلم، فسركال، فرئيس أزلام، فموضع ثقة، فرجل لكل المهمات، يزن الأمور ويستخلص النتائج.

لكي يتلاءم مع الظروف، كان العقيد يتجنب الكلام في الصراع المسلح، كما يتجنب الإشارة إلى تبادل الرصاص والكمائن والمواجهات الدامية التي ينتج عنها جرحى وقتلى. ومهما يكن وزن العداوة وحجمها فإنه كان إذا أشار إليها استعمل كلمة تبدو له أكثر تحضراً وأقل عنفاً: السياسة.

- إن السياسة ذاهبة من سيئ إلى أسوأ يا سيد ناتاريو، ويجب أن نحتاط للأمر ونعد له كل عدة، وإلا قضي علينا، لأنها السياسة الأكثر خطورة.

كان قد تجاوز ذلك التحفظ بقليل في محادثة له مع السركال، قبل أسبوع، وعلى شرفة الصرح الكبير في مزرعة أتالايا، وهو يعلق على الأخبار الأكيدة المتعلقة باستعدادات العقيد "دالترو" الزعيم السياسي، وسيد مزرعة "كاسكافل" التي كانت أغراس الكاكاو فيها تتاخم أغراس مزرعة "أتالايا" وبعدما كانا صديقين وزميلين، فإن العقيدين تحولا إلى عدوين لدودين، كل منهما يعتبر نفسه سيد تلك الأراضي الواسعة، الخصبة، وسيد الغابة الكثيفة التي كانت تمتد من مدخل المنطقة الداخلية حتى ضفتي نهر الأفاعي.

- إن الجار قد فقد رشده وأرسل في طلب مستزلمين، حتى من "الأغواس"، وأصبح يملك من المقاتلين أكثر مما يمكن حصره.. فانتبه جيداً يا سيد ناتاريو.

- إني منتبه جيداً يا حضرة العقيد.

- فإما أن ننتبه جيداً، ونضع خطة، ونسلح كميناً كبيراً، وإما أن نفقد كل شيء.. وعليّ أن أظل أعمل في السر، ففي معركة مواجهة مباشرة لا نستطيع عمل شيء مع الجار - كان يقول "الجار" حتى لا يتلفظ باسم عدوه.

ظلّ يفكر في تلك الإيماءات الغامضة لأنه لم يكن قد وضع مخططه بعد، و لم يكن قد تخيل الكمين. فقط في إيلايوس وعى التفاصيل جيداً. إذاً، كيف كان ممكناً أن يشير "السركال" إلى مكان محدد، وأن يجيب عن قلقه، وعن السؤال الذي لم يطرحه بعد!

إنه مكان مناسب جداً. أحس العقيد بوافنتورا بقلبه يزداد خفقاناً: هل يكون ناتاريـــو موهوباً في قراءة الأفكار؟ عندما يكون الأمر متعلقاً بالدم الهندي فلا أحد يـــستطيع أن يجزم. لقد تكلم السركال، بالتحديد، عندما كان العقيد يجهد نفسه مفكراً في الضرورة الملحة لإيجاد مكان مناسب يسلح فيه كميناً، وهذه هي العملية الرئيـــسية في الخطـــة التي يجب وضعها سراً. كان ناتاريو قد أجاب مباشرة على تفكيره، وقبل أن يفتح العقيد فمه ليعلن عن القرار المأخوذ:

- مناسب لأي شيء يا "ناتاريو"؟

تمطـــت الابتسامة قليلاً على ثغر المملوك. لولا عيناه الثاقبتان الصغيرتان لبدا شكله وديعاً مسالماً أقرب منه إلى البساطة. وحدهم الذين عرفوه عن كثب والذين رأوه يتـــصرف في اللحظـــات الحاسمة يعرفون كم كانت طاقته كبيرة على القرار والتفكير، وكم من الرجولة والقدرة على القيادة تتلطى وراء ذلك الوجه الجميل.

- لإقامة كمين كبير يا حضرة العقيد، لا أعرف مكاناً أنسب من هذا.

إنهـــا الـــصدفة، بلا ريب، وليس من تفسير آخر، الأهم من كل هذا هو أن ناتاريـــو، إذا كان متكهناً بما في عقول الآخرين من أفكار، فلم يبقَ أمام العقيد من اختيار سوى أن يرسل أحداً لتصفيته.. ولكن مثل هذا القرار سيكون مبعثاً للأسف الـــشديد إذ ليس بالإمكان العثور على سركال بهذا الاقتدار في الطرائق وبلا عمل يقوم به.

كـــان ناتاريو قد بدأ يخدم العقيد منذ أكثر من خمسة عشر عاماً، وبإخلاص وضع على محك التجربة أكثر من مرة: ففي الصراعات السابقة كان قد أنقذ حياة العقيد بمناسبتين.. وعندما كان قد وصل إلى أتالايا يطلب ملجأ بعدما قتل تاجراً في سوق بغاء "بروبريا" فإنه كان شاباً أجرد لا يعيره أحد أهمية.. أما اليوم، فإن اسم ناتاريـــو يمـــلأ الدنيا، فيحترمه البعض وينظرون إليه بوقار، ويكرهه البعض الآخر، ولكن الجميع يخشونه: عندما يفتح فمه ليتكلم يخيم الصمت للإصغاء إليه، وعندما يـــشهر سلاحه ترى واحداً يصرخ "نجنا يا الله" والآخر "فليسلم بنفسه من يستطيع سبيلاً.

مقابل التفاني في الخدمة، وعده العقيد بوافنتورا بقطعة من الأرض مسجلة في الدائرة العقارية ليزرع فيها ناتاريو بستاناً من الكاكاو ويؤسس له مزرعة، وسيفي

بالـــوعد ما إن تخمد الضجة. لم يندم العقيد على وعده: سواء تكهنت جيداً أم لا، فإن ناتاريو يستحق ما وعد به.

– أي مكان يصلح لتسليح نقطة مراقبة – كان العقيد يتجنب استعمال لفظة "كمين" – ويكفي أن يكون هناك شجرة في موقع ملائم ومراقب من ذوي الرؤية الحادة وجيد التصويب.

ازدادت شفتا ناتاريو افتراراً:

– سيادتك على حق ولكني أتكلم عن كمين كبير هو ما نحن بحاجة إليه. لقد سمعـــت الكثيرين يقولون إن الرجال الذين تعاقد معهم العقيد دالترو سيقدمون إلى إيتابونا خلال هذه الأيام، وربما اليوم أو غداً.. إن عددهم يفوق العشرين.

ورفع صوته:

– جذع شجرة ورجل واحد لا يكفيان.. لا يا سيدي.. لا يكفي.

كانا يرافقان تحركات العقيد دالترو وتعاقده مع المرتزقة، وقد جاء بعضهم من أمـــاكن بعـــيدة بعدما تمّ اختيارهم بالأصابع ليكفلوا تسليم المحامي الصغير رئاسة الـــبلدية بعدما تمّ انتخابه شكلياً، ومع غضّ المحافظ نظره.. بحق الشيطان لماذا كان المحافظ طرفاً في ذلك النـــزاع الذي يعنيهم وحدهم، هم أسياد المنطقة، لماذا يحشر المحـــافظ أنفه ويأخذ القرار ما لم يكن مخولاً بذلك؟ لم يكن العقيد بوافنتورا يرغب في خـــلاف مع المحافظ، ولكن رئاسة بلدية إيتابونا موضوع شخصي وعلى العقداء تقريـــره، بالحـــسنى أو بالإكراه، بالاتفاق لا باللجوء إلى السلاح، ومن هو أقوى وأكثـــر معـــرفة فسيعيّن المرشح الذي يريده.. مع ذلك، ولكي يعطي الأمر الواقع شـــرعية، لا بـــدّ من إجراء انتخابات شكلية يجب أن تتم بعد القرار لا قبله.. أما الجار وقد اعتبر نفسه عليماً فإنه قدم التاريخ وأعلن المحامي الصغير فائزاً وهو مصرٌّ الآن على تسليمه رئاسة البلدية. إنها خدع مبتدئين يكرهها العقيد بوافنتورا.

بعد اجتياز منحنى النهر، أوقف ناتاريو مطيته:

– لـــيس ممكـــناً الصعود امتطاء، يا حضرة العقيد، فليس من ممر إلى هناك..

تـــرجلا وتركا المطيتين في عهدة اثنين من المرافقين، وتناول ناتاريو فأساً راح يقطع بها العوائق النباتية ويفتح ممراً أمامهما.. كان المزارع الكبير بجسده النحيل يتمسك بالأغراس ذات الجذور الشرسة أو يتشبث بالحجارة الثابتة، فهل يستحق الأمر كل

هـــذا العـــناء؟ ولكـــنهما عندما وصلا إلى أعلى الهضبة لم يستطع العقيد أن يخفي دهشته وقد ترامى أمامه ذلك الامتداد المنبسط والوادي المتسع على ضفتي النهر، يا إلهي، أي منظر هذا المنظر الرائع، بهجة الأنظار.

– إنه المكان الأجمل في هذا العالم.

هزّ ناتاريو برأسه موافقاً:

– سأقيم بيتي هنا يا حضرة العقيد حين تنتهي المعركة وتفي بالوعد.. المكان ســـيتحول في يـــوم إلى مدينة.. وهذا أكيد، لا لأني سأقيم هنا، بل لأنه أمر لا بدّ منه..

كان ينظر إلى البعيد ويبدو كمن يرى أبعد من الأفق وأبعد من الزمن.

مـــرة أخـــرى وجد العقيد نفسه فريسة الشك: هل يكون هذا المملوك عرافاً بالمـــستقبل؟ ربما يكون دون علم منه بنفسه: كانت هنالك حالات علمت السيدة أرنـــستينا بأكثـــر من واحدة منها.. وكذلك أدريانا كانت تؤمن بالتخاطر والتنبؤ بالمستقبل، وفي هذا، كانت الاثنتان الزوجة، والعشيقة، متشابهتين، وأي فرق في ألا تكونا متشابهتين في الأمور الأخرى؟

وتابع ناتاريو:

علمـــت بـــأن المرتزقة الذين أرسل العقيد دالترو في طلبهم سيمرون من هنا ليصلوا إلى النهر دون أن يقتربوا من أتالايا. هل ترى ذلك المنفذ يا حضرة العقيد؟ لـــيس من منفذ سواه.. وإذا سمحت فأعط أوامرك وسأكمن هنا، في الأعلى، مع حفـــنة من الرجال وأكفل لك أن وضيعاً واحداً منهم لن يصل إلى إيتابونا.. مكان أنـــسب من هذا لنصب كمين كبير لا يمكن أن يكون، يا حضرة العقيد. يكفي أن نـــصوب من هنا، من الأعلى، ونفتح أبواب الجحيم ليدخلها اللصوص. ابتسم: – يا حضرة العقيد، يبدو أن الله قد خلق هذا المكان، عمداً، لمثل هذا الغرض.

أحـــس العقـــيد بوافنتورا بخفقات قلبه تتضاعف.. ما عدا القوى الخارقة، فإن في ناتاريـــو مـــا يقلقه أحياناً: بالله عليه، بأي هدوء يجعل من الله شريكاً وحليفاً للعقيد! الحمد لله إن العقيد لا يزال يحتفظ به للخدمة، لأنه يعادل عشرة رجال واقعاً، وخيالاً.

– إنك ولدت لتكون عسكرياً يا ناتاريو.. لو أنك التحقت بالجيش ووقعت الحرب لكنت انتهيت إلى تعليق شارات ضابط كبير.

– إذا كان هذا ما يبدو لك، يا حضرة العقيد، وإذا كنت ترى أنني أستحق، فاحصل لي إذاً على رتبة نقيب.
– نقيب في الحرس الوطني؟
– لن تندم على ذلك..
– أجـــل، إني أعدك.. سأحصل لك على هذه الرتبة قريباً. ويمكنك أن تعتبر نفسك نقيباً منذ الآن.
– النقيب ناتاريو دا فونسيكا في خدمتك يا حضرة العقيد.. مكان أنسب من هذا لا يمكن أن يكون.

3

قبل مغادرة المزرعة، أمعن ناتاريو النظر في تفحص البنادق الطويلة والأخرى ذات المقابض القصيرة، والمسدسات: أسلحة من الطراز الأول تمّ اختيارها بالمعاينة الدقيقة وشراؤها بالذهب الموزون.. مزينة جيداً وجاهزة للاستعمال.. عمل وأعاد عمـــل كل الحسابات، وبحرص شديد على تجنب أي شيء غير مرتقب.. ليس في استطاعته تقديم الأعذار، وأكثر من ذلك فهو لا يريد أن يخضع لمحاسبة مشكوك في أمره.. لقد أكد للعقيد بوافنتورا أن أي وضيع يخرج من مزرعة كاسكافل لن يمكنه مواصـــلة الطـــريق إلى إيتابونا، وها هي كلمة وعده ورتبة النقيب في الميزان.. أما العقيد فقد ذهب ينتظر النبأ في إيلايوس.

الأمطار الغزيرة لم تنقطع عن الهطول منذ أسبوع. وأصبح السير في الطرقات التي تحولت إلى مستنقعات أمراً عسيراً، واجتياز الفرسخ الواحد أصبح يعادل الثلاثة في الأيام العادية. ومع نيته في اختصار مدة بقائه في الكمين فقد مكث ناتاريو ينتظر نبأ إعطاء العقيد دالترو الأمر للزمرة المسلحة ليبدأ تحريك الرجال.

تأخـــر النـــبأ في الوصول، إلا أن المحكوم عليهم بالموت كانوا قد أخروا بدء المـــسيرة مـــن كاسكافل مدة يومين وهم ينتظرون عبثاً أن يهدأ الإعصار الهائل. الأمطـــار ازدادت غـــزارة و لم يعد لديهم سوى مواجهة الرحيل في تلك الظروف الـــسيئة: كانوا مستعجلين لأنه يتوجب عليهم أن يصلوا في تاريخ معيّن.. وإذ نفد صـــبره فإن العقيد دالترو حضر وأعطى أوامره الأخيرة لبريللو: في إيتابونا يجب أن

يقـــدم نفسه للأستاذ كاسترو، ويضع الجميع تحت أوامر الأخير.. أما ما هو متعلق بالـــرحلة فإن كوروبينيا سيكون الدليل: عداء صياد، وكشاف مجرب يعرف تلك المجاهيل شبراً شبراً، وسيجعلهم يمرون بعيداً عن الحدود المتماسة مع مزرعة أتالايا.. كـــان قد تمّ تحضير تلك الإرسالية بتكتم شديد كيما لا يبلغ خبر عنها إلى مسامع العقيد بوافنتورا أو جماعته..

وإذ أبـــاح بالسر لبريللو وكوروبينيا فإن الباقين لم يكونوا على علم بالمكان الـــذي يسافرون إليه، فهؤلاء مرتزقة يدفع لهم ليقاتلوا وليسوا بموضع ثقة أو ذوي أهلية للقيادة، وبقدر ما يقل علمهم بالأمور يكون أفضل له.

– مـــاذا حـــلّ بـــك يا بن الله؟ – قال بريللو لكوروبينيا عندما بدأت تظلم فانحـــرفوا عن الطريق باتجاه المنفذ الوحيد إلى هدفهم: – هل ترى عصفوراً أخضر أمامك؟ أو أنك خائف؟ ومن أي شيء تراك خائفاً؟

– إني أضع على أنفي بعض الطين حتى لا أضيع الاتجاه..

كان ممكناً أن يكون جدياً.. فالطين يعود ويتجمع ليمحو الآثار التي يجب أن تتبعها الخيول باتجاه النهر. كان كوروبينيا ينحني ويشم الأرض وينطلق إلى الأمام. كـــل خطوة كانت تقتضي جهداً، وعلى الظهر أحمال متعبة.. كان بريللو قد اتفق مـــع العقيد دالترو على المكان الذي سيقضون فيه الليل من ناحية الجسر الصغير، وســـيكون صعباً الالتزام بالاتفاق.. الليل يهبط وهم تائهون في تلك الغابة العذراء تحـــت رحمة حاسة شمّ الكشاف وقد راحت تضعف أكثر فأكثر.. أما بريللو وإذ اشتبه بكوروبينيا فقد استنفر نفسه بنظرة حادة وأزمع على تأديبه بقتله.

في هذه الأثناء كان رجال العقيد بوافنتورا أندرادي قد اتبعوا الطريق الصحيح في هـــبوطهم ومع ذلك كانت المسيرة متعبة. كانوا قد وصلوا في الوقت المناسب لتسليح الكمين والبقاء في الانتظار.

4

المسامع المتأهبة للإصغاء تحاول أن تميّز وقع الخطى، وسط العاصفة، من عويل الـــرياح ودوي الرعد وتكسر جذع ضخم أدركته الصاعقة أو قلعته العاصفة. أما المقاتلـــون، مختبـــئين، ملتفين بالمشالح، موزعين خلف الشجر، عند أعلى الهضبة،

فكانوا ينتظرون متوترين.. بالرغم من تعودهم تمضية الأوقات الطويلة في الكمائن، متكـــيفين مع المخاطر، متعايشين مع الموت، بالرغم من كل ذلك لم يستطيعوا أن يخفـــوا انـــزعاجهم من منازعة غضب الطبيعة في قفا الدنيا.. يحاولون المحافظة على الهـــدوء، ويتحينون لحظة الانقضاض، أما الخوف الأكبر فكان يعتريهم من ناتاريو: إنهم يستطيعون أن ينقذوا أنفسهم من الإعصار، ولكنهم إذا أرادوا أن ينقذوها من رصاصة السركال فأمر مستحيل وإن بأعجوبة.

بعـــدما تمّ تـــسليح الكمين وتعيين مركز كل واحد من المقاتلين حدّد ناتاريو كيف ومتى يدخلون في العمل، وفرض الصمت مشدداً على تحميل المسؤولية حين تـــبدأ المعركة: الويل لمن يخطئ في التصويب.. بعد ذلك ذهب ليتخذ مكانه حفرة طبيعية قرب جذع مولونغو، حيث يسيطر على الوادي بأكمله.

شـــهر مـــسدسه "البارابللو" واستوى متأهباً دون أن يأتي بحركة. إن عليه أن يطلق الرصاصة الأولى إشارة لسائر الرجال ليفتحوا النار، وعقاب الموت سينال في الـــبدء مـــن بـــريللو، رجل المسدس الذي تمّ استئجاره من الأغواس، ذي الشهرة المعروفة بالانحراف، وهو الذي يقود الحملة.. بعد بريللو سيهتم النقيب بكوروبينيا الكـــشاف، إذا أفلـــت هذا من الرشقات الأولى، أو إذا تمكّن من الإفلات من الهر الشرس بريللو إذا اكتشف الأخير خيانته. لم يكن النقيب يشعر بأي شعور إنساني تجـــاه كوروبينـــيا بالرغم من معرفته به منذ سنوات طويلة: كان كوروبينيا يخدم السيدين في آن واحد، ولأنه يبيع نفسه فإنه لا يستحق المواساة.. لقد ولد وشبّ في مـــزارع العقـــيد دالتـــرو وغدا موضع ثقة وتقدير الأخير، ومع ذلك راح يعطي معلـــومات ثميـــنة لعدوه مقابل حفنة قليلة من المال: إن عدد القافلة ستة وعشرون فارســـاً؛ جيش كامل؛ وأعطاه معلومات عن الأسلحة التي يحملونها والوقت المحدد للانطـــلاق.. واتفـــق معه على أن يقلّد نعيب البوم عندما تقترب القافلة كإشارة للكامنين هناك؛ وقد يفي بالوعد، وقد لا يفي.

أرهـــف ناتاريو سمعه محاولاً أن يتبيّن ضجة مشكوكاً في أمرها: لعله غصن تمّ كـــسره لينفـــسح مجال المرور ورافق وقع الفأس الكبيرة صوت فلغط - كانوا قد وصـــلوا إلى المنفذ وأصبحوا غير حريصين لأن الخطر قد أصبح خلفهم على تخوم مـــزرعة أتالايا البعيدة.. وربما استطاع ناتاريو أن يسمع نعيب البوم ولكنه شك في

ذلك. من المؤكد أن كوروبينيا عندما يصبح على مقربة من هناك سيفر هارباً، فهو صياد لا شفاء منه، ويعرف مخابئ ودروباً فرعية عديدة.. هكذا تخيل، وهكذا حدث فعلاً.. لو أنه وثق بيهوذا لأضاع لحظة الهجوم.. إن ناكر الجميل لم يفِ بوعده.

الأسماع مرهفة. ناتاريو تكهن بوقع الخطى في الطين والدوس الحذر.. أشار بيده إلى الآخرين.. حدّق، وعلى ضوء البرق لمح بريللو. حرّك ناتاريو مسدسه؛ لم يتهور؛ ترك المتولد يتقدم إلى أن أصبح المرافقون على المرمى الأكيد.. تجهم ناتاريو: بحق الشيطان لماذا يشهر بريللو ابن الزانية مسدسه ويتطلع بحذر، مستجلياً الأماكن المجاورة باهتمام؟

رفع بريللو نظره إلى أعلى متبيناً الأمور بدقة. امتدت ذراع ناتاريو متمهلة – عن إذنك يا حضرة العقيد – وصوب إلى الرأس.. ثم اندلع تبادل إطلاق الرصاص في أعلى الهضبة.. اللغط والارتباك سادا المكان. في الأسفل المرتزقة يردون على الرصاص عبثاً ولا يعرفون في أي اتجاه يسددون.

مذبحة كما أكد العقيد دالترو. لم يكن لديه أي علم بوجود كمين بهذا الحجم، حتى في الصراعات الأولى بين آل باسيليو وبادارو.. وكان ذلك الكمين ليبقى في التاريخ: توكايا غراندي.

5

لم ينجُ أحد من أزلام العقيد دالترو المشهورين بحمل السلاح وقد جيء بهم من سرجيبي ديل راي، أرض الرجال الشجعان، ومن الأغواس أرض المحترفين. فعندما هبط المقاتلون من الهضبة، متبعين ناتاريو، لم يكن لديهم غير القليل من العمل وهو الإجهاز على الجرحى، أو القضاء على البعض ممن تسلقوا الأشجار تفتيشاً عن ملجأ، ومن أعلى الأشجار دفعوا غالياً ثمن الحياة التي حاولوا النجاة بها.. وكان على مقاتلي ناتاريو أن يضطهدوا اثنين أو ثلاثة ممن كانوا يزرعون الرعب حيثما وصلوا.

بعدما انتهى إشبيريداو الزنجي من اصطياد أولئك، عثر على جسد كوروبينيا، قرب صخرة حاول أن يختفي خلفها بالتأكيد: عندئذ فهم ناتاريو لماذا كان بريللو شاهراً مسدسه ويسير بحذر وغيظ.

تمّ تمزيق جسد كوروبينيا بالسكين، واقتلعوا قلبه وخصيته، وهذه عادةً كانت تروق كثيراً للمرحوم "شهم" الأغواس.. لقد رأى ناتاريو أن تصفيته عدل.. ولو لم يقتله بريللو لكان هو نفسه ناتاريو من سيقوم بالواجب.. ووافق على استعمال السلاح الأبيض لأن من يجعل الخيانة عمله لا يستحق أن يموت بالرصاص.. ولكن ناتاريو لم يكن يوافق على المُثْلَة (العقوبة): إن القضاء على خائن بالرصاص أو بالطعن، شيء، والتمثيل بالجثة شيء آخر، مختلف تماماً.

لم يسمح ناتاريو بأخذ الأسلحة المستعملة ذات الفائدة المحدودة.. ومع اشتداد الظلام غادروا المكان.. وعاد الرجال بأمر من الزنجي إشبيريداو إلى مزرعة أتالايا..

أما ناتاريو فقد اجتاز الجسر الصغير وتابع المسير إلى محطة السكة الحديد ومن هناك أبرق بالصيغة المتفق عليها، ولكن مع تبديل صغير في التوقيع: فبدلاً من ناتاريو: النقيب ناتاريو.

عندما بلغ منحنى النهر، نظر إلى الوراء وقد تذكّر أمراً. لم يعد يتذكر تبادل الرصاص والأجساد الممزقة، ورأس بريللو المهشم، وكوروبينيا مسلوخاً بالسكين وقد اندفع قلبه إلى خارج صدره.. كان يحمل في عينيه وذاكرته المنظر الليلي وسط الإعصار: المرتفعات، والوديان مغمورة بالمياه، والنهر ببطن منتفخة كأنه حامل، فيا للروعة! مكان أجمل من هذا، ليلاً أو نهاراً، مشمساً أو ممطراً، لا يمكن أن يكون.. ومكان للعيش أجمل منه: لا يوجد.

فنتورينيا، الطالب في كلية الحقوق، يبدأ الحياة العامة

1

قـــدم فنتورينيا لقضاء عطلة القديس يوحنا، لدى وصوله بوجهه الذي يطفح حماســـاً، وضحكته السهلة المعبرة عن الرضى، وبعدما عانق ناتاريو في محطة سكة حديد تاكاراس، علّق بقوله:

– العقيد دالترو إذاً، قد خلع بنطاله وطلب الصفح.

وصحح السركال:

– إن رجـــلاً بمـــستوى العقـــيد دالترو لا يطلب الصفح يا فنتورينيا، بل الهدنة..

لم يكـــن ناتاريو ليمتنع عن قول أي شيء أمام ابن السيد.. ففنتورينيا لم يكن قـــد أكمـــل التاسعة من عمره عندما التحق ناتاريو بالمزرعة وأصبح تابعاً للعقيد.. وتعلـــق الفـــتى بالمستزلم الجديد وراح يسافر معه رديفاً على سرجه، متعلماً تقليد أصـــوات العصافير واستعمال السلاح. أما الفتاة الأولى التي تعاطى معها فنتورينيا فقـــد كانت بدفع من ناتاريو وهي البيضاء البشرة جوليا المتجولة بلا حقائب من ريف إلى ريف وأفضل منها مواصفات لم تكن سوى المدهشة فورموزا.

– كذا أو كذلك – بعدما امتطى مطيته واتخذ الطريق – فإن العقيد دالترو قد تمّـــت تـــصفية زعامته السياسية. ولكن حظه الكبير هو في كونه قد ذهب ليعالج الموضوع مع الختيار ذي القلب الطيب.. لو كان الأمر منوطاً بي لكنت أنهيت مرة واحدة هذا الوضيع، ولكنت أتلفت مزرعته وأحرقت أشجاره وتركته وبيده وعاء يطلب الحسنة.. ولكن والدي رقّ قلبه ووهن.. ألا تعتقد أن الختيار كان يجب أن يمضي حتى النهاية ليستفيد من المناسبة؟

لم تتغير نبرة صوت ناتاريو الذي يعرف جيداً الانفعالات السريعة لدى الشاب:

– ممكـــن أن يكون، وممكن أن لا يكون.. ولكنك تكون مخطئاً إذا اعتقدت بأن العقيد لم يمضِ حتى النهاية لطيبة قلبه.. لم تكن طيبة، لا بل حكمة. نحن بأمس الحاجـــة إلى السلم حتى نهيئ الغابة لزراعة الكاكاو، وهنالك مساحات شاسعة يا فنتوريـــنيا: ولـــو أن العقيد بوافنتورا وضع النار في مزارع العقيد دالترو لكنا اليوم نقاتـــل نصف العالم في معركة موت أو حياة.. إن أباك يعرف ما يفعل، ولهذا تراه في الأعلـــى آمراً ناهياً. في ساعة المعركة لم يضعف ولكنه لم يشأ أن يعلم شيئاً عن الاتفاق.. والناس لا يجب أن تقاتل إلا عندما لا يعود هنالك طريقة للعيش بسلام.

– أأنـــت الذي تقول هذا؟ أأنت الذي قضى حياته بإصبع على الزناد؟ أأنت ناتاريو "سركال" العقيد بوافنتورا؟

ابتسم ناتاريو وكادت عيناه الناعستان أن تغمضا:

– صـــحيح أنـــك أوشكت على إنهاء دروسك في الكلية وعما قريب تصبح محـــازاً ولكن بقي لك الكثير لتتعلمه.. على كل حال لكل حادث حديث، ولكل ســـاعة فعلها: وقت لإطلاق الرصاص وآخر للتفاوض.. قل لي: إن فنتورينيا الآن سيبدأ بإثبات جدارته، وفي هذه المرة هو الذي سيحل كل المشاكل، وسأرى كيف سيخرج من هذه الإشكالات.. يجب أن لا تنسى أن كل الناس في إيتابونا تقرأ في كتاب العقيد دالترو، فواحد عرّاب، والآخر فليون، وثالث ابن بالتبني، كما أنك، هـــناك، لن تتكلم عن إشعال النار في البساتين وإلا أضعت كل شيء.. إنك شديد الحماس فوفّر حماستك لتصرفها على الفتيات.

– للكلام عن الفتيات فأنا لن أخبرك يا ناتاريو – ولكنه بدأ يخبر.

لم يكـــن ناتاريو قد أطلع فنتورينيا على قرار العقيد أن يرسل الابن للتفاوض بدلاً منه، لأن الأمور الصعبة قد تمّ حلها، والنقاط الرئيسية من الاتفاقية قد حددت وتمّ التواضع عليها.. فالمكاسب سيتم تسجيلها رسمياً، وسيلغى الانتخاب كما سيتم اختيار مرشح جديد لمدة جديدة.. بالرغم من ذلك فإن المرشح يمكن أن يكون هو نفـــسه المحامـــي الذي يدعمه المحافظ.. كان العقيد قد استعرض الأمر مع ناتاريو، معلقاً على الترشيحات الأخرى المحتملة:

– ألا تريد أن تكون رئيس بلدية إيتابونا، يا ناتاريو؟

سأل فنتورينيا وهو يضحك للفكرة الفريدة.

ولكن ناتاريو لم يضحك، بصوته الرخيم:

رئيس بلدية إيتابونا؟ لا، لا يا سيدي.. لا أريد أن أكون.. من هو أقل نفوذاً وأضعف قراراً في إيتابونا إنما هو رئيس البلدية.. بالأمس كان يحكم هناك العقيد دالترو، واليوم، فمن يأمر هو سيادتك.. أما أنا فعندما أحكم مكاناً وإن يكن المكان حفرة في آخر الدنيا، فإن من يأمر هو أنا.. أنا ولا أحد آخر.

2

كان طلب "رتبة نقيب" قد أنجز وتمّ تقديمه إلى مديرية شرطة الحرس الوطني في السريو دي جانيرو، ولكن الرتبة لم تكن قد وصلت بعد، مما لم يمنع التعامل مع ناتاريو كنقيب منذ أن تولى مهمة تنفيذ مخطط السلام بكل تفاصيله في إيتابونا.. لقد أضاف الأجراء والأزلام اللقب إلى اسم ناتاريو، وكذلك فعل التجار والمزارعون والمحامون وموظفو قصر العدل، ابتداء من قاضي الأمور المستعجلة، ومع كل الاحترام الواجب للوظيفة والشهرة.

وفي رسالته إلى القاضي التي حررها بمساعدة ابنه فنتورينيا، فإن العقيد بوافنتورا أندرادي طالب باستحقاقات ممثليه ومكافأتهم.. كان العقيد يكتب ويقرأ بصوت عالٍ ما يكتبه بينما فنتورينيا وناتاريو يصغيان:

- ابني، الطالب في الحقوق.

وقاطعه الشاب:

- "الطالب في الحقوق"؟ لا يا أبي.. إني في السنة الأخيرة من الدراسة وفي كانون الثاني/يناير المقبل سأتخرج، فأنا إذاً مجاز في الحقوق، وقريباً "عليم"

- "أقول المجاز بوافنتورا الابن

- الابن، يا أبي، لا... ضع الأصغر، جونيور، هكذا أنا في الحقيقة.. وكلمة جونيور أحدث، عصرية..

- بالنسبة لي "ابن" وكفى. لقد كتبت ولن أجازف بغير هذا، أنا أيضاً لا أحب الغرائب.. أنت لست ابن سفاح، إنكليزي أو سويسري: - أقفل الجدال وتابع القراءة والكتابة: - "والنقيب ناتاريو دا فونسيكا، الملاك الريفي، وذراعي اليمنى..."

نقيب وملاك: إن العقيد لم يبدُ عقوقاً أو وضيعاً...

ولكي يمنح ناتاريو الأراضي الجديدة فإن العقيد طلب تسجيل بعض الدونمات في الدائـــرة العقارية باسم ناتاريو، وما هو كاف لزراعة الكاكاو.. وهذه الأراضي لم يكـــن ممكناً مقارنتها بثروة العقيد، أحد أكبر المزارعين في المنطقة. ولكن ذلك كـــان بداية جديدة لحياة جديدة. لم يبدُ العقيد وضيعاً. وعلى العكس بدا كريماً، وهكـــذا يكـــون منح تلك الغابة العذراء لناتاريو قد تمّ ليلة الكمين الكبير وأصبح ناتاريـــو المالك الحقيقي لها. في المكتب العقاري في إيتابونا، ذهبوا لإعطاء شرعية للأمـــر الواقـــع، خاضـــعين بذلك لشروط المفاوضة القانونية ورغبة العقيد.. أولاً الكمـــين، وثانـــياً المفاوضة، وبتعبير أصح، بالنسبة إلى العقيد: أولاً "برج المراقبة" وثانياً القانون.

كانـــت تـــبدو حملة عسكرية أكثر منها بعثة سلام: خمسة عشر مسلحاً من الـــرأس وحـــتى أخمص القدمين يقودهم الزنجي إشبيريداو. لم يكن مرغوباً فيهم في الحقـــيقة، لأن العقيد دالترو كان قد انسحب من النـــزاع، ووفقاً للإشاعات، فإنه انسحب أيضاً من السياسة متخلياً عن التزاماته السابقة.. الرجال والأسلحة لم تكن أكثـــر مـــن برهان على قوة زعيم أتالايا، وعرض للغنى والقدرة، وذلك، وحسب زعمه، بغية فرض السلام الذي تمّت مناقشته مؤخراً.

كأنـــه العيد في إيتابونا. واحد من هنا يناديه بالنقيب، وآخر من هناك. تمّ كـــل شيء بعناية ودراية فائقتين، وبدا القاضي ناعماً كالحرير وهو يتعامل مع فنتورينيا كزميل، ويرحب به بكلتا يديه الضاغطتين.. أما المحامي الصغير الأستاذ كاســـترو الذي كان مفروضاً ببريللو أن يتقدم منه ويضع نفسه في تصرفه، فإنه كان سيبدو أكثر حزناً وأسفاً لو لم يتم تعيينه رئيساً للبلدية بعد مفاوضة عادلة ومطلوبة.. وتمكّن فنتورينيا من احتواء لسانه وحفظه، ولم يظهر دلائل العظمة كما أنه لم يظهر نفسه بمظهر الشجعان، ولم يهدد السماوات والأرض بمسدسه الألمـــاني - المحتـــرم - التحفة. لم يفعل ذلك حتى عندما تعتعه السكر في الملهى وأراد أن يتحرش علناً بالبرنامبوكانية دوراليسي، صديقة العقيد كابوسو الذي كـــان غائـــباً بالمناسبة والحمد لله.. لقد أقنع ناتاريو الشاب فنتورينيا بتركها وشأنها وذهب إلى الخارج.

في المكتب العقاري لم تلقَ الشكليات التي كان العقيد قد هيأها أية صعوبة في التـــسجيل وتسليم صكوك الملكية التي تضفي الشرعية على امتلاك العقيد بوافنتورا أنـــدرادي لتلك المنطقة الواسعة، وامتلاك النقيب ناتاريو دا فونسيكا لقطعة الأرض الصغيرة.

في الملاهـــي والنــــزل الصغيرة استمرت الحيوية طيلة الليل.. وراح مرتزقة مزرعة أتالايا يفرطون في صرف المال الذي أغدقه الزعيم السياسي الجديد بامتياز، فأصبح الله في الأعالي والعقيد بوافنتورا على الأرض.

بيـــنما تجلس عند فتحة الباب المشرفة على الشارع، فإن "ماريا داس دورس" عـــندما رأت ناتاريـــو يجتاز شارع أمبوزيرو فإنها أشارت إليه بإصبعها وأوضحت لزيزينيا دو بوتيا الآتية حديثاً من لاغارتو:

– "ذلك هو ناتاريو"، "سركال" العقيد بوافنتورا، رجل سيئ، ولا يوجد من هو أكثر عنفاً منه.. هو نفسه لا يعرف عدد الجرائم التي ارتكبها.. وقد لا تصدقين أن هناك امرأة مغرمة به حتى الجنون، فلينجني الله، ويعتقني.. وبصقت باحتقار.

مقوســـة الردفين، وذات صدر نافر، السمراء الساحرة زيزينيا دو بوتيا بالرغم مـــن كـــونها قد وصلت حديثاً إلى المكان فإنها كانت قد اطلعت على الكثير من الأخبار، وأجابت:

– لقد سمعت عنه أشياء تختلف كلياً عما تدعين. وعلمت أن النقيب ناتاريو، الثري، الوديع ذو قلب طيب. ويقال إنه لم يسئ أبداً إلى امرأة.

وتـــنهدت زيـــزينيا مسحورة وهي ترافق ناتاريو بنظرها. لقد كانت زيزينيا دوبوتـــيا، كما يقال، في زهرة العمر والنعومة، يتقاتل الرجال من أجلها. ونادت على الغلام الذي كان منهمكاً بالأكل وهو يجلس على الأرض.

– اركض يا "مانو" في إثر الشاب الذي يسير هناك. اطلب منه البركة وقل له إنـــي بانتظاره، وأنه يستطيع أن يأتي إلى هنا متى شاء، وليس من الضروري أن يأتي معه بمال.

بالنسبة إلى البعض فهو مجرم، ذو قلب يخلو من الرحمة، ولص بلا أحشاء، وبالنـــسبة إلى الـــبعض الآخـــر هو النقيب الشهم ذو الطبيعة الإنسانية الطيبة ومعشوق النساء.

3

قبل أن يغادر المزرعة ليذهب إلى إيلايوس ويمضي أيام العطلة الأخيرة مع الوالدة السيدة أرنستينا شفيعة كل الفضائل، فإن فنتورينيا أراد أن يتعرف إلى المكان الذي وقعت فيه الواقعة، ويريد أن يرى بعينيه، ويعلم العلم الأكيد، معطياً التفاصيل قيمتها.

وإلى هناك أخذه ناتاريو:

– إنك سترى منظراً طبيعياً هو هبة السماء..

بين أحجار المقبرة التي حفرت على عجل كانت الأعشاب قد ازدادت كثافة والغرسات الصغيرة تكاد تصبح أشجاراً، وتفتحت الزهور.. أما أخبار المجزرة التي راحت أحداثها تتضخم من لسان إلى لسان، فإنها اجتذبت الكثيرين من الفضوليين الذين كانوا ينحرفون عن الطريق ويذهبون إلى مكان الكمين. أما المنفذ الوحيد الذي كانت أقدم الحيوانات قد شقته فإنه أخذ يزداد عرضاً مع حركة الزائرين، وتحول إلى درب.. وتفتيشاً عن اختصار الطريق فإن قافلة من البغال المحملة بأكياس الكاكاو كانت الأولى التي انحرفت في ذلك الاتجاه.

جهد فنتورينيا في بلوغ الهضبة جهداً مضنياً، فهو ذو جسم بطيء الحركة، كأبيه، وسريع العطب كأمه. وقف وراء جذع المولونغو الذي أزهر الآن، وشهر مسدسه الألماني وصوب إلى نَبْوَة في الدرب الصغير وفتح النار.. وراح الصدى يتردد في مطبات الغابة الكثيفة.

– لا بدّ من أن المشهد كان مثيراً يا ناتاريو. أليس كذلك؟ إني أشعر بالخوف في هذه اللحظة.

هل سمع ناتاريو ما قال فنتورينيا؟ كان نظره قد ضاع في الأفق والزمن. كل رجل يحتاج إلى بيت يسكن فيه مع زوجته وأبنائه، في المكان الذي يحبه أكثر من سواه، وكان لناتاريو زوجة وأربعة أولاد.

– كان على الختيار أن يضع يافطة هنا، كما يفعلون في ساحة المعركة.

لماذا اليافطة؟ ألم يكن كافياً الاسم الذي أطلقته ألسنة الشعب؟ محلة الكمين الكبير؟ ومع الزمن، وتنامي السكان، غدا الاسم: توكايا غراندي.

موقع لقضاء الليل

إله الموازنة يقود البائع المتجول
فضول عبد الله إلى جنات عدن

1

أشــجار الكاجــا البرية التي نمت فوق المقبرة المحفورة على عجل كانت قد أعطــت ثمارها الأولى عندما اكتشف فضول عبد الله روعة ذلك المكان بعدما تاه في تلــك المجاهــل.. لبناني ذو قامة قوية، وكل شيء فيه أكبر مقاساً من العادي، الــيدان والــرجلان، اتساع الصدر وكبر الرأس والرقبة - كان قد حمل في ملاهي إيلايــوس وإيــتابونا لقب "البزرة التركية"، لكنه في طرقات الكاكاو كان معروفاً باللبــناني فــضول أو ببساطة بالسيد فضول كما يناديه الأجراء الذين توسموا فيه العــناية الإلهية.. وإذ انبهر فضول بروعة المكان فقد تراءى له أنه وصل إلى جنات عــدن الموصوفة في الكتاب المقدس الذي كان يحمله معه في حقيبة "المسقطي" لأنه عــندما تتاح الفرصة أو تقضي الضرورة فإن السيد فضول كان يعمد طفلاً بسعر الجملة.

أنــزل الحقيبة الثقيلة عن كتفه، وقد كانت تزداد ثقلاً كل يوم، ووضع جانباً القــياس المتــري الذي اختزله إلى نصف متر بطيه طيتين متساويتين، والذي كان يستعمله معلناً للأغنياء والفقراء وجود التجارة "والموضة" في تلك المجاهل.

كــان يحمل في الحقيبة من كل شيء: الضروري والباذخ، الأقمشة الحريرية مــنها والمستخرجة، الجيدة والرديئة، والجزم، والكنادر الواطئة الكعوب، والخيوط والإبــر والكــشاتبين، والعقاقير السائلة المصنوعة من المياه الملونة التي كلفها أحد القديسين ووصفات طبية مصنوعة من الأعشاب لمعالجة كل أنواع الحمى.

خلع سترته وقميصه وبنطاله وسرواله، فظهرت على ظهره آثار الحقيبة المعلقة علــى كتفيه ثم نــزع نعليه وغطس في ماء النهر الذي كان يتسع في تلك الناحية مشكلاً حوضاً من المياه العذبة النظيفة المتجمعة فوق حجارة بركانية سوداء.. سبح

واستمتع بالمياه وهو يلاعبها بيديه كما كان يفعل في طفولته عندما كان يسبح في النهر في قريته ومسقط رأسه.. ولاحظ فضول أوجه الشبه بين المكانين، ما عدا أن أشجار النخيل التي كانت تنمو هناك في السفوح والوديان لم تكن مثمرة.. وقضى على جوعه وهو يلتهم الكمثري الفائحة الرائحة العطرة، من الفردوس، وهبة الله، إله الموارنة.

وكانت ثمار الكاجا منثورة على الأرض تحت الشجرة التي تفيأ في ظلها هرباً من الشمس.. ولملم بعض الثمار وهو يضحك لنفسه عارياً.. تذكر نفسه يافعاً متدثراً بالجلابية وهو يقطف التمر: إنه الآن كبير جداً، وحر لا يقيده شيء.. عندما غادر لبنان كان قد أكمل الخامسة عشرة.. وطعم الكاجا حامض ومز، ومختلف جداً عن طعم التمر المعسل، لكنها كلها ثمار وقد خلقها الله ليتمتع الإنسان بتذوقها.

كان فضول قد تعلم أن يؤمن بالله على يد عمه سعيد عبد الله الكاهن الماروني المشهور بنصائحه وشهيته للطعام.. وكانوا يأتون إليه من البعيد ليستشيروه، ويجيئونه بالتمور والعنب التي كان يأكلها كمشات بيده وهو يحل المشاكل العالقة ويبشّر بمواسم الحصاد بينما عصير العنب يسيل على لحيته الطويلة السوداء.

كان قد تغيّر كثيراً خلال خمسة عشر عاماً، فلم يعد يعرف عمه، وقد لاحظ فضول ذلك وهو يمضغ الكاجا حبة تلو الأخرى؛ لقد تغيّر من الداخل والخارج وأصبح يفضل الكاجا على التمر وأما العنب فلا ينقصه.. لقد عاد ليولد من جديد في تلك الأحراج، والفتى الذي كان يرتدي الجلابية بقي وسيبقى إلى الأبد من الناحية الثانية للبحر.

لقد قسم الله حياة البشر إلى واجب ومتعة، وبكاء وضحك، أما المتعة التي لا حدَّ لها في أن يكون حيث هو الآن، يمتص الكاجا عند الأصيل، ويصغي إلى زقزقات العصافير فهي إحدى روائع الله وها هو يرتاح هناك من نضال الأسابيع الأخيرة ومن تعب المسيرة التي لا نهاية لها، ومن الأخطار المحدقة به في كل لحظة، والبائع المتجول مع حقيبته لا يعرف يوم أحد أو يوم عيد. إن الله قد أضله السبيل في ناحية الشمال ليكون له يوم يرتاح فيه وينظّف جسده وروحه.

لماذا لا يبقى هناك، في ذلك الوادي الساحر، كما الحيوانات التي تستدفئ الشمس، أو تغط فوق الصخور. كان قد تعلم أكل لحم العرانيق وتذوقه وهو يمص أصابعه بعد أكله.

الطعام وفير، وهناك الكثير من الصيد والثمار، والمياه النقية تهبط من الينابيع، إنها الجنة! ضحك فضول عبد الله ضحكة عالية، مدوية، تليق بهامته العملاقة فأقلقت الضحكة البغاوات والقرود.. في هذا الفردوس كان ينقص الشيء الأساسي وهو المرأة.. عندما فكّر في المرأة خطرت له زيزينيا التي كانت في تلك الساعة تركب له القرون في إيتابونا.. إنه لا يستطيع أن يفرض عليها أن تقفل مطارحها، فهذا ابتزاز، ومن أجل أي شيء؟ ألأنه ترك لها في لحظة مجون قطعتين من فئة العشرة آلاف ريس، ومرآة مذهبة الأطراف لتنظر إلى نفسها متنهدة، لا.. لقد كانت تضحك في وجهه وتقول:

– لبناني ابن ملعونة، أكل البصل النيء..

– لبناني؟ لا.. حسني لفظك.. "بزرة – تركي؟ يا جميلتي، عبدك وسيدك..

لقد كان صاحب موهبة في المزاح ومن المؤسف أن لفظه لم يكن يساعده.

2

أحب فضول المكان الذي قضى فيه ليلته. كان قد جمع حطباً وأشعل النار ليبعد الأفاعي، وارتدى سرواله وقميصه ثم تمدّد فوق الأوراق اليابسة. تأخر لينام وهو يفكر. على ضفة النهر كانت العصافير الاستوائية تزقزق مؤذنة بطلوع القمر.

وصل إلى البرازيل منذ خمسة عشر عاماً وكان قد جاء ليعمل ويثري.. إن الإثراء هو هدف كل الرجال، ولبلوغه، فقد منح الله الإنسان روحاً وذكاء؛ البعض يؤدون الرسالة، مجازفين، عملاً بوصية الله، ويربحون ويستقرون، والبعض الآخر يفشلون: روح ضعيفة، ذكاء محدود، أو تفرغ قليل للعمل مع الكثير من سوء التصرف والكسل. وكان فضول يمسك في يده بالمثل الحي على ذلك. وعند طاولة القمار في فندق كويليو في إيلايوس، هناك ألفارو فاريا الروح الطيبة، الشجاع الصقر في الذكاء، الذي لو أراد لتمكّن من أن يكون عقيداً كأخيه المليونير الثري الذي يملك عمارات ومزارع كبيرة. ولكنه لم يكن أكثر من عاطل عن العمل ومتسكع لا حول له ولا

قوة، ويعيش على "الله يعطي". ولولا مائدة العرّاب جوان الغنية، والحظ في القمار وهو حظ يستدعي الشكوك والتحفظ والدهاء في الاحتيال، لمات جوعاً.

حتى الآن، عمل فضول كحمار يحمل الأثقال، يضرب في الأفق يائساً، وهو يجتاز المجهول ويواجه المخاطر، من الأفاعي، وأنواع الحمى، وتهديدات المجرمين، والقتلة ببرود.. في تلك التجارة الجوالة، فإن المسدس الذي أهداه إياه النقيب ناتاريو كان مهماً للغاية لحماية الحقيبة المليئة بالخشاخيش والأشياء الغريبة.

لم يصبح ثرياً، بعد، وهو لا يزال بعيداً عن تحقيق هذا الأمر. و لم يستقر، كما قرّر أن يفعل، في محل تجاري في مكان من تلك الأماكن الآهلة المنتشرة في عالم الكاكاو، أو في إحدى نقاط الالتقاء بين المزارع حيث يمر الحداة وقوافلهم.. لم يكن بمقدوره أن يشتكي: لقد خطا خطوته الأولى وعلى الأخص بعد أن بدأ يسلّف المال بالفائدة.

كانت النجوم تتضاعف في كبد السماء.. وفؤاد كرم الذي يقرأ كتباً بالعربية والبرتغالية، المواطن المنور، الأكثر ثقافة من نصف دزينة من المحامين، المسؤول عن تلقيب فضول "بالبزرة التركية" ذلك اللقب الذي استنبطه عندما رأى فضول محاطاً بفتيات الملهى - كان قد أكد له أن هذه النجوم التي يروها هنا ليست هي نفسها التي تسطع في سماء الشرق حيث ولدا. أما "البزرة التركية" فإنه لا يشك في ذلك ولكنه لا يستطيع أن يتبيّن الفرق: إن النجوم كلها متشابهة.. ولكن القمر المنعكس على صفحة مياه النهر هو نفسه، هنا وهناك: ميدالية من الذهب الخالص، كبيرة صفراء، وفيها القديس جورجيوس يركب على حصان وهو يطعن التنين برمحه.. إن الشرق الذي استشهد به فؤاد كرم ومسقط الرأس قد ضاعا في المسافات البعيدة، ولاجتيازهما سيكون من الضروري اجتياز البحر من ناحية إلى أخرى على متن المراكب.. وإذا كانت النجوم مختلفة، فإن الثمار لا تنقصه وهو أصبح يفضل الكاجا على التمر، ولديه هنا ما يكفيه من النجوم.

مسقط الرأس بعيد ومنسي. إن فضول عبد الله "البزرة التركية" في أفواه العاهرات، اللبناني فضول في البيوتات الكبيرة، السيد فضول على أفواه الفقيرات البائسات، يعرف أنه جاء إلى البرازيل ليبقى فلم يأت معه بتذكرة العودة، وفي مكتب الهجرة ذرف الدموع و لم يُبقِ دمعة واحدة.. فهو لم يُغَيّر فقط بلده وطبيعة بلاده، لقد

غيّر وطنه، إنه لبناني بالدم والولادة ويلقبونه بالتركي جهلاً، لذا لو كانوا يعلمون كيف يرون ويلاحظون لتضرعوا إلى الرياح الأربع لتأتي إليهم بأمثاله.

إن وطن الإنسان هو المكان الذي يعرق فيه ويبكي ويضحك وحيث يجد ليكفل حياته ويبني محلاً تجارياً وبيتاً عائلياً.. وإذا كان وحيداً مع الليل والنجوم في ذلك المكان المجهـــول الذي قادته إليه يد الله، فإن فضول عبد الله اعترف بالوطن الجديد وقبل به. هـــناك لم يبصر النور و لم يتعمد، ولكن كل هذه الأمور تفاهات وتفاصيل محتقرة: وما هـــو أهـــم مـــن المهد فهو اللحد، وقبره سيكون في أرض الكاكاو، ولن يكون قبراً مسطحاً كتلك القبور القائمة هناك ولا يعرف لمن، ولماذا؟

إن قبره سيكون ضريح سيد كبير مبنياً بالمرمر، "وهنا يرقد" ستكتب بحروف ذهبية. في هذه السنوات الخمس عشرة، ها هو الفتى القادم من الشرق ليصبح غنياً وقد أصبح برازيلياً.

في الحقيقة كان يعتري فضّول نوع من الانكسار وهو يدفع رشوة إلى أوبالدو مادوريـــرا الكاتب في مكتب الجنسية. هي بدل تزوير معلومات استمارة التجنس وسعر الأوراق.. وها هو برازيلي بأوراق مختومة وصحيحة، تاجر مستقر، متزوج ولـــه أولاد؛ الأعمال مزدهرة والمال يجر المال: كل هذا سيتم تحقيقه قريباً إن شاء الله.. إنـــه يـــواجه قدره كما أوصاه عمه سعيد الذي، وهو يعطيه البركة في ساعة الفراق الحزينة والسعيدة، امتزج عنده الضحك بالدموع!

– اذهب، واعمل بمشيئة الله، يا فضول، يا ابن أختي المرحومة مريانة، اذهب واربـــح مـــالاً في الـــبرازيل لأن جمع المال هنا صعب، وأنا لم أعد قادراً على أن أعيلك.. اذهب واثرِ، فالرجل الثري يحترمه الناس وينظر إليه الله نظرة جيدة.

رســـم الكـــاهن ســـعيد إشارة الصليب في الهواء، وأعطاه يده ليقبلها.. وإذ اســـتوعب الموعظة فإن الفتى هبط من الجبل وبدأ الرحلة الطويلة.. وإله الموارنة هو نفسه هنا وهناك.

3

أشهر عديدة انقضت قبل أن يعود فضول إلى ذلك المكان. كان قد واصل تحمل الـــتعب في حمـــل الحقيبة، وبدأ ظهره يتقوس قليلاً بسبب ثقلها، تحت وهج الشمس

وهطول المطر. كان الزبائن يحيونه بحرارة وعطف لأنه، أبعد من كل شيء، كان طيب القلب وصاحب حديث طريف.. يحب أن يسمع القصص ويرويها، وهو في الحالتين يتجاوب معها بالتعجب وتبديل السحنة وحركات عريضة مقنعة وقهقهات ضحك مدوية.. والتصق به لقب "كذاب" ولكن الترهات التي كان يرويها ممتعة ومثيرة، وتسبب الانفعالات العميقة لمستمعيها في تلك الأماكن النائية المجردة من كل متعة:

- إنها ولا حكاية أطفال..
- إلى حدٍّ أنني بكيت..
- لقد شعرت بالحاجة إلى التبول لشدة الضحك وهو يروي قصة المرأة التي يرافقها القرد..
- هذا "التركي" اللص يثير قلق كل النساء..

كان زبائن فضول متنوعين وكثيرين، الزوجات والآباء، أهل الماء والترف، الأجراء والعمال في مزارع الكاكاو الذين يكادون لا يملكون نحاسة واحدة، المرتزقة وعشيقاتهم، فتيات الهوى وهن أفضل الزبائن ويشترين أكثر من سواهن.. وكان بائع الكشة اللبناني لا يميّز طبقياً أو عنصرياً، ويقبل الدعوات إلى الغداء في البيوت الكبيرة وفي مساكن الأجراء على قدم المساواة، ويعبد عبادة الطرائد البرية المُسَمَّنة ترافقها الطحينة المخلوطة بالتوابل.

كان فضول يتمتع بشعبية في أوساط النساء العموميات.. ولم يكن يتردد قط في استلام سعر علبة طلاء صغيرة أو قنينة لا قيمة لها أصلاً في فرض فائدة ما على القروض الصغيرة لهن. وفي أحيان قليلة، كان يهب في أيام المجون وعندما يأخذ الحب منه فيتناسى الإمساك: خواتم معدنية مرصعة بقطع من الزجاج تبهر النظر، وهكذا بعض الأشياء التي تبدو جميلة للواتي يحصلن عليها باندهاش كونها دلائل على الحياة المرفهة ولا يدفعن بدلاً عنها كميات من المال.. كان فضول عاطفياً ويتوله في بعض الأحيان، ولديه وله بالفتيات ذوات الأرداف الكبيرة والصدور العالية.. أما المرأة الهزيلة بالنسبة إليه فليست بذات قيمة، ومن يقدر العظام فهو حفار القبور، هكذا يقول الناس المنطقيون.

كان لفضول فلايين وأشابين عديدون كونه معروفاً ومحترماً في المزارع والقرى... وهو شديد الثقة بأي كان، ولكنه في يوم الاستحقاق، قبله أو بعده

بـــساعات، كان يصل ليحصل على الدين الذي لديه، وإذا حدث أن بدل الزبون مكان إقامته فإن فضول يذهب لاكتشاف مكان الإقامة الجديد وحيثما هو، فيسير فراســـخ وفراســـخ لا يني ولا يكل. كما أنه كان يتساهل في تأخير الدفع ولكن ليـــستعيض مالـــه المتأخر فإنه أدخل طريقة الفائدة المصرفية إلى أحراج الكاكاو: فبالإضافة إلى البضاعة كان اللبناني فضول يحمل الحضارة في حقيبة "المسقطي"

حذر، متوازن، كان هناك من اتهمه بالجبن واصفاً إياه بالقياس الكبير وقلب الفأر، أو بالقاضـــي الذي لم يدرس القانون؛ ولكنه، متسلحاً بسكين عادية فقد تمكّن من أن ينتزع دينه من "ترنسيو" المعروف بضروب الاحتيال والنصب، فقد أمسك فضول برقبة ترنـــسيو ووضـــع نـــصل السكين على عنقه وانتزع منه في الحال الثلاثة آلاف ريس والفوائد والاعتذارات... وعندما علم بالحادث، فإن ناتاريو كاد يموت ضحكاً إذ اعتبر الأمـــر هزلياً أكثر منه حدثاً... ومقابل لا شيء أحب فضول وأهداه مسدساً، فأحياناً ليست السكين وقوة اليدين بكافيتين، "والخرّاق" (المسدس) يفرض الاحترام يا عرّاب.

تحـــرر فضول من تهمة جبان ولكنه لم يتحرر قط من تهمة لص، فهذه التهمة كـــبيرة وملأت الدنيا... وفي السوق التي كان يقيمها على عجل عندما كان يصل إلى تلـــك المـــزارع كان الزبائن ينادونه بالتركي اللص بينما يساومون على سعر البـــضاعة المعروضة... ومطعوناً من الممازحين فإن فضول كان يهدد بجمع الخواتم والقماش المهلهل والأمشاط والأحزمة وبيوت الرصاص وكل المغريات التجارية التي لا يمكن مقاومتها، وبالذهاب لبيعها في مكان آخر... كانت الأعمال تتواصل بين الـــرجاء والتعجب والضحك والتنهدات والشتائم والإطراءات: من لص تركي إلى لبناني حبيب القلب.

كانـــوا يقولـــون له بتحبب ودون غضب، ودون نيّة في الاعتداء، وهذا كان جـــزءاً من المساومة ولذة الشراء والبيع. إنه هر شرس بلا شك، ولكن رجلاً طيباً مثله لم يكن يتعب من القول للموجودين:

– التركي اللص هو الأب الذي خلفكم. أريد أن أعرف يا أهل العقوق لو لم يكن اللبناني فضول رجلاً طيباً يخاف الله فمن الذي سيأتي إلى قفا الدنيا ليخدمكم؟ بدلاً من أن تشتموني فعليكم أن تشكروني وتدعوني إلى بلعة عرق: لم يكن يرفض الكاشاسا ولكن في الملهى كان يشرب الفرموتي ممزوجاً بالكونياك...

في البيوت الكبيرة فإن العقداء والأثرياء لم يكونوا يطالبون بأقل مما يطالب به الأجراء:

- "توركـو" إنـك تسرق أكثر من اللزوم... أين رأيت في حياتك خردة من النيكل تساوي هذا المبلغ من المال؟ إنه سطو بالسلاح الأبيض، وهكذا لن نجني شيئاً من مواسم الكاكاو... وكان فضول يقسم بالله وبكل الآلهة أن ساعة يد بتلك الجودة تساوي ضعف هذا الثمن في إيلايوس... يقسم والحقيبة مفتوحة أمام نظرات السيدات وهو لا يغفل عن الحركة داخل المطبخ من حيث كانت تأتي رائحة المشويات وتوابل "الفيجوادا": إنه في مسألة القابلية على الطعام فاق عمه سعيد.

شخص صالح، خدوم... صالح لإقامة شعائر الجنازة ودفن أحد الموتى مسهلاً له الموت بسلام في المكان الأفضل، وفي مناسبات كهذه، كان كثير المساعدة ولم يكن من راغب في الحياة يستطيع أن يصمد أمام تراتيل فضول المحزنة وتلفظه بها. كان ذلك الترتيل المظلم يقلع الدموع قلعاً من عيون الأجراء والمرتزقة الذين لا روح فيهم. وفي غابات الكاكاو فإن من أراد أن يجمع المال دون أن يمتلك بساتين كان عليه أن يكثر المهن. وفضول بائع متجول، يحمل دكانه على كتفيه، ويمارس الطب غالباً، والكهنوت عند الضرورة، وكان يجري عمليات جراحية كفقء الدمامل، ويستخرج القيح ويعقم الجروح بمياه مؤكسدة ويحرقها باليود. وكان لديه في الحقيبة أربعة أدوية لا تخطئ: الشفاء المذهل، وصحة المرأة، ومرهم القديس لازارو، ودهن الجذع، وبواسطتها يعالج كل الأمراض باستثناء الجذام الأسود والحمى اللعينة، فلا دواء لهذين المرضين ولا طريقة... وكان قد استجاب للطلبات العديدة وشفي الكثيرين في ذلك الداخل حيث لا أطباء ولا صيدليات ولا إسعاف من أي نوع كان.

كان فضول شماساً في القرية اللبنانية يساعد عمه سعيد في تأدية غرائب الطقوس وهو لم يحجم عن تعميد الأطفال الذين بدون مساعدته كانوا سيموتون وثنيين لا حق لهم في ملكوت السماء. وبارك أزواجاً متحابين ومتعايشين دون زواج، وأنقذهم من الخطيئة التي كانوا يعيشون فيها ومنحهم وضعاً جديداً كان وسيلة لحفلة يمارس فيها شرب الكاشاسا والرقص وهو يضرب الأرض بقدميه.

عندما استحوذ على السلاح قرّر فضول عبد الله أن يوسع مجال نشاطاته فراح يقرض المال بالفائدة. كان يفعل ذلك بحذر وهو يختار الذي سيعهد إليه بماله،

ويقــرض المال لأجل محدود يجب معه الدفع الفوري؛ وكان بطريقة حسابية معقدة يحسب الفوائد...

حين يمنح القرض ويبدأ بإعطاء المال يظهر مسدسه الموضوع تحت سترته وهو مسدس يعلم الجميع أنه هدية من النقيب ناتاريو دليلاً على الصداقة.

ومــع الــربا استطاع أن يطيل الجراب الذي كان يدس فيه المال، ثم رأى أن الساعة قد اقتربت للتخلي نهائياً عن الحقيبة وبناء بيت خشبي يقيم فيه مع تجارته... بقي له أن يختار المكان الأنسب والمأهول حديثاً وحيث لا توجد مزاحمة بعد.

4

بيــنما يــصف المكان الذي ألقى فيه الرحال عندما تاه، علم أن ذلك الموقع يدعى توكايا غراندي، وقد أعطي الاسم لأنه كان مسرحاً لكمين ليلي كبير رافقته مذبحــة ارتكبت بدم بارد عدة سنوات من قبل، في تلك الصراعات الدموية التي لا تعرف الرحمة، بين العقداء، من أجل ملكية الغابات الخلفية في تلك الربوع من نهر الأفاعــي حيث لم تعد هناك اليوم مساحة من الأرض تعادل كف اليد ليست ملكاً لأحد.

خلال حماس الحديث، كان أشخاص من ذوي النيّة السيئة، والألسنة السليطة يستــشهدون بأسماء يتعمدون ذكرها في الحديث عن الكمين الذي طبقت شهرته الآفــاق، ولكن فضول كان يعلم كيف يعطي القيمة الحقيقية للتعقيدات والخيانات في الحــديث والــتي كانت تدخل في إذن وتخرج من أخرى... أما بعض الروايات الأخرى فمن الأفضل تجاهلها.

معلــومات أخرى – وهذه مهمة بالتأكيد – كان اللبناني يستحصل عليها في بــيوت الأجراء وعلى شرفات منازل العقداء وبين أفواه العاهرات، خلال رحلاته التي لا نهاية لها على مدى الأسابيع والأشهر. كانت القوافل التي تغادر المزارع وهي تحمل الكاكاو إلى محطة سكة الحديد في تاكاراس ليتم نقله في القطار من هناك، قد بــدأت تهمل شيئاً فشيئاً الطريق القديم، وتتحول إلى توكايا غراندي المكان المثالي لتمــضية اللــيل. وابتداء من زمن غير محدد أصبح العبور عبر تلك التحويلة أكثر نشاطاً وكثافة منه عبر الطريق الحقيقي.

وفي يوم، فإن لازارو أحد حداة القوافل ممن يعرفهم فضول بينما يتحرى عن حسنات اجتياز الطريق عبر توكايا غراندي - تستطيع الحيوانات أن ترد الحوض الذي يشكله النهر دون أن تتعرض لأي خطر، كما تستطيع أن تجد مراعي خصبة ولا يمكنها أن تشرد - تذمر ألا يكون هناك في موقع ملائم كهذا دكان صغير، أياً كان، يمكن فيه شراء بلعة من الكاشاسا، أو بعض التبغ المعجون، أو رغيف ذرة مع بعض الزبد أو ملحاً وسكراً. إن العليم بالأمور الذي يقوم بهذا العمل في توكايا غراندي لا بدّ من أن يصبح غنياً بين يوم وآخر.

أصغى فضول عبد الله بكل جوارحه إلى الحديث وانطلق في التفكير في سكة العروض والمقبوضات وبينما يعود إلى إيتابونا للقيام بمهمة مزدوجة وهي شراء الحاجيات الجديدة لمخزنه المتجول، ولرؤية زيزينيا دو بوتيا التي بقدر ما هي عشيقة فإنها قدره المكتوب بالرغم من أنها لم تكن سمينة وذات مواصفات تناسب حجم يده الكبيرة - فإنه تدبر الأمر ليمر في تلك الربوع مستطلعاً ومستقلاً أحد القطارات المخصصة لشحن العجول.

وكم كانت دهشته عظيمة عندما تبيّن أن توكايا غراندي لم تعد قفراً لا حياة فيه، وبالإضافة إلى المستودع الخشبي الذي يخزن فيه الكاكاو الناشف، كانت قد قامت عدة بيوت تمّ بناؤها بالأسمنت وأخرى في طور الإنشاء. وكانت الفتيات قد بدأن العمل، والزبائن متوفرون، وعمال الحقول القريبة - قتلة، أجراء، متزلمون عابرون، وحداة القوافل، يمضون الليل هناك، وأخذت تسمع ألحان وأغان وتشاهد أضواء القناديل الخافتة، عند الصباح؛ ومع انطلاق القوافل كانت تنطفئ الحيوية وتعود إلى الانتعاش، عند العصر.

عندما كان قد وصل إلى هناك في المرة الأولى انتبه إلى أن يد الله هي التي اقتادته. عندما يتخيل نفسه تائهاً فإن الله كان يقوده ويحدد خطواته، ولم يكن ذلك من أجل أن ينال يوماً من الراحة كما فكّر آنذاك. لقد اقتاده الله إلى هناك، في الحقيقة، ليريه المكان حيث يجب أن يفي بالوعد ويواجه قدره. لم يكن بإمكانه أن يتردد، وقبل أن يتابع رحلته، كان فضول عبد الله قد اتخذ كل التدابير اللازمة.

النقيب ناتاريو دا فونسيكا يتفقد حقوله

1

إن الاتفاق الشفهي كافٍ وينيف بينهما، ويعني الاتفاق المكتوب والموقع عدم ثقــة متبادلة ودليلاً على عدمٍ الاحترام بالإضافة إلى كونه غير ضروري. وبموجب الاتفـــاق فإن ناتاريو قد نال لقب مدير مزرعة أتالايا - وكلمة "سركال" ليست تعبيراً عن وظيفة نقيب في الحرس الوطني - مع حقه في أن يمضي بضعة أيام خلال الشهر في ملكيته التي بدأت تزدهر في تلك الأراضي التي استحصل عليها ودفع ثمنها خــدمات ممتازة لا يعادلها أي ثمن... وبينما يبدي طيبته فإن العقيد بوافنتورا أقفل الموضوع:

- الآن، الكـــلام بيننا ناتاريو، لم يعد هناك سيد ومسود، لقد أصبحنا طحيناً واحداً في الكيس الواحد.

- ما دمت حياً فإنني ملكك وفي خدمتك كيفما جاءت الأمور.

- أعلم هذا، وعرفت إخلاصك ففتشت عن مبادلتك إياه.

بدا ناتاريو بهيئة جدية ولا يزال لديه ما يدفعه إلى استكمال المحادثة.

- لديَّ شيء آخر أريد أن أطلبه منك، إذا سمحت يا حضرة العقيد.

- شيء آخر؟ - أصيب العقيد بالدهشة فحدج مملوكه بنظرة:

- تستطيع أن تقول، إني مصغٍ إليك.

- إن زيلدا حامل. أريد عندما تلد، أن تعمِّد الطفل، أنت والسيدة أرنستينا.

- هــل هذا هو طلبك؟ - مدَّ يده: - إذاً صافحني. سنقيم عيداً كبيراً في يوم المعمودية. إنه طفلك الخامس، أليس كذلك؟

- أجل. لديَّ الآن ذكران، وذيلان في التنورة.

- وفي الشارع، ناتاريو؟

– كمية، يا عقيد، لقد أضعت العدد. كلهم في الشارع يشبهونني حتى لتقول إنهم مختومون بختم قديس واحد.

بصورة عامة كانت زيارة النقيب لأراضيه تدوم ثلاثة أو أربعة أيام، وهي كافية لدفع أجور الأجراء، والتعجيل في تأدية العمل، وتكحيل عينيه برؤية تلك الحقول المكتظة بالأغراس الفتية. ولكن، في مرة واحدة، تأخر هناك ثلاثة أسابيع وهو يراقب العمال في تنظيف جزء من الغابة من أشجارها البرية ليزرعها فيما بعد بأغراس الكاكاو، ولو ترك ذلك الأمر في عهدة المتعاقد معهم وعلى مسؤوليتهم، لعلم الله وحده متى كان سيتم إنجاز العمل. أما تحت قيادته فإن واحداً من الأجراء لن يستطيع أن ينام ملقياً برأسه فوق قبضة الفأس التي يجب أن يقطع بها الشجر.

ملكية صغيرة وعلى ألسنة المتشدقين، مزرعة صغيرة لإنتاج خمسمائة كيس سنوياً، ووزن الواحد لا يتجاوز الخمسة عشر كيلوغراماً، يتشدقون بهذا، معقبين بآراء مرتجلة عن الحصاد والعواصف وإلى ما يمكن تصوره. أما النقيب فكان ذا رأي مختلف مما جعله يعطي ملكيته اسم: مزرعة "بوافيشتا" وبتأكيد صاحبها فإن المزرعة بعد سنتين، بعد أن تكون قد أزهرت فإنها ستنتج ضعف الخمسمائة كيس التي يتوقعها الحساد... إن خصب الأرض، والعناية الفائقة خلال سنوات والتي يقوم بها واحد لا يضاهيه أحد في أمور الكاكاو، ستجعل المزرعة تعطي ألف كيس على الأقل وناتاريو مستعد لأن يراهن مع أي شخص يشك في هذه الحقيقة: هذا دون أن يحصي الغرسات الجديدة التي ستزرع في الأرض التي تتم تهيئتها الآن.

كان ممتعاً التأمل في غرسات الكاكاو والتي تنمو بصلابة في ظل الأشجار الرطبة. وكانت عينا النقيب الناعستان تلمعان لمعان عاشق هائم، وهو يتأكد من المسافة التي يجب أن تفصل بين غرسة وأخرى بشكل متناسق، ومن الحفر المفتوحة بمقاييس غاية في الدقة وهو لا يغفل عن شيء منها. لا يفيد النقاش شيئاً فليس في العالم كله عمل يضاهي زراعة الكاكاو ويعطي عائداً سريعاً ومربحاً. إن زراعة الكاكاو كمن يبذر الذهب في التراب ليحصد كنوزاً. حقيقة ثابتة، الابتسامة تجعل الشفتين تتمطيان، وتجعل عيني سيد مزرعة بوافيشتا تتسعان. لم يكن هناك غير الصبر والأمل.

كانت المساحة التي أمر العقيد بوافنتورا أندرادي بتسجيلها باسم "السركال" تقع قرب توكايا غراندي، و لم يعلم أحد إذا فعل العقيد ذلك عمداً أو صدفة. علّق المتسرعون على الاسم الذي أعطاه ناتاريو لملكيته ملمحين إلى أنه قد استلهم ذلك الاســـم عند رؤيته الوادي قرب النهر عندما، في تلك الليلة العاصفة، و"البارابللو" بـــيده، أطال التركيز: مشهد جميل بالرغم من العتمة. إن لسان عامة الشعب طويل وســـليط وأطـــول مـــن ذلك هو الاستنباط. و لم يكن يفيد الإنذار الذي تنذر به الأكثـــرية: مع "يقولون" و"القيل والقال" فلن يربح أحد فلساً وإن مقدوحاً، وقد يـــنال، خلافاً لذلك، رصاصة سهلة. ولو لم يكن هناك "سركال"، فمن هناك كان يمكن أن يتحول إلى نقيب ومزارع.

كانـــت تـــوكايا غـــراندي تقع في وسط المسافة بين مزرعة أتالايا ومزرعة بوافيشتا، والمسافة التي يجب اجتيازها بين هذين القدرين لم تتجاوز فرسخاً ونصف الفرســـخ، وعلى الأكثر فرسخين، وعلى مطية سريعة تصبح قفزة قصيرة. ذاهباً أو عائـــداً فـــإن النقيب كان يمر من هناك مختصراً الطريق. وهكذا استطاع أن يرافق، منتبهاً أو مشاركاً عند الضرورة، في التغيير الذي يحدث.

وإذ كان قد علم بمخططات العقيد روبستيانو دي أراجو، فإن النقيب ناتاريو نـــصحه بـــأن يـــبني مستودعه في توكايا غراندي. فهي مزرعة لا نهاية لها، وفيها بالإضافة إلى زراعة الكاكاو، كان يمكن للعقيد أن يربي العجول، بينما سانتا ماريانا كانـــت تقع على مشارف نهر الأفاعي عند حدود كاياتنغا البعيدة جداً عن محطة ســـكة الحديد. كان ذلك هو السبب الذي جعل العقيد يقرر إقامة مخزن في الموقع الملائـــم ليخـــزن فيه الكاكاو الناشف ويسلمه إلى المصدرين في المكان نفسه، لأن هؤلاء كانوا يشعرون بالصدمة إذا اضطروا أن يقوموا بالنقل إلى إيلايوس. وإذ شعر بالامتنان للنصيحة فقد ابتدأ ببناء حظيرة تستريح فيها العجول في طريقها إلى المجازر في إيلايوس وإيتابونا... نصيحة ثمينة، ثم أرسل العقيد بالنبأ إلى النقيب، شاكراً.

كـــان النقـــيب حاضـــراً عندما بدأ العمال الذين أرسلهم العقيد روبستيانو أعمـــالهم وقطعـــوا الأشـــجار وهيئوا الأعمدة الأولى، وشاهد النقيب فيما شاهد وصـــول المرأة العامية الأولى إلى هناك، جاسنتا المعروفة بكوروكا لشهرتها. و لم يعد عمـــرها المـــتقدم يسمح لها بالتفتيش في المزارع، ومن بستان إلى آخر، عن زبائن،

فوضعت رحلها هناك، بانتظار حداة القوافل التي بدأ عددها يزداد أكثر فأكثر إذ إن توكايا غراندي كانت قد أصبحت مكاناً مهماً لقضاء الليل.

وبينما يحدد المكان، أعلم النقيب العقيد روبستيانو بنيّته القديمة والمستمرة لبناء بيت سكن له، قريباً، عند القمة المشرفة على الوادي؛ هذا عندما تصبح إمكانيته المالية أكثر توفراً، أما ما هو لديه الآن من مال قليل فقد قام بدفنه في مزرعة بوافشتا.

2

راضياً عن الحياة، وصل النقيب ناتاريو بعد الظهر إلى توكايا غراندي؛ وإذ كان قد أطال البقاء بعيداً عن أتالايا، وأكثر مما توقع بكثير، فقد وجد نفسه أمام ضرورة الإسراع في العودة. لم يكن مزمعاً على أن يطيل المكوث في الوادي ولكن الحركة الناشطة، وعدد الرجال المنهمكين في قطع الأشجار ونقل الجذوع جعلته يوقف مطيته أمام تخشيبة جاسنتا. ترى هل قرّر العقيد روبستيانو التعجيل في بناء الحظيرة؟ أما العانس، وقد كبرت في السن وتبدلت ملامحها، فقد ظهرت عند الباب وهي تعرض صدرها خلف قميص داخلي شفاف.

– مساء الخير، كوروكا. حياها ناتاريو دون أن يترجل عن مطيته.

– مساء الخير، ناتاريو... – ثم مصّت شفتيها فأطلقت لسانها مداعبة: – النقيب ناتاريو.

سابقاً، عندما كان لا يزال شاباً، كانا قد ذهبا معاً إلى الفراش عدة مرات، وفي بعضها في الهواء الطلق، وعندما كانت تراه راغباً، وليس لديه مال، كانت كوروكا تمنحه ما يريد بالدفع الآجل، ولكنه في الفترة الأخيرة لم يعد يهتم بها بالرغم من محاولاتها المتكررة: – هل رجعت؟ تأخرت هناك. هل تدبرت فتاة أخرى؟

– أقسم لك بأن المرأة هي آخر ما أسعى إليه.. قولي لي، إذا كنت تعلمين، ما هي هذه الضوضاء بحق الله؟ هل هي حظيرة العقيد روبستيانو، أو أي شيطان ممكن أن تكون؟

– إنه السيد فضول الذي استأجر بعض العمال ليقيم له بيتاً هنا. إنه بيت خشبي، وليس تخشيبة من السقف كتخشيبتي أنا. إن العمال يعملون وتستطيع أن تراهم من هناك.

– أهو اللبناني فضول؟ هل سيقيم بيتاً للتجارة؟ – فكّر قليلاً: – أين؟ حددي لي المكان.

– من يعرف جيداً هي برناردا، لقد أمضى الليل معها هنا وأخذ ذلك القرار.

– هـــي نفـــسها وصلت إلى هنا منذ خمسة عشر يوماً تقريباً. لقد تمّ فطمها وتخلـــت عـــن المصاصة. جاءت مع قافلة من الحمير من عند النبع. إنه نبأ الساعة، الرجال لا يريدون سواها امرأة.

وقبل أن يلكز مطيته، سأل ناتاريو:

– هل أنت بحاجة إلى المال يا كوروكا؟

– أنا لا أطلب حسنة.. أموت قبل أن أطلب.

ضحك النقيب، وكادت عيناه تغمضان: هذه العجوز طاعون وعظم رقبة:

– إني مدين لك ببعض المال المتأخر دفعه، هل تذكرين؟ منذ المرة الأخيرة..

– هذا ممكن.

مـــنحها بعض المال وذهب ساعياً إلى العمال ومنهم علم بمشاريع فضول. إن التاجـــر المـــتجول، المسقطي، ترك مع باستياو دا روزا بعض المال وأعطاه الأوامر بقطـــع الأشـــجار وتهيـــئة الخشب الكافي لبناء بيت ذي بابين رئيسيين من الجهة الأمامـــية وثـــلاث غرف في الداخل. قصر صغير شبيه بهذا القصر لا يوجد إلا في تاكاراس قرب محطات السكة الحديدية وأكثر من ذلك فإن لوبيسينيو، النجار، جاء من تاكاراس نـــزولاً عند طلب السيد فضول ليهتم بعمل شرفة ورفوف. إنه عمل كبير يتم إنجازه. وأعطى باستياو دا روزا رأيه:

– لقـــد جـــنَّ اللبـــناني، يـــا نقيب. إن توكايا غراندي لا تتحمل كل هذه الوجاهة. هزّ ناتاريو برأسه غير موافق. مجنون؟ لا لم يكن ناتاريو يرى هذا جنوناً. لقـــد كان اللبناني يعلم بلا شك أنه، عاجلاً أم آجلاً، فإن توكايا غراندي ستصبح مدينة لن تكون تاكاراس قربها إلا موقعاً محتقراً، أو ربما محجراً صحياً.

3

كانـــت تخـــشيبة جاســـنتا قصراً إذا ما قورنت ببيت القش الذي لجأت إليه برناردا: نصف دزينة من سعف النخيل مجموعة إلى بعضها، وأربع زوايا من جذوع

مقطوعة، في الأرض، وفي الداخل، فرشة، ولوح خشب موضوع فوق أحجار ثلاثة، ولا شيء آخر.

ترجل ناتاريو، وجال بنظره في النواحي. كانت الصبية قد وصلت من ناحية النهر، مبللة من رأسها إلى أخمصيها، وفي يدها قطع الغسيل التي كانت قد ذهبت بها لتغسلها، لباس داخلي وقميص نوم. كان الفستان الذي تضعه على جلدها قد التصق بجسدها الغامق وأظهره، ومن شعرها السابل كانت تسيل الماء. عندما عرفت الزائر أوقفت خطوها لحظة وانطلقت نحوه راكضة وذراعاها مفتوحتان له. في عيني ناتاريو كانت طفلة في العامين الأولين من عمرها عندما كانت تترك بيت المسكين الذي تلهو به وتركض إليه لتتعلق بعنقه وسخة عارية. عندما التجأ إلى مزرعة أتالايا، فإنه عاش بعض الوقت في بيت فلورنسيو وآنا عشيقته. لم يكن فلورنسيو يعمل في البساتين، فقد كان منهمكاً في خدمات أكثر فوائد من سواها، إذ كان يهتم بالأسلحة والمستزلمين.

في أي عمر هي برناردا الآن؟ سأل نفسه عندما ذابت صورة الطفلة في جسد الصبية المتمرغة بالماء والشمس.. عرفها في آخر مرة وصدرها لا يزال ضئيلاً وهي متمسكة بردفي أمها، وبطريقة ما ساعد ناتاريو في تربيتها. كانت آنا قد علقت أرجوحة للضيف في البيت الصغير المكون من غرفتين؛ وعلى الأرض، في صندوق حولوه إلى مهد، كانت تنام الطفلة وكانت تستيقظ باكية، وفي منتصف الليل، ولكن قلما كانت آنا تستيقظ لتعطيها ثديها. كأنها ميتة من التعب، كانت تغط في نوم عميق في الغرفة المجاورة، ولم تكن حتى لتسمع بكاء ابنتها. كان ناتاريو يأخذ الطفلة من الصندوق ويضعها في الأرجوحة ومع التأرجح كانت تخلد إلى النوم وهي مستلقية فوق صدره.

منذ خمسة أعوام، ليس أكثر، عندما جاء العقيد بوافنتورا بالأب أفونسو ليحيي القداس بالنذر الذي نذرت السيدة أرنستينا أن تقيمه في المزرعة وفاء بدينها إلى القديس يوسف، شفيع بوافنتورا والذي يدين الأخير له بالحياة – كما يدين بها أيضاً إلى ناتاريو الذي صوب في اللحظة المناسبة فوهة مسدسه: "عن إذنك يا حضرة العقيد" – استمر العيد يومين: جموع غفيرة من المدعوين، حتى جماعة من باهيا حضرت إلى هناك. أحيا الأب القداس، وكرّس صورة القديس، وعقد قران

الـــزناة، وعمد قطيعاً من الفتيان ومعهم أربعة رجال كانوا لا يزالون وثنيين. مأدبة فـــوق مـــا يتصوره الخيال، وساقية من المشروبات الكحولية، وسارت الكاشاسا بالكـــبير وبالصغير، في منازل العمال حرية مطلقة. ولكن، كونه خادماً، متواضعاً لله، وشـــريكاً لا شروط له للعقيد، ونموذجاً للإيمان المسيحي والمناقب الريفية فإن الأب أفونسو كان يرتكب الخطيئة بكثرة الأكل، فيلتهم منه بمقدار كتيبة عسكرية. واستفاد ناتاريو من العيد ليتزوج من زيلدا التي كان يقيم معها بالمصاحبة منذ أكثر مـــن عام. كان قد التقى بها تائهة في طريق أغوا بريتا، شاحبة، هزيلة وقلقة، يتيمة الأب والأم، اللـــذين كانا قد دفنا معاً بعدما نال منهم الجذام. وكانت عصابة من المتـــشردين تنظر إلى تكوينها بأعين نهمة وتتبعها كمجموعة كلاب وراء كلبة لا حامي لها، وكل واحد يحمل معه (مغيطة) التصويب بالحجارة. وبحمية أكثر مما هي بقابلـــية جنـــسية، دخل ناتاريو مزاحماً، لم يكن أحد رجال العصابة يعرف ناتاريو فـــشهر السلاح ونال بالمقابل ما نال. وإذ إن الهزيلة كانت قد كلفت أحد الرجال حياتهم، فإن ناتاريو أخذها معه وصنع لها ولداً.

صـــامتة مطيعة، عاملة نشيطة، ونظيفة، فإن زيلدا استعادت جسدها ولونها، ونالـــت الاعتبار والعطف، وبقيت معه إلى الأبد. من أين جاءت بالشجاعة لتقول لـــرجلها وســـيد الشهوة أنها تريد أن تتزوج منه؟ تتزوج منه لدى الكاهن حتى لا تعيش ضد إرادة الله؛ أما في المحكمة، ولدى القاضي، فليس من الضروري ذلك.

عـــندما جاء بها، كان ناتاريو لا يزال يقيم في بيت فلورنسيو، وفي أرجوحة الأعزب جعلها حاملاً؛ تحت أنظار برناردا، إذا صح القول. كانت برناردا لا تزال تـــنام معـــه في الغرفة ولكن مع وجود زيلدا فقدت مكانها في الأرجوحة، وفقدت التأرجح وصدر ناتاريو الرحب.

وبمناسبة الزواج الجماعي، دعتهما آنا ليكونا عرّابين للصغيرة برناردا. وكونها مدبرة، فإن زيلدا، بقطع بالية من الأقمشة صنعت لعبة حشتها بالقش لفليونتها... أمـــا ناتاريو فلم يعطها شيئاً أكثر مما كانت تريد: وهو أن تستطيع مناداته كعرّاب لها، وأن يجعلها تقبل يده وتطلب بركته.

وبيـــنما كـــان فلورنسيو يقيم في أتالايا، فإن برناردا عاشت في بيت عرّابيها أكثـــر ممـــا عاشت في بيت أبويها. وكانت قد قاربت العاشرة من عمرها عندما

اخـــتلف فلورنـــسيو مـــع العقـــيد الذي يعمل في بيع الأسلحة وعاد إلى مزرعة "بوكادوماتـــو" حيث كان العقيد "بنفيندو" يفتش عن مراقب يعرف كيف يصرخ في وجوه العمال. واقترح ناتاريو وزيلدا أن تبقى الفتاة الصغيرة بمعيتهم، فلورنسيو لم يـــشأ حتى أن يناقش الموضوع، وادعى أنهما - فلورنسيو وآنا - كانا بحاجة إلى بـــرناردا لتـــساعدهما في تـــربية شقيقتها الصغرى: وفي ذلك الوقت كانت آنا قد جـــاءت بمولودة أخرى أسمياها "إيرارا" ولقباها بـــ "إيرا" بعد ذلك، أعطت زيلدا رأيها في أن فلورنسيو كان قد وضع عينه على الصغيرة برناردا.

بعـــدما بدّل العرّابان إقامتهما، ظلّ ناتاريو في فترات متباعدة جداً يذهب لـــرؤية بـــرناردا. وفي الثالثة عشرة من عمرها كانت قد غدت كاعباً، جميلة، عـــذراء. ولكـــن عذرية المرأة، في آخر دنيا الكاكاو، لم تكن ذات كوابح أو روادع لأنه لم يكن هنالك إناث إلا لبعض أصحاب الحظوظ، وكل من كانت تـــستعمل التـــنورة كانت تلقى ترحاباً وعناية. هذا دون التحدث عن المواشي وإناث البغال والخيول.

نوبة عسر الهضم ألقت آنا طريحة الفراش، خرساء، صماء، ومعوقة إلى الأبد. وفي الغـــرفة، وهـــو مستلقٍ إلى جانب المشلولة، فإن فلورنسيو كان يسمع الفتاة تدنـــدن في القاعـــة المجاورةً دندنة أغانٍ كانت بالنسبة إليه نداء سلطوياً. ماذا كان يستطيع أن يفعل السكير العجوز. افترسً الفتاة قبل أن يفترسها أحد سواه. و لم يرد أحـــد أن يتدخل في الموضوع، فالموضوع لا يستحق العناء. لقد كان لصاً صعلوكاً عـــندما بـــدأت المعارك في سان فرانسيسكو من أجل ملكية الأرض، وأثناء تلك المعارك استطاع أن يقوم جيداً بعمله الحقير؛ لقد كانت الفتاة خاصته وعليه عبء الاهتمام بالعائلة مثلما يمر في خاطره، أو في نـــزواته..

4

مـــرّت في ذهـــنه كل تلك الأمور بينما كان يفك سرج مطيته، واستخلص ناتاريو أن برناردا الآن هي في طريقها إلى الخامسة عشرة من العمر. ولو أنها كانت تعيش في إيلايوس لكانت فتاة غشيمة لا تزال تلهو بالدمى، ولكنها الآن، في هذه الأدغال، امرأة ناضجة، وسيدة بيت تجيد الاستقبال.

جـــاءت راكـــضة وهي تفتح ذراعيها بعد أن تركت على الأرض القطع التي كانت قد غسلتها في النهر، وبينما هي تتقدم منه أوقفت خطوها وأطرقت بنظرها وبيـــنما يتكئ على الحيوان، تأمل فيها ناتاريو، ودون أن يريد أجال نظره في جسد الفتاة: مستقيمة القامة، هيفاء القد، وذات جلد صلب بلون النحاس الأصفر. اعتراه الارتـــباك الذي كظمه في صدره حيث امتزجت العواطف والنـــزوات، متناقضة، وكما لو كان ناتاريو قد غدا اثنين.. صوتها الناعم يجيء من الماضي:

– البركة يا عرّابي،

بعد أن فرضت الحقيقة نفسها:

لقد استلمت رسالتي، أليس كذلك؟

– رســـالة؟ لقد عرفت لتوي، ومنذ لحظات أنك هنا. أخبرتني كوروكا. ما الذي جرى؟

قفـــزت المطـــية مبتعدة تفتش عن رعي، ولكنها لن تذهب بعيداً.. ودون أن ينتظر جواباً اجتاز عتبة التخشيبة وجلس فوق السرير المصنوع من لوحين خشبيين. رافقته برناردا ووقفت أمامه: في فترة قصيرة كهذه أصبحت تصل طولاً إلى خديه.

– قـــولي لي: ماذا حدث؟ – في صوته الذي يبدو بارداً وحيادياً كانت هناك موجة حذر.

رفعت برناردا رأسها ونظرت إلى وجه العرّاب:

– لم أتحمـــل أكثر. إن أبي، حين يأتي من أحراج الكاكاو يفعل شيئين فقط: يحتـــسي الخمر ويضربنا. – كانت الكلمات تخرج ثقيلة وبطيئة: – وذلك الشيء الذي يعرفه العرّاب.

وكانت تمسك بتنورتها، وتلك هي الدليل الأوحد على الهزال:

– ليس في البيت شيء يؤكل، ولا يوجد إلا كاشاسا. لم نمت جوعاً لأن الجيران أغاثوني ولأنني ذهبت إلى الغابات مع من يدفع لي، مجازفة: فلو علم الأب لقتلني.

كان ناتاريو يصغي دون أن يعلّق. تنهدت برناردا، وبدأ البكاء يهدد بتوقف الحـــديث، ولكـــنها أمسكته في عمق حنجرتها، وتحولت حيويتها إلى نار خفيفة. وضـــعت رأسها في طرف ملابسها حتى تخفي قساوة الرؤية. وانتبه ناتاريو إلى أن الفتاة المسكينة – أحست بقلبها ينـــزف ولكن عينيها ظلتا ثابتتين، وتابعت:

– لقـــد اعتدى عليَّ أبي، وكل الناس تعرف هذا. عندما كانت أمي لا تزال حية، دون كلام أو حركة، أذعنت، لأنني لم أكن أريد أن أترك أمي تموت. ولكن بعدما دفناها، شردت – ونظرت إلى العرّاب مرة ثانية لتؤكد – من ظن أنني كنت موافقة فهو مخدوع.. لقد مكثت في ذلك البيت وأمي في تلك الحالة.

لقد كانت في بيت اللاجدوى، وهذه حقيقة ناصعة، ولكن ناتاريو أطلعها:

– لم أعلم بموت العمة آنا!

– لقد انتقلت إلى رحمة الله منذ عشرين يوماً. أرسلت إليك بالنبأ إلى أتالايا. ألم ينقلوه إليك؟

– كنت مسافراً، والآن فقط أنا في طريق العودة، وماذا عن إيرا؟

– بقيت مع الوالد.

– وإذا فعل في إيرا ما فعله بك؟

– يفعـــل في إيـــرا، يا عرّابي؟ ولكنها طفلة، لم تبلغ الحادية عشرة و لم تأت عادتها الشهرية بعد.

– ولكن هل هو النوع الذي يتوقف أمام هذه الأمور؟ تأملي.

في ميغـــي لويزا موكوتو، في الراديو براسو، واحدة لم تبلغ العاشرة من العمر تمـــارس المهنة. يقال إن الأب هو الذي اعتدى عليها.. ففي هذه النواحي لا يوجد إلا جذوع الكاكاو والمسكنات.

كان يلاحظ دون تعليق، لقد كان الأمر كذلك حقاً وانتهى. وفي صمت الأفكار والنوايا، فإن النقيب أغلق برجله دفتي النخيل اللتين تشكلان الباب. مدَّ لهـــا بيده، وأمسك بالفستان الملتصق بجلد الفتاة. لم تتحرك برناردا و لم تخفض عينيها.

كانت طفلة صغيرة تأتيه راكضة، عارية، وسخة، وتتعلق بعنقه. وكان ناتاريو يعرض عليها ورقة العشرين المالية ولكنها كانت ترفضها. إن ما أريد هو أن أركب معك فوق السرج وأتمسك بقبعة الجلد، وألهو. شبت وهي تنام في الأرجوحة، فوق صدر "السركال"، وتضحك عندما يبدأ بدغدغة أخمصي قدميها. كان عالم الطفولة بالنـــسبة إلـــيها يتلخص كله في العرّاب، وأمامه لم يكن يوجد سوى صحراء من الأسف وعدم الاكتراث.

أكثر من عرّاب، كان أباً. وماذا؟ الأب الحقيقي كان فلورنسيو، وهي لم ترفض عندما أرادها العجوز. ومدَّ ناتاريو يده إلى بطنها، فظلت هي لا تتحرك، وعندما مرّت أصابعه من الأعلى، ابتسمت وخفضت عينيها. فشدّها النقيب إلى السرير الخشبي.

وبعد التنهد المتقطع، وصراخ النصر، مرّت برناردا بيدها خفيفة على وجه العرّاب؛ تحركت، ابتسمت، وقالت:

- فكرت دائماً في أنني سأتمدد معك هكذا..

وشدّت على الصدر الذي ينبع منه العرق كما كانت تفعل وهي صغيرة في الأرجوحة:

- لقد حدث لي في الحلم عدة مرات. عندما أريد شيئاً أحلم به. هل العرّاب كذلك؟ - كانت تفتش عن الحديث لتبقيه هناك.

- الحلم كذبة، وأن يحلم الإنسان فأمر لا يستحق العناء. عندما أريد شيئاً أفعله أو آخذه - وهدأ صوته ليستنتج: - أن يكون عندك أفضل من أن تحلمي. وأنا أيضاً كنت أريدك.

- "عرّابي" إنك لن تذهب الآن، أليس كذلك؟ لا يزال الوقت مبكراً - وكانت تعتذر: - ليس عندي شيء أقدمه لك.. فقد اقدم نفسي إذا كنت لا تزال راغباً.

وبينما كان ينتعل حذاءه، وقد عادت المطية من جولتها، وبعد أن استمرا معاً إلى أن غربت الشمس وغرقت في النهر، أراد النقيب أن يعرف:

- ماذا قال فضول؟

- إنه سيقيم دكاناً للأعمال هنا. وقال إن لهذا المكان مستقبلاً. ولا بدّ من أن يرجع.

- عندما يأتي، قولي له أن يوافيني ويكلمني في أتالايا. ولكن قولي له قبل أي شيء إن الهضبة التي تقع عند منحنى النهر، تلك الهضبة الأكثر ارتفاعاً، هي ملكي، منذ زمن بعيد.

كانت كلمة العرّاب هي الحقيقة والقانون، ولكن برناردا سألت فقط لتطيل المحادثة وبقاء النقيب والمغادرة، وإن دقيقة واحدة:

– هل اشتريتها مع بستان الكاكاو؟

– البــستان نلته من العقيد بالاستحقاق وقمت بأعمال أخرى لأستحق هذه القطعــة مـــن الأرض التي لا أعرف من كافأني بها: أهي العناية أم السفالة؟ كل ما أعرف هو أن هذه القطعة هي ملكي ولا أحد يضع يده فيها أو يطأها برجله.

لم يعـــرض عليها مالاً عندما استأذن بالانصراف: فهو سيؤذيها نفسياً إن فعل ذلـــك. وهي بدل المال طلبت فقط اعترافه بها. ولكنه قبل أن يسلك طريق العودة، فـــإن النقيب اتفق مع باستياو دا روزا ولوبيسينيو للاستفادة من المتبقي من الخشب المقطوع بأمر من عبد الله فضول: فبتلك الأخشاب سيبنون، على حساب النقيب، بيتاً صغيراً مؤلفاً من ثلاث غرف، حيث ستقيم برناردا وكوروكا لتمارس المهنة.. فمن يقتحم ويفوز بالأمر والسلطة تترتب عليه موجبات، ويجب أن يفي وينفذ.

الزنجي كاستور أبدووين دا أسونسيون يعتدي على أحد السادة الأشراف وينتهك عرضه

1

جاء الزنجي كاستور أبدووين دا أسونسيون معه من مقاطعة ريكونكافو بلقب تيساو الحار وظلّ يحتفظ به ولا يجيب حين ينادى باسمه الأصلي إلا نادراً ثم أصبح معروفاً بتيساو، الشاب الماجن في الوقت نفسه، وبعدما أصبح فاراً من عقاب ينتظره، خلف وراءه نهائياً لقب "أمير إيبانو" الذي كان يلقبه به أدروالدو مونيز سارابيفا دي البوكيركي، بارون إيتاواسو، بلكنة استهزاء، ولكن البارونة ماري كلود دوكلاس سارابيفا دي البوكيركي، أو ببساطة "المداما" كانت تتلفظ باللقب وهي تقلب عينيها، وتعض على لسانها، وتحرك ردفيها..

بل تحرك قفاها: لا ساقيها، أو ردفيها، أو مقعدها، تقول الزنجية روفينا، المتيمة حباً، على مسمع العاملين معها في مطبخ الدار الكبيرة، فتثير الضحك والاستهزاء؛ وكونها سيدة كبيرة محرومة من حق ممارسة هذه العلامات من الكبر فهي لم تكن قادرة على نفخها وإبرازها.. ولكنها بالمقابل، كانت تلقي على الزنجي عينين كبيرتين، زائغتين، وتظهر تحت سترتها الشفافة صدراً صغيراً ولكنه صلب، ويرتفع هو أكثر من أبيض، وردي، إنه المتعة! وعندما بان الشاب كاستور، وهو يرتدي بزة العمل الملونة، ويظهر في القاعة وقد جلب آنية الكريستال على صينية من الفضة، كانت البارونة تهمس: – يا أميري – ثم يتمطى الصوت دلالاً وإثارة.. وكذلك كان صوت روفينا يتمطى دلالاً عندما تراه في مشتمل الدار الكبيرة، وكله أخضر وأصفر مع علامات حمراء فوق الردفين الواسعين القصيرين: كانت تتنهد: تيساو الحار، إليّ يا تيساو! جسد نزق يليق بسيد من الأشراف، أو بشخص

محتـــرم مثقف: الفخذان عاريان، والكتفان ظاهرتان، والصدر نافر، واللون قهوائي – حليبـــــي، تكشف نصفها وهي ترتدي قميصاً قطنياً ولكن ليس بإباحية بل مع قليل من الخوف، ومنطلقة كالصياد مع الريح، كانت تسبح في أعالي البحر، معتزة بلهيب كاستور الملقب بتيساو الحار الذي كان يشعل أكوام الحطب في أحشائها.

كـــان كاستور يشعر بحرية الحركة وهو يرتدي بزّة العمل الملونة، بزّة خادم زنجـــي في دار كـــبيرة، حيكت له على مرأى من البارونة التي كانت قد اختارت موضـــتها من إحدى مجلات الأزياء. ولكن تيساو كان يفضل أن يعلّق الفوطة من الأمـــام وهي متصلة بالزنار كما يفضل حرارة الحدادة في مشغل عمه كريستوفار أبدووين القريب الوحيد له.. ولكن البارونة سحبته من محل الحدادة لتحوله تدريجياً مـــن حـــداد إلى خادم، فإلى مشعل النار، فإلى عشيق مفضل: ليس لديه رغبة في الخدمـــة ولا مـــصلحة.. ولكن مع ذلك، وبالرغم من ملابس الخدم، فقد حافظ كاســـتور علـــى قامته المديدة المرتفعة، وعلى ضحكته المقهقهة والمحيرة، أما شرخ الـــشباب فقـــد كـــان تيساو الحار أو الأمير الأسود يجعل به روفينا فاقدة صوابها ومستعدة لمواجهة أسوأ النتائج، كما يجعل البارونة هائمة المشاعر أبداً.

2

علمـــت البارونة "ماري كلود دوكلاس سارابيفا دي البوكيركي" أن للزنوج أفـــضل طاقـــة ونوعية في ممارسة الجنس، من مادلين كامو، المولودة مادلين بورني، زميلـــتها في المدرســـة، الأكبر منها سناً. ففي مدرسة القلب المقدس، عندما كانتا طالبـــتين عند الراهبات، وصديقتين حميمتين، كانتا تتبادلان المعلومات، وتتحدثان عـــن الأحلام والمشاريع، وتناقشان الأمور الدينية والدنيوية، وهما متحمستان لليوم الذي تنالان فيه الحرية.

عـــندما عـــادت من الغوادولوب حيث كان زوجها المقدم الأول في المدفعية يقود فرقة، فإن مادلين صرحت تصريحين يسترعيان الانتباه حقاً:

1 – إن كل المقدمين الأول يولدون – وتولد معهم موهبة لا تضاهى في حمل القرون، والمرأة الأكثر خضوعاً وتدجنا بين الزوجات لا تستطيع أن تمنع هؤلاء عن ممارسة مواهبهم.

2 – إن الزنوج، في أمور الفراش، بشكل مطلق، لا يضاهون، وليس من مثال على ذلك أفضل مما قام به زوج مادلين نفسه عندما جاء إلى البيت بالزنجي دودون، بصفة مراسل، حيث أعطاها البرهان الساطع، والأروع، والذي هو الجزء الأهم في التصريح الثاني.

وعندما أعلنت بارونة وسيدة شريفة بفضل محتدها النبيل، الاستعماري، أكثر أو أقل، وعرقها الممتزج، وغناها – فيما يتعلق بالثروة لم يكن هناك، أكثر أو أقل، بـــل أكثر فأكثر – فإن ماري كلود سافرت إلى الممتلكات البعيدة والغامضة حيث تقع مملكتها الحلوة والخضراء، مملكة قصب السكر والخدم والزنوج، وكانت تحمل بـــين أمتعتها الفساتين الأنيقة، وعلبة كاملة من المستحضرات، وتوصيات الأمومة الحزينة، وعلى الأخص ما تحمله من معلومات مثيرة زودتها بها مادلين. في البدء كل شيء بدا جديداً وحيوياً وسبباً لإقامة عيد وإطلاق ابتسامة، ولكن الرتابة لم تتأخر في أن تذر بقرنها.

تعـــبة من الحفلات الريفية التي بسبب الأناقة والعادات الأوروبية كانت تثير الحـــسد وتـــستدعي التعليقات بين النساء المتخلفات وذات النسب الوضيع، وتعبة علـــى الأخص من حماقة سيد إيتاواسو، المعتز بنفسه بقدر ما كان مملاً، فإن ماري كلـــود لتـــتمكن من استيعاب التفاهات وتحمل الاندفان في هذا المكان، وحيدة، وبـــرفقة البارون، كرست نفسها لممارسة ركوب الخيل والتحول ممتطية، وراحت تجوب الحقول على الخيول الأصيلة التي هي أفضل وأقوى خيول ريكونكافو.

وبانتباه شديد، تأكدت بالممارسة أن الأسياد، يولدون بموهبة، لا تقبل الجدل، للقـــرون الكـــبيرة: مـــن المستحيل إيقاف هذه الموهبة عن التحقق. وكون الأمر كـــذلك، فـــإن المرأة المخلصة يجب أن تكون مستعدة للقيام بواجبها، ومتعاونة في تحقيق قدر زوجها.

وفي أحـــد الأيـــام، وبيـــنما كانا يتبادلان الحديث عن الطهارة والجمال، وهما يـــسيران، فإن البارون أدروالدو أشار بإصبعه إلى زنجي شاب منهمك في العمل في محل الحدادة، مسترعياً بذلك انتباه البارونة لتنظر إلى النوع الرائع من الحيوانات الأصيلة:

– انظـــري إلى القامـــة، إلى الرجلين، إلى الصدر، إلى الرأس، يا حبيبتي: إنه حيوان جميل، نموذج متكامل. انظري إلى أسنانه.

نظــرت مطــيعة وشديدة الاهتمام، وأطالت النظر في النموذج المتكامل في الحــيوان الجميل. لاحظت الأسنان البيضاء، والابتسامة الكسولة. يا للأسف! إن صفيحة معدنية كانت تخفي مقدمته.

كــان الــبارون خبيراً في الأنواع، وقد ورث نباهته عن أبيه، وهو عليم في اختيار وشراء الجياد والعبيد. ولكن ماري كلود تعلمت في مدرسة راهبات القلب المقــدس أن للــزنوج أيــضاً روحاً يكتسبونها بالعمادة. إنها روح استعمارية، من الدرجــة الثانية، ولكنها كافية على كل حال لتمييزهم عن الحيوانات: إن طيبة الله لا حدود لها، كانت تشرح لهن الأخت سورور دومينيك وهي تتحدث عن بطولة الإرساليات الدينية في قلب أفريقيا المتوحشة.

- "مي با دي تو. مونامي، سنيبا أنانيمال" لا، قطعاً، لا، يا صديقي، إنه ليس حيواناً. إنه رجل وله روح خالدة وهبه إياها المبشّر حين عمّده.

- رجل؟ - قهقه البارون ضاحكاً.. وهو يجيبها بالفرنسية.

عــندما كــان الــسيد إيتاواسو يضحك بالطريقة الفرنسية، ويفرض نفسه أرســتقراطياً مــثقفاً وساخراً وهو يتسلى بالحماقة الإنسانية كان يغدو تحمله أمراً مستحيلاً. كان أحد البارونات أمثاله ويدعى أدرواردو ريبيرا دا كوستا، وهو مجاز في الأدب مــن ســانتو أمارو، عندما كان يسمعه منطلقاً في ذبح لغة بودلير دون رحمــة، يمضي بالإشارة إليه بالسيد "الفرانسيو" على مسامع المصغين وخلف ظهر الــبارون نفسه، ثم يضيف معلقاً: إن الشاعر كان يعيش حقاً في القمر ولكن ليس إلى درجة القبول بتعرضه لغضب الذي يأمر المطر فينهمر.

- لا تأخذي الأمر بمأخذ السوء، يا حبيبتي، ولكن تأكيدك يأتي من باب عدم الانتــباه. أيــن سمعت أحدهم يقول إن الزنجي رجل؟ إنه حيوان جميل، أكرّر وهو بالتأكيد أقل ذكاء من حصانك "الماسة الزرقاء"

- "تري بووى" إنه جميل جداً، أجل إنه رجل جميل، إنه أمير. أمير إيبانو.

- أمــير إيــبانو! إنك غريبة، حقاً جعلتني أضحك - ثم فرض نفسه متفوقاً وسيداً مطلقاً.

إن التأكيدات الغليظة، والشتائم التي فاه بها البارون جعلت البارونة تقتنع: إنه القدر. هو القدر مكتوب في السماء.. وتبنت البارونة كاستور ولم تندم، ولو علم

السيد الشريف بالمصلحة التي اقتضت تغيير حالة الحداد المتدرج، والذي يخدم الآن علـــى المائـــدة، لقام بعمل فظيع، ولكنه هو نفسه مشغول في قطف ثمار العذارى اللواتي يستخدمهن ويستغلهن كما لو كان زمن العبودية ما زال سارياً.

سيد إقطاعي، كان قد أكل "العشرينات الثلاث" للكثيرات منهن، ولكنه مع روفينا حافظ على علاقة طويلة: فهي، في مطبخ الدار الكبيرة، كانت تبدو بملامح راقـــية، فحمـــة مكسوة بالذهب والفضة - أساور، أقراط أذن، مناديل، وعقود، بالإضـــافة إلى إشارة دينية ذهبية كان قد أهداها إياها الأسقف. إن كرم البارون لا يعرف حدوداً: كما لو أن المداعبات الطيبة لم تكن كافية، وكما لو أنه يسعى إلى أن يعلم الزنجية ممارسة الأمور ممارسة رفيعة المستوى ولكن دون نتيجة، لأنها كانت تفضل الممارسة الطبيعية.

ولإنهاء الحكاية، فإن الحبكة المفصلة لوضع القرون المزدوجة لسيد إيتاواسو لم تفصح عن نفسها إلا متأخرة عندما بلغت تفاصيلها توكايا غراندي، وسجلت فوراً كعمـــل تميّـــز بـــه ذلك الذي خلال وقت قصير أصبح في خدمة المصلحة العامة: يحـــارب علـــى جبهتين، على جبهة البارون الذهبية، وجبهة روفينا الفضية، وبكل قوة، وبراءة، ابن الثامنة عشرة، كاستور أبدووين الذي علّق الشارات والقرون على جمجمة البارون الأرستقراطية.

3

كان بطن البارونة، الناعم والمعطر، يرتعص نَـــزَقاً ويتقوس، عندما كانت في وحـــدتها الحالمـــة لا يكـــدرها سوى شخير البارون، وتفكر في أمير إيبانو وتتجـــسده أمامهـــا بكل تفاصيله: الشفتان غليظتان، الأسنان مرهفة قاطعة، واللـــسان معجعج، والصدر عريض، والفخذان قويان، وأما الباقي فويلاه! لا تـــتلفظ أبداً بالباقي، وهي لا تستعمل أبداً تعبيراً، كهذا، وضيعاً، وغير مرهف لتـــسمي تلك الزيادة الوحيدة والأمامية التي بمجرد مشاهدتها كان يطير صواب روفيـــنا وتـــصطك أطراف البارونة، وتتبلل أجزاؤها؛ الأجزاء هي أيضاً كلمة تعيسة، مستعملة على ألسنة العاملين في المطبخ وهي يجب أن لا تتلفظ بها، والتي من حرارتها، فلينجنا الله ويحرسنا.

وبالـــرغم من الحساسية في ملمس الجلد، فإن البارونة كانت تحافظ في تلك اللحظـــات على رباطة جأشها ويغمرها المنطق والتظاهر بعدم الانبهار وهما صفتان تتميز بهما بلاد الغال.

روفينا، المنازعة بقاءها بتحمل دلال البارون وملامساته الحضارية، وهي تحتقر مالكها المغنط، والمقرن، فإنها كانت تفتش عن تعزية نفسها وإشباع حرمانها على نفـــس الـــصدر الـــذي كانت تتوسده البارونة بينما الأخرى تكون منصرفة إلى الاهتمام بتصفيف شعرها الأشقر: إن كاستور أبدووين دا أسونسيون، أمير إيبانو، وخادم الرفاهية، المتدرج من ماريشال حدادة في بيطرة عمه كريستوفار أبدووين، مثل روفينا، ذو رأس صنعه الإله شانغو.

في أدغـــال قـــصب الـــسكر، وفي حي الوجهاء كما في قصور السادة نبلاء ريكونكافـــو، في مـــدن سان فيليكس، وكاشويرا، موريتيبا وسانتو أمارو، ومن ماركوجيبـــي إلى العاصمة، فإن جمعية المخدوعين أصبح لها رئيس جديد ومشهور هـــو بـــارون إيتاواسو، "موسيو" فرانسيو، ذو القرون الأربعة، المقرن، أبو القرون الكبيرة، ملك الجميع. "أون جانتل كوكو" لاستعمال التحديد الظريف والمعبّر عن الـــصداقة على فم البارونة زوجته. آه - إن فم البارونة فقط يمكن تشبيهه بمطرح روفيـــنا، فكلاهمـــا تحفـــتان، وبارعان، وخبيران، ولكليهما رأي يعبر عنه البارون أدروالدو مونيز سارابيفا دي البوكيركي، وسيد الأشراف، ويشاطره الرأي الزنجي كاستور الذي ولد عبداً في مزارع قصب السكر.. مرة أخرى يأتي البرهان على أن الحقـــيقة تفـــرض نفسها على العالم والجاهل، وعلى الفقير والغني، وعلى الشريف والوضيع.

4

لكـــي لا يـــتم الحكم بالسوء على أدروالدو مونيز سارابيفا دي البوكيركي، بـــارون إيتاواســـو، ولكي لا تضفى عليه صفة النبيل المتخلف، الرازح تحت أثقال الأحكام المسبقة والوضيعة غير المستحق لزوجته الأوروبية المتمدنة، يجب القول إن الحادثـــة مع كاستور، موضوع الاعتداء والهروب، لم تكن بسبب العلاقة الحميمة بين البارونة ومساعد الحداد الزنجي كاستور. فكل ما هو ثابت بالأدلة يشير إلى أن

القـــرون التي ركبتها له مداعبات البارونة لتمضية الوقت لم تحرك لديه ساكناً. فقد كان يحمل تلك القرون باعتزاز، أو عدم اكتراث، ليكون المثل الصالح للسادة برابرة الـــسكر ذوي الـــشريعة العادلـــة الذين يقتلون البيض والبيضاوات ممن يختلطون بالزنوج، أما الزنوج فكانوا يسلخون قبل أن يقتلوا! وما جعل البارون يهز بذراعه الـــسوط ليفتح أثلاماً من الدم في ظهر روفينا العارية، كان بسبب المذلة التي سببها تـــصرف الوضـــيعة: العقوق، وقلة الاحترام. لقد أحس بنفسه معتدى عليه بسبب انتهاك ما هو أقدس الأقداس بالنسبة إليه، ألا وهو حس الملكية. لقد صرف الكثير من المال ووضح الكثير من معلوماته مع الشقية – لقد أعطاها شرف فضّ عذريتها والتمتع معها باستمرار: وسعى إلى تعليمها ما هو متعلق بالممارسات الجنسية الراقية ولكن النبتة البرية، السيئة، لم تكن لتنبت في التربة الصالحة، وأعطاها صفة العشيقة ليرتفع بها من مستوى خادمة بيت، وحيوان أليف، هذا بالإضافة إلى الهدايا الكثيرة مـــن الفساتين والحلي. إن خيانة الزنجية آلمته في عمق أعماقه؛ لم يكن أمر هذه مثل أمـــر نـــــزوة زوجته المؤقتة، وخفتها المضحكة، وخطيئتها العرضية؛ إن الأمر مع الـــزنجية يتعلق بخطيئة مميتة خطيرة، ومواجهة وضيعة وتقرين مذل للسيد والعشيق، وجريمة لا تغتفر. إن التسامح مع فظاعة كهذه خطر على مبادئ المجتمع وقيمه.

لهذا، فهو عندما عاد من رياضة ركوب الخيل الصباحية فإنه فاجأ، في مشتمل الإقامة القديم، روفينا يأخذها كاستور بطريقة المبتدئين الجهلة، الزنجية في الأسفل، والزنجـــي من الأعلى، فأصيب البارون بالغضب: ثم أمسك الغضب وراح ليصغي متربـــصاً إلى تنهـــيد روفيـــنا، وإذ لم يـــتمالك نفسه راح البارون يعطي الأمثولة بالـــسوط.. ولكـــن كاستور انتزع منه السوط وكسره إلى قسمين ثم رماه بعيداً. وبدلاً من السوط فقد نال البارون صفعة، وشتيمة، وتهديداً.

– سأرســـل من يقلع خصيتيك، يا أمير البراز، أيها الزنجي التافه. وإذ انقلب وجهـــه قاســـي الملامح، ونظره حاداً شرساً، فإن أمير "كائناً من كان" إيبانو، أو الـــبراز، أخـــذ البارون من سترة الركوب بيده اليسرى، وراح باليمنى يملأ وجهه بصفعات تنهال عليه كالمطارق، ولم يتوقف عن التسديد إلا حين تجمع بعض الناس مقـــبلين من الدار الكبيرة وسائر المجمع السكني إقبال من يأتي إلى حفلة عيد: فليس كل يوم يمكن مشاهدة مشهد تلقيم الصفعات وقبضات اليد لواحد من الأشراف.

وإذ جعـــل الزنجي رأسه ورقبته موضوع جائزة مالية بالتصرف الذي تصرفه، فقـــد أطلق رجليه للمجهول وانطلق في هذا العالم. وتأخرت البارونة عمداً لأنها لم تـــرد أن تـــتدخل لإنقاذ الزنجي.. لم ترد أن تتدخل لأنها تأثرت تأثراً عميقاً بخيانة الزنجـــي. يا مجدلية!! أجمل زنجي في العالم وألعن الرجال. وتمرضت البارونة ملازمة الفـــراش تقـــضي أيامها كئيبة ولكنها ما لبثت أن قامت بردة فعل وراحت تستعد لرحلة إلى أوروبا برفقة البارون. في شهر عسل جديد استحقته استحقاقاً.

وصل الهارب إلى العاصمة بعدما اجتاز نهر باراغواسو على متن مركـب يحمل الـــسكر والكاشاسا. واعتبرت الأم جيرترود دي أوشون التي استضافته. إن مدينة باهيا قريبة جداً من سانتو أمارو وليس بمقدورها أن تكفل حياة زنجي متهم بجرائم كبيرة. لقد تجرأ على أن يرفع عينيه إلى الزوجة الشريفة والمصونة، وطرد، لأنه أراد أن يعـــتدي علـــى زنجية فقيرة ليس لها من يدافع عنها، وإذ منع من الاسترسال في اعتدائه فقد حاول أن يقتل السيد النبيل. وكانت الشرطة تتعقبه لزجّه في السجن، والمرتزقة قد جاؤوا من ولاية ريكانكافو وانتشروا في الطرقات مع الأوامر بقتله.

مختبـــئاً في مخزن أحد المراكب الشراعية سافر كاستور من باهيا إلى إيلايوس. وفي إيلايـــوس، حـــيث راح يتسكع، انتهى إلى مزرعة كاكاو شاسعة بين بونتال وأوليفنسا، فإن الأب آرولا أنقذه من التسكع وأوصى به إلى العقيد روبستيانو دي أراجو الذي لم يكن غناه ليمنعه من إعطاء الطعام إلى الكهنة ويأخذ بالمقابل البركة والنـــصائح المجانية. وفي مملكة الكاكاو فإن الأب آرولا كان يملك امتيازات بقدر امتـــيازات أسقف أو أكثر: كان أول الواصلين إلى هناك وامتلك سلطات قوية، لا تقبل النقاش، على الشمس والمطر.

5

أمضى كاستور خمس سنوات يعمل في حداية الجياد في مزرعة سانتا ماريانا، عـــندما، وهـــو يقتفـــي أثر قافلة من الحمير حدث له أن أمضى الليل في توكايا غراندي. كانت مدينة إيتابونا وجهته، وبشكل أدق، كانت وجهته شوارع الركن الذي تقوم فيه بيوت الغانيات حيث كان يذهب لانتشال جسده من الشقاء. فمن رُبّـــي في الدلال، يأكل المآكل الناعمة والطيبات الوطنية والأجنبية في مقاصير نبلاء

السكر في ريكونكافو، فإن مزارع الكاكاو في جنوب الولاية كانت تشعره بالرغبة الشديدة في مادة المرأة.

في الـــشؤون الأخرى كان راضياً عن كل شيء و لم يكن يشعر بالشوق إلا لعمه، وحتى إذا تمكّن من الرجوع، فهو لن يرجع.. إنه هنا لا يشعر بالعبودية التي تعطـــيه حقـــاً واحداً هو الطاعة دون أن يرتفع صوته. وهو، حين عومل كأمير، ووضـــع القرون للبارون فوق شراشف حرير الرفاهية، وأغطية القطن الطبيعي في فراش البارونة لم يحس بنفسه رجلاً حراً. ولكي يفوز بهذا الإحساس، كان ضرورياً أن يـــنهال بيده على وجه السيد النبيل، ويجازف بحياته، ويجتاز العالم وصولاً إلى منائي الكاكاو حيث لكل إنسان قيمته، وحيث يدفع له، خيراً أو شراً، مقابل صنيعه.

إن قلة النساء في المزرعة كان يعالجها بمرافقة قوافل الحمير: إلى المستودعات، والأمـــاكن الآهلة، والمدن حيث كان يتوفر دفء العاهرات؛ وانتهى إلى أن ينضج ويـــصبح زنجياً هادئاً وودوداً، وحافظ على حركته الطبيعية وقامته المديدة، وخلقه الحميمي، وعندما كان يتأخر عن الرجوع، كانت بعض الفتيات يعبرن عن الأسف لغياب كاستور تيساو، الطويل: فلإحياء حفلة لم يكن هناك من يماثله أو يضاهيه.

فـــنان قدير ونبيه في مصنع حدادة سانتا ماريانا حيث يلبي حاجات المزرعة – حداية العجول، وصناعة السُرج والمهاميز، وشحذ الفؤوس، وإصلاح أدوات العمل – فـــإن كاســـتور، ليتسلى، كان يصنع السكاكين والخناجر والخواتم لإهدائها إلى اللواتي يعرفهن، وأدوات زينة من الحديد كان يرسلها هدية إلى الأب آرولا: قوس وســـهم أوشوسي، وتجسيم الإله أوشوم والآلهة إيمنجا، وتمثال صغير يمثل رأس الإله شانغو، أما العقيد فلم يكن يلقي بالإطراءات مجاناً على موهبة الحداد الذي هو فنان في نظـــره. كـــان تيـــساو قد أهدى العقيد المزارع سرجين صنعهما بنفسه وكانا قطعتين فنيتين لهما قيمة كبيرة.

العقـــيد روبستيانو دي أراجو كان شخصاً طيباً؛ غني وقدير، و لم يكن يمارس روحـــية إقطاعية ولا ينظر من أعلى، باحتقار، إلى العمال، وبالرغم من هذا، كان حلـــم كاســـتور إنشاء مصنع حدادة في أحد الأماكن المأهولة حديثاً، حيث يعمل لحسابه الخاص، فلا يخدم سيداً مقابل أي شيء.

تيساو بمساعدة كوروكا يقتلع ضرساً ملتهبة من لثة عشيقة مانويل برناردس القاتل الشهير

1

فجـــأة – بـــددت الهدوء المعتاد عند بداية الليل في المخيم الكبير، الذي غدته تـــوكايا غـــراندي، صيحات ألم مدوية. كانت الصيحات تأتي من بعيد وتقترب، مـــرتفعة أكثر فأكثر: إنها آهات ألم يائسة. كان أحدهم قد أطلق صوته مستنجداً، وهو يتكلم عن الموت، صمتت الهرمونيكا بين يدي بيدرو سيغانو الذي كان يعيش علـــى "يعطي الله" دون سكة محددة، يعمل كل شيء ولا يعمل شيئاً. أما اللاعبون المدمنون والمياومون على اللعب فقد علقوا رهاناتهم؛ حداة القوافل والعمال أصيبوا بالدهشة فوقفوا ثم خرجوا ليروا ما كان يحدث... وإلى جانب كوروكا في الفراش استدار الزنجي كاستور نصف استدارة وهو يصغي:

– يبدو أنهم يقتلون أحداً – علقت امرأة الهوى.

– سأذهب لأرى – قال الزنجي وهو يدخل في سرواله: – سأعود بعد قليل.

– وأنا سأذهب – قالت كوروكا ثم أرهفت سمعها: – إنه بكاء امرأة.

كانـــت تدور حول توكايا غراندي أسطورة من الخطر والعنف – إن توكايا غـــراندي لم تنل هذا الاسم بالصدفة، وإن لم يكن قد سمع أخيراً نبأ عن منازعات دامـــية في المكان. طلقة رصاص من حين لآخر، أو طعنة سكين، وعراكات حول ورق اللعب بسبب التزوير. قبل أيام فإن أجيرين كادا ينهيان واحدهما الآخر طعناً بالخناجـــر لتقرير من منهما يقضي الليل مع برناردا؛ سالت الدماء، ولكن لم يكن هـــناك قتلى – إنها حادثة لا أهمية لها.. ومع ذلك، فإن المقيمين والمارة قد استنفروا أنفسهم عندما سمعوا صرخات الألم وطلبات النجدة.

ثلاثـــة أشـــخاص كانوا قد خيموا وراء مخزن الكاكاو آتين من مزرعة سانتا ماريانا يريحون قوافلهم التي جاؤوا بها والمستأجرين الذين كانوا يحرسونها.

تمكن كاستور وكوروكا من أن يميزا على ضوء البدر امرأة شابة زنجية فاحمة ذات شـــعر أجعد طويل وهي تضع يداً على خدها وتتلوى ألماً دون توقف. كان يـــرافقها رجل نحيل تقدمت به السن قليلاً وامرأة عجوز. تقدمت كوروكا لملاقاة السائرين باتجاهها: ليس الأمر مهماً، إنها مريضة، في طريقها إلى إيتابونا، تفتيشاً عن عـــلاج. ليس مفروضاً أن تكون في حال خطيرة لأنها كانت آتية سيراً على الأقدام وليـــست محمـــولة على الأكتاف في شبكة إسعاف. وسمع صوت الهزء من زعيق المرأة:

– إلى هذا الحدِّ تفحين بسبب ضرس؟ وتوقظين الناس بسبب تفاهة كهذه؟ يا للرخص: – حزينة وغاضبة فإن المرأة العجوز واجهت كوروكا:

– أريـــد أن أرى مـــا كنت ستفعلين لو كان الأمر قد أصابك، يا سيدة. إن المـــسكينة تـــتألم دون انقطاع، منذ ثلاثة أيام، ودون راحة. لقد بدأت أمس ولم تتوقف عن العذاب الذي يزداد ولا يعطي راحة للشقية.

ورفعت صوتها ليسمعها الفضوليون المجتمعون:

– إنـــنا ذاهبون إلى تاكاراس لنرى ما إذا كان هناك أحد أبناء الله ممن يقلعون أضراساً. وإذا لم نجد فإننا سنتابع إلى إيتابونا. إنها ابنتي، وامرأته.

أشارت إلى الرجل الذي كان يلتزم الصمت. كانت العجوز تملأ كيس القدرة على التحمل، وكان عليها بالتأكيد أن تكرر الشرح عن الطريق، فاستطردت:

– إن أباريسيدا التي..

ولم تستطع أن تتابع لأن صوت الرجل الأبح قطع الكلام:

– يكفي! إنك تتكلمين أكثر مما يجب.

كان الرجل يضع خنجراً على زناره وبيتاً من الرصاص معلقاً في كتفه. ودون أن تكون العجوز مضطرة إلى التوضيح فقد علم الجميع أن المرأة المتوجعة هي ملكه بـــسبب قلقه عليها واهتمامه بها المنعكسين على سحنته الممتعضة التي كانت تنفرج قليلاً لدى رؤيتها تكف عن النحيب. ووقف الرجل في وجه كاستور عندما وصل الأخير بضحكته عارضاً نفسه:

– إذا كنت تفتشين عمن يقلع ضرسك يا سيدة فلست مضطرة إلى الذهاب إلى تاكاراس. هنا بالذات يمكن القيام بالأمر. تعالي معي.

– آتي إلى أين؟

– إلى مخزن العقيد روبستيانو لأتبين حالة الضرس الملتهبة.

– وهـل اعـتدت أن تعتني بوجع الأضراس؟ – أكثر من السؤال هو موجة الصوت المليء بالشك والحذر.

لم يتراجع كاستور ولم يتجهم، بل افترَّ ثغره عن ابتسامة:

– نعم أعتني. هيا يا امرأة.

وبإشارة من الرجل مشوا إلى مستودع الكاكاو ففتح الأجراء الطريق للمجموعة المعيـنة وهم مهتمون، بنفس القدر، لمعرفة تطورات الموضوع. كان الحضور قد ازداد بوجـود بيدرو سيغانو، برناردا، لوبيسينيو، باستياو دا روزا، والعمال ورجال القوافل. كانـوا يتبادلون الهمسات وينظرون بإمعان إلى الرجل المسلح وما أن قام رقيب الأجراء بحـركة حـتى أجابه باستياو دا روزا بحركة أخرى مؤكدة. عرف الاثنان المسلح: لقد كـبر في الـسن وظهـرت عليه التجاعيد مما جعله الآن أكثر خطراً من قبل. وأحس لوبيسينيو ببرد في مواضعه: كل شيء يمكن أن يحدث.

طلب تيساو من المرأة أن تجلس فوق أكياس الكاكاو وتفتح فمها، ولكنها لم تحرك ساكناً وظلت ترتعص ألماً، بانتظار قرار حاميها الذي أصرَّ على السؤال:

– هل تعتني بالأضراس، حقاً؟

ضحك الزنجي من جديد، وإذا الفكاهي والمتكلم اللبق يستطرد:

– لقد قلت لسيادتك من قبل.

– لست سيادتك ولا سيد أحد. إني مانويل برناردس من إيتاكاريه ولا أحب الـزعل. سـأطلب منها أن تجلس ولكن المسؤولية تقع عليك. وكيَّف صوته وهو يتوجه إلى امرأته هيا، اجلسي، يا كلوريندا، وافتحي فمك وأري الشاب ضرسك.

كـان لوبيـسينيو وباستياو دا روزا قد كشفا هويته قبل أن يعلن اسمه منذراً مهدداً. كان قاتلاً ذائع الصيت في خدمة عائلة بادارو خلال الصراعات الدامية مع العقيد باسيليو دي أوليفيرا، وفي المعركة الأخيرة عندما نفدت ذخيرته ووجد نفسه وحـيداً وقـد أصـيب برصاصة في كتفه وتلطخ كلياً بالدم فإنه مع كل ذلك لم

يستسلم: متسلحاً بخنجر استطاع أن يجرح ثلاثة. وإذ غدا سجيناً مصاباً فإنهم كانوا سينتهون منه بطريقة سيئة ولكن العقيد باسيليو لم يوافق: لأن فحلاً من ذلك العيار لا يقتل بدم بارد، فأرسل من ينقذه ماداً له يد العون. ثم انتهى مانويل برناردس إلى العيش في إيتاكاريه حيث كان يزرع الذرة والشعير ويمتلك مطحنة وليس من شهرة تضاهي شهرته إلا شهرة النقيب ناتاريو دا فونسيكا.

في تلك الساعة خاف الجميع على حياة الزنجي تيساو، الشغول، والمتقن لعمله، والذي يحبه الجميع. إنه حداد ذو يد أكيدة وقوية وهي تضرب الحديد، حداد ذو أنامل لبقة وعالية الإتقان في معالجة المعادن. وكانت نقطة ضعفه الوحيدة هي سعيه إلى خدمة الآخرين أكثر مما يستطيع، ووضع إصبعه في كل شيء، ورغبته في حل كل مشكلة: "بعلزبوب" إنه سيدفع غالياً ثمن ما طلب منه أن يتدخل فيه؟ بالتأكيد ليس لديه القدرة ولا الحذاقة في هذا الأمر، وهو لا يتعدى كونه زنجياً يحب الاحتفالات والمزاح.

عندما كان مراهقاً تدخل في شأن زرافتي البارون: الشرعية والمحظية. في الوديان والهضاب، في مزارع قصب السكر وأحياء النبلاء، في المرج الأخضر والسماء الزرقاء امتطى المطيتين الخاصتين بالنبيل مجازفاً برأسه وخصيتيه.. فبرهن على قدرته وحذقه، ثم فقد الخوف مرة واحدة وإلى الأبد.

– تشرفت جداً بمعرفتك يا سيد مانويل. اسمي كاستور أبدووين، ويسمونني تيساو لأنني حداد.. ولديَّ سابقاً ألقاب أخرى أستطيع أن أخبرك عنها إذا رغبت يوماً. الآن هيا بنا نخفف من وجع السيدة. ليس في الحياة ألم يمكن مقارنته بألم الضرس، هذا ما سمعتهم يقولون ويكررون. الحمد لله أنني لم أصب يوماً بوجع الضرس – ضحك بملء فمه وهو يكشر عن أسنانه البيضاء.

– تحت أم فوق؟ ومن أية جهة يا سيدة؟

– في الأسفل. هيا.

2

الحاضرون اقتربوا وجميعهم يريدون أن يروا، وكانت النظرات تنتقل من المقاتل إلى الزنجي ومن المرأة إلى العجوز. طلب تيساو من كوروكا أن تحمل

القــنديل فوق رأس كلوريندا. لم يكن يستطيع أن يرى جيداً على الضوء الشاحب دخــان الفتيل، فراح ينقب بأصابعه في الجهة اليمنى إلى أن زعقت المريضة بصوت مرتفع وأحس هو بالحفرة في الضرس المسوسة. فأعلن:

- إنه تسوس - إذا أرادت.

وعاد صوت مانويل برناردس ببحثه، وهو لا يزال متشككاً مهدداً:

- هل سبق لك أن قلعت ضرساً من قبل؟

في قفــا الدنيا، حيث كان يضع الحدوات للبهائم انتهى إلى أن يصبح بيطرياً، وأكثــر من مرة كان كاستور قد اقتلع أضراساً لبعض الحمير والجياد. أما أضراس نساء ورجال، فلم يقتلع بعد، ولكن أي فرق في ذلك؟

- لا يوجد حساب.

في محفــوظات المستودع وجدوا كماشة. ثم طلب الزنجي أن يأتوا بشيء من الكاشاسا:

- لتجرع المرأة جرعة فيخف إحساسها بالوجع.

وجاء أحد رجال القوافل بزجاجة نصف ممتلئة. فأعطى تيساو المثل، وأطرى على النوعية: إنها من الصنف الجيد وشرع في كلوريندا:

- ستؤلمك، إذا رغبت في أن أقلعها يجب أن تتحملي قليلاً، وكانت الابتسامة تجعل عدم الثقة يتبخر: - إنها ليست أكثر من وجع، وبعده ينقضي، وينتهي الأمر.

- أجل، اعمل لي هذا المعروف.

وبلطف، فإن الزنجي قدم الزجاجة إلى الرجل العابس، داعياً إياه:

- مخمضة واحدة؟ إنها جيدة لتهدئة الدماغ.

- أعتذر.

- أتعــتذر؟ ألا تحــب الكاشاسا أم أنك مؤمن؟ ولكن المرأة لا تستطيع أن تعتذر، أحبت الكاشاسا أم لا.

بالطــريقة الــتي أخذت بها الزجاجة تبيّن للجميع فوراً أن كلوريندا لم تكن ترفض بلعه وقد توقفت عن الزعيق.

- والآن افتحــي فمك يا سيدتي، أمي كوروكا هات القنديل! راح يجس لثة المــتأوهة التي كانت ترتعص عند كل جسّة من اليد الثقيلة. في الصمت الضعيف،

الضاغط، كان جو من الاستنفار والحذر يحيط بالموجودين المتبهين إلى كل كلمة وكل حركة. وأخذت العجوز الزجاجة من يد الابنة وخدمت نفسها أيضاً. ضحك تيساو وعلّق:

– ما هذا "بيبي"؟ هل تريدين أن تقلعي ضرساً أنت الأخرى؟ – أمسكي هذا. – أعطاها الكماشة وعاد مع قليل الأدب: – أعرني الخنجر يا سيد مانويل؟

– لماذا؟

– سوف ترى في الحال. أحتاج إلى إبعاد اللثة حتى أستطيع أن أمسك الضرس بالكماشة.

استلم السلاح ووصف بلعة كاشاسا أخرى لكلوريندا.

– هكذا ستصبح ثملة – حذرت العجوز.

– بقدر ما تصبح ثملة يكون أفضل لها.

وافق بيدرو سيغانو وأطرى على الكلام بحركة من رأسه وهي تتناول مزيداً من الكاشاسا.

– هيئي نفسك لأنك ستحسين بقليل من الألم – أعلن كاستور.

– أسوأ مما هو، لا يمكن أن يكون – والكاشاسا إذا لم تخدرها فقد أعطتها الشجاعة وبينما يطلب من كوروكا أن تحرك القنديل بطريقة تسمح له بأن يرى ما في داخل الفم المفتوح، كان الزنجي قد فصل اللثة عن الضرس شيئاً فشيئاً، برأس الخنجر، وسالت خيوط من الدم على أطراف شفتي المرأة فحاد مانويل برناردس بنظره وتطلع إلى الأمام، وبالرغم من الارتعاصات القوية لم يكن يسمع أي ضجيج، أما كلوريندا، فكانت، بين الحين والآخر تتحرك عندما تحس بوخزة ما.

– الآن أعطى كاستور علماً – أعطها القنينة يا "بيبي"

أعاد الخنجر إلى مانويل برناردس الذي مسح عنه الدم بسروال الكاكي وانتظر تيساو ريثما تنتهي المرأة من الشرب وقد جعلها تمخمض وبالرغم من كل ذلك فقد وجد صعوبة في إدخال الكماشة. لم يكن سهلاً الإمساك بالضرس بين فكي الكماشة: على الرغم من الرهافة والحذاقة اللتين برهن عليهما في حداية الحيوانات فإن الكماشة قد عضّت مرتين أو ثلاث على اللثة المتشققة مما جعل

كلوريــندا تعض نفسها ألماً، واستفادت من لحظة إخراج الزنجي للكماشة من فمها ليــبعد اللثة بأصابعه عن الضرس، وأطلقت تنهيدة عميقة وقفزت واقفة ودون أن ينظر إليها فإن مانويل برناردس قال:

- أردت أن تقتلعــي الضرس، فعليك الآن أن تتحملي! لقد أنذرك الشاب. عودي إلى مكانك، اجلسي ولا تتحركي بعد.

كان أمراً، ولكنه أمر تمّ تبليغه بنعومة، فلم يرتفع الصوت، وهو لا يرفعه أبداً عــندما يتكلم مع كلوريندا. كان قد بلغ السيل زبى العابس، فرمق برناردا، واهتم بأمــر تيــساو: إن الزنجــي إذا أفــسد فم المرأة و لم يقلع الضرس فإن الموجودين سيشاهدون مشهداً آخر مزعجاً. نظر حوله وقرأ في وجوه الآخرين النــزاع نفسه فيا ويلاه، يا عذراء كابيستولا.

هدأت المرأة وتمكّن تيساو أخيراً من أن يمسك الضرس بفكي الكماشة. ثبَّت رجلــيه في الأرض واقــتلع بعنف، ولكن المريضة تحركت فقاومت الضرس التي لم تخرج مع الكماشة. الزنجي، صبوراً، أعاد الكرة ومضت دقائق كأنها الأبدية. كان الحضور يكظمون أنفاسهم. أحدهم، ربما برناردا، أطلقت تنهيدة قوية.. والآن تغيّر وأصبح قاسياً صوت مانويل برناردس الذي ارتفع آمراً:

- انته من هذا مرة واحدة!

ابتــسم كاستور على ضوء القنديل وتابع، هادئاً إلى أن أحس بالضرس وقد اســتوت جــيداً بين فكي الكماشة اللتين تمسكان بالضرس من جذرها. وطلب مساعدة رجلين ليثبتا كلوريندا ويمنعاها من الحراك. وقبل أن يتقدم أحد قرّر مانويل برناردس:

- لا أحتاج إلى أحد، يكفي أن أثبتها أنا وحدي.

وضــع البندقية على أكياس الكاكاو، ووضع يديه على رقبة المرأة. عندئذ ثبَّت كاستور جسده وسحب بكل قوته: قوة حداد معتاد على وضع الحدوات في حوافر الحيوانات، وضرب الحديد الحار بالمطرقة، وخرجت الكماشة موسخة بالــدم، فعرضــها كاستور مع الضرس بين الفكين، ضرس عوجاء يروق النظر إليها.

- ها هي ضرسك يا امرأة.

بــصقت كلوريندا بصقة كبيرة، ونظفت بيدها ذقنها الحمراء؛ أخذت قنينة الكاشاسا وشربت ما تبقى فيها كمن يشرب الماء، ثم وجهت شكرها:

- يحسن إليك الله. أيها الشاب. اعذرني على بعض الحركات السيئة.

وضع مانويل برناردس البندقية في كتفه. ثم اقترب:

- ضــع يدك في يدي - ومدَّ يده - اعذرني على التسرع في الحكم الذي كان بسبب رؤيتي إياك عصرياً جداً. إن العمل الذي قمت به مضنٍ حقاً. كم يتوجب عليَّ؟

- لا يتوجب شيء. إني لا أعيش من قلع الأضراس.

ونبتت، من مكان لا يعلمه أحد، قنينة كاشاسا أخرى، وراحت تنتقل من يد إلى يـــد فوصـــلت إليهم. مانويل برناردس علّقها في بلعومه، وبلع بلعتين كاملتين، ومسح فمه بردن السترة ثم ضحك للمرة الأولى وهو يعطي القنينة للزنجي:

- لــست مؤمناً، لا فليحرسني الله وينجيني، ولكني لم أكن أرغب في الشرب معك في تلك الساعة - إذا احتجتني في يوم فإنك تعلم أين أقيم.

فجأة سُمع لحن شجي يولد من ناي بيدرو سيغانو، كان لحناً شعبياً من الأغواس يغلـــي في دم وأرجل الناس.. وتجاوبت العجوز محنجلة بخطورة رقص خفيفة وتكونت حـــولها حلقة من الموجودين، والأيدي بدأت تصفق منطلقة مع اللحن والحركة الآخذة بالإســـراع. باستياو دا روزا، أبيض ذو عينين زرقاوين، جاء ببرنادوا إلى وسط الحلبة، أمـــا كلوريندا وقد هدأت، فقد نظرت إلى المقاتل المتقاعد قربها مانويل برناردس الذي عاد يبتسم وقد ارتاح صدره من وجع رفيقته وسورة القتل التي اعترته، فانتزع السلاح مـــن كتفه. كانت تفوح رائحة طيبة من أكياس الكاكاو المليئة وتمتزج برائحة الأجساد التي تفرز العرق، وكلها روائح مألوفة، عطور من الدرجة الأولى.

- دكـــتور تيساو.. - مازحت كوروكا وهي تعلّق القنديل على مسمار في باب المدخل.

تـــرك الاثـــنان الحفلـــة، وعادا إلى الفراش. لم تكن كوروكا معطرة ومغرية كالـــبارونة، ولم تكـــن لها قامة مديدة وجسد أهيف وشباب مثل روفينا، ولكنها استجابة لحاجة طارئة كانت تساوي ما تساويه أية امرأة أخرى: كان عندها خبرة بنت الهوى، ولهيب الزنجية.

3

عـــالم رطب حار، القفار والغبار يتنازعان روزنامة الكاكاو، الأمطار التي لا غـــنى عـــنها، كما الشمس، كانت تدوم نصف السنة، ثقيلة، لا تنتهي، وتتحول بسهولة إلى رياح خماسينية. وكانت تدوم أحياناً أكثر من الوقت الضروري فتصبح مأســـاوية النتائج وتفسد البراعم المحتاجة إلى الضوء والحرارة. العقداء ومساعدوهم مـــن المرتزقة والأجراء يفتشون وأعينهم مرتفعة إلى السماوات تفتيشاً عن علامات تبشر مرة بالمطر وأخرى بالطقس الجميل: حتى، بفعل الماء تزهر الأشجار، وبلمعان الـــشمس تعقد الأزهار وتنمو ثماراً قوية لتتحول إلى ذهب.. وحتى تبقى الأسطورة أكثر وقعاً لتلك المنطقة ذات الامتياز التي تدور حولها الأحاديث وتروى الحكايات التي بدأت في كل البلاد.

تفتيـــشاً عن العمل والثروة كانت تهبط من الشمال أو تصعد من الجنوب إلى ذلـــك الفردوس الجديد أقوام مختلفة من البشر المتألمين: عمال، مجرمون، مغامرون، نـــساء عامـــيات، محامون، ومبشرون مستعدون لأن يتحولوا إلى ودعاء.. وكانوا يـــصلون أيضاً من وراء البحار: عرب، ويهود، إيطاليون، سويسريون وألمان، ولا نـــنس إنكليـــز ســـكة حديد إيلايوس – الفتح – "دي ستات أوف باهيا ساوس ويـــسترن ريلـــواي كومـــباني" – والقنصل الإنكليزي مع بيرق بريطانيا العظمى بارتعاصـــته الـــتي لا تتـــبدل وميله الدائم إلى السكر، كان القنصل بكل الأعمال المنـــزلية، وفي الفراش، بعريها الصغير، كانت تبدو كإلهة من آلهات الغابات وربما كانـــت كـــذلك حقـــاً. وقد صنع لها السيد القنصل ولداً جميلاً، أشقر ذا عينين زرقاوين، وبشرة سمراء قهوائية – حليبية عجماء (أجنبية).

كانـــت أقـــوام موقع العمل الحديث ذاك، المعروف بغناه وقساوته، ذات معـــتقدات دينية ضعيفة بالرغم من ذكرها اسم الله متكرراً في بعض الحالات، وملفـــوظاً دون معنى، لإنجاح الكمائن وضروب الاحتيال التجاري. أما العقداء الـــذين يكثـــرون من الوعود فإنهم كانوا كل سنة يجددون نذورهم ويلزمون أنفـــسهم باتفاقيات مع العرش السماوي، بسبب الأمطار، أو بسبب الشمس، محـــاولين شراء إرادة القديسين الطيبة والعفو عن الجرائم، هذا إذا أمكن تسمية حوادث الفتح جرائم.

في زمــن الاســتعمار، قــبل أن يــوجد الكاكاو، كان قد جيء بالقديس جورجــيوس في ديوان العربات التبشيرية المتحولة التي يقودها البيض، وأعلن شفيع النقــباء وهو يمتطي جواده، وذراعه مرتفعة بالرمح، وأنه قديس محارب، وحامٍ في اللحظــة الحاسمــة، أما في عمق الغابات فإن العبيد قد جاؤوا على متن السفن التي تــنقلهم مــن أفريقيا بالقديس أوشوسي سيد الغابة والحيوانات. وأذابوا القديس الأوروبي – بالإلــه الأفريقــي في وحدة ألوهية تأمر الشمس والمطر وتتلقى النذور والتــراتيل والقداديس والحفلات الهستيرية الراقصة: أمام الأيقونات المحمولة، أو في باحة كاتدرائية إيلايوس أو في كنيسة الأب آرولا الذي ولد عبداً ونذر نفسه هناك حامياً للحرية.. وفي مقر الإقامة المتواضعة أكثر أو أقل، جنباً إلى جنب، وضع الأب آرولا القــوس والــسهم رمز الإله أوشوسي الذي صنعه كاستور تيساو أبدووين، والــصورة بألوان زاهية للقديس جورجيوس وهو في القمر يصرع التنين وقد أهداه إياهــا العــربي فضول عبد الله الرجل الذي يخاف الله في ساعات التوله الوجداني عندما تسمح التجارة بذلك.

كانت الطرقات والدروب والشعاب التي تقود إلى المزارع الآهلة، إلى المخازن ومحطــات سكة حديد الإنكليز، إلى مدينة إيتابونا أو مرفأ إيلايوس، لا تعد، كونها سلسلة من التهديدات للحيوانات والبشر: أجمات الافتراس، ومهاوٍ تشيع الرعب، مــنحدرات عمــودية، ومرتفعات شاهقة، والخطر يركن تحت كلِّ خطوة ثقيلة، لــتجاوزها، فإن الحمير والبغال ذات الخطو البطيء والحذر، كانت أكثر قيمة من الجياد ذات الخبب الأنيق والعدو السريع.

بعــض العقــداء المعتزين بالثروة والرجولة، ونبلاء إنكليز من ذوي الشعور الــشقراء الــسابلة والسحنة السمراء، كانوا يحبون أن يعرضوا الخواتم الذهبية في الأصــابع المعتادة على الضغط على زناد المسدس، وأن يفتحوا حساباً في الدكاكين للفتــيات الأنيقات ذوات المصاريف المكلفة اللواتي جيء بهن من باهيا، وآراكاجو وريــسيفي، وحتى من الريو دي جانيرو، وأن يخيلوا في شوارع المدن وهم ممتطون المهــور الأصــيلة ذات الدم النقي.. ولكن هؤلاء، وصولاً إلى دور المزارع الكبيرة كانوا يسافرون على الصهوات الآمنة، ظهور البغال والحمير التي كان بعضها جيداً للخبب بجودة أفضل الجياد.

كانت قوافل الحمير تنقل الكاكاو الناشف من المزارع إلى محطات سكة الحديد أو إلى إيلايوس وإيتابونا حيث مقرات الشركات المصدرة التي يمتلكها ألمان وسويسريون. الحيوانات المتقدمة في العمر كانت تبقى في المزارع لتنقل الكاكاو النيئ من الغابات إلى المعاصر. وكانت القوافل، في مسيراتها المضنية والخطيرة تختار الأماكن ذات الشروط المناسبة لتمضية الليل. كان ذهابها وغيابها، مع الزمن والحركة، يعطي بشكل دائم ملامح تجمع سكني جديد على ناصية الطريق.. وكان بعض تلك التجمعات يتطور إلى مقرات سكنية دائمة وإلى مدن في المستقبل، والبعض الآخر كانت تنمو فيه سلسلة بيوت في الواحد منها امرأة ودكان لبيع الكاشاسا.

مع مرور الزمن تحولت توكايا غراندي إلى أفضل نقطة لتمضية الليل في نظر حداة القوافل الذين كانوا يجتازون مسافة طويلة من منطقة نهر الأفاعي حيث كان يقوم عدد كبير من الملكيات بينها أكبر مزارع المنطقة. وكان نبأ بناء بيت أعمال تجارية أمر به اللبناني، رجل الخبرة وصاحب الرؤية، قد شاع في مسافات بعيدة، ومع شيوع النبأ قامت دور سكنية جديدة: بعضها من الطين، وأخرى من الخشب، وأكثرها فقراً من القش اليابس.

الدار الأولى من الحجر والطين تمّ بناؤها على يد الزنجي كاستور ليضع فيها المطرقة والمثلث الحديدي الذي يستخدمه في الحداية، بعد أشهر من حكاية ضرس كلوريندا، عشيقة مانويل برناردس. ووفقاً لألسنة "القيل والقال" فإن الحداد قد اعتمد على مساعدة العقيد روبستيانو دي أراجو الذي أقرض كاستور بعض المال دون فائدة ودون أجل محدد ليدفع الدين.

– هذا الزنجي لبق، إذا لم يقع ضحية نزوة من النزوات الملحة فإنه سيثرى. إنه متخلف، ولكنه تعلم الأمور من أجنبيات، لذلك فهو هدف مطاردات النساء، وأكثر نجومية منه لم أرَ في حياتي.

طريق القوافل

في زمن البقرات العجاف،
فضول عبد الله ضحية الكوابيس،
يحاول أن يصاحب إحداهن

1

تأخر زمن البقرات السمان في الوصول، واضعاً جدَّ فَضُّول وحماسه على محك التجارب الصعبة والعذابات القاسية. لم يستسلم بل حافظ على حياته وفياً للعهد المقطوع: لقد كان ينفذ الواجب المترتب عليه في المعاهدة. والله لن يخل بتنفيذ ما هو متوجب عليه. ولم يكن فضول يترك مناسبة إلا ويتذكر - بتواضع منكسر، دائماً، وبغضب عامر عندما يصيبه اليأس - الاتفاقيات العلوية الموجبة: إن السيد الأعلى قد قاده من يده إلى ذلك المكان ليستقر فيه ويثرى، سالكاً الطريق المقدرة له.

في بعض الأحيان انحنى فضول لعوادي الزمان ووصل إلى حافة الانهيار. وكانت آفاق جديدة تلوح له بمنظومات فورية، عندما كان يشقى للحصول على عائدات توكايا غراندي المحدودة والبطيئة. كان الشيطان، ليمتلك روح فضول، يصور له كل أنواع البؤس ليقنعه؛ فكان يشيد له خرائط عمرانية هائلة، ويغريه بعروض سخية، ويشعل الأوهام في وهج الكؤوس الفارغة.

وللسيطرة عليه فقد كان يستخدم زيزينيا دو بوتيا كعلامة قدرية. لقد كانت القاسية تغزو غرفته وهو نائم، وقحة فاحشة، لتنغص عليه ساعات الحساب التي هي ساعات الراحة، ولا بدّ منها. وبشكل لا يقبل الخطأ والتبديل، في الليالي الأكثر شعوراً بالتعب، كان فضول يرمي بنفسه في الفراش بجسد ميت تفتيشاً عن الراحة، عن الحلم الذي يصلح له ما أفسده يوم المشقة: عن حلم مزدهر يستطيع في ثنيات صوره البراقة أن يحس بنفسه غنياً ومحترماً... ولكن ما

كـــان يحـــدث في هـــذه الحال هو العكس تماماً فيشعر بنفسه محاطاً بالارتباك والـــضرب بيده على فمه. ولا يكاد ينام حتى تكون زيزينيا قد تسللت إليه في الحلم عارية متألقة.

وإلى هـــناك تعد بأن تصل قريباً، وبالطبع في يوم من هذه الأيام المقبلة في يوم القديس "ماكو"

2

الأفاعي والزحافات في ذلك المركز البائس المتكون على جانب الطريق حقيقة لا تقـــبل الـــشك وخطر دائم. الأفاعي، بغالبيتها سامة، كانت تأتي من الأدغال والغابـــات المنتـــشرة حول الأحواض، حاملة معها التهديد القاتل الشائع، لاجئون تائهـــون في الطـــرقات، منبوذون تستقبلهم توكايا غراندي، فتيات الهوى قليلات ومـــستهلكات وغـــير صالحات لإشباع الحداة الجائعين ونـــزوات القتلة والأجراء العابـــرين من مزرعة إلى أخرى، ولم يكن في تلك البقعة أي مجال للاختيار. ولكن من يموت جوعاً يأكل الروث ويمص أصابعه.

باســـتثناء بـــرناردا فإنهـــا كانت عكس الأخريات بجمالها، وفتوتها، بأناقتها ونظافـــتها، وجسدها الأهيف، كأنها لعبة ذات جلد أسمر غامق. هل هي غدرات الزمان التي رمتها هناك أم أنها اختارت المكان عمداً؟ ولم تكن تعرب عن الرغبة في الانـــصراف مـــن هناك للعمل في أماكن أرحب من ذلك المكان... وهنالك من استحثها لأن تهيئ أمرها وتذهب، محاولة الإثراء مع زبائن آخرين. ولكنها – أُحبُّ هذا المكان – قالت وابتسمت.

وإذ كان قد أقام حديثاً في المكان، وبعد أن حسب الأمور من كل أوجهها، فإن فضول عبد الله عرض عليها المصاحبة، ودعاها للمجيء لتقيم معه وتساعده في نـــضال المخزن وتقاسمه السرير الواسع. كان قد أوعز إلى لوبيسينيو أن يوصي على ســـرير وفراش: "اجعله بقياسي وتذكّر أن في أغلب الأحيان ستشاطرني إياه أنثى، هنا، بصورة ملكية"

شـــكرت برناردا ورفضت. كانت في خدمته في أية لحظة يحتاج فضول إليها، أو في أيـــة لحظة شعر بالرغبة فيها، وفي البيت الذي يختاره، والفراش الذي يفضله؛

يكفـــي أن يـــشير بـــيده. يدفع إذا أراد: إن التمدد مع مواطن نبيل إلى هذا الحد، ورجـــل دافئ وخدوم، ليس أمراً مالياً. أما أن تعيش كصاحبة، فهي جدّ متشكرة، لا تـــريد هذا أبداً لا مع فضول ولا مع أي شخص آخر كائناً من كان. ثم ذهبت لتطلع كوروكا على النبأ:

– هل علمت؟ لقد منحني فضول شرفاً. إنه شخص طيب. دعاني إلى أن أقيم معه.

– مصادقة؟

– كما أخبرك دائماً.

– تقيمين مع اللبناني؟ لقد صنعت حياتك. إنك كائن محظوظ حقاً.

– ولكني رفضت. لا أريد أن أتعلق به أو بأي شخص آخر.

– و لم لا؟

– الحياة هي فقط مع شخص تحبينه حقاً... تحبينه الحب الكبير والحقيقي.

– اعتقدت أنك كنت ميالة إليه.

– يمكن أن يكون الأمر كذلك. ولكنني لن أقيم مع أحد بالصحبة أو بالمال –

وبيـــنما هي تفكر وعيناها مطرقتان، فسرت: إن العيش المشترك، دون زواج، فقط مـــن أجل الحب الذي يدوم طيلة الحياة، ليس إلا معاناة وعناء للنفس والقلب. لا يمكـــن أن يكون الأمر كذلك، فبالنسبة لي انتهى هذا الأمر. من الأفضل أن أصبح عانساً.

كانت الاثنتان الواحدة تعرف الأخرى. وقد أقامتا حديثاً في المكان وتعايشتا فيه. فلم تقم كوروكا بالتعليقات وبلعت الأسئلة والنصائح. فرفعت برناردا نظرها، وضحكت ثم قالت:

– إن تـــوكايا غـــراندي هي أرض الرجال الوسيمين. السيد فضول، بيدرو سيغانو، باستياو دا روزا، والأحلى من الجميع عرّابي.

وظلت برناردا تعرض نفسها، متأهبة، مطلوبة من جميع الذين تأسرهم: كانوا يتـــنازعونها في لـــيالي حداة القوافل و لم تكن دائماً حرة لتستجيب لقابلية فضول النهمة... من بعيد إلى أبعد، عندما كان يتعب من الاختيار الوضيع فإن العربي كان يأتي بفتاة من إيتابونا تكلفه الكثير من المال.

3

كـــان ينتهـــي إلى الاستيقاظ الكامل عند طاولة المشرب بينما يهيئ كؤوس الكاشاســـا الأولى لرجال القوافل. كان ذلك المال هو أكثر ما يسبب له من عناء: إنه مال الصباح، بل الفجر الأول، دون أن يتاح له أن يريح معدته ويغسل جسده. وبقدر ما يستطيع، فإنه كان يؤجل ذلك الأمر مانحاً نفسه للخدع الصباحية الأكثر طيبة على قلبه.

كـــان يـــنطلق لتطهير نفسه في الغابة منتبهاً للأفاعي. وكان يسبح في مياه النهر ينظف نفسه من العرق، ومن عفونة تخيلات الليل ورؤاه. وكان ينظف أسنانه بفركها بالتـــبغ المعجون، ويضع المياه فوق الجمر في الموقد الذي يكون قد أشعله ليعمل القهوة في علـــبة فارغة كيفها لهذا الغرض. وعندما يصبح من جديد خالياً لنفسه بسلام، كان يـــذهب متأملاً في الحياة مسترسلاً مع أحلامه. كان مطمئناً إلى أنه إذا استسلم فهو لن يلبث أن يندم: إن نعمة الله لا تعطى لقليلي الإيمان... وليستحقها ويصبح بالتالي تاجراً غنياً محترماً كان مفروضاً به أن يبني نفسه بمستوى التحدي الكبير.

يـــشق بيديه القويتين الكُمَّثْرَى الناضجة، الصفراء، المعسلة الطعم، وبأصابعه كان يسحب النواة فيسيل العصير على ذقنه. بعد وجبة اللحم المشوي على الفحم في الموقد الذي صنعه له كاستور أبدووين، فإنه في أيام الراحة والرفاهية كان يترك موزة قرب الجمر، ويجعلها تنضج إلى أن تصبح بلون الذهب بفعل الحرارة. ولكي يتجـــنب أن تحترق فإنه كان يضعها هناك مغلفاً إياها بالطحين، بعد أن يكون قد نـــزع عنها القشرة: طيبة!

نسيم الصباح كان يصل من ناحية مجرى النهر، والنساء، يسترحن من ليلتهن الحمـــراء، وتيـــساو يكون قد خرج إلى الصيد واستبدل المصايد. الأجراء في مخزن الكاكـــاو والعمـــال الذين يبنون دارة العقيد روبستيانو دي أراجو لم يبدأوا نضال يـــومهم بعـــد. زقـــزقة العصافير وحدها كانت تقلق صمت توكايا غراندي. إنها الـــساعة المفـــضلة عند فضول: ساعة ارتشاف القهوة الحارة وهو يجلس عند عتبة البيت، وقد أشعل النرجيلة وراح يجول بنظره في النواحي المحيطة به: الوادي، النهر، القمم، الأشجار ومجموعة البيوت القليلة والصغيرة – إنه البذرة – التركية، مستريحاً في إمبراطورية بني عثمان.

لـــن يـــزيح قدمه من هنا: لا بنصيحة طبيب، ولا بتهديد قاتل ولا من أجل امـــرأة. لم تـــولد بعد الأنثى القادرة على إجباره على الاستسلام وتغيير قدره. من يـــضع رأســـه في المـــرأة إلى درجة إهمال العقل ينتهي إلى الفاقة ويصبح موضوعاً للـــسخرية والتعليقات ويعتبر هيماً... لقد دخلت زيزينيا دو بوتيا حياته في طليعة نـــساء الملاهي المغريات اللواتي عرفهن، ومع ذلك لم تستطع أن ترتكب في حياته ارتكاب إجباره على التخلي عن قدره... وأي مرتدية فستان، سواء كانت زيزينيا العاهـــرة أو العـــذراء الجميلة آروزا، المغرية، أو الأرملة الغنية يسرى راموس رباط الخداعـــة والإغـــراءات. إن التجارب التي يتعرض لها مؤمن وديع متعددة ومختلفة، وكلها، تجارب، الوهم عصبها الرئيسي وخطرها الحقيقي.

وعـــندما كـــان يهدئ من حدة أفكاره كان يحتفظ بضفة النهر تحت بصره وعلـــى الأخص الجانب الذي يقوم فيه "حوض السيدات" وهو الاسم الذي أعطاه كاســـتور الزنجـــي للمكان، لحوض الحجارة حيث الشلالات وحيث النساء يأتين ليغـــسلن الملابس. من يدري، ربما جاءت برناردا وقد أصبحت نظيفة جديدة بعد الحمام وقبلت أن تقيم العيد لتملأ فراغ صباح عبد الله فضول؟...

إن بـــرناردا أحجية غامضة. وفكّر في أنها كانت تفضله في سلسلة العشاق، وكانـــت تـــسمح لنفسها بالبقاء معه ساعات وهي تصغي إلى حكايات ألف ليلة ولـــيلة، وأسفار من الكتاب المقدس، وكل هذه الأمور هي من اختصاص فضول، بيـــنما في الفـــراش كانت تشتعل نيراناً لا تنطفئ وهي مقهقهة... ومع كل ذلك رفـــضت برناردا أن تقيم معه مؤثرة حياة الدعارة وفاتحة نفسها لأي عابر سبيل. وفضول لم يكن يفهم؛ وكان الأمر بالنسبة إليه غامضاً يصعب فك لغزه.

في حـــديث له مع كوروكا حول الحياة والتباساتها، سألها وهو يمر بالأمر مـــروراً ســـريعاً إذا كـــان لـــديها تفسير لسلوك برناردا الغامض، فأوضحت كوروكا:

– من يعلم! إن رأس المرأة بئر غامضة، ولا يمكن معرفة ما في عمقها. كاد يغمـــى علـــيَّ حين علمت برغبتك. ولكنني إذا قلت صادقة فإن السيد فضول سيـــشك في الأمر: لقد عرفت في إيتابونا امرأة تركت زوجها الغني، صاحب دكـــان كـــبيرة، وشديد الولع بها، لتذهب وتمارس الحياة العامة في بيت بغاء.

كانـــت تدعـــي فالدكيسي، وكانت منحرفة وتحب أن تكون غانية. إن العالم أكثر انحرافاً مما يمكن تخيله يا سيد فضول. هذا كل ما أستطيع أن أقوله، وأكثر من هذا لا أعرف شيئاً.

قافلة من الغجر تلقي الرحال
في توكايا غراندي، في ليلة مقمرة

1

عـــند بوابة البيوت القليلة المنتشرة على جانب الطريق، أوجد مرور قافلة من الغجـــر نـــوعاً من الفرح على الرغم من الارتباكات الغامضة التي أحدثها وصول القافلة... منذ وقت طويل، تذكر السكان مرور تلك القافلة ثم مكوثها يوماً واحداً ولـــيلة انصرفت إثرها دون أن تترك الكثير للتعليقات والأحاديث. ولكن ظلّ هناك إصرار على وجود سحر لا يقاوم ولغز يجب حلّ رموزه.

ظهـــر الغجـــر هناك عند المغرب وخيّموا في المحيط على الضفة الأخرى من النهر. لا بدّ من أنهم أضاعوا الطريق المؤدي إلى نقطة قضاء الليل أو أنهم قد صرفوا النظر عنه، وبالذهاب إلى هناك يمكن تبيّن الأمر.

فـــصلوا العـــربات عن الحيوانات التي تجرها تلك العربات التي كانت مسورة بألواح ملونة مكسوة بالجلد ومليئة بالأشياء الغريبة. وفي الحال انصرفت النساء إلى إشـــعال الـــنار بينما ذهب الرجال يوردون الحيوانات، من بغال وحمير، على ضفة النهـــر... وحده جوزيف الأكبر سناً، بكومة من الشعر الأبيض المجعد والمسترسل، والأقـــراط في الأذن، والخواتم في الأصابع والخنجر في الزنار العريض، والصديري مكـــان الـــسترة، اجـــتاز في الحـــال النهر فوق الحجارة متجهاً إلى مخزن عبد الله فضول... إنه دمغة ملك، فكرت كوروكا، وهي تحدق فيه.

مـــن ينظـــر إلـــيهم من البعيد يخالهم عديدين، ولكنهم في الحقيقة لم يكونوا يـــتجاوزون العـــشرين من ضمنهم الأطفال... وهذا عدد أكثر من اللزوم، اعتبر النقيب ناتاريو دا فونسيكا، في اليوم التالي، عندما شاهد أولئك الغجر مخيمين أمام توكايا غراندي... عندها ترجل النقيب في الساعة الضرورية ليمنع التركي فضول من عقد صفقة شراء الحمار، بعدما كان سمع عند أصيل اليوم التالي عن الأمر.

2

ما كان يقال ويتكرر، عند الشاطئ، وفي داخل المنطقة، كان الجميع يعرفونه: إن الغجر أمة متخلفة ومشكوك في أمرها. ولا يمكن مقارنتها بالأجناس الريفية أو أي جنس آخر، ولا تمازج مع السرجيبيين واللبنانيين والبرتغاليين أو أي جنس كائناً من كان. من حضر حفلة زواج غجري مع إحدى نساء البلاد؟ إنهم أمة قائمة وحدها، تعيش مع الكلاب والقطط، وتعتاش من الحيل والخدع وأعمال السحر والشعوذة.

على صهوات الجياد المسروقة فإن الرجال كانوا يتشبهون بالشجعان والأمراء والنبلاء. أما النساء، مستلقيات على فرش العربات ومرتديات العباءات المزهرة والتنانير العريضة ومزينات بالعقود والأساور، فإنهن يعتبرن أنفسهن أميرات وملكات بألبستهن وأرجلهن الحافية... وبالحكم على مظاهرهم فهناك من يقول، ويكتب، إن الغجر هم بقية أهل بلاطات ملوك بابل التائهة في العالم تنفّذ ما كتبه عليها القدر... وكائناً من كانوا فمن المناسب إبقاء المسافة معهم، والتعامل بحذر، وإخفاء الأشياء الثمينة. إنهم شعب بلا أرض، وأين رأيت شعباً بلا أرض؟ إذاً لا أحد يمكن أن يثق بهم.

حتى للهنود، وهم الأمة الأكثر تعرضاً للاضطهاد، أرض يعيشون فوقها، وإن لم يبقَ لهم الكثير اليوم في تلك الربوع التي أصبحت، منذ زمن سحيق في القدم، قبائل الباتاشوس تسيطر على أراض واسعة منها... سادة الغابات والأنهار، فإن الهنود كانوا يصطادون ويغنون ويرقصون ويحاربون... لقد قتل أغلبهم وفي النهاية لم يبقَ عندهم أية مصلحة في زراعة الكاكاو... أما الأحياء من الهنود فقد نأوا ليقيموا في أماكن وعرة منفردة، ولكن أي عذر، مهما كان صغيراً، كان كافياً لتصفية من بقي منهم... ومع ذلك فإنهم لا يزالون يشكلون خطراً وإن أقل بكثير مما كانوا عليه قبل أن تبدأ عملية إبادتهم. منذ وقت طويل لم يسمع نبأ عن ضحية هجمة من هجمات الهنود... لقد حدث مثل هذا الأمر في تاريخ سابق قديم ولكن قبل أن تقوم توكايا غراندي.

في توكايا غراندي، النقطة الضائعة في خريطة لا وجود لها، لمنطقة نهر الأفاعي، كانت النساء يتعاقبن ويتعاطين مع رجال القوافل والعابرين، حيث هنالك

مـــال يربحنه، وخطر يتعرضن له في الليالي الحامية الوطيس... وكان الأجراء يأتون مـــن الغابـــات المزروعة بالكاكاو إلى حيث تقيم بعض النساء القليلات المقيمات هـــناك، وبالتأكيد فإن هناك أسباباً وجيهة جعلتهن يقمن في ذلك المكان الذي مع كل تلك المخاطر لم يكن فيه إلا القليل من الفائدة...

إن أراضي الهنود المضطهدين هي أراضٍ بائسة للنساء العاميات، ولكن أراضي الغجـــر لا وجود لها: إنهم يعيشون على صهوات الجياد، ومتون العربات، وأخماص الأقـــدام. لا أحد يستطيع أن يثق بهم. ولكن من لا يفرح بزوج أقراط تلمع تحت الشمس وبجوهرة مزيفة أو حقيقية، ومن لا يحب أن يعرف ما يخبئه له صباح اليوم التالي؟

3

لكـــي يغدو كل شيء واضحاً، أو ربما أكثر غموضاً، في وصف عبور الغجر في تـــوكايا غراندي، من الضروري الإشارة، وإن إشارة سريعة، إلى ماضي "غوتا" المعطرة اليوم برائحة التبغ الطيبة. غوتا هذه التي كانت تتصرف كمجربة وعالمة، لم تكن قد وضعت عينيها، طيلة حياتها كامرأة عامية، على غجري حقيقي.

أما بيدرو الغجري الذي كانت قد صاحبته ما إن وصل إلى إيتابونا قادماً من أمارغـــوزا فقد انحرف عن الطريق ليقيم إقامة قصيرة في إيتابونا، فإنه لم يكن لديه من الغجري سوى اللقب واللذة في الكذب، فهو من ناحية الأم هندي الأصل، وما يؤكد هذا الأمر هو لونه وشعره السابل، وإذ كانت غوتا، قد انخدعت بالاسم فإنها ارتـــبطت به ولكنه ابتعد فراسخ عديدة عن الاتفاق معها، وفي العراك الأول معه: إلى اللقـــاء، ولكي تجدي رحلك يجب أن تعلمي أن لا شيء يدوم. لا تزعلي ولا تأخذي الأمر مأخذ السوء. ثم راحت تفتش عنه.

ولأن لا شـــيء يدوم، فإن غوتا تعلمت هذه الحقيقة وهي في غمرة العيد... ولكـــن العيد لم يدم إلا عدة ليالٍ لأن للسيد سو ناسينيو العشيق الجديد اختيارات عديـــدة ومتنوعة في أمارغوزا: وكانت تلك الاختيارات النسائية تتم حيث تعمل الفتـــيات في معالجـــة أوراق التبغ أو في المناشر حيث تجفف الأوراق، وفي المعمل حـــيث كانـــت تحـــضر الجـــرود بعرق الظهور لا بعرق الجبين. صاحب أرض

ومـــزروعات، ولفائـــف التبغ، والجرود ذات الروائح القوية. كما لو أن الغنى لا حـــدود له، فإن سو ناسينيو – واسمه السابق إيناسيد بيكمن دا سيلفا – كانت له عينان زرقاوان ورثهما عن الألمان، وقامة فارعة، وابتسامة مغرية، وتصرف لبق – لقـــد كـــان فارســـاً. وإذ كان حريصاً على ممتلكاته فقد كان يمر منتبهاً يقظاً بين العاملات وكان يحدث أن يقع نظره على إحداهن كأن تكون في السن المناسبة... وكانـــت عيـــنا سو ناسينيو تطيلان التحديق، ثم يحدث أن يناديها إلى المكتب... وبينما النـــزق مشتعل ومستمر لم يكن هناك من رجل أطيب وأكثر غراماً منه، أو أكثـــر لباقة وحرارة، وإلى أن يتوارى قمر الحب فقد كانت الفروسية تنتهي وعلى قـــدر الملاطفة المفاجئة كان يأتي الإبعاد المفاجئ: يطلب من الفتاة العودة إلى رتابة العمل، فليس من شيء طيب ليدوم.

لا يـــستحق الأمـــر أن يتأخر في قصة حبه مع غوتا، والسيد سو ناسينيو لم يعد عـــنده مـــا يضيفه بعد ممارسته الأولى. كانت غوتا قد بلغت الرابعة عشرة من العمر وأصـــبحت امرأة مكتملة وفقدت الصبر في انتظار دعوة سو ناسينيو لها، لا لأنه كان ســـيد عملـــها بل لأنه جميل. وعندما تلقت خبر حضورها إلى المكتب كانت متأهبة فركضت ملهوفة إلى هناك. وكان سو ناسينيو يعرف كيف يعامل المرأة عندما يريدها، وعندما يريد أن يحتقرها. جميل ومزيف، غجري، هكذا كانوا يقولون عنه.

وإذ كان كل ما فعله معها هو تكرار لما فعله مع الأخريات، فإن غوتا لم تقبل بالرجوع إلى معمل التبغ لتلف الجرود وفضلت أن تصبح فتاة هوى. ولكنها لم تبقَ هذه المرة في أمارغوزا لأنها لم تكن تريد أن تنازع أحزانها وهي تراه يمر في الشارع دون أن يكترث بها. لم تزعل منه و لم ترد أن تقوم بشيء سيئ تجاهه، و لم تبكِ كما أنهـــا لم تطالب بتعويض، لأن هذا كله لن يغير شيئاً... فجهزت صرتها من الملابس وقالت لخالتها التي سواء عاملتها كأم أم لا، ما دامت الأم قد ماتت:

– خالتي. أعطني البركة، فأنا ذاهبة.

– لمـــاذا لا تبقين هنا، أيتها الثولاء (الحمقاء)؟ فإن فالديمير الخباز يضع عينيه عليك وقد أعلمني بالأمر.

في أمارغـــوزا، لا فالديمير الخباز ولا أي شخص آخر: لقد أصابها القيء من هـــذا المكان.. ووضعت الصرة فوق رأسها، واتجهت إلى كورتا ماو حيث أقامت

كأنها جديدة "بالكاغد": بعد ذلك، اتجهت إلى أرض الكاكاو التي كانت الأنباء حولها تجوب الآفاق وتتكرر أمامها مغرية تفتح شهيات العاهرات.

تعلمت بسرعة، وما فيه الكفاية، معتبرة نفسها عالمة لأنها لم تترك نفسها محكومة، بأي رجل، وأن تعيش كالأخريات القابعات في زوايا العمل بانتظار الأمر بالمجيء إلى المكتب. ولكنها لم تنس شكل سو ناسينيو الجميل، وعيني الغرينغو الأرجنتيني، واللباقة والخبرة، وكلها تبدأ بالأساليب الناعمة والكلمات المعسولة وكلها أمور مزيفة وصولاً إلى الأمر. ومن كان السيد هناك الذي بمقدوره أن يأخذ كل شيء عنوة، وأن يستعملها كما يستعمل صحناً أو لباساً... ولكنه بدلاً من كل هذا عاملها كأنها سليلة عائلة نبيلة لا خادمة في بيت، وكأنها تخصه وحده ويجب أن تبقى طوع الأوامر... فحل شبيه به، شفاف ومغرٍ إلى هذا الحد، لا يمكن أن تجد وإن فتشت عنه ليلاً ونهاراً.

وعندما سمعت غوتا أن الغجر قد خيّموا في الضفة الأخرى من النهر، خرجت مهرولة لتستجلي الشبه بين سو ناسينيو والغجر ومن يدري، فقد تشاهد من جديد الوجه الضائع، وتسمع مرة أخرى كلمات الملاطفة الخداعة، وتستفيد من ليل أمارغوزا المعبق بروائح التبغ.

كان الغجري الأول الذي رأته هو جوزيف وهو يضع مرفقيه على طاولة مشرب اللبناني فضول ذاهباً في المحادثة. لمحته من بعيد فاقتربت منه لتحكم بصورة أفضل على الأمر: وما عدا الطول الفارع فليس فيه شيء يشبه سو ناسينيو... فالغجري هذا متقدم في السن، وضفائر شعره المكسو بالغبار، وملابسه الرثة القديمة، إنه صعلوك متسكع، ومع كل ذلك فقد لاحظت، أو تكهنت بوجود شيء أبعد من تلك المظاهر، وكأنه نوع من الكبر يضعه في مرتبة أعلى من ثري أمارغوزا. أعلى من سو ناسينيو؟ يا للفكرة التافهة! ولكنها عندما لمحت ميغيل يسير إلى جانب الجواد لم يعد هناك من أفكار تافهة. ولم تعد تكترث بأوجه الشبه، والجمال، والتزيين. إن تذكرها سو ناسينيو أحدث في نفسها حنيناً وراحت في ذكريات بعيدة.

وانتهى التفتيش، فإن غوتا تستطيع الآن أن تموت، ولكن ليس قبل أن تتمدد، ومهما كلّف الأمر، مع ملك بابل ورجلها على الضفة الأخرى من النهر وهي تبتسم له.

4

رنّــت الفلــوس فوق طاولة المشرب... هو الغجري جوزيف يستعد للدفع سـلفاً، حتى إذا حدث أمر غير متوقع، أو إذا كان ضرورياً تجنّب الشكوك ودلائل المخاطـر بالانـصراف الفـوري. وليس من المناسب الاستهتار بالأمور في هذه الأدغال: لقد لاحظ نسبة من الصلبان في المقبرة هي أكثر عدداً من مجموع المقيمين في البـيوت الخشبية على جانبي الطريق. ولكن الساعة لم تأتِ بعد، والمسألة تكاد تبدأ. حاول جوزيف أن يتابع الحديث حول نوعية الحيوانات الجيدة.

- لديَّ الجيد والممتاز. مطايا من الطراز الأول.

كـان عبد الله فضول قد ألمح إلى رغبته الغامضة في شراء حمار، ولكنه لم يبد عجلـة من مناقشة الشروط تاركاً الموضوع متأجحاً: إن التجارة مع الغجر تقتضي الحذر. وحوَّل الحديث عن مجراه:

- هل تفكرون بإطالة إقامتكم هنا؟

- هـنا؟ لـنعمل أي شيء؟ ليس حتى من لوح خشبي لنصلحه - بصق على الأرض مظهراً أسنانه الذهبية - للعمل مع من؟ اعذرني.

- سـترى كـيف تصبح الحياة حيوية عند الغروب لدى وصول القوافل... وسعي العمال وراء فتيات الهوى. إنه منظر مؤثر.

- مؤثر.

مـدَّ جوزيـف نظره في اتجاه المخيم، وعلى البيوت الخشبية المتباعدة، وعلى الأكـواخ القـصبية، وحـدّق طويلاً في الدار المصنوعة من الخشب حيث تقيم كـوروكا وبـرناردا، ثم حدّق في الأخير عند باب مستودع الكاكاو الجاف، وإذ وزن كل شيء، استنتج:

- إنهـا أجمل محطة على طول النهر. ولكنك تستحق مع ذلك حظاً أوفر من هذا - مع الاعتذار من سيادتك.

جمـع المـشتريات ووضعها في خرج جلدي. عدَّ وعاد ليعد الفلوس مرات عديدة في كف يده ولكنه لم يسلمها:

- إذا رغـبت فإني أستطيع أن آتي بالحيوانات إلى هنا. سآتي بها كلها لتختار الآن، حالاً.

– لم يستطع فضّول أن يتوصل لمعالجة الأمر – إلى هنا، إلى هناك – إنها علوم الغجـــر. إن الإطراء ليس إلا وسيلة لاحتيال أفضل. ومقابل العرض، قام بردة فعل فورية، لأن القبول بالمجيء بالحيوانات إلى هنا يعني اتفاقاً معقوداً.

– هل أنت مجنون؟ تأتي بالحيوانات إلى هنا مجتازاً بها النهر؟ لماذا القيام بهذا العمل؟

– إن سيادتك راغب في شراء حمار..

– هذا كلام. وحتى من أجل حمار لا يحتاج الأمر إلى هذا الاهتمام الحار. سأذهب إلى هناك فيما بعد، فهناك المزيد من الوقت.

– لست مزمعاً على إطالة البقاء هنا...

– ستمضي الليل هنا. أليس كذلك؟

لم يجب جوزيف بالنفي أو الإيجاب، بل غمغم:

– لأرى المــشهد المؤثر؟ هل يستحق الأمر؟ اعذرني لصراحتي، ولكني أشك.

ثم عرض الغجري حلاً آخر، أسهل:

– تعال معي واختر الحمار مرة واحدة. قبل أن يشتريه سواك.

وظلّ فضول محافظاً على وضعه غير الاكتراثي:

– الآن لا... لن يتأخر الزبائن في الوصول. سأظهر غداً صباحاً، وإذا كان لي رغبة في المشي فسأذهب لألقي نظرة على الحمير.

لم يكـــن مجـــدياً الإصرار، وجوزيف كان معتاداً على تلك اللعبة من الحذر والتظاهـــر بعدم الاكتراث. وإذا كانت القواعد لم تتغير مع الآخرين، فكيف يمكن تخيل الأمر مع اللبناني.

– ما دام الأمر كذلك فإني سأقضي الليل هنا لأخدم سيادتك.

– ابقَ إذا رغبت. ولكن أن تبقى هنا بسبب، فلا...

وضع الغجري العشرينات على طاولة المشرب، ووضع يده في جيبه ثم أخرج منديلاً مربوطاً من زواياه الأربع، فحل العقدة ثم وضع فوق كومة الفلوس المعدنية المــصوغات المــزيفة محاولاً إغراء التجربة الذهبية. ولكن فضول يحتقر الخشاخيش والمصوغات المزيفة.

– لقـــد كنت بائعاً متجولاً لسنين طويلة. وما زال لديَّ بعض المواد الشبيهة بهذه. ألا تريد أن تشتريها؟ إني أبيعك إياها بسعر مناسب.

- بائع متجول؟ "مسقطي"! تمتم بصوت منخفض، ثم جمع المصوغات المزيفة في منديله، ووضعها في جيبه، وأعاد القول: - مسقطي!

ولـــتوه عاد إلى التجربة، وبحركة سريعة وضع فوق الطاولة كومة من الورق الملفوف، وأخرج منها لفة دون أن ينتبه فضول لها.

- إذاً، انظر، وقل لي إذا كان في مجموعتك شيء شبيه بهذا.

ثم فتح الورقة وأخرج منها ميدالية في سلسلة. فأمسك اللبناني نفسه بجهد عن التعجب الذي ظهر على فمه وبجهد آخر حاد بعينيه عن الميدالية. فأعلن جوزيف:

- حتى في إيلايوس لن تجد مثيلاً لها.

وأمـــسك السلـــسلة بأطراف أصابعه ورفع الميدالية إلى مستوى عيني التاجر: وكانت الشمس تلمع فوق المعدن لتعطيه قيمة جوهرة حقيقية.

- ماذا تقول لي، سيادتك؟

لم يفـــد بـــشيء أن يظهـــر فضول عدم اهتمام، فقد لاحظ جوزيف الرغبة المكبوتة في طريقة مدِّ يده ليمسك بالميدالية، وبالانتباه الذي أمسك به: إنها جوهرة معمولة على المقاس الصحيح لتعلق في عنق امرأة.

- انظر أية هدية يمكن أن يقدم سيادتك لمعلمته، ذهب خالص. لاحظ جيداً طريقة الصنع.

- لـــست متزوجاً. وليس لي عشيقة - ولا أية فتاة هوى تستحق هذا الترف وإن تكن زيزينيا دو بوتيا.

لم يحتقـــر القطعة، ولم يقل إنها مزيفة أو بشعة؛ إنه "مسقطي" خبير في معالجة المعـــادن، وكـــان فـــضول يعرف كيف يميّز ويثمّن. بالسلسلة لا يدفع شيئاً، إنها خـــشخاشة. أمـــا الميدالية فقد كانت مصبوغة بالذهب، وهي قطعة بسعر مرتفع، مسروقة بالتأكيد. فتحها ليتفحص داخلها، وحاول أن يزنها بيده. لم يحتقرها ولكنه أنكر عليه رغبته في الشراء.

- لا أريد أن أعرف إذا كانت ذهباً. ليس لديَّ من أعطيه إياها وليس عندي ما أفعله بها. بالنسبة لي لا تساوي شيئاً. بماذا يمكن أن تفيدني؟

- لمـــاذا؟ لتتاجـــر بهـــا وتربح مالاً. إنك تمزح بلا شك، ولكنك تعرف أنها ذهب، وذهب جيد.

ما هو متعلق بالسحر يمكن أن يجعل منها صفقة من الطراز الأول: قطعة ذهبية للبيع في إيتابونا أو إيلايوس بمبلغ كبير. ولكن فضول حافظ على نفسه غير مكترث فلـــم يفـــتح اللعبة. ووضع المصوغة على الطاولة، وهزَّ برأسه، وعلّق كتفيه معتبراً الموضوع منتهياً؛ لم يكن مستعجلاً.

لا هـــو، ولا الغجـــري الـــذي يبدو غير مكترث هو الآخر بحركات اللبناني السلبية، لاحظا الطريق الذي اقترب عبره رجل منهما، وهو أحد سكان المكان... وألقـــى فـــضول نظـــره على الواصل الجديد الذي كان النجار لوبيسينيو. انتظر جوزيـــف أن يـــدخل لوبيسينيو ويلقي التحية ليعود لرفع السلسلة وعرض روعة الميدالية:

– إن قطعـــة شبيهة بهذه لا تجدها سيادتك في إيلايوس أو حتى باهيا. لقد جـــاءت من أوروبا مع جدودي، وفزت بها بالميراث ولكي يؤكد روايته تلفظ بعـــبارة بلغـــة شعبه وعاد يتكلم البرتغالية متوجهاً إلى لوبيسينيو: – ماذا يرى الفارس؟

متأثراً بشكل الرجل الذي يصعب الحكم عليه، وبطرق الغجري، فإن النجار، دون أن يفقـــه شـــيئاً في الأمـــر، لم يكفل إذا كان الذهب حقيقياً ولكنه لم يخفِ إعجابه أمام العمل المتقن للقطعة:

– إنها الكمال، وعمل فنان كبير. هل هي من ذهب؟

وقد اعتبر السؤال اعتداء، أشار جوزيف الغجري إلى فضول:

– إســـأله، إذا كـــان ذهباً حقيقياً أو لا. ما عاد ينقصنا إلا هذا... ثم لفّ القطعة في الورقة وأعادها إلى جيب الصديري. إنها ليست للبيع.

رفع فضول يديه عن طاولة المشرب وأخذ من الواجهة زجاجة كاشاسا مليئة إلى نـــصفها، ثم سكب الكمية المعتادة إلى لوبيسينيو، وقبل أن يخدم نفسه، عرض على الغجري الذي لا يزال منفعلاً.

– هل تقبل بلعة صغيرة؟

رفعوا الكؤوس، وإذا بالغجري يجرع بهدوء بلعاته التي يتلمظ بها دون أن يدير بكامـــل محـــتوى الكأس إلى جوفه كما فعل الاثنان الآخران. وعندئذ سأل فضول بصوت حيادي مجرد من كل ما يمكن اعتباره إطاراً لنوايا معينة:

– ليـــست المــــسألة أني أريد أن أشتري، وليس عندي من أمنحه المصوغة أو أبيعه إياها. ولكن لمجرد المعرفة الفضولية، قل لي، كم تطلب سعراً بالميدالية؟ الميدالية دون السلسلة.

أفـــرغ الغجري الكأس بهدوء وبحركة مسموعة من لسانه أثنى على السائل. وعاد ليأخذ من جيبه اللفة التي فتحها وأخذ منها المصوغة التي ألقاها فوق الطاولة. على مرأى من الجميع وبلحظة خاطفة، وبحركة غير مرتقبة أخذها ثانية ووضعها في يد اللبناني:

– احتفظ بها حتى يوم غد؛ تأكد من الذهب، والوزن والقيراط.

غـــداً عندما تذهب لتختار الحمار تعيدها لي. وإذا رغبت احتفظ بها، وضع الـــسعر بنفـــسك، وكيف ترى أنها تساوي – ترك المصوغة في يد فضول: – غداً نتحاسب على كل شيء، ودفعة واحدة.

وقـــبل أن يـــبدي صاحب الدكان أي اعتراض أو يقوم بأية ردة فعل، كان الغجـــري قد تناول كيس المشتريات، ولمّ النقود التي كان قد وضعها مبعثرة على طاولة المشرب ليدفع ثمن المشرب واجتاز الباب خارجاً دون أن ينظر إلى الوراء.

– لا شيء من هذا – صرخ فضول وهو يستعيد صوته: – تعالَ إلى هنا وخذ وديعتك..

تأخر فضول: بينما لوبيسينيو ذهب بعيداً، دون أن يفهم شيئاً مما كان يجري، فطلـــب تفسيراً، عاد فضول ليتفحص المصوغة بالتفصيل، من يبيع بالثقة الغجري فهـــو أثـــول، قليل الدماغ، ولكن، مهما يكن سعر الجوهرة فإنها تساوي أضعاف ســـعر المشتريات التي لم يدفع الغجري ثمنها: لحم مجفّف، فاصولياء، سكر وزجاجة كاشاســـا، إنـــه لا يجـــازف، في فقد قيمة المشتريات، وإذا كان هناك خاسر فهو الغجري... وعلى سكة الشكوك، وفي ساعة تسديد الحسابات فإنه سيضع المسدس على خصره.

عندما وصلت كوروكا ضربت كفاً بكف لدى رؤيتها الميدالية:

– لـــيس أجمل من هذا! إن السيدة مارسيلينا زوجة العقيد ليديو كان لديها واحـــدة ولكنها لا تساوي شيئاً أمام هذه التحفة. ثم توجهت إلى اللبناني: – هل اشتريتها يا سيد فضول؟ لمن ستعطيها؟ هل تفكر في الزواج؟

5

بقطعـــة من حديد يضرب بها على صنج من النحاس فإن الغجري موريسيو، بشاربه الفوضوي الكث، وذراعيه الموشومتين، وقطعة القماش التي يلف بها رأسه، راح يطوف توكايا غراندي من مكان لآخر معلناً عن وجود ورشة تصليح الأشياء المعدنية كالغلايات والبراميل. صراخ بلا نفع، وعرض بلا جدوى: لا برميل واحد للتـــصليح، إن النـــراجيل المحطمة والعلب الفارغة لا تحتاج إلى اهتمامات من هذا النوع. انتبهت ماريا جينا إلى ذلك عندما التفتت إلى المخيم فلمحت موريسيو وقد عاد بخفي حنين كأنما قد وضع قرص الشمس في صنجه. بدأت الظلمة تتكثف عند الغروب. إنه غروب يستدعي الخوف واللهو معاً.

منقـــبون لا يكلون ولا يملون، فإن الأولاد فتشوا في كل التخاشيب، خلال غـــياب المقيمين فيها الذين لم يكن أحد منهم يقفل الأبواب عند خروجه. لم يكن هـــناك مـــا يسرق، أو شيء ذو قيمة، باستثناء معدات عمل كل من لوبيسينيو دا روزا، أو غيرهـــا مما يعود إلى الشيخ جيرينو أو الرجال الذين يعملون تحت أوامره في مستودع الكاكاو. أما فضول فكان قد استخدم القفل الخارجي بينما باستياو دا رزا عـــندما كـــان يقوم بأي عمل في المزرعة المجاورة فإنه كان يأخذ معه أدوات البناء.

عـــدد الأولاد في القافلة لم يمكن معرفته بدقة. كانوا يظهرون فجأة، الصغار مـــنهم والكبار، ناعمين، مترددين، منساقين الواحد في خطو الآخرين، ذوي عيون حائـــرة تفتش عن شيء ما، أبرياء، حسني الطلعة، محتاجين، تعساء، وأيديهم ممتدة تطلب حسنة. وبالرغم من أنه لم يكن هناك ما يسرقونه فقد اختفت بعض الأشياء الـــتي لا قـــيمة لها: قطعة من مرآة مكسورة، وسكين ذات قبضة، وغليون صنعه جيرينو، وغيرها من الأشياء التافهة. حتى ساعة الغروب، لدى وصول قافلة مزرعة دوس ماكاكوس وإلقاء رحالها بقيادة ماكينيو ومساعده فاليريو كاشوخاو، كانت الفتـــيات يـــشكلن وحدهن الزبائن، ولديهن، دائماً، في جيب التنورة نحاسة من عـــشرين، أو قطعـــة نقود معدنية يدفعنها بدل قراءة الكف أو يحملن بها على عقد مزيف لا يقاوم، أو زوج من الأقراط أو خاتم من الزجاج. لدى رجوعها من النهر فإن غوتا أخبرت صديقاتها وخصومها:

– وصل دفعة واحدة أربعة ملوك من بابل، الأكثر نحولاً بينهم هو لي، اعلمن جيداً، لا تحاول إحداكن التعاطي معه. أغنية بلاط مملكة بابل، من لا يعرفها؟ إنها نشرة أسبوعية يتم توزيعها، وقصة تنتقل من فم إلى فم، وأغنية ينشدها الجميع:

"ها قد أتى ملك بابل
مع حاشية بلاطه
ها قد أتى ملك بابل،
به سأغرم،
ومنه سأتزوج"

6

زبائن متلهفون إلى "الكلام الجيد" الذي يقرأ في خطوط كف اليد، ويتم الهمس به عند أسفل الأذن على ألسنة الغجريات اللواتي يلدن موهوبات للتكهن. حتى الفتيات اللواتي كن يقسمن أنهن لا يصدقن تلك الخزعبلات كن يبسطن أكفهن للغجريات وفي قبضة كل يد قطعة نقد من فئة العشرين. ولإزالة الشكوك، وإيحاء بالثقة، فإن الغجريات قارئات الأكف كن يبدأن بحديث حقيقي عن أمور حدثت في ماضي فلانة، ويتكلمن عن تلك الأمور كما لو أنهن قد شاهدنها حقاً... وبقطعة نقود إضافية كانت الغجريات يسبقن المستقبل، ويكفلن عشاقاً، ومصاحبات غنية، ويتدبرن أصحاب مزارع وعقداء ذوي مراتب وإمكانيات كبيرة، ويقضين على الخصوم، ويعلن عن مغامرات عشق متميزة وأبدية. بمعنى آخر كانت الغجريات يجهزن زبائنهن بالحلم والحب وبسعر مخفّض.

وفي معرض التكهنات عند غروب الشمس، كانت برناردا من نصيب أكثر الغجريات نفاقاً وأكبرهن سناً، الجدة، التي تعبت لكثرة ترداد كلمات السحر المبتذلة. وبينما تأخذ الغجرية بيد الفتاة الممدودة، فإنها تحدثت عن اضطهاد عجوز لها؛ فهناك دائماً عجوز يضطهد الفتيات الصغيرات.. هناك طلقة رصاص ومصرع واحد.

وبتلك الإشارة البسيطة إلى الرصاص والقتل برهنت الغجرية العجوز على معرفة أكيدة بما يجري وتركت الفتاة برناردا بفم مفتوح، مندهشة:

– هذه هي الحقيقة بعينها. أعرف أنه عجوز.

لم يكـــن ممكناً أن يكون العجوز غير والدها، ولكنها لا تريد أن تتذكره وأن تتذكر ذلك الزمان معه.

– أريـــد أن أعـــرف ما بعد ذلك، من هنا وما بعد. أريد أن أعرف إذا كان رجلي سيحبني طيلة الحياة.

– رجلك؟

أجابـــت الغجرية بطرفها من كف يد برناردا إلى عينيها، فتأكدت فيهما من الوله والارتباك:

– تـــريدين أن تعرفي إذا كان لك وحدك، أليس كذلك؟ وأنه لن يذهب مع امـــرأة أخرى؟ ضعي هنا مئتي ريس، في يدي، وسأردد دعاء يجعله لن يريد أحداً سواك.

– لماذا كان عليها أن تعلم إذا كان رجلها لها وحدها؟ – تعجبت برناردا: – إن بإمكانه أن يكون مع من يشاء وبقدر ما يريد.

متعجـــبة، عـــادت الغجـــرية تحدق في وجه الصغيرة المتوترة. إن ما كانت الأخريات يرغبن فيه هو أن يبقين وحيدات في حياة رجالهن، لا تزاحمهن أخريات، ولكـــن مـــن أجـــل ذلك يقمن بالكتابة السوداء ضد خصومهن، ويقمن بالأدعية وأعمـــال الـــسحر. وفتـــشت الغجرية عن السر في وجه الصغيرة الحزين وسألت متلعثمة:

– إذاً ماذا تريدين؟

– أريـــد أن أعرف إذا كان سيتعب مني، وسيتخلى عن رغبته في رؤيتي إذا كان سيصاب بالسأم نتيجة علاقته بي.

– ضـــعي مـــئتي ريس وتخبرك الغجرية بكل شيء – وفي شبقها إلى القطعة المعدنية استطردت لتجعلها تأخذ قراراً: – إني أرى دماً وموتاً..

وأنالتها برناردا القطعتين المعدنيتين:

– قولي دفعة واحدة. هل سيريدني للحياة كلها أم لا؟

حزن عميق انتقل إلى صدر الغجرية عبر كلام الصغيرة، وأصابها الحزن في صميم قلبها: فأهملت التعابير المتكررة، وتكهنت فقط بما تريد أن تسمعه الفتاة الصغيرة:

- للحياة كلها يريدك.
- ولكنك تكلمت عن الموت..
- ستموتين بين يديه: - تكهنت الغجرية.

7

أشـــار فاليريو كاشوخاو بإصبعه إلى العربات الموجودة على الضفة الثانية من النهر:

- إنهم غجر...

ولأن تفكيره كان مركزاً على الفتيات، ربما، فقد لاحظ:

- لم أتذوق أبداً طعم غجرية.

- لا أنـــت ولا سواك. تعود مانينيو في مهنته كبيطري ألا يلقي الكلام على عواهنه: - إن الغجرية مثيرة جداً في عرض مفاتنها ولكنها تفعل ذلك بغية الحصول علـــى المـــال، وعندما تأتي ساعة الذهاب إلى الفراش فإنها تترك الزبون ويده، فمع الغجرية لا يفيد السعي.

- حديث ثقة حديثك هذا يا سيد مانينيو.

- إنـــك ولدت البارحة ولا تعلم شيئاً. هل سبق لك أن صادفت غجرية في مكـــان عام؟ أنا الأكبر سناً والأطول تجربة في الأمور لم أرَ أبداً في حياتي غجرية في نـــــزل فتيات، حتى في إيلايوس. مع العلم أنك تجد هناك نساء من كل الجنسيات في العالم.

لم يكن فاليريو كاشوخاو أكثر من مساعد في حدو القوافل ولكنه كان يتمتع بمواصفات رجال العصابات.

- مع هذا إذا تلاعبت غجرية معي فإني سأنيلها في صدرها وسترى بنفسك.

- إنك لا تعرف ما تقول. إن ما تحتاج إليه هو أن تبقي عينيك على الحمير، والغجر ليسوا بشراً.

- دع المسألة على مسؤوليتي.

كـــان عبد الله فضول قد وعد جوزيف بليلة مزدهرة برجال القوافل والقتلة والمـــسترلين الـــذين سيبعثون الحياة في ذلك الخلاء ومعهم مال ينفقونه؛ "اعذرني

ولكني أشك في ذلك" قال الغجري. وهكذا كان الغجري على حق لأن تلك الليلة كانت أقل الليالي في توكايا غراندي حركة. فما عدا قافلة مزرعة السعادين التي يقودها مانينيو وفاليري كاشوخاو، لم تصل إلا قافلة طويلة من مزرعة سانتا ماريانا لتقضي الليل هناك بعد أن كانت قد جاءت إلى المستودع بالكاكاو المجفّف. كان حادي القافلة يدعى دورندو ويبدو عتراً قوياً قليل الكلام. أما دودو تراميلا الفتى المراهق الذي يساعد دورندو فكان ثرثاراً يتكلم عن الاثنين.

ما عدا القافلتين برجالهما الثلاثة والفتى المراهق، كان هناك ثلاثة مسلحين ومستتر لم يسعون إلى امرأة. وقد أضيف إلى هؤلاء الثمانية الحمال برجنتينو الذي وصل عند هبوط الليل وهو يقود حمارين محملين ببضاعة متجهة إلى مزرعة أتالايا حيث كانت قد بدأت الاستعدادات المتعلقة بوجبات الغداء والعشاء معاً... وفي دكان فضول أراد برجنتينو أن يعرف ما إذا كان التاجر اللبناني يستطيع أن يعطيه أية معلومات عن مكان النقيب ناتاريو دي فونسيكا. فقد كان مدير مزرعة أتالايا قد كلفه بلقائه في توكايا غراندي.

– من أجل طلبية طلب مني المجيء بها من تاكاراس. يقال إنها ستصل بين اليوم والغد.

– لم يصل بعد. إذا أردت، اترك الطلبية وعندما يأتي النقيب أسلمها إليه.

– سأترك الطلبية وإذا سمحت سأترك أيضاً الحمل كاملاً. إني لست مجنوناً لأبقيها أمام أنظار الغجر. إنها مشتريات أمر العقيد بوافنتورا بالمجيء بها من إيلايوس.. إنها من أجل العيد – استطرد.

استعجل اللبناني أمر الشائعة التي كانت تسير:

– تعني أن الأستاذ سيأتي فعلاً هذه المرة. أليس كذلك؟

– بالتأكيد.

– أي أستاذ؟ تدخل فاليريو كاشوخاو في المحادثة. كان قد جاء مانينيو ليروي عطشه ويشتري علبة لحم يسخنها فوق الجمر ويأكلها مع الطحين.

– إنه ابن العقيد وهو أستاذ محامي. يعيش في الخارج منذ ستة أشهر.

– وأين كان يعيش؟ وماذا يفعل؟

– في الريو دي جانيرو، متمتعاً بالحياة.

- إنه يفعل جيداً. سمعت أنه شاب شجاع. تابع فاليريو كاشوخاو وهو دائماً مستعد لمتابعة محادثة عن الشجعان والصعاليك.

- كـــان عنده من يشتبه به، تدخل مانينيو في الحديث عن الأحداث: العقيد بوافنتورا لم يعرف أبداً لون الخوف.

- وهـــو بالإضـــافة إلى كونه زعيماً شجاعاً فهو أبو الأرزاق التي لا تنتهي، والأفراح حيث وجدت، وأكد برجنتينو:

- في هذا صار أيضاً شبيه أبيه.

ظهـــر في الـــباب فجأة النصف الأعلى لغجري ذراعه في زنار شابة غجرية يعـــرفها جمـــيع الحاضرين: إنها غوتا، "همشرية" خلقت للفراش، متمطية وعصبية، وذات حضور مؤثر.

8

الـــبدر المنعكس على صفحة النهر أضاء أرجاء وادي توكايا غراندي: القمم والـــسهول ومـــرتع القوافل، وعلى الضفة المقابلة، عربات الغجر وحظيرة الحمير والجياد.

كانت ماريا جينا تعرف طريق "الأمراء" وراحت من حين لآخر تستريح فوق الحجـــارة وهي تجتاز بلباقة مفتشة عن الغجري الذي وشم الشمس على جسده. وبالتأكـــيد كـــان هو من جاء بالقمر وزرع النجوم في السماء. لماذا ينادي عليها لمساعدته في مهمته؟ كان عليها أن تلتقي به، وهكذا يجب أن يكون الأمر المكتوب وهي تنتظر تحققه من زمان.

كـــان أحـــدهم قـــد أشار بكلمة إلى وصول حاشية بابل الملكية وإلى الملوك الأربعـــة الطـــالعين مـــن ورق اللعب، تعليقات غامضة ومتناقضة، وروايات من التكهـــنات، فساد المكان هياج كاد يحرق روعة المكان. ولكن ماريا جينا لم تكن لتـــتعجب من شيء، فقد اعتادت أن ترى الوجوه، وتسمع الأصوات التي تتناول الخـــرافات الـــسائدة، الرجل - الذئب والبغلة - بلا رأس، والمارد الذي لا يقهر والملـــك سليمان بمعطفه المصنوع من النجوم. خجولة ومتمكنة، كانت تعيش في ركـــنها محاطة بالخرق البالية، وعلى شفتيها ابتسامة خوف دائمة، تتكلم وحيدة أو

تحـــادث – يعلم الله من هو – كانت تعرف بالتأكيد كل شيء ولكنها تحتفظ به كـــسر، وعـــندما كانـــت تسأل كانت تضع إصبعاً فوق شفتيها إشارة إلى السر فتتمطى الابتسامة. في الفراش، ومن وقت لآخر، كانت تتمتم: ربما لهذا كان بعض الغرباء يختارونها، وكان العارفون بهذا الأمر يتركونها للحالات الطارئة... وكانت، وهي متعلقة بالطرف الآخر تقول أشياء يصعب فهمها، وتضحك مقهقهة وترفض أن تقـــبض مـــالاً. وكأنها فجأة وجدت عشيقاً كان ضائعاً، أو كأن الغريب كان شخـــصاً يخصها، زوجاً أو عشيقاً، وكأنها هي قد تحولت إلى أخرى و لم تعد ماريا جينا الواسعة التي كانت تدخل إلى الغابة، وعندما كان الجميع يعتقدون أنها تاهت إلى الأبـــد فإنها كانت تعود مرتدية أوراق الشجر والزهور. وكونها واسعة لم تكن تسيء إلى أحد.

في ليلة القمر وهي تسير على سجادة فرشها القمر، كانت ماريا جينا تنفذ ما كتبه لها القدر تماماً كما فعلت حاشية بابل الملكية. في شفتيها الابتسامة الكاملة.

من البعيد كان يمكن معرفة الآتي: كان القمر يرتمي فوق الدروب، وتلاشت ظلمـــة اللـــيل. ومـــع كل ذلك، لم يكن هنالك واحد قادر في كل حدود توكايا غراندي أن يعطي تفسيراً عن اختفاء ميغيل الذي كان أكثر الغجر فتوة، وعن غوتا المنحرفة. في أي مخبأ وأية ظلمة كان الاثنان متمددين؟

9

لقـــراءة بخـــت النساء، فإن قارئة الكف تكون أكثر مصداقية بقدر ما تكون أكـــبر سناً وأكثر تجعداً في السحنة. أما لأخذ يد الرجل، ولكي تشير بظفرها إلى خط في راحة اليد، وللنظر إلى عيني الزبون وهي تتكلم عن الحب الميؤوس منه، فإن الغجرية يجب أن تكون شابة وجذابة يخرج من صوتها الملتوي وعد بتجربة.

العجـــوز جوليا التي حنت السنوات ظهرها، عندما فتحت فمها المطبق وسط مجمـــوعة رجـــال القـــوافل عارضة عليهم أن تكشف الأمس والغد، فإن مانينيو، المنشغل بتسخين علبة اللحم، مازح رفيقه:

– كاشوخاو، لقد وصلت الغجرية التي كنت تنتظرها...

– هذه... لا أفعل وإن مجاناً... أجاب فاليريو كاشوخاو بصوته الجهوري:

ولكنه مدَّ يده إلى مالينا منذ أن اقتربت الشيطانة برفقة الغجري جوزيف. هو يعــرض الحــيوانات للبــيع أو المقايــضة ومستعد لأية عملية تجارية، وهي تدلي بالتكهنات. فقط تكهنات؟ لقد وجد فاليريو كاشوخاو أن مالينا كانت تعد بأكثر من هذا:

– ألا تــريد أن تقــرأ الغجرية كف يدك، يا حبيبــي؟ قالت وهي متوجهة بالكلام إلى مساعد حادي القوافل وكررت القول وقد افترت شفتاها عن ابتسامة مثيرة: هيا بنا يا جميلي!

معتزاً بنفسه مدَّ يده بعد أن نظفها ببنطاله فوق الساق:

– ها هي...

من الفستان كان يمكن مشاهدة نهدي مالينا وهي منحنية.

شــابة، طويلة القامة، متكاملة الصنع، ذات وجه كأنه البدر، الردفان كأنهما كفــل فــرس، فقد أخذت بيد فاليريو، وأمسكت بأصابعه القاسية ملامسة وهي تنتــزع النقود، ومرّت بظفرها فوق خط الحياة في راحة يده بتماس خفيف ومثير كان يتسرب من الكف إلى فخذي حادي الحمير.

لم يــسمع فاليريــو كاشــوخاو إلا القليل من الحكاية المتمتم بها، فقد كان مــنهمكاً بمشاغلة اليد الأخرى لتقييم جسد الغجرية. و لم يتمكن من أن يتحسس حجم قفاها لأن الملعونة دون أن تتورع عن إثارته بالنظر والابتسام سحبت نفسها طالبة المزيد من المال:

– ضع قطعة معدنية أخرى، يا حبيبــي، لأخبرك عن الباقي...

الباقي أراد أن يسمعه فاليريو كاشوخاو، وأن يتحسسه ويلمسه بعيداً من هنا، في ظلمــة الغــاب، بعــيداً عن أنظار مانينيو وجوزيف المسترسلين في مساجلة لا تنتهي، وكان جوزيف يستنكر المكان: فأين الازدحام الذي وعد به اللبناني؟ وكان مانينيو يضحك بهدوء:

– ابقَ هنا لبضعة أيام وسترى.

– لست مجنوناً لأفعل هذا. إني على عجلة من أمري.

وفاليريــو كــان هو الآخر على عجلة، لقد أضاع ما فيه الكفاية من الوقت وثــلاث قطــع معدنــية انــزلقت في كف الغجرية. فأراد أن يأخذها من عنقها

فأبعـــدت جسدها، ضاحكة في وجهه، ولما أفلتت، أثارته مرة أخرى بأن مدّت له بلسانها وهي تقلب عينيها السوداوين البراقتين:

– ضع قطعة معدنية أخرى، يا حبيبـــي!

بقي الجميل منـــزوع السلاح أمام إغراء هذا القدر. وانتهى بمدّ يده إلى جيبه مفتـــشاً عن قطعة معدنية سحبها بأصابعه. لم يضعها، مع ذلك، في كف يدها كما طلـــبت الغجرية، فهو ليس أحمق... أمسك بالقطعة بين أصابعه وبينما هو يتراجع لاتخاذ طريق الغابة، تحداها:

– تعالي خذيها.

لم يكد ينهي كلامه حتى كانت الملعونة بقفزة غير مرتقبة قد انتزعت القطعة المعدنـــية منه: بدورة من جسدها دارها، وبخطوة رقص لم يشاهد فاليريو مثيلاً لها، وقعاً وسحراً.

وقبل أن يتمكن من القيام بردة فعل، راحت فالينا تركض بعيداً. وعندما أراد أن يـــدركها لم يعد يعرف لها مكاناً، فهناك لم يعد يلتقي بغير جوزيف الذي كان في مخـــزن فضول وكانت الجنية قد اختفت في ضوء القمر. ولكن فاليريو كان قد بقي يسمع مع نقيق الضفادع أصداء وقع الغجرية الراقص.

صـــوت مانينيو المقنع وضحكته المدوية وصلت مع النار المشتعلة التي تشوى عليها اللحمة المجففة وتسخن القهوة:

– إنـــك لم ترد أن تصغي إلى ما قلت لك.. إن الغجرية هي هكذا: مستعدة لتثير وعندما تتوهج نفسك فإنها تختفي.

– بنت العاهرة! – ردّد فاليريو كاشوخاو.

10

لم يعقب ذلك بشيء لو أن ما حدث لم يكن مسألة تستحق التسجيل مع ما اعتـــبره فاليريو كاشوخاو تهديدات مذلة لدى ظهور دورندو حادي القافلة في مخيم الغجر. كان فاليريو آتياً من دكان فضول يلهث غضباً. ثم امتزج الغضب والشعور بالـــذل: إن كاشوخاو ودورندو معاً قد أحسا بنفسيهما ضحية الألاعيب المتشابهة التي مارسها عليهما هذا الجنس الغجري الملعون. واكتمل كل المشهد عندما أعلن

بـــرجنتينو مستنداً إلى شهادة الأجراء رحيل الفتيات، جميعهن: لم تعد هناك غجرية واحـــدة في حدود المكان لتستجيب لرجال القوافل والعابرين وتلبي طلبات ما هم مفتشون عنه... يا للكارثة! إنها نهاية العالم!

كان فاليريو يحاول أن يطفئ بالكاشاسا اللهيب المشتعل في الجرح الذي سببته أظافر الغجرية في خصيتيه. إن الغجرية العاهرة قد سحرته وجعلت منه هراً وحذاء لكـــي تهرب فيما بعد ومعها المال الذي كان قد ادخره كاشوخاو ليدفع سعر ليلة مع الزنجية فلافيانا في نـــزل ليديا ليتابونا. كان يحس بالحاجة إلى العثور على اللعينة أينما كانت ليستعيد النقود الثمينة ويعلمها أن المزاح مع رجل مثله أمر لا يجوز. أية لمسة طيبة يمكن أن يكون للغجرية؟ ورشفة كاشاسا إثر أخرى أنسته حريق الأظفار التي انغرست فيه عميقة.

كانت دوافع دورندو متعددة ولكنها تشترك مع دوافع فاليريو بحضور الغجر في توكايا غراندي. هو أيضاً فكّر في التحرر من الألم بشراء زجاجة الكاشاسا من مخـــزن اللبناني حيث عرف بالحدث وعرف بعد ذلك من مرافقته رجال القوافل: فامـــتقع وجهـــه، وأقفـــل فمه، وامتنع عن الكلام. كان كاشوخاو يقد المراجل، ودورندو يعاني صامتاً من انفعاله.

بعد أن أصغى صامتاً كالمعتاد إلى حديث الرجل، فإن مانينيو خالفه في الرأي مـــن خلال وجهة نظر عميقة. بالنسبة إليه ليس لدورندو سبب في أن يعتبر نفسه مقـــرناً، مخوناً ومذلولاً. كان مارينيو يعرف عن الحياة ومسائلها الدقيقة، فهو رجل رأي ومبادئ.

من المعروف ومما يمكن ملاحظته أن زهرة الحب لا تتفتح وتفوح عطراً إذا لم يكـــن هناك مصلحة وتوافق لدى الجانبين؟ الرجل والمرأة: لا يفيد بشيء أن يتعلق الواحد منهما بالآخر، فإذا لم تكن هناك مبادلة من الطرف الآخر فإن المتعلق يغدو واهماً جالساً فوق فوهة الانفعال وهو وضع مؤلم يقود إلى الانهيار والحزن.

لقـــد صدم مانينيو نفسه عندما أدارت له زولميرا فوغاريو ظهرها وعندئذ لم يعـــد يرغب في الكلام معها أو السماع عنها. إن أسوأ ما يحدث في هذه الحالات هو أن يعتبر الواحد نفسه معتدى عليه ويحاول أن يفتش عن العزاء بعمل فضائحي انفعالي مؤسف.

مع كل هذا، ولو لم يكن قد وافق فاليريو كاشوخاو الذي يحتسي الخمر كأنه الـــنار، لكان دورندو قد مضغ غضبه وابتلعه دون مضاعفات كبيرة. مع ما حاول مانينـــيو أن يمنعه فإن كاشوخاو خرج غاضباً والنتيجة هي: سوف ترون. أخذ معه المسكين دورندو البهيم الذي نبتت له قرون حديدة. لماذا تعتبرها قروناً، إذا كانت لا تريد أن تمارس المهنة؟

11

بعد أن سلّم الحمولة إلى العجوز جيرينو في مستودع الكاكاو الجاف استعجل دورنـــدو الذهاب إلى كوخ غوتا: كان قد وصل إلى هناك قبله زبون آخر فتعاقد معهـــا على تمضية الليل بكامله. وعندما كان يحدث الأمر، فإن دورندو قد احتوى انفعاله حتى لا يكلف نفسه نتيجة التبريح بها ضرباً فيصطدم بالزبون الذي سبقه إلى شـــغل الفراش الذي كان يفترض أن يكون شغله هو... شغله هو؟ كيف ولماذا؟ كانـــت غوتا تتدخل لتقول إنها لم تكن لتسمح بتدخلات أي مواطن، وبالأخص تدخلات شخص لم يربطها به أي رباط أو اتفاق. لم تهتم قط لدورندو، وإذا كان يـــشعر بـــأي ميل نحوها فمسألة تعصب، وصبر: كانت تستقبله بالتهذيب الذي تقتـــضيه طبـــيعة العمـــل، وتعطي نفسها بطريقة راقية له وللآخرين: الذين كانوا يذهبون معها إلى الفراش لم يكن لديهم ما يستدعي التذمر والحمد لله. والدليل أنهم كانوا يعودون دائماً، فهي أبعد من الإعجاب والنوعية. كانت تجتذبهم بعطر طيب وسمنة مغرية في الردفين.

في الكوخ الفارغ، كان دورندو ينتظر منذ وقت طويل عودة غوتا ولكن مع طول الانتظار تخلى عن الفكرة. من يدري، قد يكون ضجرها من توكايا غراندي قـــد جعلـــها تسافر إلى تاكاراس، فراداس، ماكوكو أو أغوا بريتا؟ كان يجب أن يكتشف مكانها حتى وإن تكن قد ذهبت إلى إيتابونا حيث يوجد أكثر من عشرين بيتاً من بيوت الدعارة.

وبيـــنما كـــان ينازع تلك الأحزان، اتخذ دورندو الطريق المؤدي إلى البيوت وهـــي كـــناية عن نصف دزينة، عدداً، لكي يروي ظمأه ويعزي نفسه في مشرب فـــضول المليء. وهناك التقى بمساعده دودو تراميلا الذي علم أن غوتا لم تكن قد

غـــادرت توكايا غراندي بأية صورة من الصور، وأنه إذا علم أين هي الآن فستثور ثائرته في الحال؛ إنها مع الغجري.

– إني رأيتهما معاً كما أراك الآن أمامي.

– ماذا رأيت؟

– رأيتهما معاً. كنت أنظر إليهما يبتعدان معاً فلم أحول نظري عنهما. وأين هما؟ إنهما لا بدّ من أن يكونا في طور مبادلة الغزل...

أحـــس دورنــــدو بنفسه أكثر ألماً وانفعالاً. أن يراها مشغولة مع زبون ما فمـــسألة كانت تمضّه ولكنها لم تكن سبباً للشكوى أو الاتهام: إن غوتا كانت تكـــسب معيـــشتها ليس إلا. ولكن أن يعلم أنها تحتضن الغجري بين ذراعيها، وعلـــى ضـــوء القمـــر، بعيداً عن مكان العمل وتضحك بجنون، وتختفي وراء جـــذع ضـــخم، فكانـــت هـــذه أمور لتصيب مقتله ألماً: لم يكن هذا كسباً للعـــيش؛ إنه مُجون. إن المتشرد قد سحرها وليس من خدعة أسوأ من خدعة الغجري.

سأل اللبناني، مع انشغالاته العديدة سؤالاً:

– هل كنت على علاقة صحبة مع غوتا؟

– أكيد! ألم تكن تعلم – من أجاب بهذا كان دودو تراميلا.

لم يقـــل دورنـــدو شيئاً، فدفع سعر الكأس وما تبقى من الزجاجة ثم اتجه إلى مكـــان السكن حيث تمّ استقباله بالاحترام الذي يستحقه رفيق نضال متأثر بخيبات الأمـــل. كـــان الجميع يعرفون بالأمر، فقد كان تراميلا قد أخبرهم التفاصيل، أما فاليريـــو كاشوخاو بحدسه الراقي لتعزية دورندو فقد اعترف بأنه كان ضحية هو الآخر. كما أن الغجرية الملعونة قد تبخرت ففقدها، هو مانينيو.

لم يكذب حادي القافلة و لم يؤكد، وظلّ مشغولاً بإخراج عظمة جرّدت من اللحم في فمه، وبسف قبضة من الطحين إلى جوفه.

12

لم يتأخر الوقت ليتزايد الرهط المجتمع حول النار وزجاجات الكاشاسا. كان بـــرجنتينو قد ذهب إلى أسفل المنحنى ليبلغ برناردا رسالة أرسلها النقيب ناتاريو دا

فونسيكا.. ولم يستطع أن يؤدي المهمة فعاد ليسمع بالنبأ المفجع الناتج عن اختفاء النساء، كل النساء بلا استثناء.

اختفين كلهن! يا إلهي لقد اختفين! أعلن ذلك وهو يفتح ذراعيه تعبيراً عن حجم الكارثة - كلهن!؟

كان النبأ قد تمّ تأكيده على لسان الأجير والأزلام الثلاثة. كانوا يعملون للعقيد أوسموندو روشا في مزرعة تقع قليلاً إلى الأمام، وجاؤوا من بعيد، زمرة كاملةً تفتيشاً عن الفتيات الرائعات الصيت اللواتي كن يعملن في توكايا غراندي. ولم يعثروا على أي أثر لهن في كل حدود المكان.

كان رجال القوافل قد ألقوا رحالهم هناك بغية الاستئناس خلال ليلة فرح برفقة أنثوية. إن إلقاء الرحال يعني مخيم فتيات، وموقع كاشاسا، وحيوية. كان الأجراء والأزلام يأتون مشياً على الأقدام من حقول العمل عبر الشعاب والدروب ليطفئوا القنديل في أكواخ القش وينفسوا عن طبيعتهم؛ وبالمشاهدة المجردة لم تكن هناك قناديل لتطفأ أو نساء يرتاحون معهن أو عاهرة للالتهاب أو الإطفاء. كان الكوخ الخشبي فارغاً، وبرناردا وكوروكا غائبتين، فلم يستطع برجنتينو أن يبلّغ الرسالة - كان النقيب ناتاريو قد أرسل يعلم برناردا أنه في اليوم التالي سيمر بتوكايا غراندي - وكذلك لم يعثر على بنت هوى يقضي معها الليل.

وفي المقر، وهو يفرغ زجاجة الكاشاسا بدعوة من مانينيو، كان برجنتينو، غاضباً، سأل الله والجميع ما الذي حدث للفتيات. لماذا كن مختفيات، وقد أقفلن مطارحهن، علماً أن اليوم ليس يوم الجمعة العظيمة؟ لا بدّ أن يكون الأمر من فعل الغجر ولا يمكن أن يكون غير هذا: إنهم شعب بلا معنى، وأمة من المتشردين.

وللانتهاء من كل شيء لم يعد ينقص توكايا غراندي سوى أن يقفل السيد فضول أبواب دكانه فيذهب لكسب المال من زبائن آخرين.

13

طال تشنّج الأجير والأزلام الثلاثة وانتهى إلى قرار اتخذه فاليريو كاشوحاو بموافقة سريعة من دورينيو وبرجنتينو. إذا كانت ظنونهم قد خابت فإن الرفاق الأربعة عادوا إلى مشقة العمل تحت وهج الشمس، لزراعة أغراس الكاكاو. كانوا

قـــد اجـــتازوا مـــشياً على الأقدام الفراسخ الطويلة طلباً لامرأة. في الغابة وحقول أغـــراس الكاكـــاو كانـــت النساء القليلات الموجودات محميات ومقفلات خلف الأبـــواب السبعة، وأي عدم احترام أو مفاتحة كانت لتكلف صاحبها حياته. كانوا قد جاؤوا للفتية فلم يجدوا فتيات فراحوا يستنكرون ضحالة المكان.

خلافاً لبرجنتيو فإن الأزلام والأجير لم يكونوا مزمعين على قضاء الليل بكامله مـــع أنثى، لأنه عليهم أن يعودا قبل شعاع الفجر الأول. أين كانت العتيقة جاسنتا كـــوروكا العجوز المهترئة ولكنها على كل حال ووفقاً لما كان يقال عنها كانت قديرة على استقبال الأربعة وتدبير أمورهم؛ في إيلايوس فإن بعض النساء العاميات، وعلـــى طريقة الأجنبيات، كن يذهبن مع اثنين أو ثلاثة رجال معاً، ولكن جاسنتا حـــتى حـــين كانت شابة لم تكن تمارس المهنة في نـــزول المدينة الباذخة وإن بمال العالم كله.

بعد أن توقفوا قليلاً في دكان فضول لمعالجة خيبة الأمل، فإن التعساء الأربعة، وإذ رأوا النار مشتعلة في موقع الغجر، توقفوا للتحقق مما يدور. وهكذا تمكنوا من أن يـــؤكدوا النـــبأ الـــذي جـــاء به برجنتينو عن الكارثة التي وقعت على توكايا غراندي:

– هم يقولون لك إذا كنت كاذباً.

تألـــق فاليريو كاشوخاو وعاد يطلق التهديدات على لهاث الكاشاسا: هيا بنا نفعـــلَ في العاهـــرات ما يستحقنّه ونبيّن لهذه الزمرة من المنبوذين أن أي متشرد لا يـــستطيع أن يستغل المواطنين الذين يكسبون خبزهم بعرق جباههم وهم يقودون الحمير، ويقطعون الشجر ويحرثون الأرض. أي طعم يمكن أن يكون للغجرية؟

الأجـــير والأزلام اعتذروا عن الدعوة: إذا لم يعجلوا في الرجوع فقد يفقدون يوم عمل.. ولكن مانينيو لم يعرهم إصغاء.. فاليريو كاشوخاو، دورندو وبرجنتينو قـــرروا اجتياز النهر لإعطاء أمثولة لطابور الغجر، وذهب مانينيو معهم وليكن ما يكون.

دودو تـــراميلا لم يكـــن جزءاً من القرار فهو لم يكن يحمل من السلاح غير ســـكين... وهمس مانينيو له بأن يبلغ السيد فضول رسالة: أخبره عن المعركة التي ستحصل. اذهب بصمت قبل أن تقع أية حادثة.

وبينما هم يتجهون إلى النهر تعجب مانينيو للصمت السائد: كان البوم قد أجّل نعيبه إلى أجل لاحق. في الليل المنعش، والدروب المقمرة، وتحت سماء مليئة بالنجوم أين كان الزيز؟ لقد اختفى هو الآخر، مع العاهرات.

14

اجتاز مانينيو النهر وهو مهيأ للأسوأ: سيحضر مرة أخرى مشهد العنف التقليدي. العراك غير مجد، كان قد تعلم ذلك في دروب الكاكاو وهو يحدو القوافل. في الماضي كان قد أضاع مساعداً في عراك تافه: وخلافاً لفاليريو كاشوخاو كان زاي داليا عنصراً طيباً وكان العراك بسبب نخاسة نقدية لا قيمة لها.

لم يكن يخاف كثيراً من فاليريو كاشوخاو: فهذا مدعٍ، وفوق ذلك عندما يكون سكران فهو لا يمثل أي خطر لو لم يكن في زناره مسدس يجب حشوه بالرصاص بواسطة الفم، ولم يعد يساوي شيئاً بالنسبة إلى المسدسات الأخرى، ولكنه مع ذلك يمكن أن يجندل رجلاً. أما عن برجنتينو فإن مانينيو كان يعرف القليل ولكن كونه أحد رجال العقيد بوافنتورا لا بدّ من أن يكون لامعاً وحذراً.. وفي الوقت نفسه، وفقاً لتوجيهات النقيب ناتاريو دا فونسيكا. ولكن من كان يخيفه فهو دورندو لصمته وجبروته. بينما يجتازون فوق الحجارة التي جعل منها ممراً، كان مانينيو يساعد فاليريو كاشاخاه المتعتع سكراً، ولكنه كان منشغل البال على دورندو.

سمعوا نغمة لم يستطيعوا تمييزها. وارتفع النغم متوجاً: إنها موسيقى ولكنها ليست هرمونيكا أو كمنجة، وكانت عُلَويّة ومتماوجة فرحة وحزينة، كل شيء في الوقت نفسه وتغري بالرقص. لم يكن مانينيو قد سمع طيلة حياته شيئاً مؤثراً كهذا. لم يكن يعرف كم من السنوات كان يحمل على عاتقه، وعن سنه بدقة، ولكن لُبدته كان الشيب قد بدأ يغزوها.

الرجال الأربعة الذين جاؤوا من الحي السكني، ثلاثة منهم مستعدون للثأر والعقاب، واستعادة الأشياء الثمينة، والنقود والنساء، ولطرد الغجر بقوة السلاح، أبطأوا الخطو عندما ارتفعت المعزوفة إلى النجوم وانتشرت فوق الغابة، وكذلك

الحيوانات، الأبوام، والزيزان، والزرازير كلها توقفت لتصغي. عندئذ أدرك مانينيو لماذا توقفت الزرازير عن الغناء.

للـــتقدم خفّـــف الرجال من خطوهم، حذرين، ونظروا من خلف العربات ليـــشاهدوا هـــذا المشهد الفريد. كانت هناك الفتيات المختفيات الثماني، بعضهن جالسات، والأخريات واقفات؛ واثنان من رجال الغابات.

– واحد هو موريسيو والآخر ميغيل – كانا يحملان أدوات موسيقية لم تكن معـــروفة في تلـــك المجاهِل، ويعزفان ليطربا العاهرات والغجر. وكانت ماريا جينا تبكـــي وتـــضحك، وكان جوزيف، بأقراط في أذنيه وخواتم في أصابعه، وبرناردا واقفـــة قرب الغجرية العجوز قارئة الكف، ومالينا ترضع طفلها، وكل الباقين من الشيوخ والشباب والأولاد. وبصمت الحجر، الحاشية الملكية البابلية، والقمر بدر.

مـــن لم يخفف الخطو – كان فضول عبد الله الذي وصل برفقة دودو تراميلا: كـــان هـــذا يـــريد أن يرى ليخبر. وكان اللبناني قد جاء راكضاً لينال حصته من الطرب في الوقت المناسب؛ وعرف فضول الكمنجات.

وقد نال منه السكر، تقدم فاليريو كاشوخاو خطوة إلى الأمام وقام بحركة من ذراعـــه ليلحق به الآخرون ولكن هذا لم يفد بشيء. وإذ حاول أن يشهر مسدسه فـــإن مانينيو انتزعه منه دون أي جهد. وكذلك دورندو عندما شاهد غوتا جالسة أرضاً، وهي تصغي بانتباه، أراد أن يناديها باسمها، ويشتم أمها، توصل إلى أن يفتح فمه ليبدأ إلا أن اللبناني أقفل له فمه بيده الغليظة. و لم يحدث شيء من كل ذلك.

جاء جوزيف من الخلف وانضم إلى موريسيو وميغيل: لم يكن يبدو ملكاً بل إلـــه غابـــة عـــذراء.. وأضاف إلى أنغام الكمنجات لغز الناي الإلهي على سمفونية القيصرات في ليلة الغجر تلك في توكايا غراندي.

لدى مروره بطريق القوافل
الخريج أندرادي جونيور يبدي تشاؤمه
من مستقبل توكايا غراندي

1

تـــرحل النقـــيب ناتاريو دا فونسيكا في توكايا غراندي صباحاً بعدما اجتاز النهـــر، وقـــد لمح في الجهة المقابلة للنهر مخيم الغجر، ذلك في الوقت نفسه الذي ســـيمنع فيه الغجري جوزيف من أن يحتال على فضول عبد الله ببيع الأخير حماراً جيد الشكل أعجب مظهره التاجر اللبناني.

مـــتقلداً بالذهب والجواهر، لا بالخلاخيل والزينة المزيفة التي يبيعها في حقيبة "المـــسبقطي"، فإن اللبناني عرض ليدفع ثمن الحيوان نصف المبلغ الذي طلبه الغجري في بدايـــة المـــساومة.. ويـــستحق الأمـــر عناء حضور المساومة بالتعابير التجارية المـــستعملة، والتعجب للفصاحات المزايداتية، والتهرب من التطرق للنقاط الضعيفة الـــتي لا تخـــدم غرض صاحبها، وكل ما كان الحذقان قد التزماه، كل واحد من مـــوقفه، وعـــبر مساجلة لا تنتهي... تارة يعلو صراخ الاحتجاجات والاتهامات وطـــوراً التباكـــي الذي ينفطر له القلب. وكل واحد يعتبر نفسه ضحية الخداع، وضحية بخل وسوء ظن عدوه. وسط النقاش كانت تتطاير كلمات وعبارات باللغة العربية أو الرومانية – تلك التعابير المقذوفة من فم الغجري إنما كانت رومانية وفقاً لما سمعه على لسان فؤاد كرم عندما حكى له عن ذلك، في ملهى إيتابونا.

وبيـــنما هو يعلن أنه مغلوب على أمره، ومجبر على التنازل عن ملكيته بسعر غـــير منصف، فإن الغجري جوزيف كان مستعداً لقبول عرض التاجر عندما انضم إلـــيهما النقـــيب وجعل كل شيء يتناثر هباء. وبعد أن شدّ على يد فضول وحيا الغجر بهزة من رأسه – أراد ناتاريو أن يعرف:

– هل تشتري الحمار يا عرّابي فضول؟
– ماذا تعتقد يا نقيب؟
– فقط حين أفحصه.

اقترب من الحيوان، ووضع يده على رقبته، ثم فتح شدقه، وفحص أسنانه أمام نظرة جوزيف المتشككة.

– هل تسعى إلى رمي النقود خارجاً يا عرّاب؟

هل تشتري حماراً عتيقاً ذا "دقة" قديمة؟ هل جننت؟ إنك لست بجهل الأستاذ جيمس الذي اشترى حمارين دفعة واحدة وأعتقد أنه كان يعقد صفقة جيدة!!

ابتسم حين تذكر براءة الأستاذ الذي انتهى إلى تكريس حياته للزراعة وغرس الكاكاو.

– حمـــاراً عتـــيقاً؟ "دقة" قديمة؟ ما هذا! لم أسمع بشيء كهذا – وإذ عرف النقـــيب ناتاريو دا فونسيكا، فقد فضل جوزيف الغجري أن يظهر بمظهر الجاهل ويناقضه: – لا أعرف ماذا يعني.

لم يـــضع ناتاريو الوقت في الإجابة. وبالمقابل فإن فضول احتدم وتحول فجأة إلى مفترس، شتام، وهو يظهر نفسه بمظهر المهان لمحاولة الغجري توريطه والاحتيال علـــيه. تظاهر جوزيف بالتجاهل: إن اللبناني يعرف بقدر ما يعرف هو أن مقايضة الهر بأرنب هي جزء من تجارة الحيوانات:

– إذا كان هذا الحمار لا يفيدك فاختر حماراً آخر.

بعد أن جال داخل القطيع الذي يحرسه موريسيو وميغيل، فإن النقيب، الخبير بـــالحمير والجـــياد، نصح بعدم الشراء. ما كان جديراً بالاهتمام هو مهر يمكن أن يغـــدو في المـــستقبل جـــواداً جميلاً: لا يفيد. لتحميل البضائع بين توكايا غراندي وتاكاراس، فإن فضول كان بحاجة إلى حمار قوي دون عيوب.

– في مهـــرجان تاكاراس سيجد العرّاب حماراً ذا مواصفات ملائمة – اقترح ناتاريو.

لم يعـــط رأيه في المناقشة المتعلقة بالسوار الذي كان قد تمّ الاتفاق على سعره قبل تعليق المناقشة على الحمار. وحاول جوزيف الغجري أن يفسد الاتفاق ويعود إلى الوراء:

– دون الحمار، إن سعر السوار هذا غير ما هو متفق عليه..

– ماذا؟ غير سعر؟ كيف؟ ما دمنا قد اتفقنا؟

– دون الحمار... فإن سيادتك..

– سـيادتك... هي الزانية التي خلّفتك.. – الآن غدا فضول غاضباً حقاً؟ ما شأن عمل بعمل آخر؟ إني أدفع ما هو متفق عليه، ولا أدفع فلساً واحداً زيادة على ذلك.

وجـد أن سـعر الجوهرة هو في مصلحته؛ سحب من جيب بنطاله لفّة من الأوراق النقدية القديمة، مطوية، وبصق على أصابعه، وأخذ يعد الأوراق.

– لا أريد أن أبيع. – قال جوزيف الغجري.

– لقـد تأخرت، إني اشتريت وانتهى الأمر. – قدم فضول المبلغ المتفق عليه بعد أن انتهى من عدّه.

جوزيـف، وقـد وضـع يده على خنجره، راقب الوضع بصمت، فاقترب موريـسيو وميغـيل ليصطفا إلى جانبه. لو كان العربي وحده، وبالرغم من قامته الكـبيرة، ومـتانة زنديه والمسدس في زناره، لحاولوا إخافته وحلّ المشكلة بالقوة، ولكـن الغجـر كانـوا يعرفون اسم وأعمال النقيب ناتاريو دا فونسيكا. وانتهى الغجـري باستلام النقود، وبوقاحة أعاد عدّها، وهو أيضاً كان له كبرياؤه ليدافع عنه. أدار ظهره دون أن يقول كلمة ولكن النقيب لم يتركه ينصرف:

– ألا تريد أن تبيع السوط؟

كـان الـسوط مـثيراً للفضول، وعمل معلم: وكان يسترسل قرب خنجر الغجري.

– هل هو من الفضة أو المعدن؟ – من العظم أو من العاج؟ فاستدار جوزيف بهدوء.

– لقد خسرت مالاً كثيراً اليوم، ولا أريد أن أخسر أكثر.

– قـل فـوراً كم تريد سعراً للسوط وإذا وضعت السعر سأدفع أنا بنفسي.

فضة أو عاج، معدن أو عظم؛ من جديد فإن الغجري والعربي وجدا نفسيهما وقد اعتـراهما السرور في المساجلة والمساومة. النقيب غيّر المحاولة ودون ضرورة لتلك المساجلة اشترى السوط بسعر اعتبره فضول غالياً.

بعـــد ذلك مباشرة، تحركت عربات الغجر، فأخذت الطريق الذي يؤدي إلى نقطة حط الرحال التالية.

2

- ماذا سيفعل العرّاب بهذا؟ يبيعه؟ أو يقدمه كهدية؟ - رغب النقيب ناتاريو دا فونـــسيكا في أن يعرب وهو يبدي إعجابه بالسوار الذي وضع في ورقة سميكة مطوية كان قد فضّها فضول فوق خشبة البار.

ضـــحك التاجر الصغير ضحكته الكبيرة راضياً بينما هو يملأ الزق من زجاجة موضوعة جانباً لمناسبة كهذه:

- لقـــد كلّف الكثير من المال، ولكنه يساوي أكثر بكثير. إني أعرفه. حيث كان ابن الزانية سينال مني؛ إنما في سعر الحمار لو لم تصل يا حضرة النقيب.. لقد أرسلك الله لتنقذني.

نظـــر عـــبر الباب إلى الضفة الثانية من النهر فكانت العربات قد اختفت في المسافة البعيدة:

- يقول الكتاب المقدس: "من يأخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ"، يا نقيب. لقد أراد الغجري أن يسرق فخرج مسروقاً.

- هل يساوي كل هذا السعر؟

- أستطيع أن أبيعه بأكثر من هذا السعر بكثير في إيلايوس أو إيتابونا. ويكفي عرضه في الملهى وليس من عقيد واحد لا يريد أن يشتريه. - وهزَّ برأسه الكبير - أما إعطاؤه هدية؟ فلا. ليس لي خطيبة أو زوجة، وحتى لو كان لي فلست مليونيراً لأقـــدم هديـــة بهذا السعر. كانت صفقة جيدة. ولكن النقيب دفع كثيراً بالسوط، واستعجل. لو أنك ترويت قليلاً لحصلت عليه بسعر أرخص.

- يمكـــن أن يكون صحيحاً ما تقوله، ولكن ليس لديَّ الصبر للمساومة. لقد اشتريته لأقدمه هدية، يا عرّاب، وفوق هذا لرجل.

- أعرف. اشتريته لتقدمه للأستاذ، أليس كذلك؟

إن مناداة ذلك الرجل الضخم بالأستاذ كان يمكن أن يبدو مزاحاً سمجاً وقلة احتـــرام، ولكن ناتاريو عرفه صغيراً وفضول إلتقاه شاباً. كان رجوع فنتورينيا بعد

إجازة طويلة في الريو دي جانيرو يسيطر على المحادثات في مشارب إيتابونا وإيلايوس، في محطات سكة الحديد كما في أغوا بريتا، ساكيرو دي إسبينيو وتاكاراس، في التجمعات السكنية الصغيرة والقرى وكذلك في بيوتات المزارع الكبيرة.

– إن على فنتورينيا أن يشقى من هنا وهناك ومن هناك إلى هنا، يبتلع الغبار: العقيد يريد بالإضافة إلى مهنة المحاماة، أن يهتم بمزرعة أتالايا. لقد اشترى حماراً مسروجاً وحمارة فتية حتى إنني اشتركت معه في الاختيار. مطيتان من الطراز الأول ومن سيمتطيهما هو فنتورينيا. – والتمعت عينا ناتاريو النائستان: – إن العقيد شديد التعلق بالابن إلى درجة لا يمكن تخيلها يا عرّاب.

– أنت على حق. إنه ابنه الوحيد وهو الآن أستاذ. أي أب لن يحب ابنه هكذا – والتمعت عينا فضول هو الآخر: – عندما سأرزق أولاداً فهم سيكونون أساتذة أيضاً. ولكني لا أريد أحدهم محامياً: فواحد سيكون طبيباً والآخر كاهناً.

– وهل الكاهن أستاذ، يا عرّاب؟

– ليس عليه أن يكون. بل هو أكثر من الآخرين، يا نقيب، إنه أستاذ الله، حتى إن لديه امرأة في مخيلته.

مليئاً بالذكريات، انطلقت من شفتي ناتاريو ابتسامة واهية:

– هل تعلم أنني كنت أردفه معي على السرج وهو طفل؟.. وحرّك السوط في الهواء: – إنه سيحب هذه اللفحة من السوط؛ إنها جميلة وذات وقع خاص.

سوط استثنائي، يليق بمتخرج شاب ابن رجل ثري، نقيب كاكاو يتكلم في السياسة كلاماً كبيراً، ويملي القوانين في قصر العدل، ويعطي الأوامر في المكاتب الرسمية.. وللمرافقة عن مشاكل الأراضي لم يكن في كل المنطقة مزارع محامٍ يمكن أن يزاحمه أو يواجهه: إن فنتورينيا كان يملك من كل شيء وأكثر من ذلك.

كان ناتاريو يعرف ذوق الشاب، وميوله، ومفاجآته. رآه ينمو وعلمه الكثير أنقذه من ورطات عديدة، وعلى الأخص في نزول النساء العاميات والملاهي. أكثر من مرة أجبر على حمله: وإذ كان فنتورينيا ضعيف التحمل في شرب الكحول فإنه كان يفقد صوابه بسهولة. وعندما رآه وقد تخرج، وأصبح الأستاذ المحامي، كما العقيد، أحس بالاعتزاز:

– للهو والحياة الرخيصة لن يكون هناك ندّ له..

– الآن بالذات سيبدأ العقيد بإعطاء الأوامر. الحمد لله أنك نقيب من جماعته وأني عرّاب بالنسبة إليك.

تناخبا الكأسين محيين عودة الأستاذ أندرادي جونيور – الذي كان يقرأ اسمه في شـــهادة الحقـــوق الخريج بوافنتورا دا كوستا أندرادي جونيور. وأخيراً العقيد بوافنـــتورا أنـــدرادي سيتمكن من تحقيق مشاريعه السياسية الطموحة التي كان قد خطط لها بمناسبة تخرج ابنه في كانون الثاني/يناير من العام الماضي. كانوا في أواسط أيار/مايو وها هي ستة أشهر قد انقضت.

3

في الـــشارع التجاري في إيتابونا كانت ترتفع على مدخل عمارة، هي ملك العقـــيد، لوحة ضوئية كتب عليها: المحامي بوافنتورا دا كوستا أندرادي فليو. أما اســـم أنـــدرادي فيليو فكان مثبتاً في شهادة العمادة، وأما جونيور فإنه كان بدعة أجنبية والمزارع يكره الغرابات. كان الجزء الأسفل من العمارة يستخدم كمستودع للكاكاو الجاف، وهناك كانت القوافل القادمة من مزرعة أتالايا تفرغ حمولاتها في حركة دائمة من الرجال والحيوانات.

بـــدلاً مـــن الإقامة في إيلايوس، كان رأي العقيد أن يقيم فنتورينيا مكتبه في إيتابونا، البلدية الجديدة التقدمية حيث تقوم في أرض الملكيات الريفية التي ستصبح ملكـــه في يوم ما، – مما يساعد على ممارسة المحاماة في كل الولاية. وفي أيار/مايو، وصـــل الـــشاب كما يبدو، ليتنكب مسؤولية المكتب والمسؤوليات الأخرى التي تنتظره وهي متعددة ومتعبة.

في يوم الأحد الذي أعقب التخرج أقيمت حفلة راقصة قدمها المتخرجون إلى أصـــدقائهم وإلى المجـــتمع الباهياني في نادي كارنافالسكو كروز فرمليا. السيدات والآنسات ارتدين الملابس الباذخة، والرجال بالزي الأبيض على طريقة النبلاء ذوي الأصـــول العريقة. وظهر العقيد والسيدة أرنستينا متأنقين بالكامل ومن الرأس حتى الأخـــامص. وتمّ إنفاق الشمبانيا الفرنسية والكونياك المسييري وهم يحيون مع آل مـــدور وآل باريـــتو أهل الشابين اللذين تخرجا من ضمن الزمرة التي ينتسب إليها فنتورينيا: ها هي أغراس الكاكاو قد بدأت تنتج أساتذة.

واستكملت الحفلة عند الفجر في نزل مدام هنرييت التي يشير اسمها ولفظها وحركاتها إلى أصلها المرسيلياني. كانت تلك الدعوة قد وجهت من فنتورينيا إلى بعض الزملاء الحميمين ففك العقيد حبال حقيبته وأنال بسخاء. لم يكن لمدام هنرييت مزاحم على مؤسسة تعريسية هذا المستوى في مكان سحري، كما كانت هي نفسها تعلن على الملأ. نزل ناء عن الفضائح، مواعيد أرستقراطية، سيدات أنيقات تمّ التعاون معهن بوزن الذهب، وهن محظيات، سادة ذوو مستوى رفيع كإقطاعيي ريكانكافو، وتجار جملة المدينة المنخفضة وذوو الرتب العسكرية وسياسيون من أصحاب سلطة الإكليروس والإقطاع، ثريات فارهات وكل واحدة أكثر إثارة من الأخرى، ابتداء من المسؤولة العذبة عن المكان؛ فرنسية شقراء، مثيرة للاهتمام، وممولة، فإن هنرييت الحكيمة كانت توزع وقت عملها على ثلاثة زبائن منتجين في عالم التجارة العامة والمضاربين بالبورصة. رومانسية، فإن هنرييت المجنونة كانت تحتفظ بوقت المتعة للشاب الوسيم جورج مدور الذي تخرج في ذلك اليوم، مع فنتورينيا صديقه وكاتم أسراره، ورفيقه في النضال.

كان مدور شاعر الزمرة الذي يصفق له ويطلب منه، ويا إلهي كيف تغدو الفتيات والنساء؛ كان يرصف أبيات الشعر وينشرها في الصحف، وكانت العذارى ينشدن في الأعياد العائلية: "معزوفة لشعرك المقمر وقد أهداها مدور إلى "زهرة بحر المتوسط" العطرة. وكانت تسريحة هنرييت لشعرها المضيء والمنفوش تسيطر على العيد الذي هو عيدها أيضاً كما هو ملاحظ.

قداس وحفلة، تخرج ومتعة، وأفراح عارمة لا تزال كلها عالقة في ذاكرة العقيد بوافنتورا أندرادي يتذكرها بكبرياء صحيح وبعض الاكتئاب. كان قد جثا على ركبتيه أمام المذبح أثناء القداس الاحتفالي، وتمتع بموعظة الكاهن، واهتز فرحاً وتأثر في احتفال التخرج، وعرف باستكمال الحفلة في نزل هنرييت فغضّ الطرف عندما استراح المونسنيور دا سيلفا بين ذراعي رومينغاس بيجافلور السمراوين، وهذه مخصصة للمونسنيور، نبع الفضائل والعتر القديس الذي استراح في اليوم السابع من الأعياد والانفعالات والاحتفالات.

4

في شـــهر كانـــون الأول/ديـــسمبر، شهر التخرج، لم يكن العقيد بوافنتورا أندرادي قد بدأ التفتيش عما يرضي نفسه. إن ابنا أستاذاً، لا يزال وجوده نادراً في الأراضـــي الزراعية البعيدة، وهو بالإضافة إلى فرح والديه سبب لإرضاء غرورهم، ونـــيلهم الاحترام، كان يعني كل هذا التحرك المقبل في اتجاه تحقيق المشاريع التي تمّ التخطيط لها من زمان.

كانـــت الـــدروس قد كلفت كثيراً، وأسعار كتب الحقوق وتكاليف فتيات الهـــوى في الـــولاية، كلـــها تمر عبر أبواب الموت: الكاكاو! لم يكن سهلاً تأمين المصاريف الأكاديمية وإبقاء ابنه في العاصمة بمستوى معيشي رفيع يفترض أن يحافظ علـــيه ابن العقيد بوافنتورا أندرادي. – إن شهرة ثروة المزارع الكبير كانت تجوب آفـــاق باهـــيا: أشـــجار لا تعد، وآلاف الأكياس من ثمر الكاكاو في كل موسم، وبيوت الإيجار في إيلايوس وإيتابونا والقروض بالفائدة.

ومـــع كـــل ذلك كان يدفع بجهد: إن لقب أستاذ يساوي ما تساويه مزرعة جمـــيلة؛ إنه مفتاح أبواب السياسة وترجيح الزواج المتكافئ. مع ابنه الأستاذ هناك بين يديه، لم يعد العقيد محتاجاً إلى خدمات الآخرين من المتخرجين ليهتموا بقضاياه في المحـــاكم والمؤسسات الرسمية، وكذلك لن يكون متعلقاً بالآخرين لينص عليهم أوامر لا تعطى لغير الموثوقين. كان دائماً تحت رحمة التزوير والأكاذيب والمفاجآت وبأيد متشابكة.

كـــان لفنتورينـــيا، مع ذلك، مخططات أخرى للشهور التي تلت تخرجه. بعد سنوات دراسية عديدة، وامتحانات خطية واختبارات شفهية، كان يطالب بإجازة طويلة مستحقة. لا الإجازات العادية التي كان يقضيها في إيلايوس وإيتابونا موظفاً في خدمـــته فتيات هوى من الدرجة الثالثة في الملاهي، ولكن يجب أن تكون إجازة أستاذ متخرج حديثاً، يقضيها في الريو دي جانيرو.

سمـــع العقيد ووافق: في النهاية، شهران أكثر، أو شهران أقل، لا يمثلان شيئاً يذكر. ففي مخططاته المبيتة، وأكثر من حالة طارئة، كانت رغبة العقيد في أن يرى ابـــنه يلمـــع أمـــام المكتب، يدافع عن قضايا، ويرافع في المحاكم، ويهتم بالمزرعة ويتدخل في السياسة، ويترشح للنيابة عن الولايات أو لرئاسة البلدية في إيتابونا.

5

قبل ساعة الغداء، امتطى النقيب ناتاريو دا فونسيكا فرسه أمام البيت الخشبي الصغير، وقال لبرناردا وكوروكا "إلى اللقاء العاجل"، وأشار من البعيد لفضول وذهب ليستقبل في محطة تاكاراس الخريج أندرادي جونيور العائد إلى متاعبه الصغيرة. كان الشاب عائداً برفقة السيدة أرنستينا التي استقبلته في إيلايوس. وعن سابق تصور، ولكي لا يظهر الغيظ الذي كان يعتريه ظلّ العقيد بالانتظار في أتالايا. ولكن ناتاريو شهد انفعال المزارع الكبير عندما فضّ هذا الأخير برقية أرسلها فنتورينيا وقرأ فيها عن إعلان وصول فنتورينيا الذي حدّد ساعة الوصول إلى المزرعة: إنه الوقت الذي يحتاج إليه العقيد لتهيئة الأمور لاستقبال ابنه الأستاذ بما يستحق والذي أخيراً قرّر الرجوع من الريو دي جانيرو. كان قد وعد بالرجوع مباشرة، بعد الكرنفال، ولكنه وصل عشية عيد القديس يوحنا. كان الفرح منعكساً على وجه العقيد الذي تمكّن من البقاء صامتاً يقرأ ويعيد قراءة البرقية. وأخيراً وهو يضحك بفمه وعينيه وبكل وجهه، أبلغ النبأ:

– إنه آت، وقد وصل إلى إيلايوس. أستاذنا يا ناتاريو.

ذهب النقيب مفكراً بهذه الأمور عندما لاحظ على الطريق أمامه مؤخرة امرأة. كانت المرأة تغني أغنية سمعها في زمن الطفولة، في بروبريا:

"إلى هنا سيأتي ملك بابل،
به سأغرم
ومنه سأتزوج.."

كانت ماريا جينا، حافية القدمين تائهة الدروب في فمها ابتسامة حب وبيدها باقة من أوراق الغابة وأزهارها.

– إلى أين تذهبين يا ماريا جينا؟ – سأل النقيب...

– إلى هنا يا حضرة النقيب.

– ومن هو إن لم أكن فضولياً؟

شجعها النقيب على الكلام..

كانت ماريا جينا تحب أن تتحدث مع النقيب لأنه كان محترماً جداً، ومهذباً كما لا أحد في تلك الزمر: كانت الحياة بالنسبة إليها زمرتين: وهي تعيش بين الاثنتين وتستطيع أن تمزح بينهما بسهولة.

وبينما هي تبتسم وعدت النقيب:

– عندما أعرف اسمه، سأقول لك في الحال. ولن أقول لسواك.

كـــان القيظ في أوجه معلناً عن الساعة، وإذا لم يتأخر القطار الحديدي فبعد قليل سيترجل فنتورينيا في تاكاراس. أما زال فنتورينيا يتذكر ماريا جينا؟

كـــان ناتاريـــو يعرفها منذ زمن مزرعة أتالايا، وكانت لا تزال فتية، النظرة غامضة، تبتسم ولا تعرف لماذا، وهي تعرض أماكنها.

– هلا زلت تذكرين فنتورينيا يا ماريا جينا؟

توقفت المرأة عن المشي وسط الطريق وبذلت جهداً، كانت الذاكرة تأتي من بعيد، من الضفة الأخرى، غامضة الأحلام والرؤى.

– من يا سيادة النقيب؟ – لا لا أتذكر.

– إنه فنتورينيا ابن العقيد، عقيد أتالايا. كان ذلك منذ زمن بعيد.

– لا أتذكـــر الابن، لا. فقط أتذكر العقيد نفسه، كان يجب أن يستلقي معي أكثر مما يجب أن يستلقي مع غيري، وكان طيباً.

– العقيد بوافنتورا؟

– كان صدره مشعراً، وجميل أن تمر اليد من هناك.

واســـتأنفت مـــشيتها البطيئة، وضاعت عيناها من جديد، وانفتحت شفتاها بابتـــسامة يوبيلية: كانت ذاهبة تفتش عن ملك بابل، سيد الشمس. ووضعت في فتحة من التنورة النقود التي وضعها النقيب في يدها.

لكـــز النقـــيب ناتاريو فرسه، وقطع مسافة بعيدة... إذا لم يتأخر القطار عن مـــوعده فـــإن فنتورينيا لن يتأخر في الوصول. أستاذ خريج، ألا يزال يتذكر ماريا جينا؟

6

لا في كانـــون الأول/ديسمبر ولا في أيار/مايو: فمخططات العقيد شوهدت تـــتأجل من جديد. إلى متى؟ يبقى السؤال في الهواء، وفنتورينيا لم يحدد تاريخاً: لم يكن للتخلص مدة محددة. قد تطول بعض الأشهر، خمسة أو ستة؛ كم من الأشهر بالـــتحديد، فهو لا يعلم؛ حتى في كانون الثاني/يناير في أقصى حال. ولكن كيف

يتـــرك فرصـــة كتلك تفوته؟ إن فرصة كهذه لا تواتي الواحد كل يوم، والأماكن الـــشاغرة تمّ التنازع عليها من مرشحين من كل الوطن وحتى من الخارج. وأصبح العقـــيد عالماً بأن بين المتقدمين كان يوجد أرجنتينيون. أرجنتينيون، نعم يا سيدي. هـــو فنتورينـــيا، حصل على موافقة تسجيله بسبب علاقاته الطيبة التي أقامها مع أساتذة كبار خلال هذه الإقامة القصيرة في ريو دي جانيرو. قصيرة؟ خمسة أشهر؛ وكـــان العقيد يعدها على أصابعه: كانون الثاني/يناير، شباط/فبراير، آذار/مارس، نيسان/أبريل وأيار/مايو.

أخذ العقيد علماً باتجاهات فنتورينيا عبر مسلسل طويل من "كتابنا وكتابكم" و"برقيتنا وبرقيتكم"، التي فيها كان الشاب يعطي والديه علماً بقرار إطالة الدروس، والمـــشاركة في دراسة قانون ملكية الأراضي الضروري لمن يريد أن يمارس المحاماة بـــنجاح في المنطقة، ومنه سيستفيد استفادة كبيرة. وهو يسبح تائهاً في قراءة اللغة الأنيقة التي تكتب بها رسائل فنتورينيا، لغة خريج، فإن العقيد، غارقاً في الشكوك، أمـــر الولد بالمجيء إلى إيلايوس لتوضيح الأمر بصورة أفضل لأنه لم يكن مزمعاً ولا هو يرى ممكناً تقرير هذا الموضوع بالمراسلة.

في رأيه، وقد أكمل الدراسة في كلية الحقوق، وتمّ تعليق الصور والإطارات في حائط غرفة الاستقبال تبيّن الشهادة وصورة التخرج، فإن فنتورينيا غدا صالحاً للبدء بالمهـــنة وشق الطريق المرسوم: ممارسة المحاماة، والزواج من فتاة من عائلة غنية - غنية على الأقل بقدر ما هو - واحتراف السياسة، وتحمل المسؤوليات والمراكز التي يـــزاحم عليها. من أجل هذا عمل العقيد كعربي، ناضل والسلاح في يده، وسفك الـــدماء، وجـــازف بحياته. ولم يكن يرى من ضرورة لدروس جديدة؛ ألم يتخرج ويستلم رداء المهنة؟

وإذ وضـــع ضد الحائط، لم يكن أمام فنتورينيا من طريق سوى أن يتخلى عن تصرفه المفتعل الذي تعوده في الريو والمجيء لتنفيذ الأمر بصوت حيوي:

- لقد علقت دروسي وأضعت عدة محاضرات. - كان يتذمر.

وتحـــركت الـــسيدة أرنـــستينا دعماً للابن. عامة لم تكن تجرؤ على مناقشة مخططـــات الزوج عندما تعلم بها، وهذا ما حدث نادراً. ولكنها، في تلك المناسبة خرجت من عزلتها المعتادة لتطالب، وبقوة غير متوقعة، من أجل أن يتعمق صغيرها

بالمعـــارف. ما كان الصغير يسعى إليه هو الدراسة، وهذا طموح مشرف، فكيف يمكن منعه؟

– محاضرات يلقيها أساتذة ذوو شأن، ومن أكبر الاختصاصيين – كان يقول فنتورينيا واقفاً وسط الصالة، وذراعاه مرتفعتان إلى أعلى.

تخـــيل العقـــيد ابـــنه المحامي في المحكمة وصوته متماوج وجوابه حاضر يشير بإصـــبعه. وسمـــع بصمت أدلة الشاب، ودفاع الزوجة: إنها أمية الأب، والأم تكاد تعرف كيف توقع اسمها، فيا للشيطان ماذا تعرف أرنستينا عن المحاضرات وتفاصيل الحياة القانونية؟ وأخيراً، ورغماً عنه، انتهى العقيد إلى الإذعان والموافقة.

وزن في قراره ما أظهره الأستاذ هرناني تافاريس، القاضي المنفرد في إيلايوس الـــذي، مـــا عـــدا رسالة فنتورينيا، حيا فكرة الانتساب إلى قسم "قانون ملكية الأراضـــي" وهـــو قسم مستحدث في العلوم القانونية، وذو عائدات مربحة. وبدا حـــساساً أيضاً لرغبة ابنه في نوع الدراسة كما يجب. كان يفتش عن إدراك معرفة الكـــبار من الأساتذة، ويرمي إلى أن يكون واحداً منهم. وفي منـــزل المناظرات لا يجـــب نسيان الأرجنتينيين الذين جاؤوا من مكان بعيد لمتابعة العلم الذي اعتمدته الـــبرازيل: فهؤلاء يزنون ثقيلاً في ميزان القرار النهائي. مرتبك ولكنه ليس زعلاناً. وحزين ليرى ابنه يتغيب من جديد.

– حتى نهاية العام. تذهب إلى هناك. في العام الجديد أريد أن تكون هنا، لقد أصبحت عجوزاً وتعباً.

المحاضـــرة الحـــرّة في قانون ملكية الأراضي التي خصصت لبعض المتخرجين كانـــت مـــوجهة قبل أي شيء للذين كانوا سيقومون بتأدية وظائف حكومية في وزارتي العـــدل والـــزراعة. وعرف بها فنتورينيا صدفة فركض لينتسب ولكنه لم يحـــضرها إلا نادراً جداً. أما المحامون الأرجنتينيون المزعومون، في الحقيقة، لم يكن واحد منهم قد جاء ليستفيد من أنوار أساتذة النور البرازيليين.

وبطريقة غير مباشرة، من استفاد من المحاضرات الحرّة كانت الأرجنتينية أديلا لابورتنيا، المدعوة "تدللاً" أديليتا.

شوشـــا دي أورو الآتـــية مـــن مسارح بوينس آيرس، حيث كانت تحصد التـــصفيق والهـــتافات، وذلك لتذبح الرقص الهادئ في ملاهي الريو دي جانيرو،

وحـــيث كانـــت تحصل على مرتب مغنية لا عاهرة. أجنبية وفنانة، وبالنسبة إلى الريفي الشاب فإن الحصول عليها كملكية خاصة كان الحد الأقصى للمجد وبكل عظمـــته. وأبعد من ذلك، كانت مجنونة به، وموهلة بشكل تضيع معه: "من أجلك أحطم نفسي" "بور فوس مي رومبو تودا"

7

عـــرف العـــربي فضول عبد الله، عن تطورات دراسة فنتورينيا، من تلقاء نفسه، وبعـــد عـــدة أيـــام، عندما توقف المسافر في توكايا غراندي يرافقه النقيب ناتاريو دا فونسيكا ومسلحان من أزلامه. وإذ كان ملزماً بالمجيء إلى إيتابونا تلبية لطلب العقيد – مـــرَّ مـــن هنا، استقبل الأصدقاء، في المكتب، وأعلمهم بأنه سيكون هنا في نهاية السنة وقـــد حاز على لقب علمي جديد: "أستاذ في الأراضي" – لم يكن بمقدوره أن يصل كمـــتدرج يفـــتش عـــن قـــضايا. إنه الأستاذ أندرادي جونيور، ابن العقيد بوافنتورا أندرادي، والزعيم السياسي في البلدية، رجل مستوى وامتياز. لم يكن يستطيع أن يأتي بأقل مما يستلزمه الأمر النقيب والمسلحان، والفرس المطهمة والسوط.

في الطريق إلى أتالايا، فنتورينيا وقد بدأت الأشواق تمزقه، أسرّ إلى النقيب عن غـــراميات الأرجنـــتين، على الطريقة القديمة التي كان يخبره فيها بفتوحاته: وكان "السركال" مصغياً بانتباه واهتمام. هذه المرة لم يكن فنتورينيا يتكلم عن أي كان، سواء كانت بنت هوى، أو ابنة عائلة، يفعل معها كذا أو كذا، لقد كان فنتورينيا يـــشير إلى أديـــلا الإلهـــية، ملكة الفالس الحديث في ريو دي لاباتا: "لا باتيتيكا إنتبريـــريتي دلـــتانفورا رابـــاليرو" إنها حلم امرأة، طويلة بيضاء، بيضاء كالحليب، وجسد منحوت: حين تقف فكأنها تمثال، وفي الفراش كأنها الزلزال، ومطرحها لون الـــورد – مطرحها يا ناتاريو لا أقول لك شيئاً عنه. تذمر لأنه لم يجد في إيلايوس هديـــة جديـــرة بملكة الفالس الحديث: خاتم، عقد، سوار، ماسة... اجتاز السوق التجاري طولاً وعرضاً، وعبثاً: هنالك فقط أشياء مزيفة. سيشعر بنفسه محرجاً لأنه وعد بأن يأتيها بمجوهرات جميلة من باهيا.

توقـــف فنتورينـــيا قرب دكان فضول، فركض العربي مرحباً بحماس، وانحنى انحناءة مسلية، وأبدى السعادة بحضور ابن العقيد المدلل وهو حضور غير متوقع.

– عرفت بوصولك من النقيب. هل يعني أنك ستبقى معنا هنا..

– لم آت بعد فكيف أبقى يا فضول؟ إن الدروس ستحجزني لبعض الوقت في الريو دي جانيرو.

ألم ينه دروسه بعد التخرج؟ كان تعجب التاجر مع محاولة إخفائه أمراً لم يخف على فنتورينيا الذي بقي تحت رحمة التفسير.

– إنها دروس للاختصاص: قانون الملكية. إنه لقب إضافي إلى لقب أستاذ.

– أستاذ مرتين. – استنتج ناتاريو.

توضيح ناقص، ومع ذلك ضرب فضول بكفيه معلناً الاحتفال:

– ماذا أستطيع أن أقدم لك؟ من الجيد ليس هنا غير الكاشاسا. ويوجد كونياك ولكني لا أنصحك به.

أجال فنتورينيا عينيه في تشكيلة المشروبات، أنواع من العرق أو مركبة من الفواكه: على واحدة من الزجاجات صورة عنزة ذات قرنين. إنها مشروبات رخيصة تفيد الأجراء وحداة القوافل. ولكن فضول في مخبأ خلفي عثر على زجاجة شبه ممتلئة، نزع الغطاء، ونظّف العنق، ثم رمى بالفلينة راضياً عن نفسه:

– مشروب خاص. تيكيرا من صنع الزنجي نيكوديموس في فراداس... محجوزة لمن يستحقها. النقيب يستطيع أن يقول لك شيئاً.

– من الطراز الأول – أكّد ناتاريو: – قوية ككل الشياطين.

– لديَّ علاج لهذا أيضاً... – ضحك اللبناني وخرج. قطف فضول من شجرة بيته أربع أو خمس ثمرات كاجو ناضجة، ومتماوجة بين الأصفر والأحمر:

– بعد أن تشرب مصّ حبة كاجو فيذهب المفعول.

– لا أحتاج إلى هذا... – أحس فنتورينيا كأنما اعتدى عليه وبلع دفعة واحدة كأس التيكيرا التي كان قد جهزها البائع.

– أين تلك القطعة التي اشتراها العرّاب من الغجري؟ إن الأستاذ يريد أن يراها. – وإذ كان قد أجهز على كأسه، فإن ناتاريو ذهب يمتص الكاجو بينما يسيل العصير من جانبي فمه:

– سآتي بها.

مـــن جديـــد أعاد فنتورينيا الكرة: إن الكاشاسا كانت شيئاً آخر، فهي بلا رائحـــة ويعلم جيداً أنها تحرق الصدر. عندما عرض فضول الجوهرة على البار فوق منشفة، أعطاه ناتاريو الزجاجة ليحتفظ بها.

– قـــبل أن نجهـــز عليها. ما زال بيننا وبين إيتابونا مسافة وهذه التيكيرا هي خبطة على الرأس... بينما تتحدثان وتناقشان، سأقوم بزيارة قصيرة.

لم يرد النقيب أن يكون وسيطاً في بيع وشراء الجوهرة وكان يعلم أن برناردا بانتظاره بفارغ الصبر. برناردا، كل يوم، أجمل من قبل.

8

بسعر يطلبه صديق من صديقه، وهو على كل حال ضعف السعر الذي دفعه إلى الغجري، أعطى فضول العقد لفنتورينيا. في إيلايوس، وفي مشرب في الميناء وفي ملهـــى من ملاهي إيتابونا نال عرضاً أفضل بكثير. ولكن كما شرح له فضول فإن الأستاذ عزيز عليه ويستحقه. وترك لفنتورينيا الذي يفهم بالدرر والجواهر أن يضع السعر مردداً قول الغجري:

– إن سعرك هو سعري يا أستاذ. ادفع ما تشاء.

طلب فنتورينيا بلعة أخرى من التيكيرا بينما هو يعد الأوراق النقدية الجديدة والمبهرة:

– والنقيب إلى أين ذهب؟ لقد أخذ معه الفرس.

– في بيت برناردا... فقط هناك يمكن أن يكون.

خـــرجا مـــشياً على الأقدام ليمرا أمام الأكواخ المنتشرة على طول الطريق؛ باستياو دا روزا، وهو يقف في باب الكوخ الذي يقطنه، رفع قبعته:

– "صبحكم الله بالخير" يا حضرة الأستاذ.

النـــساء في أبـــواب الأمكنة المخصصة لاستقبال الزبائن، شبه عاريات، كن ينظـــرن بفضول، فمن منهن لم تسمع عن فنتورينيا، ابن العقيد الذي درس إلى أن أصبح أستاذاً؟ وتقدمت غوتا باتجاههما:

– ألم تعد تعرفني يا فنتورينيا؟

حـــكّ فنتورينيا رأسه، لم يعرف المرأة المتجرئة، التي أكلها عدة مرات في تلك الأحراج.

- إنها غوتا. - أوضح اللبناني.

اقتربت فتاة الهوى ووقفت أمام الزائر.

- كنت تحب رائحتي، ألم تعد تذكر؟

تذكّر رائحة التبغ الطيبة. وحين تذكّر مدَّ يده إلى جيبه ومنح غوتا "كمشة" خمـــسة آلاف ريـــس، إنها ثروة. مع الجرعات الثلاث من التيكيرا التي صعدت من معدته إلى رأسه، فإن الدكتور - قامة الرجل: - كان يحس بنفسه خفيفاً وجذاباً. كلـــهم هناك خدم له. أما ما هو متعلق بأديلا، فكانت تشعل حتى أصابع رجليه. أمسك بالعقد الموضوع في جيب سترة الركوب، قبل أن يقدمه؛ سيضع في الداخل صورته لكي تضعها في عنقها، وبين النهدين: آه من نهدي أدليتا الحجريين.

أمـــام البـــيت الخـــشبي، استعاد مطيته، ورفض تناول القهوة التي دعته إليها كوروكا، ولكنه، متلبساً الطيبة، مازح المرأة:

- أمـــا زلت حية يا كوروكا؟ وما زلت تعبثين يا عجوز النحس؟ - جميعهم هناك كانوا خدمه.

وأجابت العجوز:

- إنـــك تـــتكلم الآن لغة أستاذ لا يفهمها الناس هنا. من قبل عندما كنت صغيراً كنت تأتي لتتمدد في فراشي. من الذي علمك ما تعرفه عن النساء، أليست هي هذه العجوز النحس؟

خمـــسة آلاف ريس أخرى تبعثرت. معها تعلم وتدرب على تأخير اللحظة. اللواتي عرفهن قبل كوروكا كن يرسلنه عائداً بفتحة عين وإغماضة. استاء من الماضي.

- وداعاً كوروكا.

من أعلى سرج الجلد الناعم واللجام الفضي، وعلى متن مطيته العالية، وبينما يجـــول بنظره في المساكن ومكانات إقامة العمال، فإن الخريج أندرادي جونيور مدَّ يده إلى العربي فضول عبد الله مودعاً:

- لا أعلم ماذا يفعل شخص مثلك في هذه البؤرة التعيسة. إذا كنت تريد أن تـــربح مالاً، فلماذا لا تتخلى عن هذه الحفرة فتذهب إلى إيتابونا؟ - الجميع هناك

كانوا خدمه. - إذا رغبت في الذهاب، اتكل عليَّ، هذا المكان لا مستقبل له ولن يكون مطلقاً أكثر من مكان ناء.

النقـــيب ناتاريو دا فونسيكا لم يسمعه يعبّر عن تلك، الآن: لقد كان يرتدي بنطاله، وينتعل جزمته. وفي الفراش، عارية، كانت برناردا تبتسم له.

9

لم يعـــرف النقيب شيئاً عن وجهة نظر الخريج إلا بعد عدة أيام وذلك عندما مرَّ من جديد بتوكايا غراندي. لقد عاد فنتورينيا إلى الريو دي جانيرو حيث كانت تنتظـــره دورة دراسية حرّة، والتعرف إلى كبار الأساتذة، ونغمات أديلا لابورتنيا الـــساحرة، "أديلينا شوشا دي أورو"، والتعرف أكثر إلى العاهرات، وليالي التانغو والعبث.

وبيـــنما كـــان يـــتلمظ بكأس تيكيرا، أشار ناتاريو إلى حالة الأستاذ الشاب النفسية في إيتابونا حيث تمّ الاحتفال به باهتمام كبير:

- إلى درجة بدا معها أن إلهاً صغيراً قد وصل إلى هناك.

أما ما هو متعلق بمستقبل توكايا غراندي، فإن رأي الخريج لم يسبب أية خيبة أمل للنقيب:

- اسمـــع مـــني يا عرّاب: البقاء معي مسألة أكيدة وأضمن لك أن فنتورينيا يـــستطيع أن يفهـــم النساء والقوانين، فهي أشياء دفع ثمنها مالاً كثيراً. ولكن عن زراعـــة الكاكاو وهذا العالم الناشئ فإنه لا يعلم شيئاً. - وهو ناتاريو كان يعرف بالتأكيد: - تستطيع أن تصدق ما أقوله لك يا عرّاب: إن توكايا غراندي ستصبح مدينة كبيرة.

خلال الليالي المتكررة،
وفي مجاهل توكايا غراندي،
فضول عبد الله يقتحم حرمة الآنسة أروزة

1

متعددة، وغير متكافئة، محاولات الشيطان، لإدخال مواطن صالح من الموازنة في التجارب، وعلى الأخص إذا كان لا يزال تاجراً حديث العهد أنزله الله ونسيه في قفا الدنيا: في صحراء نائية، كما عرفها بذلك فنتورينيا.

مستيقظاً أو نائماً على طموح الإثراء السريع، فإن فضول عبد الله عانى شتى أنواع التجارب في أزمنة البقرات العجاف الصعبة. حسابات غامضة على ضوء القنديل متعلقة بالأعمال، خداعات، أرباح، قروض بالفائدة، أثاث، ودكان أقمشة.

في سرير العازب، العريض، في توكايا غراندي، كانت عذرية الخطيبة المعروضة عليه، وملكيات الأرملة الموضوعة بين يديه، إذا تزوجها، والاثنتان جميلتان، وحاميتان، تغطيان على أفكاره التي كانت تشرد إلى عري نساء الحياة العامة والتي كانت زيزينيا دو بوتيا تتحكم بشرودها.

كانت أروزة، المولودة في إيلايوس، ابنة جميل سكاف صاحب محل بيع الأثاث والفرش المشهور: "أبريغريدا موفيس أي كولشاونز دي لوشو"، ابنة شرعية، وريثة وحيدة، خطيبة خجولة، ولا تزال عذراء: أبعد من العذرية كانت "الدوتة"، ليست خجولة إلى هذا الحد ولا عذراء بهذه المتانة، والمظاهر تخدع في الغالب، وليس من "دوتة"، تعادل "العشرينات"، المفقودة.

أما يسرى، الأرملة حديثاً والمغرية، احتراماً للفقيد فإنها كانت تمتنع عن الارتماء. كان زوجها الفقيد خليل رباط قد ترك لها إرثاً هو "البيت الشرقي" في

شـــارع إيـــتابونا التجاري، ومجموعة من القرون تمنح منها في ليالي المطارحات لمن حلّ محله في شهادة الزواج المؤقتة وفي فراشها الزوجي وخلف مكتب الدكان.

متـــراوحاً بين الاشتباه في العذرية، وإغراءات الأرملة، وضع له قرناً مسبقاً، وأين رأيت مثل هذا؟ إن من يحفر الحفرة مساعد للبناء.

جميل سكاف، الأب الصالح، ويسرى راموس رباط الأرملة السعيدة كانا يمـــتلكان أفكاراً خاصة بهما، دقيقة فيما هو متعلق بالزواج والإرث المتناسبين، وفـــيما هـــو متعلق بدعوة ومواهب العرب التجارية. وهكذا وجدا في فضول المرشح المثالي، وأفضل الجميع، وأصبحا بفعل شيطان الطموح أمام أصعب تجربة حين كادا يصلان به، وبفارق زمني قصير حال بينهما وبين المناسبة، إلى الكاهن والقاضي.

في إيلايـــوس، نجا فضول من إغراءات العذرية بأعجوبة حين وصل الخريج في اللحظـــة المناسبة. وفي إيتابونا، اكتشف قبل الأوان أن الشيطان يسكن في أجساد الأرامل: ولإطفاء النار الملتهبة لا يكفي لبناني عملاق الطاقة تقوم بخدمته في حالات الشبق عاهرات المنطقة.

كـــيف حـــصلت يسرى، السيدة الناضجة، والشكل الجميل على التفاصيل الثميـــنة المتعلقة بفعالية فضول عبد الله في كل أنواع التجارة وكذلك بمقاسه، وفي اللحظـــة الحاسمة؟ فهل تراها قد علمت بعلاقته بزيزينيا دو بوتيا؟ في غمرة مشاكل الحياة، تدخل أروزة سليلة الوالدين الغنيين، بزيها الموحد الأزرق والأبيض الخاص بمدرســـة الإرســـاليات في إيلايوس، ويسرى، هي الأخرى، تدخل بفستان الحداد الأســـود سيدة دكان، راقية، في مركز إيتابونا، فيا لزيزينيا دو بوتيا الحثالة في ركن الشارع، والمرأة الضائعة، كيف كانت في يوم موضع تقديره وثقته!

2

لدى مروره بإيلايوس حيث أتى ليكمل ملء مخزنه، ويسدّد المدفوعات ويرى البحـــر دعي فضول عبد الله إلى العشاء برفقة ألفارو فاريا، في بيت جميل سكاف، المـــواطن اللبـــناني الرفيع المستوى الحياتي، وصاحب محلات "أبريفيرينسيا" لتجارة الأثاث والفرش المزدهرة.

تفاجـــأ فضول بالدعوة التي وجهت له في مشرب "شيك"، عند الميناء، فقد تعـــرف بجميل منذ سنوات عديدة ولكنه لم يقم معه علاقات صداقة حميمة. كانا يلتقيان أحياناً في شؤون حياتية وأخرى في أماكن "الموت" كالمشارب والملاهي، أو نـــزل فتيات الهوى، فيتصافحان، ويقدمان التحببات الواحد للآخر، هذا ولا شيء آخر. في المشرب، بينما يحتسي ما يفتح شهيته للطعام، وقد قرّر الغداء في "تاشودي بيبـــي" سمكة حارة سيلتهمها مع البيرة، فإن فضول كان يتمتع بلحظات السعادة المطلقـــة للتبجيل الروحي العالي الذي يسمعه من ألفارو فاريا، رجل المعرفة العميقة والإنـــتاج القلـــيل. ولم يكـــن من يضاهي ألفارو فاريا في نقاش فكري، ومبادلة عواطف سامية، سوى فؤاد كرم؛ فواحد في إيلايوس وآخر في إيتابونا، وكل واحد أكثر علماً وروحانية من الآخر: إنهما منارتان.

– تأكـــل وتشرب بشكل ممتاز في بيت جميل – أسرّ ألفارو في أذن فضول – وأمـــا ابنته فمتألقة تبهر النظر. وبقامته القصيرة وشاربه الكث، وحيويته الجسدية، فـــإن مواطـــنه اللبناني كان قد وجه له الدعوة واستطرد أن بعد العشاء يمكنهما أن يذهـــبا معـــاً إلى نـــــزل تيلدي الذي تمّ تدشينه حديثاً ويمتاز برفاهية الفرنسيات العاملات فيه.

3

بالـــرغم من أن المدعوين كانا هما وحدهما، ألفارو وفضول، فإن العشاء اتخذ شـــكل حفلـــة كـــبيرة تميزت بتنوع الصحون العربية والبرازيلية ونوعية الحلويات وجودتها، فأفرط فضول في الأكل.

عندما ذهب في تبجيل الجودة الممتازة للكبة، والطعم الإلهي للقطايف المحشية باللـــوز والممـــزوجة بالعـــسل، حلوياته المفضلة، عرف فضول أن ابنة أهل البيت الوحـــيدة، تلميذة دار المعلمات، هي التي جهزت العشاء: إنها طباخة ماهرة وسيدة من سادات الفرن والنار. وقد تمّ مساعدتها طبعاً بعدد وفير من الخدم.

أثناء العشاء، حافظت أروزة على نفسها منعزلة، لا موضوع لها، وهي تجيب بلفـــظ مفخم عن الأسئلة التي يطرحها عليها. ولم تكن تضحك حتى عندما كان الآخرون يقهقهون لبيارق الكلام المؤنسة والأقوال الجيدة التي يطلقها ألفارو فاريا.

وقبل أن يجلسوا إلى الطاولة، سمع فضول على لسان جميل سكاف الإطراء على مواهب ابنته التي يعتز بها كثيراً:

– في كانون الأول/ديسمبر المقبل ستتدرج إلى معلمة؛ تعزف على البيانو، وتلقي الشعر ارتجالاً. إنها مثقفة جداً، و لم أنفق المال هباء.

سكت فضول كما لو كان يحسب كم صرف جميل من المال على تربية وريثته، ولكنه ما لبث أن استطرد مستكملاً تعداد الفضائل:

– مخلصة، شغولة، ومطيعة.

لم يتطرق لموضوع الجمال، فقد صدم فضول عندما دخلت إلى الغرفة وقام جميل بالتعريف:

– هذه هي ابنتي أروزة يا صديقي فضول:

مدَّ فضول يده الكبيرة، وابتسم تهذيباً. ألفارو فاريا كان على حق: كانت أروزة باهرة الجمال حقاً: شعر سابل، شفتان لحميتان، عينان دعجاوان، وخصر أهيف، ونهدان كبيران، السترة بيضاء، وردفان قويان تحت التنورة الزرقاء.

لقد وجد فضول نفسه أمام التشخيص الحقيقي لمفهومه الجمالي. سعيد من يتزوج منها؛ ثم أكمل جميل التعريف:

– هذا هو صديقي فضول عبد الله الذي حدثتك عنه.

منحته أروزة نظرة خاطفة، وجاء صوتها خافتاً:

– سعيدة.

جميلة جداً، وليس في إيلايوس فتاة بجمالها، وفتش فضول في رأسه عن تعبير دقيق لتحديدها، فوجده في التراث العربي: حورية. أميرة مسلمة.

4

انتهى حفل العشاء برضى الجميع، فدعا جميل سكاف المحتفى بهما إلى تناول القهوة في غرفة الاستقبال التي تفتح للمناسبات الاستثنائية؛ وإلى هناك اتجهوا.

– إلى أين تذهبين يا أروزة؟

كانت أروزة قد بدأت تجتاز الممر المطل على الخارج. توقفت وأجابت أباها دون أن تنظر إليه:

- إني ذاهبة إلى بيت بلينيا وسأعود بعد قليل.

- لا تذهبي. لا يا سيدتي. لدينا مدعوون، ومكانك هنا.

قطعت أروزة طريق الذهاب وعادت لتجلس. وبعد أن لملم فناجين القهوة أعطى جميل أوامره إلى الابنة.

- افتحي البيانو واعزفي بعض الموسيقى ليسمع الأصدقاء.

متوازنة، أطاعت الصبية. وبدأت بعزف مقطوعة "بريماكريسا" ضرب ألفارو فاريا بكفيه بحماس؛ كان العزف في الحقيقة رائعاً. ثم أعقبت المقطوعة الأولى، مقطوعتان "سوبري أس أونداس"، و"من أجل إيليز"، وأرادت أروزة بعد ذلك أن تعتبر الحفلة منتهية ولكن جميل فرض شيئاً آخر:

- ومقطوعتي؟ ألن تعزفيها؟

فتحت البيانو من جديد، وعزفت "النشيد الوطني اللبناني" فجاء الحماس جماعياً. وعندما انتهى العزف، وبينما فضول وألفارو يصفقان، وقفت الفتاة، واتجهت نحو الأب؟

- هل أستطيع أن أذهب الآن؟

معاندة؛ لاحظ فضول أن الضغط بدأ يتصاعد في الغرفة. وتماوج صوت جميل بمسحة من الغضب بالرغم من الابتسامة التي تلطت وراء شاربه:

- لا الآن ولا بعد. اجلسي هنا وتحدثي مع فضول.

بعدما قال هذا تمادى جميل في محادثة سياسية محلية مع ألفارو فاريا. تبادل فضول وأروزة بعض الكلمات، فحاول أن يثير اهتمامها بالتوراة والقرآن دون أن يفلح في ذلك. لم تكن تبدو كمن يصغي إليه، بل كانت تعض على شفتيها: طالبة معاقبة، وعذراء قلقة، مهددة في أحلامها ومشاريعها.

منشغلة النظرات، فإن السيدة جوردانا، الأم، كانت تمط بفمها ابتسامة للمدعو، ولم تسمح بأن يطول الصمت فلاحظ جميل ذلك. لقد وجدت موضوعاً على ذوق فضول هو الحلويات العربية: فوصفت طريقة الصنع، وناقشت تفاصيل العسل والسمسم.

لم تكن الأم سمينة حسب، لقد كانت مترهلة، ولكنها لا تزال تحتفظ على وجهها بمسحة جمال. عشرون سنة مضت عندما فرض عليها أبوها الزواج من

جميل فاستجابت له مطيعة، مع العلم أنه لم يكن في إيلايوس حورية أجمل منها وأكثر جاذبية وإغراء.. لقد جاءت أروزة شبيهة الشكل بها ولكنها ورثت عن أبيها الثبات والتحفظ.

في الخارج، في الشارع، كان أحدهم يصفر بإلحاح جزءاً حيوياً من "النشيد الوطني اللبناني"

5

في الطريق إلى نزل تيلدي، قلعة الفرنسيات، المزيفات، ولكنهن مغريات، والمكان الذي لا يعلى عليه رهافة وبذخاً، "أو - نون - بلو - أولترا" على حدِّ تعبير ألفارو فاريا، أوقف جميل سكاف الخطو، وأخذ فضول من ذراعه وبعصبية أراد أن يعرف كيف رأى أروزة.

- إنها قطعة من الجمال، حورية. ولا تتكلمن عن الحيوية.

وفرحا بالجواب أراد مواطن فضول أن يعرف:

- هل تريد أن تتزوج منها؟

وتابع بصوت مذبذب، ومنفعل:

إن محلات "أبريفيريدا" محلقة بعائداتها، وسأفتح فرعاً آخر في إيتابونا كما أنني زرعت حقولاً واسعة بأشجار الكاكاو. أروزة ابنتي الوحيدة.

- ثم كرّر السؤال: - هل تريد أن تتزوج منها؟

إحراج غير متوقع، جعل فضول دائخاً إلى درجة أنه لم يعر الفرنسية التي جاءت تستقبله أي اهتمام. ولكنه فيما بعد، وفي غرفة فندق "ممادي"، علم أن جميل سكاف قد قرّر أن يختار خطيباً لأروزة.

أن يختار جميل خطيباً لابنته ويفرضه عليها، فهو إجراء عادي، صحيح وعادل، ويستحق التصفيق. إن الأب المحافظ، المنشغل الفكر بسعادة ومستقبل أروزة، هكذا يتصرف ليكفل لها زواجاً مباركاً وحياة هادئة واستمراراً بالعيش الكريم. إن التقليد الجيد الذي تمّ اختياره والتصديق عليه، ولا مجال لمناقشته كان يأمر بأن الوالدين المسؤولين عن مصير البنات يجب أن ينقبا عن ذكور المملكة الذين لا يزالون عزاباً وأن يختاروا أفضلهم ليعرضوا عليه الخطبة "والدوتا" بعض

الآبـــاء كانـــوا يـــتحفظون من الواجب الأبوي هذا ويتركون لبناهم الناهدات، الخفـــيفات، غير الناضجات، حرية الاختيار والقرار في موضوع بهذه الأهمية. ومن هذه التنازلات كانت تحصل زيجات غير سعيدة؛ زوجات مهملات، وحياة عائلية مفككة والإرث غير العادل، وثروات مبددة. إن جميل سكاف بالتزام ووعي يفتش عن الأفضل في مملكة الكاكاو فوقع اختياره على فضول عبد الله في قفا الدنيا.

ظـــلّ فضول يفكر، وهو في المرة المقبلة سيعطي الجواب. وبعدها شكر جميل على الشرف الذي منحه إياه والثقة التي وضعها فيه.

6

في صـــبيحة اليوم التالي، بينما كان يتوجه إلى محطة القطار، اجتاز فضول عبد الله طـــريقاً يمـــر قـــرب "لافاديرا دا كونكيستا" حيث تقع مدرسة سيدة الرحمة للـــراهبات، وحـــيث كان يتم تخريج معلمات الصفوف الابتدائية فتمنح المدرسة الألعاب والشهادات إلى الطالبات الغنيات في إيلايوس ومنطقة الكاكاو اللواتي كن يدرســـن هـــناك ضمن نظام داخلي وخارجي. صباحاً ومساءً كانت الطالبات في الـــنظام الخارجي يصعدن ويهبطن لاديرا في تزاحم شبابي نشيط. وعند الأسفل من المكان كان يحوم المرتبطون والمفتشون عن الفتيات.

عندما رأته يحمل الحقيبة، وهيئة بائع "الكشة"، ووضع يده على قبعته لتحيتها، تـــركت أروزة صـــوهّا يـــنطلق بصرخة صغيرة – ربما بسبب اليأس أو الغضب، وكشفت عن شخصيته إلى زميلتها التي لم تكن إلا بيلينيا الجارة وكاتمة السر. كانتا تـــتكلمان عـــنه. وتابع فضول طريقه إلى المحطة، وهو يحمل في عينيه مرأى الفتاة المرتدية الزي الأزرق والأبيض.

في ســـاعة الاستراحة، وفي الركن المفضل تحت أشجار المانجا، اشتكت أروزة مـــن واقعهـــا. ولم تجـــد بيلينيا حلاً للمشكلة، ولكن أوتا روزا، الطالبة الداخلية، وضـــعت في الحـــال حلاً لمشكلة المولهة المسكينة، ويمكن أن ينقذ الحل أروزة من الـــزواج من خطيب اختاره الأب. كانت بيلينيا قد رأته في لاديرا فأكدت: هامة كـــبيرة غـــير متناسقة، ومخربط الملامح، إنه عكس الخريج المدلل التي كانت أروزة تتنهد له وهو يتنهد لذكر اسمها.

إن الخطوة السيئة وحدها هي الحل الجذري والفوري الذي طلعت به صراحة أوتـــا روزا. إنها الخطوة التي تقتضي الشجاعة والقرار: وهي عليها أن تواجه العائلة والمجـــتمع.. كانـــت أوتـــا روزا، حسب قول الأم "أنا دي جيزوس" كلباً بشكل إنـــسان. فهـــي مقفلة بسبعة مفاتيح وخلف جدران المدرسة كانت تتمكن لا من المغازلـــة مـــع الحبيب حسب ولكن من موافاته بالسر. ولو لم تكن كذلك فكيف كـــان يمكن لمحرر ومدير إخراج "غاريتا غرابيونا" أن يشير في رسائله بتعابير مولهة ورذيلـــة إلى تفاصيل تشريحية في جسدها وفي الأماكن المخبأة بتحفظ شديد تحت الزي الموحد؟ وبينما تقرأ الأوصاف الملهبة، فإن الأم "أنا دي جيزوس" قد ارتكبت الخطيـــئة مرتين: في المرة الأولى عندما قرأتها وفي المرة الثانية عندما أخفتها عن الأم الرئيـــسة إذ كانت ضعيفة أمام الطالبة الخفيفة والطائشة ولكنها ذات قلب ذهبي. والأم "أنـــا دي جيـــزوس" قبل أن ترتدي ثوب الراهبة كانت هي الأخرى صبية ومغرمة.

فـــصيحة ومقـــنعة، فإن أوتا روزا كانت تعطي التوجيهات. وكانت أروزة تصغي إلى نصائحها الشيطانية مسحورة بها.

7

في وحدتـــه الموحـــشة في توكايا غراندي راح فضول يحصل على أروزة بشكل متواصـــل. وخشية إقلاقها أو إثارة ردود فعل عصبية من جانبها، جهد فضول في أن يكـــون مـــرهفاً وحـــذراً في الوصال الأول بينما يعريها من زيها الأبيض والأزرق. ملامسات، قبل في المطارح الحساسة، ومداعبات خفيفة تساعد على اكتشاف الكنوز المخبأة: لذة من عند الآلهة. رويداً رويداً منحت العذراء نفسها وتحول الطهر إلى رغبة.

كان فضول يصبح على وسائد خاسفة لكثرة تماديه؛ حدث له أن بدأ يسيطر علـــى العذراء ويدعوها إليه خلال الحلم، وانتهى بالاستحواذ عليها متيقظاً وعيناه مفتوحـــتان. في توكايا غراندي، وخلال شهرين كاملين فإن عذرية أروزة سكاف غدت في يد اللبناني القاسية الجلفة.

والأحلام لا تختصر دائماً باللذة والمتعة، فوفقاً لما هو معلوم، فقد علم فضول أن المدعوة سيروكا ماتت أثناء عملية إجهاض. وهذه المسائل تحدث.

في بعـــض اللـــيالي وفي الساعة المحددة التي كان يأوي فيها فضول إلى الفراش كانت زيزينيا دوبوتيا تنتفض في الفراش دون أن يكون قد استدعاها.

لماذا عرض جميل سكاف نعمة الزواج من ابنته الوحيدة، وشركة "أبريفيريدا" في إيـــتابونا للإنـــاث، والثـــروة الفورية والسهلة؟ لا بدّ من أن يكون هناك سبب خطـــير، وماذا يمكن أن يكون؟ كانت زيزينيا دو بوتيا تضحك في وجهه: اذهب وغطّ بجسمك الضخم وطموحك دعارة ابنة مواطنك اللبناني، أيها الدماغ الصغير، الأبلـــه المرتزق. إنك من أجل المال تستطيع كل شيء أو أنك تعتقد أنني لا أعرف هذا.

من جهة ثانية كان إله الموارنة ينتفض في تلك الليالي راكباً على جواد مطهم، فيظهـــر له في الليالي المظلمة كشعاع أو ومضة نور لكي يفي بالوعد الذي وعده بـــه.. وإذ كان إلهه قد اجتاز الغابة عبر شعابها الصعبة وقاد عبد الله فضول من يده إلى المكان الذي هو أرض ميعاده: ربح المال الشريف بالعمل والعرق والإثراء دون أن يكون له شريك، وزوج امرأة لبقة الحديث.

غيوم واسعة تنتشر كثيفة في السماء، وإله الموارنة يتحول إلى غيوم ومطر عند الفجر تاركاً اللبناني يقضم ويهضم العذارى وخيبات الأمل.

8

بعـــدما عانى ما عاناه ووزن ما له وما عليه، وعندما قرّر فضول أن يعود إلى إيلايـــوس ليعطـــي جواباً إيجابياً على مشروع الزواج الذي عرضه جميل سكاف، حـــدث أن مـــرَّ العقيد روبستيانو دي أراجو بتوكايا غراندي، فأوقف مطيته أمام دكـــان فضول ليبلغه رسالة كان قد أرسلها الصديق اللبناني ألفارو فاريا عن زواج ابنة جميل سكاف وتفاصيل الحفل.

مـــن؟ أروزة؟ ولكـــنها إذا لم تكن مخطوبة منذ شهرين فكيف تتزوج هكذا وبهذه السرعة؟ وضع العقيد روبستيانو دي أراجو يديه على بطنه بحركة تعبيرية.

حامـــل؟ إذا لم تكن، فإنها الآن وفقاً لما كانت الألسن السيئة تردد. إن أروزة والدكتور ناسيمنتو المحامي دون قضايا واجها دموع السيدة جوردانا وغضب جميل سكاف واعترفا بخطوتهما السيئة ثمرة الحب اليائس.

ولم يفـد التهديد والوعيد بشيء، وجميل سكاف الرجل العملي استعجل الزواج لكي تتمكن ابنته من ارتداء فستان الزواج الأبيض محاطة بالقداح غير المفتح دليلاً علـى كونها عذراء. وإذا تأخر، فإن بطن الابنة قد يصبح شاهداً على غير ذلك، ومن أجل هذا قاموا باللازم.

أصـغى فـضول ولم يعلق بكلمة. ترك التقدير والدندنات ريثما تختفي مطية العقيد في نهاية الطريق: "ك. أم أبوك يا بنت الشر..!" ومنذ ذلك الحين لم يعد يحلم بـأروزة. وعـادت زيزينيا دو بوتيا لتتحكم وحدها بالفراش العريض خلال ليالي الوحدة في توكايا غراندي.

يسرى راموس رباط،
أرملة ووريثة خليل رباط
تذهب إلى توكايا غراندي

1

تعـــرف فـــضول عبد الله بيسرى راموس رباط، أرملة ووريثة خليل رباط في معرض تاكاراس بينما كان يناقش عملية شراء حمارين ضروريين لنقل البضائع إلى تـــوكايا غـــراندي ولكي يستخدمهما كمطية. وكان قد اختار الحمارين بإصبعه، وتفحـــص الأنياب والحوافر وفقاً لما أوصاه به النقيب ناتاريو دا فونسيكا، ثم وهب نفـــسه لمتعة مناقشة السعر مع مانويل دا لابا، وهو يشير إلى مواصفات سيئة خيالية في الحمارين ويشك في المواصفات الجيدة التي لا تقبل الجدل.

– أشفق عليَّ يا سيد فضول وادفع لي فقط سعر الشراء.

– لا أضيف قرشاً واحداً على السعر.

وكانـــت يسرى، مثلما يسميها الناس، جنية، وأنثى تملأ عين أي إنسان ينظر إلـــيها: لون برونـــزي أحرقته الشمس. وإذ رآها فضول تمشي باتجاهه عبر البغال والجـــياد والمهـــور لـــتقف أمامه وتتأمل فيه بتفرس، أحس فضول بالقلق وكادت مناقـــشة العملية الجراحية تمر كما الماء بين العشب، ثم أصيب بالذهول لا حول له ولا قـــوة. وإذ شعر مانويل دا لابا بالخطر قرّر أن يقبل بسعر فضول حتى لا ينتهي إلى: "سنرى فيما بعد"

– هـــل أتكلم مع فضول عبد الله؟ بدأت يسرى بالسؤال ثم أطلقت ضحكة خفيفة ومغرية وبنغمة ممتعة.

كانت عيناه تلمعان متجاوبتين مع صوتها الدافئ المتماوج الميت بين الكلمات الـــتي تمطهـــا يـــسرى، فيتمطى الصوت على لسانها ويتثاءب؛ إنها الدلال بعينه في معـــرض تاكـــاراس. مـــن لم يكن يعرفها، كان يحس نفسه مستعداً لحمايتها فور

مقابلتها وسماع صوتها للمرة الأولى، لحمايتها ضد أعمال الخديعة والخيانات والرغبات، وفضول لم يكن يعرفها، و لم يكن قد رآها من قبل.

بجهد، تمكّن اللبناني من انتزاع قبعته لتحيتها بلباقة وتهذيب. ثم راح يتأمل فيها من أعلى إلى أسفل محاولاً أن يتكهن بها وهي خلف ملابس الحداد التي تحويها، ولكنها في بريق العينين ولحم الشفتين لم يكن ممكناً العثور على أي دليل على الدموع أو الشوق إلى من فقدت. في يدها سوط بمقبض فضي، وفي فمها المعجعج نصف المفتوح الأسنان الكاملة البيضاء: أسنان للعض.

– لقد سمعت الكثير عنك. إن اسمي يسرى. هل عرفت خليل رباط صاحب الدار الشرقية؟

– عرفته. عرفته شكلاً لا بعلاقة عمل. عرفت أنه مات.

– إني أرملته. ولا أعرف شيئاً عن التجارة. يا ويلي!

مدّت السوط، ومسّت به صدر العملاق، وفي الوقت نفسه وقحة وحازمة:

عندما تذهب إلى إيتابونا تعال لزيارتي. سأريك المحل. إني أفتش عمن يساعدني: لا أحد يحمل أرملة في عالم الأعمال على محمل الجد. يا تعتيري! أدارت له ظهرها ونظرت إلى حيث كان سائس يمسك بحصانها المطهم. وقبل أن تمتطي الحصان نزعت يسرى شالها بحركة مفاجئة وجعلت شعرها الأسود يسترسل خلف ظهرها طويلاً حتى الزنار. وبلع فضول على الناشف مهتماً بالتحسس. وساعدها السائس على الامتطاء فوضعت رجليها في المهمازين واستوت فوق السرج. أدارت رأسها إلى مواطنها اللبناني وقامت بحركة وداع. بعد دقيقة لم يعد لها وجود هناك.

وبينما مدَّ مانويل دا لابا يده ليستلم سعر الحمارين، علّق:

– امرأة نادرة.. إنها مفاجأة يا سيد فضول.

وإذ امتطى حماراً وقاد الآخر اتجه فضول إلى توكايا غراندي: يا تعتيري! إني مزروع في قفا الدنيا...

2

خلال الخمسة عشر يوماً التي عقبت اللقاء في معرض تاكاراس، فإن يسرى راموس رباط، الأرملة الوريثة، أزعجت ساعات فراغ عبد الله فضول. أية نوايا

أفـــرزت تلـــك الحركات والكلمات، وتلك النظرات اللحوحة، وتلك الرخامة في الصوت.

إن "يـــا تعـــتيري"، التي قالتها ورددهّا مستنكرة الترمل والتجارة، المشكلتين الكـــبيرتين: عمَّ كانت تفتش؟ ولأي غرض دعته لزيارتها في إيتابونا؟ ربما لتعرض علـــيه وظـــيفة في "البيت الشرقي"، أو ربما لتعرض عليه فوائد المبيعات، ومشاركة صغيرة في الأرباح؟ إن العمل للآخرين لا يغريه، وهو يفضل المراوحة دون تعب في مملكـــته، وخـــلال أيامـــه في تـــوكايا غراندي، دون أن يكون هناك من يقدم له الحساب.

أو ربما كانت تفتش عن زوج يهتم بها وبتجارة الأقمشة كونها أرملة عصرية؟ شـــابة، غنية، وجميلة، لا بدّ أن يكون في مدينة إيتابونا ومرفأ إيلايوس، مجموعة من المرشـــحين الذين يرتمون على قدميها، فلماذا عليها أن تسعى وراء تاجر صغير في معـــرض تاكـــاراس وســـط البغال والحمير؟ كان يمكنها أن تفتش عن أحد وسط المـــزارعين الكبار، والتجار المعروفين والخريجين والأطباء؟ وبإمكانها أيضاً أن تتعامل مع محاسب لمدة جديرة بالثقة.

مـــع كـــل ذلك سيذهب لزيارتها في إيتابونا عندما يمر من هناك على الأقل لـــرؤيتها وليمـــتع نظره بتلك المرأة الوقحة: الإنجاز، الصدفة الرائعة، كما قال له مانـــويل دا لابا. وعندما كان فضول يعي شروده فإنه كان يحوله إلى لهاث الأبدي خلف زيزينيا دو بوتيا التي كانت تفتش عنه لتهرب من الفراش عندما يقاربها.. و لم يـــتمكن فضول من صهر الحديد والتأكد من لون اللظى الذي كان يشع في نيران عيني يسرى: أرملة شريفة وحسنة السلوك، مثلها لم يرَ قط..

3

وبينما هو جالس على عتبة الباب كان يفكر في يسرى، وشعور غامض عبر دخان النرجيلة اعتراه عندما رآها بلحمها وعظمها تترجل عن حصانها المطهم وهي تـــوكل بالرسن إلى السائس. كان فضول عبد الله قد وصل لتوه بعد أن استحم في النهـــر وكـــأن شيئاً ثقيلاً يزن في خصيتيه. مع الضوء الباهت عند الغروب كانت توكايا غراندي تغرق في الصمت.

لم يظهر فضول أنه تفاجأ أو انبهر بقدومها واعتبر الأمر طبيعياً. حتى إنه تخلى عـــن التحديق فيها وهو يتابع بنظره السائس الذي يمتطي حماراً ويقود الحصان من رســـنه إلى ظـــلال الأشجار القريبة. ولكنه فجأة انتبه إلى المشهد المفاجئ. وفرك عينيه، ونظر إلى المرأة التي كانت تسير في اتجاهه.

– لماذا لم تذهب لزيارتي في إيتابونا؟ لقد انتظرتك بلا فائدة.

– لم أذهب إلى هناك حتى اليوم...

– ما دمت لم تذهب، فأنا التي جئت، يا "تعتيري" – وجالت في المكان: – يا لهذا الموقع التعيس. ماذا تفعل دفيناً هنا؟

هزَّ برأسه غير موافق. وقبل أن يجيب، تابع:

– هل ستبقى واقفاً هنا؟ ألا تدعوني للدخول؟ ألا تقدم لي شيئاً أشربه؟

– ثم دخلت.

وقفـــت أمـــام الواجهة تتفحص السلع المعروضة للبيع، قليلة ومختلفة، فهزت برأسها إشارة إلى عدم الرضى ولكنها لم تقم بتعليقات.

وإذ لا يـــزال مرتبكاً رافقها فضول. يا إله السماء! هل كانت الحقيقة أم أن الـــشمس قد ضربته وجعلته يرى وجوهاً على ضوء النهار؟ لا يعرف ماذا يقدم لها – لم يكن عنده شيء جدير بها – فسأل:

– ماذا تريدين؟

– أقـــبل بجرعة ماء من الإبريق. – وأشارت يسرى بإصبعها إلى إبريق فخار عند ضلع الشباك الأسفل. واستدارت حول واجهة البار ودخلت البيت وهي تبعد من أمامها الأثاث المترامي واجتازت عتبة غرفة النوم:

– إني أحب الفراش العريض، ولكن فراشاً بهذا الحجم لم أرَ أبداً.

– ليتسع لي. – افتخر فضول وهو يقدم لها إبريق الماء البارد.

شربت يسرى الماء جرعات صغيرة وهي تمد بلسانها إلى شفتيها كأنها تتذوق نبـــيذاً نادراً، بينما عادت تتأمل في اللبناني، وتقيمه، وتقبل به راضية، وفمها مبلل ونصف مفتوح، وعيناها نائستان:

– إن هذا الفراش يتسع لاثنين بحجمك ويزيد.

وضحكت ضحكة معانٍ مضمرة، وسميكة، وأعادت له الإبريق.

– شكراً. عندما تذهب إلى إيتابونا لا تنسَ أن تمر لرؤيتي حتى أريك المحل؛ لا أعـــرف كيف أهتم به وحيدة. – كانت تردد ما قالته في معرض تاكاراس: كانت تعرض عليه وظيفة في المحل، أو من يدري، تعرض يدها للزواج؟

– متى تظهر هناك؟

جعلت صوتها أكثر نعومة، طلبت وأنذرت:

– لا تتأخـــر، اذهب إلى هناك بأسرع وقت. لا أستطيع الانتظار طيلة الحياة. "يا تعتيري"

اســـتدارت نصف استدارة متأهبة للخروج من الغرفة والانسحاب من توكايا غراندي. فاهتزّ اللبناني:

– هل تذهبين الآن؟

– لماذا أبقى؟ ولأفعل أي شيء هنا؟ مررت فقط لأراك.

أظلمت في عيني فضول اللتين أظلمتا بفقدان الصبر والشبق. ودون أن يكلف نفسه عناء إقفال الباب توجه نحو يسرى وأخذها بين ذراعيه. لم تستسلم و لم تمتنع، واكتفى بأن يقول بذلك الصوت المتلوي، صوت من يحتاج إلى مساندة وحماية:

– أشـــفق عليَّ. ألا ترى أنني أرملة وأنني بحاجة إلى أن أتزوج من جديد؟ إذا فقـــدت رأسي فكيف ستكون الأمور لاحقاً؟ "يا تعتيري" فأنا لا أستطيع حتى أن أحب..

لم يجـــب فضول وحافظ على الصمت: كان يمكن للمحادثة أن تنتظر ولكن لـــيس ممكـــناً له الانتظار. أخذه الغضب، وقدحت عيناه شرراً؛ أحس بجسد المرأة يـــرتعش. نـــزع عنها القميص فارتعصت يسرى ارتعاصة خفيفة. ثم نـــزع عنها التنورة فظهر لباسها الأسود هو الآخر أسود اللون.

ولوى بها فوق الفراش ليس عليها سوى حزمة ركوب عالية تنتعلها و لم يضع فضول الوقت لينـــزعها عنها. ودام الجنون طيلة ساعات الأصيل.

4

– يـــا ويلي، ماذا فعلت، يا إلهي كم أنا حمقاء؟ أرملة بلا عقل، جئت أفتش عن زوج وها أنا أخرج ملطخة بالعار. يا ويلي، "يا تعتيري"

نظـــرت بعينين مبللتين بدموع خفيفة إلى اللبناني الممدد قربها عندما عادا من احتـــياز الصحراء والمحيط للمرة الأولى. وقبل أن ينـــزع لها حزمتها استأذنها ليقفل الباب أخيراً. وكانت يسرى ذات طاقة على الكلام سهلة الاستعمال وكان يرافق كلامها تباكٍ وشكوى، بمما كانت تتهم نفسها وتحتزن:

- الآنَ وقـــد حصلت على ما تريده مني، يمكنك أن تتخلى عني، وتحتقرني، وتدعـــوني "عاهرة" وترمي بي إلى الخارج. إن الذنب ذنبي أنا، لقد كنت في حالة جـــيدة في إيتابونا، فماذا جئت أفعل هنا؟ جئت أرمي نفسي في التعاسة في حين أنا بحاجـــة إلى زوج يهـــتم بي ويقـــوم بأعمال المحل. إني ألعن اليوم الذي رأيتك فيه وفقدت صوابي.. غدوت مجنونة، بلا رأس، وغير قادرة على السيطرة على نفسي. فقدت كل قواي في المقاومة، فانـــزلقت. يا تعتيري، لقد انـــزلقت.

لم تكـــف عن لوم نفسها بينما كان الرجل قد نهض من الفراش وأقفل الباب متبختراً. لاحظت أنه، عارياً، يزداد حجماً. من الفراش كانت تنظر إليه متفحصة، إنـــه زوج ونـــصف، شغول وفطري، متحفظ وأبله، تماماً مثل خليل رباط التافه الـــسعيد الذي ولد ليكون تيساً ذا قرنين. بغية الحصول على ذلك الجذع الضخم جـــاءت يـــسرى بيدين مليئتين: وجه هي، ليونة جسد، ومال لا يحصى، ومحلات تجاريـــة مليئة بالأقمشة التي تجعلها أكبر محلات إيتابونا وأشهرها، الوقاحة والدلال، واللهـــيب الجنسي. ماذا يريد "دكنجي" تافه يعيش بين الصناديق الفارغة أكثر من هذا كله؟

لم تبدُ له تلك الساعة مناسبة للتحدث عن شرف الأرملة المفقود وعن كيفية اســـتعادته، فظـــلّ اللبناني يصغي بصمت، بصبر جميل إلى المرثية التي لا تنتهي. و لم تتوقف يسرى عن النواح إلا عندما نـــزع عنها حزمتها بعناية مجانية..

- أنا المذنبة. لم أهرب في الوقت المناسب. لا يهمني. لقد انتهى الأمر.

صمتت متواجهة مع فضول، ثم ارتفع صوتها من جديد:

- لقد أضعت شرفي.. إنني بين يديك.. - لاطفت وجه فضول واضعة عسلاً في فمها لتتكلم: - ولكني لست نادمة، لقد أعميت بصري وأغريتني.

حتى وإن ضاع شرفي فلست آسفة - كلمات جميلة يسمعها: كلمات تشرح الـــصدر، وتبعث الحرارة في القلب، وتحرق خصيتي رجل جيد الفراش. بالرغم من

الحذر الذي تعود أن يخوض به النقاش في مثل هذه الأحاديث الدقيقة والخبيثة، قرّر فضول أن يعد بشيء، ربما ليفي بالوعد، من يعلم، وبعد أن يكون قد استوضح بعض التفاصيل:

- لا يهم. إنني سأذهب في الأيام المقبلة إلى إيتابونا وهناك سنتحدث وسنضع الحلول. لا تهتمي للمحلات التجارية.

- أصحيح ما تقول؟ هل ستهتم بتجارتي؟ هل ستهتم بي؟

- كوني مطمئنة.

ولم يزد شيئاً.

5

جاءت مهتمة بتدبير زوج لها. اقتنع فضول بذلك وهو يصغي إليها يائساً. زوج يضع حداً للحالة التي تعيشها أرملة، ويتحمل مسؤولية المحل التجاري كافلاً بذلك تحقيق الأرباح. ولكي تتمكن منه فإنها كانت تراهن الرهانات الكبيرة على جسدها وشرفها. هل هي معرفة بديهية أو عبقرية متفوقة؟ حسنة النيَّة أم سيئتها؟ وهل هو الوله المفترس أو اللعبة المحسوبة.

أنهت الحداد وبدت يسرى نبيلة رومانطيقية وهي تعلن حبها من النظرة الأولى:

- جئت إليك لأنني من اليوم الذي رأيتك فيه في المعرض أصبحت ضائعة، ولم يعد لديَّ عقل لأفكر في شيء سواك. وها أنا الآن بين يديك لأغدو سعيدة أو لأنأى عنك دفعة واحدة.

- ثم عادت تسأله: - هل تريدني أم أنك ستتنكر لي؟

لم يكن الوقت مناسباً للتفكير واستجلاء الشكوك والظنون والتردد وبنوع خاص لم تكن الساعة مؤاتية لعقد اتفاقات. وبدلاً من أن يجيب عن التوسل المحزن فإنه أخذها بين ذراعيه ولم يعد بمقدوره الانتظار وإن دقيقة إضافية واحدة. فأعطته شفتيها العريضتين ولسانها المتلوي وأسنانها الحادة.. فسرح هناك وتجاوز المكان.

هل يكون ذلك التملق اليائس والامتلاك المجنون لها جواباً إيجابياً؟ أجل، وبالتأكيد، فكيف يمكن لفضول أن يعيش بعد اليوم يتيماً دون تنفس يسرى

وعرقها وعطرها ودوخانها؟ الجسدان ملتصقان يطوفان رمال الصحراء ملتقيين بماء المحيط مدركين نهاية العالم بوله ولذة؛ إنهما طاقتان جبارتان: مهر بري وفرس شبقة.

عندما أتى المساء أعادت يسرى نفسها إلى الأناقة الصاعقة وامتطت جوادها الأصيل الذي كان السائس الذي يرافقها يعتني به، بينما قرّر فضول أن يقبلها قبلة الوداع:

- بعد عدة أيام فإننا سنضع حلاً لكل شيء في إيتابونا.

قبل أن تخرج من هناك، فإن يسرى ألقت رهانها الأخير على الطاولة، بل قل فوق الفراش، وبينما كانت ترتدي بنطالها الضيق، وتضع السترة ثم الجوارب السود، لتظهر بمظهر الأرملة الشريفة التي لا يمكن تعزيتها فإنها أنذرت فضول بأن ما حدث لن يتكرر، فمن يريد أن يتمدد معها للتلذذ بالطيبات واللهو الممتع يتوجب عليه قبل أي شيء أن يأخذها إلى الكاهن والقاضي. إنها لم تعد قادرة على تعريض نفسها لأفواه الناس واضعة القرون لميت: لم تجعل من خليل رباط في حياته تيساً ذا قرنين، وهي ملزمة على احترام ذكراه وهي مضطرة إلى أن تتصرف هكذا حتى لا تدع مجالاً للناس يتكلمون. إنها لم تعرف في حياتها أحداً غير زوجها. وفضول كان الأول والأخير ولمرة واحدة عندما أعمى الوله بصيرتها وفقدت عقلها واستسلمت. كلا إنها لن تعود إلى تكرار ما حدث! ففي الفراش من جديد سواء بين ذراعي من تحب أو ذراعي أي واحد آخر ربما يكون مواطناً شغولاً وذا محتد يعرض عليها الزواج. فقط بعد أن يكون قد تمّ التوقيع على عقد الزواج، وأبداً كما حدث الآن. كزوجة، أجل، وكعشيقة، فلا... آه يا تعتيري!

لكزت الجواد الأصيل يتبعها السائس على عجلة للوصول إلى إيتابونا والنظر إلى الخطيبات الجميلات. فإذا لم يكن فضول صادقاً ووفى بوعده فإن يسرى تجيد القراءة بين السطور وتكشف النوايا في تموجات الصوت وهي لم تكن تشك في أن اللبناني سيأتي راكضاً إلى بيتها. لقد تركت على جلده وصدره وكل مطارحه طعمها الطيب الذي لا ينسى والذي غدا طعماً لا بدّ من تذوقه من الآن فصاعداً، والتعيس الحظ فضول لم يعد يعرف كيف يعيش دون أن يمتلكها. إنها لم تكن تشكو من كل ذلك، وهي لا بدّ من أن تبدأ التعاقد مع كاهن وقاضٍ.

فـــيما هو متعلق بفضول عبد الله، الطيب من النظرة الأولى، فإنها كانت عبر محادثة مع صديقة من صديقات طفولتها قد حصلت على معلومتين دقيقتين: تاجر شـــغول وقدير لا يضاهيه أحد، و لم يكن أحد يضاهيه أيضاً بطول المقاس. وهو قد أثـــبت منذ قليل حقيقة المعلومة الأخيرة؛ فلكي يربح مالاً في مجاهل توكايا غراندي كـــان مـــن الضروري أن يكون رجلاً مفاوضاً بلباقة وذكاء.. وبالنسبة للمعلومة الأخرى فإن يسرى قد تأكدت منها وسبحان الله! ما شاء الله!

لم تكـــن الشمس قد غابت في مياه النهر عندما اتخذت يسرى سكة تاكاراس قـــبل أن تلقي أولى قوافل الحمير رحالها على الطريق. لم يرها أحد واصلة؛ لم يكن أحـــد قد رآها تغادر ما عدا كوروكا التي عندما ظهرت في الدكان لتشتري كازاً أشارت بقولها:

– هل استقدمت فتاة من إيتابونا يا سيد فضول؟

6

عـــند الغروب الهادئ في مدينة إيتابونا الفتية، وإذ ألقى بحقيبة السفر في غرفة زيـــزينيا دي بوتيا في نـــزل "شاندو" واستحم – كانت زيزينيا قد سخنت الماء في الجـــدر وفـــركت ظهره بليفة يابسة مع الصابون المعطر هي روائع الحضارة – فإن فـــضول عبد الله لاحظ أن الفتاة حزينة وغامضة التفكير كما لو أن كدراً يزعجها والكـــدر لا بـــدّ من أن يكون بسبب أخبار من العائلة بلغتها من سرجيبـــي. لقد كانـــت زيـــزينيا تعـــيل عائلة كبيرة في مدينة لاغارتو، قرب بوتيا، حيث ولدت؛ والـــدها مريض بالسل ومدمن كاشاسا، يضاف إليه مجموعة من النساء العاجزات: أم، وجدة، وعمات وكلهن مرتبطات المصير بها؛ الفقيرات!

وتعجب فضول لكون زيزينيا مع كل تلك المشاعر قد استسلمت له بكليتها مـــرتمية بين ذراعيه متولهة به. ولدرجة أنها بدت كأنها كانت تسلمه نفسها للمرة الأولى وكأنها المرة الأخيرة... لا لأنها تعودت في السابق أن تتخذ منه موقفاً تباعدياً أو بـــارداً، بـــل على العكس، لقد كانت امرأة ذات مخزون هائل لا ينضب. كان الاثـــنان متفاهمين على ألف رائعة ورائعة ويحبان الواحد منهما الآخر. لم تكن أية امـــرأة أخرى بقادرة أن ترضي فضول بقدر ما تستطيع هي منحه التوقد والعطف

والحـــنان في آن واحـــد. لذلك لم يكن يشبهها بأية واحدة من الفتيات الأخريات اللـــواتي كان يعرفهن ويعاشرهن؛ و لم يكن يحس بشوق إلى أية امرأة أخرى مهما اكتملت مواصفاتها، لأن زيزينيا كانت الوحيدة التي تداعب أحلامه في وحدته.

كان يطوف فيها وينسى هموم الحياة مرتاحاً سعيداً. كان جسد زيزينيا واحة ســـلام وملجأ أكيداً. وظلّ الوضع على ما هو وقتاً طويلاً وابتدأ بأن يعود هو بائعاً متجولاً: وهي فتاة هوى مبتدئة في إيتابونا.

وبيـــنما راح يـــبني قـــصوراً من الوهم في توكايا غراندي وهو يتخيل نفسه ملـــيونيراً فاحش الثراء، فهو قبل أي شيء آخر يجب أن ينتشل زيزينيا من نـــزل شـــاندو، ويبني لها داراً ويعطيها الجيد والأفضل دون الإقامة معها، وخياطة تجعلها تـــرتدي ملابـــس الملكات. كان يرغب فيها ملكاً له وحده لا يشاركه أحد فيها، متفرغة له، يأتي إليها للراحة من تعب الأعمال المختلفة المزدهرة، ومن تعب العائلة – كان لا يطيق التفكير في العائلة التي يتصورها: امرأة وفية ومطيعة وأبناء أقوياء.

وفي الغـــرفة الفقـــيرة من نـــزل العاهرات، كان الغسق قد تسلل ليبدأ بتسويد شراشـــف القطن.. كانت زيزينيا مختلفة و لم تعد هي نفسها. لقد حدث شيء خطير، اســـتطاع أن يبدل فرحها المعتاد. وكانت الظالمة لا تتلفظ أمامه بأسماء – "هذا تركي، وذاك تركـــي". و لم تكن تطلب دفع تكاليف لا وجود لها، و لم تكن تضيع نفسها في ضـــحكة تنم عن ارتياح. قاسية ومتألمة كما لم تكن قط، وملتفة بالكآبة، صامتة، وفي صدرها شوكة تؤلمها. إنها أحزان بسبب العائلة، وماذا يمكن أن تكون غير هذا؟

7

تكـــثفت الظلال لدى الغروب. وبينما يفك نفسه من الغمرة التي غمرها بها، قفـــز فضول من الفراش مذعوراً، وخشي أن يصل متأخراً إلى موعده مع فؤاد كرم في دكـــان "رومولـــو سامبايو" حيث كان الصديق كل يوم يكشف أصول الناس مـــسلطاً الأضواء على نخبة المدينة في ساعة تناول كأس فتح الشهية والمقبلات. أما زيزينيا غير مكترثة بواجبات المهنة فظلت مستلقية في الفراش و لم تأتِ لمساعدته:

– لقد تأخرت، أليس كذلك؟

– قليلاً. يجب عليَّ أن أنصرف بسرعة...

- اذهب راكضاً، إن الخطيبة غير قادرة على الانتظار. اذهب إليها حالاً حتى لا تتدبر خطيباً آخر وتشده إلى الفراش.

محادثة مزعجة وصوت وقح غير مكترث بأي أصول. مندهشاً وغير واثق مما يسمع، وضع كفه وراء أذنه، ولم يتمكن بعد من ارتداء لباسه:

- خطيبة. أية قصة هي هذه؟

- هل تريد أن تنكر؟ في إيتابونا لا يتكلم الناس في غير هذه المسألة:

- أية مسألة؟ قولي دفعة واحدة..

- كل الناس تعرف أنك اتفقت مع يسرى على الزواج منها. هل لديك الشجاعة لتنكر؟

لقد تأكدت شكوكه التي أيقظته من غفلته: إنها ألاعيب أرملة تحول وعدك إياها بالزيارة إلى بداية قصة عشق ونيَّة صريحة بالزواج، من سوسو، وهو تدليع لاسم يسرى، وراحت زيزينيا تردد اسم دلع يسرى في وجهه؛ شتيمة! وإهانة! وبينما يمسك بلباسه كرّر مستوضحاً:

- سوسو؟

- سوسو "يا تعتيري"، لا تقل إنك لا تعرفها.. حتى فؤاد كرم منذ بضعة أيام جاء إلى هنا وقال لي: "هل تعلمين يا زيزينيا أن صديقك فضول قد جنَّ وسيتزوج من أرملة خليل رباط" أصابني الوجوم ولم أصدق: "لا يمكن أن يكون هذا الأمر ممكناً، ولا أصدقه. ولكنه قال إن المسألة كانت حقيقية، وأنك ستغدو الملك الجديد.. - وسكتت زيزينيا عن الكلام.."

- قولي الصدق.. ملك أي شيء؟ - ثم رفع صوته لدى شعوره بعدم الارتياح وقد وجد نفسه في طريق المرارة مضغة في أفواه المعلقين والنمامين:

- ملك القرون مثل خليل رباط المرهف، الطيب الذي مات لكثرة القرون التي ركبت في رأسه.

لم يكن فضول ينتظر مثل هذا التعليق، ولم يكن مستعداً لأن يفضح الحقيقة بصورة مفاجئة، فأحس باهتزاز في جمجمته: ناست عيناه، وبلع ريقه ناشفاً:

- إذا كنت لا تصدقني، فاسأل فؤاد، فهو العليم بهذا. اسأل من تشاء؛ في إيتابونا يعرف الجميع سمعة يسرى.

رأت عينا فضول المحتارتان الأرملة المناضلة يسرى وهي تحاول أن تلبس رداء الفضيلة. في مسمعيه ما زال صوت الدلال يتردد: إنها المرة الأولى التي مارست فيها هـذا العمل في حياتي، ولم أقم علاقة قط مع رجل آخر غير زوجي ولكني عندما رأيـتك رجلاً مرتباً لم أستطع المقاومة. فماذا يستطيع الشرف أن يفعل ضد القدر؟ كانت يسرى تقسم بروح أمها وهي تفتح مطارحها العاهرة المقنعة. كل ما فيها نمّ عـن تزوير واحتيال: كلبة – بقرة – عاهرة – ثلاث مرات عاهرة: كيف استطاع أن يصدق، وهو العليم بالأمور؟ اقتنع معتزاً بنفسه ومنشرح الصدر بأن فضول عبد الله رجل لا يقاوم. ومنساقاً لمثل هذا الإغراء جاء راكضاً إليها كما وعد.. وقذف شتيمته بالعربية:

– هلا.. هلا:

– أنت، بقدر ما لديك من الكبر فإن لديك من الثُّول (الحماقة). رأيت امرأة جميلة تعد بالغنى فلم تعد تفكر في شيء آخر، وحتى بزوج من القرون. – وركزت عينـيها في صورة اللبناني الذي التبست عليه الأشياء فأصابته بالحيرة: – أم تراك لا تهتم بالقرون؟ تتغاضى وتصرف ناظريك عنها كي لا ترى؟ هذا ما يقولونه هنا.

عارياً ضخماً، ومنـزوع القلب، كأن وطواطاً وقف في بلعومه وهو لا يزال يعمل على ابتلاعه. عاهرة، قوّادة، ثم قعد على حافة الفراش، محاولاً السيطرة على صوته وغضبه وخجله:

– ماذا يقولون هنا؟

– هـذا.. ما يقولونه.. إنك ستتزوج بسبب المحلات التجارية دون أية أهمية للباقـي، ودون اهتمام بالسمعة التي لها. وإنك تبيع نفسك من أجل المال إذا كنت تعـتقد أن يسرى ستغير حياتها فإنك لا تعلم كيف تكون المرأة التي في ذيلها نار، ونار لا يستطيع أي رجل أن يطفئها.

وإذ فقـد معـنوياته، فإن فضول غدا في باطن الأرض، في عمق بئر عميقة، مغموراً بالبراز، ذا قرنين كبيرين، وقوّاداً يشار إليه بالأصابع. وافصح عن السر:

– لم أكن أعلم أنها كانت كذلك، فأنا أعيش في الغابة.

– لم يكن متوجباً عليَّ أن أهتم بهذا الأمر وأتدخل فيه فأنا لا أستفيد شيئاً من هـذا. ولو كنت حكيمة لما تفوهت بكلمة. لأنك إذا تزوجت منها ستصبح غنياً

ومغمـــوراً بالمال، وسيمكنك أن تبني لي بيتاً وتنقذني من الحياة العامة.. حتى فؤاد كـــرم نفـــسه قـــد هنأني وقال لي إنك ستصبحين غنية.. - وخرجت تنهيدة من صـــدرها دون إرادة منها: - فاحشة الغنى، ولكن عفنة، هذا ما قاله، هل تسمعني؟ وقامت بحركة تريد معها أن تمتنع عن البكاء، وبصوت متقطع:

- إذا تـــزوجت مـــنها فلن أسمح لنفسي بأن أراك ثانية.. - ثم راحت تشهق بالبكاء.

لم تعـــد تحـــاول أن تسيطر على انفعالها وتمنع التنهدات في صدرها، وتبقى متماســـكة: إن زيزينيا دو بوتيا غطت وجهها بيديها وأجهشت بالبكاء.. وإذ لمح فـــضول رقرقة الدموع على وجه الصبية، ورآها مشهقة بالبكاء بسببه، وقد غدت مطعـــونة في كرامتها وحزينة لاعتقادها بأنه غدا خطيب يسرى الغني والمزروعة في رأســـه القرون، فإنه استعاد حيويته وتحرر من الانقباض النفسي والصدمة الداخلية، فتحرك في مكانه وخرج سليماً من سورة الانفعال ومن الخجل الذي اعتراه. إن إله المـــوارنة الطيب يتدخل في الوقت المناسب وبالنسبة إلى فضول سواء كانت يسرى أرملـــة شـــريفة أو المرأة الأكثر اتساخاً في سمعتها في إيتابونا، فإنه لم يعد يفكر في الـــزواج مـــنها.. إن ما يهمه الآن، وهذه حقيقة لا تقبل الجدل، هو دموع زيزينيا وبكاؤهـــا الـــذي لا يمكن السيطرة عليه، والنـــزاع، والانقباض، وحزن المسكينة وكلها دلائل على الحب الحقيقي.

- هل تريدين أن تقولي إنك كنت مصدومة بالخبر؟ وأن كل ما يصيبك ليس بسبب مرض أو موت أحد أفراد العائلة؟

- هل تعتقد بأن ليس لديَّ عواطف؟

هبط الليل بكليته مرتدياً معطفاً من الظلام الأسود... في الردهة الكبيرة أطفأ نـــزل شاندو "فانوساً"

8

"نعـــم، انجـــرفت مع التجربة" - اعترف بذلك وهو يروي لزيزينيا دو بوتيا تفاصيل الهوس القصير، اللعين، الذي كاد يربط مصير يسرى راموس رباط، يسرى "يـــا تعـــتيري" التي كانت ستربح زوجاً، واعتباراً، بينما هو كان سيربح محلات

أقمشة في إيتابونا وإمبراطورية القرون الطويلة: فضول ذو القرنين. ولكنه أفلت من التجربة في الوقت المناسب بفضل إله الموارنة الطيب الذي من أجل نجدته أطلق يد زيـــزينيا مرة أخرى لتنقذه، وهي، زيزينيا قد تلقت الأمر بواسطة الملاك الحارس. ونظــــراً للخطر الكبير الذي قمدده فإن الفتاة لم تكتفِ بالظهور له في الحلم كما في زمن أروزة، فقد جاءت بنفسها لتنقذه من العار.

كانت زيزينيا تعرف الكثير بتفاصيل مسالك الأرملة قبل وبعد أن تدفن الميت وتبكــــي متحسرة على قرنيه ولم يعد لدى فضول مع ما سمعه عن عدد الزبائن أية شكوك ليستجليها.

بعــــد ذلـــك، وفي الملهـــى، فإن فؤاد كرم زاد الأخبار توضيحاً وأشار إلى الظــــروف الــــتي تستدعي الفضول، واستكمل لائحة الرجال الذين عرفوا يسرى. مواطــــنون متنوعون كانوا يتدافعون للاسترسال في سرد السيرة التي لا تنتهي. ولم يكــــن أحد يستطيع أن يتهم يسرى بأحكام مسبقة في مادة الرجل، فهي بمجرد أن أحداً يرتدي بنطالاً ويحمل عصا فإنه يستحق الانتباه وحسب الظرف المناسب تأتي به إلى حيث ألقت رحلها.. ومتفكهاً بالأخبار فإن فؤاد كرم اختصر المسألة بقوله، إن يسرى تعاني من الشبق الذي لا حل له.. وكانت زيزينيا تؤكد أن في ذيلها ناراً لا يستطيع أي فحل أن يطفئها.

إذا كانــــت غــــراميات الــــصبية أروزة والخريج إبيتاسيو دو ناسيمنتو جديرة بوصف أدبي عميق في رأي فؤاد كرم الحصيف الذي كانت رذيلته الكبرى المطالعة ويليها القمار والنساء، فإن رواية تفاصيل غراميات يسرى تستدعي الانكباب على وضع كتاب ذي حجم كبير وبتؤدة وروية. وسيكون الكتاب مثيراً ولاذعاً يتضمن الكـــلام عــــن العواطف السهلة والمغامرات الفظة والخدع ومواجهة الألاعيب ولن ينقـــصه عقـــد درامية تثير الانفعال فيما هو متعلق بمحاولة بيبتو باسوس الطالب الجامعي الذي تعرفت إليه يسرى أثناء إجازته. لقد كانت يسرى تقدر حق التقدير جـــنس الذكـــر ولكـــنها كانت تفصح عن تفضيلها للفتيان منهم، وكانت تعبد المـــراهقين عــــبادة، ولا بـــدّ من أن يكون لديها دائماً في الخدمة سائس ذو مظهر عتـــري. "لعنة الله على أمك" - قالها فضول محمر الوجه منتفضاً من مكانه عندما تذكـــر السائس الذي كان برفقتها يوم زارته في توكايا غراندي. وضمّ فؤاد كرم

صـــوته معاضداً إياه ووقع على الشتيمة العربية.. وفي زمنه هو - زمن فؤاد كرم - كان قد سبح في ذلك البحر من اختيارات يسرى ولكن السائس كان حينها شاباً طويلاً منحرفاً.. "لعنة الله على أمك" قالها الاثنان معاً، هذه المرة.

إن يسرى راموس رباط شخصية ثانوية في تاريخ توكايا غراندي حيث مرّت مـــن هناك على جواد وأمضت ساعات معدودة - ولا يتسع المجال هنا لتقرير عن مغامـــراتها التي لا تحصى: صبية عزباء، سيدة متزوجة، أرملة تفتش عن زوج يهتم بالبيت الشرقي وحديقة القرون، آه، "يا تعتيري"! إن شبقاً دائماً يستهلكها، وناراً في الذيل تحرقها، لديها سائس دائم في خدمتها - وبالصدفة العلوية لم تصبح يسرى رامـــوس عبد الله. وسنودعها هنا دفعة واحدة وإلى الأبد ولكننا سنقوم بهذا العمل بـــوقار وشـــوق: إنها امرأة حقيقية، لا مثيل لها على حدٍّ قول مانويل دا لابا الذي يعرف الكثير عن البغال والدابات والمهرات المؤصلة.

إن يـــسرى، في رأي فضول، هي تجربة أوقعه فيها الشيطان وقعة أخرى ليغير قدره ويسير على روحه ويجعله يلغي العهد الذي أخذه على نفسه مع الإله السيد. من أجل امرأة جميلة وثروة سهلة، فإنك يا فضول عبد الله تبيع نفسك للشيطان. لم يـــبع نفسه. إن إله الموارنة الطيب كان متيقظاً ولم يسمح بوقوع المأساة، وقد قام بهذا العمل بواسطة المرسلة إليه امرأة الحياة العامة زيزينيا دو بوتيا.

أعجـــب فضول إعجاباً كبيراً بمعرفة زيزينيا الواسعة بما هو متعلق بيسرى وفي نهايـــة الحسابات، كائنة ما تكون، فإن يسرى كانت أرملة ذات أبعاد تجارية، غنية ومتميـــزة، وذات شـــهرة اجتماعية بينما هي زيزينيا لم تكن أكثر مما هو معروف عـــنها: ضائعة. ومع ذلك كانت زيزينيا تتكلم عن الأخرى كما لو كانت تعرفها منذ الطفولة.

أفلـــست أعرف حقاً؟ إن يسرى هي من لاغارتو وقد ربينا معاً. إنها عصرية وصـــاحبت سائق نقل مسافرين وعاشت معه في بيت واحد. وقد جاء السائق إلى هـــنا، إلى إيتابونا ليستمر في علاقته معها بينما كانت قد تزوجت من السيد خليل، مركبة له القرون.

مـــن كل ما حدث ظلّ في النفس طعم المرارة الذي يمزق اللبناني: لقد استغلته العاهرة واستخفت به معرضة إياه للضحك والسخرية. وأن يفسخ مشروع الخطبة

معها ببساطة تاركاً إياها متأملة في المراكب البحرية فمسألة لا ترضيه، وكان يحتاج إلى التعبير عن كل احتقاره. وتذكر سؤال كوروكا عشية يوم المطارحات الغرامية مع يسرى: "هل استقدمت فتاة من إيتابونا يا سيد فضول؟"

وعــرض على زيزينيا الفكرة السعيدة التي خطرت له: وهي إرسال أحد إلى الأرملة ومعه مبلغ من المال يعادل أجر امرأة هوى عن ليلة كاملة. إنه عمل جريء جعلــه يحــس بــأن نفسه قد اغتسلت من أوساخها. ووافقت زيزينيا على الخطة ولكنها اعتبرت المبلغ قليلاً غير لائق بسمعة شهم كريم مع الفتيات؛ إنه مبلغ أقل مما تستحقه يسرى. إن العاهرة لم تكن فتاة هوى تفتح باها للزبائن. لقد حالفها الحظ وعــلا كعبها في المجتمع: كونها أرملة، وقد تزوجت سابقاً، وكونها وجيهة ولديها خادمــة وسائس في خدمتها؛ ومع كل هذا ذهبت إلى توكايا غراندي. فكم مرة فعلها فضول خلال فترة العصر؟ أفلم يتمتع؟ إنها امرأة ونيف، وذات نار في الذيل.

بقدر ما يكون المبلغ قليلاً تكون الإهانة كبيرة، وكذلك الإذلال، قال اللبناني، ولكنه انتهى إلى الاقتناع بوجهة نظر زيزينيا التي لا ترضى أن يعتبر وضيعاً وهو إن أراد أن يدفع فعليه أن يدفع المبلغ العادل وزيادة. وكون فضول حساساً بالنسبة إلى هــذه البراهين البليغة فقد أبدى استعداده في النهاية لأن يرسل ضعف المبلغ الذي كانــت فتــيات الهوى يتقاضينه عندما يتم استدعاؤهن من إيتابونا: وكون يسرى أرملة لا تتعاطى المهنة.

أراد أن ينادي على فاديكو الذي كان يقوم بكل الأعمال في نــزل شاندو، وذلــك ليأخذ المبلغ بيده ولكن زيزينيا وهي تضحك تناولت المبلغ الذي خصصه فضول:

– إن تصرف فلوسك على يسرى فإنك لأحمق حقاً! إنك كمن يرمي بالمال مــن النافذة؛ إنها ستهزأ منك وتعطي المبلغ للسائس. من الأفضل أن يبقى المبلغ بين يدي، إني بحاجة إليه لمساعدة جماعتي.

السيئ الصيت مانيزينيو
يغزو توكايا غراندي على رأس عصابة،
أثناء غياب فضول عبد الله

1

لم يقـــاوم تجـــارب الـــشيطان معه وهو يحلم مستيقظاً ويتألم نائماً وحسب، فالعاهـــرات والفاجـــرات يتعاقبن على فراشه عارضات أنفسهن، من أرملة ثرية، وخطيـــبات مـــتقدمات، وصاحبات محلات أقمشة وأثاث، ووعود بالغنى السريع والحـــياة الـــسعيدة وأنواع المجون المترفة! إنه ضحية قساوة الحياة وشرور بني آدم القادرة على أن تصرع أي مواطن سواه أقل عناداً منه وثباتاً. قبل أن يبدأ بالكسب الكبير كان على فضول عبد الله أن يتطهر من خطاياه في توكايا غراندي.

ســـابقاً، في نضال البائع المتجول، كان سيد نفسه ووقته: كان باستطاعته أن يتأخـــر أسبوعاً في إيلايوس وإيتابونا، متمتعاً بطيبات الحياة من محادثات شيقة مفـــيدة مـــع فؤاد كرم وألفارو فاريا، ومباريات في لعب الداما والبيدو، واللعب بـــأوراق البوكـــر والبيف - باف الخطيرة، والملاهي، ونـــزل النساء وكلها أنوار الحضارة، وانتهى التشرد والبهدلة إذ كان فضول يغسل نفسه وينـــزع الشقاء من جسده.

إن زبائـــنه الجـــدد لا تاريخ أو ساعة معينة لمشترياتهم، وهم يعيشون منتبهين لـــبداية العـــيد لدى وصول المحتال إلى مخزنه الكبير الذي بدأ دكاناً وأخذ بعد قليل يقتضي حضور صاحبه باستمرار ليقدم ويخدم ويقبض ويفرض الاحترام. تاجر ذو بـــاب مفتوح في ذلك المسلك الوعر الجديد وسيد المحل التجاري الوحيد الذي يلبي حاجات رجال الغابة، ولم يعد بإمكانه أن يتمادى في ملذات البائع المتجول، كأن يجمـــع البضاعة ويضعها في حقيبة على كتفيه ويمضي دون اتجاه متى وأينما يشاء.

لقـــد انتهـــى فـــضول الآن إلى أن يعيش توقيتاً خانقاً. وأصبح ابتعاده عن توكايا غراندي مدعاة للمشاكل والمخاطر.

قلّـــل من سفراته واختصر أيام الغياب. ومع ذلك، وفي البداية، لم يكن يتمتع بدقيقة واحدة من راحة البال عندما يمكث في إيلايوس وإيتابونا الوقت اللازم الذي لا بـــدّ مـــنه للمشتريات والمدفوعات: كان الشراء بالنسبة إليه فناً، هو فن الحوار والمخادعـــة، وكان الدفع علماً في المدد المحددة والفوائد المترتبة. حتى إنه أثناء الليل القصير للمحادثة واللعب والملهى والفتيات كان يذهب في تفكيره القلق إلى المخزن الواقع في تلك المجاهل المقتحمة حديثاً.

بعـــد غيابه الأول ظلّ ثلاثة أشهر كاملة دون أن يغادر توكايا غراندي، ومـــنذ وصـــول القافلة الأولى التي كانت عائدة من تاكاراس بحمولتها الكبيرة وسلعها المتنوعة من اللحم المجفّف وملابس الأجواخ السميكة والكاشاسا، ومن الدقيق إلى ذخائر الأسلحة، تلك الغزارة التي تؤلم النظر إليها. وللحصول على تلـــك الأنواع بكميات كبيرة كان قد دفع كل مدخراته وظلّ مديناً. إنه بيت تجـــاري، نـــصفه مخزن نواشف ومعلبات، ونصفه الآخر سوائل مختلفة، وليس حقيبة بائع متجول.

تراكض الجميع لمساعدته في تفريغ البضاعة وتوضيبها: رجال ونساء، المقيمون مـــنهم هـــناك والمارون صدفة، وإذا تمّ تعدادهم واحداً واحداً فلن يزيد العدد على عـــشرين خلـــيقة في ذلك اليوم الاحتفالي بالتأسيس. وأنقذ فضول المناسبة بنصف دزينة من الفطائر وجولة كاشاسا مجانية، وبعد ذلك بدأ بالبيع.

عـــندما بدأت الكمية المخزونة بالنفاد قرّر الذهاب عدة أيام لإعادة ملئه من محـــلات إيلايـــوس وإيـــتابونا. وتكونت لديه خبرة بالسلع التي يجب أن يشتريها، وأصـــبح يعلم أية منها أكثر استهلاكاً، والكميات اللازمة، والعلامات المفضلة! إن استهلاك عصير الكمثرى كبير، وكذلك الكاشاسا، ولكنه من "البناطيل" السميكة الـــتي لا يتجاوز عددها نصف دزينة فإنه باع اثنين وبسعر مخفض، ولكنه بالمقابل باع كل الأزياء الموحدة وبسعر أعلى.

في آخـــر اللـــيل، أقفل على نفسه داخل البيت كي لا يراه أحد، وعلى ضوء الفانـــوس عـــدَّ لفـــة المال وهي من فئات ذات قيمة قليلة، ممزقة، قذرة تمّ تنظيفها

بمسحها بالصابون، وتناول من المستودع منديلاً كبيراً أحمر اللون وفيه وضع مدخراته على طريقة الأجراء التي تعلمها في زمن البائع المتجول. عقد المنديل عقدة قوية من أطرافه وبقوة زجّه في عمق جيب بنطاله الأيمن. أما النقود المعدنية، الكثيرة، من النحاس والنيكل، فبعد فصلها عن بعضها وفقاً لفئة كل منها فقد لفّ كل مجموعة بقطعة من الورق ووضعها جميعاً في كيس من الجلد يحمله عادةً مشدوداً إلى زنار تحت القميص... في القفار والقمم، وفي المسالك الوعرة والطرقات العريضة من نهر الأفاعي فإن شهرة اللبناني فضول بالثراء كانت تتردد همساً: مال مخبأ، خواتم، وسلاسل ذهبية، وكان هناك من يؤكد أنه اشترى ليرات إسترلينية ثمينة وهي براقة تتبدل ألوانها عند النظر إليها: لم يكن ممكناً أن يتخيلوا أن في المنديل أو الكيس الجلدي كل الرأسمال والأرباح، وكل ما عدا ذلك المال كان موزعاً على تشكيلة البضاعة المتبقية في المخزن.

بعد أن لبّى طلب الزبائن فجراً، وضع إعلاناً عند مدخل المحل التجاري كتبه بحروف كبيرة على غطاء صندوق أحذية: مقفل بسبب غياب صاحبه. أقفل من الداخل الأبواب الخشبية، بالمزاليج، ووضع المسدس في زناره مستفيداً من رفقة زي رايموندو الذي كان يحدو قافلة متعددة البغال كانت قد جاءت من مزرعة أتالايا، وذهبت معهم كوروكا الضعيفة التي تكاد لا تزن شيئاً، فزجّها زي رايموندو بين كيسين من الكاكاو على متن بغلة قوية، بينما كان فضول قد استوى على حافة عربة يضحك فرحاً للملذات التي تنتظره في إيتابونا... وفقط بعد ثلاثة فراسخ ونصف وعندما صعد إلى القطار وأراد أن يقشر برتقالة تنبّه إلى أنه نسي في توكايا غراندي سكينه الحادة التي يقدرها كل التقدير.

2

خلال اليومين الأولين من غياب فضول لم يحدث شيء ذو أهمية تذكر سوى أن حداة القوافل ومساعديهم بعد أن يفرغوا حمولاتهم كانوا يتوجهون إلى قلعة التركي المحصنة. هكذا سيمون محل فضول التجاري الذي بناه من الخشب، وهو المادة الرخيصة، وأقامه في مكان ملائم كان يعرف بطريق الحمير، وأصبح بعد سنوات معروفاً بالشارع الأمامي. وبالمناسبة فإن تيساو أبدووين لم

يكن قد أتى بعد إلى توكايا غراندي ليقيم أول منزل بني بالحجر والطين حيث سيقيم فيه محل الحدادة! حتى الآن ظلّ مخزن اللبناني أول بناء رئيسي في المكان.

كان الحداة والمساعدون يصلون عطشى مكسوين بالغبار والوحل، مرهقين، وهم بأمس الحاجة إلى بلعة كاشاسا لاستعادة قواهم ولمحاربة البرد أو الحر وفقاً للحال... وبين الشتائم والقهقهات كانوا يناقشون ألاعيب اللبناني الذي كان يتركهم في الانتظار ليذهب ويملأ سوقه الراقية.

- "تركي" ابن ملعونة... اليوم قريباً...
- لماذا لا يضع واحداً في الدكان يعمل مكانه؟
- ومن تراه يكون؟
- إن بيدرو سيغانو هنا عاطل عن العمل...
- لو كان المحل ملك السيد هل كان وضعه بين يدي بيدرو؟

كانوا يحسون بالشوق إلى المخزن الذي تغيرت معه الحياة وغدت أسهل مما كانت منذ أن أقام فضول في توكايا غراندي وكما في زمن البائع المتجول فقد تعوّد فضول أن يحتاط عندما كان يعود من القرى والمدن بعد أن يكون قد فرك آخر نقوده المعدنية. وكانت التعليقات تتمحور دائماً على تذكّر أقوال وأعمال اللبناني المحتال الظريف والذي كان، في النهاية، عنصراً طيباً بإجماع الموجودين الذين ينتهون إلى الذهاب إلى نساء الحياة العامة:

- سوى أن النساء قررن إقفال مطارحهن..

كان عدد النساء هناك يتغير، فالبعض واصلات لتوهن، والبعض الآخر منهن ذاهبات، فالعاهرة لا تمكث طويلاً في مكان. المقيمات الدائمات هناك، نصف دزينة، لا أكثر، في المكان الأقصى المقابل للحفرة الكبيرة التي أقامها العقيد روبستيانو أراجو ليودع فيها الكاكاو الناشف الجاهز للتسليم للمصدرين.. وإلى هناك كان يذهب الحداة والمساعدون مفتشين عن امرأة تعجب؛ وفي تلك الظروف، مع المخزن المقفل، ذهبوا مبكرين أملاً في بلعة كاشاسا أو بلعة قهوة. بعض منهم ظلّ في الفلاة سعياً وراء جاكا ناضجة، ولملء معدة خاوية فليس من وليمة تضاهيها طعماً وإشباعاً.

3

في الـــيوم الثالث وبغية قضاء الليل بأمطاره الغزيرة التي لم تنقطع عن الهطول، فـــإن المدعو مانيزينيو ألقى رحاله في توكايا غراندي يتبعه اثنان من المستزلمين وهما شـــيكو سيرا وجانجاو. كانوا يمتطون حيوانات غير مسروجة مربوطة على أعناقها حبال بدلاً من الرسن أو الزمام: وكانت تلك الحيوانات كناية عن بغال ذات وقع ثقـــيل مخـــتارة لتكون مطايا عقداء. دخلوا توكايا غراندي وهم يطلقون العيارات النارية حتى لا يبقى هناك مجال للشك.

أوقفـــوا مطاياهم قرب مخيم كان حداة القوافل الأخرى قد بنوه لتمضية الليل في ذلـــك الموقـــع وأقاموه من القش السميك الصالح لملجأ يقيهم الشمس والمطر. وهناك أشعلوا النار، وراحوا يطهون ما تيسر، ويغلون القهوة ويتحادثون عن الحياة والمـــوت أو لـــنقل عن زراعة الكاكاو الموضوع الخالد والمثير. وبينما كان بيدرو سيغانو يعرض آلته الموسيقية انتهى بأن يعرض على المواطنين الموجودين هناك عرضاً مغـــرياً: المجـــيء بفـــتاتين أو ثلاث وتنظيم حفلة مقابل بعض الفئات من النقود العـــشرينية. ولكن من أين المال لدفع أجور مثل هذه الوقاحة؟ مع الطلقات النارية وجفلان الحمير احتدمت المناقشة.

لقـــد أراد القبضايات أن يعرفوا أين يقع بيت اللبناني. إنه هناك، ولكن كون صاحبه مسافراً فإن أبواب "القلعة المحصنة" مقفلة لبضعة أيام.

– نحـــن نفتحها. ومن لا يعرفني فليعلم أن اسمي مانيزينيو – قال ذلك وألقى نظرة على الجماعة ثم انطلق في الاتجاه المشار إليه.

ولكـــي يعطـــي برهاناً على دقة تصويبه كان طبيعياً أن يصوب شيكو سيرا مسدسه إلى شجرة قريبة وبالتحديد إلى ثمرة ناضجة فيها ثم أطلق النار فأوقعها.

علـــم بيدرو سيغانو أن المتشردين الثلاثة كانوا على علم بغياب السيد فضول ولـــذلك أتوا إلى هناك: ولا يمكن أن يكونوا قد أتوا بنية حسنة. وتخلى عن فكرة مشروع الحفلة الماجنة لأن الليل ينذر بأمر خطير.

– إنهم سينهبون الدكان!

– ممكن.. وافق أحد الحداة وهو يحرك الجمر المتقد بمسكة السوط الذي يحدو به الحمير. إن مانيزينيو هذا هو الشيطان بشكل إنسان: لقد كان "سركال" العقيد

تيودورو داس باروفاس، وقد قتل منذ شهر أستاذاً في أغوا بريتا وهو الآن هارب من العدالة. لا أعرف الآخرين.

راعي البقر الذي كان قد عاد من إيتابونا بعد أن أوصل إلى هناك قطيعاً من البقر يعود للعقيد روبستيانو دي أراجو، كان يعرف الاثنين الأخرين بالصورة والسمعة، وهي سمعة مشؤومة. إن شيكو سيرا لا يفيد شيئاً سوى قتل الأحياء بالمكامن، وقد تاه في الأرض بعد أن صرفه العقيد مانيكاسا من العمل في مزرعة مورو أزول. ولا شك أنهم يسمعون أيضاً باسم "جانجاو فانشاو" وليس هذا سوى اسم المعني هنا. ما عدا "صيعانه"، ودماغه التافه، واعتدائه على النساء، فإنه كان منحرفاً.

- إلى هنا، يا إله السماء: قالت دليلة ذلك وخرجت راكضة لتحذر الفتيات ريثما يختبئن في الغابة.

وإذ كان قد أدلى بإفادته فإن حادي القوافل اقترح على الموجودين الاختباء في مستودع العقيد روبستيانو حيث يقيم ثلاثة مسلحين باستمرار ليلاً ونهاراً في حراسة الكاكاو. وهناك يمكن أن يكون الجميع في مأمن وفي ملجأ من الأمطار التي تزداد هطولاً. إنه لا يريد أن يجازف بحياته مع بقائه في الفلاة. تناول بندقيته ووقف.

- ونحن؟ ألن نفعل شيئاً؟ سأل بيدرو سيغانو ذلك ليريح ضميره، لأنه هو نفسه لم يكن يفكر بمواجهة اللصوص لمنع السطو.

- ماذا لدينا لنفعل؟ قال راعي البقر ذلك وراح يسير باتجاه مستودع الكاكاو.

- من هو المجنون الذي سيجازف بتلقي رصاصة بسبب اللبناني؟ إن المشكلة هي مشكلته هو، وإذ ابتعد عن حرارة النار المشتعلة فإن حادي القوافل حرّك الجمر بمقبض السوط ثم وقف وانصرف.

رافقه الآخرون رافضين اقتراح بيدرو سيغانو بغية التحسس على ما يحصل في أقل تقدير. إنهم يحبون اللبناني الظريف والشجاع ولكن ليس إلى حد مواجهة لصوص متشردين مفترسين ذوي نفوس مجرمة ميتة. وتحول المطر إلى نبع متدفق من أعلى وغطت الغيوم السوداء السماء.

4

عـــندما انتهى الصراع على السيطرة على الغابات المترامية وحلّت المفاوضات محل الكمائن في النـــزاعات بين عقداء الكاكاو لملكية الأراضي غير المملوكة أصبح هناك فائض من المستزلمين انتشروا في الطرقات يذهبون ويعودون دون سكة محددة ويعرضـــون أنفسهم للقتل مقابل حفنة من المال، أو يقتلون مجاناً من أجل السرقة. ومـــن مئات الأزلام الواصلين من جنوب ولاية باهايا، الآتين من داخل الولايات الـــثلاث ومن أحواض أخرى واضعين أسلحتهم في خدمة المزارعين الأغنياء، فإن قلـــيلاً مـــنهم تمكنوا من استملاك أرض قليلة وزرعوا الأغراس، والكثيرين منهم تكـــيفوا مـــع الحياة في المزارع بصفة زعيم مجموعة من المستأجرين وغدوا موالين موثـــوقين. البعض الآخر منهم لم يستطع التكيف مع شروط الحياة الجديدة فراحوا يطوفون في الطرقات زارعين الرعب في قلوب الناس، ولكنهم انتهوا جميعاً الواحد إثـــر الآخـــر بعد أن ظلوا زمناً طويلاً من أصحاب السمعة الرديئة. ومن بين أكثر الـــذين خـــشي الـــناس رعبهم كان مانيزينيو الذي كان قد اشترك في الصراعات الملحمـــية الرهيبة التي نشبت بين العقيد باسيليو دي أوليفيرا وعائلة بادارو.. وإذا كـــان مانيـــزينيو قد خدم كمساعد أيمن للسركال تيودور داس باروفاس في تلك الـــصراعات الأســـطورية فإنـــه لم يعد يرغب في خدمة أي عقيد آخر أو في إلقاء الـــسلاح، وأخيراً خطط لتنظيم عصابة تقوم بالسطو على المزارع والأمكنة النائية والآهلة. وحده كان يرسم وينفذ، ولكي يبدأ، استقدم شيكو سيرا وجانجاو.

وفي مراعي إحدى المزارع التي مروا بها سرقوا الجياد ولم يرهم أحد وماذا لو رأوهم؟ هزأ مانيزينيو من حذر شيكو سيرا الذي لا يزال يخشى سطوة العقداء:

– إذا كنت خائفاً فانصرف. أريد فقط رجلاً شجاعاً في صحبتي.

وإذ كـــان قد سمع من النساء كلاماً تافهاً وثرثرات لا معنى لها فقد علم منهن أن فـــضول عـــبد الله قـــد استقل القطار إلى إيتابونا... وحكمت الضائعات على فضول بالاستهتار وعدم الاحترام واتهمنه بالبله إذ كان يسافر تاركاً في منـــزله في توكايا غراندي ثروته التي جمعها في سنوات النضال وهي ثروة ككنـــز متروك لمن يتجـــرأ ويـــتمكن من اكتشافه. وكن يناقشن مكان الثروة المخبأة. ولا بدّ من أن يكـــون في غـــرفة النوم تحت الفراش؟ أو في الدكان بين البضائع؟ والجميع متفقون

علـــى أن حجـــم الثروة هائل وهي كناية عن كيس مليء بالذهب، وفقاً لشهادة شخصيات معروفة وذات ثقة مطلقة.

5

ربطوا المطايا إلى ركائز المخزن الخشبية، وحاولوا خلع الأبواب الأمامية دون نتـــيجة: إن الـــسدات الخشبية قاومت بما فيه الكفاية لتشهد على براعة باستياو دا روزا. وقاموا بجولة حول البيت فعثروا على الباب الخلفي الذي كان خلعه سهلاً، فـــبعد أن أطلق مانيزينيو النار على القفل دون أن ينجح في فتح الباب ابتعد شيكو مـــسافة ثم ألقـــى بجسده مع كل ما لديه من قوة فتزعزع القفل الداخلي ثم أكمل جانجاو العمل.

في داخـــل البيت أشعلوا الفوانيس فإذا بالريح والأمطار أخذت تتسرب عنيفة عـــبر شـــق الباب المكسور. وبدا لهم أنه من غير الضروري أن يعهدوا إلى أحدهـم بالمـــراقبة الخارجـــية، فكـــل واحد أكثر شهرة سيئة من الآخر، ومن سيجازف بمداهمتهم؟ وراحوا يحتسون الكاشاسا من القناني مباشرة وقد تناول كل واحد قنينة مـــنها والجميع كانوا محتاجين إلى احتسائها، من مانيزينيو لكي يغسل دماغه ويبقي عليه نشيطاً بغية العثور على الكنـــز، إلى جانجاو الذي كان دائماً مصاباً بالعطش، ووصـــولاً إلى شـــيكو ســـيرا للمحافظة على حيويته لأن اختصاصه كان الكمين والاختـــباء وراء جذع ضخم بانتظار المقصود لكي يجنّد له قتيلاً بطلقة أكيدة: و لم يكن يخطئ.

نقـــبوا في البيت من ركن إلى ركن ومن حائط لآخر. توقفوا في البدء في المكـــان السكني. في غرفة النوم، في الفراش، وفوق اللحاف القذر كانت ملقاةً سكين فضول التي قبل أن يضعها جانجاو في جيبه تفحص حدّها الفولاذي الحاد باهتمام ورضى: إنها بالتأكد ما كان يحتاج إليه لتهدئة عاهرة في لحظة الاعتداء عليها.

مـــزّق مانيزينيو وشيكو الفراش وهما يتأملان في الصوف الجاف. جاء جانجاو بكمية جديدة من الكاشاسا وقام الثلاثة بمعالجة الفراش الكبير. وراحوا يفتشون عن مخبأ كيس النقود الذهبية.. و لم يكن هناك مخبأ أو نقود.

– لا بدّ من أن يكون الكيس في المحل التجاري – استنتج مانيزينيو – كان لا بدّ من أن نبدأ هناك.

وابتسم مانيزينيو معتزاً بشهرته المكتسبة: ولا ابن عاهرة هناك تجرأ على أن يزعجهم. إن أسماء وشهرات القبضايات قد وصلت إلى هناك قبل أن يصلوا هم.

6

وحدها برناردا حاولت ألا تستسلم للأمر الواقع. عندما ظهرت دليلة أثناء اللغط طالبة من النساء أن يختفين في الغابة، كانت برناردا مشغولة مع أحد رجال القوافل ولم تكن النداءات لتصرفها عن أعمالها. إن الكلمات البذيئة والصراخ والتهديدات كانت أموراً طبيعية في ليل ذلك الطريق: وبقدر ما يكون اللغط كبيراً بقدر ما يكون كبيراً عدم الاكتراث. لكن الصراخ كان يعلو ويقترب: فنهضت برناردا مبعدة شريكها عنها ووضعت على جسدها قميص النوم وخرجت لترى ما في الأمر. وعادت بالنبأ:

– إن الصعاليك يسطون على دكان السيد فضول.

لم تسمع جواباً ولم تهتم باستلام أجرها، وكما هي تماماً خرجت لتواجه الإعصار. وقد ابتلت بمياه الأمطار وصلت إلى المخيم فلم تعثر على أحد هناك. إلى أين ذهبوا؟ لقد هربوا في القفار حتى النساء لا يفعلن مثل هذا! وذهبت إلى مستودع الكاكاو: هناك ربما تجد الثلاثة المكلفين بحراسة الكاكاو الجاف. وانطلقت مع الريح، وهناك كان كل شيء هادئاً – هادئاً أكثر مما هو متوقع، ويُشعر بالفزع.

وانفتح أحد أبواب مستودع الكاكاو نصف انفتاحة على وقع أقدامها. عينان متعودتان على الاستشراف عبر الظلمات الحالكة، فلمحت فوهة البندقية فصرخت باسم حاملها ثم انفتح الباب بأكمله.

داخل المستودع كان الحراس وراعي البقر يقومون بالحراسة وأسلحتهم في مقابض أيديهم. كانوا قد جلسوا أرضاً، رجال قوافل ومساعدين، يتبارون في لعبة قمار: البعض يراهن، والبعض الآخر يتفرج، ولكنهم غير مكترثين لأن المسألة هي مسألة الصعاليك التي لا تعنيهم. نظروا إلى برناردا ولكن أحداً منهم لم يتفوه

بكلمة، تابعوا اللعب. كانوا يعلمون أنها لم تأتِ من أجل الزبائن، فهي مرغوبة ولا تـأتي أبـداً تفتيشاً عن زبون. كانت المياه تنسال من على جسدها وتتجمع على الأرض: وكانت سترة نومها قد التصقت بصدرها وفخذيها وردفيها. وعلى ضوء الفوانيس الباهت كانت تبدو ذات وجه من عالم آخر.

– يقولـون إن الصعاليك يسطون على بيت السيد فضول؛ لا جواب. أراد الحادي أن يتكلم ولكنه منع نفسه عن ذلك وصوبها بنظرة كأنه يلومها: إنه لم ينم قط معها!

– هل تسمعون أم لا؟

حـاد راعـي البقر بنظره عن الظلال التي تلقيها عليه المبللة، وهزَّ برأسه مؤكداً.

– جـوان فانشاو، شيكو سيرا، ومانيزينيو، لا يستطيع ثلاثة أسوأ من هؤلاء أن يجتمعوا معاً.

– وأي تدبير قد اتخذت؟

أصـيب الرجل الذي فتح الباب بالتعجب من سؤالها، وبصوت هادئ أعطى تفسيراً:

– تدبير؟ لقد جاؤوا بغية السطو على المحل وبعد أن يسرقوه سينصرفون.

– إنهم ليسوا إلا ثلاثة. ويوجد هنا تسعة رجال.

وعبر الصمت المخيم، قامت بخطوة إلى الأمام، وبصقت على الأرض:

– تسعة رجال يرتجفون خوفاً.

– ولا أية متشردة تتجرأ أن تناديني بالخوّاف...

أصيب الرجل الآخر بشعور مهين وكان حتى الآن لا يزال صامتاً. وتقدم من برناردا مزمعاً على توجيه صفعة قوية على خدها ليعلمها الاحترام والتقدير، ولكنه تراجع عندما سمع تحذير العجوز جيرينو:

– هل جننت يا زي بيدرو؟

وتـوجه العجوز بالكلام إلى برناردا. لقد كان رئيس الأزلام المكلفين بحراسة المـستودع، ولم يـبدُ عليه الانـزعاج من تهمة الفتاة لهم بالجبن: لا أحد يعرفك يـستطيع أن يتهمك بالجبن. ولم ينسَ أن الفتاة كانت تخص النقيب ناتاريو: لو أن

الــرجل تجرأ عليها فإن الله نفسه لن ينقذه. وكان جيرينو يعتبر نفسه مسؤولاً عن الكاكاو وكذلك عن الرجال الذين هم في خدمته.

– مــاذا نفعل يا برناردا؟ قولي لي فأنا لا أعلم. ليس لدينا أي شيء مع هذا الطارئ الممض. نحن يدفع لنا لحراسة الكاكاو، والصعاليك إذا جاؤوا إلى هنا فإنهم سيأكلون النار ولذلك نحن نكسب. فقط من أجل هذا.

– ولكــنهم يسرقون المحل ويقال إنهم سيجرون معهم النساء ويقومون بصيد لهن الواحدة إثر الأخرى...

– نحن لسنا هنا لنكفل المحافظة على بضاعة التركي أو أقفية النساء العاميات. ماذا تعتقدين؟ هل تظنين أننا نعيش في مدينة؟ فهنا، أراضٍ مقفرة فيها دكان وأربع عاهرات ونحن في مستودع العقيد: كل واحد لنفسه والله للجميع. إذا أردت فابقي هنا ولن يحدث لك شيء.

ورافق برناردا إلى الباب حيث بدت حزينة وعصبية وقال لها بغير حقد:

– ولكن إذا لم تريدي أن تبقي وإذا كنت مزمعة على الموت من أجل اللبناني فبإمكانك الانصراف. نحن لن نخرج من هنا. إذا جاؤوا إلى هنا فسنلقنهم درساً في العراك. إن للإنسان حياة واحدة ومماتاً واحداً ويجب أن ينفقهما.

7

لا في الأدراج ولا في واجهــات الــبار الكــبير. فأين دفن الشيطان، اللبناني اللعين، حاوية الذهب؟ في المحل أيضاً أقاموا كل شيء وأقعدوه، لم يتركوا مكاناً لم ينقــبوا فيه وهو عمل متعب وبلا جدوى. لا بدّ من أن تكون الثروة في مكان ما، أكد مانيزينيو.

أين هي بحق الشيطان؟ في أكياس الطحين، والفاصولياء، والذرة الصفراء؟ فتحوا الأبــواب الأمامــية على مصراعيها وبدأوا، غاضبين، برمي البضاعة خارجاً يجمعونها بعضها فوق البعض تحت المطر. ذروا الفاصولياء. والذرة والرز والدقيق والسكر الأسمر ومــزقوا بالخنجر قفة اللحم المجفّف. ولكي يخفف من خوفه فإن شيكو سيرا بلع عدة بلعــات مــن الكاشاسا على أزيز الطلقات النارية التي راح يطلقها. وفي الغابة حيث التجأت الفتيات سُمعت العيارات النارية فانفتحت مجاريهن البولية...

وإذ تلطـــيا وراء جذع كمثرى اتقاء من المطر، فإن بيدرو سيغانو ونديمه كانا يـــبذلان جهـــداً ليميزا ويفهما، ولكن لم يكن بمقدورهما أن يفعلا شيئاً عبر تلك العتمة. كدس جانجاو وشيكو سيرا البضائع بعضها فوق البعض بينما رمى مانيزينيو بالـــنفط الأبيض فوق القش وأحرقه... أراد جانجاو أن يحرق البيت ولكن مانيزينيو مـــنعه في اللحظة الأخيرة... لقد كان متأكداً من أن النقود كانت هناك ومحفوظة جـــيداً في مكـــان ما، وكان لدى زعيم العصابة مخطط للرجوع مرة أخرى عندما يكون اللبناني قد عاد من سفره وتحت تهديد السلاح فإن فضول هو من سيقودهم إلى المخبأ... ومع تقبيل الأيادي.

جانجاو الذي كان في رأسه براز بدلاً من الدماغ حاول أن يطيل البقاء هناك، الوقت الكافي لاغتصاب الزنجية، ولكن مانيزينيو لم يعطه آذاناً مصغية:

– ابـــقَ إذا أردت أن يقتلك رجال القوافل. هيا بنا! أعطى أمره لشيكو الذي لم يكن يرغب في غير الهرب.

خـــرج الاثنان خائبين وهما يطلقان العيارات النارية مودعين، وجال جانجاو بناظـــريه في عناد المعوق العقلي: وكيف يمكن أن يتبين المطارح الحساسة في تلك العتمة الكالحة حتى وإن تكن الزنجية قد بقيت في انتظاره كما أمرها تحت العاصفة؟ ثم استـــسلم أخـــيراً للأمـــر الواقع: أفرغ سلاحه في اتجاه المخيم حيث التقى بها، وبـــضربة سوط قوية ضرب الحيوان مستعجلاً اللحاق برفيقيه. وتمتم من جديد: لا المال ولا قفا الزنجية.

الـــنيران لم تـــتمكن من مقاومة المطر الغزير فانطفأت شيئاً فشيئاً: وانتشرت رائحـــة قوية من الذرة والسكر والفاصولياء، واللحوم المشوية، فخرج العاطل عن العمـــل ونديمـــه من وراء جذع الشجرة حيث كانا يراقبان سراً ما يحدث في بيت فـــضول واقتربا من هناك. وعبر بيدرو سيغانو إلى الداخل بعيداً عن النيران المشتعلة وفـــتّش في داخل البيت. ومن يدري فربما يكون أسعد طالعاً من الصعاليك، وهو الذي كان يؤمن بوجود حمل ثقيل من الذهب تنوء بحمله بغلة قوية، والمكان المخبأ فـــيه الكنـــز ليس كيساً أو صندوقاً. أما نديمه الذي يجهل الأمر فقد اكتفى بالتأمل في بقايـــا النيران. بعد قليل انضم إليهما رجال جاؤوا من المستودع، ونساء آتيات مـــن المراحيض في الهواء الطلق. وتناقشوا بحيوية تفاصيل نهب بيت ومخزن فضول

وتنافسوا في ما أمكن إنقاذه من اللهب. وهكذا تمّ استهلاك قسم من ثروة فضول عبد الله الشهيرة. تلك الثروة التي لم يكن يحملها معه وعلى جسده، وهي كناية عن بضاعة في القلعة المحصنة.

8

إذا تمّ الاعتقاد بالقصة المغالية التي رواها، التائه في النواحي السبع، بيدرو سيغانو، فإن زعقات فضول عبد الله غير المرتقبة قد أرعبت السماوات والأرض وهزّت أركان العالم الأربعة لشدة عنفها... الطيور الصغيرة، الوادعة منها والجارحة، البوم والببغاوات قد هربت أسراباً إلى أبعد ملجأ في الغابة! الحشرات اختبأت في شقوق الشجر، واستيقظ العندليب مرتعداً، والزحافات الصغيرة تسللت إلى أسفل الصخور، الغزلان والأرانب هربت مشتتة، الأفاعي استنفرت نفسها للإنذار الأخير وحدت أنيابها لمواجهة ما سينتج عن الزعيق أو يأتي من ناحيته.. صرخات تعلو من حنجرة معروفة، وفضول يروح ويجيء دون سكة محدودة.

وأجريت الحسابات وألغيت التسعة من الأرقام وجاءت روايات الشهود الكثيرين على وصول اللبناني إلى توكايا غراندي ثلاثة أيام بعد السطو لتضخم وتفخم. لقد رأوه خارجاً عن طوره يضرب على صدره بقبضتيه، وبعد أن غرق في اليأس، رفع يديه مفتوحتين إلى أعلى مشيراً باتجاه المهمل، غير المكترث، إله الموارنة الذي كان قد عهد إليه بسلامة البيت وأمن البضاعة. فتح فضول فمه بزعقة حيوان جريح محتجاً على خيانة أبيه له. وعاتب السيد الأعلى بشتائم عالية لإهماله له في الساعة الحرجة، المرة، وفعل ذلك باللغة العربية جاعلاً من المشهد مأساوية أكثر صدقاً، إنه حين يريد أن يتكلم مع الله، فإنه كان يفعل ذلك باللغة الأم، لأنه لم يكن متأكداً من أن العلي القدير يجيد اللغة الأجنبية... أما باللغة البرتغالية فقد أقسم على الثأر، وكان القسم قد أضاع معناه: متى، كيف، وأين يستطيع أن يبر بقسمه؟ في عيد القديس "أبدا"

إن الحوار الغاضب الذي أجراه مع العلي أفاده بتخفيف عبء الحزن الثقيل الذي جثم على قلبه. إن الله لم يهمله، وقد وضع إيمانه على المحك بتجربة أكثر صعوبة من الكوابيس عرضه لها، مع زيزينيا العارية، والتي لا يمكنه النيل منها. وفي

الوقت نفسه فإن الله قد أنقذ حياته عندما أخرجه من توكايا غراندي أثناء عملية السطو.

رأوه وقد التزم الصمت ورزح تحت العبء الثقيل. تأخر في التأمل في الفوضى والزبالة كما لو أنه أراد أن يحفر في ذهنه تلك الصورة أو يتركها موشومة في أحشائه. بعد ذلك، نادى على لوبيسينيو الموجود هناك وأعطاه أوامر دقيقة: الابتداء بالعمل عند الباب والواجهات، أما الفراش فلا يستحق العجلة. في اليوم نفسه من وصوله ومشاهدة النكبة، عاد فضول يخدم الزبائن.

بمبادرة منه لم يكن يتكلم عن الحدث. ولكنهم حين كانوا يقودون الحديث إلى الموضوع فإنه لم يكن يمتنع عن المحادثة ويجيب بحذر مظهراً الهدوء والتوازن. لم يطالب أحداً بما إذا كان قد تدخل للدفاع عن أبواب المسكن والدكان، وقد وجد لتصرف كهذا تفسيراً وعذراً: وحده المجنون يجازف بحياته من أجل أكياس من السكر وما شابه، وعلم من جيرينو نفسه بنيّة برناردا وكيف كان صعباً الإبقاء عليها بعيداً عن الموت وعن عملية جنسية جماعية كان ينوي الصعاليك القيام بها، فلو رأوا ذلك الجمال يريد أن يتدخل في شؤونهم فوداعاً برناردا! وقبل أن يجهزوا عليها لكانوا فعلوا ما هو غير مرتقب: الثلاثة وفي الوقت نفسه وبوحشية تحت إمرة جانجاو فانشاو آكل الأقفية. وساند اللبناني سلوك العجوز: لقد فعلت جيداً. وإن برناردا كانت تعاني الزكام.

لم يقل فضول إنه كان مزمعاً على الذهاب إلى أي مكان آخر أقل عرضة للمخاطر، أو أنه كان مزمعاً على العودة إلى حياة البائع المتجول: فكأنما السطو قد حدث ليشحذ همته ويعطي قراره القوة للبقاء في توكايا غراندي. ومع ذلك كان قد فقد ذلك الفرح والحيوية الشابة؛ لم يعد ينكت، ولم يعد يمازح الزبائن مثلما كان يفعل سابقاً؛ لم تعد شفتاه لتفترا عن ابتسامة بالرغم من كل محاولات إضحاكه. أية نهاية أخذت اللبناني راوي الحكايات الملفقة والمضحكة والمليئة بالابتكارات، يا إله الفتيات؟ الفتيات قلقات ويتساءلن بينهن ما إذا كان فضول سيعود إلى الضحك والممازحة.

ودفن فضول نفسه من جديد في الخداع والمراوغة المعروفين في عمله وتجاوز قرفه وانفعاله، ولكن بقيت هناك معاناة تعذب أعماقه وتمنعه عن النوم وتأكله من الداخل ولا تعطيه راحة أو سلاماً: كانت تلك المعاناة هي استحالة الثأر. كان يؤلمه

أن يعلم أن الصعاليك الذين غزوا ملكيته لا يزالون يتمتعون بالحرية، يدمرون ويسرقون الأشياء الثمينة: كانوا يعيشون أحراراً وبعيداً عن متناول يديه. كان فضول يحس بنفسه شقياً، وغير متصالح مع الحياة البشعة.

9

انقضى أكثر من أسبوع على عودة فضول عبد الله وأصبح مشبعاً من الإصغاء إلى التفاصيل والثرثرات حول الموضوع. ثم عاد ليتلاءم مع نمط الحياة التقليدية. وفي يوم، عند آخر الصباح، ترجل النقيب ناتاريو دا فونسيكا عن بغلته وربطها إلى ركيزة في خان المخزن. فأسرع فضول مرحباً ليحيي ويخدم صديقه مهيئاً نفسه لمحادثة حية وطويلة حول تفاصيل المسلسل.

وخلافاً لما توقعه فضول فإن النقيب لم يكترث لذلك الموضوع. تلمظ بطعم الكاشاسا متجرعاً منها جرعات صغيرة وتكلم عن هذا الأمر وذاك. وبلغ النقيب فضول أخبار العقيد بوافنتورا الذي لا يزال قوياً وبصحة جيدة والحمد لله، ولكن حزنه الكبير هو أن ابنه الأستاذ فنتورينيا قد عاد إلى الريو دي جانيرو بعد الاحتفالات بتخرجه، ويبدو أنه غير مستعجل للعودة. وتكلم النقيب أيضاً عن غرسات الكاكاو التي تخصه إذ كان قد بدأ بزراعتها في بوافيشتا وعلى فضول أن يذهب ليرى كيف تنمو سريعاً.

متعجباً ومشمئزاً أمام عدم اكتراث النقيب، فإن فضول حاول أن يخفي في نفسه الآلام حتى لا ينم مظهره عن خيبة الأمل والقرف الذي يسببه له تصرف النقيب الذي كان يعتز بصداقته.

كان ناتاريو دائماً يظهر الود للبناني. وكان فضول لا يزال بائعاً متجولاً عندما أهداه النقيب مسدساً وأصبح يناديه بعرّابي. وتطورت العلاقات وأصبحت وطيدة بعد أن استقر التاجر في توكايا غراندي. ومع كل هذا لم يشر النقيب إلى الحادثة الأخيرة والمثيرة، ولم يضع نفسه في خدمة فضول كما تقتضي التربية الحسنة ولم يقارب المسألة لا في العير ولا في النّفير.

وبينما عمد إلى لفّ سيكارة من التبغ المعجون قبل ناتاريو أن يشعلها من النار التي قدمها فضول، ورفض كأساً وأبدى استعداده لمتابعة السفر. وبينما هو يدير

ظهـــره للبار عدل وقفته ومدَّ يده إلى جيب سترته الكاكية وأخذ منها السكين التي كان فضول قد نسيها فوق الفراش عندما غادر توكايا غراندي إلى تاكاراس:

– يا عرّابي فضول، ألا تعود هذه السكين إليك؟

وضع السكين فوق خشبة البار فأحس فضول بخفقان شديد في صدره:

– إنهـــا لي! أجل يا حضرة النقيب! اعذرني على السؤال: كيف وصلت إلى يديك؟

– وكيف يمكن أن تكون قد وصلت إليَّ يا عرّاب؟

ذهـــب إلى خـــان المخزن وعاد بالبغلة من هناك ووضع قدمه في المهماز وقرأ التساؤل الغريب في عيني فضول، وعندما استوى على متن البغلة أجاب:

– عرفت بالأمر وأجهزت على الصعاليك الثلاثة. إنهم ثلاثة سيئون يا عرّابي فضول.

– الـــتمعت عينا اللبناني وولدت الابتسامة على فمه وأحس في الوقت نفسه بالرغبة في البكاء، ومع كل ذلك أراد أن يتأكد:

– الثلاثة معاً يا نقيب؟

– الثلاثة يرقدون الآن في قبر واحد. إلى اللقاء يا عرّاب.

10

عـــادت إلى فـــضول عبد الله الضحكة، والقهقهة المدوية، والتندر، والمبادرة والـــرغبة في الوصــــف والمناقشة، وعادت النـــزوة وانفتحت الشهية. وكلها نعم الحياة. وأصبحت تسمع توكايا غراندي من جديد أخبار فضول عبد الله. عن لهوه ونوادره، وأخيراً عندما قرّر أن يبسط كفه متخلياً عن بعض الأوراق المالية من فئة العشرين أخذ بيدرو سيغانو الهرمونيكا، ودعيت النساء إلى الحفلة الراقصة حول نار الشواء، ومن كان في طليعة الراقصين كان سيد "القلعة الحصينة" لقد عاد ليكون من جديد السيد فضول وقد تحرر قلبه من التعطش إلى الثأر.

مع كل ذلك لم يتحرر كلياً من القلق. إنه مجبر على أن يسافر بصورة منتظمة لإعـــادة ملء المخزن بتشكيلة البضائع وللدفع إلى الدائنين، والاطلاع على الأخبار الـــتجارية، وأن يبذل نفسه من أجل ما أصبح معتاداً، وهو سيكون ملزماً بأن يترك

المخـــزن مفـــتوحاً أمـــام أنظار المارة وهم أناس من كل الأصناف والمستويات، وسيكون المخزن بعدئذ تحت تصرف أهل السطو واللصوص وزمر الصعاليك.

صـــحيح أن حظ الصعاليك الثلاثة الأسود قد طافت أخباره العالم: ونسجت حـــول مقـــتلهم الأخبار المختلفة والتفاصيل المذهلة. وشاعت خمس روايات على الأقـــل وهـــي مخـــتلفة ولكـــنها تصب في خانة موت الثلاثة؛ وقد أكدت بعض الوشوشـــات أن النقيب ناتاريو دا فونسيكا هو شريك أرباح المخزن لا أكثر ولا أقـــل. وعـــندما كان فضول يسأل عن صحة هذه الشائعات فإنه لم يكن يكذبها: فأكثـــر مـــن فعالـــية أي سلاح كانت تلك الشائعة تخدم الدفاع عن أبواب المحل التجاري.

مـــع كل ذلك، فإن حجم البضائع الكبير في المخزن أخذ يجعل علامات عدم الاطمئـــنان تظهر واضحة على وجه وحركات فضول. يا ليته يعثر على مسيحي قدير متفرغ وجدير بالإيمان يستطيع أن يوكل إليه البار والصندوق المالي والمسدس، لكان يستطيع أن يذهب إلى المدينة مطمئناً راضياً. وفي مثل هذه الحال ستكون تلبية طلبات الزبائن مستمرة بلا انقطاع، والمبيعات لن تصاب بالجمود، ووجود شخص واقف أمام الدكان ينام في البيت كافٍ لمنع أية محاولة سطو أخرى محتملة. وهكذا سيستفيد من وجود مثل هذا الشخص إلى جانب المعنويات التي يعطيها وجود اسم النقيب ناتاريو دا فونسيكا. مع الأسف فلن يتبين في نواحي توكايا غراندي مواطناً يحمل تلك المواصفات والمميزات الكثيرة.

أما ذهول البعض وتعجب البعض الآخر من فك العقدة وحلّ المشكلة فإن من واجب المسؤولية وتنكب العبء - تأمل - هي العجوز جاسنتا كوروكا. فهي في إحـــدى اللـــيالي وإذ أحست باكتئاب اللبناني إلى درجة جعلته يلتزم الصمت أثناء الـــصخب في ساعات العمل المكتظة، فتقدمت منه كوروكا عارضة نفسها بهدوء وغزل:

- إذا أردت يـــا ســـيد فـــضول، فاذهب في سفرتك لترتاح وأنا من سيهتم بالأعمال. اتكل عليَّ فأنا أستطيع أن أقوم بكل ما تقوم به. تستطيع أن تسافر دون حذر.

تأخر فضول في النظر إليها وقياسها ووزنها بعينيه كأنه لم يرها من قبل:

– إنك أنت من يعرض نفسه عليَّ لكي أسافر تاركاً المخزن مفتوحاً فتقومين بكل شيء، كأن تبيعي وتستلمي وتعيدي "الفراطة"؟

– أعطـــني فقط الأسعار مكتوبة، وأنا أعرف بعض الأسعار الأخرى. سأنام عند البار إلى أن تعود.

حرّك فضول قامته: على ضوء الفانوس التمعت عيناه:

– أنت؟ نظر إليها فضول نظرة ثابتة وفمه مفتوح.

إنهـــا مـــزحة ثقيلة من مزحات السيد الأعلى إله الموارنة الذي، مرة أخرى، يتـــركه فريـــسة الحـــظ التعيس. وقد ثارت ثائرته وأصبح فريسة الانفعال، توجه بتفكيره إلى السماء: في هذه الساعة الحاسمة التي، مع يأسه، يفتش فيها عن مساعدة رجل قوي قدير ورصين، فإذا بك يا إله السماء تجيبني على طلبي فتعرض عليَّ هذه الداعرة العجوز ذات العظام البائنة؟

وعندما التمع ضوء في دماغ فضول عبد الله وفهم عندئذ أن الشجاعة والمعرفة وأصـــالة المحتد ليست مميزات الرجال الأغنياء أو الأقوياء، إنها ملك أي إنسان غير خالد حتى وإن يكن عجوزاً داعرة بلا لحم، ألم تكن كوروكا في يوم طيبة الفراش وحسنة النصيحة؟

– أنت؟ أجاب فضول بلهجة مختلفة.

– نعـــم أنـــا يا سيدي، ماريا جاسنتا دا أماكولادا كونسيساو، التي تناديها جـــنابك بكـــوروكا. أعرف القراءة. وتوقيع الاسم وعمل الحساب وقد سبق أن اهتمـــيت بمحـــل تجاري صغير في ريو دو براسو. لم أشعر بالخوف يوماً إلا عندما أحببت رجلاً، وهو ذاك الرجل من علمني القراءة. وبينما تبتسم، استنتجت:

– لم أتعلم قط أن أسرق، ولا أعلم لماذا.

بعد إقامته في توكايا غراندي الزنجي كاستور أبدووين يواجه الوحدة الموحشة

1

تلطـــخ جـــسده بدم الغزال البري الذي يحمله على ظهره العاري، بينما تدلى الخـــرج عـــن كـــتفه وربط قطعة من القماش إلى حزامه، فبدا كأنه الإله الزنجي أوشوسي وقد خرج من الغابة متمشياً باتجاه النهر... وعلى وهج الشمس الساطعة تعرفت إبيفانيا على الشريف المحتد من خلال قامته المديدة وصيده المختار. إنه سيد الغابات والحيوانات الجارحة... وأمس لمح به من بعيد الإله شانغو في محل الحدادة وهـــو يعـــالج النار كأنه يخترعها من جديد.. "شانغو" أو "أوشوسي" فإن الزنجي كاستور أبدووين اجتاز السهل متسلحاً بفأس وبندقية.

في مكـــان اســـتراحة السيدات، وهو كناية عن حوض واسع تشكل خارج مجـــرى النهر،كانت إبيفانيا تسبح مستسلمة للماء والنسيم البارد لتستريح من عناء اللـــيلة عديـــدة التعريفات! فوق صخرة هناك كانت قد ألقت بثوبها الأصفر الذي أنهت غسيله ووضعت قربه قطعة من صابون الغار. فجأة ارتعشت وأحست بالبرد يلفح أعماقها فغطست كلياً في الماء.

وضـــع الـــصياد حمله على الأرض، على مرأى منها، حيث كان النهر أكثر عرضـــاً واتساعاً: ومن الجرح القاتل في شدق الغزال انسال الدم فصبغ حوض الماء بالأحمـــر. أخذ قطعة من حزامه ووضعها إلى جانب الجعبة والفأس والبندقية. كان هـــو نفـــسه كاستور من صنع النصل الطويلة الحادة، وأرهف حدَّ رأسها وكيف شفرتها القاطعة. وكذلك صنع جعبة الجلد لنقل الطرائد اللينة: وبعدما رفع ذراعيه قفز إلى الماء لينظف نفسه من الدم الذي انسال على ظهره.. ورفعت إبيفانيا نصفها الأعلى لترى بصورة أفضل.

بينما كان يعود إلى مكانه لمحها جالسة وسط المجرى الثانوي للنهر: إنها صورة إلهية، أو بالتأكيد هي الإلهة أوشون بشخصها، سيدة الأنهار، تقوم بزيارة إلى ولاية من ولايات مملكتها.. وقبل أن تختفي الرؤيا محمولة على شعاع، قدم لها تيساو تحية الاحترام وهو ينقر برؤوس أصابعه على جبهته مكرراً التحية "أورا - يي - ييوو" ولكن الشبح أصرّ على البقاء، فثبّت تيساو نظره وقام بحركة من ذراعه، ولكي يبدأ المحادثــة طلب أن تعيره قطعة صابون الغار... فوقفت على قدميها عارضة صدرها الطــري الــبض. ولشدة انفعالها غدا جلدها الأود أزرق.. الزنجية إيبفانيا صبية في شــرخ الشباب؛ إنها الخطر الأكبر في شعاب الكاكاو وهي تجوب المكان من موقع إلى موقع تزرع الحيوية حيثما وصلت.

جــاءت بنفــسها تلبي الطلب متوازنة فوق الحجارة الملساء والمسننة، والجلد الأسمــر القــاتم يلــتمع؛ وإذ سلمت الطلبية وقفت في مكانها تاركة له الاستمتاع بالمــشهد: كانــت المياه كأنها تلد من بطن إيبفانيا. إيبفاني الإله "أوشون" امرأة أوشوسي وشانغو. وبينما هو يعيد إليها قطعة الصابون أمسكها الزنجي من ذراعها وحدّق في أعماق عينيها.

- إنــك تيــساو... لقد سمعت عنك سابقاً.. تمتمت إيبفانيا وتركت نفسها تنساق إليه دون مقاومة، خاضعة.

غطــسا معاً متماسكين: أخذها إلى أعلى النهر وهو يشدها أسيرة إلى صدره، ويــسبحان ببطء احتفالاً باللقاء. لم تعد إيبفانيا تحس بتعب الليلة الكثيرة الزبائن. وعندما لمحا على ضفة النهر جسم الغزال البري سألت ليسمعها تتكلم من جديد:

- هل أنت الذي اصطدت هذا يا أبي؟

بحركة من رأسه أجابها بالإيجاب مبتسماً ليعبر عن سروره بالطريدة: إنها أكبر طــريدة اصــطدها في الساعة السعيدة وهي مناسبة تماماً. إنها عطية أوشوسي أو شانغو، أو ضحية أوشالا، من يدري.

- غداً الأحد.

- وماذا في الأمر؟ أي فرق في هذه المزبلة بين الأحد وسائر أيام الأسبوع؟

كانــت إيبفانيا قد وصلت حديثاً إلى المكان ولم تكن بعد على علم بالعادات والتقالــيد الــتي لم تكن كثيرة ولكن كل واحد فيها كان يكلف جهداً ويقتضي

حذاقة ويستدعي الصبر خاصة. وكاستور أبدووين دا أسونسيون عندما يزمع على الغزل فهو لم يتعود على التخلي أو التراجع.

- سأخبرك فيما بعد.

مجرى النهر. أخذ يغطي ويكشف الاثنين: وجرف معه قطعة الصابون.

2

خلال اليوم بكامله كان الإعجاب الأحمق يستكمل معاناته للسأم. لقد اعتاد على الحياة مع من يحب اعتياده الأعياد واحتفالاتها، ولكن ها هو كاستور أبدووين دا أسونسيون، الملقب بتيساو، يصاب بالكآبة عندما ألقى رحاله في ذلك القفر ليبني فيه بيتاً من الحجارة والطين. لقد تطهر من خطاياه، إن تكن لديه خطايا، ولكنه لم يهرب من تحدي الوحدة الموحشة له.

لقد قرّر كل شيء بنفسه، وبمسؤوليته الشخصية، كونه سيد مصيره، كان قد استعان بالعقيد روبستيانو واستحصل منه على قرض لا بدّ منه لإقامة محل الحدادة، ولكنه لم يسأل العقيد نصيحة ولم يعده بشيء، لا للعقيد ولا لأي طرف آخر. هكذا كان يتصرف منذ أن هرب المحقق حين كان مراهقاً. يتيم، ولد من عبدين، متحدياً السوط والعقاب بالموت، الشرطة والمأجورين، وسلطة السيد ذي المواهب، وبذلك حطم قيود العبودية. لم يكن أحد يأمره: وهو لدى معاقبته البارون أطفأ الخوف والخضوع في نفسه.

أطلق رأسه مع الريح متخلياً عن أعياد ريكونكافو الصاخبة، فخلف وراءه وإلى الأبد بريق الذهب ومملكة السكر: الدارة الكبيرة ومشتملها، وركوب الخيل، والمواهب والنزق والترف. أدار ظهره للسيدات النبيلات وللجواري، ولفنون الهوى لدى الكواعب، ولروعة المتولدات المتعطرات بالخزامى، وتخلى إلى الأبد عن أنواع ترف أوروبا، وفرنسا وباهيا، وفن حضارة أسياد السكر الذي يستخرج من عرق العبيد.

لم يعد يحس بالشوق إلى غير عمه كريستوفار أبدووين، الحداد البارع الذي علّمه المهنة. وقارع الطبل الذي لا يضاهى في الفرقة الموسيقية والذي علّمه الضرب على الطبول الزنجية. كانت كل ريكونكافو كناية عن عيد وحسب.

كانـــت ريكونكافـــو كـــناية عن عيد ولكن تيساو لم يكن مشتاقاً إلى عيد ريكونكافـــو. تعلم أن يكتفي بالقلة من النساء الضائعات، وأن يحب هدوء الريف، وامـــتدادات الغابة العذراء وبريق غرسات الكاكاو الزاهي. إنه في توكايا غراندي رجـــل آخر: بينما يتحدى الوحدة الموحشة كان يخطط لاحتفالات عيد آخر غير عيد البارونة في الدار الكبيرة وعلى شراشف الحرير العائدة للبارون.

مـــسحوراً بروعة المكان، ومطمئناً لغده، قرّر أن يقيم في ذلك الملتقى لرجال القوافل. زبائن أكيدون، والعائدات تكفي ليعيش ويجمع النقود المعدنية التي سيدفع منها القرض الذي اقترضه من العقيد. ولن يكون مع هذا مجبراً، باستمرار، على أن يؤجر قوة ذراعيه، ويضع ساعديه في الخدمة.

عـــندما أشعل النار، وأصلى عليها الحديد، ثم ضرب بمطرقته بعدما رفع حافر الحمـــار ليـــضع فيه حدوة جديدة - وقد اجتمع حوله المساعدون المتحمسون من النـــساء ورجـــال القوافل والصعاليك والسيد فضول وبيدرو سيغانو - أصبحت تـــوكايا غـــراندي أكثر من مكان استراحة لقوافل الكاكاو الجاف، وغدت مكاناً ثابتاً بمحل الحدادة الجديد الذي أضيف إلى مستودع العقيد روبستيانو ودار اللبناني وتجارته التي تدب فيها حياة الكاشاسا والتبغ والمأكولات المجففة.

3

من كان أكثر فرحاً بحضور تيساو أبدووين في توكايا غراندي هو فضول عبد الله... وقـــد بلغ فرح الأخير حداً خصص معه زجاجة كاشاسا للاستهلاك المجاني مـــساء اليوم الذي رفع فيه الزنجي حافر الحمار وسط صراخ المحتفلين المجتمعين أمام محل الحدادة.

كـــان الاثـــنان قد تعارفا في مزرعة العقيد روبستيانو: الزنجي الذي يعمل في تـــركيب حدوات المطايا، واللبناني الذي يعرض البضاعة في حقيبة المسقطي. وفي إحـــدى المرات، وإذ كان الاثنان مارين في تاكاراس، اجتمعا معاً في حفلة صاخبة، في نـــزل الهندية أليس: في ساعة الازدحام في النـــزل ظهرت مجموعة من زارعي الـــشغب وانتهى الأمر إلى العراك وطلقات الرصاص... وخرج الاثنان سليمين من العراك. أما الزنجي فبعدما حطم وجه أحد "القبضايات" انتزع منه المسدس - فمن

ليس مؤهلاً لمعالجة قضبان الحديد لا يجب أن يضع مسدساً في حزامه لأنه يستطيع بسهولة أن يخسر السلاح وماء الوجه.

كان فضول يرى في تيساو ضمانة أخرى ضد التهديدات المرعبة والمحتملة التي تنغص هدوء المكان. صحيح أن كوروكا كانت تؤدي الحساب بدقة خلال غياب صـــاحب الدكان، وتهتم بالمخزن، وأي صعلوك لم يعد يسطو على سكان توكايا غـــراندي: فقـــبل أن يفعل فإن السيئ الحظ هذا يجب أن يفكر مرتين على الأقل بنتيجة عمله... لقد قلّت المخاطر... وعلى كل حال، ومع كل ما سبق، فإن محل الحـــدادة الـــذي أقامـــه الزنجي مقابل دكان فضول كان يعني سبباً مهماً في إبعاد اللـــصوص والمجرمين. التاجر والحداد بدآ بمعاهدة بينهما: لا يبتعد الاثنان في الوقت نفسه عن توكايا غراندي: عندما يضطر أحدهما إلى السفر فإن الآخر يبقى ليراقب المكانين ومستعداً للتدخل في حال حدوث أي شيء قد يستدعي التدخل.

بـــين حـــركة العمـــل الليلية والحركة الصباحية، وكلتاهما تتحددان بوصول وانطـــلاق القوافل، كان الملل ثقيلاً لا يحتمل: وكان الاثنان يملآن ساعات الفراغ ويـــتحدثان بمودة، ويتذكران الملذات وأيام اللهو ويرويان حكايات التسلية. وكانا أحـــياناً يبقـــيان معاً بصمت: العربي على قرقعة النرجيلة، والزنجي يلف قطعاً من الحديد والتنك ويطعجها بأشكال مختلفة.

كـــان فضول يحب أن يقوم بتقدير عمل كاستور، وهو عمل دقيق وقاسٍ في آن، وبالنظـــر إلـــيه وهو يحول قطعة من الحديد التي لا قيمة لها إلى هدية لامرأةٍ أو خاتم أو قطعة تزيين، أو يجعل من تنكة مهملة وعاء لاستعمال. وفي المقابل، لم يكن هناك مصغٍ أكثر انتباهاً من تيساو لأخبار اللبناني، وأسفار التوراة وبهارج الشرق، والأنبـــياء والأعاجيب. عينان جاحظتان، وفم فاغر مشدود عليه علامات التعجب والضحك المتواصل، بها كان الزنجي يتابع الأحداث خطوة خطوة وبمتعة ووله. ولم يكـــن يضيع تفصيلاً واحداً عندما كان الراوي يشير بيده إلى حدث مهم، ولكي يعبّر عنه بصورة أفضل كان يفسر باللغة العربية.

كانت النساء يتبسمن للفظ فضول، ولكنه لم يكن يعيرهن اهتماماً فقد كان يـــصر علـــى الاستمرار بالرواية بحيوية: عندما كان صغيراً، في لبنان، كان ينشد الأناشيد في كنيسة القرية. وإذا صادف وجود بيدرو سيغانو مع الهرمونيكا، كانت

النساء يتوسلن إلى كاستور ليسمعهن نشيداً، وكان الزنجي يعرف الكثير منها و لم يكن يتردد:

"لو سألني الله
ماذا تريد أن أمنحك؟
- أريد أن أعيش على
فستانك الملتصق بك..".

خطير ودافئ صوت تيساو الذي يلعلع في الغابات وعند سفوح الجبال. وكانت زليخة مطروبة تؤكد أن العصافير على الشجر كانت تصمت لتصغي إليه. فنون ومواويل كاستور حذاء الحمير كانت تخرس الطير وتجعل الأفاعي هادئة في جحورها، وتجعل القلوب مستسلمة. إنه زنجي خيالي سعيد، ساحر، بدونه كيف يمكن أن تكون توكايا غراندي؟

4

لمعرفة التاريخ والتقويم الشهري، ولمعرفة أيام الأسبوع كان جميع المقيمين في توكايا غراندي يحتاجون إلى الاستنجاد بالروزنامة الوحيدة المعلقة عند باب مستودع الكاكاو الجاف... وكانت الروزنامة موضوعة ضمن إطار من الكروم يجعل النظر إليه متعة، والصورة كناية عن مشهد شتوي لريف أوروبي، الجبال فيه بيضاء من الثلج وكلب كبير يقود أحد المفقودين من عنقه. إنه مشهد مثير للإعجاب. وتحت الصورة كتلة كبيرة من الأوراق المطبوعة أشير فيها إلى التاريخ واليوم. كانت الروزنامة هدية بمناسبة العام الجديد من العقيد روبستيانو إلى العجوز المخلص جيرينو.

وكونه المالك المنقذ لهذه التحفة الثمينة، فإن جيرينو كان يعرض الصورة على الفتيات ورجال القوافل، مكرراً معلومات سمعها من العقيد: في الخارج لا يمكن تصور البرد القارس، لذلك فإن البراميل مليئة دائماً بالكاشاسا لإنجاد من هو بحاجة إلى الدفء. روزنامة أجمل وأكثر تثقيفاً من هذه لا يمكن لأحد أن يتمنى، ولكنها غير ثابتة وغير آمنة. لذلك فإن العجوز جيرينو كان يمضي أياماً دون أن يقتلع الصفحات، وعندما كان يتذكر ليستجيب لتوصيات العقيد كان ينتزع الصفحات

مـــع "الله كريم" واحدة، اثنتان، و لم يكن ينتزع أبداً ثلاثة أوراق بغية الاقتصاد بها، ولأن الحروف والأرقام كانت أموراً لا يفهمها معظم المقيمين والمارة، كانت الحياة تـــسير بتأخـــر دائم و لم يكن أحد بقادر على التأكيد ما إذا كان التاريخ في أواخر آذار/مـــارس أو أوائـــل نيسان/أبريل، أو إذا كان اليوم أربعاء أو سبتاً. وماذا عن الأحد، اليوم المقدس؟ لم يكن للأحد وجود في توكايا غراندي.

هـــذه الـــروزنامة معيقة عن العمل ومضيعة للوقت: لم تكن ذات شأن مهم بالنـــسبة إلى البعض، ولكن الآخرين كانوا يهتمون بالتاريخ واليوم وينفعلون لمعرفة ذلـــك. كـــان للبـــناني فضول مال ليستلمه من الزبائن الذين ائتمنهم أو أقرضهم بالفائـــدة، وكانـــت عليه مدفوعات للمجهزين في التواريخ الدقيقة المسجلة باللغة العـــربية في أحد الدفاتر... الناس المتطرفون كانوا يعتبرون الأحد يوم راحة إلزامية وفقاً لما تأمر به شريعة الله، علماً أن إله فضول الأقل تطلباً في الشؤون الدينية كان يبـــيح الـــتجارة نهار الأحد، وبالتأكيد مع ارتفاع قليل بالأسعار والأرباح... أما برناردا فكانت تنازع محاولة التكهن بالأيام السعيدة من زيارات العرّاب التي كانت ســـبب حياتها. كانت تلك الزيارات سابقاً متكررة وسريعة، ولكنها غدت سريعة جـــداً وأكثر من اللازم... بسبب روزنامة جيرينو حتى النقيب ناتاريو دا فونسيكا رأى نفسه مجبراً على تغيير عاداته وأوقاته.

5

مـــا يحمل على الضحك هو ما يحمل على البكاء، والعكس بالعكس. كانت النـــساء يـــؤكدن هـــذا لمعرفتهن بالسبب. وقد جربت برناردا المثل وتأكدت منه مباشـــرة ومقلوباً عبر ليلة من الليالي التي لا نهاية لها، عندما أحست بأنه قد ذهب دون رجعة وأن العرّاب قرّر أن يبدّل الأوقات ويطيل مدة بقائه بعيداً عنها، فكانت تخـــنقها العبرات والتنهدات الجاثمة على صدرها، ولكنها عادت تضحك وتضحك جيداً عندما علمت بسبب مكوثه بعيداً عنها وبالنتائج.

بينما هي في الفراش، أرهفت برناردا سمعها: فمن الخارج كان أحدهم يحاول أن يفـــتح مـــزلاج الـــباب بإدخال خنجر من شقه. قفزت برناردا مذعورة ثم علمت بالتالي! تأكدت من أن المقتحم هو العرّاب وقد قدم موعد الرجوع من سفره. وأرادت

أن تقـــوم مـــن الفراش ولكن الفرصة لم تسنح لها: وعلى ضوء الفانوس النائس رأت العرّاب النقيب ناتاريو وقد وقف في الباب آمراً بصوت منخفض:

– أخرجيه من هنا فوراً...

في الظلام لم يعرف الرجل الذي في الفراش من الذي تجرأ على اقتحام المكان. وكـــان ذلـــك الـــرجل مـــتولداً طويل القامة متعوداً على الحياة في بيوت النساء العامـــيات، فظن أن شأنه مع أحد السكارى المتعتعين الذين لا يستطيعون المقاومة. وإذ لا يزال في الفراش تكلم بغلاظة:

– لا تعرض نفسك للإهانة. لماذا تخرجه من هنا؟

– تخرجه لأنني أمرت بذلك.

– ومـــن عـــساك تكون لتعطيني الأوامر؟ انتفض من فراشه مستعداً لإعطاء الصلف الأمثولة التي يستحقها.

أنـــا النقـــيب ناتاريـــو دا فونسيكا. ابتعد تاركاً الباب مفتوحاً والتمع فولاذ المسدس على ضوء الفانوس الخافت.

– حباً بالله لا تفعل يا نقيب.. لا تطلق النار!!

ارتدى سريعاً بنطاله وقميصه وخرج من الباب مختفياً في الغابة ولم يتوقف عن الهـــرولة إلا حين اعتبر نفسه قد سلم. حالفه الحظ: لقد لمح النقيب وتميزه قبل أن يرتكب جنون تسديد ضربة من قبضة يده إلى وجه النقيب فيكون بذلك قد حكم على نفسه بالموت... حماقة كتلك لا يمكن أن يرتكبها عاقل من أجل أجمل أنثى في العالم. لن يعود إلى هناك وإن مجاناً ولينجه الله ويحرسه.

وقفـــت بـــرناردا مذعـــورة، غير قادرة على الكلام، ولم تطلب من النقيب البركة. ظلّ ناتاريو محتفظاً بسلاحه، ووجهه قاتم لا يمكن اختراقه، وصوته قاسٍ:

– لقد أعلمتك بأنني سآتي للنوم هنا في هذا اليوم، هل نسيت؟

– لقـــد قلـــت إنك ستأتي يوم الأحد.. وحتى اليوم فإنني ذهبت إلى روزنامة جيرينو أنقّب فيها...

من الغرفة المجاورة ارتفع صوت كوروكا...

– صحيح ما تقوله، لقد ذهبت معها إلى هناك، والروزنامة تشير إلى أن اليوم هو الخميس... جلس النقيب فوق الفراش ونـــزع حزامه وراح ينتزع جزمته:

– اذهبي واغتسلي...

بعد الذي حدث وعندما جاء يودعها منصرفاً:

– سأعود بعد سبعة أيام لتمضية الليل. عدّي على أصابعك حتى لا تخطئي مرة أخرى.

6

بعد اتخاذه توكايا غراندي مقراً دائماً للإقامة، فإن الزنجي تيساو جعل من يوم الأحد يوماً ذا حدث مهم ودائم الأهمية يبدأ به الأسبوع، ولكي يثبت هذا الأمر دعا السكان إلى حفلة غداء وزايد الجميع في تجنب الاتفاقيات التجارية المكتوبة والخطايا والخداعات، فأصبح يوم الأحد يوماً آخر في مصلحة التجارة الشرعية والدين وخير الخليفة.

صياد ماهر تمنحه الغابة ما هو ضروري لينوع في الطعام... وصديق أليف، كان في أيام الصيد الوفير يخصص قسماً من صيده للسكان الواصلين حديثاً، وكل مرة لواحدة منهم. وقد سألته مرة إحدى الفتيات عن سبب عدم بيعه للطرائد بدلاً من منحها مجاناً مما يمكن أن يعود عليه بمال كثير، فأجابها بأن الصيد ليس مهنته وأنه يعتاش من عمله في الحدادة... وبعد فترة قصيرة خطر في ذهنه أن يزيد من أرباحه، ولكن لم تحركه أية رغبة في الخداع عندما قرّر أن ينتج لحماً مملحاً جافاً، وبعد ذلك القرار تفانى في تنظيم غداء يوم الأحد وكل الآحاد... لقد فكّر فقط في تحسين الحياة وفي أن يجمع شمل الناس في المكان الصغير.

ولإنتاج اللحم المجفّف اعتمد في الحال على مساعدة فضول ومن يدري، فقد يكون هذا الإنتاج عملاً تجارياً مربحاً: واعتمد على مساعدة العبدة دليلة التي رجعت إلى توكايا غراندي... ومن ناحية العبدة الجميلة فإنها حين عرضت نفسها للمساعدة لم يكن لديها أية نوايا غير التعاون، و لم تفرض أي ثمن لعملها و لم تشر إلى أي ربح بالرغم من كونها اختصاصية وذات ممارسة في هذا المجال مشهود لها: لقد ساعدت شاكرة بغية المساعدة حسب.

بعد القلق الذي اعتراها عندما هددها جانجاو فانشاو بالاغتصاب، فإن الفتاة اختفت وبالتأكيد تفتيشاً عن أرياف أقل عداوة حيث يمكنها أن تمارس المهنة

بسلام... وضربت في المسافات فراسخ وفراسخ ولكنها ما لبثت أن وجدت نفسها مـــن جديد في تلك الربوع ولاحظت نمو توكايا غراندي المطرد حيث ازداد عدد السكان، وعدد المستودعات، وقلّت الأخطار وقامت الحدادة التي لا تنطفئ لها نار.

مـــا عـــدا أخبار السوء عن نوايا الأشرار الذين قتلوا، وعن مخططات جانجاو فانشاو، فإن فضول عبد الله أطلع دليلة وبرضى بائن في توجهه على موت فانشاو. كانـــت الفتاة قد علمت بالأمر: إن الحدث قد أثار الدهشة وأعطى المقيمين هناك شـــيئاً يـــتحدثون فيه، وازدادت الشائعات ووصلت إليها في إيتابيرا... هل بلغت الشائعات إلى ذلك المكان البعيد؟ كيف أقول لك؟

– قـــولي لقد قطعوا رأسه وكان عملاً عظيماً استحقه المجرم. إن الله كبير. لم يكن في نيته تكذيب التفاصيل القاسية عن الروايات المتناقضة حول نهاية اللصوص. لذلك بدّل اتجاه الحديث تاركاً دليلة في قناعاتها:

– هل صحيح أنك تفعلين كل شيء؟

– لم ترتبك عند سماعها السؤال، وحوّلت نظرها عنه وهي تجيب بحزم وغموض:

– لا أظن أنني أفعل أي شيء مما تعتقد، ودون ذلك الموت.

وظلّـــت فتاة الهوى واللبناني يتمازحان بتلك المداعبات الكلامية إلى أن وصل كاستور حاملاً معه الدعوة: ألا يريد السيد فضول أن يشاركه في عملية ذات نجاح غـــير متـــصور؟ كان يفكر في صنع اللحم المجفّف الذي لم يسبق أن صنعه سابقاً ولكـــن تذوقه لن يكلف فضول شيئاً. وفي مزرعة العقيد روبستيانو شاهد سكان الـــداخل يملّحون لحم العجل في يوم ذبحه ويعرضونه للشمس فينتج عن ذلك طعم شهي ولا طعم الطرائد الطازجة. فماذا يفكر فضول لو أن كاستور شارك باللحم، وفضول نفسه شارك بالملح؟

أعلـــنت دلـــيلة نفسها عليمة ومجربة في المسألة. في أعلى الداخل حيث ولدت، وســـط تربية العجول، فإن الشعب كان يعيش من تلك الصنعة – يملح اللحم الطازج ويشمـــسه محولاً إياه إلى لحم مجفّف لحساب العقيد راوول الذي كان لدى مروره من هـــناك يقيم لها حفلة سريعة. وكانوا يملحون أيضاً البقر وحيوانات أخرى أصغر منها، أنـــواعاً مـــن الطـــيور يقلون العصافير الصغيرة لبيعها في المعارض الشعبية.. ومن هذه العصافير لم يكونوا يبقون شيئاً حتى إنهم كانوا يمضغون العظام حتى الآخر...

الشركة التي تمّ تأسيسها على أيدي الشركاء الثلاثة - تيساو بصيده، وفضول بملحـــه، ودليلة بخبرتها - أخذت تتوسع باطراد، ولوبيسينيو وباستياو دا روزا أقاما مكانـــاً يعلقان فيه اللحم المملح. نساء أخريات جئن للمساعدة وكانت على ضفة النهر حركة غير اعتيادية خلال عملية التجفيف. كثير من العمل وقليل من اللحم، ولكـــنه كافٍ لكي يحصل كل واحد على وجبته الكاملة. تأكد فضول من أنه لن يبقـــى للتجارة أي قسمٍ من اللحم المجفّف، ولكن مع ذلك ظلّ مستمتعاً بالعمل: ليس كل شيء مالاً وربحاً في هذا العالم.

الـــشمس الحادة ساهمت في إنجاح التجربة. خلال تلك الأيام الحارة لم تهطل الأمطـــار. وعندما أعلنت دليلة من برج خبرتها العالي أن اللحم المجفّف أصبح على عتبة إرساله إلى النار ليصبح طعاماً، كان العيد غير مرتقب. وفي وعاء آخر ذهبت بـــرناردا وكـــوروكا في طبخ قسم من اللحم بالفاصولياء السوداء. وذهبت زليخة تـــرش الطحـــين على دهن القلي، وانصرفت كوتينيا لصنع حلوى الجاكا.. وجمع الموجـــودون بعـــض النقود المعدنية لشراء زجاجة كاشاسا من دكان فضول الذي ساهم بدوره مخفضاً السعر. وانتهى الأمر إلى أغنية جماعية.

هكـــذا ولدت فكرة غداء يوم الأحد، وحيوياً كما هو شأنه فإن تيساو كان واضع العرض الذي استحق التصفيق الحاد من المحتفلين: إنه غداء يجمع الجميع مرة في الأســـبوع لملء المعدة الخاوية والتحدث والضحك. في البدء شارك القليلون ثم انضم الآخرون إلى الغداء.

أيـــام الآحـــاد كانت تلم شمل الجميع في ساعة الحر. تيساو وفضول، جيرينو ورجال المستودع، غيدو وباستياو دا روزا، بالبينو ولوبيسينيو، كوروكا وبرناردا، زاي لوبيس وميرنسيا، زليخة ودليلة، والناعمة كوتينيا، وكان الجميع يتزاحمون في المشاركة وصولاً إلى الأكلة الطيبة. وعندما يكون بيدرو سيغانو موجوداً فإنه كان يشارك بالعزف لأغنية جماعية راقصة.

كانـــت ميرنسيا تقوم بتقديم الشكر إلى الله في اليوم المقدس، وفضول يرافقها بالتـــضرع متمـــتماً باللغـــة العربية والعاهرات يجبنه: آمين.. وكان رجال القوافل يؤخرون انطلاق قوافلهم ليرافقوا المحتفلين ويشاركوهم الأكل والشرب.

استجابة لطلب إبيفانيا، الزنجي كاستور أبدووين ينظِّم الاحتفال بعيد القديس يوحنا

1

في صبيحة أحد الأيام، كان الزنجي كاستور أبدووين يضع حدوة في حافر الحمار بياسافا، عندما حوّل عينيه إلى داخل محل الحدادة فلمح كلباً مستلقياً قرب النار المشتعلة. ظنَّ أن الكلب يعود إلى لازارو، البيطري، في أنحاء توكايا غراندي، أو إلى كوسمي ابنه ومساعده. ربما يكون الكلب لإحدى الملكيات الحديثة إذ لم يسبق أن رآه يقتفي أثر القوافل التي يحدوانها. كان الكلب مصاباً ببرد يجعله يرتجف. فحاول الاستفادة من لهيب النار قبل أن يتابع مسيرته. ولكن تيساو لم يحسده على حظه: فالطقس سيئ للغاية.

وبسبب حالة الطرقات السيئة كان لازارو قد وصل في ساعة متأخرة من الليل، متذمراً: خلال المسيرة البطيئة. فقد الحمار بياسافا حدوة فأخذ يعرج مضيفاً إلى التأخير تأخيراً بسبب إعاقته. المصيبة دهمته فوقعت عليه أسوأ من وقع السوط.

قضيا الليل حتى الفجر عند باب الحداد وفي نيتهما بلوغ تاكاراس قبل انطلاق القطار. وبينما راح كوسمي يشد عقدة الواقيات من المطر الموضوعة فوق الحمولة ليقيها الرذاذ المتواصل، راح لازارو يمعن النظر متعجباً من دقّة عمل كاستور ومهارته. كانت الرؤوس والأكتاف مغطاة بأكياس من القنب حوّلت إلى مشالح وقبعات، والأقدام عارية، والبناطيل مبللة، والأب وابنه يسيران في الطين مستنكرين السماء المكفهرة، الصاخبة، المحزنة.

لم يكن الأمر متعلقاً بغيمة صيف عابرة تسكب ماءها دفعة واحدة بل بعاصفة من تلك العواصف التي تصيب الدنيا بالعتمة فلا تترك مجالاً لتحديد عين الشمس

لـــشدة قتامـــتها. لقد بدأ الشتاء، وأصبح المطر مستمراً، والنهارات بشعة، والليالي باردة، والأفق رمادياً، يرافق كل هذه الطين، واندفاع المياه.

عند نقاط مواضع الرحال، وفي الدساكر كما في الخانات المعدة لقضاء الليل، كـــان رجال ومساعدوهم يفتشون عن الدفء في مساكن الفتيات بينما كانوا في الـــدكاكين ومراكز البيع الأخرى يسعون إلى تنظيف حناجرهم وتدفئة صدورهم بجـــرعة مـــن الكاشاسا. وقبل أن يستأنف المسيرة كان لازارو وكوسمي قد شفيا غلـــيلهما في قلعـــة فـــضول المنـــيعة. وأمس، كانا قد وصلا متأخرين إلى نـــزل العاهـــرات. وفيما هو متعلق بالمرأة وغيرها من الملذات، كان الاثنان صاحبي ذوق متـــشابه، وهـــذا أمـــر طبيعـــي. على الطريق كانا صامتين، منتبهين إلى الكمائن والمفاجـــآت؛ وصلا وفي نفس كل واحد منهما رغبة في برناردا... كان النـــزق يخفـــف من مشقة الرحلة المتعبة، ويجعل أوقات الفراغ الطويلة أقل طولاً. وإذا لم يكن ممكناً الحصول على برناردا، الجميلة، فأية امرأة يمكن أن تفي بالغرض.

عـــندما أصـــبح الحمار بياسافا محتذياً، فقد انطلق مسرعاً ونهيقه يشق الهواء لينضم إلى القافلة. وبينما يدفع لازارو كلفة الحذاية تفكه بقوله:

– إنك فرح بالنعل الجديد يا ابن...

حـــدا كوسمـــي قافلة الحمير، وتمنى لهما كاستور رحلة طيبة ثم دخل إلى محل الحدادة – فيما بعد وعندما يتوقف المطر فإنه سيذهب لجمع الطرائد. وقرب النار، رفـــع الكلـــب رأسه وحرّك ذيله فوضع الزنجي يديه حول فكي الكلب مداعباً ثم صرخ:

– لازارو انظر إلى الكلب!

أوقف لازارو خطوه:

– أي كلب؟

– الكلب الذي جاء معكما!

– معنا؟ لم يأت معنا أي كلب، هل بدأت ترى أشباحاً؟

إذا لم يكن قد جاء مع قافلة لازارو، فمع من عسى يكون قد جاء؟ لا بدّ من أن يظهـــر صاحبه، فكّر الحداد. وبغية استجلاء الأمر جلس كاستور على كرسي الإله شانغو:

مـــدَّ يـــده فحـــاول الكلب أن يقف إلا أن أرجله لم تحمله، ثم تمكّن بجهد من الانتـــصاب وهو يحرك بذيله. وراح الزنجي يتأمل فيه من مسافة قريبة فرآه تعباً، خاوياً، مـــبللاً، وتكـــاد عظامه تخرج من جلده، فاستنتج أن الحيوان كلب بلا سيد، سائب، يفتش عن حفنة طعام وعن كلبة مشبوقة. وبالطريقة التي جاء سينصرف من جديد.

لامـــس الزنجـــي الكلب بهدوء مداعباً إياه بحك رأسه. بعد ذلك راح يعالجه بحذر فلم ينل إلا نباحاً جعله يتراجع. وبينما استمر الامتحان فإن الكلب لم يتراجع عن نيته الأصلية في الاحتفال بكاستور فاستمر بتحريك ذيله الأملس. كان الكلب ذا حجم متوسط.

2

لـــدى سماعها النباح المتواصل، قدمت إيبفانيا بفضول لتستطلع الأمر. كانت تلـــف حـــول خصرها قطعة من القماش الرقيق المزهر، بينما كانت عارية الصدر، وبـــدت مشبعة بالرطوبة بسبب برودة الفجر... تعجبت عندما رأت الكلب القذر الضعيف. وسألت:

– من أين خرجت هذه النفس المعذبة؟

– لم تخرج من مكان. لقد ظهرت.

كـــيف وصـــل الكلب، ومن أين جاء، فهذه أمور لم يعرف كاستور كيف يجيب عنها: لقد ظهر هنا فجأة للاستدفاء بالنار. فجأة؟ لم تتعود إيبفانيا التعجب: كانـــت لديها القدرة على توضيح أكثر الأمور غموضاً. لم يكن هناك شيء صعب على الإدراك، وبالنسبة إليها كان كل شيء يبدو واضحاً سهل التفسير. كل شيء ما عدا الزنجي كاستور أبدووين.

– إنـــه عطـــية الإلـــه – كانت تشير إلى الإله إيشو – فكّر فيما أقوله لك. اســـتجمع قـــواك وفك العقدة. ألا ترسل إليه الطعام كل يوم اثنين؟ ولمن تتجرع جرعة العرق الأولى؟ أليس من أجله؟ وأجبني: من رأى صياداً في الأرض يصيد بلا كلب؟ إن الإله إيشو لا يخذل من يحفظ له الود ويكن له الاحترام.

ذهبت إيبفانيا لتجلب ماء في إناء. فشرب الكلب بشراهة. أما ما كان قد زاد مـــن لحم وفاصولياء، ليلة أمس، فإن الكلب نظر إليها بشك، ثم تأخر وهو يشتمها

متردداً: يشك في أن حظاً كهذا قد توفر له. كانت عينا الحيوان الخائفتان تذهبان من كاستور إلى إبيفانيا وتتوسلان الإذن والكفالة. إنه بمناسبات سابقة، كهذه، تعرض للكثير من السوء.

مليئة بالوجع، دفعت إبيفانيا وعاء الطعام إلى أن استقر تحت شدق الحيوان مباشرة: فقط عند هذه المرحلة تجرأ أن يبتلع قطعة اللحم ومعها قليلاً من الفاصولياء، بعد ذلك مدَّ الحيوان لسانه ولحس يد الزنجية المندسة قرب تيساو.

– المسكين يكاد يموت جوعاً.

– لقد أمعنوا تعذيباً فيه؛ إنه مصاب بقروح. لا بدّ من أنه هرب منهم عبر الغابة.

– مع هذا الطين ليس من السهل معرفة لونه، ولكن له بقعة سوداء في صدره وأخرى في جبهته. سترى: حتى إنه جميل.

– جميل؟

ضحك كاستور غير مصدق: قلب من ذهب شبيه بقلب إبيفانيا لا يوجد: جميلة وممشوقة القد، بلا شك، ولكنها أيضاً طيبة وخدومة كما لا أحد سواها. ومدَّ كاستور أصابعه منادياً النفس المعذبة:

– تعالي إلى هنا أيتها النفس المعذبة.

بجهد تمكّن الكلب من البقاء واقفاً، وتقدم من طرقات الأصابع ونبح عالياً، وذيله في الأعلى، متحركاً: لقد استدفأ بالنار، ونال ماء وغذاء وحناناً.

ما عدا إبيفانيا بقدرتها على استجلاء الأمور الناهضة، وفك الألغاز، فإن أي شخص آخر لم يعرف من أين جاء الكلب وكيف وصل إلى تلك الربوع. لم يصل أي خبر ولا أي شيء يستدعي الظنون. ولم يعرف أحد الكلب ولم يدعيه. وتيساو لم يصدق بما تكهن به. كان الكلب سائباً ولا سيد له، فإنه قد أحب هذا البيت وعرف فيه من اتخذه صديقاً.

3

مشت إبيفانيا حتى بلغت باب الحدادة معرضة نفسها للمطر اللزج، المتواصل: لم يكن الطقس يسمح برؤية السماء، وتأسفت:

– إنني أحس بثقل في صدري، وبانقباض شديد... ويبدو كأن عيناً حسودة قد أصابتني. وهذا ممكن جداً.

وقف تيساو راغباً في استجلاء أمر يراوده منذ أيام:

– حتى إنك تمشين بثقل.. هل أنت..؟

في هـــذا الـــصباح غير المشمس لم يلح له شعاع ضوء ولم يحصل على جرعة دفء. وإيبفانيا التي تفهم الأمور بشكل مفاجئ، قاطعته:

– لم أجـــد مكاناً أكثر تخلفاً من هذا المكان، ولا لهو في هذا المكان حتى في عيد القديس يوحنا. إني أستنكر هذا الواقع! ولكنه تابع مكملاً:

– إنك تريدين الذهاب إلى غير هذا المكان، أليس كذلك؟

مـــشت إيبفانـــيا باتجـــاه كاستور، معطية نفسها بكليتها، واهبة إياه عنقها وصـــدرها. كانت عندما وصلت إليه، وقد وضعت يديها على كتفيه العريضتين، واجهته بصوت يحمل الشكوى والتحدي في آن:

– لن يكون لذهابي أية أهمية بالنسبة إليك.

علـــيمة بنـــــزواته، فقد قربت جسدها منه، إذ كانت تعرف طاقاته ونقاط ضعفه. وحدّق فيها قبل أن يستأنف الكلام:

– إن مـــا تريدين معرفته هو مدى تمسكي بك، ومدى حزني على ذهابك، لتهزئـــي مني. إنك حركة في أن تفعلي ما تشائين. نحن لا يربطنا عقد موقع وليس هـــناك شـــيء جمـــيل ليدوم، وهذا ما كنت قد قلته بنفسك وشددت عليه. هل تذكرين؟ ولكن لا تقولي إنني لا أهتم.

– إنك لا تهتم بشيء. لا تحبني ولا تحب سواي. ولكن في يوم ستعرف الحب والـــويل لـــك لما ستعانيه. ستعرف بالحب، مع ذلك، صفة السعادة، وتعلم بما هو طيب – وطوقته بذراعيها.

– كـــيف يمكـــنك أن تقولي شيئاً كهذا؟ وكيف تدعين أنني لا أحبك؟ ألا ترين؟ ألا تحسين؟

كانت تحس بالضغط عليها:

– للـــذهاب إلى الفـــراش أجـــل، إنـــك تحـــبني وتحب زليخة، وبرناردا ودليلة، وحتى كوروكا. أية امرأة لا تحبها؟ قافلة من التافهات المولهات بتيساو،

ابـــتداء مـــني. يقـــال إن الأمـــر هو نفسه في تاكاراس. هل تعلم ما أنت في الحقيقة؟

ازداد جـــسد الزنجـــي التصاقاً بجسدها، وارتفعت حرارة التوقد، وإلا فلمن الطاقـــات الكبيرة ونقاط الضعف؟ أقفل عينيه: ماذا يفيد أن تكون ممشوقة القوام وكبيرة الهامة؟ متعلقة به. مستهلكة، كانت تنتهي دائماً إلى إلقاء السلاح في ذروة التوقد.

- أحياناً أفكر في أنك لست أكثر من طفل كبير، دون تفكير أو إرادة.

- إنك لم تجيبـــي بعد عن السؤال: هل تفكرين في مغادرة هذا المكان؟

دون أن تفك ذراعيها عنه، أبعدت إيبفانيا جسدها:

- هل تريد أن تعرف الحقيقة؟ لم أقضِ في حياتي عيد القديس يوحنا دون أن أشـــعل النار واشوي الذرة الصفراء وآكل الكابيكا وأرقص الرباعية - نظرت إلى الخارج، وكان المطر قد أخذ يخف في السماء:

إن شهر حزيران/يونيو قريب. بالنسبة لي، ليس من عيد يضاهي عيد القديس يوحنا، فرحاً.

بعدما أفرغت ما في صدرها أحست بنفسها فارغة وحزينة؟ وعادت لتلتصق بكليـــتها وحـــرارة الزنجي تدفئها أكثر من حرارة الحدادة - عند ذاك الحد لم يعد مهماً معرفة من سيستسلم، في البدء، للآخر:

- لم أكن أفكر في البقاء هنا زمناً طويلاً، ولكنك وضعت الأغلال في رجلي. ولم تطلب مني مرة أن أمكث معك.

- وهل كان ذلك ليرضيك؟

- إن لـــديك دائماً جواباً، إنك العفريت بنفسه. كنت قد ارتبطت بكوتينيا، ولكن من أجلك أستطيع أن أنسى مار يوحنا نفسه.

- وهل تحبين مار يوحنا إلى هذا الحد؟

- وأكثر من هذا.

وكانت ترغب في رؤية النيران المشتعلة وفي البطاطا الحلوة، والذرة الخضراء، وشـــرائح الكانجيكا، وشراب الجنيبابو، وخطوات رقص الرباعية - وهي تستحق كـــل هذه الأمور... الأخريات أيضاً يستحقن. ومرَّ تيساو بيده على ظهر إيبفانيا.

وهـــا هـــي الـــزنجية إيبفانيا، الساحرة، التي يتوسل إليها الرجال فتعاملهم بالتعالي والكـــبرياء: هـــا هي مرتمية بين ذراعي تيساو، ودون حركة، ودون مقاومة، فمن يصدق؟

– إذا كـــنت ترغبين في قضاء عيد مار يوحنا في مكان آخر أكثر حركة فإن بإمكانك الذهاب، ولكن يجب أن تعلمي أن في هذه المناسبة ستقام حفلة كبيرة في توكايا غراندي... وستستمر حتى المساء وطيلة اليوم التالي.

– ومن الذي سيقيم الحفلة؟ أنت؟

– إنني أيضاً أحب الحفلات وأشتاقها.

– هل ستقيم الاحتفال لزنجيتك؟

– من أجلك ومن أجل الجميع.

– يا لك من زنجي رائع، متحضر. إن في نفسي الرغبة في رؤية ذلك.

– أجل. سترين.

أحست إيبفانيا بنفسه.

وقد استيقظت، فانطلقت بغنج ودلال:

– إنـــي أحس بوجع في جسدي: لقد أصابتني بعين حسودة. إنك الإله إيشو "إيغبا"، إنك كلب.

– اسمي كاستور أبدووين، والفتيات ينادينني بتيساو، فهل أنا شاب طيب أم لا؟

رافـــق الكلـــب بعينه الزنجي واحدهما يضحك للآخر. وبينما عادا إلى غرفة الحداد، سمع الكلب اللهاث في شبكة الأرجوحة فأخفى ذيله بين جنبيه ونام.

4

كانـــت إيبفانيا تمتلك منديلاً أصفر هو كنـــزها الأكبر ومجموعة من الأبواق الـــصفدية الـــسحرية تستطيع بواسطتها التكهن. وكانت بعض الفتيات يخشينها ويمكثن بعيدات عنها، قلقات، ظناً منهن أنها ساحرة.

وتدبـــرت أمرها مع المقيمين في توكايا غراندي خلال فترات الانتظار لحصاد المواسم، وراحت تطوف، هناك، الطرقات السهلة والآمنة تحت وهج شمس الصيف

المستحكمة بالحياة ومخلوقاتها. وكان الفقر في ذلك المكان النائي يذوب في المناظر الخلابة التي لا مثيل لها، وفي روعة المكان. وإذ لم يكن من كاكاو لنقله فإن حركة القوافل والحدادة كانت تتضاءل في فترة الانتظار... وكانت الفتيات اللواتي يحملن في أقفيتهن ما يستحثهن إلى ممارسة المهنة يذهبن إلى الأماكن الآهلة ذات الزبائن الثابتين. وفي مواجهتها لمزاحمات قليلة، فإن إيبيفانيا حكمت حكماً مطلقاً على أسفل ما بلغوه من دركات. وفي حدادة كاستور أبدووين خلال فصل الحر لم تكن هناك نجمة مرغوبة وامرأة أكثر أناقة منها باستثناء برناردا. ولكن برناردا لم تكن في الحساب، فهي بزرة جديدة تمارس الفراش بالمصاحبة وتسكن بيتاً من الخشب.

كانت إيبيفانيا قد رأت فضول شخصاً ذا كيان ما فتمددت معه ليلة وصولها وكررت ذلك مرات عديدة، وقد أحسنت تقدير جاذبيته وطاقته الهائلة، ولكنها لم تطل علاقتها به إذ تعلقت بتيساو لدى رؤيتها إياه من بعيد في محل الحدادة يهوي بمطرقته على الحديد المتقد اللظى.

إن المصاحبة تعاش مع شخص واحد في كل مرة، وإذا لم تكن كذلك فهي ليست نتيجة توله حقيقي بل خدعة وخيانة لا بدّ من أن تنتهي بالتشاتم والبكاء حين لا تنتهي بالطعن بالسكاكين أو بطلقات الرصاص. كانت إيبيفانيا تعتبر المصاحبة موضوعاً جدياً ومعقداً: لذة وعذاب، انسجام ونفور، خصام ومصالحة، والمصالحة تضاعف اللهفة وتكيفها بصورة أفضل.

وإذ كان رأسها كأنما صنع بيد الإله أوشون رمز الدلال والاعتزاز بالذات، فإن إيبيفانيا المليئة بالنزق كانت تبدو أحياناً كأنها ابنة الآلهة يانسان حاملة بيارق الحرب لتفرض سيادتها. أما النزق فكان تيساو يقبل به مبتسماً ويراه نعمة ويجد فيه رضى لرغباته، أما أن يأمره أحد فهذه مسألة لم يكن ليقبلها من أي كان.

في اليوم الأول من اللقاء عند النهر، وعندما صعدت إلى شبكة الأرجوحة في محل الحدادة لمتابعة نزقها حذرت إيبيفانيا وفي نيتها أن تعتلي العرش وتسن القانون.

– إنك لن تستغلني بمجرد تعلقي بك. ليس بيننا عقد موقع وليس هناك شيء ممتع ليدوم. إنني هنا اليوم في الشبكة وغداً قد تراني مع أي سائر على الطريق مفتشة عما هو أفضل لي.

– إني لا أحب إعطاء الأوامر... أجاب كاستور محدقاً فيها: – ولا أحب أن يعطيني أحد أمراً.

بالـــرغم من كونها زنجية ذات لون فاحم، ومتجولة لا تملك مكاناً تموت فيه، فإنهـــا كانت تتصرف كما لو كانت أجنبية بيضاء ذات لون وردي، وغنية، كانت عاهـــرة في مهنـــتها ولكنها كانت صاحبة ملامح سيدة رفيعة المستوى ومتزوجة. كانت تزعل بسهولة وتجهز نفسها استعداداً للخروج:

– إذا كـــنت بحاجة إلى امرأة فتدبر واحدة أخرى إذ لم يعد من مجال للعلاقة معي. وعندما ينقضي الغضب، وتندم، فإنها كانت تعود لتفرض السلم وتعوض عن الزمن المفقود. وحدث أن رأت تيساو عدة مرات مع رفيقة أخرى:

– إنك طلبت أن أتدبر امرأة أخرى.

كانـــت تـــصاب بـــنوبة جنون وتخرج عن طورها وتهدد بالعصي والحجارة وبكلمـــات تحـــسها هباء. وكانت بعض الفتيات مفتونات بتيساو الزنجي الجميل ولكـــنهن كن يبتعدن عنه حتى لا يتعرضن لأعمال السحر الأسود والكتابة، ومع ذلـــك كانت هناك من تواجه الحقيقة، بمجازفة، كالشجاعة دليلة، مثلاً، والتي كان جـــسدها مقفلاً لا يدخله شيء ولا يتمكن منه سم أفعى ولا جذام أسود، وكانت تعتبر نفسها ابنة الإله العجوز "أو بالوابيه"

كـــان الأمر يستحق عناء مشاهدة إيبفانيا وهي تعبر المكان بمواجهة الشمس: وكـــان كاستور يرى على جسدها الأسود أضواء زرقاء سماوية كما كان يرى في السابق تموجات ذهبية على صدر السيدة البارونة، الأبيض، النقي كالثلج. انظر من كانـــت تشبه إيبفانتا: كانت تشبه "المداما" كانت الاثنتان متشابهتين: متساويتين: كأنهما من صنف واحد، توأمان.

علـــى طاولـــة العشاء في الدارة الكبيرة كانت الإقطاعية تعرض على شريط قمـــيص نومها الباريسي زهرة نادرة مقطوفة من الحديقة. ولا يكاد البارون يغادر المكان إلى الشرفة الخارجية لتدخين السيجار الذي يزعجها حتى تكون المتهتكة قد دعت العبد بإيماءة من إصبعها وهي تقول له:

– إنـــه لـــك يـــا حي.. تقولها بالفرنسية وتبعد القميص الشفاف وتواصل كلامها: – تعال فتّش... وكان صوتها يذهب متماوجاً.

كانت إيبيفانيا تصل ومعها زهرة برية معلقة على قميصها وكانت تنحني لكي يتناولها ويرى ما تحتها:

- وجـــدتها جمـــيلة فجئت بها إليك: - وكان صوتها يبلغ أعلى أوتاره. إنهما متـــساويتان بالاعتزاز بالذات، والدلال، والنـــزق، والملذات. الواحدة كالأخرى ذات نـــيّة واحـــدة؛ إعطاؤه الأوامر، واستنـــزاف طاقته، ووضع اللجام والسرج عليه، وامتطاؤه.

5

كـــان قـــضاء الـــصيف سهلاً وممتعاً. صبية فرحة، منطلقة، ضحوك، وامرأة مكتملة، نظيفة وحارة؛ كانت مرافقتها في الفراش المتعة بعينها، وكذلك في ولائم الآحـــاد، وحلقـــات الرقص؛ حيث تظهر كان ينظر إليها بعين طيبة، وتتم تحيتها بترحاب؛ وبصحبتها، كان غسيل الملابس عند مجرى النهر انطلاقاً نفسياً احتفالياً، إذ كانت تعرف الكثير من الحكايات ذات التعابير المضحكة وغير المألوفة. بالنسبة إليها كان شعور الآخرين يتراوح بين الإعجاب والخشية لأنها كانت تفرض نفسها وتعرف كيف تأكل وتترك الآخرين يأكلون.

كانـــت الخشية منها بسبب السحر وتلك المجموعة من الأصداف التي كانت ترميها لتكتشف وسيلة تقييد الرجل بذيل تنورة إحداهن، أو خلافه، ولكي تقضي علـــى آلية عقبة تقف حداً بين اثنين يريدان أن يرتبطا أو يفترقا: وكانت الوسائل المكتشفة لا تخطئ. هكذا كانوا يلاحظون ويقولون. ولم يكن ما حدث لكوتينيا، وزي لويس وميرنسيا مجرد أوهام أو كلام مُلقى على عواهنه.

عندما وصلت إلى توكايا غراندي، وقبل حصولها على مكان إقامة خاص بها، وجـــدت إيبيفانيا موضعاً في كوخ كوتينيا التي ارتبطت معها بصداقة. وبعد مضي بعض الوقت، ونـــزولاً عند طلب كوتينيا، تدبرت إيبيفانيا ما تحتاج إليه من بعض أصـــناف ورق الشجر وقلب أرنب كان تيساو، قد اصطاده لتضع رقية في طريق قـــدر الصداقة، وعند ذلك بدأ زي لويس يحوم حول كوتينيا فأقام معها في الفراش وإلى مـــوائد الطعام وأخذ يصرف ما يملكه وما لا يملكه وراحت الاثنتان تتمتعان بطيبات المآكل والمشارب على قدم المساواة.

كانت إيبفانيا تذهب وتعود من النهر إلى الغابة، ومن كوخ كوتينيا إلى بيت كوروكا وبرناردا، ومن مستودع الكاكاو إلى دكان اللبناني، وبعد جولة ونصف الجولة تظهر عند الحدادة وتتأخر هناك، مطمئنة، عندما ترى كاستور وهو يعمل بمعالجة الحديد والتنك متأكدة بذلك من أن أية امرأة لم تكن تضع عينها عليه عارضة ذيلها على من هو مرتبط وله سيدة.

ولم تكن تعترف أو كانت تتظاهر بأنها لا تفهم، ولكنها كانت تتآكل من الداخل، وتفترسها الغيرة، وعندما تشك في أنه قد ضاجع إحداهن أو هو في طور التمهيد لذلك: إن مراودة تيساو من قبل النساء هي كل ما كانت ذوات النزق يرغبن فيه، فيا لهن من متسكعات! وكانت إيبفانيا على وشك أن تفقد عقلها بسبب دليلة النتنة التي لا تحترم نفسها.

خلال الصيف وما دام الطقس خفيفاً ومضنياً كانت تضحك وتعذر كل شيء. ولكن الشتاء أتى قاتماً وبارداً وحزيناً. ونشطت الحركة، وأخذ المال ينساب بوفرة، وبالرغم من ذلك كان صعباً تحمل الضباب والعتمة فكم بالحري انحرافات كاستور أبدووين، حذاء الحمير، والفحل الذي لا يرتوي، والزنجي الخداع.

أما ما هو متعلق بدائمة الوله كوتينيا فقد تدبرت عشيقاً جديداً – إني لا أتحمل رجلاً يضرب امرأة – وقررت أن تنتقل إلى بلد أكثر تقدماً بإقامة الاحتفالات وإحياء الأعياد الحزيرانية وأعياد القديسين أنطونيو ويوحنا وبطرس وهم كلهم شفيعوها المفضلون، ولم تتردد إيبفانيا:

– سأذهب معك.

– هل تعبت من تيساو؟

وكادت تجيب بالإيجاب ولكنها تماسكت:

– من تعب إنما هو نفسه، فكرت وبدأت تتأمل في المطر – إذا كان قد أحبني فهو لم يقل هذا قط.

وكما هو معلوم، لم تنفذ إيبفانيا الاتفاق، ولم تتابع الرحيل.. ومن حسن الحظ أن كوتينيا ما لبثت أن غيرت عهدها الجديد وبدلت من جهة طريقها. وعندما سمعت كوتينيا بأن الزنجي كاستور قد أخذ يحضر للاحتفال بعيد القديس

يوحنا فإنها سارعت إلى عرض نفسها لصنع شراب الجنيبابو الذي لا بدّ من توفره بالمناسبة: الفاكهة كانت قد بدأت تتهاوى على الأرض وتتعفن.

– وهل تعرفين أنت كيف تصنعين هذا الشراب؟

كـــنت قـــد تعلمت ذلك من الراهبات في مطبخ الدير في سان كريستوفاو، المدينة السرجيبية التي ولدت فيها.

– هل كنت راهبة في الدير؟ – تعجب كاستور.

– أردت أن أكـــون ولكـــنني لم أتمكن من ذلك – وخرجت من صوتها نبرة اشـــتياق – كـــنت أعمل هناك كخادمة مقابل معيشتي وخدمة لله. بعد ذلك فإن الأخ نونـــو، البرتغالي الذي كان يأتي يومياً للصلاة في الكنيسة، أنالني من الخارج، وراء النصب الكبير – تذكرت بحنين: – إنه جذع ضخم، تبارك الله. لم أكن أصل إلى خصره. كان يرفع ثوبه الكهنوتي ويرفع تنورتي وفخذي..

تـــنهدت وهي تتذكر ذلك المكان الواسع في زمن العبادة: نبيذ القداس وعصا مباركة:

– لكن الراهبات اكتشفن ذلك فصرفنني من المكان.

6

لا شـــيء غير الضباب والعتمة. كان الشتاء يدوم من أواخر نيسان/أبريل حـــتى بداية تشرين الأول/أكتوبر، وبعد هذا الوقت بقليل وأثناء الحصاد كانت الأشـــهر ذات الحـــركة الأقـــوى حين تبلغ الحيوية أوجها. كان البرد يعاقب المخلوقات، والمطر يقبض على ملامح الطرقات، ومن الظهر حتى منتصف الليل كانـــت تـــوكايا غراندي تعيش ساعاتها الأكثر نشاطاً وينساب المال وتتدفق الانفعالات.

في محـــل الحـــدادة حـــيث تشتعل النار باستمرار، وأثناء النهار على الضوء الخافـــت، وأثناء الليل على ضوء القناديل، كان الزنجي كاستور أبدووين، مكشفاً عـــن ذراعيه، يتفحص الحدوات، ويحذي الحمير، ويقوّم اعوجاج السهام، ويصنع السكاكين، ويقيس شفرات الخناجر ويحدها، ويصلح الأسلحة النارية. وكان دائماً مـــستعداً ليلبي طلبات رجال القوافل الذين كانوا يأتون إلى حدادة الزنجي ودكان

فضول، مكانيهما المفضلين اللذين مَنَّت بهما العناية الإلهية. أما الأمور الأخرى فكانت العاهرات كفيلات بتدبيرها.

خلال ذهابه ومجيئه من بوافيشتا لم يكن من بدّ للنقيب ناتاريو دا فونسيكا من ملاقاة فضول وكاستور. وكان الثلاثة يجتمعون غالباً في الدكان أو في الحدادة يتسلون بالأحاديث عن حجم الموسم وسعر كيس الكاكاو، وعن الصخب والقتلى في إيلايوس وإيتابونا، وعن العراكات الدموية في أسواق البغاء، بينما يرتشفون بهدوء جرعات الكاشاسا.

أي خبر هو هذا؟ – أراد النقيب أن يعرف حين لمح الكلب مستوياً عند قدمي الزنجي: – هل تلقيته كهدية أم اشتريته من أحد الأحياء؟

– لا هذا ولا ذاك. لقد وصل واستوى دون أن يناديه أحد.

– من الأفضل إبقاؤه هنا يا نقيب.. أعطى فضول نصيحته ضاحكاً.

– هذا الزنجي شريك الشيطان في شيء ما.

– لقد سمعت هذا القول سابقاً... – ابتسم ناتاريو ابتسامة واهية، معطياً موافقته: – ولكن الأمر يستحق عناء كلب جيد. كان لديَّ كلب لم يكن يفارقني ولكنه مات بلدغة أفعى. ولديَّ في البيت قطيع من الكلاب التي تلهو مع الأولاد، ولكن لا واحد منها يفيد بشيء.

حرّك النقيب أصابعه مداعباً الكلب الذي أجابه بتحريك ذيله دون أن يبارح مكانه عند قدمي الزنجي. فبدل النقيب الحديث:

– يقولون إن صديقنا يجهز للاحتفال بعيد القديس يوحنا؟

– إني منصرف حالياً لهذا الأمر، كيما تلهو الناس، وتستمع الفتيات. فما الذي يقوله النقيب في هذا الشأن؟

– ألم يتم الاتفاق على أن صديقنا شريك الشيطان؟ لقد أوقعني في الفخ، وسأشارك بالسكر والملح، والمال، لشراء الذرة الخضراء، وجوز الهند الجاف، ولا بدّ أيضاً من الصنفور "والهبولة": – قال فضول كل هذا متذمراً ولكن دون أن يكف عن الضحك.

– لا تتذمر يا عرّاب، إنك أيضاً تعطي الحياة حقها، لقد سبق أن رأيتك تجتاز الفراسخ الطويلة حاملاً حقيبتك من أجل الوصول إلى مكان لهو:

- هذا صحيح، لقد حصل.

وبينما يأخذ حبلاً من الدخان المعجون ليجهز سيجارة، عاد النقيب ناتاريو دا فونسيكا ليوجه الحديث إلى الزنجي:

- أعـــتقد بأنك تقوم بعمل جيد. إن توكايا غراندي تنمو ولن تتأخر في أن تصبح قرية. إنه الوقت المناسب لتتمدن.

- لا يزال الوقت مبكراً لكي تغدو قرية: - قال فضول ذلك وقد توقف عن الضحك.

وصـــولاً إلى تـــوكايا غراندي، ذاهباً باتجاه الشمال، وآتياً من الجنوب أو عكـــس ذلـــك، كان النقيب ناتاريو دا فونسيكا يجتاز قسماً كبيراً من مساحة أراضـــي نهـــر الأفاعي، ويعرف بقعة بقعة حقول الكاكاو الحديثة العائدة إلى العقـــداء، الواسعة الامتداد، وما يعود منها إلى المساكين الصغار أمثاله، مصادقاً كـــل واحـــد منهم. وبينما يشعل سيجارته الملفوفة بورقة الذرة الصفراء كان يفتتح أبواب المستقبل:

- إنه لمنظر جميل أن ترى الأغراس تنمو باطراد. ولا بدّ من أن تبدأ بالإزهار خلال سنة وستعقد الديافير.

كانـــت الأعين تمتلئ بالأمل، والقلوب تخفق بأشد من عادها. فليكن كلامك كـــلام ملاك يتكلم بلسانك يا نقيب؟ قال العربي ذلك وهو يجمع يديه ويرفعها إلى السماء:

- خـــلال ســـنة؟ سنة واحدة؟ أليس خلال أربع أو خمس سنوات كما هو مفـــروض؟ - سأل ذلك بصوت دافئ كما لو أنه يتكلم عن الفتيات في عبثية من عبثيات وله.

كانوا يعيشون مسلّمين أقدارهم للمطر والشمس من أجل أن تتمسك الديافير جيداً بأُمّاها، دون خطر التناثر تحت وقع الأمطار، أو التهرؤ بسبب الرطوبة.

أخبار طيبة بالنسبة إلى النجارين والبنائين، وعلى الأخص بالنسبة إلى ميرنسيا وزوجهـــا زي لويس: لقد بدأت التسليفات والتوصيات. وما دام الأمر كذلك فلا بـــدّ مـــن الاحتفال بعيد القديس يوحنا حتى لا تكون الحياة كلها عملاً، وصيدا، وعرقاً وممارسة جنس مع نساء المباغي، وضبابا وعتمة.

7

لقد حان وقت الكلام عن زليخة التي تأخرت إقامتها في توكايا غراندي منذ وصولها في الشتاء المنصرم فاستحقت الإشارة إليها: بالنسبة لزليخة كانت العصافير تتوقف عن الزقزقة لتصغي إلى غناء كاستور أبدووين دا أسونسيون؛ كانت صاحبة أساليب خفية وغموض لا يلبث أن يتوضح. في تحويمها الدائم حول محل حدادة تيساو كانت تمر بسرية وتكتم. كان وجهها طفولياً وحركاتها محافظة: لو لم تكن هناك تمارس المهنة لأمكنها أن تتحول إلى ابنة عائلة.

ربما كانت الأخريات أجمل منها؛ وأكثر معاصرة وأكثر فعالية في الفراش، ولكن أية واحدة لم تكن مرغوبة ومطلوبة بقدرها. كانت مرهفة، خجولة، وحذرة. مع كل ما يمكن ملاحظته، أنت وكوروكا تعتبران كل تلك المظاهر لا تعدو كونها شيئاً من الكبرياء القاسية كالحجر:

– إن زو تعرف ما تريد. إنها متطلبة وغير مغلقة.

في الحقيقة، عندما كانت تتخذ قراراً مفاجئاً لم يكن هناك من يقف في وجهها ويجعلها تتراجع عنه. وكانت تنفذ القرار دون أن تخرج من ركنها أو تبدل من مظهرها الجليل. ويخطئ من يظن أن العاهرات متشابهات، ويعرضن أنفسهن بصورة خارجة عن المألوف، ومجردات من المشاعر واللياقة. وكانت جاستنا كوروكا تكمل الصورة:

– لكل واحدة شكلها وطريقة تبرجها وأسلوبها الخاص في عرض بضاعتها.

قبل وصول إيبفانيا حاملة في حقيبتها السيطرة والعراكات، كانت مصاحبة طويلة وجدية قد قامت بين تيساو وزو لم تتعرض قط للصدامات والكلمات البذيئة والخلافات الحادة. وكان هناك من أكد جازماً أن المصاحبة ستتحول إلى معاشرة دائمة عندما كانت التجهيزات قد استكملت في محل الحدادة وسكن الحداد في بيت خاص به. ولكن المتهتك، المنحرف لم يدعها للإقامة معه، وهي مع ذلك ظلت كما هي ولم تتبدل تصرفاتها ولم تطالب بشيء. وهكذا ظلت الحياة للاثنين مستقلة عن المصاحبة.

تذكرت كوروكا، لدى اهتمام كاستور بالواصلة الجديدة إيبفانيا، إن زليخة عرفت كيف تنسحب بصمت، دون عراك، ودون فضائح ولم يسمع أحد اتهامات

أو تشهيراً. لقد اكتفت زليخة بعدم المجيء إلى محل الحدادة لتنظيف الطرائد وطبخها والأكل معه. ولكنها لم تغدُ عدواً و لم تبادله شراً بشرّ.

وإذا كانـــت قد توقفت عن الظهور في الحدادة فإنها لم تهمل التواجد معه في ســـاعات الطـــرب واللهو: كانت عيناها تسبحان في المسافات البعيدة عندما كان الزنجي يطلق صدره عبر حنجرته في الغناء، ليسكت الطيور. في البدء لم يعر تيساو اهتماماً لانسحاب زليخة. عندما أحرك إصبعي فإن زليخة ستعود.

في الواقع لم تمانع زليخة عندما، في إحدى المناسبات، جاء الحداد ليأخذها إلى شـــبكة الأرجـــوحة. ولكـــن كـــيف كانت المفاجأة لدى الزنجي عندما تحركت الأرجوحة فانتفضت زليخة بغضب وارتدت فستانها واستعدت للانصراف؟ الأسوأ من ذلك أنها مدّت يدها وطالبت بالتعريفة. لقد جاءت إليه كامرأة عامية وعليه أن يدفع الثمن ويتبين الفرق: لم تبقَ لقضاء الليل، و لم تستسلم مجاناً، و لم تمارس الجنس برغبة بل بواجب تمليه المهنة.

وإذ كـــان الأمر قد فاجأه، وقف كاسترو يحدق فيها لا يعلم ما يفعل أو ما يقـــول مـــرتبكاً، قدم لها بعض النقود، فتسلمتها، ولكنها ما لبثت أن رمتها أرضاً وهي تجتاز باب الحدادة الخارجي. وظلت هادئة، وذهبت هادئة، ولكن في رأسها صداع.

لم يـــضحك تيـــساو، و لم يعترض، و لم يعتبر تصرف زو خطأ أو اعتداء. إنها أمثولة، من يدري؟ عندها فقط علم كم جعلته يعاني لا لأنه ضاجع أخرى بل لأنه جعلـــها محظيـــته تاركاً زليخة كالأخريات دون أن يرضيها بشيء. في الأرجوحة، مفكـــراً، قـــضى الزنجي الليل بشك يحفر في قلبه: عندما كانت تبلغ ذروة التوقد كانـــت تـــشده بذراعيها وتتنهد، ولكنها في هذه الليلة لم تقم بغير واجب المرأة الماهرة في مهنتها.

منذ ذلك الحين أخذ يعاملها بكثير من المجاملة، ولكنها كانت تمكث على مـــسافة مـــنه، وفي رأي الجمـــيع أن المـــصاحبة كانت قد انتهت بين الاثنين، وأصـــبحت شـــيئاً من الماضي. وكان من الصعب تصديق كوروكا حين تؤكد جازمة مطمئنة:

– إن زو مجنونة بتيساو ولا تطرده من عقلها.

كانـــت إبيفانيا الوحيدة التي تعطي كوروكا الحق حين تضع الإثبات الذي لا يقبل الدحض: ما هو السبب الذي لا يجعل هذه التافهة تتخذ لها عشيقاً للتمدد معه مجانـــاً؟ أين رأيت عاهرة لا فحل عندها، وكم بالحري في قفا الدنيا حيث لا عمل غير الجنس؟

في يـــوم أحد وبعد وليمة الغداء الجماعية التي في كل مرة جديدة تغدو أكثر تـــنوعاً وبيـــنما هـــم مجتمعون يضحكون ويلهون، فإن ميرنسيا - الرومانسية في أعماقهـــا - توســـلت إلى كاستور أن يسمعهم بمساعدة الآخرين بعض أناشيده: وكان يعرف الكثير منها: فأعلن الزنجي أنه سيبدأ الغناء بأغنية مفضلة لدى زليخة.

- واحدة من الأغاني التي كنت تطلبينها غالباً يا زليخة، هل تذكرين؟

- أيـــة أغنـــية؟ لقد عرفت: ماريا ستتزوجين؟ وخرجت زليخة من جديتها وضربت كفاً بكف.

انطلق صوت كاستور وعيناه محدقتان فيها كأنما لم يكن أحد هناك غيرها:

"ماريا ستتزوجين!

سأقدم لك التهاني

وسأرسل إليك هدية

قميصاً من حرير..."

كـــان ذلك كافياً لإبيفانيا الجالسة قرب الزنجي لتنسحب بنوبة من الحنق. إذا كـــان هذا أمره مع الأخريات فكيف يكون مع هذه المصنوعة جيداً؟ بصقت على الأرض وداست البصقة برجلها.

8

الاحـــتفال، بإشعال النار، الذي ابتدعه بيدرو سيغانو ليضفي الفرح على ليل القديس أنطونيو، انتهى إلى العراك بالخناجر وإطلاق الرصاص والدم.

ولا بـــدّ من الأخذ بالاعتبار أنه لم تكن هناك نيّة وضيعة أو رغبة خسيسة في المال عندما اقتحم العاطل عن العمل ذاك النوع من الاحتفالات. لم يفكر في ذلك حتى حين تناول آلته الموسيقية ليعزف عليها؛ كان فقط يفكر بالاحتفال، وبجدارة، بعـــيد القديس أنطونيو، وهو أكثر القديسين جدارة بالتكريم بالنسبة إليه. كان قد

ناقش الأمر وأقنع الجميع، ولكن لا يجوز تحميله مسؤولية ما حدث. وفي الحقيقة لم يحمله أحد مثل تلك المسؤولية.

في الواقـــع لدى توقفه في ذلك المكان وفي مثل ذلك اليوم الممطر والبارد، لم يكـــن يفكـــر في المكوث هناك ليلة واحدة يقضيها في أحد الأكواخ مع فتاة هوى يـــستدفئ بحرارتها. كانت وجهته تاكاراس إذا لم تكن فراداس، أغوا بريتا ريو دو براســـو أو إيـــتابونا، وهـــو نفـــسه لم يكن متأكداً. كان قد وعد نفسه بالتمتع باحـــتفالات حزيران/يونيو حيث يكون ممكناً التمتع مجاناً، آكلاً، شارباً، وراقصاً علـــى هـــواه. ولدى اطلاعه على الاستعدادات للاحتفال بعيد القديس يوحنا في توكايا غراندي، قرّر المكوث.

كانت الاستعدادات بحدِّ ذاتها عيداً. وقد شغلت تلك الاستعدادات كل وقت الـــسكان القليلين الذين بدأوا يتكاثرون. وكان رجال القوافل، لدى رجوعهم من المزارع المنتشرة، يعودون معهم بالاحتياجات التي لا تتوفر في قلعة فضول المسلحة: عـــرانيس الـــذرة الصفراء، وجوز الهند المجفّف، والأسهم النارية، ولا نتكلمن عن المـــنطاد لأن هـــذا كـــان سراً بين تيساو وكوروكا ولم يكن أحد حتى الآن يعلم بوجوده.

لـــدى رؤيـــته باستياو دا روزا، ولوبيسينيو، وزي لويس، وبالبينو منهمكين بـــتحويل مكان واسع إلى كومة من الحطب – فإن بيدرو سيغانو تخلى عن فكرة متابعة السفر. وقد فعل ذلك في الوقت المناسب لأن فضول عبد الله كان قد تلقى جواباً من لولو سانفونا يعتذر فيه عن المجيء إلى توكايا غراندي ليعزف في الاحتفال بعيد القديس يوحنا.

باســـتعداده للمـــساعدة دون أن يـــبذل جهداً فإن بيدرو سيغانو أخذ يوجه ويديـــر، ودون أن يـــتعب أخـــذ يذهب من مكان إلى آخر جاهداً نفسه بإعطاء التوجيهات والنصائح، وناقلاً الأوامر إلى الرجال والنساء.

كانـــت النـــساء قد بدأن بالعمل، مساعدات في بناء المرتفع الخشبي، ناقلات الحطـــب الذي كان الرجال يقطعونه من الغابة لإشعاله ليلاً، ويضعن بعض الحطب ضـــمن مـــواقد صـــخرية ليـــضعن عليها لاحقاً الكانجيكا وسواها من متطلبات حزيران/يونيو. وبمساعدة من إيبفانيا فإن كوتينيا المجتهدة كانت تعالج ثمار الجنيبابو

وتقشرها وتنـــزع منها النوى، وتجهزها لتتحول إلى عصير. وكانت كوتينيا تقوم بتلك الخدمات وهي تتذكر طعم نبيذ القداس وفضائل الأخ نونو وما أكثر فضائله: كـــان يناديها بكياسة وبذلك الأسلوب الممتع: تعالي إلى هنا أيتها الملكة الجميلة. وكانـــت هـــي تطـيع وكان هو "يتكلبن" أما بيدرو سيغانو فكان يعرض نفسه ليـــتفحص الطبخة حين توضع على النار، وليقرر اللحظة التي يكون طعمها قد بلغ كماله. إنه ذو ذوق صافٍ، وخبير مرهف بالمآكل والمشارب.

كانوا قد قرروا تجهيز "محرقة" عملاقة في مكان لا يحيطه شيء من شجر أو بـــناء، ثم جعلوها اثنتين، واحدة لكل ليلة. وحين فاض الكثير من الحطب عن الحاجـــة قـــرروا بطلب من ميرنسيا، دعمه تيساو، أن يعطوا بقية الحطب لمن يرغب في أن يصنع أمام بيته محرقة صغيرة لشي البطاطا الحلوة والذرة الصفراء. ومـــن رغـــب أيضاً في أن يأخذ إلى بيته فإنه يستطيع أن يأخذ بعض الكانجيكا وزجاجة من عصير الجنيبابو ليقدم منها لجيرانه قبل أن يأتوا إلى مكان الاحتفال السعيد بعيد القديس يوحنا، لأكل الكانجيكا وشرب الجنيبابو والتلذذ بالمشويات والتمتع برقص الرباعية.

خلال تلك الأيام عرفت دكان فضول حركة غير اعتيادية، وإذا كان التركي قـــد أبدى بعض الامتعاض فإنه، بالمقابل، سارع إلى إمداد الاحتفال بالمواد الجافة والرطبة على السواء مع بعض التباكي.. أما تيساو فقد زاد من عدد المصائد ليكفل الحـــصول علـــى صيد كافٍ ووفير بالإضافة إلى ما جهزه من السفود لشيّ الذرة وجـــوز الهـــند: ولا يمكن نسيان مساعدة النقيب ناتاريو دا فونسيكا الذي تأسف لعـــدم قدرتـــه علـــى المشاركة بالعيد وحل حبال حقيبته ودفع المال باسمه واسم كـــوروكا وبـــرناردا. ومع ذلك فإن المرأتين – ومعهما كل الفتيات الأخريات – شـــاركن بـــبعض المال الذي كن قد كسبنه من بيع أجسادهن وخبأنه في أعماق المخابئ، ذلك برضى وسرور.

تمّ توزيـــع الـــذرة وجوز الهند والسكر والملح بين النساء. وكان كل شخص يتـــنكب هـــذا العمل أو ذاك. ولتنفيذ الأعمال توزعوا بمجموعات تميزها الحيوية: يـــتحدثون، يناقـــشون، يطلـــبون، يضحكون، ينادون لتزويدهم بجرعة كاشاسا يكسرون بها العطش لأنهم ليسوا مصنوعين من الحديد.

لم يكـــن هناك موجبات أو ساعة عمل محددة. لا محسن، ولا "سركال"، ولا ســـيد؛ كـــان فضول وتيساو يوجهان ويديران ويفعلان ذلك بتكتم. لم يكن أحد يأمر أحداً. هكذا حدثت الأمور منذ أن اقترح كاستور أثناء غداء يوم الأحد القيام باحتفال بعيد القديس يوحنا.

لم يكـــن صعباً إقناع السكان بذلك. ففي ذلك المكان النائي الواقع في نهاية العـــالم لم يكن شيء يثير الحماس أكثر من صوت موسيقي منطلق ووقع خطوات الـــرقص وهزّ الأقفية. وكان مثل ذلك نادراً ما يحدث حين كان يمر بيدرو سيغانو من هناك، أو حين يخيم عازف كمان أو قيثارة، ليلة، في توكايا غراندي.

كـــان تيساو يتساءل كيف لا يهبط عليه وحي كهذا. وفي ريكانكافو كانت أعياد حزيران/يونيو تبدأ اليوم الأول منه ولا تنتهي إلا في ليل التاسع والعشرين في عيد القديس بطرس، شفيع الأرامل.

9

المحـــرقة بنت عاهرة. هكذا تماماً: الشعلول في القش، شديد الاحتراق وقليل اللظـــى، يـــبدأ فجأة وفجأة ينطفئ ولا يدوم إلا قليلاً. يلتهب بصورة غير مرتقبة، يـــتوهج، يصل إلى ذروته، ويفقد تلهبه، ثم حيويته وينطفئ. لا يبقى منه شيء وإن دخاناً.

العـــراك الذي تسببت فيه إيبفانيا ودليلة لدى بداية اشتعال كومة الحطب في لـــيلة القـــديس أنطونيو لم يكن عراكاً مثيراً ولكنه أعطى الاحتفال بعض الحيوية. وكمـــا سيتم تبينه لاحقاً فإن من تسبّب في تلك الحيوية كان ميزاييل الذي، برفقة راعيين من البقر، أحدهما متقدم في السن والآخر شاب مكتمل الفتوة؛ كان ميزاييل عائـــداً من إيتابونا: الثلاثة يرتدون أحزمة من الجلد ويمتطون جياداً قوية ويحملون الأســـلحة والمـــال. ألقوا الرحال عند الأصيل في توكايا غراندي. إن عيد القديس أنطونيو حدث كبير ومناسبة للمتعة.

لم يكونـــوا قـــد رقصوا أكثر من خطوات قليلة على أنغام هرمونيكا بيدرو ســـيغانو حـــتى كانـــت إيبفانيا قد تملصت فجأة من ذراعي المعلم غيدو وهددت بتحطيم وجه دليلة التي كانت ترقص مع المدعو ميزاييل الجميل الشكل والذي ينمّ

مظهره عن شيء تحدده حركاته وتصرفاته. وبالمقابل، فإن دليلة ابتعدت عن ثنائيها، ميزاييل، وأجابتها:

- تقدمي إذا كنت حقاً امرأة.

تنحى غيدو وميزاييل جانباً للمساعدة بالتأييد الحماسي:

فمن الذي لا يسحب ولا يقدر شدة شعر بشدة، وصفعة بصفعة، ورمية إلى الأرض برمية، تقوم بها نساء في عراك؟

هاجمت إيبفانيا ببصقة. سددت إلى عين دليلة اليسرى وبصقت فيها مليئاً وتشابكت الشتائم:

- زنجية نتنة! عاهرة!

- عاهرة مصابة بالطاعون. مسفلسة.

كلتاهما زنجيتان وعاهرتان ومسفلستان، ومصابتان بالطاعون، ولكنهما كانتا زنجيتين ذات قدر، متميزتين، وأميرتين في المكان. وفي توكايا غراندي، لبلوغ مركز أميرة أو عرش ملكة - عرش برناردا مثلاً - لم يكن الأمر يقتضي الشيء الكثير، ويكفي أن تكون الواحدة جميلة أو ذات تربية مرهفة مختلفة عما هو شائع في تصرفات النساء الأخريات. على كل حال كانت الاثنتان تنفران الواحدة من الأخرى، وتتقاسمان الغيرة والحسد.

مدّت دليلة يدها التي نظفت بها عينها من البصاق وهوت بها على وجه إيبفانيا، وشدّت الواحدة بشعر الأخرى، وتبادلتا الرفسات، ومضتا بالشتائم والتطاعن بالأظافر. وتشكلت حول الاثنتين حلقة من المتحمسين، المعجبين بالعراك، المتأملين فيما يحدث.

- إني أراهن على أم القفا - تحدى ميزاييل إكراماً للتي كان يراقصها.

- إني أراهن على قطعتين من النقود - قبل بالرهان إذ ليس غيدو أقل فروسية.

دون أن يتوقف عن العزف، وقف بيدرو سيغانو عن المقعد الخشبي الطويل، تحفة النجار لوبيسينيو، حيث كان يجلس برفقة زليخة وانضم إلى الحلقة. وبالرغم من أنه كان مفلساً فإنه جازف على إيبفانيا متأكداً من نتيجة العراك. ووافق باستياو دا روزا على الرهان بروح رياضية لتزكية الحماس دون أن يترك العنان لأوهامه بأنه سيحصل على أربعمائة ريس لأن بيدرو سيغانو كان مديناً لله ولنصف العالم.

وفقاً لرأي غيدو فإن الرهانات كلها قد ألغيت عندما دخلت زليخة إلى الحلبة أمـــام دهـــشة الجميع. كانت دليلة على حافة الانهيار، إذ كانت إيبفانيا قد بدأت تنــــــزع عـــنها تنورة الشيت عارضة قفاها على مرأى من الجميع، ودون أن تعلم كـــيف تقوم بردة الفعل شوهدت دليلة على وشك الانسحاب من ساحة المعركة. في هذه اللحظة وقد وقفت هي الأخرى على المقعد الخشبي شوهدت زليخة تهاجم إيبفانيا برفسات قوية من رجليها. وإذ أحست دليلة بأنها مدعومة وقفت مع قفاها العاريـــة وانقـــضت من جديد لتهوى على عدوتها. أما المتجمعون في الحلقة فقد صفقوا مع الهتافات العالية والصفير.

- اثنتان ضد واحدة، حقيرتان، جبانتان. سألقن الاثنتين معاً.

ولكـــن إيبفانيا لم تهاجم وحيدة، وها هي الصغيرة كوتينيا، مؤيدة لصديقتها، تدخل في العراك كاشفة عن شجاعة غير متوقعة؛ دارت النساء الأربع فوق بعضهن أرضاً؛ وبالإضافة إلى قفا دليلة شوهد صدر إيبفانيا وقد انقطع خيط الصدرية.

عـــندما تدخلت زليخة عرف السبب الحقيقي في العراك: لقد كان كاستور أبدووين دا أسونسيون راضياً عن نفسه، وفي أعلى درجة من التقدير لذاته.

مـــن أجله كن يتنهدن ويتشاتمن ويتعاركن. وتمّ تدخل حسم الموقف عندما تقـــدم الزنجي من المرتميات أرضاً، المتسخات، المبصوق عليهن، شبه العاريات وأمر دون أن يرفع صوته:

- يكفي لهذا اليوم، أيتها الفتيات، وتعالين لنلهو.

وارتفـــع صوت الموسيقى من جديد مع كثير من الحماس الذي لا يقاوم. وإذ أدار ظهـــره لذوات الحركات الغليظة فإن الحداد العاق، حذّاء الحمير، مدَّ يده لميرنسيا، المرأة المتزوجة التي كانت تستنكر كل ما حدث، وذهبت معه إلى حلـــبة الـــرقص. أعادت دليلة ارتداء التنورة وعادت إلى ذراعي ميزاييل، أما إيبفانـــيا فعادت إلى غيدو. وسحب فضول الصغيرة كوتينيا: لقد كان التركي أكـــبر من الأخ نونو دا سانتا ماريا، ولكن القياس لا يخيف إذا كان من يعرضه شخـــصاً تربى على خدمة الله في الأعالي. وبخطوتها المعتادة لم تبدُ زليخة كأنها خارجـــة من عراك عندما قبلت دعوة باستياو دا روزا، اللحية الذهبية، بعدما خلعت نعليها.

وبينما هو يطلق العنان للهرمونيكا هاوياً برجليه على الأرض ليحدد خطوات الرقص، كان بيدرو سيغانو يرقص وحده بين الجميع. لم يحس أحد بغياب العازف لولو سانفونا. لقد بدأت الحيوية في عيد القديس أنطونيو تتوقد.

10

ويلاه – لقد توقدت الحيوية بأكثر مما هو معقول على أنغام سيغانو. و لم تقف الخلافات عند حدٍّ بعض الصفعات والشد بالشعر بين الفتيات؛ لقد حدث ما هو أكثر من هذا وأسوأ. لقد حمي وطيس التوقد، وأصبح الأمر قاتماً ولكن في اللحظة الحاسمة سمع الجميع إعلاناً غير متوقع. كان على العربي فضول عبد الله أن يذيعه فجاء وقعه العاصف قوياً على الجميع باستثناء الحداة الذين يرتدون السترات الجلدية المصبوغة بالوقاحة. كان الإعلان كفاية عن كلمات بسيطة – وفي الوقت المناسب يمكن معرفتها – انحفرت في القلوب وسارت في العروق مع الدماء.

عادت المماحكات الكلامية إلى الظهور بين غيدو وميزاييل، وكانت بسبب الرهان الذي وضع خلال عراك النساء. ولسبب غير معلوم، أو دون سبب، وبغية الإثارة حسب، فإن ميزاييل بعدما جرع عدة جرعات أعلن دليلة منتصرة وطالب بالدفع الفوري.

تعجب الجميع في هدأة قصيرة من الموسيقى بينما كانوا يشربون الجنبيابو الذي صنعه كوتينيا طيباً وقوي المفعول. ووصلت المماحكات إلى التراشق بالكلمات البذيئة والتهديدات التي لم تُنفَّذ لأن فضول قرّر التدخل. لقد اعتاد فضول مثل هذا التدخل أثناء تحديات وعراكات عنيفة. وكان فضول يفض الخلافات ويكفيه لذلك استعمال سلطته المعنوية: صاحب مخزن، وإن لكثيرين منهم. وعندما يقتضي الأمر كان يلجأ إلى قوته الجسدية.

ودون أن يأخذ بالاعتبار وجود رعاة البقر الآخرين الملتزمين بالصمت والشعور العدائي، وبيديه القويتين، أبعد فضول الاثنين عن بعضهما بعضاً وهو يشد بأصابعه الضخمة على كل واحد منهما:

– هنا في الداخل، ومن يتعارك إنما هن النساء فقط. أما الرجل، إذا أراد العراك فهناك، بعيداً، ويستطيع أن يقتل إذا شاء. هنا قاعة رقص – أفلت الاثنين

مـــن يديه ونظر إلى رفيقي ميزاييل، المتقدم في السن والشاب، ثم توجه بالكلام إلى بيدرو سيغانو:

– أين الموسيقى يا ابن الله؟

وبيـــنما كان يتمتم لمصير القطعتين النقديتين – خذهما، لا أحتاج إليهما، ضــعهن في قفـــاك – ابتعد ميزاييل وتبعه المأموران الآخران. ولحسن الحظ أن غيدو لم يسمع التعليقات لأنه، إذا كان لم يتعود إثارة أحد، فإنه إذا أثير لم يكن يهـــرب بل يواجه. إن الجبان لا يأتي إلى أرض الكاكاو بل يموت في المهد عند أول زيارة ذل.

كـــان الليل ومعه العيد قد تقدما عندما انفجر حوار في ركن من المكان قليل الحـــركة. من جهة رعاة البقر الثلاثة: الرئيس ميزاييل، والمتقدم في السن توتونيو، والـــشاب إبريجيو، ومن جهة ثانية ثلاث نساء: برناردا، دليلة ومرغاريدا كوتو. ما كـــان يبدو في البدء بسيطاً وطبيعياً هو نيَّة الرقص، ولكن الأمر لم يكن بشيء من هذا. لقد كان قراراً أراد الحداة الثلاثة أن يفرضوه. لأنهم كانوا ينوون على السفر عند الفجر، لكسب الوقت، فقد فرضوا على النساء الثلاث أن يتوقفن عن الرقص حـــالاً، لأنهم غير مزمعين أن يغادروا توكايا غراندي دون أن يشفوا غليلهم. كانوا علـــى عجلة من أمرهم ولا يستطيعون الانتظار إلى أن ينتهي الاحتفال: فالانتظار يعني البقاء حتى الصباح.

أمـــا العاهـــرات، وبتأثير من حمية الاحتفال، فكن قد قررن إقفال مطارحهن والامتـــناع عن استقبال الزبائن في ليالي حزيران/يونيو الاحتفالية: العيد هو العيد. كـــن متكيفات بالاستئناس والرقص والشرب والضحك، والغزل إذا اقتضى الأمر. إنهـــا ليست ليلة كسائر الليالي التي يتخمن فيها ويعرقن على صدر غريب ويتنهدن دون الـــرغبة في ذلك، ويتمتعن بالتظاهر – وهكذا رفضت النساء الثلاث بصوت واحـــد العـــرض الذي قدمه راعي البقر ومساعداه: اليوم لا! واتركوا الأمر لليلة أخرى. اليوم غير ممكن مقابل أي مبلغ من المال.

كـــان ميـــزاييل قد اختار دليلة، وترك برناردا للمتقدم في السن، ومرغاريدا للـــشاب الآخـــر. وكـــان العجوز يلحس أصابعه شبقاً، وأما الشاب فلم يحتر في الاختيار والسبب هو أن ابن الثامنة عشرة يهضم ما يتوفر ويطلب المزيد.

لم يفـــد بشيء تفسير دليلة ورفض مرغاريدا، وكذلك موقف برناردا السلبي: إن "مطارحنا مقفلة يا جدي" ويجيبها صوت العجوز مخنخناً: "نحن نفتحها"

كـــان الحـــداة مستعجلين جداً والوقت قصير.. ويحك، قالت برناردا عندما حاول العجوز توتونيو أن يأخذها إلى الخارج. أما ميزاييل الذي كان يمسك بدليلة من رقبتها فقد عيل صبره فأعلن:

– إذا لم تأتين بالحسنى فستفعلن عنوة يا سيداتي العاهرات.

وسكتت الموسيقى ريثما يرطب بيدرو سيغانو حلقه ويروي عطشه ببلعة من الكاشاســا، وسمعـــت عندئذ التهديدات في كل أرجاء المكان، فتقدمت الفتيات بفـــضول، أما ميزاييل الطيب، الغني، الفارس، فقد ظنَّ أهن يعرضن أنفسهن مكان المحظوظات الثلاث:

– لقـــد اخترنا ولا نحتاج إليكن: – وعاد يوجه كلامه إلى المضلات وحاول أن يسحب دليلة: – هيا.

تقـــدمت إيبفانيا خطوة إلى الأمام، والعرق ينسال على جلدها الأسود، وأمام رعاة البقر صعد صوتها قوياً تفح منه رائحة الليكور:

– لا هـــن ولا نحن، ولا أية واحدة أخرى ستتخلى عن الحياء لنذهب معكم. ألا تـــدري أننا مقفلات المطارح؟ اذهبوا، وضعوا في أبقاركم، إذا شئتم – لكي لا تفقد العادة، وأيضاً لكونها كانت قد أفرطت في شرب الجنيبابو، فإنها بصقت على الأرض وفركت البصقة بحذائها.

إن الـــرجل الـــذي يحتـــرم نفـــسه لا يحمل معه إلى البيت إهانة رجل، فكم بالأحرى إهانة بنت هوى؟ وأعلن ميزاييل قبل أن يتصرف:

– هـــؤلاء الثلاث سينلن اليوم، شئن أم أبين، وأنت ستنالين على وجهك يا زنجية البراز.

وأخرجت الصفعة صدى في النواحي الأربع من القاعة – قاعة الرقص؟ هكذا كـــان اللبـــناني يسمى مكان الرقص، "قاعة رفاهية لا عراك" وإزاء الصفعة القوية فقـــدت الزنجية توازنها، أما الصفعة الثانية فقد رمتها أرضاً وسال من وجهها خيط دم متواصل.

– ابن العاهرة: – زعقت دليلة ووثبت كذئبة.

11

- ابن العاهرة: - رددت برناردا وتقدمت هي الأخرى.

عندما انتبه رعاة البقر إلى ما حدث الآن كانوا قد أحيطوا بأنواع من غضب جهـــنم. وإذ كانت قد انطلقت للدفاع عن إيبفانيا فإن دليلة انقضت على ميزاييل محاولـــة أن تخـــنقه. لم يعـــد هناك خصومات وغيرة، قد نسيت العاهرة الصفعات والمشادات في بداية العراك الأول.

الآن، أخـــذت المعركة طابعاً آخر؛ إنها حرب الزميلات بنات المهنة الواحدة. اجتمعن جميعاً، ودون استثناء، لمواجهة الحداة، ولرفض القرار الذي أراد رعاة البقر فرضـــه علـــيهن: إذا لم يكن قادرات على غلق مطارحهن متى شئن، وإذا لم يكن ســـيدات مطـــارحهن فماذا يبقى لهن من الحياة؟ كل اللواتي كن يمارسن المهنة في تـــوكايا غراندي كن موجودات هناك: دليلة، إيبفانيا، برناردا، زليخة، مرغاريدا كوتـــو، مارينيا كينـــزي أروباس، دروتيا، تيتي، وسيلفيا برنامبوكو، متضامنات متعـــتعات ســـكراً، ولم ينقص من اللائحة سوى اسم جاسنتا كوروكا لا بسبب النـــسيان بل بسبب التقدير والاعتبار لها: وحدها كانت تساوي جميع الموجودات هـــناك. وعندما حاول إبريجيو الشاب، قليل الخبرة، أن يهدد بشهر مسدسه وهو يظـــن أنـــه يستطيع بذلك أن يتجنب عضّ الأسنان وتجريح الأظافر، فإن كوروكا نالـــته لـــبطة على خصيتيه. وسمع صراخ الشاب على بعد ثلاثة فراسخ على ذلك بعينيه وأذنيه.

أمـــا العجوز توتونيو المسكين الجدير بالشفقة فإنه أهين أكثر من سواه. كان يأمـــل في أن يـــنال من برناردا فرأى حلمه ينهار ووجد نفسه متضايقاً من ذلك. وبيـــنما كان يشدها من زنارها انتهى إلى أن يلقيها أرضاً؛ كان يسعى إلى أن يمس صدرها ويرفع تنورتها، مستعداً، يعلم الله، لأن يفعل فيها هناك بالذات وعلى مرأى مـــن الجمـــيع. بدا كأنه قد جن، وأخذ يرتجف كمن أصابته حمى مالطية. وكان يحاول أن يعطي صوته بعض النعومة: - هيا.. ثم يسمع صرير أسنانه لإعطاء الأمر: هـــيا! ونـــــزع عنه حزام الجلد ليصبح أكثر حرية في الحركة. وكان ذلك خطأه الأكبر. لقد فقد الاحترام الذي يفرضه حزام الرصاص. عندئذ استفادت برناردا من الفرصـــة لتتخلص منه، وقبل أن يتمكن توتونيو من الوقوف ألقت ماريتيا كينيزي

أروبـــاس ثقلها فوق قليل الحظ وانهدت الأخيرات فوقه. وإذ بدأ يتأسف على آخر بريق أمل، وإذ لا يزال مطروحاً أرضاً صرخ العجوز حين رأى برناردا تنقض على ميزاييل.

– إبريجيو أمسكها إلى أن أجيء.

كيف يستطيع الشاب أن يمسك ببرناردا إذا كان قد التوى على نفسه وأصبح اثـــنين وهـــو يدافــع عن خصيته من رفسات كوروكا؟ أما مسدس الشاب فإن كوروكا أخفته بين ثدييها تحت الصدرية: إن إبقاء السلاح في أيدي الصغار مجازفة تقود إلى الموت.

كـــل شـــيء كـــان يحدث في الوقت نفسه، وخلال دقائق معدودات. كان ميـــزاييل يحـــاول أن يتخلص من الحلقة المحيطة به والتي تزداد عداء، وإذ كان قد تعرض لجروح من الأظافر، وبصقات عديدة من أفواه الثائرات، فإنه سدد لكمة إلى وجـــه دليلة تلقى مقابلها رفسة من قدم. إن من يعارك عاهرة لا يفكر جيداً، لأنه ضعيف العقل.

12

بالـــرغم مـــن سحنة فضول المتجهمة، ظل ميزاييل واثقاً من نفسه، مبتسماً، عـــندما شـــاهد الرجال يتجهون نحوه. كان متأكداً من أنه سيجد عندهم التفهم والتقدير، ومساعدة لإخضاع تلك العاهرات المتمردات على القيام بواجبهن الكامل تجاه السيد ابن العاهرة: يجب تأدية الواجب تجاه الأمر الذي يدفع ودون مناقشة أي ظـــرف أو أفـــضلية. إنه لا يتخلى عن هذه القاعدة. فأين رأيت امرأة عامية ذات إرادة تفرضها وتوقيت لساعة عمل، ويوم راحة؟

كـــان العربي يتقدم، غاضباً: ودون لماذا، وكيف. وراحت الفتيات، الواحدة تلـــو الأخرى يبتعدن عن حلبة الرقص تاركات الرجال لتصفية الحسابات، كما لو أن العيد قد انتهى في قمة توقده. وصرخ العربي في النساء.

– ماذا تفعلن هنا؟

ولكـــن حـــين انتبه إلى ما كان قد حدث، توجه إلى ميزاييل: إن الصديق لا يتوقف عن إثارة المتاعب! جئت إلى هنا من أجل أي شيء؟ سننتهي من هذا اللغط.

كـــان هنالك هدنة مؤقتة، فتركت الأظافر والصفعات مكاناً للنقاش. وأخذ راعي البقر يظهر نفسه بمظهر حسن النية، فكيَّف صوته:

- نحـــن لا نـــريد إثارة المشاكل. إننا لا نريد غير بعض العاهرات يأتين معنا ليروين ظمأنا.

- إنهـــم يـــريدون أن يأخـــذوا النساء عنوة ولكننا جميعاً نرفض ذلك لأننا مقفلات مطارحنا.

قاطعت إيبفانيا والدم يسيل من فمها.

- لا اذهب معهم وإن ميتة... أكدت برناردا.

- العاهرة لا إرادة لها: - أجاب العجوز توتونيو وهو يقترب من المتوعدة.

وأوقفت كوروكا الضرب على رأس الشاب:

- نحـــن عاهرات لا عبدات: - قالت ذلك ونظرت إلى فضول عبد الله كأنها تتحداه: - أليس كذلك يا سيد فضول؟ أم أنك تفكر مثلهم؟

مقتنعاً بمساعدة الرجال، ومعتبراً نفسه عقلانياً، ومستعداً لأن يدفع ثمن دورة كاشاســـا قبل أن يغيب عن المكان مع الحاديين الآخرين والفتيات المختارات، فإن ميـــزابيل بدا مندهشاً عندما سمع صوت الزنجي كاستور أبدووين يسأل ويؤكد: - ألا تعلمـــون أن العـــبودية قد انتهت منذ أكثر من عشرين عاماً؟ إنهن سيذهبن إذا أردن، وإذا لم يردن سيبقين.

نظـــر ميـــزابيل حـــوله مجيلاً نظره من تيساو إلى زي لويس، ومن بلينيو إلى باســـتياودا روزا، مـــن غـــيدو إلى لوبيسينيو، من جيرينو إلى فضول، ومن حراس مـــستودع الكاكـــاو إلى رجال القوافل والمارة، فإلى بيدرو سيغانو ومعه ميرنسيا الضخمة الفظة، وأخيراً ألقى نظره على حداد حدوات الحمير:

- لم يكـــن مفروضـــاً أن تنتهي العبودية حتى لا يكون هناك زنجي متجرئ مثلك. لا أعرف لماذا لا أحطم وجهك. ثم نظر إلى الآخرين:

- إذا كنتم لا تريدون الوقوع في مشكلة فلا تتدخلوا.

عـــندما رفـــع يده إلى زناره العريض فإن العجوز والشاب أحاطا به مؤكدين التهديد. وقبل أن يشهر راعي البقر مسدسه، فإن فضول، بعدما ابتسم لكوروكا، تكلم بلهجة جدية كما لو أنه كان يتحدث بهدوء ولا يفرض أوامر.

– اترك سلاحك بسلام يا سيد ميزاييل: أليس هذا هو اسمك؟

وحـــاول أن تنصرف من هنا في الحال قبل أن يصبح الوقت متأخراً: – ونظر فضول إلى الناحية الأخرى موجهاً كلامه إلى الزنجي: – ابقَ هادئاً يا تيساو.

وإذ لا تزال يده عند الحزام تشككك ميزاييل من الأمر:

– هل تريدون أن تتعاركوا من أجل هذه العفنات؟

– إذا كان الصديق يرمي إلى إجبارهن فإننا سنقاتل. أعرف شيئاً واحداً. هنا، الأمر كذلك: من يعتدي على واحد فقد اعتدى على الجميع. – هكذا هو الأمر، إذا لم يعجـــبك فتدبـــر نفـــسك بنفسك: – تدخلت ميرنسيا الواعية كونها امرأة متـــزوجة والـــتي لم تقم بجوار حي العاهرات لتبقى بمنأى عنهن وتفرض الاحترام. وكانـــت قد وضعت يديها على خصرها مشترية العراك كما لو أن التائهات كن أقارب لها، بنات عم وأخوات.

واختصر فضول.

– إنها القاعدة في توكايا غراندي.

حـــتى لـــو لم تكن تلك هي القاعدة المعمول بها، فقد غدت كذلك في هذه اللحظـــة. أمـــا ميزاييل، الغني، الفارس، الطيب، فلم يكن قادراً على التراجع عن موقفه:

– إني لا أكترث بقاعدتكم.

و لم يكـــد يـــشهر مسدسه حتى كان تيساو قد انقض عليه يرافقه الكلب ألما بينادا الذي غادر مكانه تحت المقعد الخشبي ذلك المكان الذي كان قد اختاره ليغفو على أنغام الهرمونيكا. وأخذ الكلب يحدق في الصديق وفي العدو.

عـــند هذه اللحظة أصبح المشهد ممتعاً. فقد أمسك فضول عبد الله بالعجوز توتونيو من قميصه ومن وسط بنطاله ورفعه في الهواء ثم رماه بعيداً. أما النساء فقد اســـتمتعن بنـــــزع الملابس عن الشاب إبريجيو؛ مع هذا العدد الكبير من الرجال الـــذين يودون المشاركة غدا الأمر ضرباً من الجبانة. لذلك حاول غيدو جاهداً أن يحـــتوي غـــضبه: وراح يتوسل إلى كاستور أن يترك له ميزاييل ليصفي حسابات ســـابقة معها. ولكن تيساو كان مستمراً في عمله ليهدم وحده الغنى، والفروسية، والطيبة التي يتمتع بها الحقير المعتد، وليعلمه أيضاً قيمة الزنجي المتجرئ.

وكان الكلب قد أخذ يقفز حولهما نابحاً عاضاً.

وبينما هو يخرج ليكفل هروبه فإن العجوز توتونيو أطلق رصاصة: لم يتذكر أحد أن ينتزع منه السلاح القديم الذي كان يحمله فاستقرت الرصاصة في صدغ كوتينيا.

13

في شبكة العمل والنوم، هدية زي لويس في أزمنة الازدهار، وضعوا جسد كوتينيا وحملوه إلى المقبرة البدائية حيث أخذت تنمو أشجار الكمثرى، وأقراط الموز، وتنضج البيتانغا بلون الدم. كانت قد أمطرت طيلة الليل، وأثناء الاحتفال والعراك. ولكن عند الصباح توقف المطر عن الهطول وجاءت الشمس لتحضر الجنازة.

عند الفجر ذهب بعض الرجال وحفروا حفرة تحت شجرة كاجو مزهرة. القبر عميق وهو الأول الذي تم حفره منذ غدا المكان يحمل اسم توكايا غراندي.

وازن كاستور ولوبيسينيو على أكتافهما جانبي عصا الخيزران التي أدخلت في الشبكة وسارا بها. كانت مرافقة الجثة مزيجاً من الدموع والضحكات، وراحوا يشيرون إلى الميتة بالخير، والوفاء، وإجادة صنع الحلوى وشراب الجينيابو. في صمت المسيرة إلى المقبرة تذكر الزنجي تيساو تفاصيل المحادثة، ودير سان كريستوفار، ونبيذ القداس، والنصب الكبير والأخ نونو وهو "يتكلبن"؛ ابتسم للذكرى وفي لحظة إنزال الجثة إلى القبر، سأل:

- من يعرف صلاة ما؟ لقد عاشت في دير وكادت تصبح راهبة. يستحق الأمر عناء الصلاة من أجلها.

قاموا بأكثر من محاولة ولكن لم يكن أحد يعرف صلاة كاملة من البدء حتى الأخير، وإن "السلام عليك يا مريم" أما ميرنسيا فقد غفرت للخاطئة كما توصي وتأمر الرحمة، ولكن ليس إلى حد مرافقتها إلى المقبرة. ومع ذلك فإن روح كوتينيا لم تصعد إلى السماء - حتى وإن يكن للعاهرات سماء - فلن تدخلها بدون وساطة من يفتح لها الأبواب إلى هناك.

وإذ كانوا يرددون مقاطع من "أبانا الذي في السموات"، ارتفع صوت فضول عبد الله الجهوري. في طفولته كان شماساً في خدمة عمه في القرية اللبنانية وأنشد

بالعـــربية بحـــنان متماوج ما يجعل السامع راغباً في البكاء. ولم تستطع إيبفانيا أن تمسك نفسها عن التنهدات.

وما كادوا يعودون حتى اختفت الشمس وعاد الشتاء.

14

لم تنتظـــر إيبفانيا نهاية الشتاء لتغير المكان. لقد تمتعت بعيدي القديسين يوحنا وبطرس، وقالت لمن يريد أن يسمع أنها لم تتمتع في حياتها بهذا القدر.

في ليلة القديس يوحنا أشعلوا النار أمام الأكواخ المتعددة وزار الجيران بعضهم بعضاً. وأضيء الفضاء باللهب، والأسهم النارية، بألوانها الزرقاء والخضراء والحمراء الـــرائعة الجمال، وأكلوا وشربوا حتى التخمة واعترفت الفتيات متعتعات: ليس من راقـــص رباعـــية يمكن قياسه بكاستور أبدووين: ألم يكن الزنجي حاذقاً في غرائب الأمور. وأشعلت إيبفانيا كومة حطب مع زليخة وغدت الاثنتان صديقتين.

أمـــا اللحظـــة المهمـــة فكانـــت في إطلاق المنطاد - المفاجأة التي أعدها تيساو وكـــوروكا. كانت تمطر خفيفاً. وملأوا المنطاد بدخان كومة الحطب الكبرى والجميع مـــتحلقون حوله. أشعلوا الفتيل فصعد المنطاد إلى السماء وضاع فيها. وقبل أن يختفي أصبحوا لا يميزون بينه وبين النجوم القليلة: لقد كانت النجمة الكاذبة أجمل النجوم.

بعـــد عـــدة أيام عندما رأى كاستور إيبفانيا تنتظر مستعدة للرحيل، كانا قد قضيا الليلة الماضية معاً. وبينما تضع هي صرتها على رأسها:

- إني ذاهـــبة الآن يا تيساو - كانت تريد أن تستفيد من وجود قافلة اليزيمو حتى لا تسافر وحيدة.

لم يطلب منها أن تبقى، واكتفى بالقول:

- سأتذكرك طيلة حياتي.

مـــدّت إيبفانيا رؤوس أصابعها. حافية، الصرة على رأسها، وتمثال صغير أهداها إيـــاه، بيدها، التحقت إيبفانيا بالقافلة ووجهتها كاراكاس، ورافقها الكلب ألما بينادرا لمسافة طويلة، ولكنه حين علم بأنها منصرفة نهائياً غيّر طريقه وعاد ليستلقي قرب دفء النار. كان الكلب لا يزال ضعيفاً وبشعاً، ولكنه كان قد تكشف عن موهبة في الصيد والشجاعة؛ وظل يحرس محل الحدادة وخطوات تيساو.

النقيب ناتاريو دا فونسيكا يلتقي بعائلة من السرجيبيين ويقودها إلى توكايا غراندي

1

حـــتى يمكن اعتبارهم حجاجاً إلى تلك البقاع كان ينقصهم، وهم يسيرون، الأناشـــيد الدينية والكلاب المرافقة. فكّر النقيب ناتاريو دا فونسيكا بذلك وقد لمح القافلة تسير.

في شـــبابه الـــذي عاشه مشرداً، لم يرفض ناتاريو المشاركة في الاحتفالات بالأعاجـــيب في حفـــر نهر سان فرانسيسكو حيث ولد. لقد عمل دليلاً لأعمى، وأغـــرم بامرأة عامية وأخلص لها، وكان حيوياً نشيطاً فوق مطيته، وركب جواد الـــرؤيا والوحـــي وكان ديوسكوريدس يسير غير آبه بالمخاطر، إلى يوم الحساب، محـــتجاً على العقاب في نهاية العالم. وخلفه على الجواد، بدلاً من بوق القيامة، كان كبير الملائكة رديفه يحمل بندقية قصيرة المقبض ويمارس التصويب.

شـــريك في مآتم الجرحى، رسول يذهب ويعود بالأخبار، يحرسه عيسى الطيب والأم العـــذراء، وبـــتلك الحراسة بلغ التحدي أقصى أقاصي الرعب، ورقص في عيد المفارقين الحياة، ومسحت جبهته برماد الصيام الأربعيني، وأحرق يهوذا في الهاليلويا؛ مع يهوذا لم يبقَ للشعب غير قامتة الأعاجيب ودفع الوعود - آه يا أرض الفقر والشقاء! في حدود الكاكاو لم يكن هماً لك مجال للمسيرات الدينية والأعاجيب الإلهية.

2

كانت مطايا السرجيبيين تتوالى من الجهة الأخرى لنهر الأفاعي وقد اجتازت الطـــريق إلى هـــنا عبر الغابات، وكانت المزارع الحديثة قد أعلنت عن حاجتها إلى

عمـــال. وبيـــنما هم يمرون مروراً على دكان فضول، كانوا قد تحمموا عند مجرى النهـــر، واستحـــصلوا على المعلومات. ومن المال الذي عدوه تكراراً كان قد بقي لدى بعض الجامحين النقود الكافية لامرأة. يا له من مكان جميل، ذلك المكان.

في الـــوطن "ســـرجيبـــي"، الـــشقي، لهؤلاء، كانوا يسمعون أخباراً رائعة، وروايـــات بديعـــة عن أراضي جنوب باهيا وعن زراعة الكاكاو. أرض خصبة، والكثير منها لا يزال غير مملوك - وكان يكفي أن يمتلكوا منها - والزراعة لا مثيل لهـــا هناك وتساوي منجم ذهب. ومن كان لديه طموح، ومستعداً للعمل، وعليماً بالاســـتفادة مـــن هـــذا الطالع غير المنتظر، يستطيع أن يثري! وكانوا يرددون في المعـــارض الشعبية أخباراً عن حالات أكيدة، ويعطون أمثلة هي البراهين الساطعة بعيـــنها، وكلها حقائق لا تقبل الشك. وكانت قصة العقيد أنريكي باريتو، ملك الكاكـــاو تنـــتقل من لسان إلى لسان، وتسري من أذن إلى أذن! عندما خرج من خدمة سيماوودياس كاد الجوع يقتله. كان قد بدأ حياته أجيراً، وبعده رحل قوافل، يحدو الحمير ليل نهار. ثم أقام له دكاناً على طريق ريسيفي لبيع الكاشاسا والذخيرة فجمـــع المال الضروري لشراء قطعة صغيرة من الأرض وجعلها حقلاً من الكاكاو، ولمـــا أنـــتجت الأرض أصبح طاقة مالية هائلة. إن ملك الكاكاو، العقيد أنريكي باريتو، الذي ولد ونشأ في شقاء سيماوودياس، كان في أعياد نهاية العام يرسل بعض المـــال إلى أقاربـــه يسدون به الرمق في سرجيبـــي. أما هو، العقيد، فقد غدا من سكان المدينة.

على الطرقات وفي المساكن الوعرة كانت زمر الشباب في اتجاه جنوب باهيا وقـــد تخلوا عن حقول الإقطاعيين والمدن الصغيرة الميتة، إذ لا يكادون يبلغون سن الرشد حتى يكونوا قد فقدوا كل أمل في العثور على عمل وراتب.

وداعاً يا أبي، وأمي، أعطياني بركتكما، سأذهب للإثراء في إيتابونا، وداعاً يا زوجـــتي وأولادي، إني أتقدم لأكسب المال في إيلايوس لأجمع لكم تكاليف السفر لاحقـــاً.. وفي أكـــياس الجلـــد التي يحملونها، كما في قلوبهم أيضاً، كانوا يحملون الوصـــفات ضـــد الحمى ولدغات الأفاعي، ويحملون الذكريات والنصائح ووجوه الأحـــبة والدمـــوع والتنهـــيدات. وكـــان الوالدان والزوجة والأولاد يبقون في سرجيبـــي على الوعد وبالانتظار، وكلها أسباب وهمية لحياة يمضيها الشيوخ ببطء

ومـــع القلق على الجنون الذي لا حدَّ له، وكان الأبناء ينتظرون بلوغ سن الوداع والرحيل.

علـــى الطرقات كان يمكن مشاهدة القلة من المتزوجين وأقل منهم مما ينقلون معهـــم أطفـــالاً.. ونادراً جداً يمكن العثور على عائلة متعددة الأفراد، من الذكور والإنـــاث، والطاعنين في السن والشباب، والجدود والأبناء والأحفاد. ومع هؤلاء، كـــان يحـــدث أنهـــم، معـــاً، قـــرروا القيام برحلة، وقرروا أن يبقوا معاً في كل الاحـــتفالات. كيان عريق ذو جذور قوية وروابط دموية عميقة تجمعهم، ولكنهم كانوا ينتهون إلى التبعثر في حقول الكاكاو، ومطابخ البيوتات الكبيرة، والكمائن، وبـــيوت العاهـــرات. وإذ تكون الروابط قد انتهت فإن قيماً جديدة كانت تقوم لتفرض نفسها.

كانـــت العـــادات وأنواع الاحتفالات والبكاء تتناقض عندما تجتمع، وكان السرجيبيون يمتزجون بأهل الداخل. وتتمازج مع ذلك اللغات واللهجات والروائح والمسالك والصلوات والأناشيد والرقيات.

وإذ كان السرجيبيون مجتهدين وعنيدين فإنهم ملأوا أرض الكاكاو. ولم يكن يـــنقص العمـــل، وكـــان الإثـــراء ممكناً: ولكن الإثراء كان مادة للحلم ومسكناً للأوجـــاع ودعوة للتخلي عن مطارح العوز والرحيل بعدها. كما أن السرجيبيين كانـــوا قـــد حافظوا على التعاون والتعاضد فيما بينهم وكانوا يساعدون بعضهم البعض في أي وقت سمحت به الظروف.

كـــان البعض عندما يصلون إلى إيلايوس يحملون معهم عنواناً أكيداً: عنوان مـــزرعة أحـــد مواطنـــيهم، وهو عادة عقيد ذو شهرة في الإثراء تغذي الأحاديث والأحلام في أيام الفقر في المدن الخالية من الرجال.

عندما هرب ناتاريو من بروبريا، جاء معه بتوصية من أحد أقاربه للعقيد بوافنتورا أندرادي. في مناحات المجازفة والمخاطر، يغدو مفضلاً منح الثقة إلى مواطن.

3

أوقـــف النقـــيب ناتاريو دا فونسيكا خطى مطيته قرب المجموعة الغامض أمرها ليحيـــي العجوز بشكل متلائم، فرفع العجوز قبعته ليسأل عن أمر. أراد أن يعلم ما إذا

كانوا يسلكون الطريق الصحيح الموصل إلى مزارع القائمة في أراضي نهر الأفاعي، وإذا كان صحيحاً القول إنهم بحاجة إلى عمال في تلك المزارع. إنها الحقيقة، أجل:

– إن القطاف سيبدأ، والديافير بدأت تنضج وأنه لأمر ممتع النظر إليها.

لم يكـــن محتاجاً إلى السؤال ليعرف من أين كانوا قادمين، ولكنه سأل ليمد بالمحادثة:

– هل أنتم سرجيبيون؟

– أي نعم.

– وعائلة واحدة؟

وراح يعد الموجودين بنظره: ما عدا المتزوجين الثلاثة، الشاب الطويل القوي والطفلـــة ذات السنوات القليلة، والفتى الذي حمل معه دبقاً لالتقاط العصافير. أما المـــرأة ذات المـــنديل فإنها كانت تحمل طفلاً ذا أشهر من العمر، والأخرى، شابة، كانت حاملاً. عشرة أحياء وقريباً يصبحون أحد عشر.

– أي "نعم"   كلنا عائلة واحدة.

– من أين قدمتم؟

تأخر العجوز قليلاً في الإجابة – وماذا لو يكون النبأ قد وصل إلى هنا؟ ومع ذلك قرر الإجابة:

– لقد وصلنا من مكان قريب من ماروين. هل سمع السيد بهذا المكان؟

– مررت من هناك عندما أتيت منذ زمن بعيد. إني في الأصل من بروبريا.

توقفـــوا منتبهين وهم يرافقون الحوار. وبينما توكأت على غصن شجرة، فإن العجوز الضعيفة، البائنة العظام، والوجه المجعد بسبب الغبار أكثر منه بسبب العمر، اقتـــربت خطوة من الفارس ورافقتها المرأة التي تحمل طفلاً ممسكاً برقبتها. إن ابن المـــنطقة هـــو قريب تقريباً وليس أمره بأمر الغريب. من يدري، فذلك المواطن من بروبـــريا، الذي يمتطي حواداً مطهما وعليه ملامح الطيبة والجاه، قد يكون ذا نفع فيساعدهم وينقذهم؟ هنالك سبب ما يجعلهم يطيلون الحديث تحت وهج الشمس على حافة الطريق. لقد كانت العائلة كبيرة، فكيف العمل حتى لا يبتعدوا بعضهم عـــن البعض، وعلى الأخص بعد كل ما حدث؟ ترددت المرأة العجوز في السؤال. كانت تفتش عن السلام لعائلتها ولكن القوة خانتها.

– إن أكثر القادمين إلى هنا هم من السرجيبيين، ولكن أغلبهم يصلون أفراداً، ولا تـــصل عائلـــة كاملة إلا نادراً، فكم بالحري إذا كانت عائلة بهذا الحجم؟ لماذا جاءت العائلة كلها – وإن يكن سؤالي في غير مكانه؟

تقدم أحد الرجال من العجوز:

– إن هدفـــنا هو العمل، ويقال إن العمل هنا متوفر. جئنا من أجل هذا ولا شيء آخر.

لم ينظـــر الرجل إلى النقيب، بل نظر إلى الآخرين: إن الإجابة عن السؤال قد أعطيت، و لم يكن أحد هناك يريد استطراداً. قصيرة كانت الإجابة ولكنها ليست وقحـــة ولا تحدي فيها: فقط تحفظ وربما احتراز، من يدري؟ أطرق العجوز برأسه عـــندما قاطعـــه ابـــنه عن الكلام ثم أخذ دوره بالكلام من جديد – إن الأصالة والاحترام صفتان أساسيتان في خلق سكان ماروين.

أجـــال ناتاريـــو بنظره من واحد إلى آخر وهو يقيس بطون الرجال الأربعة، فأيهم الذي أطلق الرصاص وجعل الجميع يهربون؟ لم يشأ أن يحدد:

– فقـــد أردت أن أعرف. دع الكلام الجميل فأنا لست بكاهن اعتراف. إن الـــناس حين تصل إلى هنا فإنها تولد من جديد. فليس من حسابات يجب تأديتها. تستطيع حتى تغيير اسمك إذا أردت.

عندها تقرب الشاب الأصغر بعدما أفلت من يد المرأة واتجه باتجاه ناتاريو:

– لقد مسوا بكرامتنا وطردونا. نحن لم نأتِ لأننا أردنا، جئنا مرغمين.

– أقفل فمك! – أمر الشاب الأكبر الذي كان قد تكلم سابقاً.

– قـــام العجوز بحركة و لم يكملها.. وجّه ناتاريو نظره إلى الجرح في كتف الشاب ولكنه لم يتمكن من أن يوجه سؤالاً أو يقوم بتعليق. ولكن الشاب دون أن يلتـــزم بحـــركة الأب وأوامر الأخ الأكبر – كشف عن صدره. وحرّر ناتاريو من التساؤل الذي أقلقه:

– لم يقـــع الحـــادث كما تفكر.. النساء لم يتركنني أفعل – أشار إلى المرأة العجـــوز وإلى الأخـــرى الحامل، الأم والزوجة: – علماً أنني أردت أن أجهز على اللعـــين. نظـــر إلى كـــف يده: – لقد شدتاني من يدي... وقضتا على القوة التي تمتلكني!

كـــان قد أراد أن يتناول السلاح ويجهز على اللعين. ولكنه متزوج منذ قليل، وزوجـــته لا تـــزال عروساً جميلة وحاملاً وهي التي أمسكت برقبته: فكّر في وفاة الطفـــل، وأمـــسكت الأم بالبندقية لأنها فضلت الموت على أن يكون لها ولد مجرم سجين أو هارب من الشرطة.

– لم أقـــم علـــى تـــربية ابن ليصبح قاتلاً أو معرضاً للموت برصاص حملة المسدسات – هكذا كان والدها وأخوها قد ماتا في تحدٍّ شبيه بذلك التحدي.

بين المرأتين ضاع عنفه أو هدأ وتبعثر التهديد مع الرياح الأربع. وبالنسبة إلى الـــسينادور لم يكـــن هـــنالك فـــرق بين التهديد ومحاولة القيام بالجريمة التي تقع مسؤوليتها على الجميع وعلى كل واحد بمفرده: إنها عدالة سليمان المنطوق بها على سياج حظيرة عجول.

4

عبر مسالك الغابات الوعرة وتحت وهج الشمس المحرقة، تقيأوا الحدث وكل مـــؤرخ مـــنهم ســـجل موقفه بلهجة دقيقة: وفي مقبرة الذكريات دفنوا الماضي، الـــشوكة المـــؤلمة، والعبء الثقيل. وعادوا يعيشون كما من قبل أن تضع القساوة رحالهـــا فوق حياتهم بمنهجية، وبمنطقية أو إرادة فوقية لا مجال معها للحوار. عادوا كما كانوا ولكن ليس كلياً: إن الجروح وإن التأمت تبقي في مكانها آثاراً.

وأكثـــر مـــن مـــرة أصغى النقيب إلى المسلسل الذي روته النساء. أدرك أن الـــرجال والنـــساء، والـــشيوخ والأطفال جميعاً قد استأجروا مساحات كبيرة من الأرض مناصـــفة بين الوجيه، السيد، وبينهم. وكانت الحياة تسير بهدوء، يزرعون ويحصدون، ويحملون حصتهم من الإنتاج إلى معرض ماروين الشعبي حيث يبيعون ويتجرون. وأيام الآحاد كانت النساء يذهبن إلى الكنيسة والرجال إلى تجارتهم.

ودعـــي العجـــوز كبير العائلة إلى مقر وزارة الزراعة، من حيث عاد بالمبلغ التعويضي الذي تقرر دفعه من قبل السينادور – ولا يفيد أن تناقش، تستلم المبلغ أو تتخلى عنه – وعاد معه بمعلومة أعطي إياها عن المدة التي يجب أن يحزم فيها أمتعته ويفـــتش عـــن مقر آخر، وفي عينيه جمر يتقد، وفي حنجرته عقدة مستعصية. ولمن يشتكي العجوز؟ إلى الأسقف؟

بالنسبة إلى النساء وهن في غمرة الحزن لم يكن ما يعوضهن أكثر من كبير الكهنة الذي مسّه القرار هو الآخر. ذلك القرار المفاجئ الذي حرمه من الديوك السمينة والثمار المختارة والخضار الطازجة، تلك التقدمات الأسبوعية، وكان أولئك الطيبون المؤمنون بالله يقدمونها. ونصح الأسقف بالطاعة والخضوع وبطريقة ما كان يجب عليهم أن يعتبروا أنفسهم بشراً من ذوي الحظوظ التي منحهم إياها الإله الصالح. قال الأسقف ذلك وقد أغمض عينيه نصف إغماضة وهو يشبك أصابعه بعضها بالبعض الآخر فوق المنبر الذي استند إليه، وكون السينادور صاحب الأرض فقد كان ممكناً أن يرميه خارج الأرض دون أي تعويض ومن أي نوع كان، ودون مهلة يتدبر فيها أمره، ودون مصافحة أيضاً. لقد كان السينادور بحاجة إلى تحويل تلك الأراضي الواسعة إلى مراع لتربية العجول بدلاً من زراعتها بالذرة والفاصوليا. إن القطيع هو أحق بالأرض وهذا قرار عادل. لقد كان السينادور لطيفاً مرتين: مرة حين سمح لهم بالزراعة والحصاد لمدة طويلة من الزمن، وبالتالي، لكونه دفع لهم تعويضاً ليس من حقهم.. وأعطاهم أيضاً المهلة الكافية ليتمكنوا من الذهاب إلى المعرض يوم السبت ولبيع المحاصيل الأخيرة قبل أن يرحلوا. يكفي أن يشكروا. ثم أعطاهم الأسقف البركة، والله أكبر.

ولولا الاجتماع والتهديدات التي أطلقوها لمر الأمر دون مشقة. ولكن، عندما علم السينادور بغضبهم وكلماتهم التي لا معنى لها أصيب بصدمة عميقة: إنه لا يستطيع التغاضي عن الحقوق. لذلك ألغى المهلة وأمر بالطرد الفوري - إذا وجد أحد أفراد العائلة حول أراضيه فلن يكون عنده مجال للتفاوض.

أما المنحرف، اللص الذي فكّر بقتل السينادور لقرار فإنه ليستحق أمثولة. وإذ تمّ توقيفه، فقد ربط إلى أحد المعالف داخل الإسطبل، دون ماء أو أكل، ومع احتمال أن يطبخ على أشعة الشمس.

واعتصمت المرأة العجوز في مقر المطرانية في ماروين إلى أن تمّ استقبالها من قبل الأسقف. لقد بدت للأسقف غنمة متواضعة من أغنام السيد، ورآها مكتئبة متجهمة كأنما عضّها كلب مسعور عضة بالغة. يا سيدنا إذا لم يطلقوا سراح ابني فإن عائلتي كلها ستعود لإنقاذه وسيتمكنون منا جميعاً، واحداً إثر واحد. بدءاً بي،

وســتكون هنالك مذبحة جماعية. حتى الأسقف ذو الطبيعة التأملية والحسوبة: فقد توازنه، وأحس بالبرد في أسفله: سأذهب لأرى ما أستطيع أن أفعله وليسامحك الله يا امرأة.

وبــرهن السينادور مرة أخرى على كرمه وقدرته على التسامح، واستجاب لطلــب الأسقف، وأمر بإطلاق الشقي في الوقت الذي يجب أن يلتحق فيه بقومه الملاعــين. وقــبل أن يطلقوه فقد قدّموا له دزينتين من الحلوى واستعملوا في ذلك المسطرة التي كانوا يستعملونها سابقاً في ضرب العبيد في زمن العبودية والرق.

إن الــسينادور لم يكن يسمح بالبقاء في أرضه لأناس بلا إيمان. وأراضيه هي ولايــة سرجيبــي، أراضي ومياهاً، وأشجاراً وحشرات، طاقات وعدالة وكان له بعــض الــشركاء الــصغار وهم سادة أغنياء وذوو مواهب، على كل حال، أما الآخرون جميعاً فعبيد.

5

– لقد جئنا مهانين..

ماذا يفيد وضع البندقية على الكتف؟ لقد تأخر العمل وانقضت الساعة. من الأفــضل اتــباع نصيحة الأم والنسيان: ومن الأفضل استبدال ورم المسطرة الثقيلة ولهيبها بالتعب والمشقة من أجل العيش.

– كــان يمكــن أن يكون الأمر أسوأ – استنتجت العجوز – وما مضى قد مــضى. لقد مرّت التجربة ونحن على قيد الحياة. وليساعدنا الله على أن نبقى معاً. ولم يعلــق النقيب على الأحداث، لم يقل نعم أو لا، ولم يمل إلى أحد، لم يؤيد ولم يدن؛ قصة عادية، ذات إثارة قليلة، ولم تكن العجوز لتترك برهة دون التأكيد على كــونها على حق: ما مضى قد مضى؛ إذا ظللنا معاً نستطيع أن نحول سوء الطالع على اكتفاء. إننا عائلة عديدة الأفراد، نظامية وشغولة، متعودون على زراعة الذرة والفاصولياء والشعير وتربية الدواجن والماعز.. ومثل هذه العائلات أليس بالتحديد ما تحتاج إليه توكايا غراندي ليصبح لها جذور وقدرة على التطور؛ وإذا قامت هذه العائلة فإن عائلات أخرى ستأتي.

هل صحيح أنكم تريدون أن تبقوا معاً؟

– جئنا بهذه النية، ولكن يقال إن المسألة صعبة العجوز. – أخذ الكلام والقيادة من جديد:

– ما اسم حضرتك؟

– إمبروزيو، خادمك المطيع.

– وأنت يا عمة، ما اسمك؟

– إيفانجيلينا، ولكن يسمونني فانجي، هل تعتقد أن لا مجال؟..

– لكل شيء حل ما عدا الموت.

وأخذ النقيب يعلن عن اسمه ولقبه – في هذه الأماكن النائية من العالم يعرفني الجميع. ثم راح يتكلم عن توكايا غراندي. إنه مكان صغير يبعد فرسخاً عن الطريق، وآخذ في النمو في موقع جميل جداً. وأخبرهم عن الأراضي الواقعة على ضفاف النهر حيث يمكنهم أن يزرعوا مساحات هائلة بالفاصولياء والذرة والشعير، وهي أراضٍ لا أصحاب لها، ويملكها من يصل إليها أولاً.

– أراضٍ بلا مالكين؟ هل يمكن؟

– وهي خصبة وجميلة أيضاً.

– وإذا حدث فيما بعد...

– إن القانون هنا هو قانون الحياة يا سيدة فانجي. وليس الأمر كما هي الحال في سرجيبي حيث لكل شيء سيد ومالك... حتى أعاجيب القديسين.

فهمت فانجي أن رجل بروبريا هو رسول القدر، وأحست بنفسها وقد تحررت من المخاوف والقلق. وذهب العجوز إمبروزيو مع ذلك إلى القول.

– إن ما لدينا من مال لا يكفينا حتى لنبدأ.

– لا تهتم للأمر. حين تصل إلى هناك، فتّش عن لبناني اسمه فضول: ثم فسّر النقيب كل هذا الكرم:

– لا أعرف مكاناً أجمل من توكايا غراندي، ولكنه لن يزدهر إلا إذا أقامت فيه عائلة جديدة، وولد لها طفل، وبدأت بتربية حيوان ما.

الأخ الأكبر من العائلة السرجيبية الذي ظل صامتاً طيلة الوقت أراد أن يعرف:

– هل حضرتك من توكايا غراندي؟

لقـــد ولـــدت في بروبـــريا، كما قلت لك. ولكن أريد أن أموت في توكايا غراندي حين تأتي ساعتي.

6

عربات الثيران المتعبة بدأت تختفي في غبار الطريق إلى توكايا غراندي. وذهب تفكـــير النقيب ناتاريو دا فونسيكا بعيداً من بيوت الفقر والشقاء على ضفاف نهر سان فرانسيسكو إلى عالم الظلم والتحكم، المستبد بمصائر البشر. وفي صمت الغابة سمـــع صـــرخات الاستغاثة وأصوات النـــزاع الأخير. وللحظة خاطفة امتطى من جديد صهوة جواد الرؤيا ديوسكوريدس مستعداً لوضع نظام لهذا العالم يضع حداً لعـــذاب الإنسان. ولكن حصان الرؤيا بطيء، بطيء، ولمواجهة إمبراطورية الشقاء المفـــروض على الإنسان فإن النبي يجب أن يمتطي على الأقل الرحل - الذئب، أو الـــبغلة - مقطوعة الرأس. إن حياة الخليفة لا تزال غير مستحقة لآه واحدة، حتى مسطرة ضرب العبيد لم يقضِ عليها، فكم بالحري وسائل التعذيب الأخرى.. لماذا يمـــسك بنفسه لاهثاً أمام هذه الفوضى التي تحكم العالم؟ إن اتفاقيات دقيقة تلزمه حالياً بالاهتمام، والتي لا يمكن تأجيلها.. ويكفيه الآن أنه بدل الغدارة ذات الطلقة الـــواحدة قد حمل الخنجر والبرابلو وهما الكفالتان الأكيدتان لتطبيق الشفهية ومنع المظالم.

لامـــست ابتـــسامة حقيقة شفتي ناتاريو: إن اللبناني سيقلق قلقاً مضنياً عندما يتحابه مع السرجيبيين الذين يحملون منه رسالة إلى فضول. ولم يكن الأمر مقصوداً عندما، في صباح ذلك اليوم بالذات، تكلم الاثنان معاً وقد شخص ناتاريو المشكلة ووضع العلاج:

- أجـــل، كما قلت لك يا عرّابي فضول: ما دام ليس من عائلة مقيمة هنا، وإن اقتـــصر الأمر على القوافل والمهنة المهمة، فإن الحركة ستظل بطيئة. ولكن لا تـــيأس، ولا تتجهم، فقريباً سأتدبر بعض السرجيبيين ليأتوا ويقيموا هنا. إنه الوقت المناسب جداً:

إن الغرسات الجديدة ستبدأ بإعطاء الكاكاو، وسيجري المال أنهاراً.

- من فمك إلى إذن الله يا نقيب ناتاريو. إن ما ينقصنا هنا هو المال.

– ألا تصدق أيها "التركي"؟ هل تعلم من الملكيات الجديدة في الجوار؟

– لـــو لم أكن أصدق لما تمسكت بالمكان. ولكني اعتقدت أن الأمر سيحدث بأسرع من هذا، وهو لا يزال يسير بطيئاً.

– لكـــل شيء ساعته الأكيدة يا فضول، ولا يستحق الأمر تسريع الأشياء... قـــبل ذلك لم يكن من رجل ليصل إلى هنا لأن الزرع كان لا يزال في طور النمو. هـــل فكـــرت يـــا عرّاب كيف سيكون الأمر حين تحمل كل هذه الأغراس بثمر الكاكـــاو؟ إنه عالم بلا نهاية. لن تكون توكايا غراندي مكاناً صغيراً.. إنها الآن قد تجاوزت تاكاراس بكثير، اكتب ما أقول على ورقة، إذا كنت تشك.

– إن الله علـــى كل شيء قدير، يا نقيب. متى سيتدبر صديقي مسألة المجيء بالسرجيبيين؟

– في يـــوم مـــن هذه الأيام فضول... وفي أسرع ما يمكن. هكذا تكلم عند الـــصباح عندما مرَّ في توكاي غراندي عائداً من مزرعة أتالايا... من المؤسف حقاً أن النقـــيب لـــن يتمتع برؤية وجه اللبناني عندما يصل إليه السرجيبيون: التعجب، الحركات، والانتفاخ الاندهاشي، والحديث مع الله فيما هو متعلق بالصدفة الرائعة الفريدة؛ إن إله فضول عبد الله هو نسيب قريب له، ويكاد يكون فرداً من العائلة، وصديق قدير ولكنه حميم ووفي، وشريك في الأعمال.

كـــان النقيب يقدر فضول اللبناني، "التركي" اللص، طيب المحادثة والعشرة، التاجـــر النبـــيه، الدؤوب في العمل: البائع المتجول ذو الشهرة الواسعة في حقول الكاكـــاو والمزارع حيث لا يزال أصحابها يشتاقون إلى وجوده... وقد رأى بنظره الـــثاقب بعيداً. فاستقر في توكايا غراندي متحمساً لنمو حركة القوافل والعابرين. لقد تجاوز دون امتعاض سنوات البقرات العجاف. وتحمل المشقات السبع دون أن يبدل طريقه. إنه رفيق صبور وعرّاب سعيد.

عائلة السرجيبيين تصل إلى توكايا غراندي
والعقيد ناتاريو دا فونسيكا يبدأ ببناء بيته

1

كـــان الـــصباح قد تقدم بينما فتاتا الهوى، العجوز جاسنتا كوروكا والصبية برناردا، تستمتعان بنور الشمس الصيفية عند باب البيت الخشبي الذي كان النقيب ناتاريو دا فونسيكا قد أمر ببنائه. كانت جاسنتا ترتق الفتوق في بعض الملابس بينما انـــصرفت بـــرناردا إلى تسريح شعرها الأسود الكثيف، وكانت تعرف أن شعرها جميل، وتتفحصه شعرة شعرة تفتيشاً عن القمل.

وبيـــنما تحـــول نظـــرها عن عملها الدقيق لتحديد الخيط في الإبرة، نظرت كوروكا بطرف عينيها إلى رفيقتها، وعكرت صفو الصمت والهدوء:

– إن المـــرأة العامية التي تحبل ليست كفوءة، ولكان أفضل لها لو ظلت تعيش في الغابة وتكسر جوز الهند.

قالت ذلك بصوت منخفض يكاد لا يسمع، وبالصوت نفسه تابعت حديثها العامـــي مع تنهد خفيض، وكان نظرها ثابتاً على الخياطة كما لو أنها كانت تتكلم إلى نفـــسها ولـــيس إلى أي طرف آخر.. وبالطريقة نفسها كانت برناردا تصغي إلـــيها: كما لو أنها لم تكن تسمع شيئاً مما يمكن أن يوحل صفو الصباح إلى إشعار آخر.

– لمـــاذا كان عليها، بحق الشيطان، أن تترك بطنها تنتفخ؟ سترى، بالإضافة، أنها لا تعرف أباه.. ولا تعرف شيئاً.

نـــسيم الـــصباح يداعب مياه النهر وأفنان الشجر وشعر برناردا. واستمرت كوروكا بإعطاء الحجج المنطقية:

– مـــن لا تفهم يجب عليها أن لا تختار مهنة الدعارة لأنها ليست مهنة عادية بـــل صـــعبة للغاية. وإذا كانت تظن أنه يكفي أن تحسن هندامها وتبرجها، وتجعل

فمهـــا يفتـــر عن أسنانها وتضع العطر على مطارحها، فهي مخطئة للغاية. إن المرأة العامـــية مثلها مثل الراهبة فعندما تدخل هذه إلى الدير تتخلى عن كل شيء: الأب والأم، الأخـــت والأخ، وعـــن اسمها الحقيقي وحقها في الحبل والولادة.. والفرق الوحيد هو أن الراهبة تصبح قديسة وتصعد إلى السماء لتجلس بين يدي الله، بينما المرأة العامية لا تتعدى كونها عاهرة، ويحكم عليها في الآخرة دون مجال للخلاص.

ونظرت إلى الأفق أبعد من النهر والمرتفعات، فآلم الضوء الحاد عينيها:

– لقـــد فقدت نظري لكثرة ما شاهدت من أطفال السفاح يكون في زوايا بيوت العاهرات وهم يبتلعون المخاط الساري من أنوفهم. إن ابن العاهرة هو أكثر الناس ألماً وشقاء؛ يجب أن تكون حمقاء حتى تفكر أن بإمكانها أن يكون لها رفاهية الحـــصول علـــى ابن تضعه في هذا العالم.. ومما هو أكثر مدعاة للأسف أن يرى الواحد امرأة عامية ناضجة تمارس المهنة مع فتى صغير يتعلق بتنورتها.

ودون أن تقطـــع نـــشيدها المتواصل، أوقفت الخياطة وتفحصت الرتوق في سترتها:

– إذا كانت تجهل ما العمل حتى لا تحبل فلماذا تسال من هم أكبر منها؟ لماذا لم أحبل وأنا أمارس المهنة منذ زمن سحيق: إن أصابع اليدين ومعها أصابع الرجلين لا تكفـــي لعدد السنوات التي قضيتها في هذه المهنة: إنهم لا ينادونني بكوروكا، في الفترة الأخيرة حسب، بل منذ زمن بعيد.

صمتت لبرهة، متذكرة. إن ذكريات القدر هي امتياز لها دون سواها، ولكنها إذا لم تعجـــل في نجـــدة برناردا فإن الجاهلة ستصنع حليباً لابن سفاح عليه الحياة. كانت برناردا تبدو كأنها حفيدتها.

– كـــنت عصرية عندما علمتني والدتي كيف لا أحبل من العقيد إيليديو. كـــنت صاحبته وذات بيت خاص لي. كان هو من أعالي بعدما افتض أولافو بكـــارتي ثم تـــوفي وهو يبصق الدم من صدره الضعيف. لقد منحني العقيد بيتاً كامـــل الأثاث وأكثر مما أردت. كان يكفي أن أرغب في شيء فيرسل ضعفه. كنت أعيش مرهفة و لم تكن أمي تكف عن قول هذا. كان يكفي ألا أحبل لأن الـــسيدة ماركوليـــنا، زوجته، لم تكن لتتحمل هذا.. خلال سبعة أعوام كنت عاهـــرة سيدة أم تراها كانت تظن أنني ولدت تائهة؛ و لم ألجأ إلى ممارسة المهنة

إلا عندما توفي العقيد فأرسلت ماركولينا من يضربني ضرباً مبرحاً ويشدني من شعري ويدور بي مثل المكوك. كان ذلك هو الأمر الأول الذي أعطته لأزلامها بعـــدما قررت أن تبدأ النضال كأرملة وتهتم بالمزرعة بنفسها. - وهنا صرفت نظرها عن الخياطة:

- كان أفضل لي لو أنها أمرت بقتلي.

عبر شعرها المسترسل على وجهها، رافقت برناردا بنظرها جاسنتا التي تنطلق دون ســـكة محددة.. وأمام النور الساطع، بدت عيناها فارغتين كأنهما عينا أعمى، وعادت كوروكا إلى الخياطة لتبدأ أنشودتها من جديد:

- لـــو أنك سألت لكنت كلمتك. كان يمكن أن تقولي: يا جاسنتا، ما الذي يمكـــنني أن أفعل حتى لا أحبل؟ ولكن، متى سألت؟ وأين؟ أنت هنا منتفخة البطن ولا تعرفين من هو والد الطفل.

بـــدأت بـــرتق مشلح، ثم ألقت نظرة جانبية إلى البطن المنتفخة، فتماوج صوتها:

- ومع ذلك فهذا ليس سبباً للحيرة. إني أعرف وصفة لمزيج يصنع من أوراق شـــجر يمكـــن الحصول عليها من الغابة: طلقة وإصابة. تشربه الحامل، وفي اليوم نفـــسه، وبعـــد ساعات قليلة فإنها ترمي بكل شيء إلى الخارج، ولا يبقى أثر لأي شـــيء. ويجب تناول الوصفة مع الماء أثناء الحمام. لقد تعلمت الوصفة من المرهفة كـــريميلدا التي كانت تحبل مرتين كل ثلاث ممارسات جنسية، لا لأنها كانت تريد، بل لأنها كانت كذلك قادرة على الحبل من رائحة الرجال. ولكن لحسن الحظ أنها بقدر ما حملت فإنها أجهضت.

وحـــدقت في الصبية: رفيقتها في البيت وفي المدينة، عصرية ولكنها كانت بلا ذرة عقل ولم يكن بمقدور كوروكا أن تسمح بهذا القدر من الغباء:

- إني أتكلـــم معك، ولي من العمر ما يجعلني جدتك. سأجهز الوصفة اليوم، وإن تكن ذات طعم سيئ فإنها تنظف الرحم؛ ستجرعينها عند العصر، وستسقطين غداً وبطنك نظيفة. هل سمعت؟

رفعت برناردا رأسها، وعادت بشعرها إلى الوراء، وفي النهاية، واجهت نظرة الشمطاء:

– تعذريـــني لأني لن أتناول أية وصفة لإفراغ رحمي، فلا تزعجي نفسك في الـــذهاب إلى الغابـــة لقطف أوراق الشجر. أعرف أنك لا تتكلمين بسوء نية، بل تـــريدين مساعدتي. والفرق هو أني حبلت لأني أردت أن أحبل لا لأني جاهلة. كـــيف لم أحبل عندما كان والدي يضاجعني؟ لأنني لم أكن أريد أن ألد ولداً منه: كنت عندما يفتح رجلي، أغلق بقية جسدي.

– ألم تكوني تشعرين بشيء معه؟

– سيادتك تستطيعين ألا تصدقي، لأنك تفكرين في أنني أكذب. في المرات الأولى كـــنت أصاب بثورة انفعال وغضب، و لم يكن بمقدوري غير البكاء. بعد ذلك حتى هذا الأمر لم يعد يحدث. – وقامت بحركة من كتفها تتعجب لتلك العذابات السابقة:

– لا أريد أن أتذكر، والآن لم أعد أهتم لأي شيء غير الطفل الذي أحمله في أحـــشائي. لقد حبلت لأنني أريده، ولن يقف أحد في وجهي.. لن يقف أحد في هذا العالم عثرة أمامي.

تكاســلت ثم وضـــعت يـــديها على بطنها لتعرض الطفل بصورة أفضل، ثم أخذت يد جاسنتا وقبلتها.

لم يكـــن هناك ما يمكن عمله وأن بأية وصفة أخرى. وافقت كوروكا بإيماءة من رأسها، وعندما حل اللغز اختفت أسباب المحادثة العامية – وها هو الخل يتحول إلى عسل في المناظرة:

– لقد فهمت – إنه ابنه، أليس كذلك؟

لم يكن ضرورياً ذكر اسمه لكي تعلم برناردا من أرادت جاسنتا أن تشير إليه عندما تمطت شفتاها بابتسامة مظفرة:

– إنـــه ابـــن العرّاب، أحسنت التكهن. – أدارت وجهها، وتوقدت شجاعة ورضـــى، وقـــد توزع شعرها على كتفيها بينما راحت بعض الشعرات تتطاير مع نسيم الصباح، ورأتها كوروكا متألقة إزاء نور الشمس.

– ماذا يمكن أن أطلب أكثر من هذا، وماذا يمكن أن أسأل؟ – أن يلد رجلاً شبيهاً به.

– كل ولد من أولاده يشبهه. أولاد زيلدا وأولاده في الشارع.

– إن ابني سيكون شبيهاً له في التألق والأعمال الخيرة.

لكـــل حـــي، مهما يكن بائساً ومهملاً، مسكيناً أو وحيداً، الحق في قدر من السعادة وليس هناك حياة بالمرارة ممكنة، ولا يهم ثمن السعادة، والسعر الذي يجب دفعه. إن جاسنتا نفسها دفعت أسعاراً هائلة من أجل نـــزق، ونداء رغبة. لم تندم أبداً حتى عندما أخذت تعيش وحدها الرمادية المخيفة. وفي النهاية، ما الذي يمكن جنـــيه مـــن الحياة غير السراء والضراء، وغير المنازعة والمغامرة في العشق؟ يستحق الأمر عناء المجازفة: ومهما يكن الثمن غالياً يبقى رخيصاً.

– لـــيس في هذا العالم شيء مجاني، ولكل شيء ثمنه. يمكن للواحد أن يدفع حياته ثمـــناً. إذا كـــنت قـــد حبلت بإرادتك وقررت ذلك، فليس بمقدور أحد أن يدينك. ولكنك، لاحقاً لن تستفيدي بشيء من التذمر، وعليك أن تتحملي صامتة.

– أتذمر؟ من أي شيء؟ قولي لي: ألا ترين أنني أكاد أجن فرحاً وأنا أضحك بكل جوارحي؟

قلب مفعم بالفرح، ضحكة مطلوقة، ورأس هوائي.

– يـــا فارغة الرأس، إنك تحتاجين إلى الاستعداد للولادة، حتى الحيوانات في الغابة تستعد للولادة.

– كنت أنتظر أن يتقدم الحبل قليلاً لأفاتحه بالموضوع.

– ولكن لا يستحق الأمر الكلام مرة واحدة. أين ستلدين؟ في تاركاراس؟ في إيتابونا؟

– سألد هنا، بالذات.

– هنا؟ هل أنتِ مجنونة؟ هنا لا يوجد وإن قابلة لتتلقى الطفل ساعة الولادة.

عادت برناردا لتبتسم:

– ألا يوجد؟ وسيادتك؟

– أنـــا؟ – أخذتها الدهشة وقلقت كوروكا وارتعدت: لقد فعلت الكثير في هذا العالم، ولا يمكن أن تتصوري أنني عالجت مصاباً بالجذام. ولكنني لم أولد طفلاً قط.

– إذاً يجب أن تستعدي لمقابلة ابني.

لانـــت العجـــوز. كانت قد حضرت عدة ولادات، وحدث لها أن ساعدت في ولادة ســـاعة المخـــاض بـــأن جاءت بحوض الماء، وسائر الأواني. القابلات، بعضهن ملـــيكات كفـــوءات، واثقات الخطى لدى وصولهن، ذوات حركات رصينة، وكلام

نهائي، ومنتشرات في القرى، وبأيديهن سلطان الله. وعندما عادت لتتكلم، فقد فعلت بصوت تكاد تخنقه التنهدات، ثم تحول فجأة إلى صوت مجلجل خارج من الأحشاء:

– هل تريدين أن أولد ابنك؟ هل تعتقدين بأنني قادرة على القيام بهذا العمل؟

– إذا أردت فإنك تستطيعين أن تفعلي ما تشائين.

– توليد الطفل، ومساعدته على الولادة، لله، ما أجملها: – نظرت إلى يديها الهزيلتين، البائنتي العظم. – يمكن أن يكون الأمر إيجابياً.

– بعدما ألد سنصبح أقارب.

– نحن أصبحنا أقارب منذ عيد القديس يوحنا، هل نسيت؟ لقد أصبحنا أقارب عند شعلول المحرقة، والآن سنصبح أقارب في الموت والحياة.

هزّت رأسها لتحكم على نفسها:

– يا لي من عجوز حمقاء، شمطاء، لقد كنت أريد أن أقتل الحشرة قبل أن تولد.

ضحكت الاثنتان، مقهقهتين؛ عاهرتان تتمتعان بالشمس عند باب البيت الخشبي في محط الرحال في توكايا غراندي، وعند بداية الصيف. ضحكة مجانية، كانت ضحكة العجوز والصبية، شبيهة بتمايلات رؤوس الشجر وتهدبات مياه مجرى النهر، وضحكة البراءة المفرحة، عندما يطالها نسيم الصباح.

2

– لا يمكن أن يكون في غير هذا المكان. – أكد إمبروزيو ذلك وقد أوقف خطوه.

كان السهل يمتد إلى جانبي النهر، محاطاً بالمرتفعات الشاهقة.. وكانت الخضرة الطبيعية الكثيفة تكسو الضفة اليسرى غير الآهلة. وعلى الضفة اليمنى كانت تنتشر الأكواخ ومستودع كبير في المكان المكشوف.

– لقد صدق الرجل عندما قال إن المكان كان جميلاً. – تمتم العجوز. – النقيب – صلّحت فانجي كلامه. – لقد قال إنه نقيب. النقيب ناتاريو.

العجوزان إمبروزيو وإيفانجيلينا المعروفة بفانجي، ضعيفان، بائنا العظم من الهزال: هو لم يتجاوز الخمسين وهي لم تقارب ذلك العمر. فلاحان متقدمان في

السن طردا من مزروعاهما وراحا يفتشان عن مساحة من الأرض يزرعاها ويحصداها لحساهما الشخصي. كانا يحدقان في الغابة العذراء الممتدة أمامهما. إنها أراض مشاعة ويكفي أن تصل وتمتلك. ألن يكون ذلك الأمر مبعثاً لأزمة جديدة أو تصرف متوحش جديد؟ ولكن لماذا يكذب النقيب؟ لقد انقضى الرعب في إبعاد سرجيبي وانتزعت منهم الأرض. كانت كالمياه العابرة.

كانت دينورا لا تزال متمسكة بالوقوف إلى جانب فانجي، وطفلها ممسك برقبتها. ولكنها عادت إلى زوجها جوان جوري الملقب بجواوزي، وابتسمت. لقد انتهى الطواف وأصبحوا قادرين على حط الرحال، وأخيراً أصبح ممكناً تشييد منزل لهم. كانت قد اعتقدت بأنها لن تجد أبداً مكاناً تلقي فيه الرحال، وموقعاً تشرق فيه الشمس عليهم، يزرعونه ويربون فيه الدواجن. وكانت قد خافت من أن يموت الطفل على طريق الترحال بين ذراعيها: كان القلق الممض يمسك بخناقها بصمت وبطء، ولم تكن لديها قوة للبكاء.

عاودوا المسير. في الطليعة العجوز وبيده العصا التي يستعملها للاحترام والقيادة. وأخذت فانجي الطفل من أمه لتتمكن الأخيرة من السير شابكة يدها بيد زوجها، بينما إغنالدوا أعطى ذراعه للمرأة الحامل المتعبة:

– ها قد وصلنا يا ليا. لم يبقَ إلا القليل؛ لماذا تبكين؟

– من الفرح.

– أين يمكن أن تكون دارة الغريب؟

وأجابت ديفا الفتاة الكاعب عن سؤال أخيها:

– لا بدّ من أن تكون تلك الدار هناك – وأشارت بإصبعها إلى محل الحدادة المبني بالحجارة والطين.

هيا بنا يا جماعة.

ووصلوا إلى هناك متعبين يحدوهم الإيمان والخشية في آن. الغلام والشاب مرا أمام مجموعة راكضين باتجاه النهر.

– إلى أين تذهبان؟

– دعيهما يا أمي. من يدري فقد أذهب أنا أيضاً. تأمل في ديفا: شعرها غدا قاسياً بفعل الغبار، والوجه ملطخ، والبنية قوية، والجسد بحاجة إلى حمام.

- حتى أنا سأذهب. وافقت المرأة الحامل.
- إلى اللقاء. الآن سنذهب للتحدث مع "التركي"

3

بسنواته القاسية الاثني عشرة، وضع الأصغر فخ العصافير على الضفة حيث كان النهر يتسع، وخلع عنه أطماره، وغاص في الماء.

- أما أوريليو، الأخ الأكبر، فقد نظر إلى الوراء، فلم يلمح أحداً غير أهله وهم يجرون وراءهم الغبار على الطريق. نزع قميصه، وبدأ يفك أزرار بنطاله عندما سمع قهقهات من الضحك. نظر إلى أسفل النهر، فتعجب لوجود حوض واسع مليء بالحيوية والنساء. مكث أوريليو دون حركة وهو يمسك بنطاله. وكانت فتيات الهوى، على هواهن، بعضهن شبه عاريات، والبعض الآخر كما خلقن، يعصرن الملابس، ويغتسلن في النهر، غافلات عن كل شيء ما عدا الانطلاق بالحديث. وإذ غدا مرتبكاً، فإن الشاب لم يعد يعرف كيف يفعل أو كيف يمنع نفسه عن الغربة في الاستمرار بما هو مزمع عليه. إنها أرض خصبة ومعطاء: مليئة بالأقفية الجميلة، والفتيات المؤهلات، كان لأوريليو سبعة عشر عاماً من العمر.

أماناندو، الأصغر، فقد كان النهر هو فتحه الأول؛ بعد ذلك يأتي دور الشجر والمصائد والعصافير.

4

من السهل معرفة "التركي" من أنفه المستقيم، المؤرنب، ومن شعره الأجعد، ولهجته الدعجاء. وفي البيت المبني بالحجارة والطين شاهدوا زنجيا أهيف يضرب الحديد الملظى وقد علق إلى زناده خرجاً من الجلد.. تركي بهذا اللون لم يشاهدوا أبداً: و لم تستطع ديفا أن تمنع نفسها عن الضحك.

أوقف تيساو العمل، لم يعرف لماذا ضحكت الفتاة، وضحك بارتياح. بعد ذلك لمح العجوزين ومن معهما آتيين من جهة النهر، بينما برناردا كانت تجتاز المكان؛ أحست ديفا بالثقة والارتياح.

- إن بيت التركي هو ذلك البيت الكبير المبني بالخشب. من الأمام الدكان، ومن الخلف مكان السكن. في هذه الساعة يكون فضول نائماً أو أنه يقوم بعمل الحساب.. سأذهب معكم. ورافق تيساو الجماعة حتى الدكان. كان فضول متمدداً عند أسفل البار يتفحص الأسماء المدونة والتواريخ المسجلة في دفتره: لائحة الديون، القروض، وتواريخ الاستحقاق.

- إنه النقيب ناتاريو من أرسلنا إلى هنا. قال إن الأرض ممتازة للزراعة وأكد أن حضرتك ستجهزنا بما نحتاج إليه.

أجال اللبناني فضول بنظره من واحد إلى آخر.

- هل جئتم من سرجيبي؟

- أي نعم.

اللبناني العملاق الجثة جثا على ركبتيه ورفع يديه إلى السماء وتمتم باللغة العربية: بدا كأنه يتكلم إلى أحد هو موضوع ثقته وكان ذلك الذي وجّه إليه الكلام هو الله. بدت سيماؤه نقية، وكلماته تمجيدية: إن العرّاب ناتاريو لم يُخلّ أبداً بوعد قطعه: لقد وعده صباح هذا اليوم بإرسال عائلات سرجيبية للسكن في توكايا غراندي. وقبل الغروب وصل الطابور الأول في اليوم نفسه: فليتمجد اسم الله.

انتصب فضول عبد الله واقفاً، ولكي يعبر عن مبلغ السعادة التي اعترته بدأ بتقديم الكاشاسا للرجال. بعد ذلك أدى الاحترام إلى المرأة العجوز، والحامل، والكاعب، بأن يذهب ليأتي من بين محفوظاته بزجاجة ليكور الجنيبابو التي كانت قد بقيت منذ احتفالات حزيران/يونيو من العام المنصرم. قدم الشراب إلى الكاعب والحامل، بينما فضلت العجوز بلعة كاشاسا.. إن عددهم ثمانية مع الطفل المقمط، ولكن السرجيبيين أعلموه أن شابين لم يصلا إلى هنا وقد تحوّلا إلى النهر للاستحمام.

- إنهم السرجيبيون! - هتف اللبناني هتافاً أطلقه عالياً. ووضع نفسه في خدمتهم. إن الأراضي تقع هناك، وهي واسعة لا حدَّ لها، يكفي للوصول إليها اجتياز النهر.. لا يوجد جسر أو زورق، وعبور النهر يجب أن يتم فوق الحجارة من ناحية الانبساط النهري، والعبور يغدو في الشتاء أكثر صعوبة بسبب الأمطار. إنها أراضٍ من النوعية الممتازة تنتظر من يأتي لزراعتها.

– وليس لها مالك، أصحيح هذا؟

– الآن أصبح مالكوها هم الأصدقاء الذين هنا؛ يكفي أن تختاروا القطعة التي تريدونها. أليس هذا ما قاله النقيب؟

– هل هو مأمور الأراضي. والقيم على الأرض؟

– كما لو أنه كذلك.

جوان جوزي كمن في حنجرته شوكة:

– ولمن سنبيع؟

بسط اللبناني ذراعيه العريضتين:

– خلف الغابة حقول لا نهاية لها من الكاكاو الذي بدأ يثمر.. ولن ينقصكم زبائن.

هكـــذا أكد له النقيب في ذلك الصباح، وفقط مجنون يجازف في الشك فيما يقوله النقيب ناتاريو دا فونسيكا.

ولكـــي لا يـــشعروا بالـــسأم خلال الأيام الأولى، فقط، نصحهم اللبناني بالمـــستودع الكبير حيث كان يتجمع رجال القوافل والمارون من هناك، وهو موضع حركة واسعة خلال الليل وفي بعض الليالي يتحول إلى حلبة رقص ولهو.. وبيـــنما تيـــساو لا يـــنفك مبتسماً، تذكر أن النساء يستطعن، إذا أردن، أن يـــسترحن في تخـــشيبة من التخشيبات المهجورة، وقد تكون تلك التي كانت إبيفانيا تستعملها؟

– ماذا في الأمر؟ – قالت فانجي.

ظهرت فجأة كوروكا لتشتري نفطاً أبيض، وتعجبت من الحركة النشيطة في تلك الساعة.

– إنهـــم السرجيبيون الذين أرسلهم النقيب. سيزرعون الحقول على الناحية الثانية من النهر بالفاصولياء والذرة.

– إن الأمر ملح.

مـــن طريق الحمير إلى أسفل المنحدرات تجمع النساء والرجال مهتمين بالأمر، عارضـــين الخدمات، وجاؤوا بالمأكولات للضيوف الجدد. أما الطفل الرضيع فقد راح ينتقل من ذراع إلى ذراع.

5

بينما تترجل من عربة الثيران فإن زيلدا زوجة ناتاريو، لم يتم استقبالها بحماس لأن النقيب نسي أن يعلم فضول بذلك بغية القيام بالتمهيد لوصولها. وليس بالسبب نفسه مرَّ وصول السرجيبيين بالترحاب قبل شهرين. أما الخبر الذي تردد حول قرار النقيب ناتاريو بالبدء ببناء بيت سكن فقد ولد شعوراً بالحماس والفرح لأن في ذلك القرار دليلاً على تحقيق مرحلة جديدة في حياة توكايا غراندي. إن أشجار الكاكاو الجديدة كانت قد ازدهرت في الحقول القريبة وبانتظار قطاف الموسم الأول.

قبل أيام شقّ بالبينو ولوبيسينيو درباً وصعدا القمة بغية دراسة الموقع الذي سيتم فيه بناء البيت: وجاءت زيلدا لتناقش مع البنائين والنجارين تفاصيل البناء والتقطيع الداخلي. ويجب أن يكون العمل تقنياً لأن صاحب البيت ليس أياً كان، ولأنه أيضاً رب عائلة مؤلفة من زوجة وثمانية أبناء، خمسة منهم شرعيون، وثلاثة بالتبني.. ومما يثير الفضول أن الثمانية كانوا متشابهين. ولم تكن زيلدا تميز بين هؤلاء وأولئك وكأنها قد ولدت الجميع.

عندما كانت عربة الثيران قد بانت في البعيد فإن السكان هرعوا إليها فرحين لتحيتها. ولكن ناتاريو الذي كان يتقدم الثورين اللذين يقودان العربة، ممتطياً بغلته السوداء في خبب بطيء، وجّه القافلة إلى البيت الخشبي حيث كانت تعيش كوروكا وبرناردا. وكانت الاثنتان تنتظران عند الباب.

جاءت زيلدا معها بولدين من أولادها: إيدو، الأكبر، وهو غلام ممشوق القامة في الثالثة عشرة من عمره، شبيه أبيه ونسخة عنه، والابن الأصغر الذي كان قد ولد في نهاية الصراعات، وبعدما كان ناتاريو قد ربح مساحة الأرض التي زرعها بأغراس الكاكاو، وهذا الأصغر هو فليون العقيد بوافنتورا وزوجته القديسة دونا أرنستينا، وتشريفاً للعرّابة اعتمد له اسم أرنستو في كتاب المعمودية.

وبالرغم من كونها نحيلة الجسم، ذات مظهر سريع العطب، فإنها في الحقيقة معافاة ونشيطة؛ وهكذا ترجلت من العربة وهي تشد سحاب تنورتها، وقبلت الابنة

بالتبني يدها:

- البركة يا سيدتي.

- باركك الله يا ابنتي. صباح الخير يا كوروكا. أنت في كل مرة تبدين أكثر قوة ونشاطاً من قبل.

- إني أمضي كما يشاء الله.

تـــرجل ناتاريـــو عن مطيته وربط رسنها إلى عمود خشبي هناك. كان مزمعاً علـــى استكمال سفرته ما إن يطلع زيلدا على القمة حيث سيبنون منـــزلهم على حافـــة جذع المولونغو. وترجل أرنستو من عربة الثيران يقود كلباً ربط بحبل. وبدا الحـــيوان قلقاً فكشّر عن أنيابه ثم مرَّ بشدقه على يد كاستور أبدووين التي راحت تداعبه، وعندها قالت زيلدا:

- إنهـــا كلبة جئت بها لك يا سيد تيساو، إن عمرها لم يتجاوز الشهر: يقال إن عندك كلباً، وهذه زوجة له.

ضـــحك ضحكة قصيرة سحرية: الذين كانوا يعرفونها يقدرون طريقة عنايتها ببيـــتها وتربية أبنائها الذين من دمها والآخرين: امرأة خلقت لتكون زوجة لرجل كرجلها:

- يجب أن تنتظر كي تكبر..

حذّر الزنجي كلبه ألما بينادا الذي كان يدور حوله دون الموادعة المعتادة.

وإذ أخذ إيدو من أذنه، فإن ناتاريو توجّه إلى كاستور:

- إنـــك ستربح أيضاً هذا الولد هنا؛ إنه ابني الأكبر إدواردو.. سيبقى معك ليتعلم المهنة. اجعل منه حداداً حاذقاً مثلك..

- يمكنك أن تترك الأمر معي.

- تفضلوا بالدخول. - قالت كوروكا.

على النار القهوة المعدة في الحال. بعض المأكولات وضعت على الطاولة فوق صـــندوق حديدي كان سابقاً يخزن فيه النفط الأبيض: فواكه مطبوخة، لحم مجفّف ومـــدخن، طحين، ومانجا قلب الثور، خضراء اللون، ناضجة للطعم، لم يستفيدوا كثيراً من الوليمة لأن ناتاريو كان على عجلة:

- هيا بنا يجب أن أصل إلى البساتين: سيكون لكم الوقت الكافي للمحادثة.

لم يكن ناتاريو قد عاد إلى أعلى القمة منذ أن صعدها مع فنتورينيا الذي كان مهـــتماً بمعرفة تفاصيل الكمين منذ سنوات. وذلك بعد قليل من ليلة العاصفة، ليلة الكمين، الكمين الكبير: توكايا غراندي.

التجمع السكني

العجوز جاسنتا كوروكا
تبدأ مهنة التوليد بما لها
من خبرة قليلة

1

كـيف كانـت وكـيف غـدت؟... تأملي ملياً في هذه الحركة يا سيدة كـوروكا... تـبارك الله. كـان النجار لوبيسينيو يشير بذلك إلى المتغيرات التي استجدّت في توكايا غراندي.

كان الاثنان متوجهين معاً إلى الفلاة، هو وجاسنتا كوروكا. أيام الآحاد، عند الصباح كان الفلاحون يعرضون أمام المستودع الخشبي منتجات زراعية وحيوانات للتربية يأتون بها في الزورق الذي كان باستياو دا روزا، وهو، نفسه لوبيسينيو، قد حفـراه في جذع ضخم كان إمبروزيو وأبناؤه قد قطعوه بالضرب بالفؤوس. وفي بدايـة هـذا العالم الجديد كان أرباب المهن، من بنائين ونجارين لا يرفضون القيام بعمـل، فهم مصنوعون ليصنعوا كل شيء. وفي كل الحالات لم يعد أحد يستطيع أن يندثـر مـن قلة العمل منذ الشتاء الماضي. وكون المعاملات شفهية، والأغلبية شـحيحة الموارد، كان يحدث أن يتأخر الدفع ولكن الكلمة كانت تكفي للالتزام بدفـع مـا هو مترتب. وفي أغلب الأحيان كانت المهمة بمساعدة جماعية: فتبادل الخدمات عملة شائعة في ذلك المكان.

عند موقع السرجيبيين الذين كانوا قد أتوا من مارويين، كانت عائلتان أخريان قـد اسـتقرتا على الضفة الأخرى من النهر، تحرثان وتغرسان، وتربيان الدجاج والماعـز والأغنام والنِّعاج. وبسبب كثرة الأفاعي السامة، كانوا يبنون بيوتهم على أعمـدة خشبية عالية، وتحت تلك البيوت الخشبية المرتفعة كانوا يقيمون الحظائر. كانت الغدد النابية لبعض الحيوانات تغدو لزجة بسبب لدغات الأفاعي التي كانوا يقتلونها ويأكلونها. وبطلب من المقيمين الجدد وضع غيدو ولوبيسينيو تصاميم جسر

بـــين الضفتين المتقاربتين من مجرى النهر، وبسبب ما كانوا قد فقدوه سابقاً بفعل ارتفاعات المياه المفاجئة كان العقيد روبستيانو دي أراجو يبدي اهتماماً بالمشروع، وكذلك النقيب.

كانت عائلة جوزي دوس سانتوس القادمة من بوكين مكوّنة من خمسة أفراد: هـــو، زوجـــته وبـــناته الثلاث. أما عائلة التاميراندو المكوّنة من الوالدين والابنة الوحيدة، فقد جاءت من السرتاو بسبب الجفاف، وكانت ليزا المصابة بالشلل منذ ولادتهـــا قـــد أكملت الثالثة عشرة من عمرها. كان التاميراندو، كل خمسة عشر يـــوماً، يـــشتري عجلاً من مزرعة العقيد روبستيانو - بالآجل، ويدفع الثمن بعد انقـــضاء المـــدة المذكورة - ويذبحه ليبيع اللحم الطازج أيام الآحاد ويجفّف بالملح الكمية المتبقية. وبشراكة مع إمبروزيو، كان جوزي دوس سانتوس مزمعاً على بناء مطحنة ومستودع للطحين: لقد كانت أغراس المانديوكا تَعِدُ بمواسم وفيرة.

- حـــتى قبل فترة قصيرة (تابع لوبيسينيو حديثه) لم يكن أحد يشاهد هنا غير العصافير والأفاعي وحمير القوافل. هل تتذكّرين يا سيدة كوروكا؟ أما اليوم...

كـــان يشير بإصبعه إلى قطعان الدجاج والديوك التي تفرّ من أمامهما مذعورة وكانت القرقة السوداء، خاصة ميرنسيا، تقرق محاطة بمجموعة من الصيصان العارية الـــرقبات. وتحـــت شـــجرة الجاكو على مقربة من مخزن فضول كانت نعجة قد وضعت ثم راحت تضع أنفها في الثمار الذابلة على مرأى من مجموعة الأغنام.

- أتذكر... إن جماعة إمبروزيو نشيطة حقاً مع الاحترام للآخرين. إنها جماعة طيبة. اليوم جاءتني السيدة فانجي بفرّوج سمين، وهي ليست مدينة لي بشيء.

- أليست مدينة، يا سيدة كوروكا؟

- مـــن هـــو مـــدين، أنا، ولا أعرف كيف أدفع ديني - ونظرت إلى يديها الجافتين ذات الأصابع الطويلة والهزيلة - العلم عند الله وحده.

أثنـــيا علـــى السرجيبين والسرتاونيين، وتحدّثا في هذا وذاك، وتبادلا نظرات دافئة على طعم المحادثة العاطفية.

في صـــباح يـــوم الأحد، وبالنسبة إلى لوبيسينيو لم يكن هناك من لحم دجاج يـــضاهي مذاقاً لحم الدجاجة السوداء. ولكن كوروكا لم تكن موافقة: في رأيها أن لدجاجة أنغولا المواصفات المفضّلة على ما عداها. كانت زيلدا زوجة النقيب تصنع

صحناً تسمّيه مقالي الأنغولية ومن يأكل منه لا ينساه أبداً: وهو يصنع من الدجاجة الأنغولية السمينة التي يزيد عمرها على العشرين شهراً: وهذه تؤثر العيش في الغابة وليست معتادة على العيش في الأقنان.

– قالت السيدة فانجي إنها ستربّي هذا الصنف الصعب. وأتاليا مليئة به، وقد وعدني النقيب بأن يجيئني ببعض بيضها لأضعه تحت قرقة ما.

– إن دار النقيب ناتاريو أصبحت جاهزة، مؤثثة بالكامل، فمتى سينتقل إليها؟

– لو عاد الأمر إلى زيلدا لكانت الآن قد انتقلت إليه. ولكن ناتاريو هو الذي يعيِّن التاريخ، ووحده يعرف، وهو لا يقوم بشيء دون إمعان النظر فيه. إذا لم يكن قد انتقل بعد، فلا بدّ من أن يكون هناك سبب ما.

– حتماً...

لم يكن يفيد مناقشة أسباب النقيب ودواعيه. لا بالنسبة إليهما ولا بالنسبة إلى زيلدا... ولا إلى أيٍّ كان.

2

كانت التغييرات قد بدأت مع وصول السرجيبيين خلال الصيف المنصرم. ولكنها تسارعت عندما، قبيل موسم القطاف، كانت أشجار الكاكاو الأولى قد بدأت تعطي ثمارها في المزارع المجاورة لدى نهاية الصراع الذي كان قد انتهى إلى سيطرة العقيد بوافنتورا أندرادي وشركائه وأزلامه المخلصين.

ولولا بداية القطاف لم تكن توكايا غراندي لتتغيّر بقليل أو كثير بالرغم من الخبرة وتفاني الفلاحين في معالجة الأرض وتربية الضرع. ولكن قدوم إمبروزيو وفانجي تحول إلى علامة لتحديد الزمن.

قبل أو بعد ذلك اليوم الذي جعلت ديفا الزنجي كاستور أبدووين والثري فضول عبد الله يرتبكان بينما انطلقت هي في قهقهتها.

في شهر أيار/مايو كانت بعض الحمير قد وصلت إلى توكايا غراندي قادمة من مزرعة بوافيشتا. كان النقيب ناتاريو دا فونسيكا بشخصه، وهو يمتطي بغلة سوداء، قد وصل وهو يحدو القافلة التي تحمل على ظهورها موسم القطاف الأول من بساتينه... كانت قصة ممتعة أدّت إلى احتفال كبير لم يكن ممكناً تجنّبه.

كانت الحمولة كناية عن أكياس قليلة مليئة بالكاكاو، و لم تكن بشيء يذكر إزاء إنتاج المزارع الأخرى، ولكن كل ذهب العالم لم يكن بمقدوره أن يحرِّك ذلك الانفعال السعيد الذي اعترى المستزلم السابق: ففي وجهه الجامد، كانت عيناه الرطبتان تلمعان وعلى ثغره قتامة ابتسامة. وطال الاحتفال في مأدبة غنية كانت الكاشاسا فيها متوفرة ومجانية. وغدت برناردا شبه عاجزة عن احتواء سعادتها، على الرغم من حملها فقد قضت الليل بكامله بين ذراعي العرّاب.

3

سابقاً كان الوقت يمرّ بطيئاً، والحاضر يلقي برحاله ويدوم أشهراً طويلة. ولكن، مع الأغراس التي بدأت تثمر، أصبحت أحداث الأسبوع المنصرم أشياء من الماضي البعيد. الأيام أخذت تتلاحق وأمس غدا بعيداً، وقبل أمس لا يتكلم عنه أحد إذ يكون قد ضاع في المسافات.

لم يكن يعود إلى الماضي غير يوم الأحد الذي، في الزورق المحفور في الجذع الضخم، كان الشاب أوريليو والفتاة الطريقة ديفا قد وصلا آتيين معهما بالإنتاج الزراعي ليبيعاه لمن يريد أن يشتري. السكان البدائيون رأوا، موضّبة في أكياس القنب، أشياء لم يكونوا قد رأوها في توكايا غراندي: الهندباء والبطاطا الحلوة والخيار المائي، والملفوف الإفرنجي، وكل شيء بكميات محدودة. كان هناك من لا يصدِّق عينيه.

وفي كل أسبوع كانت تزاد الأنواع والكميات للبضائع المعروضة. وأظهر الثري فضول، بلهفة، شوقاً إلى الفلفل الحار بكافة أشكاله وألوانه. وكان ناندو قد بدأ يتاجر بالعصافير. هو وإيدو شريكان ينصبان المصائد والفخاخ في الغابة التي تسكنها عصافير الكوريو، والباباكابين، والببغاوات؛ وكان الاثنان يصنعان الأقفاص. وفي محل حدادة تيساو كان بلبل أجمل ما يكون عليه ريش من ألوان زاهية ينشرح الصدر لغنائه ومنظره.

موهاليا كانت قد تأخّرت عن الوصول أمام المستودع الخشبي للمساعدة في المعرض. وعندما رأوها قرب زوجها، وحميها وأنسبائها، كانت قد وصلت وعلى كتفها مولود جديد، وبكاء، وضعته قرب بضاعة المفرق.

كان المعرض الأسبوعي يجتذب، بالإضافة إلى المقيمين، المستزلمين والعمال من المزارع القريبة. كانوا يأتون ليشتروا البطاطا والخضار غير المتوفرة في المزارع، حيث الأرض، مهمـــا اتـــسعت، كانت مخصّصة لزراعة الكاكاو، قطعة من الخيار المائي لطبخها مع الفاصولياء السوداء، وبعض الخس والملفوف الإفرنجي والهندباء لمزجها بالـــتوابل وأكلها مع اللحوم المجفّفة. وكانت تأتي إلى المعرض أيضاً للمرح، تفتيشاً عـــن اللهـــو، نـــساء وأهـــل عيد. وكان قد جاء بعض العازفين على الكمنجة والهرمونيكا، وليكو كارابيبا يخرج موسيقى من طرف فمه تطرب لها الآلهة. أما في محل الحدادة فكان البلبل "سوزي" يحفظ النغم.

وأخذ يزداد رهط الفتيات، وتزداد أكواخ القش وتتجمّع هناك بعدما كانت مبعثـــرة. وأخذت الدبكات تبدأ عند مغيب الشمس نشيطة حيوية. كان ذلك هو الـــوقت الذي كان الغداء الأسبوعي الذي يولم به تيساو ويجعلهم يشعرون بوجود يوم الأحد.

أفـــراداً وزرافات، حين يمرّون بكوروكا ولوبيسينيو في طريقهم إلى المعرض، كـــان المـــستزلمون يـــرفعون قبعات القش ويلقون التحية باحترام، وبصوت دافئ وبطيء:

– صباح الخير يا سيد لوبيسينيو. صباح الخير يا سيدة كوروكا. من قبل كان الـــنجار وابـــنه فقط يتعاملان معها كسيدة لأنها الكبيرة: وبالرغم من كونها امرأة عامـــية فإنها كانت تستحق الاحترام بسبب سنها. ولكن هذا الأمر غدا هو الآخر شـــيئاً من الماضي. كان المقيمون الجدد قد بدأوا يتوجهون إليها بالسيدة كوروكا، وبكـــل وقار، وحتى أولاد المستزلمين والعمال والقتلة كانوا يطلبون منها البركة. لو أنها كانت عاهرة لما نادوا عليها بالسيدة، ولما كانت أكثر من امرأة ضائعة ومحتقرة، ولكـــن كونها قابلة، فالأمر مختلف تماماً. إنها امرأة معتبرة وتستحق التقدير والتمييز عن الأخريات.

4

عندما احترفت مهنة القابلة، في الرابعة والخمسين من عمرها، لم يكن الطفل الأول الذي أبصر النور على يد كوروكا هو ابن برناردا كما كانت تأمل وتتوقّع.

كانت تغطّ في نوم عميق قرب زي رايموندو، زبونها المفضل، في أزمنة الدعارة والذي كانت تستطيع أن تحادثه وتضحك معه قبل وبعد العملية الجنسية، عندما بدأ أحدهم يناديها بصرخات ترتفع من عند الباب.

– إنهم ينادونك يا خالتي... أخبرتها برناردا التي استيقظت في الغرفة المجاورة.

– إني ذاهبة...

عند الباب، وهو يرتجف حتى العظم، ودون أن ينتبه لإلقاء التحية، أخبرها أغنالدو:

– لقد حان وقت الولادة! لقد أرسلتني أمي للمجيء بك. هيا بنا، بسرعة، لقد بدأت ليا تعاني آلام الوضع – وكرّر أغنالدو – بسرعة.

إنه أمر مفاجئ وغير منتظر: وإذ لا تزال كوروكا في آثار غفوتها فإنها لم تفكر مرتين:

– سآتي في الحال.

في الوقت الذي راحت فيه تستر عريها بأي شيء، وفي الغرفة، فتح زي رايموند عيناً وأراد أن يعرف سبب الضجيج.

– لا شيء... لا. سأذهب إلى هناك وأعود في الحال.

وإذ لا يزال الزورق راسياً عند جذع الصفصافة، اجتاز أغنالدو النهر سباحة، بينما راحت كوروكا تجتازه متوازنة على الحجارة كالمعتاد. عندها فقط انتبهت جيداً حتى لا تهوى في النهر احتراماً للسبب الذي جعلها تسرع في اجتياز النهر وصولاً إلى الضفة الأخرى. وكانت برناردا إذا سئلت: أين ستضع وليدها الجديد، وعلى يد أية قابلة في كاراكاس أو إيتابونا؟ ودون تفكير، تجيب بردّها المعهود: لا في كاراكاس ولا في إيتابونا، هنا بالذات في توكايا غراندي، وبمساعدة الخالة جاسنتا.

– وهل تعرف كوروكا التوليد؟

– بالتأكيد... وما الذي لا تعرفه؟

كانوا قد علموا بشهرة كوروكا في التوليد قبل أن يبصر أي طفل النور على يدها، وقبل أن تحترف مهنة القابلة. وعلماً منها بالشائعات، تذكّرتها السيدة فانجي في ساعة الضرورة عندما بدأت كنتّها تحسّ بالمخاض العسير. كانت فانجي ذات

خبرة في الولادات لأنها كانت قد ولدت تسعة أطفال، خمسة منهم أحياء، والباقون؟ لم يولدوا! في حقول مارووين، وعلى الأخص كنّتها الأخرى، ساعدت فانجي في الولادة العسيرة لدينورا. ولكنها كانت تتردّد في أن تكون المساعدة الوحيدة لكنّتها ليا، وعلى الأخص أن الأخيرة حلمت قبل ليلة بزوجها مربوطاً إلى جذع في حظيرة العجوز فقفزت من نومها، وبأعجوبة تمكّنت من المحافظة على الجنين في رحمها.

كانت فانجي تخشى الولادة العسيرة، وتفرض وجود يد ماهرة وثابتة لقابلة عليمة، حتى تتم الولادة بسلام، وعندما سألت، علمت بكوروكا: الكفاءة بعينها.

5

ممتدّدة على ألواح السرير الخشبية، لم تكن ليا تتوقف عن الزعيق والمطالبة بحضور زوجها. إمبروزيو وجوزي كانا يذهبان ويعودان قلقين. ديفا لم تكن تعلم ما تفعل، ودينورا كانت تقمط ابنها نصف مرتعبة. ووجدت فانجي نفسها وحيدة لا تستطيع السيطرة على ما يعتريها من قلق وحالة سيئة. أين هذه الخالة التي لا تصل؟ وحده ناندو في الغرفة المجاورة كان ينام ولا يعلم بما يجري.

دخل أغنالدو جالباً الماء، ثم خطا سريعاً نحو ليا وأخذ يدها وجلس قربها. عندما رأته أرخت الباكية جسدها دون أن تتوقف عن الزعيق، واستفهمت فانجي من ابنها:

– أين الخالة؟

– إني هنا، "يا ست" فانجي. السلام على الجميع.

تقدّمت كوروكا من السرير الخشبي، وأمرت أغنالدو:

– أنت، يا شاب، اذهب إلى الخارج، اختفِ من هنا، واترك المسكينة بسلام. إذا بقيت قربها فهي لن تلد اليوم ولا أي يوم – وعمّمت الأمر على العجوز إمبروزيو وجواوزي: – أنتما أيضاً، لا أريد أن أرى رجلاً يتمختر في هذه الغرفة.

ومثل شمعة ظلت واقفة قرب الفراش إلى أن رأتهما يخرجان. فقط عند ذاك، عادت تنظر إلى ديفا وتأمرها:

– يا صغيرتي، اجلبي القنديل واشعليه هنا.

شـــغلت كـــوروكا المكان الذي كان يحتله الشاب، وابتسمت لليا، وبيديها قاست البطن وعدد الطلقات:

– الآن، يا صغيرتي، سنبذل الجهد من أجل أن يخرج هذا الجلف إلى النور. لا تخـــافي أبداً، فالولادة ليست مرضاً. – داعبت وجه ليا – هل اخترت اسم الطفل؟

– لم أختره بعد يا سيدتي.

تـــسلّمت كـــوروكا القيادة كما لو أنها لم تفعل في حياتها شيئاً سوى توليد الأطفـــال و لم تعد فانجي ترى نفسها وحيدة فقد استعادت ثقتها ووضعت نفسها بتـــصرف الخالـــة. طلـــبت كوروكا قنينة. جلبت ديفا قنينة فارغة ما تزال رائحة الكاشاسا عالقة بها.

– انفخي فيها بقوة – أمرت كوروكا وهي تضع القنينة بين يدي ليا لتأخذها بالـــتالي من جديد: – لا تنفخي مرة واحدة حسب بل استمري بالنفخ. سأريك كيف... أُنظري جيداً...

علّمتها الطريقة الصحيحة:

– انظري خذي نفساً عميقاً، هكذا مثلما فعلت، وانفخي في القنينة بقدر ما تستطيعين – تنفّست عميقاً ونفخت في فتحة القنينة:

– ثم افعلي من جديد، ولا تتوقفي عن النفخ.

طلبت كوروكا أن يغلوا الماء ويضعوه في وعاء كبير لحمام الجلوس الضروري لتسريع الطلقات والتعجيل في الولادة:

– ليس من شيء أفضل من هذا.

وطلـــبت كوروكا من دينورا الواقفة هنا بدون عمل، وهي تحمل طفلها على عنقها:

– ما هذا الاندهاش الذي لا معنى له، يا امرأة؟ خذي الطفل إلى سريره لينام، وتعالي للمساعدة، اجلبي الحوض وضعيه قريباً من هنا.

لم تكـــن كـــوروكا قد قامت بأية عملية توليد في السابق، ولكنها في المباغي حضرت عدة ولادات، اليسيرة منها والعسيرة، وساعدت الخالات المحترمات وهن يهيـــئن للـــولادة، وأبدت إعجابها بمعرفتهن وخبرتهن. ولكنها كانت قد شاهدت

مولودين جدداً يخرجون أمواتاً إلى النور أو يموتون بين أيدي الفضوليات اللواتي لا مهارة لديهن بل عدم انتباه وجهل.

تلــك القابلات كن يدّعين الخبرة و لم يكن لديهن منها شيء، ومع ذلك كنّ يطــالبن بالأجــور ويحصلن عليها. وكانت كوروكا قد تعوّدت القول، من أجل الــضحك، أن لا أحــد أكثر منها قد حضر ولادة أبناء عاهرات. ولكن، لتحمل مسؤولية القيام بأعمال قابلة، وأن تأتي بالحياة أو الموت، فهذه هي العملية الأولى.

كانــت كوروكا تحسّ بالبرد يخرج من أحشائها إلى صدرها، ولكنها لم تكن تظهــر ذلك، ولا تجعل أحداً يحسّ بما تستشعره. كان منظرها الخارجي هادئاً، غير مكتــرثة، تطــيل الحــديث عن أغراس الكاكاو والحيوانات والدجاجات البياضة والنعجة الحامل. وكانت تقطع الكلام لتفرض على ليا الاستمرار في النفخ في فتحة القنيــنة بقــوة ودون راحــة. الطلقات بدأت تطول، وأحسّت المرأة بأن داخلها يتحطّم: الويل لي، سأموت.

مع ذلك تمكّنت كوروكا من أن تحمل المرأة المتوجعة في مخاضها على الضحك:

– في الساعة التي كنت تصنعين فيه الطفل كنت متمتعة أليس كذلك؟

استعجلت كوروكا كلاً من دينورا وديفا في تسخين الماء:

– عجلوا في تسخين الماء. وضعوا المزيد من الحطب في الموقد.

في الغــرفة المجاورة استيقظ الطفل وهو يبكي وأخذ ينادي على أمه. وأرادت دينورا أن تسرع إليه، ولكن كوروكا لم تترك لها المجال:

– إن والده سيرد. أنت مشغولة هنا.

– انظر ما به يا جواوزي. انظر ما يحتاج إليه.

وأطلعها جواوزي على الأمر:

– إنه ممرّغ بالخراء.

– إذاً نظّفــه أنت. – أجابت كوروكا قبل أن تترك دينورا الإناء على الموقد الحجري لتعتني بابنها.

أفرغوا المياه الحارة في الحوض الذي تمّ شراؤه من دكان فضول، بالدّين، شأنه شأن كل محتويات المنــزل. وساعدوا ليا على النهوض من السرير الخشبي ووضعها في الحوض وتنورتها مرفوعة إلى أعلى من الخصر:

- يا ويلاه. لا أستطيع التحمل: إن الماء الساخن يحرق لحمي.
- بقدر ما يكون حاراً يكون أفضل لك.

أمسكت فانجي ودينورا المرأة الحامل من ذراعيها وجعلت كوروكا تشدّ برجليها لإبقاء فخذيها مفتوحتين لتدخل الحرارة إلى جسد المعتنى بها. وفي ذروة الحماوة كان البطن يتمدّد، وتزداد الأوجاع، وتزيد الطلقات، تتوالى الواحدة بعد الأخرى، وكانت ليا تزعق حيناً، وتصرخ حيناً آخر: أغنالدو يتجسّس من الباب منازعاً. وكانت ديفا تقلّم أظافرها بأسنانها، مضطربة.

عندما بدأت الماء تبرد أعادوا ليا إلى فراش القش على السرير الخشبي.

6

مجتمعات حول السرير الخشبي، ووسط الزعيق المخيف، طيلة النهار، فإن النساء هناك - كنّ ينتظرن انتزاع الحياة... ووصل الطفل عند منبلج الفجر والرجال قد انطلقوا إلى العمل: كانوا قد بدأوا بمعالجة الأرض بينما الليل لا يزال معتماً. وإذا كانت كوروكا قد سمحت لديفا فإن الأخيرة رافقتهم مع الزوادة التي تضع فيها اللحم المجفف، وطحين الذرة، والأجبان ومربى الموز. كان أغنالدو قد ذهب بالرغم منه، لأن كوروكا لم تسمح له بالبقاء.

- إن الأب لا يفعل غير الإعاقة عن القيام بالضروري.

متيقظة، فإنها لاحظت، خلال طلقة قوية انقطع أثناءها صوت ليا عن الصراخ، عندما وقفت عند مدخل الرحم جمجمة طرية يكسوها وبر أسود، وتمنّعت هناك على الخروج.

- إنه يولد... لاحظت كوروكا وهي تقول ذلك متمتمة.
- لقد عصي على الخروج - الويل لي يا الله - وبينما هي مستنفرة كانت دينورا تشدّ على يديها.
- اقفلي فمك. - أجابت فانجي.

لحسن الحظ إن القابلة كانت قد أرسلت ديفا وأغنالدو إلى العمل، لو كانا هناك لكان الصراخ قد بلغ أوجه "ولينجنا الله" وانحنت لترى.

وبينما هي منحنية أمام ليا، أدخلت كوروكا يديها، كل واحدة في جانب من جانبي فم الحياة، وجعلت أصابعها تتوغل لتفسح مجالاً للمرور. ولامست عندئذ بدقة متناهية الرأس الطري، وبثقة وأمان سحبت الرأس إلى نور الفجر بين يديها، بعد ذلك سحبت جسد المولود المكسو بالدم. وبطلقة أخرى طردت ليا من بطنها العبء.

المولود الجديد لم يبك: هل يكون حياً أم ميتاً؟ عندما رفعته إليها انتبهت كوروكا إلى أن حبل الصرّة كان يلتفّ على رقبة الطفل مهدِّداً بخنقه. وإذ كانت قد شاهدت سابقاً مثل هذا الارتباك فإنها كانت تعلم كيف تتصرّف. وبسرعة حلّت الحبل وأنقذت الوليد من الاختناق. ودون أن تنتظر وصول المقص – ففي ذلك الاختناق لم يكن أحد يعلم أين يوضع – وبأسنانها قطعت حبل الصرّة وعقدت جانبه بعدما تركت مسافة أربعة أصابع قبل أن تقضم حبل الحياة بأسنانها.

قطعة لحم ملطّخة بالدم، وضع الطفل بهدوء في الحوض: وأخذن يصفّقن بأكفّهن إلى أن سمعن بكاء الطفل ينطلق وجاءت الصرخات المنطلقة لتؤكد على وجود الحياة.

– تهاني الحارة يا خالة: قالت كوروكا وهي تبعد الحوض بعدما أخذت الطفل بين يديها لتعرضه على الأم: إنه صبي.

لقد انتهى التوليد، عملية التوليد الأولى لكوروكا. ولو سألوا كوروكا من الذي خلّف، هي كوروكا، أم ليا، لما عرفت كيف تجيب. لقد انتهى الحزن وها هي الأم والجدة تبتسمان. ونسيت دينورا مظهرها المضحك، وركضت إلى الحقل مع النبأ: إنه صبي، وصبي رائع.

أخذت فانجي تعدل من حرارة الماء في الحوض لغسل الحفيد:

– لقد رأيت قابلات كثيرات يولدن، ولكني لم أرَ قط واحدة ذات يدين ماهرتين كيديك. مباركة يداك يا خالة جاسنتا.

يدان ماهرتان، مباركتان! دون أن تجد جواباً مناسباً ودون أن ترغب في صدم أحد، أدارت كوروكا ظهرها، والتجأت إلى الغرفة الأخرى: كانت تتنهّد بعمق، والدموع تسيل على وجهها. ولو خرج أحد يروي في توكايا غراندي أو في العالم الخارجي أنه رآها مجهشة في البكاء، فسيكون أكبر الكذّابين على الإطلاق.

العقيد بوافنتورا أندرادي يقترح نخباً من الكاشاسا

1

قلـــة من الحمير، في قافلة صغيرة، كانت كافية، في ذلك الوقت المبكر، لحمل محصول الكاكاو الأول في مزرعة بوافيشتا. ولكن العديد من الحمير، وقافلة كبيرة، كانـــت ضـــرورية لحمل الموسم الأول الذي جني في المناسبة نفسها من غرسات العقـــيد بوافنتورا أندرادي. لدى نهاية الصراعات كانت مزرعة أتالايا قد تضاعفت مـــساحة، ولـــن تلبث أن تتضاعف مرة ثانية، ومن يدري فقد يأتي الإنتاج أضعافاً مضاعفة فيما بعد.

كونه مديراً لملكيات العقيد الريفية، فإن ناتاريو كان قد قرّر، ونفذ قراره: إن القطاف سيتم في المساحة التي حصل عليها من العقيد كمكافأة وسجلت باسمه في السجل العقاري في إيتابونا. لم يقطف حقله قبل أن يقطف حقول سيده العقيد.

إذا كانـــت مزرعة بوافيشتا إلهية، فماذا يكون القول عن الحقول المترامية في إيـــتالايا؟ حتى مزارع العقيد هنريكي باريتو، الملقّب بملك الكاكاو، لم تكن تنال عناية مماثلة، ولم تكن تصل في أوجها إلى محاصيل كهذه، بالرغم من وجود مهندس زراعي دائم يحمل لقب دكتور، وشهادة تكفل تقنيته الزراعية المتطورة. إن الأزلام والعمال لم يكونوا يلهون ويقومون بأعمالهم، ومن المستحيل أن يفعلوا ذلك تحت إمرة النقيب ناتاريو دا فونسيكا. ومقابل النشاط في العمل كان دفع الأجور يتمّ بلا تأخير ودون ارتكاب أخطاء حسابية في حسابات الأسبوع.

لم يـــتمّ هـــناك إلا محاولـــة سرقة واحدة للأزلام والعمال ولكنها لم تتكرّر. فالمحاسب بيريفالدو، الموظف المسؤول عن دفع الأجور، وهو محاسب متخصص، تمّ إعـــلام ناتاريو عنه بواسطة بعض المتطورين عقلياً: لقد كان المحاسب يدفع أقل من الأجـــور المتوجبة، ويحسم أكثر من الديون والسلفات المترتبة على العمال. ولما تمّ

التأكد من صحة التهمة فقد طرد المحاسب من العمل والمكان ولكنه لم يذهب بعيداً، إذ لم يكد يتجاوز حدود أتالايا حتى أصبح جثة تنهشها الغربان: لم يستحق أكثر من طلقة واحدة كانت كافية وتنيف.

– هل كان ذلك ضرورياً؟ – سأل العقيد بوافنتورا النقيب بينما يتحدث الاثنان على حدة حول ما حدث: ألم يكن كافياً تأنيبه بالضرب؟

– لعمل سيئ، أجل. ولكن لتجرؤه، فلا.

– تجرؤ؟ أي حديث هو هذا؟

– لكي يجد العذر لنفسه فإن الشقي راح يدّعي أن سيادتك أمرته بعمل هذا. فهو، إلى جانب كونه لصاً، مُشهّر وعاق.

ابن العاهرة! الأخذ مما ليس لديه، فليحرسني الله ويعتقني! من يزرع الكاكاو ليس بحاجة إلى أن يسرق عاملاً. لقد تصرّفت جيداً يا عرّاب.

– بإذنك يا حضرة العقيد.

كم من المرات كان العقيد قد سمع تلك العبارة؟ كان ناتاريو يتصرّف بإذنه وباستقامة مطلقة. لم يستغل أبداً و لم يتجاوز. هزّ العقيد رأسه موافقاً، واستطرد:

– إنك تهتم بأرضي، وتحافظ على اسمي بإخلاص.

إداري قدير، ومسؤول، فإن ناتاريو كفل للعقيد بوافنتورا أندرادي كاكاو متفوّقاً وبكميات أكبر بكثير مما توقعه العارفون: وعندما تحقّق من الكمية، فإن المهندس كلوفيس بانديرا الزراعي المشهور، غدا مندهشاً وهنّأ المزارع الكبير.

وبالرغم من كونه ملاكاً، ومزارع كاكاو وضابطاً في الحرس وبرتبة معلقة على صدره، فإن ناتاريو لم يهمل إطلاقاً مصالح السيد: كأنما مزرعة أتالايا كانت تخصّه أرضاً وإنتاجاً... مع ذلك لم يهمل قط، وبنزق مماثل، العناية بغرساته التي تتكوّن منها مزرعته الصغيرة. إنها صغيرة في أيدٍ غير يديه... أما في يديه، هو النقيب ناتاريو دا فونسيكا، فهي مزرعة بوافيشتا.

2

جالساً على الكرسي ذي المرفقين، والمسند المرتفع، إلى طاولة الطعام في دارته الكبيرة في مزرعة أتالايا، فإن العقيد بوافنتورا أندرادي جال بناظريه على السادة

ذوي الـــشأن من المدعوين المختارين جيداً، وبينما ارتفع صوته، توجّه بالكلام إلى ناتاريو مقاطعاً، دون استئذان، المدّعي العام في إيتابونا الذي كان يعرض فصاحته: إن المدّعي العام بهيم!

– إنك رجل مستقيم يا عرّاب ناتاريو، أعلن ذلك.

المدّعـــي العـــام فلافـــيو رودريغز دي سوزا، جيد الاتهام في محكمة المحلفين، صـــمت وســـط الجملة التي، عندما مدَّ لسانه ليعلن العدالة، كان يتلمّظ بطيبات الآلهة. صمت الجميع. وقال العقيد ثم كرّر القول حتى لا يبقى مجال للشكوك:

– إنك رجل خير على غرار القليلين.

ولكـــي يعرف الجميع – من وجهاء إيلايوس وإيتابونا وسيكيرو دي إشبينيو وأغـــوا بريتا – كم من الاعتبار كان يحمل لمن استحقّ ذلك، بالإخلاص والتفاني، طيلة عشرين سنة.

– كم من السنوات، يا عرّاب؟

– لقد زادت على العشرين يا حضرة العقيد.

– كـــنت في مقتـــبل العمر ولكني رأيت أنك تستحق الثقة. إنك لم تتغيّر في وفائك أبداً.

كـــان ذلـــك تأكيداً مذهلاً ولكن العقيد لم يكن قد انتهى بعد من الإصغاء والكلام.

– قيل لي إنك بنيت بيتاً خارج أتالايا حيث ستقيم مع العرّابة والأطفال. هل تفكّر في التخلي عني؟

مـــا دام العقيد على قيد الحياة راضياً عن خدماتي فإنني رجله الأمين. ولكن الحقـــيقة هـــي أنـــي سأقيم وسط الطريق بين أتالايا وبوافيشتا. وفي مكان أريته لسيادتك يوماً. هل تذكر؟

مـــا دام العقيد على قيد الحياة راضياً عن خدماتي فإنني رجله الأمين. لقد سمع ما كان يرغب في سماعه، فتنفّس مرتاحاً. لقد تفهم نبأ بلغه عن بناء ناتاريو بيتاً له.

– أتذكـــر يا عزيزي. أتذكر جيداً، وكيف يمكن أن أنسى؟ إنني إذ تكلمت في هذا الموضوع فلكي أقول لك إنني لا أعرف رجلاً أكثر استقامة منك. أريد أن يكون معلوماً لدى الجميع أنك لم تخذلني أبداً.

كـــان العقـــيد يرأس الغداء التذكاري بمناسبة عيد زوجته، القديسة السيدة أرنـــستينا. وعاد ليملأ كأسه بنبيذ برتغالي أحمر قان. كان قد أتى ببرميلين منه من إيلايـــوس وفي نيّته ذلك الغداء الذي لم يرده فقط وّفيراً بمآكله ومشاربه، بل أراده احتفالـــياً ولكي يحتفل في الحين نفسه وبنفس القدر بوجود ابنه الواصل حديثاً من الريو دي جانيرو.

بالـــرغم من كونه العقيد بوافنتورا أندرادي، الأكثر من ثري، المليونير، سيد الكاكـــاو المطلـــق، فإنه كان يمشي في الآونة الأخيرة متجهماً، قليل الكلام وقليل الابتـــسام. كانـــوا يقولون متمتمين إن ذلك يعود إلى غياب ابنه الوحيد، الدكتور الذي تأخّر في عاصمة البلاد منذ انتهاء تخصصه، وقد مضى على ذلك خمسة أعوام طويلة ومريرة. كان ابنه يجمع الشهادات، ويلتحق بفروع علمية، ليتخصّص. ما لم يكن العقيد يستطيع أن يكتشفه كان في كونه يبدِّد المال تبديداً.

رفع العقيد كأسه باتجاه ناتاريو ليناخب المستزلم السركال: ذراعه اليمنى كما كتب ذلك يوماً إلى قاضي إيتابونا عندما انتهت الصراعات على ملكية غابات نهر الأفاعي. وكرّر:

– لم تخذلني قط.

أحاط العقيد مدعويه بنظرات الذكريات.

– لقد أنقذت حياتي مرتين. بصحتك يا عرّاب.

بوجهه الجميل، جالساً على الطرف الآخر من الطاولة، وقف ناتاريو، وحرّك كأسه: بصحتك يا حضرة العقيد: وقلب كل ما في الكأس إلى جوفه.

كان الصمت ما يزال مخيماً لأن المحتفلين لم يكونوا يعلمون ما إذا كان العتيق قد أنهى، أم لا، سفسطته السخيفة.

المحتفلون، أشخاص من ذوي النفوذ، جميعهم، ووفقاً لما تمّ الكلام عنه سابقاً، قاضي الشؤون المدنية، من إيلايوس، وقاضي الحقوق المستعجلة من إيتابونا وبرفقته المدّعـــي العـــام، والدكتور جوان مانغابيرا نائب الولاية الذي لا يزال شاباً ولكنه مـــشهور بذكائه، العقيد روبستيانوا أراوجو صاحب مزرعة سانتا ماريانا، والعقيد بـــريجيدو باربـــودا صاحب مزرعة سانتا أولايا، والعقيد جوان دي فاريا صاحب مزرعة بياوتينغا الذي قاتل إلى جانب باسيليو دي أوليفيرا في سيكيرو دي إشبينيو،

والعقـــيد برودنـــسيو دي إغيار صاحب مزرعة ليندا فيشتا، والعقيد إميليو مدور، العـــربي، الـــذي، بالإضافة إلى مزرعة دمشق الجديدة كان يمتلك بيتاً في أغوابريتا، وأحـــد أبنائه يدعى جورج، زميل في زمرة فنتورينيا، كان أيضاً يلهو في ريو دي جـــانيرو، ويكتب مقالات إلى الصحف، وقد نشر ديوان شعر كان والده مفتخراً به يعرضه اعتزازاً في حلقات الأصدقاء، ويكمل اللائحة محاميان خبيران في شؤون التزويـــر، والقاضـــي العجـــوز أفونسو ذو الشهرة العريضة بالقابلية على الأكل والشرب، و لم يكن تقدّمه في السن ليحدّ من تلك القابلية.

الـــسياسيون، والقضاة، والدكاترة والكاهن العلاّمة كانوا يأكلون من يد العقيد ويدعمـــون بحـــرارة الإطراء على المستزلم السابق. ولكن أصحاب المزارع، وحدهم، والعقـــداء كانوا أنداداً له: كانوا يعرفون سبب الأشياء، ويعرفون القيمة الحقيقية للوفاء وسعر الموت والحياة، ويفهمون أسباب التبجيل والإكبار للنقيب ناتاريو دا فونسيكا.

3

كـــل الموجـــودين يعرفون أن الغداء مزدوج الغاية الاحتفالية. كانوا يحتفلون بتاريخ ولادة الزوجة القديسة والسيدة الفاضلة، وبحضور الابن الوحيد، للزوجين، الدكتور بوافنتورا دا كوستا أندرادي جونيور – أو أندرادي الابن وفقاً لعناد العقيد – أمـــا حـــين كان طالباً في كلية الحقوق باهيا، وفي بيوت الدعارة، فكان معروفاً بفنتورينيا السعيد. كان قد جاء من ريو دي جانيرو إلى حيث ذهب في زيارة متعة قـــصيرة، بعـــد تخرجه، ولكنه مكث هناك خمسة أعوام مع بعض الزيارات القليلة والسريعة إلى إيلايوس. إنها لمرض مزمن، هذه الرغبة في العيش في ريو دي جانيرو: كان الفتيان الريفيون يفقدون هناك عقولهم ويهملون أراضيهم وعائلاتهم كما لو لم يكن لديهم واجبات يجب القيام بها، وكما لو أنهم فقدوا كل عطف تجاه آبائهم.

أمـــا ما هو متعلق بالشاب جورج مدور، فهذا على الأقل كان يوقع مقالات في الصحف وقصائد في المجلات، وهي مهنة مشكوك في عائداتها ولكنها ذات بريق وتقدير. "قصائد عاشق للعشق"، كان ذلك عنوان الغلاف الذي كان إميليو مدور يحمله تحت سترته ليعرضه في بيوت ومزارع الأصدقاء، وعند طاولة المحل التجاري، وفي البارات، ونـــزل العاهرات، أما الدكتور أندرادي، جونيور أو الابن، لم يكن

قـــد نشر كتاباً و لم يكتب قط في الصحف، كان يقوم بتكديس المحاضرات واحدة تلو الأخرى: وكان والده العقيد قد تعب من تجميع الشهادات، فهذه كانت تعلق بـــلا جـــدوى في مكتب إيتابونا، المغلق، البكر، إلى حين يأتي يوم تلك المعلومات القانونية الواسعة والغالية.

لم يعـــد للعقـــيد رغـــبة أو حيوية في أن يعلن في إيلايوس وإيتابونا عن تلك الألقـــاب الجديـــدة الـــتي يحصل عليها الطالب الأبدي. أبدي أو مزمن؟ أي من الصفتين سيختار الظريف فؤاد كرم ليحدِّد مهنة فنتورينيا؟ أم ترى فؤاد كرم يعلنه طالـــباً مـــدى الحـــياة؟ أمام العقيد كان التبجيل يبلغ مداه الأقصى لرغبة ابنه في الدروس، أما خلفه فكان الهزء والتندر.

كان العقيد قد تخلّى عن النضال من أجل أن يبقى ابنه قربه، وحول وبدل في الـــنهاية مـــن مشاريعه القديمة، وفي طموحاته الموثقة، كأنما قد تحقّق المصير الزاهر الـــذي حلم فيه وقرّره لابنه. ولكنه لم يكن يفقد الأمل في أن الابن، وفي زيارة من تلـــك الـــزيارات الخاطفة، وبأعجوبة من السماء، سوف يعود إلى رشده، ويفتح مكتـــبه، وينكبّ على العمل كما يجب. وإذا انتبهت السيدة أرنستينا، وقد فتحت عينـــيها، فإنها أخذت تقدّم النذور إلى القديسين الذين تؤمن هم ليعيدوا الابن إلى بـــيت أبيه. إن العقيد لا يريد أن يموت دون أن يتمتّع برؤية ابنه يرافع في المحكمة، ويتدفّق بالدرر، سيد الفصاحة والبلاغة، وساحق المدّعين العامين.

فنتورينيا، هو الآخر، رفع كأسه وحرّكه باتجاه ناتاريو. كان قد سمن كثيراً وأخذ يـــبدو شبيهاً بأمه ولكنه يقلّد الوالد بحركاته وجلسته وفوقيته. وبينما الكأس في قبضته نظر إلى العقيد وإلى المستزلم، وهو أيضاً يريد أن يشترك في المحادثة الشعبية:

– ما زال التصويب عرضة للتبديد، يا فنتورينيا.

في الـــصمت الذي ساد لاحقاً، فإن مدّعي عام إيتابونا الدكتور رودريغز دي سوزا، أخذ الكلام ولخّص مجمل حديثه القانوني: متعة الآلهة.

4

هـــل تـــريد أن تبيع يا عرّاب؟ إذا رغبت في البيع فأنا مرشح للشراء. مازح العقـــيد بوافنتورا أندرادي بعدما جال، بقعة بقعة، في مزرعة بوافيشتا مبدياً إعجابه

بالأغـــراس الجديدة التي أصبحت بساتين من الكاكاو في نمو مدهش. لم يكن هناك ما يماثلها غير مزرعة أتالايا التي تمّت العناية الكاملة بها.

كـــان العقـــيد قد انتهى إلى مراقبة ملكياته الواسعة. كانت ملكيته الأساسية الأولى الـــتي اســـتولى عليها قد زرعها منذ سنوات بعيدة، عندما، مدفوعاً بعنفوان شبابه، حطّ الرحال في أراضي باهيا الجنوبية واصلاً من سرجيبـــي: كان قد احتلّ وظيفة أمين الصندوق في شركة لوبس ماشادو وشركائه في أشتانسيا و لم يعد أمامه غير تحديد وجهة مسيرته الجديدة. ترك كل شيء وأخذ يجدّ في المسير. ثم انضمّت مزرعتان مجاورتان للأولى كان قد اشتراهما بشروط مغرية خلال الصراعات الأولى عندما كانت إيتابونا لا تزال قفراً و لم يكن القطار الحديدي يمر من هناك بعد. ومع الـــصدامات التي اشتعلت على ملكية الأراضي غير المملوكة في ناحية نهر الأفاعي تمّـــت مـــضاعفة المساحات السابقة، وهنا كانت قد بدأت تنمو الأغراس وتزهر وتعطي مواسمها الأولى. كان المنظر ممتعاً للغاية.

لم يكـــد فنتورينـــيا يتخذ طريق العودة إلى ريو دي جانيرو - مكرّراً نشيده المعتاد: إنني إذا أنهيت حصتي الدراسية الجديدة، فسآتي لأبقى، وإذا تأخرت فلكي أوســـع معلوماتي وقدرتي، ولست أضيّع الوقت ولا أبدّد المال جزافاً، فلا تحزنا - حتى كان العقيد قد قرّر الخروج مع ناتاريو في جولة مراقبة تقليدية وضرورية: من لا يهـــتمّ شخـــصياً بأرزاقه لا يستطيع أن يملك ولا يمكنه أن يتذمّر. كانت الرحلة الطـــويلة على ظهر الخيل التي بدأت قبل طلوع الشمس وكانت تتقطع بين بستان وآخر قد خدمته لتفرح قلبه وتنـــزع من رأسه هامش غياب ابنه بينما شوكة سامة كأنمـــا غرســـت في صدره. وكانت الرحلة لتخدمه أيضاً من حيث امتحن كفاءة وإخـــلاص مديـــر ممتلكاته الريفية. لم تتوقف الإطراءات، وناتاريو يستحق التقدير والعرفان بالجميل. لذلك، فإن العقيد بدلاً من أن يعود إلى دارته الكبيرة، أعلن:

- أريـــد أن أرى غرساتك أيضاً، يا عرّاب، والدار التي بنيتها لتقيم فيها مع عائلتك في ذلك المكان: كيف يدعى ذلك المكان؟

- توكايا غراندي، يا حضرة العقيد.

أطـــال العقـــيد بوافنتورا أندرادي النظر في أشجار الكاكاو، تذكّراً للأزمنة السابقة، ولمسيرات أخرى مع ناتاريو:

- لقد سمعت بهذا الاسم. بين الحين والآخر أسمعه على لسان أحد رجال القوافل. إنه أبشع اسم لأجمل مكان.

-هذا صحيح يا حضرة العقيد. ولكن أصبح الوقت متأخراً لتغييره.

- لكل شيء في الحياة سببه، ولا يحق لأحد أن يغيِّره يا ناتاريو.

5

عندما دخلوا الغابة علق المزارع الكبير، مأخوذاً بروعة أشجار الكاكاو المزهرة في ظل أشجار الغابة:

- ليس في الحياة أجمل من كعب كاكاو مثقل بالثمار كهذا. - وأشار إلى الشجرة، أمامه، المكسوة بالثمار التي كانت تنضج بميلها إلى التموجات الصفراء لتضيء العتمة: - حتى تحمل شبيهاً لها فلا شيء هناك غير فتاة جميلة. شيئان يفرحان قلب عجوز مثلي.

- للكلام عن فتاة جميلة، يا حضرة العقيد، ألم تقدم الخدمة إلى ساكرامنتو ابنة تيبور سينيو؟

اقشعرّ بدن العقيد. كان المملوك يقرأ أفكاره، وقد قرأها سابقاً أكثر من مرة: إن قوماً يحملون الدم الهندي في عروقهم لا بدّ من أنهم يحملون جزءاً من الشيطان معهم.

- لقد قمت لها بالخدمة، أجل، يا ناتاريو. إن ما لا تعرفه، إنما تتكهّن به أنت. الواحد بين ذراعي ثنائيه.

بعض المتهتكات، بالتأكيد، كن يتصرّفن في الفراش الزوجي كالعاهرات على فراش المباغي، ولم يكن يحترمن أنفسهن. لم يكن يقضين على نبل الحياة الزوجية وشرط الأم الإلهي بأن تكون عفيفة. أما هؤلاء فقليلات وغير جديرات بالاحترام ومن أجل حاجات الرجال الدنيئة، كانت هنالك نساء عاميات وأخريات خاصة. وكانت السيدة أرنستينا تعلم بوجود أدريانا عشيقة العقيد من أكثر من عشر سنوات: وهو منذ قرن لم يلجها، وقد تركها بسلام، والحمد لله.

ولحسن الحظ إن السيدة القديسة كانت تفكر بهذه الطريقة، فهي مع العبادة والتدني غدت كبقرة متقدّمة في السن، في حين أن العقيد، وبسبب السن كان قد

أصبح أكثر تطلباً. وأدريانا نفسها أصبحت تَلوُح له غير شهية، وطعاماً تقليدياً، وخبزاً بارداً. لقد أكملت المصاحبة بينهما الإحدى عشرة سنة، أضاعت أثناءها أدريانا الحرارة والرومانسية، وأخذت تشتكي من أمعائها، وتعاني من كثرة الإدرار، وبدأت أوجاع الظهر تنال منها، وكانت تتقلّص في الفراش بسهولة وتذهب ليلاً ونهاراً إلى اجتماعات السبيريتاس؛ كانت زوجة ثانية، ونسخة طبق الأصل عن الأولى، ولكنها أقل سمنة وأصغر عمراً. صبية بالكلام: لقد تجاوزت الثلاثين، ولم يعد لديها لا طاقة الفتاة ولا شكلها منذ أن عرفها العقيد وتولّه بها.. وللحمار العتيق سرج جديد.

6

هكذا قفزت ساكرامنتو فجأة إلى حلبة النساء، متدبّرة الأمر بالاجتماع به في أقصى نقاط التلاقي عبر حقول الكاكاو النائية إلى درجة أن أي واحد من المستخدمين والقتلة ورجال القوافل لم يكن يتجرّأ على الاعتداء عليها.

ولم تكن ساكرامنتو سيدة نفسها ومتكبرة حسب، ولكنها كانت أيضاً محافظة وحويطة. كانت قد أكملت الخامسة عشرة ولكنها لا تزال تبدو غير مستعجلة لمغادرة بيتها الصغير، حيث تعيش برفقة أمها، لتقيم مع رجل. لقد وضع العقيد عينيه عليها، ومن لم يضع مثل تلك العينين، عندما شوهدت تمرّ متواضعة، ومع ذلك واثقة من نفسها، وحذرة، وتفاصيل جسدها غير مخبأة جيداً تحت الفستان الشفاف؟

كان فنتورينيا نفسه قد ألقى عينيه خلال الأيام القليلة التي قضاها في المزرعة وأراها لناتاريو عندما، قرب البيوت الخشبية الصغيرة، كانا يمتطيان الجياد بحيوية وهما يتحادثان عن مغامرات الشاب التي كان الأخير يحب التحدث فيها وكان ناتاريو يهوى الإصغاء إليها. في المستودع كانت ساكرامنتو ترقص فوق الكاكاو الناضج رقصة العسل بغية تنظيف الثمار من قشورها تاركة إياها جاهزة للتجفيف في الغرف المعدّة لذلك. كان العسل يسيل في الأقنية الخشبية؛ وعلى خصر ساكرامنتو وهي تقوم بذلك العمل يقف أسيراً طرف فستانها المشدود وفخذاها بارزتان ووركاها تدوران مع خطواتها الخفيفة والسريعة:

- "إني بلون الكاكاو الجاف، وأنا عسل الكاكاو الناضج"
- كاعب جميلة! انظر يا ناتاريو: إنها تستحق..
- لا تستحق شيئاً يا فنتورينيا. لا تتدخل في الأمر، إن لها سيداً.
- هل تداعب هذه الفرخة الطرية؟ قمّاني.
- لست أنا من يفعل. - وبحركة من رأسه أشار إلى الدارة الكبيرة.
- الختيار؟

ضحك فنتورينيا: كان العقيد واقفاً عند الشرفة ينظر إلى البيت الصغير حيث كانت امرأتان، أم وابنتها، تعملان: السيدة أبيفانيا وساكرامنتو.

وغيّر ناتاريو مجرى الحديث:

- اتـــرك الأمر عند هذا الحدّ. قل لي، لمن أعطيت الهدية التي اشتريتها من يد التركي فضول؟

- لقد وهبتها لألمانية راقصة تدعى كات. إنها قطار من الأخطار، يا ناتاريو، وفلفل حار. وهي متزوجة، مع كل هذا.

خلال السفرة السابقة، كان فنتورينيا قد وصف له كيف أنه لدى وصوله إلى الريو كان قد وجد أديلا الإلهية، راقصة التانغو الأرجنتينية (إنها مجنونة بي يا ناتاريو)، في الفراش مع أحد العاملين في الملهى ويدعى أريستيدي بيف - باف. وكـــان الاثنان مسترسلين للطيب الجيد، إلى درجة أنهما لم يشاهداه يدخل إلى الغرفة. هل تذكر يا ناتاريو ذلك السوط الجميل الذي أهديته لي؟ لقد كان ذا فائدة كبيرة لي: فيه قطع وجع ابن العاهرة تقطيعاً وترك قفا (الخنـــزيرة) ملطخاً بالدم..

- هل تعني أنك الآن على علاقة بألمانية؟ هل تحب حقاً أجنبية؟..

كانـــت الألمانية هي الأخرى قد دخلت هيكل الماضي و لم تمكث معه طويلاً، إذ كانـــت قـــد ذهـــبت إلى منتجعات أخرى، ومراكز لهو جديدة، مع زوجها. وبالمناســبة كـــان فنتورينيا على علاقة صداقة براقصة أخرى، غير أنها من غاليزا الإسبانية، وهذا هو الأجمل في الدنيا، يا ناتاريو.

- هـــل سمعـــت أحـــداً يتحدّث عن رقصة الفلامنغو؟ على أنغام موسيقى الكستانيولاس؟

لم يكن ناتاريو يعرف الرقصة باسمها الأجنبي. ولكن الفرصة كانت قد واتته لحضور سيرك في إيتابونا حيث إحداهن كانت تعزف موسيقى "كاستانيولية" وترقص. كانت ترتدي سترة ضيقة وتنورة عريضة: تبدو غجرية، ومن يدري فربما كانت من غاليزا. ولكي يوضح الأمر، فإن فنتورينيا رفع جسده السمين والكبير الحجم وهزّه بحركة راقصة، مقلداً بيديه وفمه خطوات الرقصات وأنغام الكاستنيولاس.

- كان شيئاً شبيهاً بهذا.. - اعترف ناتاريو.

أوقف فنتورينيا العرض، واعترف:

- غيرة قاتلة إلى درجة الخوف. لا أستطيع أن أنظر إلى امرأة أخرى لأنها تتحوّل إلى وحش كاسر، وتهدِّد بقتلي، وقد بدأت تعدّ للفضائح. إن الإسبانية قادرة على القيام بأي شيء عندما تكون مولهة: فرحاً بنفسه وراضياً عنها، ومعتزاً، فإن فنتورينيا بدا مفتر الثغر عن تلك الابتسامة الخفيفة لفتى كان يعاشر العاهرات في كاراكاس وإيتابونا بغية البقاء دائماً في حالة عشق مزمنة: - هل تعرف اسم تلك الراقصة الإسبانية؟ تأمل فقط: كانت تدعى:علاج.

- علاج؟ إنك تخترع كل واحدة، علاج! هل هذا اسم يستعمل؟

عند هذا الحدّ، كان فنتورينيا قد عاد إلى ريو دي جانيرو سعياً وراء أجنبيته تاركاً العقيد حزيناً منكسر النفس، يطوف حقول الكاكاو ليرفع رأسه أو ليحافظ عليه مرفوعاً، وليعود إلى الضحك، ولكنه مع ذلك، لم يكن قادراً على استعادة الفرح.

- إن سيادتك بحاجة إلى استخدام شخص لمساعدة السيدة بيكينا في غسل الأواني والمطبخ. إن السيدة بيكينا أصبحت متقدّمة في السن ولم يعد بمقدورها أن تقوم بالعمل وحيدة. - لم يقل أكثر من ذلك، إذ لم يكن الأمر يستدعي المزيد.

- إنك كنت دائماً ذا نصيحة جيدة يا ناتاريو.

في مزرعة بوافيشتا، كان العقيد بوافنتورا أندرادي قد سأله ممازحاً إذا كان يرغب في البيع. ولم يتعجّب للعناية المبذولة للأغراس: كانت عناية شبيهة بالتالي لاقتها مزرعة أتالايا. ولكن العقيد أصيب بالدهشة عندما وصل إلى توكايا غراندي: لقد غدت بحجم وحركة البلدة.

7

قـــبل أن يترجّل قرب مربط الخيل إزاء مستودع فضول عبد الله، سأل العقيد بوافنتورا أندرادي:

– كم سنة انقضت، يا ناتاريو؟

– سبع سنوات كاملة، يا عقيد.

– كان المكان مقفراً، وأتذكّر ذلك جيداً. أتذكّر أيضاً ما قلته لي آنذاك: هذا المكان سيغدو يوماً مدينة. إنها لم تصبح مدينة بعد ولكن ينقصها القليل.

مغالاة زائر، إنها ليست أكثر من بلدة صغيرة تنمو بسرعة بعدما تمّت زراعتها خلال سنوات. كانت سنوات البقرات العجاف عندما كان فضول لا يزال عرضة للكثير من التجارب الكبيرة والعذابات التي تضع إيمانه على المحك.

وهـــا هو التركي ينقض مسرعاً، خارج الباب، لمساعدة العقيد على الترجل عن حصانه.

– أية سعادة، يا حضرة العقيد، أن نشاهد السيد الكبير في آخر الدنيا.

– صباح الخير، يا فضول التركي، دعني أخبرك: إني مصاب بالذهول حقاً. لم أنكـــر قـــط في أن يكـــون المكان قد غدا قرية كبيرة. لقد سمعت من هذا، ولكني مـــصاب بالدهشة. لقد أحسنت فعلاً عندما توقفت عن التجوال واستقريت هنا. الحق مع من يقول إن العرق العربي يمتلك حاسة شم قوية، وحيث وضع قدمه فإن الأعمال تنمو وتزدهر. إنك لن تتأخر في أن تصبح غنياً وتشتري مزرعة كاكاو.

– إن الله هـــو من قادني إلى هنا، يا حضرة العقيد. لقد جئت وهو ممسك بـــيدي، ولكني لم أمكث، ولم أنصرف من هنا في البداية عندما كان كل شيء عسيراً، إلا بفضل النقيب الموجود هنا. لولاه، لا أعرف ما الذي كان سيحصل لي.

وبيـــنما هـــو يقف أمام باب المستودع، فإن العقيد تفحّص المكان المحيط به. وعند الضفة الثانية من النهر كانت البساتين قد نمت على مدّ النظر.

– يا لها من بساتين رائعة: هل هم سرجيبيون؟

وأعلمه ناتاريو:

– أغلبيتهم. ولكن يوجد أيضاً قسم من السرتاون.

– قبل أيام وصلت عائلة من ربوع بوكين. – أخبر التركي –: خمسة أشخاص.

– مـــن بوكين؟ إنني من مكان قريب منها. أنا من أشتانسيا: يا له من مكان رائـــع لانتظار الموت: – منذ كم سنة لم يعد إلى المدينة التي ولد فيها وبدأ العمل؟ مـــنذ وفاة والده العجوز أندرادي، المواطن الذي لم يكن يجلب العار إلى بيته وكان يعـــزف علـــى المتردِّدة في كنيسة أشتانسيا: – إن أهل أشتانسيا طيبون، نظاميون وشغولون. إنهم ليسوا كسكان الجنوب عند ضفاف نهر سان فرانسيسكو: – كان يثير ناتاريو، متسلياً: – فهؤلاء فوضويون، كسالى، أليس كذلك يا ناتاريو؟

لم يستنكف النقيب من الممازحة، وكأنما ابتسم:

– الفـــرق يا حضرة العقيد هو أن في أشتانسيا فقراً. أما في سان فرانسيسكو فالفقر يعتبر رفاهية لأن البؤس يخيّم هناك.

صـــهل جواد قرب النهر. العقيد، قبل أن يستجيب لدعوة فضول ويدخل إلى الدكان توقف لمراقبة البيوت المحاطة بطريق الحمير، وهي بيوت تكاد تبدو حديثة. ورأى، أبعد من القفار البعيدة، تجمع أكواخ القش التي تسكنها العاهرات.

– وما هذا الذي هناك؟

إنـــه أسفل المنحدر. حي الفتيات. في السابق كن خمساً أو ستاً، لكنهن الآن عديدات ولا يمكن معرفة عددهن.

تأخر العقيد وهو يتأمل في الحركة. على باب مستودع العقيد روبستيانو دي أراجو كانت قافلة مكوّنة من مجموعة عديدة من الحمير تفرغ حمولتها من الكاكاو الجـــاف. وفي الإسطبل، كانت مجموعة من رجال الأحزمة الجلدية تعتني بالثيران. الـــدجاج البياض والماعز مبعثرة في المحيط تنقب وترعى. ورأى العقيد امرأة عجوزاً تجتاز النهر فوق الحجارة.

– وبيتك يا ناتاريو؟ هل هو ذاك البيت، هناك؟ – أشار العقيد إلى بيت مبني بالحجر والطين يعود إلى الزنجي تيساو أبدووين.

– كلا، يا حضرة العقيد. إن منـــزلي يقوم فوق تلك الهضبة، هناك. يمكن أن تراه من هنا، إذا كنت لا ترغب في الصعود إلى هناك.

رفع العقيد عينيه إلى البناء الحديث فبدا داراً تليق بإقامة سيد مزرعة ببوافيشتا: كان المكان يشرف على القرية.

– لا حاجة إلى الصعود. أرى من هنا. إنها دار إقامة وينيف، نعم يا سيد.

ابتسم بدفء للمستزلم السابق: أراد أن يقدِّم هدية لتزيّن المقر الجديد:

– والأثاث، يا ناتاريو، هل اشتريته؟

– أجل يا حضرة العقيد. لقد أوصيت على القسم الأكبر عند لوبيسينيو، أما القسم الآخر فقد جئت به من إيتابونا.

فكّر العقيد وهو يضع عينيه على بيت ناتاريو:

– لقد استنتجت أن العرّابة تحب الموسيقى. إنها تحب الأغاني، أليس كذلك؟

– أكثر مما يجب.

– إذاً سأعطيها غرامافون شبيهاً بالذي لديَّ، حتى يكون عندها في البيت وتسمع الموسيقى التي تريد. في ساعات الفراغ في أتالايا كان العقيد يتمتّع بالاستماع إلى قطعة موسيقية طويلة لا بدّ من وجودها في بيوت الوجهاء.

– شكراً يا حضرة العقيد، فزيلدا ستطير فرحاً.

وأصرّ فضول على الدعوة:

– تفضّل يا حضرة العقيد. البيت بيتك.

اجتاز المزارع الكبير عتبة الباب، فوضع سوطه على الباب، وجال بنظره في الواجهات يزن المخزون فيها. كان العربي يبيع من كل شيء قليلاً، وكان المكان في الوقت نفسه مشرباً للكاشاسا، ومستودعاً للجاف والنيء، مكاناً لبيع الملبوسات والأقمشة الرخيصة من القطن والشيت والبلغاريانا بالإضافة إلى خزانة لخشاخيش الزينة.

– إذا كنت ترغب في الراحة، ففي الداخل أرجوحة. إن بيتي بيت فقير ولكنه في تصرفك.

– سأبقى هنا، يا فضول، لأنني لن أمكث طويلاً.

ضجيج خطى في الخارج؛ أحدهم يركض. كانت امرأة غير مسرّحة الشعر الذي أطلقته للريح يبدو عليها الارتباك والاستعجال، وكانت تتنهّد بسبب الركض. تقدّم ناتاريو خطوة إلى الأمام.

– ماذا في الأمر يا ريسو؟ – كانت تدعى ماريا دي ريسوريكسيون.

– لقد أرسلتني السيدة كوروكا لأخبرك أن برناردا قد وضعت طفلاً. في هذه اللحظة بالذات. – تنفّست مفترة عن أسنان بيضاء حليبية وشفتين رومانتيتين.

– تقول كوروكا أن اطمئن فكل شيء قد انقضى جيداً.

وتمطت الابتسامة، وملأت كامل الوجه:

– لقد رأيته يولد!

لم يتحـــرّك في وجـــه ناتاريـــو أي عضل. كان ضرورياً معرفته من الداخل والخارج، لملاحظة إشارة دهشة أو دليل فرح على وجه أو في قلب المملوك. ولكن العقيد بوافنتورا أندرادي كان يعطي نفسه لقراءة أفكار الآخرين:

– إذهب وبارك إبنك يا ناتاريو. – وضع يده على كتف العرّاب:

– ولكن قبل كل شيء سنشرب نخب صحته.

– إن لديَّ قنينة عرق، ممتازة، جئت بها من إيتابونا، وهي من صنع الأخوات فرحات. سآتي بها من الداخل. – قرّر فضول.

– اتركها ليوم آخر يا فضول التركي. إن مشروباً من اليانسون لشيء أجنبي ولا يناســب نخب الطفل فاسكب كأساً من الكاشاسا. ولا تنسَ أن الفتاة تشرب الكاشاسا هي الأخرى.

كانـــت أصوات احتفالية ونغمات حيوية تتعالى على طريق الحمير: إنها قافلة من القوافل التي وصلت لتفرغ حمولتها. على رأس وعنق البغلة كانت أجراس معلقة ترن مولدة أنغاماً متناسقة.

لقاءات الحب وفراق العشق
مستودع الطحين وعلى الجسر الكبير

1

مــــن الـــسهل معرفة التركي بمجرد النظر إليه: سواء كان سورياً أو عربياً أو لبنانـــياً. إنهـــم جمـــيعاً جنس واحد، يمكن معرفتهم من أنوفهم المروسة وشعورهم المجعّـــدة؛ وبالإضافة إلى لهجتهم الثقيلة، يأكلون اللحم النيء بعد أن يسحقوه بمدقة حجرية.. هكذا جزمت ديفا في طريقها مع ذويها لبلوغ البناء المصنوع من الحجر والطـــين عشية وصول الدفعة الأولى من السرجيبين إلى توكايا غراندي، مأخوذين إلى هناك بالخوف وعدم الاطمئنان.

وبـــدلاً من العثور على تركي، صادفوا الزنجي منهمكاً بضرب الحديد، عاري الـــصدر، وقـــد علّق على ظهره جلد حيوان ليستر عورته.. جعلت المفاجأة ديفا تـــنطلق بضحكة طفولية ما لبث الحداد في الحال إن بادلها إياها بضحكة ترحيبية. وبينما هو غارق في ضحكته تلك، مرحباً بحرارة، قدّم نفسه لأهل الغابة:

– اسمي كاستور أبدووين ولكنهم ينادونني بتيساو. أعمل هنا حذّاء حمير.

عـــندما سمعته، أمسكت ديفا نفسها. أصبحت جدية وأحسّت في نفسها سلاماً وثقة. نظرت إلى فانجي ولمحت في عيني الأم المتعبتين بريق أمل أعاد إليها حيويـــتها. أما وجه إمبروزيو فقد بدا مضيئاً. من أين جاء ذلك السلام ليختم رحلة الظلمة، ومن أين ولد ذلك الإيمان؟ كان الجمر المتّقد في أتون الحدادة قد بـــدأ ينطفئ ويتصاعد منه بعض الدخان. وإذ كان واقفاً أمام المطرقة، بضحكة احتفالـــية، ووقفـــة مستقيمة، فقد بدا الزنجي حيواناً ذا شأن كبير، أو شجرة عملاقـــة، وكلاهما رمز للقوة والجلال، فيا له من كائن فرح وشفاف. وعادت ديفـــا إلى الضحك ولكن ضحكتها لم تعد لتكشف عن فتاة صغيرة، بل غدت ضحكة صبية تكاد تكون مغرية.

أراد كاستور أن يتكهّن بسنها، ولكنه ظل متشككاً. الطراوة والفخذان والضحكة تشير إلى أنها فتاة صغيرة. ولكن تحت الفستان، كان ثدياها يوحيان بالتمرّد على الطفولة، وفي وجهها، كانت عيناها حائرتين، هاربتين، والابتسامة مبطّنة، والتعبير تأملياً: فجأة بدت أكبر سناً مما رآها في البداية، وبانت عن صبية مكتملة. كانت أحياناً تبدو ابنة الثالثة عشرة، وأحياناً أخرى ابنة ستة عشر أو سبعة عشر عاماً.

ورافقهم الزنجي إلى بيت فضول عبد الله وهو كناية عن مكان للسكن وآخر للتجارة، وكانت ديفا تسير قربه وعيناها مطرقتان إلى الأرض، بينما كانت عينا تيساو تنظران إلى الأمام صريحتين وموصلتين. وإذ تخلّى الكلب ألما بينادا عن استكانته فقد انضمّ إلى القافلة.

2

لولا فانجي لما تذكّر أحد أن ديفا كانت قد أكملت الرابعة عشرة من عمرها وهم في طريق رحلتهم. في موقع العمل، وفي أزمنة مارووين المزدهرة، كانوا يحتفلون بأعياد الميلاد، ويحسنون من نوعية العشاء، ويصنعون حلويات الجزر والكريما. وإذا وقعت المناسبة يوم أحد أو في عيد أحد القديسين فكانوا يجعلون الغداء احتفالياً بحضور الجيران والعرّابين. ومن يدري فربما تعود تلك المناسبة عندما تكمل ديفا في العام المقبل الخامسة عشرة من عمرها وهم مقيمون في ذاك المكان الذي يتوجّهون إليه عملاً بنصيحة ذلك الفارس المسلح، الذي يسمّونه النقيب.

في غبار وتعب الرحلة الطويلة، وحدها فانجي تذكّرت، لكونها أُمّاً أو لانشغال بالها على نحو ابنتها الصغرى؛ طويلة، هيفاء، ونحيلة، لم تكن قد اتخذت أشكالها بعد، كما لو أنها توقفت عن النمو: كانت قد تأخرت ما فيه الكفاية. وكانت فانجي تنحى باللائمة على تراكم المشاكل - القلق، وفقدان البيت والبساتين، ورؤية أغنالدو محتاراً ويداه ورجلاه مكبّلة بالأصفاد وهو يتلقى الضرب بالمسطرة والقساوة وعدم الاكتراث به - لقد وصلت ابنتها بجسدها النحيل، تارة حزينة، وأخرى فائرة الدم، إلى سن الرابعة عشرة، ولم تسبح بعد في ضوء القمر، ودون أن تكون قد نزفت دماً إشارة إلى أنها أصبحت جاهزة للزواج والحمل. فهل ستبقى جافة إلى الأبد؟

في ذلك المساء البعيد من وصول العائلة إلى توكايا غراندي، كانوا قد تسلّموا طعامـــاً قدّمـــه السكان المقيمون هناك، وتموينا أداهم إياه التركي، وأشعلوا ناراً في الفـــلاة لتجهيز الطعام. وقبل الوليمة الهزيلة، كانت النساء قد ذهبن للاغتسال في النهر وكن يحتجن إلى ذلك. كان الزنجي تيساو قد دلهم على المكان الذي يسمّونه "حمـــام النساء" وهو اسم وضعه الزنجي نفسه لمكان واسع وسط تجمع ماء النهر. غـــسلت دينورا طفلها، ونـــزعت ديفا عنها أطمارها وعندما رآها الزنجي راجعة من هناك تأسف لكونها صغيرة إلى هذا الحد.

متوســـلاً بأدب، كان كاستور قد ذهب إلى محل الحدادة للمجيء بقطعة لحم مجفّفة بالملح لتحسين الوجبة المتواضعة. بعد ذلك جاء بقافلة النساء إلى مقر الإقامـــة الذي شيّده لايبيفانيا حيث لم تقم بعدها أية امرأة أخرى. كان البيت الـــصغير شبه فارغ بالرغم من أنه مبني جيداً وقد تمت العناية به بأكثر مما عداه من بيوت هناك. أما العجوز فانجي فقد ارتأت أنه من الأفضل البقاء مع زوجها وأبـــنائها: وفي كـــل الأحوال لا يكفي البيت الصغير لكل هؤلاء. وهكذا قاد كاستور النساء الثلاث: دينورا مع ابنها الصغير، وليا وهي تحمل بطنها المليء، وديفـــا. وذهب معهم أغنالدو رغبة في رؤية ليا تنام مرتاحة. كان الكلب ألما بينادا ينبح على القمر المنعكس على صفحة الماء. مغطّى بشرشف، كان السرير الخـــشبي وعلـــيه فراش القش العريض، كما تقتضي المهنة، مسترسلاً لما لاقاه مـــن إهمـــال. ألقـــت ديـــنورا الطفل فوق الشرشف وتمدّدت ليا إلى جانبه.. وجـــاء أغـــنالدو ببعض الحطب، وأشعلت ديفا النار، وتصاعد في الجو دخان رطب. ومع غطاء سميك أحاط الدفء بالطفل والمرأة الحامل، فاندسّا مندهشين فرحين.

اختفى الزنجي دون أن يلقي التحية: فتعجّبت ليا. ولكنهم ما لبثوا أن رأوه عائـــداً: كان قد ذهب إلى بيت الطين والحجر حيث كان يعمل ويعيش ثم عاد بأرجوحة كبيرة واسعة قذرة لكثرة الاستعمال. إنها الأرجوحة التي كان تيساو يـــستقبل فـــيها الفتـــيات ويتمـــتع بمعشوقاته. إنها أرجوحة زليخة وأبيفانيا، هذا للاستشهاد باثنتين فقط. هو نفسه نصب الأرجوحة في المكان المخصص لها في البيت.

- إنهـــا تكفي الاثنتين، لأنها أرجوحة متزوجين - قال ذلك متوجّهاً بالكلام إلى ديفا ودينورا.

عـــندها فقد تمنّى للجميع ليلة سعيدة بعدما وضع نفسه في التصرف. في حال احتـــياجهم إلى أي شــــيء، فـــلا يشعرن بأي حرج، فبإمكانهم أن ينادوه في محل الحـــدادة وفي أيـــة ساعة من الليل. انصرف برفقة أغنالدو وقد سبقهما الكلب ألما بينادا، ورأتهم ديفا ينصرفون عبر الباب المكسو بسعف جوز الهند: الكلب، الأخ، والحـــداد. مكـــثت ديفا للحظة تتأمّل في البدر الساطع المنعكس على النهر؛ لقد وصلوا أخيراً.

3

احتقـــرت دينورا الأرجوحة وفضّلت أن تتمدّد على فراش القش فوق السرير الخـــشبي بـــين ليا والطفل. وسط دفء الأجساد غفا الطفل البكّاء ثم غفت الأم كميـــتة مـــن التعب. وكذلك القلق الذي كان يمنع ليا عن النوم قد هدأ ونسيت الحامل في النهاية ثقل حملها وحجمه في بطنها المنتفخة.

وحدها في الأرجوحة، مرخية ذراعيها وفخذيها، ظلت ديفا مستيقظة، منتبهة إلى الأصـــداء الـــتي كانـــت تتوالى في أسفل المنحدر أو التي كانت تصل إليها من الفـــلاة. سمعت خطوات، وكلمات نابية، وقهقهات ضحك: لقد أخذت الحركة تشتدّ تدريجياً إذ كان الليل يستكمل دورته في توكايا غراندي. وسمعت ديفا أسماء الحـــيوانات التي كان رجال القوافل مع مساعديهم يحدونها: كانجيراو، فلوردا ماتا، كوســـكورتي، ديامانتي، ماريسكا، مهرة الطاعون. ومن كوخ مجاور كانت تصل مقاطع من حوار:

- اليوم لا يمكن، فأنا مقفلة. كانت امرأة تعتذر.

- بنت العاهرة.. ما هذه "السختجة"؟ كان الرجل يتأسف.

فجأة سمعت أحداً ينادي، وسط الصمت، بلقب الزنجي:

- تيساو... إلي تيساو!

إنـــه بلا شك أحد رجال القوافل يفتّش عن خدمات حذّاء الحمير الذي على ما تمت مشاهدته كان يستجيب بطيبة لما يطلب منه، ولكن النداء لم يتكرّر.

كانـــت رائحة قوية تفحّ من الأرجوحة، ولا بدّ من أن تكون رائحة الزنجي، تحـــيط بها. فهنا كان قد عرق في ليالي الدفء، وبين أذرع النساء، وقد ترك العرق على الحبال رائحة الرجل، دليل الفحولة. وعطره الطبيعي، العطر المميّز كان يجعلها تنتشي. لقد أحسّت ديفا بمثل هذا في ليلة القديس يوحنا السابقة عندما أفرطت في تـــناول شـــراب الجينيبابو؛ إنها تشعر بثقل في رأسها على وشك أن يجعلها تشعر بالدوار.

لم تـــتمكّن من أن تغوص في نوم عميق وأن تتخلص من ذكريات ليلة أمس، ومـــع ذلـــك لم تكن مستيقظة كلياً؛ لقد كانت تسبح في غموض، في الأرجوحة، أســـيرة الرائحة التي كانت قد تنشقتها من قبل في محل الحدادة عندما انطلق الزنجي بالضحك واقفاً أمام الجميلة. في الأرجوحة كانت الرائحة المسيطرة والملحة تدخل أنفها، وكل مطارحها، وتنتشر فوق جلدها، وتحوم فوق ثدييها الصغيرتين، وتنسال فوق بطنها ثم تعود لتحرق شفتيها العذراوين. كانت تشعر بجسد كاستور يطوف فـــوق الأرجوحة، وجلد الحيوان يكسو ويكشف عن مطارحه، وبذراعيه القويتين يأخذها ويسحقها على صدره.

وفي الـــنهاية فرض النعاس نفسه، ولكن ديفا لم تكن مطمئنة. لقد نامت مع الزنجـــي حتى منبلج الفجر؛ فقط إنه لم يكن أسود، لا أسود ولا أبيض، ولا حنطياً ولا قهوائـــياً، ولا شبيه بعرق الرأس الأخضر. كان لونه مضيئاً، خلال مسافة من الـــرحلة الـــتي كانت طويلة وعفوية، وتراءى لها كاستور كطائر الكايتيد، ولكان كطائـــر "الجفالية" لو كانت ديفا تعرف هذا الطائر. لقد أخذها عبر الوادي وطار هـــا فوق القمم والنهر، وألقى بها على أرض القمر، وحشرها في ركن محل الحدادة وحدها. أحسّت ديفا بنفسها تذوب بين يديه.

عـــندما اســـتيقظت علـــى بكاء ابن أختها وعلى ضجيج القوافل المتحركة بالانطلاق كان الدم يسيل من فم الجسد، قاتماً، سميكاً، وينساب على فخذيها: لقد أصبحت امرأة.

قطعة القماش الحمراء في الأرجوحة سجلت وقاحة على الزنجي كاستور أبدووين دا أسونـــسيون، الملقب بتيساو، والذي بعدما ركب حدوتين للحمار "لاساروتي" نام راضياً عن نفسه طيلة الليل. كان قد نام جيداً و لم يكن هذا يحدث إلاّ نادراً.

4

عـــندما كانـــت أوفريسيدا – وهذا اسم أعطاه كاستور للكلبة التي وهب إياها كهديـــة ولكونها جريئة منذ الصغر – تأتي لتثيره، وتقفز حوله، وتعضّ فخذيه، وتشدّه مـــن ذيلـــه، فإن الكلب ألما بينادا كان يستجيب للهوها فيخرج مسرعاً لاضطهادها فيرمـــيها أرضـــاً ويضع قدمه على بطنها ليثبتها: و لم يحدث لهما أبداً أن استرسلا معاً لغرائز أخرى باستثناء اللعب السعيد والزعل الكاذب والتهديدات غير الجادة.

ولكـــن الكلـــبة أوفريـــسيدا أخذت تغدو أقل مزاحاً بالنسبة إلى نموّها: فقد صـــارت تقضي الساعات الطويلة نائمة في دفء الحدادة، قرب الكلب ألما بينادا، متمـــسكة به، ولكنها مع ذلك لم تتخلَّ عن حمله على الركض في الفلوات، مثيرة إيـــاه، ومـــتحدية، بعراكات لم تكن أكثر من محاولة سيطرة بريئة. وكان كاستور يـــستأنس بحركة ثنائي الكلاب هذا وهما يتمرّغان فوق التراب، يتعاضان ويتنابحان كمـــا لـــو أنهمـــا يجازفان بما هو أدهى. بعد ذلك، وحين يتعبان، يمدّان لسانيهما ويـــتمدّدان عـــند قدمـــي صـــديقهما تفتيشاً عن مكافأة. وكان ألما بينادا يبدي انـــزعاجه، فقـــط، عـــندما كانـــت أوفريسيدا، مستفيدة من عمرها وحجمها الصغيرين، تقفز إلى عنق تيساو حتى يحك لها خلف أذنيها وعلى بطنها. وبسبب ما يعتريه من غيرة كان الكلب يقف على قدميه الخلفيتين، ويستند إلى فخذي الحداد، طارداً المتدخلة وواضعاً نفسه مكانها في دفء تيساو.

وفي يـــوم تغيّر كل شيء ودون سبب ظاهر استغربت أوفريسيدا رفيقها: أن يـــبدو ما حدث كأنه قد حدث أمس، ومع ذلك فإن أكثر من نصف عام كان قد مـــضى مـــنذ زيارة زيلدا الأولى لتوكايا غراندي: كانت زوجة النقيب قد أخذت الحـــيوان مـــن عربة الثيران ووضعته على الأرض أمام دار برناردا. وفي الحال ثار الكلـــب ألما بينادا وبدأ يهاجم وينبح على تلك الهبة: أوفريسيدا.. أوفريسيدا، قال تيساو مشيراً إلى اسمها.

وبإشـــارة أخذت الأمور تتصاعد تدريجياً... ودون أن يتدخّل أحد كشّرت أوفريـــسيدا عن أنيابها عندما رأت ألما بينادا يقترب منها ليبدأ جولة الغزل الأولى. ونبحت بشدة عندما أصرّ الكلب على إعادة محاولة الغزليات البريئة والوقاحات في أرض الآخرين.

خلال لحظات ظلّ ألما بينادا هادئاً دون أن يفهم شيئاً مما كان يحدث. وها هو أيضاً يتغيّر، فكفّ عن أن يكون الممازح الذي كان، فقد تغيّرت العلاقة بينهما كلياً وأخذت هي تهرب كما لو أنها تخاف منه، وتتجنّبه كما لو كانت تحتقره، وتبعده عنها كلما حاول التقرب منها. ولكنها إذا هربت منه فلمسافة قصيرة، وإذا تجنّبته فللحظات قليلة، وبقدر ما كانت تبعده عنها كانت تفتّش عنه، تنظر إليه شزراً، وتعرض له قفاها.

وإذا أغفل عن عاداته المريحة والمفيدة، فقد أخذ الكلب ألما بينادا يحذر من النباح على القوافل، ومن القفز حول الحمير، وفقد الجوع - الجوع الذي لم يكن أي طعام ليسده، ووصل إلى العبث، فترك كاستور يذهب وحيداً إلى الصيد منذ منبلج الفجر، ويمكث هكذا متمدّداً قرب الكلبة، أسيراً للرائحة التي كانت تخرج من شدقها.

خلال أيام قليلة عالج ألما بينادا الوضع وأخضع نفسه لصبر عنيد إزاء رفض أوفريسيدا. وإزاء احتقارها له ورفضها وعنف عضاها، كان مزمعاً على أن يغزوها فغزاها. ولكن ألم يكن ذلك كله عندما رغبت الكلبة؟ كانت أوفريسيدا قد تخلت عن الاعتراض والهروب والتكشير عن الأنياب، وسمحت له بأن يقترب منها، ويشتمّ مطرحها الذي ذهب يلعق منه بلسانه.

وفي إحدى الأمسيات، وفي الفلاة أمام محل الحدادة، وأمام أنظار ناندو وإيدو، اللذين كانا يحرّضانه، وبحضور الزنجي كاستور أبدووين، والتركي فضول وكوروكا الغارقين في محادثة طريفة ومشهد جميل غير متوقّع، فإن الكلب ألما بينادا تمكّن من أن يدخل أحشاء أوفريسيدا الخصبة، وبعدما انتهى الاحتفال وصل الكلب والكلبة معلّقين الواحد بالآخر. أراد ناندو أن يلقي بعض الماء عليهما ليحلّ العقدة ولكن كاستور لم يوافق. دع الطبيعة تحدِّد مصير ما هو متبقٍ.

5

يمكن التأكيد، ودون إساءة في التشبيه، أن الشيء نفسه حدث للحداد كاستور أبدووين دا أسونسيون وللسرجيبية ديفا، على الأقل فيما هو متعلق بالطريقة التي رآها فيها، وبالأسلوب الذي اتبعه في معالجتها خلال أشهر طويلة،

أكثر من نصف سنة، بالمفاجأة عندما، في يوم كسائر الأيام، عرف فجأة بما حدث من تغيير "مفاجأة"! لا تفي بالغرض نظراً لحجم الحدث: لقد كانت كشفاً مدوياً.

إنـــه يوم كسائر الأيام بالنسبة إلى سكان المكان، ولكنه ليس كذلك بالنسبة إلى حـــذّاء الحمير، وهو كذلك بالنسبة إلى الصبية القوية والحارة وبقدر ما كانت الكلـــبة أوفريسيدا. هذه وتلك من الأشياء الاستثنائية التي تخبّئها الحياة لنا: ألغاز، عجائب، وروائع، إنما، هي الطبيعة، التي تتكفّل بتفسيرها ووضع الحلول لها. هكذا علم كاستور أبدووين، المستعجل في قراره، ناندو: لا يفيد بشيء تكرار قول بهذه الأهمية وهذا الوضوح.

6

في كـــل الأحوال فإن أول الملاحظين لتحول ديفا باستياو دا روزا، البناء ذو الزبائن الكثيرة، والمواطن ذو الشكل الجميل، الأبيض، ذو العينين الزرقاوين، القطعة الـــنادرة في المحيط، صاحب الحظوة الكبرى عند النساء والعشيق الذي تتعارك من أجله فتيات الهوى.

بـــين البيوت التي لا تزال معدودة، المبنية بالقرميد والحجر، والمنتشرة على طول طريق الحمير وبمواد ممتازة في نظر ميرنسيا وزي لويس، فإن بيت باستياو دا روزا - جوزي باستياو دا روزا — كان، من بعيد، البيت الأجمل منظراً للعين والأكثـــر رفاهـــية، وهذا يمكن تفسيره بسهولة: لأنه يعمل لنفسه، كان يبذل الكـــثير من النـــزق في بناء متين الأساسيات ومكتمل المظاهر النهائية. جدران زرقـــاء وشـــبابيك بلـــون الورد مع واقيات خشبية، ومزاريب لتصريف مياه الأمطار. أما ما هو باذخ للحالات الضرورية فقد تمّ تشييده في البستان: حفرة كـــبيرة وفوقها صندوق خشبي حتى يجلس عليه صاحب المقام الرفيع. كما هو الأمر في دور تاكاراس وإيتابونا. كانت الدار الفخمة الأولى في توكايا غراندي. وكـــان ذلك البذخ فيها طريقاً لكاستور وفضول عبد الله ليقتفيا أثر باستياو. وهكذا كان على فضول أن يتّخذ المبادرة في حفر بئر خلف المستودع، قبل أن يتمّ حفر البئر لسقي القطيع ورجال القوافل، التي كانت عملاً خيرياً من أعمال روبستياو دي أراجو.

إنـــه بـــيت كـــبير جداً لرجل أعزب؛ وراحوا يتمتمون في توكايا غراندي ويتهامـــسون بأن باستياو دا روزا كان مزمعاً على الزواج، وتكوين عائلة، وسعت العمّات في إثر خطيبة يتعاقدون معها في إيتابونا، المدينة التي ولد فيها. لكنه كان قد ترك هناك شهرة شاب ماجن، وراقص لا تتعب قدماه، وقابض على قلوب النساء المتزوجات. لم تكن توكايا غراندي أكثر من محطّ رحال ليلي للقوافل عندما وصل لوبيسينو إلى هناك، وقد تمّ التعاقد معه لبناء بيت فضول عبد الله الخشبي الذي قرّر أن يـــتقاعد مـــن حمل الحقيبة وبشراكة لوبيسينيو. وإذ وجد نفسه في حالة مرضية هناك، أقام في المكان نهائياً لأنه أحبّ توكايا غراندي. ومتحوّلاً في مناسبات عديدة بـــين المزارع المتقاربة، وبالتعاقد معه لبناء الزوارق والأقبية الخشبية والمستودعات، فقد قرّر لوبيسينيو أن يطيل شاربه ولحيته وأصبح ممكناً له أن يمرّ من هناك كأجنبي إذا أراد ويكفـــيه لذلك أن يلاعب لسانه عندما يتكلم. وفي توكايا غراندي كان يتسلّى بالحديث مع تيساو، عن العاهرات.

كان الوقت يمرّ وباستياو دا روزا لا يزال عازباً، حتى إنه لم يفكّر في المصاحبة بالـــرغم من أن اللواتي عرضن أنفسهن كن كثيرات. إحدى هاتيك ماريا بياتريس ماوغادو، القريبة الفقيرة للسيدة دونا كارمن ماوغادو دي أسيي غوتينيو، وبالتبنّي للعقـــيد إيـــنوك دي أسيس غوتينيو - كانت تلك فقيرة ولكنها إقطاعية. وكان باســـتياو قـــد تأخّر في مزرعة غوتينيو كمشرف أول على إصلاح الدارة الكبيرة، وبمجازفـــة كبيرة قرَّب إلى صدره السيدة ماريا بياتريس، وهذه لم تكن عذراء لأن قـــريبها الغـــني كان قد قطف عذريتها بمجازفة، هو الآخر. وبالرغم من ذلك فإن القـــريبة الفقـــيرة، وقد غدت في الثلاثين منتظرة زوجاً محترماً، كان يجب أن تظهر بمظهـــر العذراء بالنسبة إلى الآخرين. وعندما تعلّقت بلوبيسينيو أرادت السيدة أن تتخلّـــى عـــن الفراش والطعام الذي كان الأقرباء يقدّمونه عطفاً عليها - وكانت بالمقابل تهتمّ بترتيب الدار، وتراقب أعمال الخدم وتهتمّ بالصغار - لتأتي وتعيش مع باســـتياو دون أن تفـــرض عليه ورقة موقّعة، ودون أن تكترث بالأخطاء المسبقة لمتاعب وإلحاحات عائلتي مورغادوس وغودينيو. وحوّل باستياو دا روزا المحادثة في هـــذا الموضوع، ورمى بنفسه خارجاً، لأنه لم يكن يرغب في التهرؤ في كمين من الكمائن، ضحية امرأة.

اجـــتاز النهـــر بـــصحبة غيدو، ملبّياً دعوة العجوز إمبروزيو وجوزي دوس ســانتوس للمناقــشة في بناء مستودع للطحين: لم يعرف ديفا عندما التقاها تعتني بــالأرض مــستندة على قبضة يدها. وأنها واحدة من بنات جوزي دوس سانتوس اللـــواتي كـــنّ ثلاثاً وكل واحدة منهن تعادل رجلاً في العمل، اثنتان منهن حديثتا العهـــد، وثالثة أكبر سناً وعذراء هي ريكاردينا. رغم كونها عذراء فإنها لم تتوقف عن ملاقاة أي كان: كانوا قد شاهدوها مع دودو بيرويا، وهذا، كناية عن نصف إنسان، كان يأتي إلى هناك لا يعلم أحد كيف ولماذا. يأتي لمشاهدة العصافير، وغير ذلـــك، لا يمكـــن أن يكون. وبعد فترة أوصى على كرسي حلاق عند لوبيسينيو، ســـرّاً، علـــى أن يدفع له متى استطاع: كان قد اختار قص الشعر وحلاقة الذقن. ووفقـــاً لرأي النقيب ناتاريو دا فونسيكا الذي غدا زبوناً لدى الحلاق الجديد فإن كرســـي دودو بيرويـــا كانت دليلاً على حقيقة لا تقبل الجدل: لقد بدأت توكايا غراندي تستقبل أناساً متطورين.

وإذ كـــان هـــناك طلب دائم عليه، شأنه شأن العديد من البنائين والنجارين لإنجـــاز أعمال البناء في المزارع، فإن باستياو دا روزا كان يتوقف قليلاً في توكايا غـــراندي، ولم يكـــن قد شاهد بنت إمبروزيو منذ شهور عدة. تذكّر تلك الفتاة الـــصامتة، النحيلة وهي ترفع تنورتها وتركض مع الصغار أثناء المعرض الأسبوعي وعلى مرأى من إخوتها وأبيها. لا يمكن أن تكون هي نفسها التي لمحها فجأة أمامه، ونـــصفها الأعلى منحنٍ، والتنورة مرفوعة، تعالج الأرض بالمعول، والعرق ينبع من جبيـــنها ويسيل: إن هذه التي أمامه تحفة: جديدة، شهية، وجميلة، كيف تبدو له؟ شبيهة بأغراس المانديوكا الخضراء.

قـــبل ذلك كانت الحقول مقفرة، والأرض مليئة بالشوك والأفاعي، ومع وصول الـــسرجيبيين بـــدأت تزهر أغراس الفاصولياء وحقول الذرة والمانديوكا وتمتدّ الخضار بامتداد النظر. لقد تغيّر كل شيء. لم تتغيّر الأرض وحدها بل الناس كذلك.

كـــان إمـــبروزيو وجوزي دوس سانتوس يفصلان التصاميم لإقامة مستودع للطحين وكان لوبيسينيو يصغي ويناقش. كان باستياو يتحيّن الفرصة ويلقي عينيه على الصبية المنكبّة فوق الأرض، تضيء عليها الشمس بوجه قديسة، وجسد ملكة: مع هذه، أجل، تستحق المصاحبة العناء.

7

لم يجرِ الأمر مع كاستور أبدووين على هذا النحو، وبهذه الطريقة، ومع ذلك لم يكـن هـو السبب في جعل المفاجأة وردّة الفعل بأعنف مما حدث. لقد حدث الإفـشاء بسرّ الحقيقة بعد عدة أيام من تحول عائلة النقيب ناتاريو دا فونسيكا إلى مقر الإقامة الجديد عند أعلى الهضبة: كان ذلك المقر هو الدار السكنية الكبرى في توكايا غراندي بحجمها، ورفاهيتها وموقعها. حاملة على رأسها كانت ديفا تتسلّق إلى هـناك، الطلعة الصعبة الاجتياز ولكنها مع ذلك معالجة جيداً بحجارة متناسقة لكي تسمح بخطو لا يتزحلق وعلى الأخص في فصل الأمطار. وبالمقابل يبدو سهلاً إقفـال العـبور، إلى هناك، على الأغراب، ويكفي لذلك وضع رجل واحد وبيده بندقية عند أي منحنٍ من منحنيات ذلك الطريق الكثير الاعوجاج. وصدفة، بينما كـان يمرّ باتجاه النهر، رآها تصعد، ومتعجباً، توقف عن المسير: إنها، بكل بساطة، لا يمكن أن تكون ديفا، ورفض أن يصدِّق عينيه. لكنها كانت ديفا، أجل، وليست غيرهـا: وعـندما تـوقفت قليلاً لتوازي حمولتها، رأته عند أسفل المنحنى يقف متجسساً علـيها، فاغراً فاه: كانت تبدو، تحت التنورة، عارية الفخذين؛ ابتسم وحرّك لها يده بإشارة.

كـان الشعب قد عمّد الهضبة وأعطاها اسم عرزال النقيب، لأنه، هناك عند الأعلـى، وكمـا في برج مراقبة، كان النقيب قادراً على رؤية القرية بكاملها من أسـفل المنحدرات مع أكواخ العاهرات، وبيت برناردا وحتى البيوت الممتدة على طـول طريق الحمير؛ ومن الفلاة عند موقع المعرض، ومستودع التبن، ومحطّ رحال القـوافل، ومـا يـسمّونه بصالة الرقص، إلى مستودع الكاكاو، وإسطبل العقيد روبستيانو ومحل حدادة تيساو حيث يتعلّم ابنه الأكبر إيدو مهنة الحدادة، ومستودع فضول عبد الله قرب شجرة الجاكيرا. وكان بإمكان النقيب أيضاً أن يشاهد بساتين السرجيبيين والسرتونيين، والحقول وحظائر الأبقار وأقنان الدجاج.

كل ذلك، بالإضافة إلى حركة المارة، كان بإمكان النقيب ناتاريو دا فونسيكا أن يـراه بعينيه من شرفة دار سكنه. إنه أفضل من جذع المولونغو الموجود، خطوات إلى الأمام، ومن حيث أطلع العقيد بوافنتورا أندرادي على المكان الذي كان لا يزال آنذاك قفراً مهجوراً، ومن حيث استشرف المستقبل: إن هذا المكان سيصبح مدينة في يوم.

لم يكـــن ينقص إلاّ القليل ليصبح مدينة، وافق العقيد وهو يمرّ من هناك بعد سبع سنوات، وكانت طريقة كلام العقيد واضحة: قرية صغيرة، ينقصها كل شيء لتـــصبح مدينة. ولكن هو، ناتاريو، عندما وصل إلى هنا في مقتبل العمر إلى شراء الكاكاو، هارباً من عدالة سرجيبـــي، لم تكن تكاراس أكثر من نقطة لقضاء الليل، و لم تكن المحطة أو السكة الحديدية قد وجدت، ومدينة إيتابونا، هذا الصرح الكبير، كانت لا تزال تسمّى توباكاس.

لهــذا الـــسبب كـــان النقيب يظل منتبهاً لما كان يجري ويحدث، معطياً رأيه ومتدخلاً إذا اقتضى الأمر. كان قد سلف مبلغاً كبيراً لبناء مستودع الطحين الذي كان يقيمه لوبيسينيو وباستياو دا روزا لحساب إمبروزيو وجوزي دوس سانتوس، وانضمّ إلى العقيد روبستيانو دي أراجو لتمويل قطع الخشب لإقامة الجسر الخشبي الكبير. في تلك الأعمال وضع النقيب كل عائدات الكاكاو التي كان قد ادخرها، لأن مَـــن بيده السلطة والقيادة تترتّب عليه موجبات يجب أن يؤدِّيها. هكذا كان يفكّـــر ويتـــصرّف قبل أن يبدأ بقطاف الكاكاو بكثير، وهو لم يكد يبدأ بزراعة الكاكاو في بوافيشتا حتى التقى ببرناردا هناك وقد بدأت العمل بالدعارة.

8

لم يحـــدث ذلـــك فجأة، أو دون توقع: فخلافاً لباستياو دا روزا الذي مكث أجيالاً دون أن يراها، كان الزنجي يراها باستمرار ويحادثها، وإذ لم ينتبه لهذا الأمر وقع عليه الخطأ، وليس على أحد سواه، ظلّ على احتكاك متواصل بديفا منذ أصيل اليوم الذي رافق فيه العائلة السرجيبية إلى مستودع فضول وأعارها الأرجوحة التي قـــضت فـــيها ليلتها المقمرة، وظلّ كذلك حتى اللحظة التي رآها فيها تتسلّق إلى الأعلى، موازية على رأسها قفة مليئة بالخضار والبقالة من إنتاج حقول السرجيبيين هديـــة من فانجي إلى زيلدا. فقط عند ذلك تمكّن من التأمل في فخذيها العاريتين، وقفاهـــا التي لم تكن مكسوّة جيداً: جسد امرأة مكتملة! ولكي يرى وجهها من جديـــد، ذلك الوجه الذي رآه جميلاً، وليقيس نمو صدرها انتظر حتى تعود. رآها بجـــسدها كـــاملاً، فجنّ جنونه و لم يعد يتعامل معها إطلاقاً كفتاة صغيرة، ولكنه استمرّ في أن يراها بريئة مع ملقط شعر ناقصاً من رأسها.

كانت تأتي سابقاً مع ساو وداندو إلى الفلاة تفتيشاً عن إيدو لتأخذه من عمله ويذهب الجميع إلى الصيد في الغابة، ونصب الفخاخ للعصافير والتقاط ما يمكن.

كان ناندو وساو يدخلان إلى محل الحدادة، ولكن ديفا لم تدخل أبداً. كانت تظل في الخارج وتتطلّع إلى الداخل، وكان تيساو ينظر إلى وجهها الملائكي، ويريح نفسه من عناء المعاناة ويدعوها:

– ألا تريدين أن تدخلي يا آنسة ديفا؟

كانـــت تجيب سلبياً بإيماءة من رأسها، ودون أن تنتظر الآخرين كانت تخرج راكضة كأنها تهرب: تخافين من أي شيء؟ حباً بالله؟ في البداية استغرب الأمر، وفي الـــنهاية تخلّى عن المحاولة: وكان نادراً اليوم الذي لا تظهر فيه بجوار محل الحدادة، محاولـــة إخفـــاء نفـــسها مضطربة، قلقة. وكانت رجلاها وذراعاها تبدو متّسخة بالتراب والطين.

في الـــصباح الباكـــر من أحد الأيام، وبينما هو يدخل الغابة ليجمع صيده كما يفعـــل كـــل يوم، فاجأها وهي تتبع خطوته متلطّية بين الأشجار. وكذلك عند النهر، كان يسبح عند غروب الشمس بعيداً عن المنطقة التي تستحمّ فيها النساء اللائي يغسلن الملابـــس، عـــندما ظهـــرت ديفا أمامه وكادت تلمس جسده العاري: كانت ترتدي فـــستاناً مـــبللاً يعريها أكثر مما يكسوها. لو لم تكن آنذاك صغيرة جداً لما تمكّن من أن يقاوم. وصرخ: انتبهي يا آنسة ديفا؟ ولكي ينقذها محذّراً من مجرى النهر الصاخب: إن النهـــر هو مقر إقامة الآلهة المشرفين. فغاصت في الماء من جديد وابتعدت: كانت تسبح مـــثل سمكة، أو مثل حورية بحر. مبللاً لاقاها وتحدّث معها. كانت ديفا تبتسم وتخفض رأســـها وتخـــرج راكـــضة ولكنها لا تبتعد كثيراً. أبكم وأصم لم يكن تيساو يفهم الإشارات وتصرفات هذه المخلوقة العجيبة، ولم ينتبه للفخذين اللتين كبرتا واستدارتا، والـــثديين المشرئبين على نصفها الأعلى المرتفع. لقد ظلت بالنسبة إليه الآنسة الصغيرة ديفـــا، وهـــي تركض في الفلوات. ولم ينتبه إلى أنها تخلّت عن اللعب بالكلل ومرافقة الفتـــيات الصغار وأصبحت تمشي وحيدة أو برفقة أمها وزوجات إخوتها. وحيدة تأتي وتتلصّص عليه في جوار محل الحدادة. لم يكن قد رآها مكتملة الجسد وامرأة ناضجة.

فقـــط لاحظ التحول ووعاه جيداً عندما رآها تصعد السفح إلى بيت النقيب ناتاريـــو. تلقّـــى صـــدمة وأحـــسّ بقلبه ممزقاً. قرّر أن يبقى بالانتظار ليتأكّد من

الأعجـــوبة. لمحته ديفا بالتأكيد، واقفاً هناك منبهراً، ولكنها تصرّفت كما لو أنها لم تـــره ولم تنظـــر إليه ولم تخفّف خطوها. توقفت دون أن تفرغ حمولتها إلى الأمام وأدارت رأســـها إلى الوراء وضحكت كما لو أنها كانت تسخر منه. وليفهم من يرغب في الفهم.

لم يكـــن قادراً على أن يفسِّر السبب والغاية، والدافع إلى هذا التصرف الذي تـــصرّفته بـــلا معنى: الضحكات والعينان المنخفضتان، والهرب والتلطّي، التجرؤ والانـــسحاب، الإقـــدام والإحجام.. لقد تغيّر شكلها ولكن حركاتها السخيفة لم تتغيّـــر. وراح كاســـتور يحكّ دماغه ليطرح التسعة من العشرة. إذا لم تكن هذه الحركات سخافات أولاد وتفاهات طفولية، فإنها تبدو غير مستقيمة، وفنون امرأة، وغزل فتاة هوى.

مـــنذ رآها تدير رأسها لتنظر وتضحك، منذ تلك اللحظة لم يعد يتملّكه غير تفكـــير واحـــد في عقله، ورغبة واحدة في صدره: دون ديفا لم تعد الحياة تستحق العـــناء، لم تعـــد حياةً. يئس مع ذلك عندما أدرك - وكان الإدراك سهلاً - أن باســـتياو دا روزا كـــان راغباً فيها. وهذا، بذقنه وشاربه الأشقر، وشعره الكثيف المتدلّي، وسحنته الحمراء الأجنبية، أجنبي أوروبي، لا تركي أسمر تكاد تكون سمرته شبيهة بسحنة خلاسي ريفي - أن البناء يتميّز عنه بمميزات لا تقبل الجدل. وكون ديفـــا غـــير فرنـــسية بل سرجيبية سمراء، فلا بدّ من أن تفضّل الأبيض ذا العينين الزرقاوين بلون التبغ الأخضر. فقط الفرنسيات، كما كان يعرف، ولديه البراهين، كن يعطين القيمة الحقيقية للجنس الزنجي. ومع ذلك لم يلقِ سلاحه: إن الاستسلام والهـــرب من المواجهة لم تكن أموراً في طبيعته، فكم بالحري في تلك اللحظة عندما تغدو المكافأة على النصر: الحياة نفسها.

9

عـــندما جاء دورفالينيو ليملأ الماء، التي يحتاج إليها في المطبخ، من البئر، تذكّر فـــضول عبد الله بشوق زيزينيا دو بوتيا، وتنهّد: فبقدر ما أعادته البئر إلى ذكرى الفـــتاة كذلك أعاده إليها الفتى دورفالينيو. وكان راضياً: إن البئر ذات نفع كبير، ودورفالينيو قد أمضى حتى الآن سنة في خدمة مستودع الأغذية، واثبت بما لا يقبل

الـــشك نفعـــه وحسن خدمته. وهو شريف أكثر مما يبدو عليه. ولم يكن لزيزينيا مميـــزات الجمال كالسمنة وكبر الحجم التي يحبها فضول ولكن أية امرأة أخرى لم تكن لترضيه بقدر ما تفعل زيزينيا. كان لونها أجمل من لون الكاكاو، وجهها أشبه ما يكون بوجه لعبة جميلة، أما جسدها فكأنه تمثال، والتفاصيل الأخرى لا توصف، والقلب عاطفي، وتنهّد من جديد لا يعزيه التصوير.

انتـــبه إلى أنـــه كان يفكّر فيها كأنها غدت شيئاً من الماضي، كأنها قد ماتت ودفنت في مقبرة لاغارتو، ولكن لحسن الحظ لم يكن الأمر كذلك. عملياً لا فرق عـــنده سواء كانت مدفونة في مقبرة أو تعيش في البيت، فهو فقط بالحلم والتصوير كـــان يستطيع أن يلتقي بها ويسمع كلامها السحري وهي تدعوه إلى لذّة الفراش: تعـــالَ يا تركي وأرني ما قد نسيته. وكانت تسمّيه بأسماء مختلفة، وتأخذ منه المال، وتحـــيطه بكل عناية؛ إنه ملاك من السماء ونعمة من الله. وكانت تغني له الأغنيات الشعبية، آه كم هو مشتاق إليها!

كـــان فـــضول قـــد اســـتلم مـــنها أخباراً لمرة واحدة بعدما جدّت ساعية إلى سرجيبـــي: كانت رسالة أرسلتها مع حفيدها "دورفالينيو" الذي بدا لدى وصوله فتى مهمـــلاً يـــرتدي سروالاً قصيراً ووجهه مليء ببثور الشباب وعليه بعض آثار الجرح. وكانت رسالة مكتوبة دون تنقيط وبحروف كبيرة غير منتظمة وأسطر تعلو وتهبط على الـــورقة، وفضول يعيد قراءتها مرات ومرات محاولاً أن يفك الرموز وأصبح قادراً على إلقائهـــا غيـــباً كأنهـــا قصيدة أو آيات من التوراة: "هذه الأسطر المكتوبة تقول لك يا فـــضول إنها لا تنساك ولن تستطيع أبداً أن تنساك لأنني ليلاً أحلم بك وعندما أستيقظ ولا أراك بجـــانبي تغرورق الدموع في عيني" في نهاية الصفحة وتحت التوقيع "لك إلى الأبـــد ماريـــا جـــوزي باتيستا". ووضعت كمية كبيرة من النقاط النهائية وعلامات التعجب والاستفهام حتى يتأمّل جيداً في المكان الذي يراه مناسباً.

وأشـــارت إلى الوقت القصير الذي قضته في توكايا غراندي قبل أن تسافر: "وعـــندما ذهبت إلى هناك رأيت أنك تضحي بالكنـــز وأنت تعمل كحمار نقل أثقال، لهذا أرسلت لك حفيدي (دورفالينيو) ابن شقيقتي الكبرى الأرملة والمصابة بالـــسل حتى يعمل عندك. أي مبلغ ضئيل تدفعه له سيكون لطفاً منك": أفضل له من أن يموت جوعاً هنا.

كان يفكّر في التعاقد مع محاسب يساعده في المشرب، ولكن أين يمكن العثور على رجل ثقة؟ خلال السنوات العجاف كان لديه مجال للنوم طيلة اليوم لو أراد لأن رجال القوافل والعاهرات كانوا يشكّلون غالبية الزبائن وقلما جاءه مارة من هناك. أما ساعة الازدحام فكانت تبدأ بعد الغروب وعند الفجر، لكن حركة العمل مع بداية نضج الكاكاو قد نمت كثيراً: فهو ما عدا كونه مجبراً على الاستيقاظ عند الفجر والنوم متأخراً أصبح عليه أن يبقي أبواب المستودع مفتوحة أثناء النهار، وكان الزبائن لا ينقطعون عن المجيء. إذا كان يريد فعلاً أن يجمع المال فإنه لا يستطيع الإهمال أو النوم مغمضاً عينيه على حلم عميق - إن عليه الكثير من المسافات لاجتيازها إذا أراد أن يملأ الصندوق.

وهكذا استقبل الفتى "دورفالينيو" بانتباه واضح ولكن بحماس خفي: إن زيزينيا دو بوتيا - العناية الإلهية - تنقذه مرة أخرى من مشاكله. ولكنه لم يفسح المجال للفتى بأن يتبيّن مبلغ سروره، لأنه ليس فقط في الاتجار مع الغجر يجب أن يكون الرجل متنبهاً ومتحفظاً: ولكن أيضاً في التعامل مع شعب سرجيبي. و لم يكن فؤاد كرم يتعب من القول إن السرجيبيين هم عرب البرازيل، وفؤاد كرم لم يتعوّد أن يطلق الكلام جزافاً:

- إن أحتاج لا أحتاج، فبإمكاني القيام بالعمل وحيداً. ولكن كون زيزينيا هي التي طلبت ذلك فإني لا أستطيع إلا التجاوب مع طلبها.

واستجلى فضول بوضوح مواهب الفتى: كان الفتى يعرف القراءة والكتابة والجداول الحسابية الأربعة، ويقول إنه مستعدّ لتأدية كل الخدمات والقيام بكل الأعمال مهما تكن سيئة.

- إذاً، سوف نرى. ضع بقجتك في غرفة البضاعة، واسحب من هناك حصيرة لتنام وبعدها تستطيع أن تبدأ. ما هو متعلق بالراتب سنناقشه فيما بعد، سيتوقف الأمر عليك لا عليَّ أنا. إذا أرضيتني فإنك لن تندم.

وأخيراً ألقى السؤال الذي ظلّ مخنوقاً في صدره:

- وكيف هي أحوال زيزينيا؟

كما يريد الله! أجاب الصغير. لم تعد تعيش في بوتيا ولا في لاغارتو. كانت قد انتقلت للعيش في أراكاجو في دار كبيرة أقامها لها الأستاذ بانفيلو فريري:

طبيب لا يمارس مهنة الطب بل ينتج السكر ويكرِّره ويقطر الكاشاسا، وكان غنياً فاحشاً وقد تجاوز السبعين من عمره. إنها مصاحبة مع رجل غني وهذا أمر ممتاز. لم يسرد فضول أن يعرف تفاصيل أخرى: إن زيزينيا حارة ولن تكتفي مع عجوز سبعيني.

10

أمر فضول بحفر البئر خلف البيت عملاً بنصيحة زيزينيا دو بوتيا. كانت قد أعطته النصيحة مجاناً في المناسبة السعيدة والحزينة في آن عندما قامت بزيارتها إلى توكايا غراندي لتفي بالوعد الذي قطعته وكرّرته مرتجفة. في يوم ما وفي غفلة منك سأظهر فجأة – كانت تقسم بهذا في نزل شاندو في إيتابونا. ولكن اللبناني لم يكن يؤخذ بالسراب ويجيبها: في يوم القديس: "قطعاً لا" ولكن حدث أن والد زيزينيا كان قد نزع خفّيه في لاغارتو ضحية السل أو الكاشاسا، فلماذا استجلاء هذا الأمر؟

في لاغارتو، النساء المتقدمات في السن، المجنونات منهن، والأطفال، لم يكونوا يعرفون ما يجب القيام به وكانوا يحتاجون إليها لتبدأ سكة التيتم: كانوا يطالبون بحضورها ولم يكن يكفي المبلغ الضئيل الذي ترسله في نهاية الشهر. وقبل أن تذهب إلى هناك جاءت تستأذن بالانصراف مستفيدة من مرور قافلة زي رايموندو لتجتاز المسافة على ظهر حمار. وصلت دون أن تعلم بوصولها، وكان فضول منهمكاً في المخزن عندما سمع صراخات حادي القافلة تعلن:

– يا سيد فضول! يا سيد فضول: أسرع إلى هنا وانظر إلى الهدية التي جئتك بها.

منفعلة وضاحكة، تعلّقت زيزينيا برقبته:

– ألم أقل لك إنني سآتي في يوم، أيها التركي ابن "التينة"؟

بعد ذلك ذرفت دموعاً حارة وهي تخبره بموت أبيها الذي كان رجلاً طيباً ولكن لا حظّ له. عندما كان قوياً كان يزرع أراضي الغير ولكنه انتهى إلى الإدمان على الكحول، ولولا مساعدة زيزينيا للعائلة لماتوا جميعاً من الجوع. ومن البنات الراشدات فإن زيزينيا كانت الوحيدة التي تقدّمت في الحياة وازدهرت أمورها وبمعونة الله الذي حماها وحصّنها. لقد ذهبت لتصبح عاهرة في إيتابونا.

لم تكـــن الساعة مناسبة للترحاب، فالقوافل قد ألقت بحمولاتها، وبدأ الرجال يتـــزاحمون على غزو القلعة المحصنة ليشتروا ما يأكلونه. وكانت الفتيات قد بدأن يظهرن تفتيشاً عن تعريفة وبلعة كاشاسا. أما زيزينيا فقد أخذت إلى الغرفة حقيبتها النـــسيجية وجـــاءت تساعد اللبناني مما جعل الاستهلاك يزداد والجميع يريدون أن يتناخبوا معها ومع الثري اللص، ومن منهم لم يعرف بالآفة العتيقة المزمنة؟

وفي ساعة متأخرة جداً رافقته إلى ضفة النهر حيث جاء فضول معه بالصفيحة ليأتي بالماء الذي يحتاج إليه في البيت وحاجته إلى الماء في ذلك اليوم هي أكثر بكثير بسبب خوف زيزينيا من المرض وقد كانت مصابة بهاجس النظافة. ذهبا متشابكي الأيـــدي: ولشدّة نعومتها فإن زيزينيا بدت فتاة في مقتبل العمر تتمشّى مع حبيبها خفية عن عائلتها.

– لماذا لا تأمر بحفر بئر فيكون عندك ماء في البيت؟

– إن الكلفة عالية.

– ولكن ما هو أكثر كلفة هو هذا العمل الذي يجب أن تقوم به حصولاً على الماء. ملأ الصفيحة وأراد أن يعدو لأنه كان مستعجلاً التمدد في الفراش: فكم من المـــرات لحق بها وهو متمدِّد وحاول التغرير بها. وكانت هي تبدو قاسية في الحلم تعرض نفسها ولا تستسلم ثم تهرب من بين ذراعيه وتضحك في وجهه. ها قد أتى يوم الحساب وسيستعيد كل شيء له مع فائدة مركبة.

– هيا بنا.

– ليس الآن.

أخذتـــه من ذراعه وجلسا إلى حافة الماء عند المكان الذي يطلقون عليه اسم حـــوض النـــساء يصغيان إلى زقزقات الطيور. ووضعت زيزينيا رأسها على كتف اللبناني العريض وأدخلت يدها عبر القميص لتحك له صدره المشعر.

– لم أرد أن أذهب دون أن أرى لبناني "التركي"

– ودون أن تغرسي فيَّ السكين. أليس كذلك؟ قال ذلك بلهجة ممازحة دون إمارة تذمُّر أو اتهام.

– جـــئت أطلـــب مـــساعدة، لن أكذب عليك. ولكن ليس من أجل هذا وحسب، والله يشهد على ذلك. إنك "تركي" جلف وجاهل، هل تظن أن ليس لي

عواطـــف؟ ضمّها فضول بين ذراعيه وتأمّل عميقاً في عينيها: الدموع هذه المرة لم تكـــن بـــسبب وفـــاة والدها: كانت دموع الشوق والحب ذرفتها في ليل اللقاء والوداع.

11

استيقظت زيزينيا دو بوتيا في الوقت الذي استيقظ فيه فضول عبد الله عندما بـــدأت الـــبلابل والزرازير بإيقاظ الوادي فمضى حداة القوافل يشدّون الثيران إلى العـــربات. إنها ليلة الحلم لا ليلة النوم، ليلة الضحك والتنهدات واللهاث المتواصل والتمـــتمات والكلام الجميل يقال ويسمع. اقترح عليها فضول أن تظل نائمة، وإذ كانت قد وقفت فإنها رفضت الاقتراح:

– سأذهب لمساعدتك.

وانتبهت إلى حجم السرير الكبير فعثرت على نقطة اتهام بصوتها الناعم:

– كـــان هـــذا هو المكان الذي أوت إليه يسرى رباط، أليس كذلك؟ لقد قضت فيه كامل بعد الظهر.. يا لها من عاهرة مقنعة.

كـــان قـــد مـــضى زمن طويل على ذلك ولكنها كانت لا تزال تتذكّر بألم وحقد. ولمسها اللبناني بيده الغليظة:

– امرأة مثلك لا يوجد، ولن يوجد.

نـــزعت زيزينيا عنها ثياب النوم واختارت شيئاً تستعمله. ولكي تقدّم الكاشاسا في تلـــك الـــساعة المبكرة فقد ارتدت أفضل ما عندها من ملابس العيد. كانت تهيئ نفسها كما لو أنها ستذهب إلى إيلايوس وليس إلى ذلك المكان في آخر الدنيا.

عـــندما انتهت الحركة، ومباشرة بعد الحمام في النهر، واللحم المجفف المقلي، خـــرجا يتمشيان في الدسكرة الجديدة. وكانت فتيات الهوى يسترقن النظر إليهما عـــبر فـــتحات الأكواخ الخشبية ثم يحيينهما بأصوات عالية. ومازحتهما كوروكا عندما مرّت بهما في أسفل السفح:

– هل صاحبت يا سيد فضول: أهنئك فقد أحسنت الاختيار. – ثم وجّهت الكلام إلى الزائرة: – إنك زيزينيا، أليس كذلك؛ أنا جاسنتا، وعندما يسافر السيد فضول لرؤيتك أبقى للاهتمام "بالقلعة الحصينة"

- لقـــد جـــئت لأودّعه، وسأذهب إلى سرجيـــي. إن فضول يحدّثني دائماً عنك، ويقول إنك تساوين عشرة رجال.

- لطفاً منه.

اجـــتازا تـــوكايا غراندي من أقصاها إلى أقصاها، وتعرّفت زيزينيا بالعجوز جيرينو وميرنسيا ولوبيسينيو. وكانت قد تعرّفت سابقاً بكاستور. وعندما عادا إلى البيت اختصرت زيزيينا رأيها:

- إنهم فقراء كسكان بوتيا حيث ولدت. ولكن بوتيا بدلاً من أن تتقدّم فإنها تـــسير إلى الوراء مثل روث الحصان. ولو كان بإمكاني لبقيت هنا معك في الصباح التالي.

صـــرف فضول رجال القوافل بينما كانت هي على الصندوق تمارس العمل بـــين ضـــحك وممازحات. وعندما بلغت القافلة الأخيرة الطريق العام فإن اللبناني أعطى مفتاح البيت والمسدس إلى كوروكا وسرح الحمارين ليرافق زيزينيا إلى محطة سكة حديد تاكاراس.

اجـــتازا الطريق صامتين، حزينين كأنهما سيفترقان إلى الأبد. وعندما صعدت إلى القطار، ذكرته زيزينيا وهي تضرب على صدره بإصبعها:

- أوصِ بحفر البئر، لا تنس.

ولم تسعَ إلى إخفاء دموعها:

- شـــكراً للمساعدة الكبيرة. - وبذلت جهداً لتبتسم: - ولكل شيء. ولم يعد ممكناً السيطرة على التنهدات العالية والمؤلمة.

مـــدَّ اللبناني يده إلى جيبه، وسحب منه منديلاً كبيراً، وناوله إلى زيزينيا التي غطّت وجهها به حين وضعت رجلها في حافلة القطار.

أراد فضول أن يتكلم، فلم يستطع. صفر القطار وبدأ يتحرّك، وكانت زيزيينا دو بوتيا تقوم بحركة الوداع ملوّحة بالمنديل الزهري.

12

بـــرهن دورفالينيو على أنه قدم ثور، لا يكلّ من العمل، وشريف، بالإثبات: كـــان يخفي قطعة من النقود المعدنية لتغذية ميوله إلى المبغى، من حين لآخر، لكن

قيمتها كانت ضئيلة إلى حدّ أن فضول لم يكن يقيم لها حساباً. ما عدا ذلك كان "عرنوقي" الشكل، طويلاً نحيلاً، فضولياً، يحب التدخل في كل أمر عادي، ملك الألقاب، بسبب طوله غير الطبيعي، ولسانه المنطلق على عواهنه: "عصا سمسم، قصبة صيد، خذ واجلب، جنابك سترى وأصبح على علم" كانوا ينادونه بهذه الألقاب مع علامة استفهام في صوت المنادي. وكانت تلك هي ألقابه الرئيسية، وهنالك أخرى أقل تحقيراً وأكثر شاعرية: "ضرطة التركي"، "خراء العاهرة"، "براز الكلب"

ولم يكن هناك عاقل ليحاول مزاحمة بيدرو سيغانو على ما له من صيت ذائع لتلك النجاحات التي حققها في تلك المجاهل النائية، وفي تلك الأرض الواسعة الممتدة عند نهر الأفاعي، مع ملكيات لا حصر لها، ونقاط استراحات ليلية، ومسالك وقرى ونواحٍ. وعارضاً بسعر بخس ألحان هوايته، دليل الفرح ووجود العيد، فإن بيدرو سيغانو ذا أرجل المهارات السبع، كان يطوف في الطرقات، حاملاً، من موقع إلى موقع، آخر الأخبار، وأحدث الأنباء: من مات، ومن وُلِدَ، الدكان الذي فتح حديثاً وهذا الذي أقفل أبوابه، العراكات، أعمال الشغب، المصاحبات، نزاعات المستزلمين، غزو الأراضي، مذبحة الهنود، بيع البساتين والمزارع، منتجعات العاهرات، ومحطّ رحال اللواتي يتجوّلن مثل عازف الصنفور هذا وكان يستحق الثقة لأنه لم يكن يستنبط، ويكتفي بحسم جزء من الاسترسال ومن حجم الحبكة: ولكنه حين يعدّ فإنه كان يرفع العدد، ويضخّمه، وخيط الوبر الواحد يتحوّل إلى لُبْدَة أسد.

وفيما هو ضمن حدود توكايا غراندي، لم يكن أحد يرفع يده على دورفالينيو الموجود عند الحوادث الطفيفة، والمشادات الكلامية مع الفتيات، والخلاف العابر بين رجال القوافل في حفلات الرقص، ومجون العاشقين: لم يكن يقع حادث في توكايا غراندي دون أن يعرف به دورفالينيو ويشير إليه. "خذ واجلب"، كانوا يقولون عنه ليشيروا إلى طبيعته، ولكن ما عدا الأخذ والمجيء بالأخبار وعادة المغالاة التي يشبه فيها بيدرو سيغانو – يجب أن يضاف إليه من الصفات ما يشير إلى عادته المزمنة بمعرفة تطور كل موضوع قبل حدوثه، معلناً عما سيلي ذلك الحدث؛ ما عدا "خذ واجلب"، لقّبوه أيضاً بلقب "جنابك سوف ترى"

شــكل مألوف عند أسفل المنحدرات، وكان يضع نفسه باستمرار في المأزق نتــيجة ملاحظاته "وأهم يقولون في الجوار"، واهتمامه بالهمس والشائعات، ولكن علـــى الأخص بسبب ادعاءاته التي لا أساس لها وتكهناته بكل الأحداث. كان قد انــصرف عــدة مرات حاملاً على قفاه الرفسات وعلى رقبته الصفعات القوية من العاهرات اللواتي اعتبرن أنفسهن مطعونات في كرامتهن أو معتدى عليهن بالكلام من "قصبة الصيد"؛ ومع ذلك، كان بشكل عام، يصل فيرحّب به بفضول وعطف عندما يدرك المبغى هيئته الغريبة وسؤاله التقليدي: هل عرفت بالخبر الجديد؟ ولكي يعرفوا كانوا يحيّونه عندما يلوّح برجليه الطويلتين وعينيه الزائغتين.

وبفــضل دورفالينـــيو، غدا فضول يعيش برفاهية الكبار: لم يعد مضطراً إلى الـــنهوض قـــبل شروق الشمس ليستجيب لطلبات رجال القوافل، فقد ألقى تلك المهمة المتعبة على عاتق دورفالينيو. كان قد أخذ يصل إلى المشرب بعدما يخفّف من عـــبء معدتـــه ويسبح في النهر ويتناول وجبة الصباح المكوّنة من القهوة وطحين المانديـــوكا وأقـــراص السكر والجابا. كان مستعدّاً ليصغي، وفي نفس الوقت مع "صباح الخير" القلبية، إلى الأنباء والتعليقات وتكهنات الخادم الذي لم يكن يذهب إلى البيت، إلى النهر أو السخان، قبل أن يفرغ جعبته:

– جـــنابك تعرف ما يحدث بين تيساو وباستياو دا روزا بسبب ديفا؟ الجميع يعلمون بذلك..

كان فضول يعلم أيضاً، لأن دورفالينيو نفسه كان قد لفت نظره إلى الاهتمام بأمـــر الشخـــصين المذكـــورين اللذين كانا يحومان حول ابنة إمبروزيو وفانجي، ويحـــاولان قـــص جـــناحها، على مرأى من الجميع. ومع ميل إلى القمار هو ميزة سكان توكايا غراندي – المقيمين، والعابرين عبرها – كانوا قد راهنوا على أي من الاثـــنين سيربح الشوط باللطائف واللباقات ويقتحم أولاً عذرية السرجيبية المغرية؟ أن تكـــون ديفـــا عذراء فمسألة لا تقبل الشك حتى لدى "جنابك سوف ترى"، و"أصـــبح علـــى علـــم" ولكن لساناً سليطاً وسامّاً أوحى ببعض الشك في هذا الموضـــوع: عذراء حتى اللحظة التي قام بها كاستور أو باستياو بتقديم الخدمة لها. كـــان الـــرأي العام يرى نفسه مقسوماً إلى قسمين فيما هو متعلق بالحدث، ولكن دورفالينيو كان صاحب وجهة نظر أكيدة، لا يقبل مناقشتها:

– ألا تعـــتقد "جنابك"، أن باستياو سيربح الشوط بمسافة بعيدة؟ إنه غباء من جانب تيساو أن يفكّر أن ديفا ستفضّل زنجياً بشعاً، أبله، على أبيض يبدو كأنه من عــــرق ألماني! إن السيد كاستور يخرج خاوي الوفاض من هذا النـــزاع "وجنابك سوف ترى" والكلام بيننا.

– إنك تعتبر تيساو بشعاً لأنه زنجي، ولكن ألا ترى أنه بالنسبة إليك ينقصك القلـــيل لتصبح مثله. – كان دورفالينيو أشدّ اسوداداً من عمّته الغلاسية ذات اللون الشبيه بالكاكاو الجاف: – إن اللون لا يصنع الجمال ولا البشاعة لأحد، ويمكن أن يكون جميلاً من الأسود والأبيض: خفض صوته كما لو كان يتكلم مع نفسه:

– لو كانت زيزينيا بيضاء لما كانت جميلة إلى هذا الحدّ.

وهــــروب ذهني مفاجئ عاد فضول يراها على البار تصبّ الكاشاسا لرجال القوافل، وبعدما أنهى الكلام تضاعف الارتباك الذي سببه الثرثار:

– أجـــل إني أراهــــن على المال الذي تسرقه مني أن تيساو سيربح. – ابتلع دورفالينيو ريقه:

– الذي أسرقه؟ لا تقل هذا وإن بمزاح. أقسم بالله! – وإذ أقسم بالله عاد إلى أطروحة ولهه:

– إذا كـــان "جنابك" يقول إن تيساو هو المنتصر، فلست أنا من سيشك في الأمـــر. إن ريسو ذات رأي واحد، وهي مجنونة به.. كل قضية!! ولكن "جنابك ســــوف ترى": إن هذا النـــزاع سينتهي بشكل سيئ، سينتهي بمبارزة... "جنابك سوف ترى"

13

كـــان يقع شجار بالأيدي، أو عراك جسدي، أو مشادة كلامية، باستمرار، وفي أغلـــب الأحـــيان بـــسبب اللعب بالورق أو الخلاف بسبب امرأة. وكانت كل تلك الأزمات مجرد ضجيج لا يلبث أن يخفت، فلا تستدعي القلق والتعليق. كان يحدث أن اثـــنين يستغربان المراهنات على طاولة القمار، أو في مقر فتاة هوى: فيتبادلان الشتائم ويـــتحدّيان واحــــدهما الآخر. ولم يكن الأمر يتعدّى ذلك، فيتدخّل الآخرون لتهدئة الموقف. ومع هذا كله فقد تمّ تسجيل بعض المواقف الحساسة التي أعقبها صدام خطير.

أخطـــر تلك المواقف، المسجلة في ذلك العيد الاحتفالي للقديس أنطونيو كان عـــندما تلقّـــت كوتينيا الرصاصة في رأسها ووقعت ميتة في الحال. أموات آخرون حملـــوا، ليزيدوا من عدد الصلبان إلى المقبرة، ولكن اثنين منهم فقط حملا إلى هناك نتـــيجة الـــتطور الذي حدث في القرية: اثنان من القتلة المأجورين دخلا في عراك بسبب الفتاة سيباء التافهة، البائنة العظام، والتي لا قيمة لها. وبسبب هذه الخرقة من الفتـــيات انتهـــى أحد المأجورين إلى أن ينـــزف دماً فتمّ دفنه على عجلة دون أن يرافقه أحد، بينما الآخر، الذي أصيب بإعاقة، اختفى في الغابة و لم يعد أحد يعرف عنه شيئاً. وحادثة هي الأخرى تافهة – هل التكرار ضروري؟ – إذ إن مسترلماً قتل أحـــد مـــساعدي حداة القوافل الذي حاول أن يغشّه في القمار: إن القمار والمرأة كانـــا دائماً السببين الوحيدين كما يمكن ملاحظته. بالإضافة إلى هذه القبور فإن المقبرة قد نمت واتسعت بسبب الأفاعي والأمراض التي كانت تشيع ناشطة في كل منطقة الكاكاو.

وكانت امرأة موجودة تعاني من ألم في معدها قد أطالت استعمال جسدها في الطـــريق فوقعت ميتة بينما يذهبون بها إلى إيتابونا متعاونين على حمل الشبكة التي وضعت فيها، فعادوا ليدفنوها في القرية بعد أن قاموا بحفلة توديع للفقيدة متناولين كمـــيات كـــبيرة من الكاشاسا بالمناسبة. وكانت حفلة التوديع قد استمرّت طيلة اللـــيل بسبب تعاون رجال القوافل وفتيات الهوى. ونظراً لعدم وجود كاهن، فإن فـــضول عـــبد الله، رجل كل المهمات، غسل الجسد باهتمام وعطف وراح ينشد باللغة العربية، مجاناً: لم يكن فضول يتلقّى بدل أتعابه الدينية، فالإله الصالح سيضعها في حسابه في يوم الحساب.

وحدثت أيضاً خلافات ذات طابع عنيف لم تنتهِ إلى مأساة دموية، مثلما وقع عندما قرّر فاليريو كاشوخاو، مساعد أحد حداة القوافل، والذي لا يتحمّل تناول الكاشاســـا، أن يمـــارس حرياته مع امرأة شيكو أشيبينيرا الذي مع زوجته، باتجاه تاكاراس، قرّرا أن يقضيا الليل في الفلاة هناك. كان شيكو أشبينيرا هو نفسه ذلك الـــشخص الـــذي أرسل إلى محكمة إيلايوس موقوفاً، عند نهاية الصراعات، متهماً بقتل جوستينو ماسيل واثنين من أزلامه، وكان التركي وحادي القوافل مانينيو قد تدخّلا في اللحظة المناسبة لمنع الأسوأ: كان شيكو أشبينيرا بإحدى يديه قد أمسك

فاليريــو كاشــوخاو مــن عنقه، وبيده الأخرى راح يشتغل بهدوء مستعملاً رأس الخنجر الحاد. ثم غسل فاليريو كاشوخاو بالدم ولكنه نجا بحياته.

وإذ كانت توكايا غراندي لا تزال في بداياتها، فإن اثنين من القتلة المأجورين كانا قد وصلا إلى هنا معاً مستعدين للتخفيف من حدة متطلبات الطبيعة الإنسانية، فــإذا بهمــا يتــبادلان الطعن بالسكاكين فجرح واحدهما الآخر لمعرفة من الذي سيمضي الليل مع برناردا. كانا قد شاهداها في دكان التركي ولكنهما لم يكلماها: فلــو أنهمــا استشاراها قبل العراك لما كانت تلك الطعنات بالخناجر لتحدث، لأن برناردا كانت متوعكة، ومقفلة مطارحها في تلك الليلة. مجازفاً بنفسه لأن يتلقّى ما هــو أكثر من الطعن، فقد تمكّن فضول من أن يبعد الخصمين العنيفين عن بعضهما بعــضاً، ولكــن لماذا يكونان خصمين إذا لم تكن برناردا قد أظهرت أي اهتمام بأحــدهما؟ وانتهــى الاثنان إلى السلام المصنوع حديثاً عندما قرّرا أن يتخلّيا عن السَّخْلَة. وغسلت لهما كوروكا جروحهما بالكحول وعزّت أحدهما، بينما سحب الآخر دليلة معه، وهذه أيضاً لها قدرها نظراً للمغالاة في طريقة عرض نفسها.

مــنذ وصلت برناردا إلى توكايا غراندي تسبّبت في شجارات متتالية كانت تحــل "بالطرّة والنقشة" أو بالورقة الأقوى المسحوبة من ورق اللعب، ولكنها حين حملت رتبة الحماية التي ميّزها بها النقيب ناتاريو دا فونسيكا، فإن الكاعب الجميلة لم تعــد موضــوع مــراهنة وتحدٍّ. أصبح بمقدورها أن تستفيد من الوضع وتعطي لنفــسها القيمة بالاستجابة فقط لمن تريد أن تستجيب في الأيام المخصصة لكسب العيــشة. كانت تخصّ ثلاثة أيام للعرّاب منذ أن يعلن عن مروره المقبل: مساء يوم وصــوله لتتمكن من استقباله باطمئنان وراحة، ويوم السعادة التالي الذي يليه اليوم الــثالث الذي يخصّص لذكرى الأهم وذكرى التفاصيل، كل كلمة، وكل حركة، وكــل ابتــسامة غامضة، وكل ضمّة من ضمّاته القوية، وتنهيدة وارتخاء. كانت حياتها تتلخّص بهذه الساعات من المغامرات التي تقضيها برفقة طيبة.

هــذا هــو ســجل الــتحديات الأكثر جدية، والحوادث الأعنف، والقتلى والجرحــى: فهي لم تكن كثيرة، ولم تقتضِ الكثير من التعليقات الحادة، ولم تنهمر بسببها الدماء بكثرة. أما الأحداث الصغرى، والصفعات الخفيفة فقد تعب فضول عــبد الله من فضّها بالصراخ وهو يفوض أصله العريق كتاجر أو كدائن بالفائدة،

وأحـــياناً كان يفعل ذلك بالقوة الجسدية. في عالم الكاكاو المجرّد من الإنسانية، إذا كان لتوكايا غراندي سمعة سيئة لم تكن تستحقّها فإنها مكان هادئ، وموضع آمن لقضاء الليل: منظر بديع بعد المال، ومتعة سهلة.

14

لم يكتفِ دورفالينيو بتوقع عراك لا بدّ منه نتيجة استعدادات كل من باستياو دا روزا كاستور للحصول على متع الآنسة ديفا: فقد سجّل تاريخ ومكان الحدث الأكيد الذي سيقع، بشكل مؤكد، يوم الأحد، خلال الحفلة المعلن عنها في توكايا غـــراندي للاحـــتفال بحـــضور زوجة لوبيسينيو المواطن الشريف. لم تكن زوجة لوبيسينيو، السيدة إيستر، اللئيمة المملة، مثيرة القرف، تحب الرقص. كان استئناسها الأكـــبر يقوم على الأحاديث مع الجيران عن الأمراض وفعاليات الصلوات التي لا تعدّ.

خلال سنوات طويلة كانت السيدة إيستر ترفض أن تقيم في توكايا غراندي مـــصرّة على البقاء في تاكاراس، في حين كان زوجها وابنها يجاهدان بلا تعب في مجاهل العالم. وفي النهاية، وقد لاحظت أن لوبيسينيو أصبح قليل الذهاب إلى محطة سكة الحديد، مرسلاً إليها مع أحد رجال القوافل الضروري للمصاريف، قرّرت أن تـــأتي إلى توكايا غراندي لقضاء بضعة أيام مع زوجها العاق وتعطي البركة لابنها الـــذي رافق أباه صغيراً ليتعلّم مهنة النجارة؛ حذقاً ومجتهداً، كان زينيو يدّعي أنه سيصل إلى درجة حفار خشب كما كان يفعل غيدو:

- نجار، وكفى! صحِّح كلامك، فأنا معلم الحفر الوحيد.

لم تكـــن الـــسيدة إيستر تحب الرقص ولكن ليس بسبب هذه الرذيلة لم يكن الشعب مستعدّاً للتراجع عن الاحتفال. إن فكرة الحفلة الراقصة انطلقت من الزنجي تيـــساو الـــذي، كما تمّت معرفته، كان همّه الاحتفال بحدّ ذاته أياً كان السبب أو الغـــرض. فكـــم بالحري في تلك المناسبة: أنه سيستغل العيد ليستجلي الأمر الذي يشتدّ غموضاً عليه أكثر فأكثر - وسيعرف لأي من المزاحمين سيميل التفضل لدى ديفـــا إذا كان هناك تفضيل. من الصعب معرفة الأمر لدى هذه المخلوقة الغامضة والنـــــزقة: تارة تبدو مسترسلة في الضحك، وطوراً تصمّ أذنيها، وتقطّب وجهها

وتبدو حردة. لقد قرّر الزنجي وحده الإعداد للعيد دون أن يستثير أحداً عندما شاهد، على طريق الحمير، الرجل الذي هو دائماً موضع ترحيب: بيدرو سيغانو.

لم يعد بيدرو سيغانو، منذ زمن طويل، وحده العازف على الهرمونيكا لإحياء حفلات الرقص للسكان. فأيام الآحاد بدأ يظهر هناك عازفون آخرون على الكمنجة والأكورديون والناي، ولكن السكان لا يزالون يعتبرونه الأفضل ودون اعتراض أحد، وأبعد من ذلك كان يكتفي بأي شكر، ولم يكن يفرض شروطاً صعبة ليستلّ آلته ويلاعب عليها أصابعه مخرجاً منها روائع الألحان.

غجري لكونه بدوياً، اليوم هنا وغداً هناك والأكورديون على كتفه، فإنه كان يظهر تفضيله لتوكايا غراندي، الموقع الجميل، ومتعة الأنظار التي عرفها منذ زمن سحيق وبوقت طويل قبل وصول التركي فضول. لم يكن هناك غير كوروكا تستقبل رجال القوافل وكانت القوافل تلك تبدأ لحطّ الرحال في تلك الشعاب لتختصر الوقت وتقتصر الفراسخ للرحلة الطويلة.

في روحاته ومجيئاته شاهد بيدرو سيغانو نمو المكان وتكاثر الأكواخ عند أسفل المنحدرات وتناثر البيوت على طريق الحمير ومستودع الكاكاو ودكان التركي وبيت التبن والإسطبل ومحل الحدادة. ولم يتخيّل قط أنه ستقوم عند الضفة الأخرى من النهر البساتين الواسعة، ومقرات الإقامة المسقوفة بالقرميد، ومستودع الطحين والحيوانات الأليفة المتناثرة في الفلوات. أما بيت النقيب فلم يفاجئه لأنه كان يسمع الأخير يؤكد أنه سيأتي للعيش هنا مع عائلته. وبغية تصديقهم فيما يقولون بفم صغير وهمس أصغر - لم يكن أحد مجنوناً ليتكلم عن هذه الأمور بصوت عالٍ - يجب القول إن النقيب وصل قبل الجميع وقبل أن ينال رتبة وأرضاً مزروعة بالكاكاو عندما كان لا يزال مستزلماً على رأس مستزلمين يرافقهم الموت خادماً ورفيقاً.

في تلك الأثناء، وبينما تتحدّث مع كوروكا، وضعت برناردا بيدرو سيغانو في مصاف الرجال الجميلي الشكل في توكايا غراندي: هو، فضول، باستياو دا روزا والنقيب نفسه. لم يكن اسم كاستور أبدووين على اللائحة لأن الحداد لم يكن قد بلغ المكان، وشهرة جميل لم تصله فقط بذكرى برناردا، فالكثيرات من فتيات الهوى كنّ من الرأي نفسه: وكانت لائحة عشيقات الموسيقى طويلة،

وكـــذلك المصاحبات على طول نهر الأفاعي، وحيث تجد نصف دزينة من الغرف المحصنة فتيات يمارسن المهنة شبقات إلى العطف والتعاون.

15

عـــند خشبة مشرب التركي، علم بيدرو سيغانو، على لسان أمين الصندوق دورفالينـــيو، عـــن الأزمـــة الحادّة التي تجعل الزنجي تيساو وجهاً لوجه مع الأشقر باســـتياو دا روزا وعن المأساة التي ستنتهي إليها الأزمة كما يتوقع "جنابك سوف ترى"

كـــان بيدرو سيغانو قد أمضى وقتاً طويلاً دون أن يأتي إلى توكايا غراندي، منـــشغلاً بإحياء الحفلات الدينية خلال بعثة إلى أغواسيكا، كورتا ماو وإيتاباري: كـــان على رأس البعثة أخ ألماني خبير بتضخم الآلام في جهنم، ولم تكن أية كمية من الطعام لتكفيه، ولمواجهته لم يكن هناك غير الكاهن أفونسو، فهل تذكره؟ أشار إلى البناء على الضفة الأخرى من النهر، وكان ذلك على وشك الانتهاء:

– ما هذا الذي هناك؟

– إنه مستودع طحين إمبروزيو دوس سانتوس. أوضح فضول:

– سيصبح الطحين متوفراً بكثرة.

– إن الذي يبنيه هو السيد باستياو. استطرد دورفالينيو:

– إنه يقضي يومه هناك، قربها.. قرب ديفا.. بالنسبة لي فإن تيساو قد هوى عن ظهر الحصان ووقع في المصيدة..

لم يشارك بيدرو سيغانو فقد كان مهتماً بتقدير نمو القرية:

– نعـــم يـــا سيدي، من الذي كان يقول. مدَّ الكأس الفارغة بانتظار جرعة جديدة، ولاحظ بعد ذلك أنه لم يجرِ محادثة منذ زمن طويل مع صديقه فضول.

– لقد بدأ الكاكاو يتوفر.. قال التركي وهو يقيس رغماً عنه الجرعة المجانية، ويفسِّر ما كان الواحد والآخر جاداً في معرفته. تبارك الله! – زمجر ثقاب العالم.

كانـــت زمرة من الفتيان قد مرّت مسرعة أمام الباب تاركة وراءها الغبار في وجـــه فتاة ترميهم بالشتائم: يا أبناء الزانيات، وأصحاب القرون، وبينما يشير إليها بإصبعه أراد الموسيقي أن يعرف من كانت.

– إنها ابنة التاميراندو – ساو... كان قد نزعها من رأسه. إنها تعيش مع الفتيان ولن تتأخر في أن تحمل بطناً منتفخة. – توقّع فضول.

تابع بيدرو سيغانو نظر دورفالينيو في فراغات الزمن. ولم يكن التعليق على حياة الآخرين، وحده، هو الذي يشغل أمين الصندوق. وابتسم ملك الطرف، مستأنساً. أما الفتاة الصغيرة، وبغية الهرب من الاضطهاد، دخلت إلى الدكان ووقفت قرب التركي مذعورة. وتحت الفستان الشفاف الذي كانت ترتديه كانت تعرض روعة الجسم المراهق.

– لا تتركهم يأخذوني يا سيد فضول. إنهم يريدون استغلالي.

في الخارج، كان يقف ناندو، وإيدو وأخو بيبا ذو الإحدى عشرة سنة، ابن النقيب، لا ابن زيلدا، الأم بالتبني، ينتظرون. كانوا متأكدين من أنها ستعود لإثارتهم بعد أن تشرب ماء البئر التي سكبها لها خادم فضول في كأس لا تزال ملوّثة بالكاشاسا. ولكنها حين رأت بيدرو سيغانو قلّلت ساو من مناورات المزاح ومن كونها سخلة عمياء ونظرت باحتقار إلى الفتيان الصغار الذين كانوا بالانتظار. جلست على الأرض مطلقة رجليها بارتياح، ومدّت لسانها للأولاد، وضربت يدها على ذراعها بحركة أرسلت لهم معها الموز وتناستهم. الفخذان مبتعدتان الواحدة عن الأخرى، والضحكة واقفة على فمها المفتوح ومتصالحة مع الحياة، قالت:

– أسيكون هناك رقص؟ إنه الشيء الذي أحبه في الحياة أكثر مما عداه.

16

بثرثرة شبيهة بحجر رحى تتوقف جعجعته، كان دورفالينيو يعلن دون توقف عن الخلاف الذي يضع بتيساو وباستياو دا روزا وجهاً لوجه، ويناقض نوايا الاثنين، ويقدّم التوقعات، ولكنه لم يكن يقبل بالرهان لعدم توفُّر المال لديه ولكنه، كأنه يقفل فمه كان أبكم وأصم، إذا حدث أن سمع إشارة متعلقة بمن سيأكل، وقريباً جداً، العشرينات الثلاث للفتاة ساو. كان هو أحد المرشحين لذلك سراً لا علناً، ولكن ليس لهذه السرية كان يفضل عدم المفاتحة في الموضوع. ففي هذا الموضوع الخطير عن المرأة كان يترك الأمور، متجاهلاً إياها، للآخرين الذين كانوا يجدون اللذّة في الحديث عن مغامراتهم. وفي صمته ذاك، ودون أن ينقطع عن تأدية

الخدمات كان يلاحق الفتيان الأكثر تعاسة في المبغى، اليوم واحدة، وغداً أخرى. وفي حالة ساو، العذراء الممشوقة، لم يكن ينقص مزاحمون مشتعلون وعارضون لأنفسهم. ضمن هذه الزمرة، دورفالينيو.

لم تكن ساو تحسب حساباً لإيدو ونناندو، أقل منهما بيبا، فهؤلاء تنقصهم الكفاءة. وفي تعب العدو لم يكونوا يصلون إلى أكثر من الملاحقات، والالتصاقات، والأجساد المتشابكة، وعندما كانوا يحاولون أن يرفعوا تنورها كانت ساو تهرب منهم.

كان المزاحمون الآخرون الحقيقيون من الشباب الذين بلغوا سن الاكتمال ممن كانوا قد عاهدوا فتيات المباغي ولم يكونوا يلتجئون إلى غير ذلك إلا في الحالات القصوى. اثنان من هؤلاء، بنوع خاص، كانا يشغلان بال دورفالينيو ويبدوان موضوع اهتمام ساو التي كانت تثير مشاعرهما بقدر ما يثيران في دورفالينيو، الأول هو السرجيبي أوريليو ذو القامة العالية الذي بدأ مؤخراً بتعلم العزف على الغيتار. أما الثاني، زينيو، فكان يقيم في المكان من زمان، ويبدو دائماً نظيفاً وحسن الهندام، وصاحب حركات مرهفة، ومتكتماً، بالإضافة إلى أنه لم يكن كثير الميل إلى التهتكات. فمن منهما سيكون صاحب الحظوة؟

وحده الله الذي صنعها هكذا، مجنونة، يستطيع أن يقول إذا كانت ساو تحسّ حقاً بالميل لأي منهما. من المؤكد أنها لم تكن تحتقر أحداً، حتى الفتيان؛ حمقى جهلة، والذين لا تخدمهم جيداً، هؤلاء الفتيان، بالرغم من كل شيء، كانوا يساعدونها في تمضية الوقت ويشعلون فيها النار. إن ما هو متعلق بالمراهقين الثلاثة الذين كانوا يرعونها ويسعون إلى قطفها في ظلال الغابة أو تعرجات النهر، وبينيو، وأوريليو، ودورفالينيو، فإنها كانت تتركهم في حالة نزاع، الماء في أفواههم والعصي في أيديهم. كانت تترك لواحد أو آخر المجال للالتصاق بها خارجاً ولكنها كانت في اللحظة الحاسمة تجد دائماً طريقة ما لتهرب.

لو أعطي لأحد أن يتكهّن بما يفكّر فيه لعلم أن الميل، والرغبة، والتوقد، لم تكن لتحسّ بها ساو نحو رجل بل نحو ما يميّز الصنف الذكوري، لا فتيان ولا

مراهقون، بل رجال، ناضجون، فحول، وزِيَرَة. مختبئة وراء الأشجار حدث لها أن رأت فضول وكاستور يبدلان ملابسهما فقدّرت عندئذ خصائص الرجل حق تقديرها. وفي إحدى هذه المرات تمكنت من المقارنة: كان الاثنان معاً يتحدثان؛ (خاصة السيد فضول - ما شاء الله - هي العجب العجاب، فكأنها خاصة حصان. أما كاستور، فيا مريم، لعل خاصته هي التي جعلته يحمل لقب تيساو). لهؤلاء ومعهم، فإنها مستعدّة لكل شيء. وكذلك مع عازف الصنفور الجميل كالكلب.

17

هرباً من الموت المحتّم، كان كاستور أبدووين قد أبحر في زورق شراعي من مرفأ باهيا، وخلال الليل لمح يد الإلهة جانايينا على ضوء القمر، تمسح آثار خطواته المضطهدة. الشعر، خصلاً، في تهدبات الأمواج، والعينان الدافئتان في سماء النجوم، وعلى البطن الفضي موكب اللاهثين. الخُطّاب الذين اختارتهم من الربابنة والصيادين، وأكثر البحارة شجاعة، كانوا يرافقونها إلى ليلة الزفاف في أعماق البحر: أراضي الإلهة أيوكا. و"لإيمانجا" وجهان، وجه الولادة وجانبية الموت. كان كاستور قد أبحر إلى الحرية في المياه التي تنساب من ثدييها، محكوماً عليه بالموت، فإنها أنقذت حياته لأن إيمانجا أم وزوجة.

عندما وصل إلى إيلايوس، دلّه الكاهن أرولا على الشاطئ الذي يقع عنده مسكن "إيمانجا"، وهو كناية عن مغارة في الصخر تدخلها الأمواج. وكان قد جاءها بهدية رقيقة: أنبوبة من العطر، وصابونة، وإزار للشعر أزرق اللون.

أميرة البحر، وسيدة العواصف، فما الذي جاءت تفعله عند تلك الحدود الضيقة في مياه النهر الآسنة؟ كان الزنجي كاستور أبدووين دا أسونسيون، ابن الإله شانغو، مع زمرة أوشالا وزمرة أخرى لأوشوسي، يحفر بالنار في المعدن الأبيض، بأدوات عمل بدائية، معطياً شكلاً وحياة لحورية البحر، وسط الصفيحة المستديرة. كان المعدن الذي تحفر فيه إيمانجا من الفضة البيضاء، ومن الذهب ذاك الذي تحفر فيه أوشون، ولأنه لم يكن يملك فضة وذهباً، فقد حفر واحدة في صفيحة بيضاء، وأخرى في صفيحة صفراء. وكانت الجميلات يستعملن هذه المحفورات في حفلات

المشرفين من أتباع الإلهتين عندما يأتيان ليرقصا مع الشعب. كان تيساو يرغب في وضع محفورته بين مقتنيات بيت العبادة: ومن يدري، فربما، إذا وضعت في بيت العبادة، تأخذ بيدها الصفيحة التي لا مثيل لها وتضيء هناك الفجر والفرح.

إذا كانت قد جاءت من النهر، مشتاقة إلى مملكتها، فإن الآلهة أوشون أعلنت نفسها وسيادتها، واستوت على أرجوحة النوم والحلم. ولكن أوشون، كما نعلم، نحن الأتباع، من "إيكيديس" و"أوغونات"، هي الأناقة والإثارة، النزق والكبرياء، والقلب المستخف. إنها لا تعطي نفسها للرفقة بل للعشق: وزمن العشق صاخب وقصير. كانت إيبفانيا قد رحلت وهي تحمل معها المحفورة المزيّنة. ورافقها الكلب ألما بينادا لمسافة من الطريق. الآن غدا الكلب يحيط بديفا عندما بدأت تظهر وتختبئ وراء الأشجار، وكان الكلب يحتفل بها، هازّاً بذيله، وكانت هي تعطيه بقايا الطعام الملفوفة بأوراق "الماندیوكا"

إما "إيمانجا" سرجيبي، أميرة شواطئ الصفاء ومرتفعات القمم، فهي الناعمة "إيناي"، أم وزوجة مصنوعة للحمل والولادة، و"إيمانجا" تعني الخصب والاستمرار. كانت هي من ولدت المشرفين عندما وهبت نفسها للإله أغانجو في بداية البدايات، وبدء العالم. وهو، كاستور أبدووين دا أسونسيون ولد عبداً لعبيد ولكنه أنقذ نفسه، وأصبح رجلاً حرّاً، لا حب له ولا سيد، وإذ إن "أوشالا" هو الذي يحميه، فإن لديه الرغبة في ولد يولد له، ولو واحد على الأقل: لا يكفي أن يكون له كلب يدعى ألما بينادا.

لم يتعلّم الخوف حتى عندما كان أزلام السيد البارون يفتّشون عنه ليقتلوه. ولم يكن يعرف معنى الخجل، فيظهر نفسه كما الشمس على سجيتها وحرارتها؛ وهكذا كانت النساء يعلنَّ وهنَّ يضعنه وسط حلقة الشعر المنثورة وحبكة القصة: إن كاستور أبدووين سلطان حاكم.

خلافاً لكل هذا، وأمام ديفا كان يبدو شخصاً آخر، لم يكن هو تيساو نفسه، حذّاء الحمير الضاحك، معلم الحدادة ذو اليد الماهرة، معشوق فتيات الهوى، والمتزوجات والراقيات، والذي كانت المشرفات يتحلّقن حوله، باسماً، وهن يقدّمن الخضوع. لقد غدا ضحية عين حاسدة، وراح يسير كسير الخاطر أمير إيبانو المدلّل، وتيساو المتنازع على حرارته. لقد بدا مريض النفس وفقد الفرح والبهجة.

جـــاءت إيمانجا من البحر إلى النهر لتمنحه طبيعة مختلفة، وتجعله خجولاً خائفاً وجباناً. أين هي الشجاعة ليذهب مفتّشاً عنها فيأخذها من عنقها ويأتي بها أسيرة؟ أيـــن هـــي ضحكته المتمطية، وجملته المباشرة، وشمس وجهه العريض ذي الأنف القـــوي والـــشفتين الغليظتين والعينين الملتهبتين؟ ما الذي حدث للزنجي كاستور أبـــدووين دا أسونـــسيون الـــذي هاجمه الانكسار فجعله ينازع حياته على قدمي بيضاء؟ بيضاء؟ كان لها شعر طويل وسحنة شاحبة، وفي سانتو أمارو يمكن أن تعتبر خلاسية بيضاء.

كانـــت حـــورية البحر تسير على الأمواج تحت سماء مليئة بالنجوم. واستمر كاســـتور بقطـــع الصفيح، والقمر ساطع، أجل، لأن القمر يأمر البحر في غياب جانايينا. لقد انتهى عمل الحفر بالنار حيث ستتمرّى الحبيبة وتعرف نفسها.

كلا لم يكن بمقدوره أن يستمر في ذلك النـــزاع، جباناً، خيالياً تافهاً، مضيعاً للـــوقت في عشق عذري، مع عينين هاربتين ونوايا يمكن التكهن بها. كان عليه أن يعـــود الزنجي صاحب الإرادة، الواثق من نفسه والمنطق، والذي كان من قبل. لم يكـــن هو هذا المكتئب، المتردِّد، عندما علّق قرنين للبارون سيد الرفاهية، ولم يكن هـــو هـــذا المتـــنازع بين الحياة والموت الذي تمدّد في سرير "المادام" وعلى أريكة الخادمة، وانتهى إلى أن يحطّم وجه البارون.

وكـــان باستياو دا روزا قد بدأ بناء مستودع الطحين، ويقضي اليوم بكامله قـــرب ديفـــا، ووفقـــاً لما أصبح ممكناً ملاحظته وسماعه من الآخرين، غدا باستياو صديقاً حميماً للعائلة فكان يلاطف الكبار في السن ويتآخى مع جواوزي وأغنالدو وأوريلـــيو وقد شوهدوا معاً في دكان فضول. وعلم تيساو بالمراهنات والتوقعات؛ بـــسبب كـــبريائه القاســـية فقط، لم يكن يرغب في المزاحمة واستعمال الألاعيب، واجـــتذاب الأهـــل. كان يرغب فقط في الحصول عليها إلى الأبد. ولكن فقط إذا أرادت أن تـــأتي من تلقاء نفسها وبأمر من قلبها. ولم يكن يلجأ إلى التعاويذ للآلهة لكي يجعلها تحبه وتستسلم له بفعل السحر. فهذا الموضوع مشكلته هو، لا مشكلة "الأوريشاس"

في اللـــوحة المعدنية المحفورة كانت إيمانجا تشعّ متوهجة: وكان النظر إلى ذيل حورية البحر كأنما هو نظر إلى امتداد جسد السرجيبية.

18

بعدما تمّت الاستجابة لحاجات رجال القوافل، ذهب تيساو، في منتصف الليل ليوقظ دودو بيروبا مربي العصافير عند طريق الحمير، فتيساو وحده لا يستطيع أن يجمع الطرائد، وكان الكلب ألما بينادا يتقدّم المسيرة إلى الغابة بينما ظلت الكلبة أوفريسيدا قرب موقد النار وهي حامل للمرة الثانية. وفي المرة الأولى كانت قد وضعت سبعة جراء وكونها أمّاً فقد يئست عندما فصلوا عنها الجراء التي توزّعت في زوايا القرية الأربع: جروان مع ميرينسيا وزوجها زي لويس، وزوج آخر في بستان الستاميراندو، وتمّ إهداء الثلاثة الباقية إلى راعي البقر ليريو المسؤول عن الإسطبل، وزينيو وإيدو، وكما لو أنه لم يكن كافياً لهذا الأخير قطيع الكلاب والهررة التي كانت زيلدا قد جاءت بها في عربة الثيران. ومع انتقال العائلة إلى توكايا غراندي، كان إيدو الذي لا يزال يعمل في محل الحدادة، قد عاد ليقيم مع والديه.

لم تكن الشمس قد بزغت بعد عندما كان تيساو ودودو قد أفرغا في بيت الزنجي حصيلة الصيد - غزالاً كبيراً وسميناً كان يقارب العشرة كيلوغرامات، وجاموسين، ودجاجة أرض كانت قد وقعت في الفخاخ وهي تطوف الغابة. كما جاء الصيادان بنصف دزينة من الأرانب البرية و"الإيكبين" المفضلة عند أوشالا ورجع دودو بيروبا ليعود بالعصافير، وكان قد ترك قضبان الدبق في أحضان الشجر، وإذا لم يستعجل فإن إيدو وناندو سيحتفلان على حسابه.

عند ضفتي النهر، كانت السماء الحمراء تعلن عن وصول الشمس، وكان رجال القوافل ما يزالون نياماً.

19

تجنّباً للفوضى والاستغلال بدأوا بسكب الكاشاسا لإيشو، وكان موجوداً، هناك، إيشو الحديدي الصغير، رجل الصدامات الكبيرة، والعرّاب الوفي صاحب العضو الأكبر من الجنبين. بعد ذلك، وللتعجيل في تجهيز الطعام قطعوا رأس الجاموس. وبينما كانت تضرم النار، فإن ريسو، ودون أن تنظر إليه، سألت:

– هل تقدّمه ضحية دليلاً على الإعجاب؟ لم أرَ أبداً ضحية بهذا الحجم.
– بل ضحية لاستعادة صحتي.
– هل أنت مريض؟ ومنذ متى؟
– إن الحـــب هو أيضاً مرض، ولكنه مرض لا يمكن رؤيته. إنه يصيب الجسد بالوهن وهو أسوأ من الاكتئاب. إنه مدمِّر، هل تعرفين كيف يكون؟
– إني أعرف؟ لقد عانيت منه حتى الدمار. يبدو كأن عيناً حاسدة قد أصابت صاحبه، بل هو أسوأ من هذا: إن صاحبه يفقد الإرادة في الحياة.
ومع ذلك فإن فضول المعرفة عندها ظل يطلب المزيد.
– إن الجامـــوس هـــو "لامولو" بالتأكيد، ولكن لمن هذه الكمية من الطرائد المختلفة الأخرى؟
– إنـــه واجب أدين به للآخرين منذ زمن طويل.. لا بدّ من أنني بسبب هذا الدين أراني واهناً إلى هذا الحد..!
– واهن؟ أنت؟ – ضحكت بتهتّك.
واستعجلها تيساو:
– عجِّلي قبل أن يطلع النهار.
أشـــعلت الـــنار تحـــت الآنية: إن لحم الجاموس يستغرق وقتاً طويلاً لينضج. انضمّت إلى تيساو وذهبا إلى داخل البيت حيث أخذ هو سكيناً مسنونة، مروّسة، وأمـــسكت هي برجلي الجاموس، فنحره تيساو. وعندما انفجر الدم أحمر، حاراً، قرّب الزنجي فمه من صدر الحيوان وامتصّ الحياة بشراهة ولهفة. بعد ذلك جاء دور ريسو، وفي النهاية ملأ الدلو بالدم لخدمة القديسين.
غنـــيا أغاني أومولو. وبينما هما يضربان كفاً بكف على نغمة "الأوبانيجية"، رقصا رقصات: "الأوريشا": رقصة المعوق، والأحدب، والمقعد، والمصاب بالجذام الأســـود، ورقـــصا رقـــصات الشفاء، منقذين الناس من الطاعون ومنتصرين على المـــوت. وبينما كان يلامس يدها ليتغلّب على انكساره وعلى العين الحاسدة التي أقفلت فمه، قيّدت ذراعيه وكادت تخنقه.
عـــندئذ سمـــع دوي الـــرعب يعقب وميض الأشعة، وسمعت تنهدات الغيمة السوداء. أما النجوم المنطفئة فعادت تسطع في السماء الحمراء بلون الدم. ووصلت

الإلهـــة يانـــسان علـــى غيمة سوداء، وامتطت جوادها، وأطلقت صرخة الحرب، ورقصت رقصة المعركة والنصر، وضمّت تيساو إلى صدرها وطردت "الأوغونات" التي كانت تحيط به ونظّفت الجسد من أدرانه. كل ذلك حدث في لحظة خاطفة لا أكثر، وعادت ريسو لترتدي ملابسها الشفافة.

كـــان كاســـتو أبدووين محروساً من الجهات السبع، وكانت كل الطرقات مفتوحة أمامه.

20

ملطّخين بالدم من الرأس حتى القدمين، ذهب الاثنان إلى النهر ليغتسلا وأخذا كمية كبيرة من الصابون، وفي الطريق، أخبرت ريسو:

– يقولون إن تيساو يضع اللمسات الأخيرة على بيته استعداداً للعيد.

– أي عيد؟

– يعـــني.. اليوم الذي تقرّر فيه أن تقيم معه. ولكن، في رأيي، فإنها لن تصل إلى منقاره. إذاً، الآن، يتّضح كل شيء..

كانت تعتقد بقدرة الآلهة، وقوة الذبائح.

اغتسلا بالصابون، ونظّفا جلد الجاموس، فوعد تيساو، شاكراً على المساعدة:

– سأصنع منه جراباً لتحتفظي فيه بمدخراتك.

تراشقا بالماء وغاصا معاً، وتلامس الجسدان، وعند شروق الشمس بدأ المزاح الطيب: لا أحد مصنوع من الحديد، وأي عود ثقاب يشعل محرقة كبيرة. كان هو غارقـــاً في الـــتفكير في ديفـــا التي لم تكن تبارح مخيلته، وكانت هي، دون أفكار مـــضمرة، مأخـــوذة بالمتعة وحدها. لم تكن تلك المرة الأولى. لقد حدث سابقاً، ولكن في الأرجوحة، لا هنا، عند مجرى النهر.

– فقط إذا لعبت الثولاء (الحمقاء).. – تمتمت ريسو.

عـــاد إلى محل الحدادة لذرِّ الملح على اللحم، وفصل بعض القطع للأصدقاء: التركـــي، كوروكا، التاميراندو، والعجوز جيرينو وبعض الآخرين: كان تيساو قد ولد كريماً.

– هل سترسل منها إلى السيدة فانجي؟ – أثارته ريسو.

– ارسلي إليها إذا رغبت، أما أنا، فلا... هنالك أشياء لا يستطيع الناس أن يشتروها بالمال أو بالهدايا. إن الحب ليس سلعة.

– من باب الحدادة، عندما انصرفت ريسو، كان الزنجي كاستور وأبدووين، قد عاد إلى حجمه الأكيد. أرسل نظرة إلى الضفة الأخرى حيث كانت تعيش الغامضة. كان قد اتخذ قراره: سيذهب إلى ملاقاتها بصدر مفتوح، وعنوة أو بالحسنى سيأخذها بين ذراعيه ليرميها في شبكة الأرجوحة مبيناً لها قيمة زنجي موله. لقد جاءت الساعة ليضع نقطة النهاية لهذا الحب العذري الذي لا رأس له ولا قدمين. سيفعل ذلك قبل أن يسبقه الأبيض ذو العينين الزرقاوين إلى رفع فخذها. يا "أتوتو" ويا "أومولو" أب الكآبة والجذام الأسود، والقوة والصحة، "أتوتو"، "أبي"، "أوبالويه"

21

اجتاز كاستور أبدووين النهر إلى الضفة الأخرى: سريعاً وفي الوقت نفسه اجتاز المسافة ماشياً فوق الحجارة، مبللاً رجليه بمجرى النهر. وهناك، كان المستزلمون يقطعون الأشجار وينظفون الجذوع التي كان غيدو ولوبيسينيو ومساعدوهما يحوّلونها إلى ألواح وعوارض خشبية لاستعمالها في بناء الجسر الكبير. وكان العقيد روبستيانو دي أراجو الذي تعاقد مع كل هؤلاء قد شكَّ في أن يكون معلما النجارة قادرين على إنجاز عمل بهذا الحجم واقترح بإمكانية المجيء بمعلمين حذقين من إيتابونا ولكن لوبيسينيو، أحد بناة مستودع الكاكاو والإسطبل، أبدى انزعاجه من العرض: وفي النهاية كان العقيد يعرفه بوجهيه: الكفاءة، والتركيب النفسي.

– ضع المال، يا عقيد، واترك الباقي علينا.

وضع المزارع المال، وشارك النقيب ناتاريو دا فونسيكا ببعض منه، وبعد قليل سيصبح اجتياز النهر بأمان وثقة. وبعد سنة من ذلك، عندما هبط السرجيبيون هناك، من يستطيع أن يتخيّل هذا التقدّم في بناء الجسر الكبير ومستودع الطحين؟

أما ما هو متعلق بمستودع الطحين فإن البناء كان قد وصل إلى النهاية. كان باستياو دا روزا يأمر على مستخدمين في بناء الجدران، وكان لوبيسينيو وابنه

يديــران الطاحـــونة التي تكاد أن تصبح جاهزة للعمل. كانت مجموعة كبيرة من النساء متحلّقة حول العمل: فانجي وكنتاها، وزوجة جوزي دوس سانتوس وبناتها. وكـــان مـــستودع الطحـــين يتمّ بناؤه وسط الأراضي التي كانت العائلتان تهتمان بـــزراعتها. أما بستان التاميراندو وحقوله فكانت تقع على بعض البعد من هناك. وكانـــت ساو وأمها داس دورس تأتيان أيضاً للمساعدة. و لم يلمح كاستور ديفا وســـط ذلـــك الرهط الثرثار، فأين يمكن أن تكون؟ لا بدّ من أن تكون في الحقل.

جلس الزنجي أرضاً وحيّا الجماعة:

– مساء الخير جميعاً.

واقتربت العجوز فانجي:

– مـــساء النور يا سيد تيساو. لقد جاءت ريسو بضلع جاموس وقالت إنك اصـــطدته.. فلـــيعطك الله أضعافه. – وأشارت إلى البناء: – هل ترى؟ لن يتأخر الـــوقت وسيكون لدينا طحين دون أن نضطر إلى الحصول عليه من الخارج. عند أول عجنة سأرسل إليك بعض الخبز المرقوق.

وجاء كذلك باستياو دا روزا، ويداه وصدره موسّخة بالطحين، ليتحدث:

– إن أول بـــيت من حجر وطين بنيته هو بيتك، أتذكر؟ لقد أقمت هنا بيتاً مـــن قـــرميد، وآخـــر مـــن خشب وثالثاً من السعف، وحتى من القش، وبنيت مـــستودعات، وأقبية خشبية، وإسطبلات كما أنني صنعت شيطاناً على أربع. في هذه المجاهل، على الواحد منا أن يعرف كل شيء ولا تكفيه مهنة واحدة، وعندما أنهي هذا التعهد، فسوف أتعاطى النجارة لأساعد في بناء الجسر.

كان متحدثاً لبقاً يأسر من يتعامل معه سواء كان هذا رجلاً أو امرأة:

– بعـــد أن ينتهـــي هذا الجسر سأقوم ببناء بيت جديد للسيدة فانجي. وهذا، حتى أنتشلها من هذه البؤرة التي تعيش فيها. أليس كذلك يا عجوزتي الطيبة؟

– أين هي؟

– إنها في محل الحدادة، وتستطيعين أن تأتي لتأخذيها ساعة تشائين.

نظـــرت ديفـــا إلى الزنجي، مفكرة. و لم يكن غافلاً عنها – وكيف يمكن أن تغفـــل إلا إذا كانت ثولاء مع وجود كل هذه الدلائل – اهتمام تيساو وباستياو دا روزا وكلاهما يحيطان بها، ويسعيان وراءها، ويبادلانها النظرات والابتسامات. و لم

يكـــن باستياو دا روزا يخفي مراده، وهو دائماً وراء فانجي وإمبروزيو، ويتغدّى في مركـــز العمـــل كل يوم، ويطري على التصرف والهدوء ويذهب مع رجال العائلة مـــساء للتحدث في أمور شخصية في قلعة فضول، على جرعات الكاشاسا، وكما لو أنه غدا واحداً من العائلة. وكان تيساو يبقى للتلصص وبالتالي ليذهب بالتحدث عـــندما يراها أمام محل الحدادة تلاعب الكلب ألما بيندا. يذهب الأخير إلى النهر في الساعة التي تستحمّ فيها هناك.

– هل تريدين أن تذهبي لتأتي بها من الحدادة؟

– أنـــت تعرف أنني لم أدخل إلى هناك إلا يوم وصولي إلى توكايا غراندي. حتى إنني أشعر بالخوف.

– الخوف من أي شيء؟ – وانطلقت في الضحك، وبمثل تلك الضحكة التي لم تميّز فيها بين الزنجي كاستور أبدووين والتركي فضول عبد الله:

– سأذهب اليوم بالذات، لآتي بالمهفة من هناك.

22

وفت ديفا بالوعد، عند المساء؛ توقفت عند باب الحدادة، ونظرت إلى الداخل فـــرأت، أتـــون الـــنار مشتعلاً ولكن لا أثر لكاستور. تقدّمت خطوة إلى الأمام، دخلـــت، ونظـــرت حولها. في ليلة الوصول إلى توكايا غراندي لم ترَ شيئاً هناك، سوى الزنجي العاري الصدر، وعليه جلد خروف مشدود إلى خصره ليستر عريه.

أربعـــة صحون طعام، قطع من الحديد، وأخرى من الخشب، قش ومعدن وأشياء سحرية. كانت تنظر مأخوذة بما ترى ودون أن تتوقّع اشتمّت تلك الرائحة القوية التي كانـــت تدخلـــها في الأرجوحة، في تلك الليلة الوحيدة التي لا يماثلها أو يعادلها، والتي أبحـــرت فيها على القمر المنعكس على صفحة الماء وانسال الدم من جسدها. عرفت، قبل أن تراه، أنه وصل لتوّه. استدارت ببطء: وكاستور، بضحكة واحدة فقط، تكلم:

– إنك في بيتك.

مـــاذا يعـــني بما يقوله؟ لم تسأل ديفا، فأين الشجاعة؟ تقدّم تيساو إلى ذلك الـــركن حيث كانت تلك الأمور الغريبة والأشياء الغامضة. انحنى باحترام، وبإصبع يده لامس الأرض قبل أن يتمدّد فوقها ليقبّل حجر التحية لإيكا.

وقــف آخذاً إحدى القطع، جديدة، برّاقة، وتوجّه إلى ديفا. أحسّت بنفسها مــرتبكة وقلقة ومحاطة بمحيط من الغرائب. ومدّت يدها، خائفة، فقدّم لها تيساو المرآة.

في عـــيني الحـــداد، يلتمع ضوء قوي أحمر، ضوء أو شعلة، جمرة متّقدة. جاء الصوت خطيراً قوياً وجاداً:

– إن حورية البحر هي "إيمانجا"، يعني أنت.

رأت ديفـــا وجههـــا ينعكس على مرآة المعدن، وبينما هي تحدّق في الصورة المحفـــورة فـــيها، عرفت نفسها وتكهّنت بذاتها: الشعر، النصف الأعلى، النصف الأســـفل، ابتسمت، أخفضت عينيها، وانتظرت أن يتابع وينتهي إلى كلمات تمنّت لو سمعتها من زمان.

خـــلال الصمت، أخذها ذراعاه وشدّتاها بعنف، ودون توقع بمفاجأة. وبدلاً من أن يتلفّظ بالكلمات التي كانت تنتظرها، وتريد أن تسمعها، فإن فم كاستور، وبوضع شهواني، لساناً، وأضراساً، غطّى شفتيها وأقفل عليهما شبقاً عنيفاً، يحاول أن يـــسحقهما. اســـتغربت وأحـــسّت بخوف شديد يعتريها؛ مكثت باردة، بلا إحـــساس، وميـــتة في داخلـــها، وبدلاً من العطف واللياقة، كانت القسوة والقوة المسيطرة. وبجهد ابتعدت عنه، وقبل أن يحاول قليل الحياء أن يأخذها من جديد بين ذراعيه خرجت من نفسها، وهوت بيدها على وجهه.

– ألا تخجل؟ قالت وخرجت راكضة.

ظـــلّ تيساو في مكانه مرتبكاً، كأنه أصيب بلوثة عقلية، وتركها تذهب دون أن يـــتفوّه بكلمـــة ودون أن يقوم بحركة محاولاً أن يحتفظ بها. ومع ذلك، لاحظ، متعجـــباً ومنهاراً، أنها بعدما اجتازت الباب، وعلى مسافة قصيرة، أوقفت هربها، وللحظـــة طويلة، كأنها الحياة برمتها، انتظرته: كانت رائحة كاستور قد امتزجت بالهـــواء الـــذي تتنفسه، وانسلّت إلى جسدها وسالت في عروقها. ولكنه لم يرها: أعمـــى مـــن الغضب، لا يقوى على حركة بسبب الانفعال، ويده الغامقة اللون موضوعة على وجهه الذي يسيل منه الدم.

فقـــط، عندما وصلت إلى الباب مرتجفة، ومنفعلة، انتبهت ديفا إلى أنها كانت تحمـــل بيدها مهفة المعدن التي صنعها كاستور ليهديها إليها. كانت قد استعملتها

سلاحاً في اللحظة القدرية: إنها "بيبـــي إيمانجا" إن "لإيمانجا" وجهين، يؤكد بحارة مرفأ باهيا: وجه الطيبة، وجانبية العاصفة، الصلبة.

23

بالـــرغم من أن السيدة إيستر لم تأت إلى حفلة الرقص المقامة احتفالاً بحضورها الأول إلى تـــوكايا غراندي، فإن المبادرة السعيدة قد عرفت نجاحاً لا مثيل له. بيطري المكـــان، بـــيدرو سيغانو، ملك الطرب، لم يكن يتذكّر عيداً بتلك الحيوية والفرح. في البداية، فإن المواجهة العنيفة المتوقعة بين كاستور أبدووين أسونسيون وباستياو دا روزا والـــتي أعلن عنها "دورفالينيو"، "جنابك سوف ترى"، لم تقع، وكاستور وباستياو لم يتحادثا بمودة حسب، بل إنهما معاً تناخبا مع لوبيسينيو، زوج الشريفة المحتد.

ولكـــي يعزي نفسه، فإن أمين الصندوق رأى أن توقعه الآخر قد تحقّق: فغدا واضـــحاً ومعـــتدّاً بذاتـــه، وأمام من يريد أن يلاحظ ويستنتج، لمن كان تفضيل السرجيبية ديفا.

الفتاة المرهفة التي أكملت الخامسة عشرة، وأرخت شعرها كذيل حصان، ثم ربطـــت عند الأعلى قطعة دانتيل بلون الورد بنفس العرض واللون لما كانت تلفّه علـــى خصرها فوق فستان الشيت، ذي التموجات المتواترة وعلى الجسد الممتلئ، والذي كانت قد خيّطته لها السيدة ناتالينا، يا للإبداع!

مـــن هي السيدة ناتالينا هذه التي لم يتم المجيء على ذكر اسمها، بعد، في تقرير توكايا غراندي، والتي تنبت الآن وسط العيد: من هي؟ ومن أين جاءت؟ إنها أرملة جـــوان ميديروس من الأغواس، القليل الكلام الذي كان مديراً لمزرعة بون ريتيرو ومـــات في كمين، مؤخراً، ولم يعرف أحد من أقام ذلك الكمين له ولماذا؟ كانت مـــتقدّمة في السن، ولا تصلح لامتهان حرفة الهوى، وكونها تجيد الخياطة وصاحبة ماكيـــنة "سينجر" تعمل على اليد، فإنها جاءت إلى توكايا غراندي واختارت مهنة الخياطة، وأخبار عديدة أخرى طافت في القرية ولكنها مرّت دون تسليط الأضواء عليها: وفي حال السيدة ناتالينا، يعتبر الأمر أكثر من خطأ، إنه ظلم.

بالنـــسبة إلى تيـــساو لم يكن تفضيل ديفا للآخر، بسبب ذلك الغموض في تصرفاتها الذي كان يعانيه وهو يفتّش عن أسباب مواقف الفتاة الآتية من ماروين..

لقـــد غدا كل شيء أكيداً بالنسبة إليه في اللحظة التي حاول أن يقبلها، وهي قد نفرت وابتعدت، فإنها هوت "بالابيبـــي" على وجهه.. وبقي أثر الجرح في وجهه.. ما هذا يا تيـــساو، هـــل جـــرحت نفسك بشوكة مسمومة؟ إن أثر الجرح ليس شيئاً إذا قيس بالجرح المفتوح في صدره، الذي يؤلمه وينـــزف، ويجعله يتألم. ومع ذلك النـــزيف في الجرح، فإنه لم يتركه يظهر، فكان يتظاهر بأنه الزنجي الضحوك كما هي عادته، والزير الدائم، والفرح الأبدي، صاحب القلب المنتعش باستمرار.

في حفلـــة الاحـــتفال بالسيدة إيستر - إني أخاف من هذه التجمعات، قالت السيدة إيستر لبيدرو سيغانو عندما نقل لها الخبر ووجّه لها الدعوة - لم يكن هناك مـــن هـــو أكثر حيوية من الحداد كاستور أبدووين. لقد خرجت منه فكرة العيد ويـــريد أن يـــراها تتجسّد مشتعلة. رقص دون توقف، طيلة الليلة، و لم يفقد المتعة بالمـــشاركة، في أية رقصة "بولكا" أو "مازوركا" أو "كوكو" أو "شوتي" كما أنه طالب برقص رباعية ملتهبة. كان الأخير يبدو أجنبياً، ولكن من كان يتلفّظ بكلمة "بالانـــسي" و"أنافانـــتو"، وبلغة الأجنبيات، فهو نفسه تيساو، وبملء فمه كان قد تعلّـــم الكـــلام باللغـــة الأوروبية، كما تعلّم الرفاهية على فراش "الساتين"، فراش "المداما"، "البارونة"؛ فهذه، أجل، بيضاء اللون بلون الحليب، وشقراء بلون العسل.

كـــان قد بدأ بدعوة زيلدا إلى رقصة "شورتي"؛ كانت زيلدا قد جاءت معها إلى هـــناك بأولادهـــا الثمانية: خمسة كانت قد ولدهم، وثلاثة بالتبنّي، أما الابن الأصـــغر، فليون العقيد بوافنتورا أندرادي والسيدة أرنستينا، فكان يركض وحيداً علـــى حلـــبة الـــرقص، ولكن الفتاتين التوأمين ذواتي السنوات العشر، فلم تكونا ترفضان من يراقصهما. وكان النقيب يمشي في أتالايا: كان القطاف قد بدأ وكان هـــو يدير أعمال القطاف. لذلك أيضاً لم تمكث زيلدا حتى النهاية، فجمعت بناتها والأبناء الصغار.. كان إيدو وبيبا قد رفضا مرافقتها، وفارقت الاحتفال.

كـــان قـــد افتتح الرقص مع زيلدا ولكنه لم يوفّر واحدة من الموجودات من فتـــيات الهوى، أو بنات العائلات، ولكنه، إذا لم يكن قد رقص مع ديفا، فلإلحاح باســـتياو دا روزا على عدم تركها تتملّص منه عارضة فستانها، وخصرها وشعرها مشدودان بلون الورد، فقط في رقصة الرباعية، "أنافانتو"، "أناريي"، لمس كاستور يد ديفا برؤوس أصابعه، ودون أن ينظر إليها.

ولم تكن السن لتمنع كوروكا عن المشاركة في المزاحمة، هي امرأة ذات معاهدات سابقة: احتفظ لي بالرقصة التالية. وللكلام عن فضول عبد الله، فهو أيضاً لم يتخلّ عن المشاركة بفعالية معهودة، لا يكلّ ولا يملّ، ولم يعد عليه، بالإضافة، أن يهتم ببيع الكاشاسا لأن إيدو كان قد أخذ يهتمّ بذلك.

كان كاستور يضفي الحيوية، ضاحكاً، ممازحاً، داعياً إلى الشرب، وهذا واجب مبدع العيد.

– دعينا نلتهب يا كوروكا، فالموت أكيد.

ورافقته جاسنتا بالنزق، ولكنها رفضت أن تصدّق مغالاة الزنجي المؤثرة:

– إنك تموت سعادة، تبارك الله، لماذا تغدو المرأة عمياء وصماء عندما تقع في العشق؟ لا تهتم ولا تكترث... لم يضف ولم يطلب تفسيراً.

لقد التهب الاحتفال كما رغب تيساو. إنه الاحتفال بالسيدة إيستر التي تتمتّع بغياها. ولكن زينيو ولوبيسينيو، الابن والزوج، كانا قد نسيا غياها وراحا يستأنسان كما يروق لهما، زينيو في أثر ساو، ولوبيسينيو يقطر نينينيا عشيقته القديمة التي غدت في سن الزواج. وكان زينيو يتنافس على جذب انتباه الفتاة مع أوريليو، ومع دورفالينيو، الذي لو سنحت له الفرصة لتوقف عن بيع الكاشاسا. إن أكثر شيء أحبّته هو الرقص، كانت قد أفصحت ساو في دكان فضول، وهكذا كانت الحقيقة. فهي لم تكن تدفئ بقفاها كرسياً، وهي تنتقل من واحد لآخر وكانت هي نفسها تصوب ثم تختار ثنائيها، وتدعوه دون مقدّمات: – "اسحبني"، "هيا" عندما ترى أحد مفضليها – فضول، كاستور، باستياو دا روزا، غيدو – متوقفة عن قتل المسكين مقدّمة له الحساء. وطافت المكان وهي تضع ذراعها على ظهر بيدرو سيغانو: وبيد كان العازف يمسك بالهرمونيكا وباليد الأخرى يغمر خصرها، السيد بيدرو سيغانو جميل مثل كلب!

وبعدما ترك كوروكا تقفز مع بالينو، توجّه كاستور إلى طاولة المشروبات حيث "خذ واجلب"، وقد رآه يقترب، ملأ كأسه وقدّمها إلى تيساو قبل أن يطلبها الأخير.

لم أرَ قط سيادتك حزيناً إلى هذا الحدّ، يا سيد تيساو، وفي صوته إعجاب وتعجّب: ولكن الزنجي لم يكن يعطي ذراعه لمن يستطيع أن يلويها، وكان يتآكل في داخله ولكن لم يظهر ذلك كما لو أن الأمر لا يعنيه.

إذا كان قد سمع فإنه لم يجب و لم يعلّق. ابتلع الجرعة كاملة وطلب المزيد. ملأ دورفالينـــيو الكـــأس واستلم ثمنه، ومستعجلاً، اندفع إلى حيث تقف ساو وحيدة بصورة غير مرتقبة، بانتظار من يدعوها للرقص:

– إني ذاهب إلى هناك وسأعود..

رافقـــت تيساو بعينيها ورأته يقفز مع ساو، بفرح وحيوية، وكان باستياو دا روزا يرقص مع فانجي، فيا له من عليم، ثم توقف حين لمح قربه ظلاً فرفع نظره إلى الـــشبح الـــذي يقف أمامه. وإذ نظرت إليه بعتب، وبابتسامة أخاذة، أطلقت ديفا شكواها:

– ألا تريد أن تسحبني للرقص؟

24

عـــندما انتهـــى العمـــل في مستودع الطحين، وتمّ تسليمه، وبدت عرانيس المانديـــوكا ممتلئة بالحب ثم طحنت الوجبة الأولى، لم يتوقف باستياو دا روزا عن الظهـــور، هناك، في ساعة الغداء، أو عن الاجتماع بالرجال عندما كانوا يعودون مـــن الحقول عند غروب الشمس فيذهبون للاغتسال في النهر.. كان يتكلّم على مسامع فانجي وإمبروزيو، ويستحثّ ديفا للتعمّق في شؤون الحب وإعطاء الأفضلية، وعلـــى الأخص فيما هو متعلق بحاجات المتزوجين. وكان عندما لا ينضم إلى سائر الـــنجارين في بداية الأعمال في الجسر الكبير يذهب ليهتم ببيته الشخصي ليجعله أكثـــر راحة: أنهى الصبغ، وحفر بئراً، وبنى فرناً، وجهّز حطباً، ولم يكن يشبهه إلا بيت ميرنيسيا، فانظر جيداً، ودعا فانجي إلى هناك لإعطاء رأيها.

وفي مـــساء قاتم ممطر رذاذاً، وبينما هي تعود مع ديفا من حمام النساء حيث غسلتا الملابس واغتسلتا، تحدّثت فانجي كمن لم يكن يريد شيئاً.

– إن بيت السيد باستياو أصبح جاهزاً. لقد ذهبت إلى هناك، فيا للروعة!

– سمعت عن هذا.

مـــشتا صـــامتتين، وبدا كأن الموضوع قد انتهى. ولكنها، بغية التغلب على المتاعب المحتملة والممانعات، إن وجدت، تابعت فانجي:

– إن السيد باستياو شاب مستقيم. لقد تكلّم معي ومع إمبروزيو.

– في أي موضوع، يا أمي؟

تأخّرت في الإجابة كأنما الجواب يكلّفها جهداً:

– سوف تعرفين لاحقاً.

توقفتا عند البيت المبني على جذوع شجر مرتفعة وتقوم تحته الحظيرة، حيث كانت الأرانب تلتهم بقايا الجاكا. وراحت فانجي تنظر بصمت كما لو أنها كانت تتذكّر وتتأمّل وقد نسيت السؤال. من الأعلى بلغها بكاء ابن ليا وأغنالدو، وقالت بحزم:

– إننا لا نستطيع هنا أن نحل المشاكل بنفس الطريقة التي كنا نحلّها في ماروين. فهناك، كنا كل يوم أحد نذهب إلى الكنيسة ونحضر القدّاس وخطبة الكاهن. ولو أن شخصاً ما جاء يحدّثني عن رغبته في العيش مع ابنتي لما عرفت كيف أحبّته إذا كان يزمع دون زواج شرعي وخطبة. هل فكّرت؟ لقد تزوّج جواوزيه وأغنالدو شرعياً، فتصوّري كيف تكون الحال معك أنت.

نحنحت لكي تعطي التفكير قوة:

– ولكن هنا، من الذين يتزوّج شرعياً؟ لا كاهن ولا كنيسة يمكن فيها الصلاة.. ولكن، بالمقابل، توجد أراضٍ واسعة وأكبر مما نحتاج. وهذا لا يعني أيضاً أننا نعمل في أراضي الآخرين. لقد سارت أمورنا جيداً في هذا المكان، صحيح أنه مكان متخلف ولكنه أفضل لنا من هناك.

كانت تسعى إلى أن تكون موضوعية وترى الأشياء كما هي؛ ومستسلمة للأمر الواقع نظرت إلى ابنتها، المرأة ذات الخمسة عشر عاماً، في سن الزواج، أو المصاحبة. إذا تأخرت عن الزواج فسوف تنتهين إلى فتاة هوى. ولكنهم كانوا في توكايا غراندي حيث لا أثر لكاهن، أو لكنيسة، أو لشيء غير اللاشيء يرون من الأفضل لها المصاحبة على معاشرة رجل عند أسفل المنحدرات؛ المسكينة!

– إن باستياو يريد أن يقيم معك وأعطاني كلمة وعد بأن بإمكاني أن أكون مرتاحة البال لأنه سوف يتزوّجك شرعياً لدى وصول أية بعثة مقدّسة إلى هنا.. وفي بيته أكثر مما هو مطلوب، ولا ينقص شيء. سرير حديدي كبير، سرير زوجين، اشتراه من إيتابونا، ومرآة في الحائط. – وكرّرت بغية إقناعها وإقناع نفسها: – إن باستياو رجل مستقيم.

خفضت ديفا عينيها، وابتسمت بطرفي فمها:

- زواج شرعي؟ لا حاجة إلى ذلك يا أمي.

تنهّدت فانجي: متفاجئة أم مرتاحة؟ كان نظرها ملقياً على التخشيبة حيث كانوا يعيشون محشورين بعضهم إلى بعض أشبه ما يكونون بحيوانات الحظيرة. و لم تتوقف عن السرد: لقد وعد باستياو أنه لدى انتهاء الجسر سوف يبني لنا بيتاً جديداً: إنه شاب طيّب، باستياو دا روزا.

ويلاه، لماذا لا يرسل الله في الحال بعثة دينية إلى تاكاراس؟ إن الله القدير على كل شيء يكفي أن يريد دون أن يكلفه الأمر شيئاً، ولكن الله كان لديه الكثير ليفكّر فيه منهمكاً في مملكة السماوات ومع كبار العالم، ولا يستطيع أن يضيع الوقت في تفاهات عجوز شمطاء. وخلافاً لإله عبد الله فضول، شفيع الموارنة الطيب، المواطن والوفي، الخدوم، كان إله فانجي هو الأب الخالد، الأعلى، ملك الملوك، العالي، المهيب.. فلتذهب فانجي إلى هناك لتعلم متى يصل كهنة البعثة إلى تاكاراس، وفي قبضة كل واحد الصليب، لمقاتلة الخطيئة، وتوزيع العقوبات وتعميد الأطفال وتزويج الحوامل. تنهّدت فانجي من جديد.

إن المصاحبة كلمة بشعة. ولكن ماذا يمكنها أن تفعل؟ هل تطلب من باستياو أن ينتظر؟ وإلى متى؟ لم تكن ديفا الوحيدة في عمرها التي تقيم في القرية. إن ابنة جوزي دوس سانتوس الكبرى، ريكاردينا، كانت تعيش موزّعة نفسها على هؤلاء وأولئك قبل أن تفتح بابها عند أسفل المنحدرات خوفاً من الأب الذي كان يريدها أن تساعده في الحقل. أما الأخريات، إيزورا وإبيغايل الجميلتان، فكانتا تضعان أعينهما على معلم البناء وكل واحدة أقل حياء من الأخرى. كان الجميع يعرفون في توكايا غراندي أن باستياو دا روزا كان قد بنى صالة وغرفة نوم وحفر بئراً وبنى موقداً وفي نيّته أن يضع امرأة في البيت. وكانت المتقدمات له مصطفات: ويكفي أن يشير بإصبعه حتى تتسابق إليه الصبايا وفتيات الهوى متلهفات، و لم يكونوا في مارونين. في توكايا غراندي لا كنيسة ولا كاهن فكيف التفكير في الزواج؟

كانت تائهة في أحزانها، وعندما انتبهت فانجي إلى نفسها كانت ديفا قد اختفت. لا حاجة إلى الزواج، وافقت هي، وهذا ما خفّف من الوزن الذي يثقل على صدرها: تأمل إذا لم تقبل؟ إن باستياو دا روزا، في دليل اعتباره لهم، طلب

موافقة إمبروزيو وفانجي حتى يأخذ ديفا، يوم الأحد، بعد المعرض، إلى البيت الجديد على طريق الحمير. لو كانوا في مارووين!.. لم يكونوا. فلتكن مشيئة الله وتنهّدت فانجي مرة أخرى.

كانت ظلال المغيب تتكثّف، وأخذت تسيطر العتمة على النهر والبساتين.. ففي الوادي، كان الليل يهبط مفاجئاً. هبطت ديفا الدرجات الريفية، وفي يدها صرّة، وجاءت قرب فانجي غير قادرة على الحركة وفي نفس المكان الذي تركتها فيه:

– البركة يا أماه.

– إلى أين تذهبين؟ – إلى بيت باستياو لا بدّ من ذلك.

– إني ذاهبة إلى بيت تيساو. وسأعيش معه.

25

النجوم الأولى الشاحبة في السماء الرمادية بدأت بالظهور... الفلاة، القوافل الأولى، والرجال يغطّون رؤوسهم وحمولتهم بأكياس لا يخترقها الماء. وتحت الرذاذ وبيدها الصرّة، اجتازت ديفا النهر، واتّجهت إلى خيمة ومحل الحدادة ومقر الإقامة للحداد. لم يكن هناك فرن حطب، بالتأكيد، بل أتون نار متأجج يمكنها أن تجهز الطعام. مرآة؟ لم تكن تعرف. في محتويات الصرّة كانت مهفة المعدن اللماع حيث يمكنها أن ترى نفسها، فهذه كانت مرآة ومحفورة، اخترعها الزنجي المشعوذ. ابتسمت حين فكّرت في ذلك.

لقد أرادته، ورغبت فيه، منذ وصولها إلى توكايا غراندي مكسوّة بالغبار والطين مرهقة من التعب، وعليه وقعت عيناها: وجه ضاحك، عريض، وصدر عار، وجلد الخروف على خصره يكسو عريه. كانت تفكّر في ملاقاة تركي، هناك، ولكنها التقت برجلها، في الأرجوحة ليلاً، الرائحة القديمة غزتها جسداً وروحاً، وجعلتها امرأة: كانت تلك رائحته قبل أن تعرفه وزناً ومتعة.

كان باستياو دا روزا طيباً، أشقر ذا عينين زرقاوين، أجنبياً ونيف، وصاحب بيت فيه كل شيء. ولكن رجلها، ذلك الذي كان يدفئ دمها ويظهر لها في الأحلام، كان الزنجي كاستور أبدووين، حداد الحمير الملقب بتيساو. لقد ذهبت إليه بإرادتها، وهي تحمل بيدها اليمنى صرّتها، وبيدها اليسرى قلبها.

وبينما هو يجثو على ركبته ويمسك برجل البغلة "لاميري"، مثبتاً إياها، ليضع لهـــا حـــدوة جديدة، ارتفعت المطرقة في الهواء. كان إيدو الذي يتعلّم المهنة يناوله المـــسامير، بيـــنما الفتى ترابوكو يساعد رجل القوافل الذي كان يتعجب للمهارة. وقفـــت ديفا وابتسمت له. ابتسم كاستور، هو الآخر، وأحسّ بالأمر يفاجئه دون أن يجعلـــها تشعر بذلك. لم يتبادلا أية كلمة: هوى بالمطرقة على المسمار و لم تحسّ الـــبغلة بـــذلك. ورحّـــب الكلبان ألما بينادا وأفريسيدا بها، فاجتازت ديفا الباب، ودخلت إلى البيت، إلى بيتها.

كانـــت الـــنار تزداد اضطراماً في محل الحدادة، فتناولت ديفا القنديل المشتعل وأضـــاءت الغـــرفة التي لم تدخلها قط: الأرجوحة معلقة، وفي صندوق الخرق التي ترتديها، وقرب بناطيل وقمصان وبعض ملابس تيساو رتّبت تنورتها وعدّة سترات أخـــرى، وفستان الشيت. أطفأت القنديل وصعدت إلى الأرجوحة وتمدّدت. ومن الآن وصـــاعداً، فإن أية امرأة أخرى، كائناً من كانت، لن تشغله. لقد أصبح عنده سيدة.

تـــركت نفسها لرائحة رجلها، وضحكت بهدوء الضحكة التي أطلقتها منذ اللقاء الأول وشعرت أنها في سلام: غداً سيكون سيلان الدم الثاني منها، دمها، في أرجوحة الزوجية القذرة.

موكب الحبالى
وسط اندفاع الناس والحيوانات

1

ببطونهن المنتفخة، تواكبت النساء الحوامل، باعتزاز، داخل حدود توكايا: سينجبن أطفالاً، عندما يحلّ الصيف، مع انتهاء القطاف. في طليعة الموكب ديفا، وأباغايل الابنة الصغرى لجوزي دوس سانتوس، ثم وصلت ليزورا التي تكبر أختها بأحد عشر شهراً، ودينورا المتزوجة من جواوزيه، ومع تقدّم الأشتانسيين، فإن موكب الحبالى سيتضاعف، قريباً، كون ثلاث نساء منهن كنّ منتفخات البطون وسيلدن على يدي جاسنتا كوروكا المباركتين.

كانت دينورا قد ولدت من جديد، في اليوم الذي لحوا فيه توكايا غراندي، فلامس جواوزيه بأصابع الأمل وجهها المتعب والمغبر. ميتة، حيّة، كانت قد جاءت وهي تحافظ بأعجوبة على الحياة في جسدها المرهق بسبب الداهية التي دهمتهم، مجهشة في البكاء بين ذراعيه، متأكدة من أن كل شيء قد انتهى عندما صدر الحكم النهائي وطردوا من حقولهم في ماروين. ولكنها عندما رأت الوادي الجميل، الخصب، وعندما أحسّت بالملاطفة غير المرتقبة من يد العطف والحب، تلك، فكّرت أنها ربما تعود إلى العناية بالأرض، وتربية الحيوانات، وتحسّ بالرغبة، ولحدّ القدرة على الحبل: مستعدة من جديد للفراش كما للعمل.

هكذا حدث، ومع ذلك فإن الحبل لم يتم في الحال. فقط، بعدما تمّ افتتاح المطحنة، بنى جواوزي بمساعدة أبيه وأخواته بيتاً بالحديد المسلح وأقام فيه مع امرأته وابنه. أما في البيت العائلي المكوّن من غرفتين فلم يكن في نيّة أحد أن يخفّف، هناك، من ثقل المعدة. هما، وبنفس القدر، ليا وأغنالدو، عندما كانت الحاجة تفرض نفسها، كانا يلتجئان وراء الأشجار في الغابة، أو عند منعطفات النهر ليبرزا ويتنهدا، في الخفاء، وبسرعة.

في البيت الحالي عثرا من جديد على سلام الليل، والملجأ الشخصي، فراحا يبتسمان، واحدهما للآخر، عندما يكون الطفل قد غطّ في نوم هادئ. وهكذا عادت لتحبل من جديد.

2

تواكبت ديفا، إيزورا وإبيغال، تستعرض الواحدة بطنها إثر الأخرى، مع فارق قصير من الوقت. كانت الأولى التي عرضت انتفاخ بطنها هي إبيغال صغرى الثلاث، وقد حملت من باستياو دا روزا بعدما أقامت تستثمر مواهب البيت الذي بناه معلم البناء الأكبر.. وهذا بعدما طلى واجهة (الشاتو) - هكذا كان يصف فضول عبد الله بيت البناء لتمييزه عن الأكواخ المجاورة - بلون أزرق، وصبغ النوافذ بلون وردي، وحفر بئراً للماء، وأشعل موقداً للحطب، واشترى من إيتابونا سريراً وفراشاً زوجياً: السرير من حديد، والفراش من الوبر، وكلها مظاهر عقيد فخمة، وكل هذا بنيّة مصاحبة ديفا وجوزي. باستياو دا روزا لم يزرع ليجني غيره، وبسرعة استهلك إبيغال بهجمات قاسية وانفعالية، ومع اعتبارات قصيرة وتشاؤمية للمشاعر النسائية، ودون إظهار أي دليل على اليأس أو نيّة في الثأر.

أما تلك التي حوّم حولها محلّقاً خلال أشهر، والتي فضّلت أن ترتّب الأطمار في خيمة الحداد، تاركة أغلب سكان توكايا غراندي، ومنهم دورفالينيو، يخسرون الرهان، فصبراً عليها لم تكن العذراء الوحيدة أو أجمل الفتيات في المكان. وعندما التقاها ثانية في المعرض، معتزّة بنفسها معطية ذراعها لتيساو، تمنّى لها السعادة وانطلق إلى الأمام.

وهنا يجب فتح مزدوجين إزاء تعجّب نصف دزينة المتكهنين المنشغلين في تعليق التشخيصات والتعجبات، وذلك بغية الإعلان عن نباهة كوروكا؛ ففي اللحظة نفسها التي كان طويلو الألسنة يبدون تعجّبهم... (لقد تركت باستياو معلّقاً في منتصف البئر وفضّلت الزنجي، وفي الحياة كل واحدة).. كانت كوروكا تعلق، بينما برناردا تساعدها بالاستعدادات للطفل:

- مثلما قلت.. يجب أن يكون الواحد أعمى حتى لا يرى.

– يا عرّابتي، لا تقلقي من شأن الذين لا يرون بغير عيونهم، ولكن أنت ترين بعينيك، ومعرفتك.

وتوقّعت كوروكا على قدم المساواة، رد فعل الحقير:

– إنه لن يتأخّر في أكل الأخرى.

في الحقيقة لم يتردّد باستياو دا روزا.. لم يكن في نيّته أن يضيع الوقت، والمال، من أجل أن يتحوّل إلى شقي. كان قد أعدّ البيت ليستقبل امرأة دائمة الإقامة فيه، ولتكوين عائلة، وهو لن يتركه فارغاً، مهملاً للأفاعي والحشرات. ما عدا ديفا، هنالك الكثيرات في توكايا غراندي، عصريات، وجميلات، وقادرات على الاهتمام بالموقد وبالأطفال حين يصلون. لم يكن مضطراً إلى الذهاب بعيداً: ففي مستودع الطحين، يطحن المانديوكا، ويجمعن الدقيق، وكانت بنات جوزي دوس سانتوس فائضات العدد. وبعدما استبعد ريكاردينا الكبرى لكونها غير عذراء.. ومفتضّة البكارة، كان بإمكانه أن يختار بين إيزورا وإبيغال وكلتاهما عذراوان، مصنوعتان جيداً، فاختار إبيغال الأشد اسمراراً.

وإذ بدا شاباً، بشعره السابل، وقامته القوية الممشوقة، وشخصاً قليل الكلام وكثير الحيوية في العمل، فإن جوزي دوس سانتوس كان قد ترك مصير بناته على مسؤولية السيدة كلارا إذ تكفيه أعباء العمل. كان يعرف أن الفتيات في يوم، أكثر أو اقل، سيتّخذن طريقهن: لم يكن يهتم لغير الفراغ الذي سيتركنه في الحقول. وخلافاً لما يشير إليه الاسم فإن السيدة كلارا "المنيرة" كانت قاتمة اللون. الشعر معثكل أسود، والجسد سمين مترهّل والوجه مستدير، ومقبول بالرغم من التقدّم في السن: منتبهة لتصرفات الفتيات وتحوّلاتهن و لم تتعوّد أن تقلق من أجلهن.

كانت قد جاءت معها من سرجيبي بنفس المفاهيم التي كانت تجعل فانجي تحسّ بالمرارة، ولكنها كيّفت نفسها دون جهود كبيرة على تقبُّل واقع الحياة الريفية الجديدة والخصبة حيث تفرض نفسها قيم مختلفة وحيث كان للحياة سعر مختلف. وما كان غالباً يفترسها من هموم هو قلقها الأكبر على بناتها الناتج عن التخوف من رؤيتهن في منطقة البغاء كعاهرات مشرعات الأبواب عند أسفل المنحدرات. فهذا، أجل، كان يحزنها. إن المصاحبة في قفا العالم تعني نعمة من السموات وذات قيمة أكبر من قيمة الزواج في الكنيسة، في بوكين، من حيث أتت. إن الأشياء هي كما

هـــي وليـــست كما يتمنّاها الناس، أليس كذلك؟ هنا وهناك، فإن مباركة كاهن والبراز، هي نفسها، وليس لها أية قيمة.

كانـــت البنات الثلاث لجوزي دوس سانتوس والسيدة كلارا مختلفات كلياً الواحدة عن الأخرى، شكلاً وتصرّفاً، وإلى درجة لم يكن يبدين معها كأخوات من أب وأم. وشابهت إيزورا أمها بالمودّة وطيب المحادثة والعشرة وأباها بشعره السابل، ولون الجلد الأسمر، المعروف في الرأس الأخضر والذي يميّزه الدم الهندي. أما إيبغال الصامتة مثل جوزي دوس سانتوس، فكانت تشبه في الغالب السيدة كلارا: سمينة، قاتمـــة اللـــون، ذات عينين محرقتين، ويسيطر في عروقها الدم الزنجي. ومن أي جد ورثـــت الناعمة ريكاردينا، المرأة، ذات الشعر الأشقر، والعينين الزرقاوين، والقامة الممـــشوقة؟ في العـــائلات السرجيبية، فإن الخلاسيات المتعدّدات الفصائل الدموية، كـــنَّ، ومـــن وقت لآخر، يلدن طفلاً جديداً بعينين زرقاوين وشعر أشقر، ذا قامة تعود بأصلها إلى جد هولندي، ومن يدري إلى مسيحي جديد جاء من ريسيفي مع الأمير موريسيو دي ناساو، وهذا كان قد هرب بعد هزيمته إلى سرجيبـــي ديلري، وهـــناك منح الأمان واللجوء فاستقرّ إلى الأبد، وهو يصنع للزنجيات والخلاسيات، وريكاردينا هي المثل الأصلح، بالرغم من كونها عذراء: ولا يستطيع أحد أن يفرض الكمال.

احـــتار باســـتياو بين إيزورا وإيبغال عندما نـــزع عن رأسه القرنين، ولكن الحـــيرة دامت قليلاً إذ تمّ اقتحامه من قبل السمينة إيبغال. وهذه كانت في الأمور الخاصة أكثر موهبة من ديفا، فهي متطلبة وأحياناً وقحة ولكي لا يخدع من جديد، وقـــبل أن يبدأ التعامل مع السيدة كلارا وجوزي دوس سانتوس، ويأتي على ذكر البعثة المقدّسة ومباركة الكاهن فإنه تحدّث مع الفتاة وحصل على الموافقة:

– إذا كان الأمر يعجبه، فهو يعجبني أيضاً. – إنها حمامة وديعة.

وقـــبل أن تكمل السادسة عشرة من عمرها، كانت إيبغال قد نفخت بطنها، وباســـتياو دا روزا لا يمزح في أداء عمله. كذلك شأن كاستور أبدووين، إذ يجب التوضيح أن ديفا إذا كانت قد تأخرت في الحمل فإنها مسألة متعلقة بالقمر والعادة، لا بالكفـــاءة؛ كانـــت الاثنتان في سن واحدة. أما ما هو متعلق بإيزورا، وقبل أن يعـــيش معهـــا، فإن الشاب أوريليو كان قد اقتحمها خلف المطحنة في مستودع

الطحين، ومع إضافة الأشتانسيات الثلاث فلم يكلّ لحظة، وعند كل ركن في توكايا غراندي كان بإمكان من يمر من هناك أن يقابل امرأة حبلى؛ وكانت بطونهن المنتفخة تعلن عن التزايد في عدد سكان توكايا غراندي.

3

توكايون؟ بغية جعل التقرير جلياً وأدبياً، ومن أجل إضفاء التفاصيل الدقيقة على الحبكة لمشاكل توكايا غراندي، يستحق الأمر عناء الإشارة، وإن سطحياً، إلى المناظرات الحامية الوطيس المتعلقة بالتسمية الصحيحة التي يجب إعطاؤها للمواليد في قفا الدنيا هناك وإلى الهوية التي سيحملها أولئك المواليد. كيف يجب تسمية مواطني توكايا غراندي؟ توكاويون غرانديون أو ببساطة توكايوس؟ وضع فضول عبد الله للبحث على طاولة فؤاد كرم في ملهى إيتابونا، وكان ذلك في إيلايوس وفي مشرب المرفأ، وفؤاد كرم يشرب مع ألفارو فاريا.. سمع فضول عبد الله مع المثقفين استنتاجاً إذا لم يكن شبيهاً بالشكل، فهو نفسه في المضمون.

– لا شك في ذلك. – قال فؤاد كرم بصوته الممزوج بالعرق المعطر بالآنسون:

– إن من يولد في توكايا غراندي "الكمين" يجب أن يدعى (جاغونسو). – قاتل في الكمائن – وبزرة لبناني. وهي أكثر رجال الكمائن تجرّداً من الرحمة بالتأكيد.

أما ألفارو فاريا وبينما هو يتذوّق متلمظاً طعم الويسكي الإنكليزي، فإنه لم يكن أقل حسماً وموضوعية:

– إن ابن توكايا غراندي لا يمكن أن يدعى غير (الكلافينوتيرو) – مسلح بالبندقية – يا أخي فضول.

سمعة سيئة، ظالمة وتعيسة، قال التركي فضول وهو غير موافق. لو كان في عالم الكاكاو الواسع وفي كل المنطقة الريفية موقع آمن، وقليل العنف، فهو توكايا غراندي حيث يسود سلام الله. إن ما حدث في السابق وأعطى المكان الاسم والشهرة قد حدث قبل بدء العالم وقبل أن يوجد أي حي يرزق. وبالرغم من ذلك فإن من رأى النور الأول هناك كان ولداً حاملاً على ظهره الدم المسفوح، وذكريات الموت والموتى.

4

مـــن المؤكد أن أحداً لم يحمل بطن ساو المنتفخة على محمل الجد. كان ذلك ســـبباً لقهقهات من الضحك والتعليقات المفرحة. فطمعاً بابن كانت المسكينة قد وضعت على بطنها تحت الفستان كومة من أوراق (الكابين) اليابسة ليعتقدوا بأنها حامل وتنتظر مولوداً.

ففي يوم أحد ظهرت في المعرض وهي تعرض بطنها المنتفخة والمتكوّمة بشكل غـــريب؛ جلـــست فوق الأرض وسط الناس وبين ضحك الموجودين وتعليقاتهم ولـــدت دمية، وذهبت بالتالي، على مرأى من الجميع، إلى أن كشفت عن صدرها وحاولت أن تعطي الدمية ثديها لإرضاعها، راضية عن الحياة.

5

لـــدى وصـــوله إلى توكايا غراندي شاباً في مقتبل العمر مشرفاً على الثامنة عشرة من العمر مغرياً، ومثيراً، فإن أوريليو أقلق عقول الكثيرات من فتيات الهوى اللواتي وضعن في تصرّفه الأراجيح والفرشات العريضة مجاناً.

راضياً عن ذلك، فإنه غرق في اللهو على نفقة العاهرات إلى اليوم الذي حصل فـــيه علـــى المال الضروري فقرّر أن يدفع ثمن دخول على برناردا. كان قد خطّط لقضاء ليلة كاملة، ولكون الصعبة المنال منذ ولد ابنها عادت إلى ممارسة المهنة، فإنها حـــدّدت أوقات العمل بالفترات القصيرة بين ساعات إرضاع الطفل، وأبداً، بعد منتصف الليل. ومع ذلك فإن ممارسة العملية بسرعة مع برناردا كانت كافية لترك أوريلـــيو يتولّه بفتاة الهوى، وتوقفت الأخريات عن إظهار أي اهتمام به. أما ساو التي ستجدِّد لها التزامها فلم تكن قد أقامت في توكايا غراندي.

وجعـــل من حياة برناردا جحيماً. لا يخرج من عندها و لم يعد ينقصه غير أن يـــسرق ليتمكّن من أن يجمع المبلغ الذي يخوّله الترشيح للفراش وإن لإطلاق طلقة واحدة. وعلم منها في محادثة قصيرة أنها كانت تحب أنغام الأكورديون فكان ذلك كافياً ليبدأ على أيدي رجال مستودع الكاكاو تعلُّم العزف على هذه الآلة، وكان يقـــضي كل ساعات فراغه لفتاة الهوى: كان يصرّ على أن يراها حتى إنه ذهب في مساعدتها على الطفل برناردو الذي حمل اسم أمه و لم يكن قادراً على حمل اسم أبيه.

حين كانت برناردا، ودون نيّة في ذلك ترضع الطفل من ثديها عند باب البيت الخشبي، رضعة المساء الأخيرة - لتجعل من الساعات الأربع التالية ساعات عمل - فإن أوريليو كان يتحوّل بشكل ما إلى إنسان غير وديع مما جعل فتاة الهوى تتخلّى عن الإرضاع أمامه. ولم يكن قد مرّ شهران على وصول السرجيبيين إلى المكان حتى كان أوريليو قد عرض عليها الحياة المشتركة وذهب إلى أبعد من ذلك: إذا كانت ترغب فإن بمقدورهما أن يغادرا توكايا غراندي للعيش في موقع بعيد حيث يمكن أن يجدا كاهناً. كان مزمعاً على أن يتزوّج منها في أول كنيسة يواجهانها وأن يساعد في تربية الطفل كما لو أنه كان ابنه.

أصغت برناردا إلى مفاتحة المراهق لها وحاولت أن تعتبره ضرباً من الجنون ومشروعاً سخيفاً، ولكنها فعلت ذلك دون أن تنال من كرامته إلى درجة شكرت له حسن نيّته:

- أي واحد يستطيع أن يقول لك لماذا لا أريد أن أسمع حديثاً عن شيء كهذا..

- ولماذا لا تقولين لي بالفم الملآن؟

- أجل أقول لك: إن لديّ رجلاً وأحبه. هذا هو السبب.

أراد أوريليو أن يسمع التفاصيل ولكن برناردا التزمت الصمت. عرف المزيد من الآخرين: اخرج من هناك، واترك المرأة في أمان، إنك تجازف بارتكاب خطأ لا يغتفر، وبأن تنال ما لا تتوقّعه. النقيب ناتاريو دا فونسيكا، نار كاوية؟ بسبب الخوف وعرفاناً بالجميل، فإن أوريليو ابتلع مخططاته، وتقيّأ القرف، فبيد النقيب وتحت حمايته كانت العائلة السرجيبية قد جاءت لتستقرّ في توكايا غراندي.

عاد إلى رحمة العاهرات، مشبوقاً، ثم لاحت له ساو في الأفق فاكتمل شفاؤه، وشوهد الشاب أوريليو يحيط بها مزمعاً على العيش معها دون أن يفكّر في إعاقتها. كانت ساو تترك نفسها للمداعبة، حارة وسهلة، سامحة له بكل شيء تقريباً، ولكن، كانت تتمنّع عليه، وكان أوريليو يبقى محتاراً إلى درجة أنه عرض عليها المصاحبة ليضع حدّاً لذلك الاستغلال وكان ينحي باللائمة في ذلك على الخوف من أن ترى نفسها مهملة بعد ذلك، وفي ركن الإهمال: ولم يكن ينكر عليها الحق في ذلك.

وفي يوم، ولم يكن يتوقّع ذلك، تركت له ساو المجال لأن يفتضّ بكارتها، ولكن حماسة الظفر لم تلبث أن تحوّلت إلى خيبة أمل عندما لاحظ أنها لم تكن عذراء. وبسورة غضب عنيفة حاول أوريليو أن يجبرها على أن تقول مَن من الاثنين سبقه إلى الدخول الذي طالما اشتهاه وعانى من أجله. ولم يحصل على جواب: كانت ساو تضحك وتطلب المزيد، وبعد عدة رحلات من العبور، تبيّن أن زينيو وأمين الصندوق، كليهما، قد عانا خيبة الأمل المماثلة وطرحا السؤال الذي لا جدوى منه - أي من الاثنين؟ ودون أن يجد أحد الجواب: وأمام هذا الواقع، ودون اتفاق مسبق، ظلّ كل واحد من الثلاثة يطرحها أرضاً في الغابة: كانت تكفي الثلاثة، وبينما هي تضحك كانت تطلب المزيد.

أما إيزورا، فإنه لم ينظر إليها باهتمام. كانت حقول جوزي دوس سانتوس تبدأ حيث تنتهي حقول إمبروزيو، وكان مستودع الطحين يقوم في الوسط عند الحدين. وكان أوريليو يرى إيزورا يومياً فكأنه لا يراها. وفي الثامنة عشرة من عمره، وبالرغم من اكتماله فإن أوريليو لم يكن قد وصل إلى سن الرشد لتأسيس عائلة، أما في السادسة عشرة من عمرها، فإن إيزورا كانت قد بدأت بتجاوز الوقت المناسب لذلك.

في حقل المانديوكا، وخلف المطحنة، ودون أن يتوقّعا، تعرّفا إلى بعضهما بعضاً حين التقت العيون، وكانت ديفا وإيبيغال قد اتخذتا سكّتهما، وكذلك إيزورا يجب أن تستجيب للإرادة التي فرضتها عليها السماء. في بيت الطحين، في الحقول، وعلى ضفة النهر، تبادلا الابتسامات والكلمات، وعندما انتبها للأمر كانت إيزورا قد أصبحت حبلى وأوريليو سيغدو أباً عن قريب.

في مجلس العائلات المجتمعة كان الأصعب من كل شيء هو تقرير المكان الذي سيعيشان فيه، هل يعيشان في بيت الشاب أو في بيت الفتاة؟ وافق الجميع على الإقامة في بيت إيزورا حيث يتّسع قليلاً بمساحة متبقية، ولكن أوريليو سيستمر في مساعدة والديه، نصف الأسبوع في حقول إمبروزيو والنصف الآخر في حقول جوزي دوس سانتوس.

وتعجّب سانتوس لانسحاب أوريليو، الذي اختفى وانقطع عن اللقاء المسائي. أن كونه قد صاحب إحداهن لا يعطي مبرّراً للابتعاد؛ بالنسبة إليها لا فرق أن

يكـــون متـــزوجاً، مصاحباً، وأعزب، فأهلاً جميعاً بصرف النظر عن الحالة المادية والسن. كانت تفضّل، مع ذلك، الناضجين، هؤلاء أقل جنوناً، وأكثر معرفة، ولا يـــضيعون الوقت بأسئلة لا أهمية لها. مراهقاً كان أم مكتملاً، مستعجلاً أم متمهلاً، فإن واحداً من هؤلاء يجب أن ينفخ بطنها ويزرع فيه طفلاً. إنها تريد طفلاً تداعبه بين ذراعيها. أين يسير بيدرو سيغانو، الجميل كالكلب؟

6

كـــان عدد السكان آخذاً في تزايد مضطرد مع إقامة واصلين جدد إلى الناحية للإقامة فيها، مأخوذين بالأخبار التي، فيما هو متعلق بتقدّم توكايا غراندي، كانت قـــد أخـــذت تـــسري في منطقة نهر الأفاعي، وأبعد من ذلك: في فراداس، وريو براســـو، وســـيكيرو دي إشـــبينيو، وأغوا بريتا، ومدينة إيتابونا، رحال القوافل، مـــستزلمون أجراء - وأكثر من أي شخص آخر بيدرو سيغانو - كانوا يغالون في وصـــف الحركة، والحيوية وفتيات الهوى. ووصلت الأنباء إلى إيلايوس يحملها، في جملة الحاملين، مزارعون أغنياء وعقداء من مستويات رفيعة من سادة إيتالايا وسانتا ماريانـــا... أمـــا مسلسل الانتصارات التي حقّقتها توكايا غراندي فقد كان أكثر المـــشاركين فعالـــية في إخراجه هو اللبناني فضول عبد الله الذي كان حين يمرّ من هناك ليشتري ويدفع ثمن البضاعة ويتنفس الهواء الحضاري ويتفاصح بوصفه لاحقاً - في إيلايـــوس فرنـــسيات ماهرات ومرتفعات الثمن وبولونيات يفعلن كل شيء وأكثر مما يمكن تخيله - وليرى بنوع خاص البحر.

ومـــع تعاقب جيران بهذا العدد، كان طريق الحمير يمتدّ ويتّسع بامتداد النهر. بعـــض البـــيوت، المبنية بالحجر والقرميد ومن البيوتات الخشبية الصغيرة، وحركة ذهـــاب وإياب مستمرة للحيوانات والأحياء لم يعد هناك ساعات تمّ خلالها، بعد انطلاق القوافل، لقاء العربي والزنجي وفتيات الهوى ليرتاحوا من عناء الليل وبدايات النهار المتعبة، راقصين، يروون الحكايات وينشدون الأناشيد. ولكنهم لم يكونوا قد أهملـــوا كلـــياً العادات السابقة التي عرفوها عندما كانت توكايا غراندي موضعاً لقـــضاء الليل أو محط رحال مؤقت، غارقاً في الإهمال. كانوا لا يزالون يلتقون في الأمـــاكن المألـــوفة ولكنهم كانوا يفعلون ذلك بأقل من السابق، مع عدد أكبر من

المشاركين. أما المجموعات الاحتفالية فكانت تلتقي أيام الأحد في المعرض الأسبوعي، وعند حمام النساء وأمام خيمة الحداد، وفي محل حلاقة دود بيروبا. وكالمعتاد في دكان فضول عبد الله.

كانت الرقصات تنطلق على أنغام الكمنجات والهرمونيكا والأكورديونات والمزامير القصبية. أما العدد الصحيح لأكواخ العاهرات عند أسفل المنحدرات فلم يكن يعرفه غير الله، الله ودورفالينيو أمين الصندوق الشعبي (خذ واجلب).

7

بالقدر نفسه تزايدت الحيوانات الداجنة، وقد نمت تربيتها في الملكيات الخاصة وعلى الضفة الأخرى من النهر. أو تركت تسرح في الطرقات. صباحاً ومساءً كان يتوالى ازدحام قوافل الحمير، وخلال النهار كان المارة يتواجهون مع قطعان من الحيوانات وأسراب من الدجاج تفرّقت في الغابة وأزواج من البط متفرّقة هنا وهناك. وكان النقيب ناتاريو بمساعدة وصول السرجيبيين قد جاء معه بدزينة من البيض (شوفراكو) أرسلتها زيلدا إلى فانجي. وإذ وضعت التفقيس تحت قرقة، نتج عنها عشرة صيصان منها هذه القطعان العديدة التي تسرح عند ضفتي النهر حيث ملكية الحقول تشكّل نظرياً جزءاً من حقول الكاكاو وعملياً هي ملك مشترك للسكان. كان دجاج أنغولا، ذو اللحم الأسود، طيباً إذا أعدّ مقلياً، أو أجزاء مغلّفة بالطحين.

وبالإضافة إلى أحفاد جراء ألما بينادا وأوفريسيدا فإن كلاباً أخرى جاءت مع بضائع المقيمين الجدد وانسلّ منها العديد من الكلاب الهزيلة. وانتقلت مع زيلدا إلى توكايا غراندي أنواع أصيلة ومتكاثرة من الحيوانات. فبالإضافة إلى الكلاب والهررة وبيض التفقيس، تمّت مشاهدة الغنم والماعز في عمق البستان. هذا، ولا تتكلمن عن البوم والببغاوات والعصافير الموضوعة في الأقفاص المعلّقة عند الشرفات.

كانت الببغاوات ثلاثاً، حادّة النظر وثرثارة، اثنتان منها مخصصتان للمطبخ والبستان والثالثة - ساركانا هندية، حمراء، دائمة الحركة وطليقة اللسان - هي صاحبة المفردات الجنسية البذيئة. وكانت تعيش طليقة عند الشرفة حيث كان

قفصها الذي لا تمكث فيه إلاّ قليلاً: كانت تلك هي الطير المفضّل عند صاحب البيت، وكانت تجيب عندما كانت تنادي باسم (اذهب - لنيل المتعة)، وكانت هي تردّدها مرتين كلما تمّت مناداتها مرات ثلاثاً، وبسبب أو دون سبب، وكانت تمشي من مكان إلى آخر على حافة الشرفة وهي تصيح بكلمات بذيئة، وتصفّر منادية الأرانب وتطلق ضحكة قوية عندما كانت ترى الأرانب تركض مستجيبة لدعوتها. وكانت تتلفّظ معتزّة باسم ورتبة السيد والصديق الساحر: النقيب ناتاريو دا فونسيكا.

كان النقيب يضع كف يده على ظهرها. ويداعب رأسها وبطنها (اذهبي لنيل المتعة) فتقفل عينيها مسترخية ومستسلمة. لا بدّ من أن تكون أنثى لتترك نفسها للدلال هكذا، تؤكد زيلدا. أنثى ووفية لأنها لم تكن تسمح بتلك الخصوصيات لغير ناتاريو، وكانت تنقضّ على أي شخص أو آخر يريد أن يعجبها، تنفر غاضبة وتنطلق بالشتائم: لص ابن عاهرة (اذهب ونل المتعة) وكادت تقتلع إصبع الزنجي تيساو يوماً عندما حاول أن يقيم صداقة معها: من هناك الطريق، يا أشقري الجميل.

كانت لغة ماركانا البذيئة، قد ولدت من العيش الطويل في غرفة القمار في نزل وضيع في إيتابونا. وكانت تلك الغرفة متعدّدة النشاطات حيث كانوا يسكبون الكاشاسا والكونياك ويمهّدون للعلاقات الجنسية وقد أنقذ النقيب حياتها من تلك البؤرة العفنة في إحدى جلسات القمار التي انتهت بسبب الغش إلى ما انتهت إليه.

كان النقيب موجوداً بالصدفة في ذلك المكان نزولاً عند دعوة فتاة هوى كانت إحدى صديقاته في الأزمنة السابقة: (لن أراك بعد اليوم يا ناتاريو) قالت الفتاة بدلال عندما التقته في الشارع. ومن ذكرى إلى أخرى انتهيا إلى أعلى غرفة في نزل نوفنس، ذاك، للاحتفال باللقاء وإطفاء الظمأ.

كان ناتاريو قد أخذ يرتدي ملابسه، مبتدئاً بالاستئذان بالانصراف عندما لفتت انتباهه ضجّة الطاولات التي تنقلب، والكراسي التي تتطاير يرافقها صياح ببغاء حماسي - لص - لص البراز! منحرف! لم تعر المرأة العارية اهتماماً لأن الشتائم وأعمال التحطيم كانت مألوفة هناك. ولكن عندما تابع قفا الثور تهديداته بالموت - سأقطع

خـــصيتك يا كلب - وقد تعرّف النقيب إلى صوت "لالاو" المستز لم الذي عمل تحت إمـــرته، وهو مواطن جريء وصاحب كلمة، فقد اندفع النقيب في الوقت المناسب لمنع إرســـال لـــويس بريتو إلى أرض (السابلة أرجلهم): وكان خنجر "لالاو" يلمع وسط الدخان والضوء الخافت، وبعدما عاد النظام ليستتب، وتمّ وضع الطاولات والكراسي، واســتؤنفت النشاطات، تأخر ناتاريو وهو يثير ماركانا، وكاد يثور غضباً عندما سمع الببغاء تأمره: (اذهب ونل المتعة) بينما تحدجه بعينيها وتصفّق فرحاً بجناحيها الأخضرين الأحمـــرين. وإذ اعتـــرف لـــويس بريتو بالجميل فقد أرسل الببغاء إلى نـــزل السيدة سينيورينيا حيث كان يقيم النقيب في إيتابونا: هدية من مبعوث حياً.

في مـــزرعة أتالايـــا تعلّمت (اذهب ونل المتعة) أن تصفّر للخنازير، وأن تنق للدجاج، وأن تقلّد صوت الزنجي إشبيريداو: بالسلامة والصحة يا عمتي زيلدا. أما في تـــوكايا غـــراندي فإن التركي فضول عبد الله قد علّمها كلمات بذيئة باللغة العربية... وكانت ماركانا تردّدها باللهجة النظيفة لأهالي جبل لبنان.

علـــى طاولة الطعام الغنية، في بيت النقيب، حيث كان فضول يتواجد غالباً، فـــإن العـــربي لا يـــتوقف عـــن القهقهات والضحك لدى سماعه، باللغة العربية والبرتغالية، للشتائم التي كانت تطلقها (اذهبي ونالي المتعة). ولكن فضول لم يتمكّن قط، بالرغم من المحاولات العديدة، أن يداعب رأس الببغاء وبطنها. فهذه الميزة من امتيازات النقيب ناتاريو دا فونسيكا.

8

غـــدت البـــبغاء (اذهـــب ونل المتعة) متعدّدة اللغات، فبالإضافة إلى تكرار الكلمات البذيئة باللغة العربية، فإنها كانت تغنّي بالإيطالية مقاطع غنائية - (ريدي بالياتـــشو) (لادونا أي موبيلي) - المعزوفة على الغراموفون، وهكذا طافت شهرة الببغاء الآفاق مع قوافل الحمير.

- لدى النقيب ناتاريو ببغاء عجيب يتكلّم التركية، ويغنّي بلغة أجنبية، يا له من عجبة ممتعة.

كـــان الغرامونون، هدية العقيد بوافنتورا أندرادي، التسلية الكبرى والرفاهية الرئيـــسية في بيت النقيب ناتاريو دا فونيسكا. وكانت زيلدا تعطيه من التقدير إلى

درجة لا تسمح معها حتى لابنه الكبير إيدو، أن يشغّله، فهي فقط مع ناتاريو يستطيعان تشغيله. ومرة في الحياة، وأخرى في الموت، كان النقيب يدير المساك ويضع الحبل في الجهاز ليعرضه للزائرين من ذوي المقامات الرفيعة: كالعقيد روبستيانو دي أراجو، والعرّاب لوبيسينيو رئيس محطة تاراكاس، والسيد سيسرو مورا مشتري الكاكاو لحساب شركة كويفمان وشركاه للتصدير.

في أوقات الفراغ، وعادة عند الأصيل، وقبل طعام العشاء، كانت زيلدا تطلق الغراموفون للغناء، وتجلس لتصغي ويدها على خدّها وعيناها شبه مفرغتين: لم تكن تفهم اللغة التي بها يطلقون الحناجر بالآهات والمواويل، وكانت الآهات على الأخص تشعل عواطفها. أحياناً، كانت كوروكا تظهر هناك لمرافقتها، والتعليق على أحداث الناحية، وسماع الموسيقى، وكان لديهم ثلاث أسطوانات، فقط. كانت قد جاءت مع الجهاز، وكانت فانجي أيضاً تأتي جالبة معها بعض الهدايا - بطاطا حلوة، أبو شوشة، ولفت، إلى المطبخ، وتطري على الغراموفون:

- حتى لا يمكن رؤية المغني...

كانت فانجي قد غدت صديقة حميمة لزيلدا، ومحتفظة للنقيب باحترام خاص: لن يكون بمقدورها أبداً أن تنسى لقاء العائلة به على الطريق. كانت قد سمعت روايات عنه، وكانت تلك الروايات تدخل من أذن وتخرج من أذن أخرى. فبالنسبة إليها، يشهد الله، لا يمكن لأحد أن يماثل النقيب ناتاريو دا فونسيكا. كانت قد دعته ليكون عرّاب ابن ليا وأغنالدو عندما يقرّرون في يوم أن يعمّدوه. أما العرّابة، اعذريني يا سيدة زيلدا فلا يمكن أن تكون غير جاستنا كوروكا التي قامت بالتوليد.

في البدء، كان الصغار، الذين يأتي هم إيدو وبيبا، يجتمعون عند أقدام الغراموفون منتبهين ومتجهّمين، ويريدون أن يعرفوا أين تختبئ فلانة أو الشخص الذي يغنّي تلك الأغاني الغربية. وتعبوا من ذلك سريعاً، فالمقطوعات الموسيقية كانت دائماً هي نفسها، وراحوا يفضّلون الغابة والعصافير وينصبون المصائد والفخاخ.

كانت برناردا تصل وابنها يشدّ بزنارها. تطلب البركة من الأم، وتساعد في الأعمال البيتية، وكانت صامتة وباسمة، تصغي إلى الغراموفون في حين تذهب

للتنقيب عن القمل في شعر زيلدا. كانت برناردا تذهب إلى هناك دائماً في غياب النقيب، وإذا حصل أن وصل من السفر وصادفها هنالك، كانت تطلب منه البركة – ثم تستأذن بالانصراف. كانت تذهب للمكوث في البيت، منتظرة أن يأتي ليراها في أي وقت يشاء.

وكانت زيلدا تقدِّم للزائرين شراب الجنيبابو، والبيتانغا، والماراكوجا، وكلها مصنوعة منزلياً: كيف توفّر لنفسها الوقت لتقوم بكل الأعمال: المشاغل البيتية، المطبخ، المشروبات، ومربّى الموز، وتحميص فستق الكاجو، والخياطة والتطريز، ولكي تربّي الأولاد بحرص وأمانة، أولادها الشرعيون والمتبّنون وكل هذا من دون أن ترفع صوتها، ودون أن تتذمّر، من أي شيء؟ عندما اتخذها ناتاريو زوجة كانت يتيمة، متسوِّلة، لم تتصوّر أنها ستصل إلى هذه المراتب العالية: متزوجة، وزوجها في الحرس الوطني، ومزارع وهي ربة بيت بهذا القدر، وأولادها متعافون، وطاولتها غنية المأكولات ومعروضة للجميع. هل تتذمّر؟ فقط إذا كانت عاقة.

طاولة غنية ومفتوحة، يأتي إليها كل من يصل، دون دعوة، وكانت النساء يتزاحمن على إعداد الطعام في غياب النقيب: كوروكا، ميرينسيا، برناردا، وأية صديقة أخرى؟ أما الرجال فلا يأتون إلى هناك أبداً عندما يكون رب الأسرة غير موجود. وكان ناتاريو يقضي معظم وقته في المزارع، في أتالايا وبوافيشتا، ويطول غيابه أكثر أثناء القطاف، مهتماً بتجفيف الكاكاو. وعندما يتوقف في توكايا غراندي، كان البيت يمتلئ بالزوار. إلى الطاولة، كانت المقاعد تصبح غير كافية مما يجعل ذلك الباقين يأكلون على الشرفة أو في المطبخ مع الأولاد. أصدقاء، عرّابون، معارف، وأشخاص لديهم ما يناقشونه فيه، وحطابون كانوا يأتون لتحيته، بالإضافة إلى سكان المكان. وعندما كان النقيب يمر، ماشياً أو ممتطياً حصانه، في الفلاة، أو على طريق الحمير، أو عند أسفل المنحدرات، كان الجميع يحيّونه بمودّة وفرح، وبمزيج من الاحترام والتقدير. كان الرجال يرفعون قبعاتهم دليلاً على الاحترام، والنساء يبتسمن له تقديراً: في احترام بعض الرجال له سمة من الخوف، وفي تقدير بعض النساء رعشة ثقيلة، وكان الأولاد يركضون ليقبّلوا يده.

– البركة، يا نقيب.

9

العقــيد بوافنتورا أندرادي نفسه، الآمر الناهي في تلك القفار الواسعة، السيد والإقطاعــي، كــان قد ذاق الطعام على طاولة زيلدا، وكرّر الكمية، وهو يمصّ أصــابعه مــستطيباً: الدجاجة المحشوة، مع الصلصة، والأرانب البري المشوي على الجمــر، والــسمكة المقلــية بزيت جوز الهند، وحلويات الموز والكاجو، وقشرة الأناناس، كانت زيلدا تعتذر عن الوجبة القليلة التنوع، فليس هناك غير أربعة أنواع مــن الطعام، فيا له من غداء متواضع إذا ما قيس بأنواع الطعام على مائدة القصر الكبير. كانت البنات يساعدنها في المطبخ وقد تعلّمن الطهو وتحديد كميات تحسين المذاق وتكييفه ثم تفحّص المرحلة الأخيرة منه.

إذ كان قد جاء من أتالايا، فإن العقيد كان قد مرَّ بتوكايا غراندي، وفي نيّته أن يــتدارس مــع ناتاريو تحديد الموقع الذي ستنــزل فيه مجموعة من السرجيبيين كانوا ينتظرون وصولهم إلى إيلايوس، قادمين من أشتانسيا موطن المزارع – وفقاً لما تمّ معرفته سابقاً، كان الأشتانسيون أقارب الإقطاعي، واستفاد من المناسبة ليطوف في الــوادي: كــان قد جاء إلى هناك في الموسم السابق وأكثر من سنة. وفي المرة السابقة كان قد دهش لتقدُّم توكايا غراندي، فما الذي يمكن أن يقوله الآن؟

زار حقول إمبروزيو، وجوزي دوس سانتوس، والتاميراندو الذي كان قد بدأ بتــربية الماعــز، وراح يهزّ برأسه دليل إعجابه، ودخل بيت الطحين حيث كانوا يطحنون المانديوكا. إن الأشتانسيين سيقيمون هنالك برفقة طيبة.

أما المفاجأة الكبيرة التي اقتلعت تعجباته الحماسية فكانت رؤيته للجسر الكبير الــذي بلغ مرحلته الأخيرة. حجم العمل ومستوى التنفيذ، واللمسات الأخيرة التي ستتركه روعة للنظر. وقد تلقّى لوبيسينيو وغيدو، معلما النجارة الأكبران، التهاني بتواضع ورضى العقيد. أما لوبيسينيو فقد كشف عن سرّ دون عناء:

– كان العقيد روبستيانو يعتقد بأننا لا نستطيع القيام بالعمل. وأخيراً أن إنهاء العمــل تمّ بمــساعدة الكــثيرين الآخرين. فالعقيد روبستيانو والنقيب ناتاريو دا فونــسيكا كانــا قد شاركا بالمال، وكذلك شارك في التنفيذ كل من معلمي البناء بالبيتو وباستياو دا روزا، وتحوّلت ميرينسيا وزي لويس والحداد تيساو أبدووين إلى نجارين وقاطعي أخشاب، وحتى فتيات الهوى ساعدن في العمل.

توقفـــوا عند بيت برناردا، فأبدى العقيد رغبته في رؤية الطفل الذي ولد أثناء وجوده في العام الماضي، في توكايا غراندي والذي شرب نخبه كأساً من الكاساشا في دكـــان فضول. وقدّمت كوروكا القهوة، ولم تتوقف برناردا عن عرض الطفل الذي يشبه أباه:

- إنه العلامة المسجّلة لناتاريو... مازح العقيد.

ومرَّ العقيد بخيمة كاستور ليحيي ديفا، ولم تعد توكايا غراندي مخيماً لفتيات الهـــوى حـــسب، بـــل تكوّنت العائلات فيها: ففي جولته كان قد التقى بدينورا وإيـــزورا، وشاهد أبيغال في الطريق، والتقى بديفا، والنساء الأربع جميعاً، بانتظار الولادة. وعاد العقيد ليتذكّر توقع ناتاريو وهو ينظر من أعلى القمة حيث يقوم بيته الآن. كـــان الوادي ما يزال غير آهل، والغابة ما تزال عذراء، فلمح المستقبل، إن العقـــيد لم يـــتمكّن أبداً من تفسير القوة التي كانت تجيز للمملوك أن يقرأ الأفكار ويتكهّن بالمستقبل. إنه الدم الهندي، وليس هناك من تفسير آخر. وفي النهاية ذهبوا إلى دكان فضول لتناول كأس قبل الغداء.

- ما هو رأيك يا حضرة العقيد؟

- بعـــد بـــضع سنوات ستسبق تاكاراس، ولم يعد ينقصها غير وصول سكة الحديـــد! متهادياً غادر الطاولة إلى أرجوحة الشرفة ليسترخي، وقبل أن يقيل فإن العقـــيد تـــبادل مقطعـــين من الكلام الجميل مع زيلدا وأطلعها على أخبار أتالايا الجديدة. لقد كسبت السيدة بيكينا مساعدة لها هي ابنة تيبور سينيو: هل تذكرين تيبور سينيو، يا عرّابة؟

- ساكرامنتو؟ أتذكرها جيداً. إنها فتاة رائعة الجمال.

علـــى وجـــه العقيد، حيث ترك الزمن والحياة بصماتهما وحيث مرارة الحياة تترك آثارها، بدت ابتسامة خفيفة تكاد تكون خجولة.

- لم تعد السيدة بيكينا قادرة على المشي بسهولة. كان حظّها في العثور على هذه الفتاة التي لا يضاهيها أحد في العمل. إنها فتاة طيبة يا عرّابتي. لقد أصبح البيت متعة للنظر، حتى إنها تهتمّ بي: - هل كان يتكلم عن عشيقة أو عن خادمة؟ بالنسبة إلينا، يا عرّابتي، أصبحت أمضي الوقت في أتالايا أكثر مما في إيلايوس.

- فنتورينيا، يا عرّاب؟ هل من خبر عنه؟

اختفت الابتسامة عن وجه العقيد:

- إنه لا يزال في الريو، أعتقد بأنه انتقل إليها نهائياً.

- دائماً في الدراسة؟ كانت كلمات بريئة، لا تنطوي على خبث.

- أجل يا عرّابتي، لقد آن الوقت ليتوقف عن الدراسة، مع كثير من الدراسة يصبح الأستاذ متسكعاً.

وقطع صراخ الببغاء، الحاد، الحوار:

- ابن العاهرة: اذهب ونل المتعة.

أغمض العقيد عينيه محاولاً إبعاد التفكير بفنتورينيا الذي يتحوّل في ريو دي جانيرو، فبأي شيء يفيده الحزن؟ ولكنه كان يحزن، أراد ذلك أم رفضه؟ فإن ناقص العقل هو ابنه، وحيده، بسببه عمل بلا تعب، ليلاً ونهاراً. ومن أجله حمل السلاح وقاتل، وجازف بحياته، وأمر بالقتل، وقتل بيده. آه... فلولا الجميلة ساكرامنتو لكان فَقَدَ نهائياً لذّة الحياة. إن المال والسلطة لا يكفيان.

عندما رأته وقد أغمض عينيه، انسحبت زيلدا بهدوء، محاولة ألا تثير أية ضجّة. لم يطلب منها العقيد البقاء، وتركها تنصرف دون أن يمسك بخيط المحادثة. لم يكن يحب أن يتكلّم عن غياب ابنه. وبسبب قرفه من غياب ابنه، من يدري، فإنه كان يتمسّك أكثر فأكثر بخدمة السابقين البسطاء، السيدة بيكينا التي شاخت في الدار الكبيرة دون يوم راحة واحد، والزنجي أشبيريداو مع بندقيته البيضاء الذي عندما جاء مع سلاحه كان فتى في منتصف العمر ومنذ ذلك الحين لا يزال يحرس نوم العقيد في الدار الكبيرة، وفي زيلدا وناتاريو؛ لقد انتهى ناتاريو إلى عرّاب مقرّب ونقيب، لأنه بالإضافة إلى الشجاعة والوفاء، كان يمتلك الذكاء، ويعرف القراءة والكتابة، وعلى الأخص القيادة.

إنهم أناس بسطاء ومستقيمون، حتى هي، الصبية ساكرامنتو التي لم تناده في يوم "بأنت" بل "بسيادتك" كانت تقول له "سيادتك" أو حضرة العقيد، ولكن صوتها وحركاتها كانت تعزية له في زمن الأحزان والتوتر، لقد أعادت تلك الصفات في الفتاة اللذّة والرغبة في الحياة. كانت تقطع عليه أفكاره وهو في الأرجوحة، وهي فوق الأرض، وكانت تشتمّ فيه رائحة البيتانغا، وتستقبله على صدرها في الفراش، وهي تضحك وتتنهّد. كان العقيد يعمل بنصيحة ناتاريو، وها هي النصيحة الأخيرة تأتي إيجابية كما هي العادة.

10

حـــين وجـــدوا أنفسهم فريسة الفاقة التي داهمتهم، وتقلّصت إمكانياتهم إلى القلـــيل من المال الذي يأتيهم من أعمال الإحسان التي يقدّمها لهم صاحب معمل السكر البدائي ليوفيجيلدو كالاسان، فإن السيدة ليوكاديا الثمانينية، الأرملة، الأم، والحماة، والعمّة، والجدّة، تذكّرت القرابة. في تلك الساعة من السوء والحاجة، من يـــستطيع أن يمـــدّ لها يد العون سوى القريب؟ إنه قريب من درجة ثالثة أو رابعة، ولكن ليس في هذه القرية ما يستدعي عدم الاعتبار.

كـــان العقـــيد بوافنـــتورا أندرادي، في المرة الأخيرة التي ذهب فيها إلى أشتانسيا، منذ زمن بعيد، قد عرفهم وحيّاهم في المعرض الأسبوعي حيث كانوا يعرضـــون ويبيعون المواد الزراعية الوفيرة، ومع كونه ثرياً كبيراً لا يعرف أين يضع أمواله، فإنه لم يكن يحتقر فقر أقاربه وبينما هو جالس على صندوق قريبته ليوكاديا تأخّر في المحادثة، متذكّراً الأشخاص والأحداث، بعضها ممض، وبعضها الآخـــر محـــزن حقاً، بالإضافة إلى كونها من ذوي القربى، فإن ليوكاديا كانت عشيقة ضارب الطبل جوزي دي أندرادي والد العقيد وكان الاثنان قد أمضيا معـــاً أوقاتاً ممتعة في الحفلات الراقصة الصاخبة في أعياد شفيعة أشتانسيا، وهي حفلات لا تنسى:

– كدت أكون أمك، لولا القليل، يا قريبـــي بوافنتورا.

متجلبباً، فإن اللورد الريفي فتح محفظته وأعطى بعض الخردة للأولاد، خردة؟ بـــل لفّة كبيرة من المال احتفظت بها ليوكاديا لحاجة صحية عند الطبيب. وعندما اســـتأذن بالانـــصراف، فقد عرض العقيد خدماته إذا احتاجوا إليها في يوم؛ إنه في تـــصرفهم، في إيلايوس، وما عليهم سوى أن يكتبوا. ويكفي أن يضعوا الرسالة في الظـــرف ويكتبوا عليه: العقيد بوافنتورا أندرادي، إيلايوس، ولاية باهيا، وستصل الرسالة، ولا يهم اسم الشارع "لأن الجميع يعرفونني هناك"

ولم تكن تلك القصة مختلفة عن سواها، وتتكرر هي نفسها، مع تبدل قليل في التفاصـــيل. كانـــوا قد زرعوا نصف الأراضي وعرفوا أوقاتاً مزدهرة، ثم حدث ما يمكن مشاهدته: لقد عادت الأراضي إلى صاحبها، واستبدل قصب السكر بزراعة الـــذرة والمانديـــوكا. لم يعـــد لديهم وسيلة لكسب العيش في أشتانسيا: لا أرض

يــزرعونها ولا موظفون في التجارة، وليس من عمل سوى المأوى في حقول السكر القديمة.

كانت أشتانسيا قد غدت مركزاً ذا أهمية كبيرة في ولاية سرجيبــي، وكانت البــضائع المــنقولة بحــراً تنقص عند ميناء ريوريال، تتكدس في مرفأ دوكراستو، وكانت تخرج من أشتانسيا إلى السرتاون حركة واسعة من القوافل والعربات. لكن ســكة الحديــد التي ربطت باهيا بسرجيبــي مرّت بعيدة عن أشتانسيا وحكمت علــيها، إن لم يكن بالموت، فبالانحطاط. لم يكن للأشتانسيين بديل عن الانطلاق نحــو الجــنوب. كانت شهرة الكاكاو تسيل لعاب المتشردين، فكم بالحري لعاب الذين فقدوا الأرض، والزراعة، والأمل.

عــندئذ تذكرت السيدة ليوكاديا القريب البعيد والثري الكبير، وجمعت رهطهــا واقتــرحت الرحيل. كان مجموعهم ثلاثة وعشرين حياً، آباء وإخوة، عمومة وأقرباء، من دم واحد. سبع نساء، ستة رجال، وعشرة أولاد قاصرين، وبأعمــال مختلفة. ورفضت الصبية نينيكا الذهاب إذ كانت على علاقة غرامية جدية مع أوزيريس الخطيب الرسمي اللامع، والعازف العادي على المزمار في ليدا أشتانسيا، وأمين صندوق غامض في الدكان المتواضعة لأبيه أميركيو الذي هو، في الــنهاية، مــيت لا يزال يقوى على المشي. ووجدت لينيكا الفرصة المناسبة لتخرج من البيت وترتبط بالمتوسل إليها: وليكن زواجها عبئاً إضافياً على ظهر المــسكين أميريكو، أما غابرييل، والد لينيكا، فقد هدّد وتوعد، ولكن الابنة لم تهــتم وأمــرته السيدة ليوكاديا بترك الماء تجري، وإقفال الموضوع. إذا كانت الحمقــاء تــريد أن تبقــى هــنا لتعاني الجوع وتنتهي إلى بيع جسدها، فهذه مشكلتها، ولديهم الكثير ليهتموا به.

وكتــبت الــسيدة لــيوكاديا رســالة إلى العقــيد، مذكرة إياه باللقاء والوعــود والخدمات. - ألم يمد لسانه بعد؟ - سأل فافا، ابن ليوكاديا البكر، الخمــسيني، لــو أنــه مــات فإن خبر وفاته كان يمكن أن يصل إلى أشتانسيا بالــصدفة لأن الأخــبار الــسيئة تنتشر بسرعة ولا تضيع ولا تتأخر. وهو لن يجــيب عــن الرسالة، توقع الصهر أمانديو، الأحب، ورجل الملذات الذي لا شفاء له.

إنـــه لم يجب حسب، كما فعل بالبرقية، بل أبدى اهتمامه، فجمعوا أطمارهم وركـــبوا في الدرجة الثالثة من قطار باهيا حيث سيستقلون المركب إلى إيلايوس، وهم يعدون المال ليدفعوه. وفي إيلايوس، سيهتم القريب بهم.

لا ينقص العمل هناك، وبوجه خاص في موسم القطاف. لكن العقيد لم يكن يـــرغب في رؤيـــة أقاربه يعانون الظروف القاسية التي يعاني منها الأجراء. تذكر تـــوكايا غـــراندي، وقرّر أن يذهب بنفسه للتحقق من الوضع. وبمساعدة ناتاريو، اخـــتار المكان، وسط الحقول وزريبة حيوانات التاميراندو. هكذا سيكون بإمكانهم أن يتوسعوا، والعقيد سوف يمنحهم بعض المساعدات في البدء، ولن يتعرضوا لخطر أحد يأتيهم مطالباً بالأرض لزراعة قصب السكر.. حتى العقيد نفسه لا يستطيع أن يقوم بمثل هذا العمل ليزرع الأرض بأغراس الكاكاو إذ لم يكن هناك مالك رسمي. إنها أرض مشاع ويكفي أن يحتلوها.

طلب العقيد من ناتاريو يذهب لاستقبال الأشتانسيين في محطة تاكاراس، لدى وصولهم إلى إيلايوس. في النهاية إنهم أقاربه ومواطنوه، والعجوز سوف تكمل قريباً الـــثمانين سنة من عمرها، وكانوا يستحقون أكثر من مواساة بسيطة، وهكذا أخذ ناتاريو معه بغلاً ضخماً، وحمل، احتياطاً، شبكة وعصا: إذا كانت الشمطاء عاجزة عن الركوب فستأتي محمولة في شبكة مرفوعة على طرفي العصا. انتظرهم في المحطة وقاد قافلتهم إلى توكايا غراندي.

لم تكـــن الـــسيدة ليوكاديا توحي بشيء إلى عجوز شمطاء، بل كانت مكتنـــزة اللحـــم، نشيطة، ولا توحي بعمرها الحقيقي، ظريفة، ومجتهدة. أمسكت بلجام الحمار على خطوة من البغلة القوية التي يمتطيها مبعوث قريبها وطلبت بعض الإيضاحات:

– هل هو مكان متطور؟ هل توجد فيه فرقة موسيقية؟ ما هي دعوة الكنيسة؟ ومن هو القديس الشفيع؟

بدا على فم النقيب خيط ابتسامة:

– لا يوجد بعد فرقة موسيقية ولكن الكمنجة والمزمار متوفران باستمرار، ولا يوجد كنيسة، وما عدا ذلك فالمكان متطور جداً كما سترين. أما القديس الشفيع، فسأخبرك عنه: إذا كان قديساً، فهو هذا، خادمك، النقيب ناتاريو دا فونسيكا.

ثلاث نساء كن حوامل: فاوستا، هيلدا، وزفرينا.

11

الأقفاص المعلقة على جدران محل الحلاقة لم تزد قط على نصف دزينة. ودون أن يحسب قفص (الكاكاو) الذي كان فارغاً أغلب الأوقات لأن الطير كان يخرج ويطـــير بحرية قاتلاً الحشرات بمنقاره الطويل. هناك، كانوا يعرضون عصافير تبهر النظـــر، مختـــارة بإصـــبع دودو بيروبا. وكيف يمكن تفسير هذا العدد القليل من الأقفاص إذا كان أبو العصافير يجلب من الغابة مثل هذا العدد، في كل مرة ينصب فخاخه في النقاط الستراتيجية؟

كان إيدو ونواندو، الشريكان في تجارة العصافير والحيوانات الصغيرة، يعرضون في كـــل مـــرة عرضـــاً متنوعاً في المعرض الأسبوعي للمشترين الآتين من الأماكن المحـــيطة. إن العصفور يفرح البيت، وحتى أكثر البيوت فقراً يمكن أن يثري ويصبح جميلاً بالغناء وبوجود ريش البلابل، والكناري، والفنحس، والكوريو، والباباكابين، والكارديـــنال، والـــسابيا: اللائحة طويلة، أما البيغاء فإنها ودودة ورفيقة لا تقدر بثمن.

ولم تكـــن العصافير حسب، بل هناك حيوانات أخرى. كانت الأرملة ناتاليا تمـــتلك (جـــوبارا) بلـــون العسل المحروق يتخبط في صندوق ماكينة الخياطة. إذا صدقت الناس فإن هذا النوع من الحيوانات المسمى (بقرود منتصف الليل)، كانت تـــزرع أغـــراس الكاكاو: تنام طيلة النهار، وتقضي الليل بأحسن ما يكون عليه النـــشاط. ولم يكن دودو بيروبا يصطاد العصافير ليبيعها في المعرض، بل ليأسرها، ببـــساطة، في الأقفاص، مضيفاً الحياة على محل الحلاقة الذي كانوا يسمونه (العش) وبـــنفس الطريقة التي سموا فيها الفلاة المنظّفة من العشب قاعة الرقص؛ وهذه هي طرق تسمية الأشياء على ألسنة سكان المكان.

كانت العصافير التي يربيها دودو ويدربها لا تصل إلى الطلبيات، ولا تستجيب إلى الطلـــبات الكثيرة من المزارع الكبيرة الممتدة من محطة تاكاراس إلى إيتابونا. بل كـــان رجل العصافير يسلمها رغماً عنه وحزيناً وبعد مناقشة طويلة. لم يكن يبيع لأول مـــن يظهـــر هـــناك، ولأي كان. كان يريد، قبل أي شيء، التأكد من أن المـــشتري يحـــب الحيوانات حقاً، وليس واحداً من أولئك الذين يمتلكون الديكة الهراتية والعصافير التي يربونها للقتال والمراهنات.

وطلـيقة في محـل الحلاقة كانت تعيش (فوغو بيغو). وهذه لم يسمح ببيعها مقابـل ذهـب العـالم: كانت تحك أصابع رجليه، وتقف فوق كتفه أو فوق لمته مفتـشة ثم ناقدة بمنقارها إلى شعرات الشيب هناك. لم تكن عروض الشراء تنقص. وكان قد تلقى عروضاً مختلفة رفضها كلها، وكان يثور حانقاً ويخرج على هدوئه المعـتاد إذا ألح أصـحاب العـروض على الشراء. كيف يمكنه أن يعيش دون أن يـسمعها في كـل لحظة تردد شعارها الوتير والمسلي (فوغو – بيغو)، (فوغو – بـيغو). وكان يمكن رؤيته عند الباب جالساً على مقعد خشبي والطير على رأسه ينقر قرعته.

مرة لاحظ في ليلة، بعد انقضاء صَخَب رجال القوافل، أن الصمت خيّم على الفـلاة، فاسـتيقظ دودو بيروبـا من نومه الخفيف متفاجئاً بالببغاء تردد شعارها السعيد: في تلك الساعة يجب أن تكون نائمة في القفص والفجر الأول لم يلح بعد. وقـف على الأريكة وأخذ يصغي في الظلام: العصافير كانت نائمة، و لم يعد يأتي من الصالة الصراخ الذي كان قد استمر بنداء عنيد. هل يكون ذلك الذي سمعه قد أتـى من طائر ضائع من الخارج؟ وربما يكون مجروح الجناح، لا يستطيع الطيران، ويطلب مساعدة.

تحرك من مكانه دون إثارة ضجة لكي لا يزعج العصافير، وتوجه نحو الباب. لم يمـشِ أكثر من خطوتين: وفي الحال وجد المعوَّقة هناك، مستجمعة نفسها حول المطـر، وعـندما تبينته في الظلام، ابتسمت ساو، ووقفت على رجليها ومدّت له ذراعيها.

مياه فيضانات النهر كادت تقضي
على توكايا غراندي

1

تحـــت الأمطار الغزيرة، المفاجئة، وبينما يرشح منه الماء، وقد ابتل معطفه حتى كـــاد يعـــصر عصراً، ترجل العقيد روبستيانو دي أراجو عن مطيته عند باب محل حذّاء الحمير.. ثم سلّم اللجام إلى السركال الذي كان يرافقه ويدعى فزارينيو وهو أخ جيرينو الأصغر، وكلا الأخوين من أصحاب الثقة المطلقة عند العقيد:

- انتظرني في المستودع.

عند الباب حيا كاستور أبدووين المزارع الكبير بحفاوة:

- تفضل بالدخول يا عرّاب، البيت بيتك، لقد ولد فليونك، تعال وانظر أي خلاسي رائع هو.

كـــان العقـــيد هو الآخر خلاسياً. ولكن في تلك الربوع لم يكن التمييز بين البـــشر عنصرياً بل تمييزاً بين الأغنياء والفقراء: إن المزارع الكبير غير الأبيض لا بدّ من أن يكون أسود كالعقيد جوزي نيكي ليشرف العنصر؛ الزنجي زاي نيكي جميل ومليونير: - كان يعلن نفسه كذلك من أعلى حصانه الأصيل وهو يمسك بصوت الجلـــد المجدول ذي القبضة الفضية. وكان العقيد روبستيانو عند بداية الحصاد يقـــدم إلى الأب ماريانو باستوس كاهن كاتدرائية القديس جورجيوس، ضحية تمجد القديس المحارب، ويقدم طريدة كبيرة، على قدم المساواة، إلى الأب أرولا خـــادم الإله أوشوسي سيد الطبيعة.. وبواسطة الاثنين، القديس وخادمه، كان يجـــب المحافظـــة على الأمطار ضمن الحدود المعقولة لكي تتمكن براعم الكاكاو وديافيره من النمو دون أن تهددها عوامل الطبيعة، ولكي يأتي الحصاد وفيراً. الوعد طـــارئ وضـــروري: في أعـــالي مرتفعات نهر الأفاعي كانت الأمطار قد بدأت بالهطول، غزيرة.

خلـــع العقيد معطفه ووضعه قرب نار الحدادة ليجف: طقس أسوأ من هذا، وأكثر "تعهراً" لا يمكن أن يكون.

– لقد تلقيت رسالتك بخبرها السعيد، فجئت لزيارة العرّابة. فكيف هي الآن؟

– سعيدة كعصفور، ولا تكف عن الضحك.

كـــان الاتفاق ينفذ بهدوء. وعندما كان يدفع كاستور الدين الذي استلفه من العقـــيد لإقامة محل الحدادة، كان يدفعه أقساطاً يحددها وفقاً لما يريده. وكما وعده الـــدائن الكـــريم – ليس من الضروري أن تقلق يا تيساو، لا تستعجل. كان يكرر العقيد لدى استلام كل قسط، وكان تيساو يعلن:

– عـــندما أتـــزوج يوماً سأطلب من سيادتك ومن السيدة إيزابيل أن تقوما بمعمودية ابني الأول.

– سنفعل ذلك بسرور كبير، يا تيساو.

وكـــان الزنجـــي متقيداً بالالتزام. أن يتزوج، فإنه لم يتزوج، ولكنه أقام معها بالمصاحبة، وعملياً فإن المسألة هي نفسها. وعندما بدأ بطن ديفا ينتفخ فإن كاستور حين شاهد العقيد في توكايا غراندي، قال له:

– لقد أقدمت يا حضرة العقيد، وأوصيت على الفليون.

وإذ أقاما معاً فإن كاستور وديفا كانا يبدوان كعاشقين: وسواء أدركه الزعل أو الفرح فهو لا يفقد أبداً مزاجه: كان الاثنان دائماً متشابكي الأيدي، ضاحكين، متـــبادلين للأســـرار والقـــبلات، وكـــان يقال إن واحدهما خلق للآخر: يناديها بالسوداء، يا سودائي، وكانت تناديه يا "أبيضي" وعندما تريح رأسها على الصدر الأسود العريض يضع يده على بطنها المنتفخ ليقيس مبلغ النمو وينتظران مرتبكين.

في الـــنهاية جـــاء الفجر صاخباً في خيمة الحداد. في بداية الحصاد كانت قد تقلـــصت حـــركة قوافل الكاكاو الجاف. وعندما، في أثناء الليل، بدأت الأوجاع تتـــصاعد، ذهب تيساو ليأتي بالديك الذي كان قد ربطه سابقاً إلى جذع شجرة الغـــويابا في البـــستان، وذبحـــه مقـــدماً إياه ضحية للآلهة. بعد ذلك ذهب ليأتي بكوروكا.

عاد تيساو ينتظر في الخارج، مبتلعاً صبره، أذناه مرهفتان، وعيناه على صديقه الدائم، الكلب "ألما بينادا" عندما سمع الصراخ، قفز كاستور قفزة واحدة واقتحم

الغرفة حيث كانت كوروكا تمسك بيديها المولود الجديد وهي تعرضه ملطخاً بالدم على نور الضوء الشاحب ليراه الجميع: تيساو، ديفا، فانجيه، وليا وديونورا؛ في صدر الزنجـــي بـــدأ القلـــب يزداد خفقاناً، وشعر بعينيه مبتلتين. لم يكن يعرف الدموع سابقاً. حتى حين بلغه متأخراً موت عمه كريستوفار أبدووين الحداد الطيب. كان قد قال لديفا إذا جاء الطفل ذكراً فسأسميه باسم عمي كريستوفار الذي رباني، وإذا جاء أنثى فإنك تطلقين عليها الاسم الذي تريدين.

2

مباشـــرة بعـــد ذلك، وفي اليوم نفسه، أرسل خبراً بواسطة حادي القوافل، روميو دا روزا، إلى العقيد روبستيانو دي أراجو في مزرعة سانتا ماريانا:

– لا تنسَ أن تقول للعقيد إن فليونه قد ولد.

كـــان روميو دا روزا قد رافق جيرينو حتى خيمة الحداد لزيارة ديفا والتعرف علـــى ابن تيساو، وكان الرهط هناك كاملاً، فلم يتغيب أحد. جلبت زيلدا قميصاً ولاديـــاً وحذاء من القماش مطرزاً كانت قد صنعتهما بنفسها. وتناول فضول عبد الله من محفوظاته قلادة صغيرة من الذهب وعلقها في عنق كريستوفاو لتحرسه من العـــين الحاســـدة، وبين أوائل الذين جاؤوا إلى هناك، باستياو دا روزا وأبيغال التي كانـــت منتفخة البطن مستديرة الشكل: كانت قد حبلت قبل ديفا وولدت بعدها بثلاثة أيام.

– إذا ولـــدت أنثـــى – قرّر معلم البناء – فإن الاثنين سوف يتحابان عندما يكبران، لقد تمّ التعاقد على ذلك منذ الآن.

في المـــزارع كان القطاف قد انتهى، وانتهوا إلى مرحلة تجفيف الكاكاو. جاء الموســـم أكبر من كل الآمال والتوقعات وبلغ الإنتاج ضعف ما كان عليه في العام الماضي بسبب حمولة أغراس الكاكاو الجديدة. وأصبح المال في بيوت العقداء فراشاً للقطـــط، وتمّ إيـــداع العائدات في فروع بنك البرازيل في إيلايوس وإيتابونا، وفي الحـــسابات الجارية لشركات التصدير.. في الملاهي أصبح كبار المزارعين يأمرون بفـــتح الشمبانيا، ويقدمون الهدايا للفتيات كخواتم ألماس، وأساور الذهب، وعقود اللؤلـــؤ. ولكـــي يكون العقيد محترماً يجب أن يملك بيتاً مدنياً وآخر عسكرياً: في

البيت المدني زوجة محافظة متدينة وربّة بيت مكرسة نفسها لخدمة العائلة وواجبات الأم، وفي البيت العسكري عشيقة جميلة وأنيقة، متخصصة في استرعاء النظر وإمتاع الجسد وإثارة الغيرة.

ومع النيَّة في إعطاء الأمور الحجم الذي تستحق فإن صوتاً خفيفاً في شوارع المدينة وعلى طرقات حقول الكاكاو، راح ينساب ليروي أن العقداء كانوا يشعلون السيجار بأوراق نقدية من فئة الخمسمائة ألف ريس. وفقاً لما بدا في الحقيقة فقد حدث في الليلة التذكارية التي أقيمت بانتهاء القطاف، وفي ملهى إيلايوس، أن العقيد داماسيو دي كاستور أو ربما ابنه الطالب زيكينيا – الروايات تتناقض في هذا الموضوع – قد أحرق ورقة نقدية من فئة الخمسمائة ليشعل بها سيجارة واندامياو – مياو ضيفة الشرف الكبرى. أشعل سيجارة البولونية الحارة واستفاد من الشعلة المتقدة لإشعال سيجار سوبر ديك المصنوع باليد في مصنع فيلكس.

ولم يكن قطاف جاسنتا كوروكا أقل فرحاً وإنتاجاً، ولكنه قطاف للمولودين الجدد. لم تفقد أي طفل وبدلاً من سبعة، ولد تسعة، الواحد تلو الآخر. وكيف يحدث هذا إذا كانت الحبالى سبعاً ومن يتواكبن في توكايا غراندي مستعرضات أنفسهن على ضفتي النهر خلال فصل الشتاء المنصرم وتحت الرذاذ؟ إن دينورا، وفقاً لتوقعات المجتهدين، ولدت توأمين مع فارق نصف ساعة بين المولودتين مرتا وماريا اللتين كانتا أول إشراف لكوروكا على الإنتاج. أما التاسع، بالإضافة إلى توأمه آندي الذي ولد قبله، فقد جاءت به إلى الحياة غوارا سيابا زوجة بلو كوتينيو. وكان هذان الزوجان قد جاءا من ريكونكافو، ومنهما علم كاستور بموت عمه كريستوفار أبدووين وسلوك المداما البارونة المخلصة التي كرست نفسها للأعمال الخيرية في جمعية متريز. وكثر من السن فإن الشمس القارية قد جعلتها مسنّة ولكن دون أن تقلص من انطلاقتها، لأنها كانت لا تزال نشيطة وفعالة وخلال ترداد نشيد – أورا – برانوبيس الديني كانت تقتنص مراهقين دون تمييز عنصري للون، ولكنها كانت لا تزال تحتفظ ببعض الميل للسمر من أبناء الله المفضلين.

وإذ كانا بارعين مهنياً فإن غوارا سيابا وزوجها إيلوي قد ابتنيا لهما بيتاً خشبياً صغيراً وبدآ يعملان بجهد وتواصل في الجلود والخشب، وكادت غوارا سيابا تجهض في الطريق لما كانت تعانيه. أما الرائدة في تلك الولادات فكانت إيشتانسية

تدعـــى زيفيرنيا وقد اختتمت هذه الجولة وجاءت بمولودها في الليلة التي بدأ فيها الطوفان.

خمـــس إناث وأربعة ذكور على يدي جاسنتا كوروكا المباركتين على لسان العجـــوز فانجـــي، بالإضافة إلى المديح الذي ينتقل من فم إلى فم: وكانوا قد بدأوا يأتـــون إلى المـــزارع المجاورة لما ذاع لكوروكا من صيت. كانت قد أنقذت حياة زوجـــة العقيد سيتمبرينوا أرودا وطفلها وحوّلت الولادة العسيرة في الشهر السابع إلى نجـــاح كـــبير. وكانت السيدة بياترير ترتاح في الدار الكبيرة في المزرعة، بين تاكـــاراس وتـــوكايا غراندي، بانتظار تاريخ الولادة المتوقع لتذهب إلى إيلايوس ويـــساعدها في الولادة الدكتور البارع إسماعيل ألفيس الذائع الصيت علماً وعمراً مناســـباً. وفجأة بدأ المخاض ومعه الارتباك والركض في كل اتجاه، وليساعدنا الله، أرســـلوا مبعوثاً على عجل ومعه أوامر بالمجيء بكوروكا طيراناً إذا أمكن. وصلت كـــوروكا وراحـــت تـــصوب إلى الأهداف مناضلة ضد الموت كفاً بكف ودون خوف. هل يمكن أن تكون قد فشلت؟

3

قـــدم العقيد روبستيانو أندرادي رزمة من الأوراق النقدية من فئة الخمسمائة إلى ديفـــا، وهـــي أوراق تلـــيق بمن كان يقطف أكثر من خمسة آلاف غرسة من الكاكـــاو، ويدفع لوشم اسمه على ما يعادلها من المواشي ذات القطعان التي لا تعد من الثيران والبقر والعجول وثورين للسفاد اشتراهما بنقود ذهبية من ميناس جيراس وهما عجلان ولدا ابنين لصاحب الرقم القياسي الشهير الذي استورده مربي العجول العقيد ألفريدو ماشادو. أوراق نقدية من فئة الخمسمائة الجديدة اللماعة.

– إنها إيزابيل من أرسلت لقريبتها هذا المبلغ لتشتري بعض الحاجات للفليون. زيـــارة تهنئة، ومفرحة بالنتيجة. في هذه الأثناء لاحظ تيساو في حركات المزارع، الـــذي اعـــتاد عليه محدثاً لبقاً واثقاً، بعض الارتباك؛ لم يغامر الزنجي بالسؤال عن السبب ولكن العقيد، وبينما هو يستأذن بالانصراف عند باب محل الحدادة، أفصح عن السر:

– إني قلق يا تيساو، قلق جداً.

– ولماذا؟ إذا سمحت بالسؤال يا حضرة العقيد؟

– إنها تمطر بلا توقف عند أعلى النهر، كأنها حبال من الماء تزداد أكثر فأكثر. إن النهر قد امتلأ أكثر مما يجب. لا أعرف ما الذي يمكن أن يحدث. لا يحدث شيء إن شاء الله، ولكن بسبب الشكوك التي تعتريني، فقد اتخذت الاحتياطات اللازمة لأسحب القطيع إلى تلك المراعي في الداخل.

هناك أيضاً يملأ المطر الوادي ويجعل النهر يرتفع؛ تأخر المزارع وحَذّاء الحمير قليلاً وهما يتفحصان السماء الملبدة بالغيوم السوداء، ويصغيان إلى أنين الريح التي تعصف بالغابة، وأكمل العقيد روبستيانو دي أراجو قبل أن ينصرف وسط الإعصار:

– إن خوفي الكبير هو على أغراس الكاكاو التي أخذت تزهر: قد يضيع الموسم المقبل. سنتوسل إلى الله حتى يوقف المطر.

4

السيد سيسرو مورا، المعروف في المباغي بلقب دكتور برمانغانانو القصير القامة والنحيل الجسد، ممثل شركة كويفمان وشركاه إحدى كبريات شركات تصدير الكاكاو، كان يصعد ويهبط أراضي نهر الأفاعي ممتطياً نفيلوبي، الحمار البطيء ذا الخطوة الرتيبة الحذرة. وفي الطرقات الغارقة في الطين والمقطوعة بالمنحدرات الخطيرة والمهاوي الضيقة المفاجئة، فإن سلامة الراكب تتعلق بجودة المطية.

حتى يجتاز الشعاب المفتوحة وسط الغابة، لم يكن السيد سيسرو مورا يتخلى عن ربطة عنقه الفاقعة الألوان، وعن المنديل الحريري على العنق، والقفازين، وطرف المنديل المتدلي من صدر سترته وسلسال ساعة الجيب المتدلي من الصدرية والشعر اللامع بفعل الدهن البراق، والفرق وسط شعره المسرح ومثلما يقضي الزي العصري. كانت الطريق إلى تلك المجاهل هي نفسها إلى قاعة عرض باريسية. وبطريقة ما، هكذا هو الأمر، فإنه في الدور الكبيرة في المزارع، وحيث يمكن أن يستريح عندما يستطيع ذلك، فإن وصوله يحرك الخادمات والطباخات، كونه قد وصل إلى الطاولة المليئة بالطيبات وإلى الخادمات هنالك. وبالرغم من قصر قامته

وهـــزاله فإنـــه كـــان يأكل وزنه في كل وجبة. أما ما هو متعلق بالخادمات، فإن الأسباب التي تدعوه إلى تفضيلهن فعديدة.

إن أفضل زبائن سيسرو مورا كانوا من صغار المزارعين، فهؤلاء يحتاجون إلى الـــنقد لمـــواجهة التكاليف، و لم يكن بمقدورهم أن ينتظروا طويلاً حتى يبلغ سعر الكاكـــاو حدّه الأقصى كما كان يفعل كبار المزارعين. وكان السيد سيسرو مورا يشتري مسبقاً، وبسعرٍ مناسب ويدفع سلفاً. وفي هذه الحقول الصغيرة كان يناقش قليلاً ويعقد الصفقات وهو يرشف فنجاناً من القهوة أو كأساً من شراب الجنيبابو. ولكـــنه رغبة في الحلول ضيفاً وفي الأكل وتمضية الليل، كان يفضل المزارع الكبيرة حيث الطعام من الدرجة الأولى والخادمات في البيوت جميلات وطيبات.

جميلات وطيبات يسعدنه بصباهن وطاقتهن.

وعندما يتمدد معهن كان يعتبر نفسه مرغوباً، وسليماً من خطر التقاط مرض بـــشع، و لم يكد يبدأ بارتياد المجاهل في قفا العالم حتى أصيب بمرض زهري في أحد المباغـــي في تاكاراس وأصبح المرض مزمناً وسبب له المتاعب المستمرة. ومنذ ذلك الحـــين كان يحمل معه في سفراته مسحوق "البرمانغانات": إذا كان عليه أن يعاقب نفـــسه بمضاجعة بنت هوى فإنه كان يفرض على العاهرة أن تبدأ بغسل مطارحها بمحلول "البرمانغانات" وهذا الشرط لا يقبل المناقشة للقيام بالمهمة والدفع لاحقاً، و لم يكـــن غبـــياً، إذ كانـــت الفتـــيات يستجبن لرغباته. ولكنه لم يكن يلجأ إلى العاهـــرات إلا في الحالات الطارئة. في أحضان الخادمات كان يحس بأنه آمن على نفـــسه وكـــونهن مفـــضوضات ومملوكات للعقداء كان عليهن أن يكن نظيفات وصـــحيات. لم يكن يحتقر المصاحبات، وكان يمكن أن يكرس حياته لصبية صغيرة مفتـــضة البكارة حديثاً. إن السيد سيسرو مورا كان مهووساً قصير القامة، ومجنوناً بالنساء.

كـــان قـــد غدا شخصية شعبية في حدود ولايات نهر الأفاعي. وفي الحقيبة الجلديـــة المنتفخة، بالإضافة إلى دفتر الملاحظات الذي يسجل فيه عدد المشتريات ومـــبالغ المدفـــوعات، كان يأتي معه بدفاتر صغيرة، ملونة، يوزعها بالتساوي على زوجـــات العقـــداء والخادمات في مقرات الإقامة الكبرى في المزارع وعلى فتيات الهوى في المباغي: ويتم استلام الهدية، دائماً مع الشكر. كان يشاهد سيسرو مورا

مـــن حين إلى آخر يترجل عن الحمار "نفيلوبي" أمام دكان العربي فضول عبد الله ويتناول جرعة مضاعفة من الكونياك ويستفهم عن النساء:

– هل من قطيع جديد في المحيط يا صديقي فضول؟ عجلة أصيلة غير حامل؟ وإذ بـــدأ جولـــته في المـــرحلة التي تلي القطاف ومعها أمطار الصيف فإن مشتري الكاكاو مرَّ بتوكايا غراندي وطرح سؤاله المعتاد. أشار التركي بإصبعه إلى العوراء الواقفة فوق الجسر وهي تغطي نفسها بكيس من البلاستيك الشفاف.

– إن أحـــدهم قد أكل براعمها – حتى هذا الديك هنا يشاركهم في ذلك – أشار إلى دورفالينيو المنشغل بغسيل الأواني قرب البئر.

واســـتمر سيسرو مورا يستقصي التفاصيل عن العمر والخبرة: متى حدث هذا على وجه التقريب؟ هكذا، حديثاً، ولا يزال مطرحها مزهراً. ولم يتسنَّ لها الوقت لتلتقط مرضاً، وهي تفعل ذلك رغبة لا حباً بالمال، وهي بالتحديد كما يـــرغب سيسرو مورا الذي ابتلع المتبقي من الكونياك واتجه إلى الجسر الكبير: النظر منطفئ!

5

بيـــنما يصب الكاشاسا القليلة للزبائن وهو في الجهة المقابلة من الباب، كان فـــضول عـــبد الله يقـــيس الأنباء المثيرة بعينيه الملقيتين على السماء المكفهرة. آراء مـــرتجلة، تكهـــنات، وتعجبات تستدعي التحفظ تدور كلها حول البار المتسخ.. وكذلك قلب اللبناني كان مرتبكاً.

قبل أن يتابع الطريق إلى تاكاراس تحت المطر الغزير، كان العقيد روبستيانو دي أراجـــو قد توقف في دكان العربي ليلقي عليه تحية الصباح، ويتناول جرعة مبيـــناً قلقـــه ضـــد علامات تشير إلى فيضان مرتقب مؤكداً الاضطراب الذي يستهلكه:

– سأذهب إلى إيلايوس ولكنني سأعود في الحال. منذ خمسة عشر عاماً لم أرَ مطراً بهذه الغزارة. إن المسألة جدية للغاية.

وبالـــسرعة نفسها فإن النقيب ناتاريو دا فونسيكا كان قد وصل بعد غياب طـــويل في مـــزارع بوا فيشتا وأتالايا، آتياً معه بأخبار محزنة بلغته في إيتابونا عن

أغـــراس الكاكاو التي يهددها المطر. إن نهر كاشويرا قد بدأ يفيض مغرقاً المزارع، مدمراً الأغراس، محولاً الحقول إلى بحيرة واسعة، ومبعداً العمال من هنالك إلى بلدة فرداس.

لم يكـــن العقـــيد بوافنتورا أندرادي أقل قلقاً، وقد انتهز الفرصة لإرسال السيدة أرنستينا إلى القصر الصغير في إيلايوس، ولكن ليس قبل أن تشعل السيدة الفاضـــلة عـــدة دزينات من الشموع في الكنيسة الصغيرة عند أقدام القديس يوسف، وبمساعدة الصبية ساكرامنتو. "الحب الصغير" المكرسة نفسها لسيديها، الرصـــينة الهادئة. وديعة ومطيعة، كان العقيد يضيف الصفات وهو يتكلم إلى رفيقتيه الدائمتين، وهو يأخذ ساكرامنتو بين ذراعيه المرحبتين لكي تستطيع أم تـــتحمل الأحزان الجديدة المضافة إلى أحزانها الثقيلة ومرارتها السابقة. وإذا لم يتأثر القديس يوسف بالشموع والوعود، واستمر الفيضان في أعالي سفوح نهر الأفاعي، فإن ما سيحدث شبيه بما حدث عند نهر كاشويرا وسيتعرض المحصول لخطر كبير.

لم يكن العقيد روبستيانو والنقيب ناتاريو وهما أسياد أرض وأصحاب مزارع وحـــدهما، ليتبادلا الحديث في الأمر. القتلة والمرتزقة والمارون في محطة السكة، وفي المدن، وزمر العاهرات المتقاعدات كن يرددن اللغط المتكرر: إن المياه كانت ترتفع وتـــرتفع مهددة حقول الكاكاو. وكذلك بيدرو سيغانو وقد بللته الأمطار كان قد جاء مفتشاً عن مأوى في توكايا غراندي:

– لم تعد هنالك طرقات، فكلها تحولت إلى أكوام من الطين، ولم يعد بإمكان القوافل أن تمر. سأبقى هنا إلى أن يرسل الله برحمته.

وراء بـــار تجارتـــه المزدهـــرة، كان فضول عبد الله يصغي إلى تقارير القلق، والتكهنات السيئة. كلهم، المزارعون والأجراء، الفتيات وعازف الهرمونيكا، كانوا قلقـــين علـــى بـــراعم الكاكـــاو، وعلى الديافير الجديدة التي ولدت على أشجار الكاكاو، وعلى مواسم الحصاد.

وبينما يصغي كان يلاحظ أن لا أحد يشير إلى مصير الأحياء. كان الجميع يحسبون مبلغ الأضرار التي سيسببها طوفان نهر كاشويرا، ولكن مع حظ الذين عطلـــت أعمالهم وغدوا بلا مأوى أو طعام، وانتشروا في فرداس، لم يكن أحد

يعلم عنهم أو يظهر الأسى لمصيرهم. وإذ سأل عما حدث لأولئك الأشقياء، فلم يعلم، سوى أشياء غامضة عن اقتحام الجذام الأسود.. والحالات القليلة عن الجذام ليست سبب القلق، ولكن حين تزهر البكتيريا فإن الموت يصبح في عيد وتغدو الفواتير باهظة.

كانت قد انقضت أكثر من عشرين سنة على وصول عبد الله فضول إلى أرض الكاكاو حيث تحول إلى ريفي بالروح وبالأحشاء أولاً، ورسمياً بالتالي. احتفظ في عمق صندوق خشبي بوثيقة الأحوال المدنية التي منحت له من مكتب الجنسية في إيتابونا حيث يمكن قراءة مكان وتاريخ ولادة الطفل، الذكر الأبيض البشرة، الذي اكتسب في المعمودية اسم فضول. أبصر النور في مزرعة آراروام. الرجال والنساء، الفتيات والبنات الذين كانوا يأتون إلى البرازيل من النصف الآخر للكرة الأرضية كانوا يعودون ليولدوا من جديد كبرازيليين بعد جهد المعاملات الرسمية التي تتسم بالرشوة وتزوير موظفي الدولة.

إنهم برازيليون طيبون، يجب الاعتراف حتى تكتمل الحقيقة. وكاد فضول أن ينسى اليوم الظروف التي هبط معها في إيلايوس وهو لا يزال مراهقاً ليعمل. ومعه وصيته إلى مواطنه اللبناني إميليو سليم صاحب أسواق الإسكندرية حيث شقي وتعلم العمل.. ولكنه حتى الآن لم يصل إلى حيث هو مزمع عليه: وفي وطنه الريفي الجديد تأتي جذوع أشجار الكاكاو قبل النساء والرجال، وهي أغلى ثمناً.

كان السيد سيسرو مورا، قد وصل بشكل مفاجئ وكان مفروضاً به أن يكون منتقلاً من مزرعة إلى أخرى ليشتري الكاكاو لحساب كويفمان وشركائه ثم ربط بغله إلى مربط الخيل قرب الدكان ووصل إلى البار محترزاً لكي لا يوسخ أردان معطفه الذي ظلّ معطفاً جيداً بالرغم من كل ما ابتلعه من أمطار. وتعجب فضول لأن الواصل لم يسأل عن أخبار النساء ولم يرد أن يعرف أي شيء. الوجه مكفهر، لا يخفي القلق:

– إن الوضع أسود، يا صديقي فضول، وليس من أحد يريد أن يعقد صفقة، سأمكث هنا إلى أن تتوقف الأمطار عن الهطول.

تعجب فضول: لكون الانتظار في توكايا غراندي! إن الأستاذ برمانغانانو اعتاد البقاء في تاكاراس حيث يقيم أيضاً بعض من أقاربه. ولكن اللبناني لم يسأل:

ففي بار القلعة الحصينة كان فضول قد علم بسبب الأشياء و لم تعد هنالك ضرورة لإبداء الفضول أو الاهتمام، أو الظهور بمظهر المتطفل.

6

تـــوجهت كوروكا إلى قلعة الأشتانسيين على الضفة الأخرى من النهر، وبرفقتها تاسيسيو. وبينما كانت تجتاز النهر لاحظت ارتفاع المستوى الفائض مـــن منسوب مياه النهر. كان النهر ممتلئاً صاخباً، تنساب مياهه بغضب معلنة شيئاً ما. تأملت في أكوام الزهور والنباتات المتجمعة عند الصخور التي يتكون عـــندها الـــتجمع المائي عند المصب.. ولفتت نظرها زهرة زرقاء مشرئبة بين زورقين خضراوين صامدة عبر صخب المياه المتدفقة متكيفة برهافة وكبرياء. إن النهـــر صديق صدوق: كان يمنحهم الأسماك والمحار والمياه لكل الحاجات، وفيه يستحمون، ويغسلون الملابس، ويقتلون الوقت بالثرثرة والتأفف في الكلام. وفي الليالي المقمرة والليالي المظلمة على السواء، كان العشاق يستعملون النهر للحب والعناق ويغوصون في مياهه العذبة بأذرع متشابكة، ويلتجئون وسط مقاصب الخيـــزران، ودون سبب، فلماذا، تحول النهر إلى عدو، يفور بالشتائم، ويطلق الـــتهديد. هكذا فكرت كوروكا، ولكنها لم تقل شيئاً حتى لا تزيد من أحزان الرفيق الذي يتوسل إليها.

الفتى يسير مسرعاً ومتوتراً، وكان ذلك طبيعياً: إن زوجته زيفيرينا كانت قد بدأت تشكو من الطلقات الأولى، وكانت أوجاع الولادة لا تزال خفيفة ومتقطعة. وإذ أصـــيب بالذهـــول، فقد ذهب وسط الإعصار إلى كوخ الخشب عند أسفل المـــنحدرات. لم ينتظر انقشاع الغيوم المتلبدة أو بدء التجمعات المائية بتفريغ نفسها ليخرج مفتشاً عن القابلة.

لقـــد جـــاءت الساعة يا سيدة كوروكا، هيا بنا، هيا بنا، هيا بنا، كم من المرات كانت كوروكا قد أصغت إلى الأمر المتوسل توسلاً، وذهبت مستجيبة للنداء، وخرجت، تنازع هي الأخرى؟ كانت تسيطر على الخوف والعصبية، ولم تكن تـــستعيد الهـــدوء الـــضروري إلا عندما تصل إلى المكان المقصود وتبدأ عملية الولادة: هي واقفة من جهة، والموت لها بالمرصاد من جهة أخرى. وها هي تجد

المسألة أشد إقلاقاً، وخفقات قلبها أشد تسارعاً. ولم تكن الساعة قد تجاوزت الثالثة من بعد الظهر وقد تراءى للجميع أن كابوساً طويلاً بشعاً ومحزناً سيخيم فوق توكايا غراندي.

هـــيا بـــنا، وافقت كوروكا وهي تبتسم بغية تهدئة تارسيسيو؛ غطت رأسها بكيس وذهبت لتساعد في ولادة زيفيرينا.

أنين الرياح كان يهدد بحمل جسد كوروكا المتعب. وعند الجسر كان عليها أن تمـــسك بذراع رفيقها لتتماسك... مع هذه الأمطار الغزيرة لم يكن أحد يضع قـــدماً خـــارج البـــيت، ولكن هذا لا يفيد، وليس بمقدور الحامل أن تعين ساعة الولادة.

إن ولادة زيفيريـــنا سهلة، مثل ولادة هيلدا وفاوستا، ولكن ولادة إيزوا، كانـــت مشقة وتكاد تكون ضعف ولادة دينورا إيلاماً... وولدت زيفيرينا بعد التاســعة لــيلاً فأعلـــنت ليوكاديا الاسم المختار: جاسنتا، وهو اسم كوروكا الحقيقـــي التي قامت بدور القابلة في ولادة ثلاثة أطفال من العائلة الأشتانسية، ومـــن يستحق أكثر من كوروكا مثل هذا التكريم؟ جرى كل شيء بانتظام، ثم غسلت كوروكا يديها بقطعة صغيرة من صابون الكوكو، وها هو نبأ آخر عن الأشتانـــسيين، وبدأ توزيع القهوة وجرعات الكاشاسا التي جهزها غابرييل... بعد ذلك رفضت كوروكا أن يرافقها أحد في طريق العودة - وأين رأت شيئاً مـــثل هـــذا؟ وبيـــنما هي تجتاز الجسر شعرت بالقلق: المياه صاخبة، متمردة، مجتاحة، كانت قد بدأت تغطي الألواح الخشبية للجسر بشكل لا يمكن السيطرة عليه. لم تكد تصل إلى عتبة البيت حتى سمعت دوياً مقلقاً.

7

الـــتجمع المائـــي الأعلى الذي غزته الأمطار ازداد ارتفاعاً عند مصبات نهر الأفاعـــي وكـــان يتحول إلى جبل شاهق ما لبث أن انفجر. عندئذ تدفق النهر من الأعـــالي مزمجـــراً يجـــتاح في تدفقه كل ما يطالعه. عند الحدود المرسومة للضفتين ارتفعـــت المياه عن الجانبين وانقضت لتغرق توكايا غراندي.. كان مشهداً مرعباً. يتذكر اللبناني فضول.

في الغابة التي غزتها السيول فرّت الحيوانات مرتعبة تتسلق الأشجار أو تندس في داخل الأرض بنزوح امتزجت فيه الأفاعي بالزحافات البرمائية، والطيور بالقرود، والأرانب البرية بالوعول، وتحركت السلاحف بطيئة من مكان إلى آخر. كل من لم يهرب في الوقت المناسب وجد نفسه مناضلاً ضد التيار، و لم تلبث الجثث العديدة والمتنوعة أن بدأت بالظهور من الحيوانات البرية والمخلوقات الداجنة.

مع دوي الرعود المتلاحقة والسيول الهادرة دفعة واحدة، فقد استيقظ من كان نائماً. أما من كان يسهر على ضوء الشموع بانتظار الأسوأ فقد انتفض من مكانه واقفاً. واندفع الجميع إلى الأبواب الخارجية. كان النهر قد فاض متدفقاً، وكانت تجمعات المياه قد كبرت وانتشرت في كل لحظة، والاندفاعات المائية تدمر في طريقها كل شيء... وانضمت الريح إلى غضب النهر، تكسر وتشلع ليجهز الاثنان معاً على البساتين... وبدأت تلوح في القمة أطياف الذين خرجوا وبأيديهم الفوانيس التي لا تلبث أن تنطفئ. وآخرون يصيحون بتوجيهات، وغيرهم يطلبون النجدة. وتعطي أوامر من يدري ما هي: كان الإعصار يبتلع في جملة ما ابتلع الكلمات وأضواء الفوانيس. لم يكن يسمع شيء سوى الهزيم المرعب للإعصار وصخب الطوفان الشيطاني.

مرَّ رجل راكضاً، كان ذلك هو النجار لوبيسينيو الذي ذهب ليقف قرب الجسر. هل كان يفكر في أن يدعم الجسر بيديه، وأن يمنع انهياره بجسده؟ وكانت النسوة قد تدفقن من أسفل المنحدرات لا وجهة لهن، ووصل آخرون من طريق الحمير. الجميع يتجمعون في الموقع مع لغط وارتباك، وصراخ وبكاء. لم يكن أحد يعلم إلى أين يذهب، أو ماذا يفعل.

أقوى من الرعب واليأس، كان صوت العربي فضول عبد الله هو الذي استطاع وحده أن يكون أقوى من أنين الريح وصخب المياه المتدفقة. وبينما قبضتا يديه متجمعتان كان يتحدى هما السماوات.

8

البناء الأول الذي تهدم وانجرف مع لجة الماء الهائلة كان كوخ السعف القديم، تلك السَّعَف التي اهتزت بفعل الزمن، وقلعت معها في الجرف ذكرى

الأفــراح والأحزان. عندما كان هناك مناسبة للرقص، وعلى الأخص الدبكة، كان القاع الخشبي للكوخ يبدو أقوى من الأسمنت. وهناك كان فضول عبد الله يــستخدم مفردات الملاهي، وأطلق عليه بلفظ تفخيمي اسم "صالون الباليه" والمكــان أيــضاً استخدم كمنامة لرجال القوافل والمارة الذين كانوا يشعلون هنالك الخشب لشي الطرائد وتسخين القهوة. يجتمعون فيه حول أوراق اللعب محــولين إياه إلى صالة مقامرة، وكازينو مراهنات، وباحة مواجهات وعراكات عند الاقتضاء بخناجر الفولاذ... وكان المكان أيضاً ندوة للمناظرات، ومسرحاً للأغاني الشعبية والفولكلورية والأنغام الموسيقية.. واستعمل في جملة ما استعمل كاستراحة في مستشفى يؤمها المرضى في طريقهم إلى إيتابونا سعياً وراء طبيب أو صــيدلية. وكــذلك استعمل ككنيسة لمراسم الدفن حيث كان أهل الفقيد والمعــزون يجتمعون ليتذكروا أعمال الميت وصفاته الحميدة بحرية تنفحها فيهم الكاشاســا. وهــو أيــضاً أرض الغــزل حيث يلتقي العشاق وتسمع المدائح والإطــراءات وحــيث كــان المولهون يختلفون ويتفرقون، وحيث كانت تولد الأحــلام وتــتحطم... وهناك كان للعنف مكان حيث في الصراعات الدامية سالت الدماء ووقع قتلى.. وهناك سمع الجميع الإعلان الذي أطلقه فضول عبد الله بصوت عالٍ ونبرة جميلة باسم المجموعة السكانية الصغيرة التي كانت تعيش في تــوكايا غــراندي وتناضــل: في توكايا غراندي الجميع للواحد، والواحد للجمــيع، وهذا هو مبدأ المكان. ويستحق الأمر عناء تذكرها في ساعة الانهيار القدرية عندما شوهدت الحقول مهددة بالاختفاء عندما انتفض اللبناني مرة ثانية ليــتكلم باسم المجموعة التي غدت الآن أكثر عدداً... وهنالك كان عهد الحياة وانتصارها على الموت...

9

وسط السعف المبعثر والقش الطافي فوق الماء تمّ التعرف على الأشياء التي تعود إلى سيــسرو مورا: القفازات الجلدية، الشال الصلب، ربطة العنق والقميص. أين يمكــن أن يكــون المعطــف وهو قطعة ذات أهمية؟ وأين يمكن أن يكون شاري الكاكاو نفسه، المواطن المتميز، وممثل "كويفمان وشركائه"؟

10

فيما بعد انجرفت مع المياه كل ألواح القش، والأكواخ الخشبية، وأماكن الإقامة البائسة، وكذلك انجرف ما يكاد أن يكون لا شيئاً مما يمتلكونه: أوعية معدنية، وعلب صفيح حولوها لاستعمالات شتى، والأغطية القذرة التي كانوا يلتحفون بها.

لم يبقَ واقفاً غير البيت الخشبي الذي أمر النقيب ببنائه لإيواء كوروكا برناردا: العجوز والصبية. وكذلك غمرت المياه آنية النفط الأبيض، ومهد الطفل وخرق الملبوسات... وعلى دفعتين متتاليتين جرفت المياه و لم يبقَ من بايشا دوس سابوس غير الاسم.

11

عندما سمعت الدوي الهائل، سارعت كوروكا الخطو إلى البيت، ودخلت تنادي على برناردا. و لم تنتظر أن تتصرف الضيف، فتناولت الصغير وخرجت راكضة وهي ترشح ماء منحنية أمام الريح، وبينما هي تخرج، أعلمت برناردا:

– إنني ذاهبة إلى بيت النقيب وسآخذ نادينيو معي.. الحقيني بسرعة.

وأدركتها برناردا عند بداية الدرج الحجري، مرتعبة:

– ما هذا المطر يا عمتي؟ لم أرَ مثله قط..

أعادت كوروكا الطفل إلى أمه:

– ليته كان مطراً فحسب... إنه الطوفان، ألم تعلمي بذلك؟

– كنت مشغولة. إلى أين تذهبين؟

استدارت كوروكا نصف استدارة وأمسكت برناردا من ذراعها، وكانت الريح تمر بين سيقان المرأتين داوية وتجعلهما منحنيتين:

– لقد ولدت زيفيرينا منذ قليل، فأنا سأذهب لرؤيتها ورؤية الطفلة، على أن أساعد بأية طريقة أستطيع.

عند أعلى القمة كانت خيالات أجساد تتحرك. لم يخطر على بال برناردا أن تتخلى عن العجوز، وعلى العكس فقد مدّت إليها بذراعيها، وناولتها الطفل، وقبل أن تعود إلى البيت أخبرتها:

– سأترك نادينيو مع العمة زيلدا وسأوافيك إلى هناك.

– من الأفضل أن تمكثي هنا. سيكون عليك أن تقومي بأعمال عديدة.

– ربما.

وهبطت كوروكا متوازنة الدرجات غير المتناسقة بينما تابعت برناردا صعودها. ثم جاء إيدو لملاقاتها:

– هل تريدين أن أساعدك؟ أعطيني الصغير. إن أمي في انتظارك...

– لا ضرورة لذلك. وأنت؟ إلى أين تذهب؟

سأخرج الحمار لأذهب وأحضر أبي في إيتالايا الذي لا يعلم شيئاً مما يحدث.

سمعا ضجة كوخ السعف الذي انهار. وتوقفتا، وحاولتا أن تتبينا شيئاً في الظلام، بينما الريح تقص كحدِّ السكين.

– اركضي بسرعة.

تابعت برناردا بينما الطفل يبكي. عن الشرفة تبين نصف زيلدا الأعلى، فقد ركضت إلى برناردا ومدّت بيديها لتناول الطفل:

– أعطني ابني.

فقط عندما التجأت إلى بيت عرّابيها، أحست برناردا بالخوف: لم يكن الخوف من الطوفان، أو من الموت. كان خوفاً من ذاك: لقد كان خوفاً من تنكرات الحياة للإنسان. كانت كوروكا قد حذرتها: عندما تأتي عاهرة بطفل إلى هذا العالم، فإن أحدهما يجب أن يهيئ نفسه للعذاب. فأما عذاب الابن في وقاحة حياة المباغي، وإما عذاب الأم الموزعة بين الاثنين، وقلبها خارج صدرها.

12

الأحداث، الكبيرة والصغيرة، والأخيرة ليست أقل أهمية، كانت أحداثاً متنوعة في الوقت نفسه، وبنفس السرعة التي لا تصدق والتي معها كانت المياه تتجمع وتتراكم لتغطي الوادي برمته وأسفل المرتفعات، بحر، ربما يكون تشبيهاً غير ملائم – قال العجوز جيرينو الذي لم ير البحر أبداً ولكنه يعرفه واسع الامتداد..

وبينما هم يتخلون عن منازلهم تحت وطأة غضب النهر المتفجِّر، فإن السكان انتبهوا إلى أنهم يسيرون في الماء حتى ركبهم، ولكنهم لم يعطوا الفرصة للتعجب

لأن المياه استمرت في الصعود إلى أن بلغت الظهور وتجاوزت البطون ووصلت إلى صدور طوال القامات وأعناق القصار منهم. وأخذ الناس يصعدون متبينين الدرجات التي يمكن أن تقودهم إلى بيت النقيب.

ليلة كابوس بدأ بالتخريب وكاد أن يجهز على كل شيء. بالرغم من العذابات القاسية كان ممكناً إعطاء الأوامر باتخاذ التدابير عندما كان الطوفان لا يزال دون مستوى الرجال المكتملين. الفتيات كن يذهبن من محل الحدادة إلى دكان فضول يطلقن صرخات وولولات لا معنى لها، ويستنجدن بكاستور وفضول. ومن بعضهن الأكثر ارتعاباً كانت تخرج صرخات هستيرية تعلن عن نهاية العالم. الأكواخ والتخشيبات انجرفت مع السيول شبيهة بفواكه مهترئة وقعت من أشجارها. ولم يبقَ واقفاً إلا الدور القديمة المبنية بالحجر والطين التي غزتها المياه التي كانت تدخل ثم تخرج من الأبواب والنوافذ وقد طردت المقيمين فيها.

الذين لم يعرفوا الخوف إلا قليلاً، من الشجعان والقبضايات المعتادين على التعايش مع الحيوانات المفترسة والأفاعي السامة وتحدي الموت في الطرقات والمكائن، من مستزلمين وحملة بنادق، وجدوا أنفسهم فجأة مهددين بقوى فوقية خارقة. المياه الثائرة تهدم البيوت، وتغرق الحيوانات، والرياح تقتلع الأشجار وتنثرها في الأعالي - ولم يكونوا يعرفون كيف يواجهون تلك القوى، وأحسوا بأنفسهم مجردين من الأسلحة لا حول لهم ولا قوة. إن الأسلحة النارية، من مسدسات، وبنادق وغدارات، والسلاح الأبيض والخناجر والسكاكين الحادة لم تكن لتحل شيئاً، وكان الأمر يستدعي وجود شجاعة من نوع آخر.

كانوا قد أحاطوا بفضول لا يعرفون ما يفعلون، لم يكن ينقص عمل شيء إذا كانوا يريدون مواجهة الوضع وتحديد النتائج. يكفي أن ينظروا حولهم مرافقين حركة اللبناني الآمرة، ويداه ممدودتان. إن فضول لم يتردد، كان قد انتهى من الإفصاح إلى الله بالحقائق الأخيرة، وأصبح جاهزاً لكل ما يحدث أو يجيء به القدر.. وليكن ما يكون.

ابتدأ فضول بإعادة الثقة إلى دورفالينيو الذي كاد أن يفقد عقله عندما شاهد ملابس السيد سيسرو مورا طافية فوق المياه. امتقع لونه وراح يرتجف. جحظت عيناه وهو يشير إلى القميص وزوج الأحذية، وبدأ يصيح كأنه مولود جديد ويبدي

دلائل الذهول كما لو أن فضول لا تكفيه العاهرات. واستعجل فضول وضع نهاية للمـــثل السيئ قبل أن يبدأ الآخرون بتقليده ويصبح اللغط عاماً. و لم يضع فضول الـــوقت بالخطب والنصائح، والتجأ إلى العلاج الناجح: ألقى بكف يده عند أسفل أذن الذي أصبح يعلم ما في الأمر، صفعة واحدة كانت كافية:

– تحمل يا جبان.

جـــاءت الصفعة طلقة وثقباً. وتحمل دورفالينيو العلامات: وهو إن لم يستعد الهدوء فقد ابتلع الارتعاب وبدأ العمل في اللحظة نفسها. جبان ورعديد هي كلمة غـــير مناسبة، لقد كان ارتعاباً وشعوراً سيئاً للغاية. وظلّ من وقت لآخر يرتجف، ويفـــتح فمـــه كمـــن يريد أن يقول شيئاً، لكنه لا يلبث أن يبتلعه محتفظاً لنفسه بالأشياء... إن ما كان عليه سيده في تلك المناسبة لا يسمح بمناقشة الأوامر.

وبغـــية استعادة الهدوء ومنع انتشار الفوضى، أضاف فضول لكل واحد، في الحـــال، مـــسؤوليات محددة للمواجهة والقيام بعمل ما. إن على كاستور أبدووين وباســـتياو أن يهـــتما بسكان الضفة الأخرى، لكونهما أقارب السرجيبيين برباط المصاحبة.

13

لم يلـــبث منـــزل النقيب أن امتلأ بالناس وهناك حتى الأكثر شجاعة أحسوا بنفوســـهم في أمان إزاء كل شيء، وإزاء الجميع، بما في ذلك قوى الطبيعة التي لا يمكن مواجهتها، حتى إنهم أحسوا بأنفسهم بمنجاة من غضب الله وعقابه. كل ذلك لأنهم وجدوا أنفسهم في بيت يقع عند أعلى الهضبة ولكونهم أصبحوا محسوبين على ناتاريو دا فونسيكا.

إلى هناك نقلوا المواليد الجدد والنساء الحوامل، بالإضافة إلى فتاة نالت منها الحمى، تدعى ألزيرا، لم يكن بمقدورها أن تمشي فتم نقلها على ظهر بالينو. في غرفة الجلوس كان نادينيو طفل برناردا يقوم بخطواته الأولى ولا يستطيع المحافظة علـــى الـــتوازن وكان أبناء النقيب يحيطون به ويمسكونه مقهقهين بالضحك. وجـــاءت برناردا للمساعدة وفي عينيها المنظر المقلق الناتج عن ذلك الفرح غير المكترث بشيء.

وكـذلك ديفا، بعدما وضعت طفلتها في عهدة زيلدا اجتازت الحقول حيث غمـرتها المياه حتى وسطها وأرادت بذلك أن تصل إلى أهلها على الضفة الثانية من النهر، مواجهة الفيضان، غير مطيعة لتيساو الذي قال لها:

– ابقي مع الطفل. سأقوم أنا بالذهاب إلى هناك.

الصغار على الفراش الزوجي، المريضة في شبكة إيدو، النساء يبكين، الرجال صـامتون، متهيـبون، ووسط تلك المعمعة فكرت زيلدا في ما يمكن أن يخفف من الخوف السائد ويعطي بعض الثقة إلى الضعفاء والمرتعبين الذين التجأوا إلى هناك.. والقـيام بالصلاة كما اقترحت ناتيلدا لا يفيد، فذلك سيزيد من اللغط والصخب السائد... وتقدمت زيلدا إلى الغراموفون وضبطت الأسطوانة، فانطلقت الموسيقى التي امتدت وارتفعت طاغية على أصوات المتضرعين والطوفان والإعصار الشديد.

14

إذ تغلـبت علـى قلق الصدمة الأولى، فقد أبدت الناس الشجاعة مستجيبة لـنداءات الاستغاثة فكان التعاون طيباً. في الدكان، بغية المحافظة على البضاعة ومدّ يـد المساعدة لفضول ودورفالينيو، وضعوا المواد على أعلى رفوف الواجهات، أما في الممـر الضيق وبينما يدفعون بالبضاعة المكيّسة ليركنوها في أماكن جانبية كانوا يرافقون العملية حريصين على ألا تأتي مساعدتهم بلا جدوى إذا امتدت يد سارق إلـيها. وقـد أتاهم الحظ لقلة مشاغل ذلك اليوم المقتصرة على بقرة وعجل يجب حـدوهما إلى المجزرة، إذ إن العقيد روبستيانو كان قد قدّم موعد التسليم في إيتابونا بعـد أن أشـار هـناك إلى أنه سيجهز إيتابونا بأفضل ما لديه في القطيع. أما في مـستودع الكاكـاو فإن الحمولة المكدسة كانت تنتظر وصول القوافل التي تأخر مجيئها من شركة كويفمان وشركاه.

عشرات من أكياس الكاكاو تراكمت في المكان بواسطة المتطوعين المتكاتفين مـن رجـال ونساء – والنساء كنّ قد توقفن عن النحيب وبدأن يستأنسن بآلية العمـل الـذي يقمن به. تمكن جيراو وزملاؤه الذين يحرسون المستودع من القيام بأعمال عديدة غير الموكولة إليهم لحراسة مستودع الكاكاو.. فقد أسرعوا في جمع الكاكـاو لينقوا الجاف منه ويبعدوه عن الماء، وبالرغم من ذلك فقد طالت المياه جزءاً

منه، وبذلك غدا الكاكاو العالي الجودة نوعاً جيداً أو عادياً. وبقي ما يجب تحديده فـيمن يكـون المسؤول عن العواقب، العقيد روبستيانو أو الشركة المصدّرة. ففي إيلايـوس قـام المزارع بتحذير كورت كويفمن كبير مسؤولي الشركة: انطلقوا بـسرعة لاسـتلام المحـصول لأن كل احتمالات المخاطر واردة في وادي توكايا غـراندي. إن الأمطـار هناك بدأت تؤثر في أزهار الشجيرات الصغيرة، وكذلك الكاكـاو الجـاف في المستودع ليس بمنأى عن الخطر إذا حدث لنهر كاشويرا ما حدث لنهر الأفاعي من ارتفاع لمنسوب المياه إلى حد الفيضان من جانبيه.

وبغية لفت الأنظار إليه فإن بيدرو سيغانو جعل من استعادة القارب مهمته، وهذا أمر غاية في الأهمية. كان الزورق راسياً عند الضفة الأخرى من النهر، ومن الطبيعي أن يـتولى المهمة السرجيبيون المقيمون هناك. ولكن الصنفور لا يريد أن يسمع الأسباب التي منعت السرجيبيين عن القيام بالعمل، فجدّ بنفسه متجهاً إلى حيث الزورق. وكاد دورفالينـيو — أمين الصندوق — أن يلتحق به ويتلقى صفعة أخرى على وجهه لو لم "يقـصّ فـضول عـبد الله جناحيه" عندما حاول مخدومه التقدم ليرافق بيدرو سيغانو ويثـبت أنه هو الآخر فريد من نوعه، إذ ما لبث أن أمسك نفسه عن الانطلاق عندما وقعت نظرات فضول عليه فعاد دورفالينيو يتلقى الأوامر وينفّذها.

وهـناك توفـرت الصلوات والنذور: الخياطة ناتاليا، بغية الوصول إلى بيت النقـيب لتلتجـئ هناك، أخذت بصعود المراقي الصعبة مجتازةً السفح وقد وضعت فـوق رأسـها ماكينة الخياطة "السنجر" التي تقيها غائلة الجوع وتوفر لها خبزها اليومـي، وقـد وعدت في السر والعلن بالإيفاء بنذورها إلى القديسة مريم شفيعة البائسين. ثم انطلقت تنشد ترتيلة لم تنل، في الحقيقة، إعجاب من كانوا يسمعونها. ومـثلها فعلت ميرينسيا التي استنجدت بالقديسين ملتمسة منهم الغفران والرحمة. هـذا دون الأخذ بالحسبان توسل العاهرات، فأُولئك، برأي الخياطة وميرينسيا، لا يصل التماسهن الرحمة إلى السماوات لكثرة الخطايا المميتة التي ارتكبنها، ويجب أن يمـتن غـرقاً في مياه النهر العارمة ومعهن تخشيبات الدعارة حيث يمارسن المهنة، والقش الذي صُنع منه الفرش والسقوف.

إن ميرينـسيا الـتي تخاف الله، وتبارك اسمه في الأعالي، تلقت في الحال تلبية لتـضرعاتها. فقد شاعدت عنـزاً لها أضاعته فهرعت إليه وشدته من رقبته السمينة

بمشهد أثار ضحك الموجودين بينما كانت تجتاز بالعنز طريق الطين لتضعه على مقربة من حظيرة هناك. أحل في تلك الليلة من الحدث الكبير، ضمن حدود توكايا غراندي تمكن الجميع من معاينة جانب من كل شيء من الأشياء إذ كانت هناك دوافع للدهشة والضحك، وأخرى للدموع واليأس.

15

استجمع دودو بيروبا قواه على أحسن ما تكون عليه الرجولة من شكل، وانتفض مسرعاً لمساعدة ريكاردينيا عندما سمع انفلاق النهر، كأنما ذلك الانفلاق طلقة مدفع تصمّ الآذان، وصخب مروع هائل كأنه نغم الموت. خلع الدوي الهائل باب مستودع الطحين وغطى الجسدين المتعانقين ورماهما أرضاً. استطاع دودو أن يقف على رجليه ويساعد المرتعبة ريكاردينيا على الوقوف. وخرج ليرى المشهد فأمسكت به محاولة منعه عن الخروج وإبقاءه في مأمن، ولكنه رفض ذلك حازماً بطريقة تعبير غامضة من حركة قام بها. واجه الإعصار وهو لا يعلم بالفيضان بينما تفكيره كان يتركز على العصافير المسجونة في الأقفاص المعلقة في محل الحلاقة.

كان قد وصل متأخراً، فمحل الحلاقة لم يعد له وجود وأقفاص العصافير انجرفت مع المياه المتدفقة. وكي لا يكون كل شيء مدعاة للأسى والحزن ورغبة في التخفيف من دموع مربي العصافير، فإن غيدو استطاع أن يستعيد كرسي الحلاقة منتشلاً إياه من وسط السيول بينما كان دودو قد أمسك بعصفور مبلل بالماء الذي دخل عينيه وجعلهما مغمضتين. ثم وضع دودو العصفور داخل قميصه، قرب الصدر، عسى أن ينال الأخير بعض الدفء. وعند هذا الحد أبدى اهتماماً بالكرسي، الشيء الوحيد الذي بقي له، ولم يعثر على أية بقايا من الملابس والأدوات... لقد تأخر كثيراً في الوصول.

16

هبط تيساو أبدووين وباستياو دا روزا من بيت النقيب حيث تركا النساء والأطفال بصحبة ماريا روزا ابنة عامل الصناديق التي بفعل الماء بدأت تبدو كزوارق صغيرة في مواجهة العواصف.

قــرب الجــسر كان النجار لوبيسينيو يضع جذعاً ليدعم الجسر، بينما يحاول زينـــيو أن يحرك الجذع عبثاً. ووقف الاثنان في حراسة الجسر. أما باستياو دا روزا الـــذي كـــان قد عمل مع إيدو ولوبيسينيو في ذلك البناء الصعب للجسر فقد بدأ بالتبجح:

– هذا هو العمل الذي ترفع له القبعة. فلتعش يا عرّاب لوبيسينيو.

– لقد كان الجسر إحدى مفاخر توكايا غراندي.

– إنه لا يزال صامداً حتى الآن. ترى ما سيحدث. إلى أين تذهبان؟

– لنرى كيف يتدبر السكان في الضفة الأخرى أمورهم. لماذا لا تأتيان معنا؟ ربما نحتاج إليكما.

– هيا بنا – أصرّ الشاب – ماذا يفيدنا أن نبقى هنا؟

– لا يفيدنا الأمر بشيء. أعرف ذلك. ولكن شيئاً كهذا بنيناه بالجهد والمتعة هو شيء كالابن تماماً. إذا تعرض لخطر فإننا سنكون قربه. اذهب أنت معهما.

– لا. لن أذهب، سأبقى معك.

الــشخص الأول الــذي لمحــوه في بيت الطحين كان كوروكا بين ذراعيها المولــودة الجديــدة الــتي ولدت قبل ساعات، وأعطوها اسم جاسنتا.. الآخرون يتمــرغون على الأرض: ومن المولودين الجدد. توأما دينورا، وأبناء هيلدا وفاوستا، وكـــان ينقص ابن إيزورا. ومع الموجودين بعض الرجال، بينما الآخرون كانوا قد مضوا تفتيشاً عن الزورق.

شــباب وفتــيات تحتويهم الآلام، عالم من النساء الصامتات. المحيط غامض وكئيب، فحاول باستياو دا روزا أن يضع فيه بعض الحياة:

– طفلة محشية بالزلابية.

مـــا عـــدا اثنتين أو ثلاث من الفتيات، فقط السيدة ليوكاديا الجالسة خلف الجاروش وفخذاها مبتلان بالماء، ضحكت لمزحة النجار، ولكن إمبروزيو لم يجد في ذلك ما يضحك، فاستنكر:

– سيمــضي وقت طويل دون أن نأكل الزلابية ودون أن نطحن القمح... لقد أتلف المحصول وجرف النهر الشجر وأضعنا كل ما كنا نملك... تقدمت السيدة فانجي باتجاه زوجها، ودون أن تنبس بكلمة أقفلت فمه المتذمر. ماذا تفيد الشكوى؟

– صـــحيح يا عم. لقد جرف النهر الشجر والحقول والحيوانات، ولكنه لم يجرف كل شيء. إن الأرض لا تزال هنا، وستزرعها من جديد إن شاء الله.

وقال أمانسيو وهو أحد الأشتانسيين:

– يبدو أن الله لا يشاء. لو توقف الأمر عليه...

– أقفـــل فمك – قالت السيدة ليوكاديا – لا تعرف ما تقول. إنني أؤيدك يا ســـيدة فانجـــي نحن لا نـــزال أحياء و لم يأخذ أحد الأرض منا. اطلب من الله أن يمنحك الصحة.

– الـــصحة وبعض الشمس... مازح باستياو من جديد: هل تتذكرين الوعد الـــذي قطعته لك يا عمة فانجي؟ إن أول بيت سأقيمه هنا سيكون بيتك أنت. لا تظني أنني نسيت.

17

كانوا يتحركون بجهد داخل بيت الطحين. وطلب تيساو أنباء عن التاميراندو وزوجـــته وابنتهما، وعلم أن الزوجين ظلا في المرج مهتمين بإنقاذ الحيوانات. لقد جـــرف الطوفان الحظيرة وقن الدجاج. و لم تنته المحادثة لأن الرجال الذين كانوا قد خرجوا تفتيشاً عن الزورق عادوا يحملون أنباء سيئة.

كمـــا هو متوقع لم يعثروا على أي دليل على الزورق. كانوا قد تركوه راسياً عـــند أسفل تجمع المياه في مكان لا صخور فيه ويتسع هناك أو يصبح أكثر عمقاً. كـــيف يمكن التخيل أن رسوه هناك لا يزال يجعله تحت تصرف أصحابه؟ لقد غدا النهر السيد والمالك الوحيد غير المنازع، ووحده يأمر وينهي. لا يستحق الأمر عناء الذهاب، قال إمبروزيو. مع أولئك قد وصل بيدرو سيغانو وقد التقوا به عند جذع شجرة الجوافة: ممتقع الوجه متجهماً، ويتكلم وحده.

لم يفسح الزنجي كاستور المجال للبدء بمناقشة مسألة الزورق:

– هـــيا بـــنا مـــا دام الجسر لا يزال صامداً، وقبل أن يتخلى عن دعاماته.

وتقدمت كوروكا المسيرة وهي ترفع الطفلة ليشاهدها البناء وحادي الحمير:

– لا أجمل منها.

نـــزعت سترها ولفت بها الطفلة: خيط الحياة، وباب الأمل.

18

نظـــر التاميراندو الحائر المتنقل من مكان لآخر، وسط المياه التي تزداد وتعلو، وهـــو يسأل عن ابنته - هل رأيتموها؟ أين؟ مع من؟ ماذا تفعل؟ سبب لدورفالينيو انفعالاً كاد يعرضه من جديد لغضب فضول عبد الله: سيده الذي يحترمه، ويطيعه ويخافه:

- يا سيد فضول، لا تأخذ الأمر على مأخذ اللوم ولكن عليَّ أن أذهب..
- تذهب إلى أين، حباً بالله؟ هل ترى قليلاً..
- لقد رأيت بعيني..
- أيها اللعين، ألا ترى أن الوقت ليس مناسباً للتوهم؟
- اقسم بروح أمي أني رأيت الاثنين، ساو والسيد سيسرو على متن الزورق، والسيد بيدرو سيغانو رآهما أيضاً.
- حين أردت أن أقول فإنك لم ترد أن تسمع.

لم يتمكـــنا من الوصول إلى جذع شجرة الجوافة حيث كان الزورق راسياً، ومـــا كادا يحصلان على أخبار ساو وسيسرو مورا حتى بدأت تواجههما متاعب جديـــدة. لقـــد علم الجميع باختفاء الزورق من السرجيبيين الذين أكد لهم بيدرو ســـيغانو أنه رأى ليلاً الغريقين متوجهين إلى مرسى الزوارق. بعد ذلك لم يعد يعلم عنهما شيئاً.. وسيغانو عندما سمع اندفاع الطوفان للمرة الأولى لم يعلم ما إذا كان الطوفان قد جرفهما؟

وســـط الطـــرفين بين الجسر وبيت الطحين التقى اللبناني وخادمه دورفالينيو بمجمـــوعة الـــسرجيبيين. بالرغم من كل شيء كانت المجموعة تسير ببطء اهتماماً بالمولود الجديد، والأطفال بين تحذيرات واحترازات، عجائز وشباب، رجال ونساء ومجمـــوعة أطفـــال غـــير مطيعة، ما عدا الذين كانوا قد أتوا من الضفة الأولى - كـــوروكا، كاستور، باستياو، وبيدرو سيغانو. وخطرت للعربي خاطرة جاءته من أبعد أبعاد ذاكرته: عندما كان طفلاً كان قد شاهد قوافل آتية من الصحراء وتحمل البؤس والشقاء.. تلك القوافل مختلفة عما يراه الآن ولكنها متساوية.

فقـــط عندما عاد مع العائدين أدرك فضول حجم الكارثة. لم يكن قد تفرغ مـــن قبل لمواجهة مثل هذه الأمور: لقد أتى الطوفان على الزرع والضرع والبيوت

وابـــتلع توكايا غراندي. على ضفتي النهر لم يعد غير البؤس والشقاء. وكل ذلك حـــدث ما إن استقر وبدأ يجني ثمرة أتعابه وإصراره على البقاء. ها هو إله الموازنة الـــصالح يضع إيمان فضول من جديد على محك التجربة. إله صالح؟ فلتقضِ الأشعة على روحه إلى الأبد؛ إنه إله الدماء والأحزان. إله بلا رحمة، مخرب وجلاد.

19

لـــن يفيد بشيء أن يلاحقوا مصير جثتي ساو وسيسرو مورا: لم يعد الزورق صالحاً كنقطة تحديد للموضع الذي غرقا فيه واقترح تيساو تنظيم حملة تفتيشاً عن المفقـــودين بعد أن يكونوا قد أوصلوا النساء والأطفال إلى بيت النقيب. من يدري مـــا عـــدا الغريقين يمكن أن يكون هناك غرقى آخرون: مع المقيمين الكثيرين في تـــوكايا غـــراندي، من يستطيع أن يؤكد أن جميعهم سالمون؟ سيجمعون الرجال المتفـــرغين لـــبدء الحملـــة - لـــست رجلاً ولكن ضعني على قائمة الرجال قالت كوروكا، - ولكن باستياو شك بالفكرة غير العملية:

- مـــا دامت المياه مستمرة بالارتفاع فليس بمقدورنا عمل شيء... بعد قليل لن يمكن المشي.. من الآن فصاعداً سيسوء الأمر كثيراً.

لم يكـــد يتكهن بذلك حتى طلع زينيو كالطيف طالباً النجدة. لقد اقتلع النهر ألواح الجسر العليا.. وإذ كانت قد ثارت ثائرته، فإن لوبيسينيو كان يتكلم عن قتل نفـــسه إذا تمكّن الطوفان من تدمير التحفة التي أنجزها هو ومساعدوه بعرق الجبين، والكفاءة، والنـــزق الإبداعي.

كـــان الفيضان يزداد حجماً وعنفاً. وسارع تيساو متقدماً من الجسر ليحدد مبلغ الأعطال. رفع فضول بيديه القوتين السيدة ليوكاديا التي غدت جلداً وعظاماً مع رغبة ملحة في الحياة، ووضعها على كتفيه وجعل رجليها تتدليان على صدره:

- هـــل أنـــت مرتاحة يا عمة؟ - تكلم فضول في البدء إلى العجوز، ثم وجّه الكلام للآخرين؟ - يجب أن نختار وأياً تكن الطريقة. لا يستطيع أحد أن يبقى هنا: إنه الموت المؤكد.

لم يكـــن سهلاً الاجتياز ولكنهم تمكنوا من العبور. كان الزنجي قد غطس في المـــاء تحـــت الجـــسر ليؤكد أن النهر قد جرف الألواح الخشبية فقط. أما الدعائم

الأساسية فظلت تقاوم، ثم نظموا جسراً بشرياً: على كل جذع من الجذوع الاثني عشر التي كانت قد ثبتت عليها الألواح الخشبية التي جرفها الماء وقف الرجل ثابت القدم وأخذ الأطفال ينتقلون من يد إلى يد حتى تمّ العبور. أما الطفلة المولودة حديثاً، جاسنتا فإن كوروكا، فلم توكل بها إلى أحد: وبينما هي تمر من جذع إلى جذع متوازنة تمكنت من الوصول بها إلى الضفة الأخرى. وهكذا عبر الرجال والنساء.

عند الضفة الأخرى، أنزل فضول السيدة ليوكاديا عن كتفيه قبل أن يذهب لمساعدة الحوامل في اجتياز الدرجات المؤدية إلى بيت النقيب. وسأل عن داس دورس. تبادل فضول وتيساو النظرات دون كلام واتجها من جديد إلى الضفة الأخرى من النهر، من حيث وصلا الآن.

20

لشدة ارتباكهما، فإن اللبناني والزنجي لم يسمعا صراخ ديفا الضائعة في زئير الفيضان.. صرخات مرتفعة وتنهدات متلاحقة: كانت ديفا قد حملت بين ذراعيها الكلبة أوفيريسيدا التي غرقت وهي تحاول مرافقة صاحبتها.

كانت ديفا قد جرت نفسها عبر الماء بغية اجتياز النهر لتساعد عائلتها عند الضفة الأخرى غير قادرة على انتظار وصول الأخبار. و لم تلاحظ أن الكلبة لحقت بها منذ غادرت بيت النقيب. فقط لاحظت ذلك عندما بلغت الضفة الأخرى وراحت تجيل نظرها في النواحي وجاءت ملاحظتها متأخرة. إن السيول سحبت الكلبة أوفريسيدا إلى أن بلغت مهبط المياه وألقتها محطمة على الصخور السفلى. ولاحظت ديفا الدم يمتزج بالسيول قبل أن تشاهد الجسم: أبعد بقليل من مهبط المياه. وتمكنت ديفا من المجيء بالكلبة الميتة. كانت ديفا تجيد السباحة كسمكة! الوقوع على الصخر شجّ رأس الكلبة أوفريسيدا. و لم تسمح ديفا بأن يجرف النهر الكلبة ويرميها جيفة مع سائر الحيوانات التي ابتلعها. وعندما عاد تيساو حفروا للكلبة حفرة عند الهضبة قرب المقبرة ودفنوها هناك، يساعدها في ذلك مجموعة من الأولاد.. أما الكلب ألما بينادا فإنه ظلّ خلال ساعات يئن فوق الحجارة التي أشير بها إلى قبر أوفريسيدا.

21

تمّ العـــثور علـــى جثتي ساو وسيسرو مورا عند أسفل مجرى النهر وقد علقتا بأكـــوام مـــن المجـــروفات المتجمعة عند ممرات صخرية عالية. من عثر عليهما هو النقـــيب ناتاريو دا فونسيكا مساء، عندما كان قد استعجل الرجوع نـــزولاً عند طلب زوجته زيلدا.

في مـــزرعة أتالايا، كان على إيدو أن يجتاز الحقول المزروعة بأغراس الكاكاو مفتشاً عن ناتاريو الذي كان يرافق العقيد بوافنتورا أندرادي في عملية مراقبة دقيقة لأشـــجار الكاكـــاو الجديـــدة: كانت براعم الكاكاو قد عانت الكثير من شدة الأمطـــار. وطال الخطر، وبينما الوجهان مقطبان فإن النقيب والعقيد استنكرا سوء الطقس، وتكهنا بنتائج فادحة الخطب.

– الـــبركة يـــا حـــضرة العقيد، البركة يا أبي. لقد أرسلتني أمي لأبلغك بأن الفيضان قد قضى على توكايا غراندي؛ إن المشهد يثير الهلع.

– عـــن إذنـــك يا حضرة العقيد. يجب أن أذهب إلى هناك لأرى؛ غداً، وفي أقصى الحالات، بعد غد، سأكون هنا.

إن المـــشهد يثير الهلع حقاً، كما أعلن إيدو ويقطع نياط القلب... مع بداية تقلص الأمطار استقر ارتفاع الماء ولكن النهر كان لا يزال يفيض بلا رحمة وينتشر في الغابة. النقيب، قبل أن يصل إلى مقر إقامته في أعلى الهضبة، طاف الوادي من ركن إلى ركـــن، بيـــنما بغلته السوداء طامسة في الطين. وظلّ ممتطياً وهو يطوف النواحي السكنية التي التجأ إليها قسم من السكان، فتوقف للحديث والإصغاء إلى الأنباء وسماع الإجهاشـــات بالبكاء متوجهاً إلى كل واحدة باسمها مباركاً الفتيان. لم يقل إن الفيضان كـــان كارثة أو أن نهاية العالم قد أتت. لقد فضل أن يصغي إلى اقتراحات عن كيفية التـــصرف بعـــدما يـــتوقف الطوفان: إن الأسوأ قد حصل. وظلّ منتبهاً إلى الآراء والاقتراحات، وكاد يبدأ بمناقشة مشاريع إعادة الإعمار والاستصلاح.

– هل فكرت أين ستقيم مكان صناعة العجلات الخشبية يا صديقي إيلوي؟ وأنت يا سيد إمبروزيو هل ستزيد عدد الأغراس؟ كانوا يتمعنون في التفاصيل وأخذ القرارات: إنه الوقت لإقامة نـــزل للفتيات في توكايا غراندي، ألا تعتقدين بهذا يا ريسو؟ كانت تعتقد بذلك.

استدعى المتطوعين لانتشال جثتي ساو وسيسرو مورا، واستجلى أمر التاميراندو. علم أن السرجيبي قد عاد إلى الضفة الأخرى من النهر وجاء معه بقطعة من اللحم المجفّف وزجاجة كاشاسا. وفي الدكان قال النقيب للبناني فضول:

– سأطلع التاميراندو وزوجته داس دورس على النبأ.

– هل تريد أن أرافقك يا حضرة النقيب؟ – عرض فضول نفسه – إن المهمة صعبة والعبء ثقيل والتاميراندو لن يتلقى النبأ بسهولة.

من الأفضل أن تبقى هنا وأن تهتم بالدفن.

ليلاً، دخل ناتاريو إلى بيته وحيا الموجودين الذين أحاطوا به من كل الجهات. ووضعت زوجته زيلدا ابن برناردا على عنقه:

– سآخذه لأربيه...

أطرق النقيب برأسه، يرسم السبعة ولاحظ أن البيت كله يضج بأولاد الذين ولدتهم زيلدا أو تبنتهم، وجميعهم ذوو ملامح واحدة، ودم هندي قوي: البركة يا أبي.

22

وضع التاميراندو وزوجته داس دورس جثة ابنتهما الصغيرة في الشبكة. النقيب ناتاريو واللبناني فضول رفعا جثة سيسرو مورا وهو لا يزال ينتعل جزمته ويرتدي معطفه وعيناه مفتوحتان جامدتان. وفي مواكبة الجميع إلى المثوى الأخير لم يتخلف أحد من سكان توكايا غراندي، وهناك لغز من يستطيع أن يفكه: من الذي تمكن من أن يقطف عند نهاية المهابط المائية الزهرة الزرقاء السماوية ويضعها بين أصابع ساو؟

كانت المقبرة تقع عند منقلب سفح جعلها أقوى من الطوفان فظلت صامدة. وبين القبور كانت قد نبتت أشجار الموز، والجوافة، والبيتانغا، ذات الألوان الفرحة الغنية بالرائحة الطيبة. وبينما تنتقل من قبر إلى قبر تستطيع أن ترصد تاريخ توكايا غراندي كاملاً، منذ البداية الأسطورية وحتى اجتياح الطوفان الذي لا يزال متدفقاً.

23

دام الطـــوفان أكثـــر من ثلاثين ساعة من النـــزاع، وإلى أن أخذت الأمطار تـــنقطع في اللـــيلة التالـــية وبـــدأت المياه بالانخفاض عائدة ببطء إلى مجرى النهر، وأشرقت شمس حادة لتضيء أرض الوحل، بدت الكارثة كلية، شاملة، قذرة.

على الضفتين الخراب والتخلي: تشلعت الأغراس وانتلف معظم الزرع وقضي علـــى الـــضرع. في الحـــي السكني ظلت واقفة البيوت المبنية بالحجارة والطين، ومـــستودع الكاكاو، والإسطبل ومحل الحدادة، ودكان اللبناني، ومقر إقامة النقيب عند أعلى الهضبة. ولم يبقَ عند أسفل المنحدر كوخ الخشب الذي يؤوي كوروكا وبرناردا.

المـــزارع الكبيرة، وعلى الأخص الموجودة قرب النهر، لحق بها الأذى الأكبر مـــن الطـــوفان، ولكنه على كل حال أذى أقل مما كان متوقعاً. كما لو أن النهر المـــستمر في مهمـــته التقليدية قد فضل العنف في تدمير مساكن الرجال ووفره في اجتياح حقول الكاكاو.

بعـــد عدة أيام، وإذ سافر إلى إيلايوس حيث أفرطت السيدة أرنستينا بالوعود وإقامة القداديس وهي تستنجد بأرواح عليمة بالأحوال الجوية، فإن العقيد بوافنتورا أندرادي يرافقه النقيب ناتاريو دا فونسيكا والزنجي إشبيريداو، مرَّ بتوكايا غراندي حـــيث الناس لا يزالون يلملمون بقايا حاجاتهم. وبينما كان يهز رأسه، فإن العقيد تأسف بمرارة:

– العـــرّابة علـــى حق حين قالت إن كل شيء قد انتهى، ودفعة واحدة. لن تعود توكايا غراندي أبداً إلى ما كانت عليه.

كـــان العقـــيد قد قال ذلك أمام النقيب وفضول وكاستور وعند خشبة البار حيث كان قد انضم إليهم بيدرو سيغانو. فمرّت على شفتي النقيب تلك الابتسامة الرفيعة، ورفع صوته:

– عـــن إذنـــك يا حضرة العقيد؛ اسمح لي أن أقول لك إنك في المرة القادمة سترى توكايا غراندي ضعفي ما كانت عليه. لست الوحيد الذي يقول هذا. اسأل فضول وتيساو واسأل أي واحد تجده مقيماً هنا.

ونظر عبر الباب إلى المشهد الذي عاد جميلاً تحت وهج شمس الصيف:

- لا أعرف أحداً قد تخلى عن توكايا غراندي بسبب الطوفان. حتى الفتيات المـــتعودات علـــى التنقل اللواتي لا يقمن أبداً في مكان واحد! فقط تسمع عن بناء بـــيت، لا تجـــرفه المياه. لا بدّ من أن تعود معي يوماً إلى هنا وسوف ترى توكايا غراندي وتتعجب.

في يوم الاحتفال بافتتاح المستودع الكبير، الوباء يصل إلى هناك ويقيم

1

لــو كــان بيدرو سيغانو غجرياً حقيقياً، أمة ودماً، لتحول إلى مادة إيمان بما تعــودت بعــض فتيات الهوى أن يعطينه قوة خارقة حين يصفن مرات الوصول، المــرحلية، للمــتجول المذكــور في توكايا غراندي. ولكن كونه غجرياً باللقب، حــسب فــإن الفتيات كن يرجعن معرفته المسبقة بالأحداث والتواريخ إلى حكمة غامضة و لم يكن أحد يعترف بالصدفة العادية.

لقد تكهنت بالاحتفال. أليس كذلك يا عزيزي؟ - تعجبت أتاليا التي ذهلت عــندما رأتــه يجتاز عتبة الباب في نــزل تورا - باو - دي - لو: كيف عرفت بالاحتفال؟

- لقــد حــطّ عصفور على كتفي وزقزق في أذني. ألا تدرين أن العصافير تخصني؟ إنها تخبرني بكل شيء.

كــان اخــتفاؤه قد طال لشهور عديدة وكانت الأخبار التي يأتي بها رجال القوافل تمنع اعتباره ميتاً مدفوناً في التراب: كان يحيي الحفلات الراقصة في جهات العالم ويسأل الجميع عن توكايا غراندي، ولإعطاء مبرر لغيابه الطويل، كان هناك سبب آخر.

ولعــل الــسبب مــتعلق بموت ساو بين ذراعي السيد سيسرو مورا، القصير الأشــوه، القــزم. ولكن الحقيقة في تلك الاستنباطات لم تستطع أن تثبت نفسها بالــرهان، وإذا كان المعلم بيدرو قد اعتقد بأنه الوحيد الذي يقيم معها علاقة لأنه كــان الأول الــذي اخترقها فإنه بهذا الاعتقاد إنما يكشف عن جهل كبير بطبيعة العورات من النساء. وهنّ أمة متفردة بمزاياها. وفي المسلسل العرضي على الطرقات كانت الروايات الكاذبة تغذي ما يقال، إن بيدرو سيغانو لم يعتز بنفسه أبداً لكونه

الأول الذي قطف براعم عذرية ساو. وعلى العكس من ذلك. إذا كان أحد ما قد أطلق فمه في الموضوع فإن بيدرو كان يبدل المحادثة.

في كل الأحوال، بالتكهن أو الحكمة، ولكونه متفوقاً خارقاً أو مصاباً بالقرف، أو لأنه لم يستطع أن يتحمل الشوق، وإذ تمّ تعيين تاريخ الاحتفال بالمستودع الجديد، فها هو مرتاح إلى خشبة المشرب في الدكان يتلمظ جرعات الكاشاسا التي يقدمها فضول عبد الله، مجاناً في حرارة الاستقبال:

– كيف كان يمكن ألا أجئ؟ من الذي افتتح المستودعين الآخرين؟ حتى الموت لم يكن بإمكانه أن يمنعني، ولكنت قمت من القبر وجئت.

كان تاريخ الافتتاح قد تمّ في السابع من أيلول/سبتمبر وبمناسبة سعيدة هي تاريخ ذكرى إعلان استقلال البرازيل، وفقاً لتذكر التركي، المواطن المثقف، والوطني الوحيد في توكايا غراندي. بالنسبة إلى الآخرين فإن قصة الاستقلال كانت محادثة شخصية، غامضة ومجردة، لا مجال فيها للإضافة طولاً أو عرضاً. أما بالنسبة إلى تيساو فإن عيد الاستقلال البرازيلي، هذا، ربما يكون في الثاني من تموز/يوليو عندما يتم استعراض مجموعات طلاب المدارس في مدن ولاية ريكونكافو، والصغار منهم يحملون الأعلام إلى جانب حاملات تماثيل القديسين. ففي الثاني من تموز إذاً، وباستعمالهم للقوس والرمح ضد البنادق النارية فإن الهنود تمكنوا من طرد البرتغاليين. هذا، أو شيء شبيه به.

– لم يكن ينقصه غير مشاهدة الصديق – وافق فضول.

كيف يمكنه أن يكون غائباً؟ صوت المرارة يفضح شعور عازف الضفور. يا للإهانة: من سواه تعاون في بناء المستودعين الآخرين؟ هل تتذكر مستودع التبن يا سيد فضول؟ إنه قصر إذا ما قيس بتلك التخشيبة الركيكة الواقعة وسط الفلاة بين النهر والمرتفعات: أربعة جذوع ضخمة مغروسة في الأرض تغطيه أربع من أشجار جوز الهند. إنه هو بيدرو سيغانو، من ساعد على بناء الملجأ التالي، وبالإضافة إلى المساعدة المطلقة، فإنه أعطى توضيحات وتفسيرات واستخرج نظريات للبناء. لا تكفي للذراع، ولا يمكن عمل شيء دون استعمال العقل. كان قد عرض على الآخرين أن يقبلوا بالأمر الواقع ويحاربوا المطر والبرد مع إمكانية المتعة الممكنة، وهكذا كان. وظلوا يناقشون حتى الفجر، ثمانية أحياء يرزقون، منهم

رجـــال القـــوافل والمساعدون والعاهرات، وهو، هو بيدرو سيغانو وبيده آلة الموسيقى.

– اسألوا لازارو إذا كان ما أقوله كذباً – كان يتحدى.

إنهـــا أحداث من الماضي السحيق لم يكن التركي نفسه يعرفها. ولكن لازارو كـــان هنا، حياً، يحدو قوافل مزرعة دوموليادو إلى إيتابونا، وهو يستطيع أن يؤكد سلسلة التفاصيل التي استشهد بها الجوال:

كـــان عـــدد العاهرات ثلاثاً. لا بدّ لكوروكا أن تتذكر. وكان يتذكر اسمي الأخـــريين: ماريا غريلاو التي انتقلت إلى رحمة الله، ودوكارمو التي حين ارتبطت بصحبة راعي البقر أوزياس تخلت عن مهنة الدعارة. وأنهى بيدرو سيغانو حديثه في قلعة فضول المسلحة: قلعة مسلحة مثلما كان يقال عندما فتح فضول أبواب متجره لبيع الكاشاسا، واللحم المجفّف وقطع السمك المسكوف.

كـــيف كان يمكن أن يغيب؟ أي حدث ذي أهمية، سيئ أو مفرح، حدث في توكايا غراندي دون أن يشارك فيه عازف الهرمونيكا؟ منذ سطو الصعاليك عندما كانـــت توكايا غراندي وكراً لأربع عاهرات، وكان وفقاً لما قاله جيرينو بالمناسبة، وإلى فيـــضان النهـــر الذي إذا لم يكن قد أجهز كلياً على الناحية فلم يكن ينقصه الكثير ليفعل.

– هـــل تعرف يا سيد بيدرو؟ يقولون إن العقيد بوافنتورا سيأتي للاحتفال – أعلن دورفالينيو، العليم بكل شيء.

– يـــا دورفالينيو من قبل كان العقيد يحب، ويرغب دائماً في امرأة جديدة. كان أكثر عصرية وأقل ثراء.

– لا يزال يحب المرأة الجديدة حتى اليوم.

وبينما كان يتكلم عن المرأة أراد التركي أن يعرف ما إذا كان الصديق بيدرو سيغانو قد زار من قبل نـــزل نورا باودي – لو:

– هناك فتاة جديدة، تدعى سيسي... جمع فضول أصابع يده اليمنى، وقطف منها قبلة بشفتيه ورماها في الهواء ليستكمل مديح فتاة الهوى.

لم يكـــن بـــيدرو ســـيغانو قد ذهب. لقد وصل لتوه، ولكنه لن يتخلى عن الذهاب بالتأكيد، وذلك بغية التعرف على الواصلة الجديدة في نـــزل اللقاءات.

– سيكون المستودع الثالث الذي أشارك في افتتاحه. ولكن نـــزلاً في توكايا غـــراندي فمـــسألة لم أرها من قبل. لقد أخبروني عن ذلك ولكنني اعتبرت الخبر حكاية لا أساس لها.

واتخـــذ بـــيدرو سيغانو وجهة نـــزل نورا – باو – دي – لو مندهشاً. وقد نـــسي التذمـــر، راح يطوف في الناحية من نقطة إلى أخرى، متوقفاً في كل لحظة ليتـــبادل بعض الكلام الطيب ويكرر دواعي اندهاشه. وفي النـــزل لم يعر اهتماماً لحذاقـــة ســـيدة النـــــزل، ولإغراءات أفاليا، ولتوصيات الإغراء بسيسي، وفضل باولينيا ماريسكا التي كان قد وضع عينه عليها منذ زمن طويل.

2

إن الـــريف أســـطوري في ثـــرائه ومبالغاته: فمن كأس ماء يصنع البحر. في الذهاب والإياب عبر الشعاب والمسالك الضيقة وعلى الطرقات كان رجال القوافل والأجراء والعاهرات والمتنقلات والمستزلمون وحتى العقداء يعلقون ويضخمون تقدم توكايا غراندي. لقد كانت هذه ضحية فيضان هائل، حتى الفيضان نال ما نال من تـــضخيم في حجمـــه وعنفه. ولكن السكان عادوا إلى ما تبقى منها، و لم يكتفوا بالعودة إلى ما أصبح بل عادوا وحولوها إلى مكان آهل صاخب بالحركة، وأخذت تـــتحول إلى ناحية ذات مستقبل مضمون: تقدم قليلاً إلى الأمام ولن تصدق إلا إذا رأيت بأم عينيك.

بـــدلاً من الهجرة فإن السكان تجمعوا متضامنين وأصبحوا عائلة واحدة. قال العقـــيد روبستيانو دي أراجو في إيلايوس وهو شاهد ثقة. بعد وقت طويل عادت الأغـــراس تـــولد من جديد، وللكلام، تفصيلاً إثر تفصيل، عن إعادة بناء توكايا غراندي، يوماً بعد يوم، يصبح من الضروري استعمال البصق واللصق. وإذا كانت بعـــض التفاصـــيل تستحق بعض العناء فإن الجزء الأكبر من الكلام لا يعدو كونه تكراراً للعادات الشائعة والأمور الواقعية البسيطة مما يجعل التقرير مملاً.

عـــاد الـــسرجيبيون والسرتاويون إلى حراثة الأرض وتربية الماعز، وبمساعدة البـــنائين والـــنجارين أقيمت مقرات إقامة أقوى من سابقاتها وأكثر عدداً للغرف. واقتضت الحاجة عدداً أكبر من الخدم والبنائين وقاطعي الخشب ومعلمي البناء من

الدرجة الأولى. أما باستياو دا روزا فقد تذكر الوعد: وقبل أن يهتم ببناء جوزي دوس سانتوس والسيدة كلارا، جدي ابنتيه، فقد اهتم ببيت السيدة فانجي وزوجها إمبروزيو. إن الوعد دَيْن، وهذا الدين لا يدفعه أحد، ولكن باستياو، الشاب المستقيم دفع الدين ووفّى بالوعد. يحدث أحياناً أن يتم دفع الدين.

وهم يشتغلون ليلاً ونهاراً كمجموعة اجتمعت فجأة لتبادل الخدمات على أن يتم الدفع بمواد زراعية وحيوانات داجنة، إذا أمكن، والمال يدفع عندما يتكرم الله بطقس مناسب، فإن السكان عادوا فمسحوا طوبوغرافيا أراضي الناحية. إن الطوبوغرافيا لفظة أدبية ورسمية ولا ينطبق استعمالها على توكايا غراندي: لقد بدلوا معالم المكان.

قبل الفيضان، بالإضافة إلى درب الحمير، المسلك الوحيد المحاذي للنهر، كان هناك فلاة، يتوسطها مكان الاحتفال، وتتوزع بعيداً عنها الدكان، ومحل حذاء الحمير، ومستودع الكاكاو والإسطبل – وهذا كناية عن مكان تستريح فيه الثيران. وأبعد، إلى الأمام، أسفل المنحدرات، حيث أكواخ السعف والبيت الخشبي الذي تقيم فيه برناردا وكوروكا، هكذا كانت توكايا غراندي: كمحط رحال تبدو جميلة. وكمكان إقامة بشع للغاية... حتى تلك الذكرى غرقت في المياه.

أصبح درب الحمير يعرف بالشارع الأمامي ويمتاز بواجهات ملونة مفرحة وبموازاة ذلك الشارع قام شارع "روادوس فوندوس"؛ كان هناك من فضل السكن بعيداً عن النهر – وعند المنفرج الوسطي الذي كان يفصل بين الدربين – أو الشارعين في قناعة السكان – كان يعيش الفلاحون – ويشتغلون. وهناك وضعت السيدة ناتاليا ماكينة الخياطة التي لم تكن تكفي لتلبية الطلبات. أحد الطلبات، مؤخراً، فستان عيد ساكرامنتو التي كان النقيب ناتاريو دا فونسيكا قد جاء بها. والفستان يجب أن يليق بالجميلة التي أدفأت شيخوخة العقيد بوافنتورا.

عند أسفل المنحدرات قامت أكواخ جديدة بدلاً من تلك التي جرفها النهر.

كانت الفتيات محتاجات إلى مكان يرفعن فيه أعلامهن. أخريات، أقل استعجالاً وقد أصبح لهن جذور في توكايا غراندي، استفدن من الوضع ليبنين بيوتاً دائمة. وهكذا نشأ زقاق جديد وازدهر: وعند الركن منه، مصبوغاً بالأصفر، كان يقوم نزل نورا – باو – دي – لو. إنه نزل نورا لاريسو: ريسو المسكينة لم

تكن قادرة على إدارة مسكنها الخاص، فأعطت الفكرة إلى نورا بالسعر نفسه الذي دفعته للنقيب: مجاناً.

تجـــدر الإشـــارة إلى أمـــر فضولي يعبّر عن الاهتمام بالبناء الذي يشاهد عند الناحـــية. إن أصحاب المستودعات التي تمكنت من الصمود في وجه الفيضان انتهوا إلى هدمها لبناء أمكنة أخرى أكثر راحة.

أما ألواح الجسر الكبيرة التي جرفتها المياه فقد أعيدت إلى أمكنتها، وكان لوبيسينيو قد ذهب شخصياً إلى تاكاراس للحصول على المواد من المسامير والزوايا الحديدية.

– الآن لن يأتي أي فيضان – قال النجار للعقيد روبستيانو دي أراجو – وهو يقدم برهاناً لا وجود له: سيادتك رأيت أننا لم نكن قادرين على بناء جسر دائم. مـــا عـــدا الألواح الخشبية العليا لم يتحرك من مكانه. لو وضع الرهان كيف كان سيادتك...؟

لم يـــتم الرهان، وليس لهذا لم يجد العقيد أنه لا يجب أن يتبارى مع شجعان كهـــؤلاء علـــى أعمال محدودة المواصفات. لولا مساعدته، فإن المستودع ما كان لـــيغدو ذلك الصرح الذي يشير إليه باعتزاز والذي أهداه: من توكايا غراندي إلى السيد كارلينيوس سيلفا مبعوث كويفمان وشركائه الجدد:

لم أرَ قـــط شـــعباً عنيداً كهذا، لا يحني هامته، وهكذا هو الأمر، لا أكثر ولا أقـــل. وهـــو يقطـــع بعضاً من التبغ المعجون ويقطع طرف لفافة ورق الذرة بحدِّ خنجره. كان التدخين هو الشيء الوحيد الذي يفعله.

ولكـــنه تغير منذ اليوم الذي لمح فيه عند أعلى الهضبة صورة ساو جالسة على الحجر كعادتها: كانت قد جاءت لترعى الماعز وتبتسم له. ونادى على داس دورس لكي تأتي، هي الأخرى، ولكن حين وصلت الأم اختفت صورة ساو. عندئذ علم التاميراندو أنه، هو وحده، والماعز، يمكن أن يروها.

لم تكن تظهر كل يوم، بل بين فترة وأخرى. وكانت داس دورس ترفض أن تـــصدق: وهذا طبيعي، فقد كان ذلك سراً بين الأب والابنة. وعاد التاميراندو إلى العمل مستعداً، وبطاقة عجيبة. رعاة البقر الذين يتعاملون معه في الإسطبل لاختيار بعض العجول وإرسالها إلى الذبح ليباع لحمها بالمفرق، كانوا يقولون إن التاميراندو يبذل الكثير للكفاح والعيش.

4

على الرغم من إلحاح لوبيسينيو، وتوسلات قريبيه بالمعمودية كاستور وديفا، لم يتمكن العقيد روبستيانو دي أراجو من البقاء للمشاركة بحفل افتتاح المستودع. ولكـــن ما قاوم من أخبار شائعة، وأكده النقيب ناتاريو دا فونسيكا، هو حضور العقيد بوافنتورا أندرادي: إن صاحب مزرعة أتالايا قد وعد بالمجيء.

وتعويـــضاً عـــن ذلـــك فإن السيد كارلينيوس سيلفا، الممثل الجديد لشركة كـــويفمان وشـــركائه وهي كبرى شركات تصدير الكاكاو، حين عاد من جولته التقليدية في مزارع الكاكاو فإنه لم يتابع مسيره في الحال إلى تاكاراس، بل تأخر في تـــوكايا غراندي للمشاركة في الحفلة الراقصة وأقام بالانتظار في النـــزل المركزي، بانسياو سنترال.

أي نـــبأ هـــو هذا النـــزل، بانسياو سنترال؟ في هذا الملخص السريع بولادة تـــوكايا غراندي من جديد أشير أكثر من مرة إلى نـــزل نورا - باو دي - لو مع تفاصيل متعلقة بلون الواجهة، والموقع الصحيح، وركن درج الأكواخ، عند أسفل المـــنحدرات. أما رقم الباب فلم يدرجٍ لسبب بسيط هو عدم وجوده، ولكن على لـــسان التركي فضول، المداح، فقد تمّ إعلاء من نوعية وجودة فتيات الهوى اللواتي كـــن يشغلن غرف المنشأة الجديدة. وهذا دليل آخر على دقة وصواب المعلومات والتقاريـــر الـــتي تدعـــى جدية ولا يخالطها خطأ. ولكونه مقراً للعاهرات مخصصاً للاســـتئناس فإن نـــزل نورا قد استحق التبجيل والإطراءات. في حين أن النـــزل المركزي، وبسبب طابعه العائلي، ظلّ غارقاً في النسيان.

الآن وقد تمّ توضيح الالتباس حول النـــزلين يقتضي الأمر الرجوع إلى السيد كارلينـــيوس سيلفا النـــزيل المحترم: إنه نقيض سلفه شكلاً وتصرفاً. فما كان لدى سيسرو مورا من رهافة وحذر، كان لدى السيد كارلينيوس خشونة وعفوية.

بـــسبب شـــعره الأشـــقر المعثكل وعينيه الزرقاوين وهندامه العادي، كانت الألـــسنة البذيئة تقول إنه الابن غير الشرعي لكلاوس كويفمان مؤسس الشركة، ولـــو لم يكـــن فلمـــاذا أرسله الأجنبي صغيراً ليدرس في ألمانيا حيث مكث عدة سنوات؟ ومع موت كلاوس تنكب مسؤولية الشركة أخوه الأصغر، كورت، الذي أمـــر بعـــودة محمي الزعيم الكبير - الابن غير الشرعي إلى البرازيل في الحال! مثار

شك! إنه ابن زانية بالتأكيد، وعاد الشاب كارلينيوس إلى إيلايوس بصفة ابن لبنديتا سيلفا الزنجية الرائعة التي كانت تخدم على طاولة الطعام وتدفئ الفراش الجرماني لكلاوس. ومن طالب في ويمار إلى موظف في شركة تصدير الكاكاو. لقد شق طريقه.

في حفلة الافتتاح تكشف عن إنسانية غير منتظرة. كان يعرف القيام ببعض الأعمال السحرية ويجد متعة في عرضها. وكان يخفي مفاجأة أخرى في الردن الآخر من معطفه كما تمّت مشاهدته لاحقاً في ساعة الحسم.

5

أسباب وجيهة جعلت الرأي حماسياً وعاماً: إنها أكبر وأفضل حفلة عرفتها توكايا غراندي حتى اليوم. تخيل أن الصالة — وهذه، أجل، تستحق أن تسمى صالة رقص - فقد تمّت إضاءتها بالفوانيس الزجاجية، أما حاملات تلك الفوانيس المعدنية، فقد كانت أدوات رفاهية جديدة لتحل محل حاملات الشموع والقناديل في بعض المساكن.

ودون نية في التقليل من أهمية عزف وحضور بيدرو سيغانو، كانوا يقولون في البدء للحديث إنه لم يكن الموسيقي الوحيد الذي يضفي الحيوية على الرقص. كان الأشتانسيون قد جاؤوا بأدواتهم الموسيقية: كمنجات، أوكورديونات، ومزامير قصبية، وعزفوا عدة أنغام راقصة على طريقة حفلات الرقص في سيرجيبي. كما جاء الأعمى تياكو وابنه لوغاس، وقد عزف الاثنان على الكمنجة وأثبتا قيمتها الحقيقية. وكان يشكل جزءاً من مجموعات جاءت من تاكاراس استدعاها النقيب ولوبيسينيو وفضول عبد الله وباستياو دا روزا: رئيس محطة سكة الحديد، السيد لورنسيو باتيستا، وموظف التلغراف، تاجران أو ثلاثة، وبعض الفتيات على رأسهن مارا صاحبة نزل فتيات الهوى.

كان فضول عبد الله يضرب كفاً بكف فيرافقه الجميع. آخرون كانوا يقسمون أن الألعاب السحرية التي كان يقوم بها السيد كارلينيوس تجعله شريكاً للشياطين في شيء ما. أما من صفق أكثر من سواه وكان شديد التألق فهي الصبية ساكرامنتو. فقد كانت، حتى تلك اللحظة، مطرقة العينين وتجلس بصمت قرب

السيدة زيلدا على مقعد خشبي. حتى العقيد بوافنتورا أندرادي ضرب كفاً بكف ولم يوفر التعليق على ألعاب السيد كارلينيوس السحرية: نعم، يا صديقي، ثماني الحارة: لو كنت ترغب لتمكنت من أن تكسب أسباب المعيشة بأعمال السحر في مسارح العاصمة.

بعد الاستعداد للرقصة الرباعية ضرب الزنجي كفاً بكف لافتاً الانتباه إلى أن الرقص الجماعي سيبدأ. رفع صوته وتكلم بالفرنسية.

6

كانت ديفا تتعثر في خطوات الرباعية محاولة أن تماشي تيساو، شريك الشيطان هو الآخر. ولكن تيساو الذي يعرفها ويتكهن بما في داخلها كان يعرف أنها قلقة منشغلة البال مهما حاولت أن تخفي حالتها النفسية. كان تفكيرها يهرب من الحفلة إلى بيت والدها على الضفة الأخرى من النهر.

لم يكن إمبروزيو وفانجي في حفلة افتتاح المستودع. ففي المعرض، قبل الظهر، وبينما هما يبيعان المواد المنتجة من الحقول، كان إمبروزيو يحترق بالحرارة المرتفعة الّتي تلفحه. أما زيلدا، التي كانت قد توقفت لتشتري وتحادث، حين رأته في تلك الحالة اعتراها شعور سيئ ونصحت فانجي أن تأخذ زوجها إلى البيت وتعطيه ما يساعده على التعرّق في أقرب وقت. من يدري ربما استطاعت أن تنظف دمه وتطرد منه السوائل السيئة؟ وعلى طاولة الغداء الصاخبة المليئة بالمدعوين إلى الحفلة قالت زيلدا للنقيب عما أصاب إمبروزيو من الحمى:

– لا جعلها الله تتفشى.

7

توفي إمبروزيو بعد ثلاثة أيام من حفلة افتتاح المستودع ولم يحضر إلى دفنه العجوز جيرينو والشاب تانكريدو ابن الأشتانسي فافا، فالوباء كان قد جندلهما.

إنه الوباء الذي لا اسم له، الطاعون، ذلك الذي، وفقاً لقول الشعب، يقتل القرد إذا أصابه. كانوا يتكلمون عنه بصوت منخفض وجليل، ويعتبرونه قوة إلهية وحشية، ومرضاً مستوطناً في منطقة الكاكاو مدناً وبساتين، يحصد هنا وهناك العدد

الـــلازم مـــن الـــضحايا المطلوبة. كان الناس يتجنبون الاستشهاد به في أحاديثهم ويحاولون أن ينسوه ليروا ما إذا كان الوباء ينساهم ويتركهم بسلام.

عـــندما كانت الحمى الخبيثة تقتل على مهل، ودون عجلة من أمرها، كانوا يقدمون لها مؤونتها من الموتى، متعايشين معها، متوافقين، لكنها حين كانت تجتاح منطقة آهلة وتتحول إلى وباء وتقتل بالجملة كان الخوف يتحول إلى رعب. وبدلاً مـــن الـــبكاء الـــذي يعتري الأب والأم والمرأة والزوج والابن كانت تتصاعد إلى السماء دعاءات اللعنة.

كان الوباء يستهلك ضحيته خلال أيام قليلة، يحرق الجسد، ويشعرها بالقيء. ويـــصيب الـــرأس بـــصداع فيبلغ الهذيان درجة يفقد معها الوعي، وتبدأ الرائحة الكـــريهة مع اللهاث، أما الأحشاء الممزقة فإنها تتصاعد بانتفاخ طاعوني. إنه الموت الأكيد البشع، ولا مناص من ذلك.

كان للأوبئة الأخرى مسميات: كالبرداء، والبردائي، والطاعون البقري الذي يهاجم البشر والقطعان، والحمى الصفراء، والحمى التيفية، وكان وباء أكثر خطراً مـــن ســـواه، ولكن، لهذه الأوبئة دواء، وعلاج حتى للجذام الأسود: يوضع روث البقـــر، مجففاً، على الدمامل المتقيحة. ولكن لم يكن هناك دواء للوباء الذي لا اسم لـــه، والذي كانوا يسمونه بالحمى، هكذا ببساطة، دون صفة تميزه، ودون شخص أو وصـــفة طبية، والمريض بيد الله إله الطاعون الذي لا رحمة له كانوا يلجأون إلى اللـــبخات الحارة، والكمادات والزجاجات الحارة، والأدوية المصنوعة من جذور وأوراق الـــشجر، وهـــي تركيبات أورثها الآباء للأبناء.. على كل حال قد تبدو أحياناً طلقة وإصابة لعدة أوبئة، ولكن ليس لها أي تأثير على الحمى التي لا اسم لها والتي تقتل القرد إذا أصابته... لهذا لم يكن يبقى غير الصلاة والنذور، والدعوات، وأعمال السحر والوعود...

كانـــت تـــصل دون أن تعلن عن وصولها، تجندل، تصيب الشحوب، وتبدأ بالـــسحل، تفرغ الأمعاء والعقل، وتحول أقوى الرجال إلى خرقة قبل أن تقتله. لم يكـــن هناك ما يمكن فعله غير الانتظار، انتظار أن تطفئ شهوتها، وتنصرف، كما جـــاءت بشكل غير متوقع، لتحفر القبور في مكان آخر... هل تخضع لدورة زمنية أو تـــصل صدفة على هواها؟ وهل تنصرف لأنها شبعت أو لأن الله سمع الصلوات؟

كـــل شـــيء ممكن. إذا كان الأطباء المتخصصون في مدينتي إيلايوس وإيتابونا لا يستطيعون تشخيصها ولا يقدرون على محاربتها، فلم يكن على الشعب المسحوق في مجاهـــل الدنـــيا إلا أن يهرب أو ينتظر أن تقرر الحمى الانصراف مستبدلة محل إقامـــتها، حاملة في جعبتها عقاب الموت دون تسمية: إنه موت مؤلم قذر، متعفن، وقاسٍ.

8

دامت خمسة عشر يوماً، وصلت يوم أحد الاحتفال. واستعرضت نفسها مع إمـــبروزيو في المعـــرض، وبعـــد أسبوعين استفادت من متن ريح عاصفة فامتطته وتابعـــت رحلـــتها لتستمر في القتل في المكان التالي. كانت قد تركت في المقبرة العامرة في توكايا غراندي تسعة صلبان إضافية لتروي الحكاية.

ما لم يتمكن الفيضان أن يجترحه هو حمل السكان على الهرب وإفراغ الناحية، ولكـــن الحمى كانت على وشك أن تترك المكان في فراغ دون اقتلاع أو حرف، ولـــو أنها دامت أسبوعاً آخر، فمن هو المجنون الذي كان قادراً على أن يبقى هناك بانتظار الموت؟

كانت بداية الرحيل يوم الأربعاء الذي دفنت فيه الضحيتان الأوليان: العجوز إمبروزيو وفتاة الهوى كليمنتينا. واستمر الرحيل بأعداد متزايدة خلال الأيام التالية ومـــع تواصل الموت. كان على السيدة إيستر، امرأة لوبيسينيو، العاملة بالأمراض والطـــبابة أن تلوح بالسوط: لقد أقامت الحمى في توكايا غراندي. إنه رأي امرأة فهـــيمة: صرف المال على الدواء حماقة، والقيام بالنذور إضاعة وقت، ولم يكن في توكايا غراندي صيدلية، بل لم يكن هناك غير أربع زجاجات من الشراب في دكان التركـــي، وأكثر من هذا لم يكن هناك كنيسة يصلى فيها على روح الميت. لم يعد من شيء يمكن أن يحملوه غير الرحيل عن صندوق القمامة البائس، الذي بالإضافة إلى ما فيه من حرمان، كان مصاباً بالطاعون.

قامـــت الـــسيدة إيستر بواجبها بنشر التحذير، من جار لجار، وتقوم بذلك العمـــل برضـــى بسبب الاحتقار الذي كانت تستشعره تجاه القرية والقرف الذي تعانيه كونها تقيم في موقع متخلف إلى هذا الحد؛ وبين الدواعي الأخرى، يكفي أن

يكـــون الـــزوج في صحبة القيام والقعود مع عشيقة وهي بالإضافة إلى هذا ليست مطية خاصة محترفة وهلم جرا... ولكنها لا تعدو كونها عاهرة ذات باب مفتوح. وحاولـــت الـــسيدة إيستر أن تأخذ ابنها معها ولكن زينيو رفض مرافقتها... هزَّ كتفيه، فصبر. من الأفضل لها أن تعيش مهملة في تاكاراس على أن تموت متعفنة مع عائلتها. جمعت أغراضها وانطلقت دون أن تنظر إلى الوراء، وأعطت المثل.

وبمغـــالاة مضاعفة بفعل الظروف القائمة فإن أخباراً كانت تسري كالهشيم، تحكي عن حلقات مرعبة في المزارع، والقرى، ونقاط قضاء الليل، والهروب. يجتاح تـــوكايا غراندي الهول الذي هبط على دسكرة شبيهة بها في ربوع أغوابريتا: كل المقيمين هناك نقلوا إلى القبور في ربوع أغوابريتا، سيكييرو دي إشبينيو في ريو دو براســـو. كانت الجغرافية تتغير بتغير المتحدث، وتكبر مساحة المكان، ويزداد عدد الموتـــى، ولكن تفضيلاً واحداً يستمر هو نفسه: لم يبقَ أحد ليروي الحكاية. أما ما هـــو مـــتعلق من هذه الأخبار بتوكايا غراندي فمفاده أن النقيب ناتاريو قد ذهب ضـــحية الوباء، ونـــزع جزمته ودخل الجحيم ليدفع ثمن خطاياه. وكان هناك من شرب سراً نخب ذكراه.

أمـــا العاهـــرات فقـــد تفـــرقن تلقائياً. فالحمى التي بدأت القطاف في حقول الـــسرجيبيين اجتازت الجسر الكبير إلى أسفل المنحدرات: هناك في المبنى توفيت ثلاث مـــنهن خلال يومين. وكان اللفظ عاماً وكذلك الرحيل: مستفيدات من عبور القوافل أو العـــربات التي تجرها الثيران، والصرة في اليد أو على الرأس، انصرفن جميعاً. واحدة مـــنهن غلوريا ماريا، كانت قد رحلت وهي تعاني من القيء حاملة الحمى في جعبتها. قامـــت بالـــرحلة تائهة عبر الغابات وماتت لدى وصولها إلى تاكاراس حيث دفنت، فتجنبت مقبرة توكايا غراندي أن يصبح عشرة مجموع القبور التي فتحت فيها.

بعـــض حـــداة القوافل راحوا يحولون سكة قوافلهم، وظلوا خلال بعض الوقت يتجنـــبون المرور من هناك فتقلصت الحركة. في الأسبوع التالي ازداد الرحيل وسيطرت فكـــرة الهرب على الناحية. وبعدما حاول أن يحصل، ودون أن يتمكن، على رفقة زي دوس ســـنتوس والـــسيدة كلارا – مع من كانوا سيتركون الحقول والحيوانات – فإن باســـتياو دا روزا جمـــع زوجته وابنته وراح يفتش عن ملجأ آمن في تاكاراس. وعندما رأوه يقفل باب البيت فإن المترددين حزما أمرهما وتوكلا على الله.

9

تمّ تعــداد سبعة أيام وخمسة موتى منذ يوم الأحد الذي عبّرت فيه زيلدا عن مخاوفهــا للنقــيب. وفي نفــس ساعة الغداء، على الطاولة الصامتة التي لا ضيوف حولها، استعادت الموضوع عند النقطة التي كانت قد تركته عندها.

– لقد تفشى الوباء.

كــان الأسبوع المنصرم حزيناً وصعباً. وكان ناتاريو يبدو متعباً، واهناً. كانوا يجيــئون للتفتيش عنه، مرتبكين، خائفين كما لو أن النقيب كان طبيباً أو معالجاً، منتظــرين منه مساعدة، حلاً، وهو لم يكن يمتلك ما يساعد به أو يحل، وإن كلمة تخفــف من المصاب: كانت الكلمات غامضة فارغة، وتقع مزورة على الآذان. لم يكــن الناس يفتشون عن عزاء على من مات، بل عن خلاص للأحياء. جلس زي لويس على المقعد، عند الشرفة، وقد انهارت قواه: لا يوجد شيء أكثر إيلاماً، ولا يمكن تحمله أكثر من رجل يبكي وقد أضاع الحياء وتجرد من كونه ذكراً. كررت زيلدا قولها وقد رفعت صوتها ليسمعه وتحصل على الجواب:

– لقد تفشى الوباء.

كان النقيب قد تناول بأصابعه كومة فاصولياء سوداء مع الطحين: يقولون إن قــريباً للــسيدة لــيوكاديا قد أصيب. هل هو رجل أم امرأة؟ هل تعرفين؟ – إن الأشتانسيين كانوا قد دفنوا الشاب تانكريدو يوم الجمعة.

– إنـــه الطفــل ماريوزينو، ابن عشر سنوات، ولم يكن لديها سواه. لم يكن يغادر بيتاً كان كالظفر واللحم مع بيبا.

– تتكلمين كأنه قد مات.

– فليــسامحني الله! لا أريــد أن أكون سوء فال على أحد، ولكن هل رأيت أحداً قد شفي من هذا الوباء؟ لم أعرف أحداً.

أطرقت عينيها إلى الصحن الخشبي، وتناولت بعض الطعام بالملعقة.

– إني ممزقة، متنازعة، بسبب الأولاد. ماذا تعتقد؟ أليس من الأفضل أخذهم والذهاب إلى المزرعة؟ فقط إلى أن يمر الوباء؟

جــال النقيب بعينيه حول الأولاد غير المهتمين بالحديث، يأكل بعضهم على الطاولة وبعضهم الآخر على الأرض. بعد ذلك نظر إلى وجه المرأة:

– هـل عددت كم من البيوت قد أقفلت وكم من الناس الذين غادروا؟ إذا غادرنا أو إذا أخذت الأولاد إلى المزرعة، ففي اليوم التالي لن يبقى شخص واحد في توكايا غراندي. نحن لا نستطيع أن نفعل هذا.

– تركت زيلدا الملعقة وأدارت عينيها باتجاهه:

– لقد أخذت أبناء الأخريات لأربيهم.

– هـذا هو بيتهم ولن نخرج من هنا – لن يخرج أحد – ترك يديه المتسختين بالطعام، وهو يفرك الواحدة بالأخرى: لن نخرج إلا إلى المقبرة. هزّت زيلدا برأسها موافقة. لم يكونا يناقشان بل يتحدثان. كانت تعرف زوجها وطريقة تفكيره: إن من له الأمر والسلطة عليه واجبات. لا يفيد بشيء إعطاء الحجج، وأقل فائدة من هذه هو الاعتراض. لقد قام بواجبه وطرد مخاوفه: كان عليه أن يقرر، وعليها أن تطيع.

10

فيما بعد، وفي الفراش مع برناردا، قال لها النقيب:

إن قسماً كبيراً من الناس ينصرفون. كان عليك أن تفعلي الشيء نفسه. المجازفة كبيرة هنا.

كان ينظر إلى السقف الخشبي، ويتكلم بصوت حيادي هادئ: لم يكن يعطي أمراً بل نصيحة.

– انصرف؟ إلى أين؟

– يوجد مكان في تاكاراس تستطيعين المكوث فيه.

– وهل يذهب العرّاب أيضاً؟

– أنا لا أستطيع أن أخرج من هنا.

– والعرّابة؟

– تبقى هنا، هي والأولاد.

– لا أنت ولا العرّابة ولا الأولاد. ولماذا عليَّ أن أنصرف؟ لماذا تريد أن تراني بعيدة؟ لماذا تصرفني؟ ماذا فعلت لأستحق العقاب والاحتقار؟ إذا كان لا بدّ من الموت، فسأموت هنا بالقرب منك ومن نادينيو.

أراحــت رأســها على صدر العرّاب كما كانت تفعل وهي صغيرة ولكنها بذراعيها ورجليها شدّته إلى جسدها العاري:

- هل تعبت مني؟

- لم أقل لك لتذهبي، بل لأذكرك.

إنهــا ســتقوم بما عليها، وكما هو واجب زيلدا تجاه طاولة الطعام. ولامس النقــيب ناتاريو دا فونسيكا بأصابعه وجه فليونته، وعشيقته منذ سنوات عديدة. عندما تكلم كان يعرف الجواب.

11

الإحساس بالموت كان في تأثر ميرنسيا. لو أنها كانت مصابة بأي مرض آخر، أو لدغــة أفعــى، لكانت استحقت جنازة لائقة على غرار ما تمّ للعوراء ومشتري الكاكــاو، بــل أفــضل مــن جنازتهما. وكان لديها ذكريات عديدة تستعيدها، ونــزهات مؤنسة، ولحظات توقد.

هــي امرأة متزوجة، كانت تبقى على مسافة من فتيات الهوى ولكنها دافعت عــنهن عــندما حاول رعاة البقر أن يفرضوا شريعة الغاب. بيديها القويتين سعت جاهــدة، ودون إبــداء التعب، إلى بناء الجدران وتركيب القرميد لإعادة توكايا غراندي إلى ما كانت عليه قبل الفيضان. وبيديها الدقيقتين الماهرتين، وفي ساعات الفراغ ومن الورق والقصب كانت تصنع طائرات ورقية وتمنحها للأولاد ليطلقوها في سمــاء القــرية. وكانت تحضر لمشاهدة حذاقة أحبائها الصغار وتصفق لارتفاع الطائــرة وتطوراتها. كانت ترغب في طفل، ولله كم كانت ترغب في ذلك: ولكن رحمها كانت ناشفة. ولشوقها إلى طفل لم يأت كانت ترضع أطفال الآخرين وتربي الحــيوانات. ومــن لا يتذكرها غارقة في الماء حتى خصرها في صباح يوم الفيضان وهي تحاول أن تنقذ حيواناً من الغرق؟

وإذا كان زي لويس يتجاوز الحدود، في الكاشاسا والمبغى سكران أو عاشقاً فإن ميرنسيا كانت تغضب وتمزق ملابسه على جسده وهو لا يقوم بأية ردة فعل. كانــت تــذهب للمجــيء به، المتهتك، من أسفل المنحدرات وتقوده إلى البيت بالشتائم والصفعات، وفي الجنازات عليها أن تتلو صلاة الوداع الأخير.

كـــان قد تمّ دفنها على عجل شأنها شأن الآخرين الذين استهلكتهم الحمى، وذلك حتى لا تتفشى الجراثيم في الهواء وتدخل في أجساد الأحياء. وكونها كانت متعبدة، وطاقة كبيرة في التعليم الديني والصلاة، فإن ميرنسيا كانت تستحق المرافقة إلى القـــبر مع الأناشيد والإطراءات. وبقدر ما كانت تستحق ففي الساعة الحاسمة نقـــصها كـــل شيء. لم يكن هناك حتى جوقة العاهرات تردد أمين. كانت الحمى تقـــتل بسرعة وبسرعة أكبر. كان الميت يؤخذ إلى المقبرة بفعل الخوف المقيم، وفي الهـــرولة الـــسريعة لم يتوفر إلا القليل من الوقت ليجعجع فضول عبد الله "الأبانا" باللغة العربية.

12

بعد مرور ثلاثة أيام على دفن ميرنسيا لم يعد أحد يسمع عن حوادث جديدة من العقـــاب واللعنة في الناحية التي هجرتها الحركة وغادرها الفرح. فظهر بيدرو سيغانو في محـــل حـــدادة كاستور أبدووين في مهمة حياة وفرح لكي يناقش فكرة حفلة راقصة: كـــان ضـــرورياً نسيان الأيام السود، وتجفيف الدمع، وإطفاء ذكرى الحمى، ووضع النهاية لاحتفالات الموت. إن الأموات لا يقومون إلا في يوم الدينونة.

على أثر الاحتفال بافتتاح المستودع، كان بيدرو سيغانو قد اختفى في توكايا غـــراندي، واستفاد البعض من أصحاب الألسنة الطويلة ليهووا عليه بالسياط. لقد هرب القط بسرعة، وبخوف من الشدة إلى درجة نسي معها آلته الموسيقية في دكان التركـــي، لكـــن حضوره في ساعة الوليمة كان إجبارياً، وأصابعه الخمسة ممدودة لانتـــزاع الألحـــان الموســـيقية والفم مفتوح ليبتلع المشروب على حساب الأيدي المفتوحة. إنها تهم حساد له على مواهبه، وحرية اتجاهاته وعشقه المزمن، وهي كلها أمـــور ما لبثت أن انكشفت على حقيقتها لدى بيدرو سيغانو الذي عاد على متن الريح التي حملته مردوداً بالكيد وغيرها من مخدرات طبية حصل عليها من تاكاراس في انتظاراته في محطة سكة الحديد، أدوية مصنوعة لمحاربة الحمى اللعينة، وكلها غير ذات فائـــدة في حالات الحمى التي لا شفاء منها. لم يعد حسب، بل مكث هناك يوزع جرعات احترازية من الكينا على السكان، وهذه الجرعة كانت تصبغ البول في توكايا غراندي باللون الأزرق.

متأكداً من أن الحمى قد بلغت نهايتها، فقد خرج تفتيشاً عن مساعدة لاقتراح حفلة طيبات على إطفاء الحزن واستعادة الضحك. ولكنه في محل الحدادة ابتلع حماسه عندما تذكر أن العجوز إمبروزيو، والد ديفا كان زائداً على مائدة اللعينة، ولكن ديفا لم تعترض، فوافقت الموسيقي: ليس أفضل من حفلة رقص لإبعاد الأحزان واستعادة حب الحياة. حاضر – قال تيساو. واستمر بيدرو في تجواله تفتيشاً عن موافقات أخرى.

13

توفيت ديفا عند طلوع الصباح، نظيفة هادئة ممددة في شبكة الأرجوحة وهي تحس على جسدها المتلظي رطوبة جسد تيساو وهو يضمها، تسمعه يخنخن يا زنجيتي، "أوايا"، وكتهدب مياه واسعة الموج المتكسر على الشاطئ أو كصوت بوق آت من بعيد قالت:

– يا أبيضي وسلمت الروح: لقد وقفت الحمى بالمرصاد عندما فكروا بالاحتفال بنهاية المصيبة واتفقوا على تاريخ الحفلة الراقصة. وفي اليوم التالي بعد زيارة بيدرو سيغانو اشتكت ديفا من الوهن في رجليها، والحرارة في وجهها والوجع في أمعائها. دام ذلك يوماً وليلة.

كانت ليا وفانجي قد جاءتا للمرافقة والمساعدة... لقد أخذا الطفل ليبقى مع دينورا بعيداً عن خط المرض المعدي. ولكن تيساو مكث راكعاً عند فراش القش حين كانت ديفا تنتهي لحظة إثر لحظة: يدها ملتهبة. كلمات هذيان، تحاول أن تبتسم فلا تستطيع. كان قد نذر خروفاً لأومولو وهو يعلم أن لا فائدة من ذلك. لقد كانت الحمى تقفل الطريق على الآلهة ولا تفتح غير باب الأوغونات، وأي شخص تضع يدها عليه يكون ملكاً للحمى. كان تيساو متأكداً من ذلك لكنه اعتزم على أن لا يترك للعينة تأخذ ديفا وحدها وإذا لم تقضِ عليه الحمى على نفس فراش القش المبتل بالقيء والإسهال فإن تيساو يعرف ما يفعل. هناك راكعاً، فكّر ووضع الحل.

تنهدت ديفا بهدوء وحاولت الأم والسلفة أن ينظفاها من القذارة، في حين كان تيساو يساعدها ضاماً إياها إلى صدره، ولكن الأطمار الجديدة لم تفد بشيء

فقد كانت ديفا تحس بنفسها عفنة متسخة. طلبت أن يسخنوا الماء للحمام، لكن ليا وفانجي قاومتا: إن الاستحمام بجسد يحترق، رغبة سخيفة، وهذيان حمى، حباً لله.

توسلت ديفا وهي تنطفئ. طلب تيساو أن يستجيبوا لها: سخف، هذيان؛ إن لديفا ما تريد، وذهب للمجيء بالحوض.

نزعوا عنها قميص النوم القذرة ووضعوها في الماء الحار، وانسحبت ليا وفانجي إلى محل الحدادة تاركين إياها برفقة تيساو. عندما رآها عارية نظيفة تفوح منها رائحة الصابون، رغب في الصعود إلى الأرجوحة ليتمددا معاً. تحت الأرجوحة، لا يتحرك، وذيله بين جنبيه، كان الكلب ألما بينادا.

14

إنه زعيق الموت، وصرخة تيساو تمزق هدوء الفجر، وتشيع الخوف واليأس، فأيقظت الناس في توكايا غراندي. لقد حدث الشيء نفسه عندما فاضت مياه النهر، وقضت على ما قضت. أي إثبات آخر يعلن عن نفسه؟ ألم يكف الألم والشقاء؟

كان الفجر تقدم والذين استيقظوا رأوا الحمى تقلع على متن الريح: فلتكن إرادة الله في أن تكون الحمى قد شبعت؛ تسعة من الأموات، بل عشرة إذا أضيفت غلوريا ماريا! إنهم جزء كبير من سكان قفا العالم. قاموا بالحسابات جمعاً وطرحاً، وحاولوا أن يقللوا من عدد الأموات والهاربين. لقد بقي القليل، فمن كانوا يسكنون هناك باستمرار لن يخسروا لأنهم انتظروا. إن الحمى التي لا اسم لها، والتي كانت تقتل حتى القردة، كانت تطوف في أرض الكاكاو، ومنتبهة يقظة كانت تنتقل من موقع إلى آخر. وكانت تقيم الهدنة ولكنها لم تكن تقول وداعاً إلى الأبد، ولن تقول أبداً.

ظهرت ليا وهي تركض مهرولة تطلب النجدة وتسأل فضول المساعدة. وتحلقت مجموعة في الحال، من رجال القوافل والعاهرات والمقيمات يريدون أن يعرفوا. وبخطوة بطيئة متجهماً، مقطباً، كان تيساو يجتاز الفلاة مقطباً، باتجاه النهر، يتبعه الكلب ألما بينادا. بيديه الممدودتين كان يحمل جسد ديفا، وهي ترتدي ضوء الفجر. لن يتركها تذهب وحيدة في أعماق المياه؛ في فراش النهر سيتمددان معاً في

أرض أيـــوكا. يـــا للهراء أن يدفنوا الميت في مقبرة ويذهبوا في البكاء عليه وتذكر حسناته.

تعثـــرت فانجي قبل أن تصل إلى كاستور وتتوسله الاحترام للموت وظروفه. ظهـــرت برناردا وساعدتها على النهوض. وكانت كوروكا قد أخذت تهرول وهي ترتدي معطف الشيطان. في السماء كانت وجوه ترتسم على صفحات الغيوم...

بجهـــد، وعلى عجل، تمكن فضول من أن يدخل في بنطاله. ثم ألقى نفسه في وجه حذاء الحمير ليوقفه عن المسير وراح يصرخ:

– ما هذا يا تيساو، هل أنت مجنون؟

لم يوقـــف كاستور أبدووين خطوة، بل استعجله وتابع طريقه. لم يعد الحداد تيساو، الشاب الطيب، المحبوب من الجميع، بل أصبح روحاً من عالم آخر وخنخن بصوت يصعب سماعه:

– دعني أمر.

تحلقوا بشكل دائري حوله مستعدين لمنع الهراء واقترب منه التركي:

– سنلبسها ثيابها، ونضعها في الشبكة ونقيم لها جنازة.

– دعني أمر.

وفي عينـــيه فـــراغ الموت، حاول تيساو أن يجتاز فاصطدم بفضول. حولهما الشعب مستعد أن يتدخل: إنه محصن ضد الحمى ولن يسمح بالانتهاك.

حرّك فضول يده الغليظة وأقفل قبضته وأجهض المحاولة قبل أن يتقدم الشعب ويحـــدث مـــا لا تحمـــد عقباه؛ رفعت فانجي وبرناردا الجثة. واستدار تيساو ليقتل ويموت، لكن من وجدها واقفة في وجهه هي كوروكا، أم الحياة:

– هل نسيت، يا كريه، أن لديك طفلاً يجب أن تربيه؟

زياح السيدة ليوكاديا
واستئذان سكان توكايا غراندي
رقصة: كيلاريو كيلاريا

1

كـــان كاســـتور أبدووين منكباً على حذاية الفرس "أمبراتريس" مطية العقيد روبستيانو دي أراجو، المفضلة. العمل الدقيق، بحدِّ ذاته، لأن الحيوان بالإضافة إلى كـــونه دائم الخبب فإن أرجله دقيقة – عندما استرعى انتباهه نباح ألما بينادا وهو نـــباح مـــرتقب، واحتفالي. انتصبت أذنا الكلب ثم توقف وهو يهز بذيله وانطلق فـــرحاً لملاقاة القادم إلى هناك. لم يكن ألما بينادا، ذا طبع منفتح، بل متعلقاً بصاحبه واضـــعاً الانفعالات في تصرفه، ولا يعيش راكضاً وراء المجهولين، عند غروب الشمس الصيفي شعلول، كان يحرق سماء توكايا غراندي بلهب مضيئة حمراء صفراء.

وبيـــنما يوكل برجل الفرس إلى الفتى، إيدو، ليكمل العمل، لمح تيساو، وقد ركّـــز نظـــره، شـــكل إنسان متماوج بين الأضواء والظلال الممتزجة عند غروب الـــشمس. مرّت في ذهن حذّاء الحمير فكرة انفعالية سخيفة؛ سوف يتمكن من أن يـــستجلي اللغز الذي يحيط بظهور الكلب ألما بينادا في توكايا غراندي. بعد مرور سنوات عديدة، لا بدّ من أن أحداً ما قد جاء عمداً ليراه من جديد.

جانبـــية غامضة لامرأة غارقة في الضوء والغبار، ثم أحنت المرأة نصفها الأعلى ووضـــعت صـــرة السفر أرضاً لتتلقى بصورة أفضل أشواق الكلب إليها في تلك اللحظـــة الحاسمة، ودون أن يرى وجه وملامح المرأة، فإن الزنجي عرف من تكون: لا يمكـــن أن تكـــون امرأة أخرى، غيرها. منذ أن غادرت المكان لم تبلغه أي خبر عـــنها. مكث تيساو واقفاً، ينتظر، ودون أن يعلن عن أية ردة فعل: إنه ميت من داخله، وحي، في مظهره، ليس إلا..

وهــذا أقــل ما كان يحدث في الناحية: إن الروح المعذبة في محل الحدادة هو الزنجي تيساو وليس ألما بينادا.

الخطــوة مغرية، والجسد ممتشق، وتمايل الردفين، كلها جعلت إيبفانيا تقترب بــوجهها الجــدي. لقــد احتوت أساليبها في التعبير، ودون مقدمات الإغراء، أو الافتــرار عن الأسنان، وقفت بلا غنجٍ أو دلال. لم تبدُ تلك المرهفة دائمة الإغواء الــتي كانت تقلب عقول الرجال رأساً على عقب وتزعج راحة البال. وقفت أمام تيساو، والصرة تحت ذراعها، والكلب يدور حولها فرحاً.

– جــئت أهتم بالطفل. لقد اختفيت لأني كنت على علاقة والتقيت صدفة بكوزمي الذي أخبرني. لقد تأثرت جداً.

وبصوتها الهادئ الحار.

– أين هو ابني؟ لن أنصرف من هنا وإن أمرتني بذلك.

ودون أن تنتظــر جواباً، سارت باتجاه محل الحدادة يتبعها ألما بينادا، ودخلت إلى البيت. وإذ كانت الشمس قد استحمت بالدم فقد انطفأت فجأة في النهر.

2

برفقة حفيدتها آراكاتي التي لم يتم الاحتفال بعيد ميلادها الخامس عشر بسبب الحمى التي تفشت في الشتاء، كانت ليوكاديا تجتاز نصف الفرسخ الذي يفصل بين حقــول الأشتانسيين وحقول السيدة فانجي.. لقد بدت مشاءة نشيطة بالرغم من عــبء السنوات على كتفيها، مما جعل الفتاة تستحث الخطى لتتمكن من اللحاق بها.

كانــت الاثنتان قد ذهبتا لتتحدثا في مواضيع تافهة في تلك الأماكن النائية. كانــتا تــتكلمان عــن أزياء الراعيات، والنجوم، وفقاً لما يمكن فهمه من مجرى الحديث. وتشيران إلى أشخاص من ذوي أسماء وألقاب تقع على المسامع وقعاً غريباً ومغرياً: السيدة الآلهة، "بيمستا فيرا"، "كابوكلو غوستوزينيو"، هؤلاء وغيرهم من الكائنات العجيبة، بالإضافة إلى راعيات جميلات يرتدين ملابس الاحتفال التقليدية، ســوف يــسيرون قريباً في موكب في ربوع توكايا غراندي، وتحت إمرة السيدة لــيوكاديا. لقد بدأ الصيف وزخات المطر تغسل السماء، وترطب الشمس، والأيام

جميلة ودافئة، والقلوب منبعثة من مكانها. لقد ذهبت السيدة ليوكاديا للقيام بواجب يستوعبه اللطف حسب: كانت تريد أن تسمع رأي الجيران ولكنها كانت قد اتخذت القرار ولن يثنيها عن عزمها شيء، وهكذا قالت للجماعة:

– لن أمضي عاماً جديداً دون أن أقيم استعراضاً في الشارع.

بعينيها الغارقتين كأنهما حفرتان في وجهها المجعد راقبت الأهل والأتباع لملاحظة ردة فعل كل واحد منهم. أطرقت دونينيا زوجة فانا عينيها إلى الأرض، وشاحت سينيا بنظرها إلى البعيد، ولكن لم يرفع أحد صوته بالاعتراض. أما الصهر "أمانسيو" فلم يستطع أن يترك الأمور تجري طبيعياً. كان يرى أن الأمر يستدعي العجب، فاعتبر بلهجة تنم عن الحرد:

– أين شاهدت شارعاً في هذا المكان؟

– نحن سوف نرقص عند الضفة الثانية من النهر.

الضفة الثانية تعني إحدى الضفتين، على السواء، الضفة السكنية والضفة الزراعية، والمسألة متوقفة على من يتكلم. وتابع أمانسيو حجته.

– وهل من شارع عند الضفة الثانية؟ هل تعتقدين أننا لا نزال نعيش في أشتانسيا؟

– كنا نعيش في الحقول، على مقربة من أشتانسيا، والآن نحن نعيش على مقربة من توكايا غراندي. أعرف أن الأمر يختلف ولا أحتاج إلى القول، هنالك شيء أفضل، وشيء أسوأ، أما الأفضل فهو الأرض. عندما جئنا لم نجيء معاً بأجسادنا فقط.. عندما أتينا، فإننا جئنا معاً بالإيمان، وقد حملته على ظهري. والآن سيتم الرقص للشعب هنا، شئت أم أبيت. هل كانت تتوجه بالكلام إلى الصهر أم إلى كل الموجودين؟ – إذا كنت ضد الفكرة فأنت لست مضطراً إلى المشاركة وسأختار غيرك ليؤدي دور الجاراغوا. لا أحد مجبر، وسيشارك من يرغب في ذلك.

– يا إلهي أنا لست من قال هذا. إن سيادتك هي صاحبة الأمر.

كانت هي من تأمر، هي الأم الكبيرة؛ لم يكونوا يناقشون قراراتها، أما هو، "أمانسيو"، فلا أحد أكثر تعلقاً منه بالزياح الاستعراضي. إنه في تمثيل دور "الجاراغوا" الأقدر ولا يضاهيه أحد، أما دور بيستافيرا، فوضيع ومقلق. كان يتكلم من أجل الكلام، ويطلق لسانه بالمحادثات من أجل إخراج شيء ما من الفم، لا

أكثـــر: وهناك الكثيرون من أمثاله. وختمت السيدة ليوكاديا المحادثة قبل أن تتذكر الأموات امرأة ما، كدودينيا أو سنينيا أو أية ثولاء (حمقاء) أخرى:

– إن السكان هنا سيذهلون، هل فكرت في هذا؟

في العـــام الماضي، ولدى إقامتهم الحديثة في توكايا غراندي، لم يتذكروا شيئاً اسمـــه الـــزياح الاستعراضي. أما في أشتانسيا، وخلال أكثر من أربعين سنة، كان استعراض السيدة ليوكاديا، الذي ينطلق من الحقول، يتقاسم مع استعراضات المدينة الأخـــرى، التـــصفيق الحاد من السكان. لم يكن الاستعراض الأغنى أو الأكبر بل الأكثـــر فـــرحاً أو تأثيراً. فيما هو متعلق بالزينة والأضواء لم يكن أحد يتجرأ أن يـــزاحم استعراض عائلة ألينكار الذي، بالإضافة إلى مظاهر الإثراء، كانت ترافقه القراءات والممارسات الحميمة. كانت السيدة أغلابية والسيد ألينكار زينيو يقومان بالتدريـــبات طيلة العام، حتى إنهما يراجعان الكتب لدراسة كل خطوة وكل بيت شـــعر لتأدية التمثيلية والرقصة المرافقة، تأدية كاملة. وعلى الرغم من ذلك، بمزاحمة الثـــروة والمعرفة، فإن زياح السيدة ليوكاديا الاستعراضي كان جميلاً: كان الموكب يلـــوح علـــى الطريق إلى مدخل المدينة. وتشعل الراعيات مشاعلهن وترفع السيدة الآلهة العلم، فيركض المتفرجون لاستقباله وبين التصفيق والهتافات يرافقونه إلى محلة ماتريـــز. كانـــت السيدة ليوكاديا تنتعل حذاء وتسرح شعرها بفرق يتوسط لمتها البيضاء.

كانـــت الجـــدة والحفـــيدة تـــنوعان الأحاديث معلقتين على مرحلة خروج الاســـتعراض في توكايا غراندي ولا يمكن أن يكون شبيهاً بأشتانسيا، إذ ينقصهما كـــل شـــيء ابـــتداء من الطبل الكبير، الذي لا بدّ من وجوده، ويجب أن يكتفيا بالأكورديـــون والهـــرمونيكا. وأين هي المحلات الكبرى، والشوارع العريضة التي تضيئها قناديل النفط، والدارات الكبيرة والبيوت ذات الغرفتين عند الواجهة المقابلة للطريق لدخولها وإقامة الزياح في غرفة، والرقص في غرفة أخرى: وأين هي الموائد المليئة بالطيبات لاستقبال الراعيات وسائر الممثلين؟ في أشتانسيا كانت الاحتفالات تـــبدأ بقداس نصف الليل من عيد الميلاد وتستمر حتى يوم الملوك المجوس: وفي كل زاويـــة، رقـــصة، ولكن أشتانسيا غدت في العالم المنسي عندما تمّ استبدال زراعة الخضار والحبوب بقصب السكر.

أمـــا في توكايا غراندي، فلا مشاعل نفطية ولا دارات كبرى ولا بيوت ذات غـــرفتين مواجهتين للطريق، بل ثلاث دزينات ونصف من السكان، بالإضافة إلى العاهرات المنتشرات على الطرقات، ورجال القوافل في مكان الراحة المخصص في المستودع، وأجراء يأتون من مزارع أخرى إلى المعرض للمشاركة في الحلقة. وعلى الرغم من هذا لن يكون الزياح الاستعراضي للسيدة ليوكاديا أقل نـــزقاً وتأثيراً.

عندما مرّت أمام حظيرة التاميراندو، أرادت الحفيدة أن تعرف:

– ألا تريدين أن تتكلمي مع السيدة كلارا، يا جدتي؟

– قبل أي شيء سأذهب للتحدث مع السيدة فانجي، وبعدها الآخرون. فإذا رغبت أصبح الزياح الاستعراضي عملاً مشتركاً.

3

كـــان زمـــناً مزدحماً بالمشاعل، إذ لم يكن قد مضى عام ونصف العام على وصـــول الأشتانـــسيين إلى تـــوكايا غراندي حتى بدا لهم وكأنما وصلوا منذ قرن. وكانـــت الـــسيدة ليوكاديا تختصر متظاهرة بالتعقل: لقد ازدهرت أمورهم، هنا، بـــصورة أفـــضل، مقابـــل تحمل الأسوأ. إنها أرض معطاء، عذراء، وخصبة – في أشتانسيا الأرض متعبة ولها سيد – بالإضافة إلى قريب غني يحميهم، وجيران طيبين سيـــساعدونهم، ومواطنين لهم من سرجيبـــي، وتسهيلات من كل نوع، ولكنهم واجهوا، خلال فترة قصيرة الشقاء والموت.

شـــقاء الفيـــضان الذي قضى على كل ما حققوه بجهد ومشقة، وفي الوقت الـــذي كانـــوا يستعدون فيه لجني الإنتاج الأول، تشردوا وتحولت مزروعاتهم إلى طـــين. ولم يكادوا يستأنفون جهودهم ويستعيدون ما فقدوه حتى وصلت الحمى، وأقام الموت له مخيماً في توكايا غراندي.

كان الموت قد هاجم السرجيبيين، مؤثراً هؤلاء. أما الريفيون فقد بدوا أقوى مقاومة للوباء ومنهم من تجرأ على القول إنه يمتلك جسداً مغلقاً على الحمى، يمكن أن يكـــون صحيحاً. بين العشرة من الموتى الذين دفن منهم تسعة في مقبرة توكايا غـــراندي وواحـــد في تاراكـــاس، كـــان الستة منهم من السرجيبيين، والسابعة، كليمنـــتين، كانت قد جاءت من مكان قريب من سرجيبـــي، هو داس الأغواس،

الواقع على الضفة الأخرى من نهر سان فرانسيسكو. اثنان من عائلة فانجي، الزوج إمبروزيو والفتاة ديفا، عشيقة تيساو، ومات اثنان من جماعة السيدة ليوكاديا هما الفتى تانكريدو والشاب ماريوزينو، ومن العاهرات الأربع اللواتي قضين كانت واحدة فقط هي دينايير قد ولدت وشبت في حقول الكاكاو، وكانت كايتانا قد جاءت من بوكين، وغلوريا ماريا من إيتابورنغا.

كانت السيدة ليوكاديا معتادة على التعايش مع الموت. من الأبناء والبنات، والنسبان والكنات، والأحفاد وأبنائهم تكون قد صلّت على أربعة عشر منهم، ومع الذين توفوا في توكايا غراندي يكون العدد قد بلغ ستة عشر. كان موت الآخرين مضنياً، لأن المكان كان مهملاً ولم تكن تعرف عن تلك الحمى حتى اسمها، فيسمونها الحمى التي تقتل القرود. إن الشاب والفتى، يا إلهي، قد انتهيا وهما يتقيئان الحياة من الفم، ومن الأحشاء: مشهد، مخيف أن تراه.

إن استعراض الزياح سيتم، ومعه الرقص في الشوارع، ولن يعيقها عن ذلك موت فورتوناتو، زوج ليوكاديا، وكبير العائلة الذي أسلم الروح بينما يعمل في الحقل ودون أن يصدر عنه صوت، ودون سابق مرض أو إنذار. خلال سنوات طويلة، كان المرحوم يؤدي دور كابوكلو غوستو زينيو، ووفقاً لكلام أهل أشتانسيا لم يكن السي ليوناردو والذي يؤدي الدور نفسه في استعراض زياح عائلة ألينكار يضاهيه في إلقاء نشيد الثور:

"من ثوري نال الردى،
بفعل عين حاسدة..."

مع موت فورتوناتو، فإن تمثيل دور الكوبوكلو غوستورينيو سيتم بواسطة هذا أو ذاك ممن تختارهم ليوكاديا من ذوي الشأن للقيام بالمهمة وإلقاء النشيد. وعندما كادتا تصلان إلى بيت العجوز فانجي تماسكت آراكاتي وسألت:

– من تعتقدين يا جدتي، سوف يرقص الكابوكلو في هذه المرة؟

يا للصدفة، كانت ليوكاديا، تلك اللحظة، تنقب في المشكلة.

– سأبذل قصارى جهدي ليؤدي تيساو الدور.. إنه يبدو كمن دفن نفسه مع امرأته.

– أرى الأمر جميلاً، يا جدتي، ومؤثراً. ألا ترين هذا؟

– إنه شاب عصري، يرتدي ملابس الحداد كما لا أرملة عجوز..

كلمـــة حداد طريقة كلام. إن ارتداء الأسود من الرأس حتى الأخمصين هي رفاهـــية الـــرجل الغني في المدينة وبيوتات المزارع الكبرى، أما حداد الشعب فهو الأحزان والانكسارات النفسية، ومعاناة الصدور، لا يعرض نفسه بالأزياء، يسمونه المعاناة، ويدوم قليلاً، وفي الحياة الشاقة، أين الوقت والراحة للشوق والبكاء؟

4

بدل السيد كارلينيوس سيلفا معالم مستودع الكاكاو، من الداخل والخارج، وأضاف إليه مع ذلك بناءين جديدين يستعمل أحدهما كمقر إقامة ومكتب، ومنح الآخـــر لـــسكن الأزلام، وهـــؤلاء كانوا، ينامون على أكياس مليئة بالقش قرب الكاكاو المخزون، ويستحمون في النهر ويقضون حاجاتهم في الغابة. ومع الإصلاح ربحوا فرشاً من الصوف وسريراً حديدياً... كانوا يقولون إن في السيد كارلينيوس جـــزءاً مـــن الأجانـــب فهو لم يكد يصل حتى ابتنى بيتين: واحداً للأجراء، وآخر مقفولاً بالمفتاح لاستعماله الشخصي.

كـــان هناك من استغرب حين رآه يوماً في المستودع، وراء لوبيسينيو، يرسم المخططـــات، ويتعاقد على الأعمال، ويعطي الأوامر. ولكن النبأ ما لبث أن شاع: لقد تخلى العقيد روبستيانو دي أراجو عن المستودع لشركة كويفمان وشركاه. أما ســـبب القـــرار الذي اتخذه العقيد، فقد راحوا يفتشون عنه في دفن جيرينو ضحية الحمى التي لم تحترم كونه ريفياً.

كـــان العقيد قد ابتنى المستودع عندما، نتيجة خلافه مع السويسريين من شركة ويلـــشمان وشيرمان الذين يبيعهم المحاصيل، انتقل إلى التعامل مع المان شركة كويفمان وشـــركاه الذين، رغبة في إرضائه، عرضوا عليه أن يستلموا الكاكاو الجاف في توكايا غـــراندي عند منتصف الطريق بين مزرعة سانتا ماريانا ومحطة سكة حديد تاكاراس. وأوكل المستودع إلى الحارس جيرينو الموظف الكفوء، الجاد والمخلص الذي يرافقه أثناء المعارك، الجيد التصويب ولكن لا فائدة منه في الزراعة وتربية العجول.

شـــركات التصدير وغالبيتها ألمانية وسويسرية، ومنها واحدة فقط برازيلية – وهـــذه هي الصغرى والأكثر احتيالاً وسرقة وفقاً لأقوال طويلي الألسن – كانت

كلـــها تخوض معركة الحصول على الامتياز في مناطق الكاكاو المختلفة بغية كسب زبائنها من كبار المزارعين، والاحتفاظ بهم... كانت تلك الشركات تسهل السُّلَف لــصغار المزارعين، على حساب الكاكاو الذي سيتم تسليمه، وكانت تعرض على الكــبار مــنهم رفاهية الإقامة والظروف المعيشية والمكاسب المختلفة الأخرى... وبفــضل السيد سيسرو مورا، وعلى الأخص السيد كارلينيوس سيلفا، فإن شركة كــويفمان وشركاه قد وسعت نشاطاتها ضمن حدود منطقة نهر الأفاعي، واضعة يــدها علــى الجزء الأكبر من إنتاج المنطقة. وبغية تسهيل الحياة لمزارعي الكاكاو، وبــنوع خاص الصغار منهم، معتقة إياهم من تسليم الإنتاج إلى المقر الرئيسي في إيلايــوس فــرع إيــتابونا، ومقلصة المسافة للقوافل وبالتالي المصاريف فإن السيد كارلينـــيوس عــرض على كورت كويفمان، الرئيس الأكبر، القريب السابق، بناء مــستودع في تــوكايا غراندي، ذات الموقع الجيد والمضمون مستقبلاً حتى يستلم ويخــزن الكاكـــاو هناك، على غرار ما كانوا يفعلونه لدى استلام محاصيل العقيد روبستيانو دي أراجو.

وإذ كـــان المزارع الكبير لا يزال متأثراً لموت جيرينو الذي لا بديل عنه، فإنه عندما علم بالمشروع عرض التخلي عن المستودع للشركة، فهذه صفقة للفريقين. هكـــذا كـــان، ونتيجة له فإن السيد كارلينيوس سيلفا أقام في توكايا غراندي مع الأســلحة والأمتعة، وهذا حل مناسب وعملي: وكان يذهب إلى إيلايوس مرة في الشهر لتقديم التقرير.

بالإضـــافة إلى السرير الزوجي، فقد جاء معه من المدينة بمنصة ومكتبة أغلب كتبها مكتوبة بلغة أجنبية. أما الذين كانوا يبدون إعجابهم بالسرير الزوجي في بيت رجل أعزب فإنه كان يجيبهم متحبباً، متفكهاً: أعزب، صحيح، أما ناسك، فلا...

كان شخصاً منفتحاً، ذا طبيعة ودودة، وعندما لم يكن يسافر لشراء الكاكاو فإنـــه كان يتمتع بمجالسة الناس، ويهتم بكل أنواع السخافات: وصفات الأكل، والمشروبات وطرق معالجة الربو والسل، وحكايات عن الاستغلال، وأقوال وأمثال شعبية، وأحداث تافهة لا قيمة لها، وبقطعة من قلم الرصاص كان يدوّن ملاحظاته في الحـــياة علـــى دفتر صغير! لهذه أو تلك من الأسباب كان براوليو أحد حراس المـــستودع يقول إن السيد كارلينيوس شخص مثير للاهتمام. كان براوليو قد سمع

كلمتي "مثير للاهتمام" في نـــزل العاهرات في إيتابونا فأضافها إلى قاموس مفرداته المحـــدودة يـــستعملها كمحطـــة كلام عندما يريد أن يفسر ما لا تفسير له: مثير للاهتمام.

عندما سمع السيدة ليوكاديا تعرض فكرة القيام باستعراض الزياح، فإن السيد كارلينـــيوس سيلفا صفق للفكرة بحماس ووضع نفسه قيد أوامرها: كيف يمكن أن أكون مفيداً؟ اغتنمت السيدة ليوكاديا الفرصة لتثير مسألة الطبل الخطير: دون طبل فـــإن الـــزياح لن يكون كاملاً، والتزم كارلينيوس بالحصول من شركة كويفمان وشـــركائه علـــى طبل تهبه الشركة مجاناً: كوني مطمئنة، فلن يتوقف الاستعراض بـــسبب الطـــبل... وبـــدلاً من ذلك فإنه طلب منها طلباً: هل يستطيع أن يحضر التدريب؟ طبعاً يستطيع، ويكفي أن يأتي إلى المستودع الكبير حيث ستتم، ولثلاثة أيـــام في الأسبوع. في أشتانسيا، كان كل تدريب عيداً للعشق، والغناء والرقص. وأحياناً كان يقود إلى الزواج.

5

أعاد النقيب ناتاريو دا فونسيكا معجون التبغ إلى إشبيريداو، واحتفظ بالخنجر في الغمد المعلق على زناره، وأبلغ العقيد بوافنتورا أندرادي رسالة السيدة ليوكاديا،

– إن السيدة ليوكاديا طلبت أن أقول لك إنها تأمل في حضورك الزياح مهما يكن الأمر.

– إنه بلاغ مستعجل: لا تنس يا نقيب أن تتكلم مع قريبتي –. ابتسم العقيد وتذكر.

– العجـــوز الشمطاء! ما زلت أتذكر زياحها. لم أرَ في حياتي أكثر اهتماماً بالاحتفالات من أهل أشتانسيا.

– قالت إن والد سيادتك كان يمثل دور القديس متى، وكان جيد الرقص.

– إن العجوز زي أندرادي كان صاحب ميل إلى هذه الأمور. كان يخرج إلى الاستعراض، ويعزف على المترددة، ويرسم الشيطان، وظلّ هكذا إلى أن مات.

إلى أن مـــات! على شرفة الدارة الكبيرة، أطال العقيد بوافنتورا أندرادي النظر إلى الـــرجلين، ناتاريو ذراعه اليمنى، وإشبيريداو، كلب حراسته... فالاثنان جازفا بحياتهما

من أجله، على السواء. ما كان ممكناً أن يكون هناك، محادثاً، لولاهما. لقد أطلق ناتاريو النار مرتين، وإشبيريداو مرة واحدة، على الأقل، قبل أن يطلق الصعاليك الذين أرسلهم أعداؤه ليقوموا بالعمل الذي استلموا ثقله ذهباً. كانوا قد أقسموا على موته في الصراعات الدامية. عندما كان العقداء وأزلامهم يئنون ويثبتون ثراءهم بالإصبع على الزناد في أشتانسيا، فإن العجوز جوزي أندرادي، العازف على المترددة، ظلّ يستأنس بالحياة إلى أن مات... على الشرفة في الدارة الكبيرة كان العقيد بوافنتورا أندرادي المليونير، القدير، يتأمل في مصير المخلوقين اللذين أمامه.

في المدن دلائل عظمة كثيرة، أحاديث، مقالات ذات عمق، محاضرات، أمسيات شعرية ورقصة الأقنعة السبعة وألف متعة راقية: وكل هذا المجد أصبح ممكناً لأن ناتاريو، وإشبيريداو، ومجموعة الأزلام المتعاقبة الأعداد، وبوافنتورا أندرادي، وإميليومدور، وسلسلة العقداء استلوا جميعاً الأدوات اللازمة وانطلقوا للسيطرة على الغابات، فكل جذع كاكاو كلّف حياة إنسان. أما الأشراف فكانوا يتناقشون ويكتبون عن المدينة، والتقدم، والأفكار الليبرالية، والانتخابات، والكتب وغيرها من السخافات بكلمات كبيرة ومعقدة. لو أنهم، العقداء والمقاتلين، لم يقتحموا الغابات، ويزرعوا الأرض، ومملكة الكاكاو الواسعة، فإن أطروحة الأمجاد الفكرية والثقافية تلك ما كانت لتكون وإن في الأحلام.

عندما سمع ناتاريو يتكلم عن الأشتانسيين، فإن العقيد ألقى على زلمتيه نظرة عطف وأحس تجاههما بالتقدير والعرفان بالجميل. لقد تقدمت به السن فلم يعد ذلك الفارس الذي لا يقهر، وذلك الآمر الناهي المتسلط، سيد الحلال والحرام، الآمر في السياسة والعدالة، وفي دار البلدية ومكاتب إيتابونا. إذا كان لا يزال ممسكاً بلجام السلطة، ويمسك به قصيراً لتجنب الإشكالات، فقد فعل، بالرغم من كل شيء، على أمل أن يرى ابنه عائداً ليستلم القيادة مفسحاً له المجال في الاستراحة بسلام.

إن العجوز زي أندرادي، الرجل الفقير، الموسيقي الهاوي، قد استأنس في حياته إلى أن مات، ولم يتخلّ عن شيء كانت الحياة تعرضه عليه.

– قل لليوكاديا إنني تقدمت جداً في السن ولم يعد بمقدوري أن أرقص في الاستعراض.

– قالت: لو أن سيادتك تذهب فقط للحضور... وللاستئناس قليلاً.

6

كانـــت الحـــياة تمنح القليل بغية مؤانسة شيخوخة العقيد؛ وشيئان مما كانت تمنحهما العزاء والبلسم: الكاكاو والصبية ساكرامنتو.

رؤيـــة بساتين الكاكاو وما لاقته من عناية كانت منظراً علوياً، ومهمة وديعة احتفالـــية. كـــان قد أنهى، برفقة ناتاريو، معاينة الموسم بستاناً بستاناً، القديم منها والحديث، وكل واحد أكثر حملاً من الآخر في ذلك الصيف المجيد الذي بلغت فيه نـــسبة الأمطـــار والحرارة حدَّ الكمال. وكل هذا تعويضٌ عن الخسائر التي سببتها السيول في العام الماضي. كان الحمل الاستثنائي والنضج المثالي للثمار يدفئان قلبه.

كان قد اجتاز أيضاً بساتين مزرعة بوافيشاتا، ولم تكن أشجار الكاكاو هناك تخـــتلف عـــنها في مـــزرعة أتالايا، فقد حظيت بالعناية نفسها ونالت الفتنة التي تستقطب القلوب. لقد كوفئ ناتاريو. وإذا لم تكن المكافأة بقدر ما يستحق – لقد أنقـــذ حياته مرتين – فإنه على الأقل أصبح يمتلك قطعة أرض مزروعة بالكاكاو. وكونه عليماً، شغولاً فسيصبح غنياً. أما إشبيريداو فلم يكن يمتلك مكاناً يموت فيه، وكـــان يحتفظ بأطماره ومستلزماته في غرفة لا نوافذ فيها عند أقصى حدود الدار الكـــبيرة. نـــوم خفـــيف، وسمع مرهف، وينام في ردهة يحرس منها غرفة العقيد واستراحة السيد.

لم يفه إشبيريداو بكلمة، مطالباً، ولم يرغب أبداً في شيء. كان قد وصل إلى مـــزرعة أتالايا بعد النهاية الدامية برفقة ابنة صغيرة. كانت الأم قد ماتت مسلولة وهي تتقيأ الدم أثناء الجفاف الذي أصاب داخل منطقة كونكيستا. وباستعداد أبـــداه العقيد، لا بطلب من الأب، فإن الابنة الصغيرة أنطونيا، الخادمة في الدار الكبيرة، كانت قد أرسلت إلى مدرسة الإرساليين في إيلايوس: وكانت الزنجية الوحـــيدة المـــصطفة في حلقـــة التلمـــيذات، البيضاوات أكثر أو أقل. معلمة متخصـــصة، بذلت جهدها لتعليم الصغار القراءة في مدرسة تاكاراس الصغيرة، وكانت تستعمل النظارات، ولم تتزوج، وراحت تربي العصافير. وكان للزنجي إشـــبيريداو احترام حقيقي لابنته. فكان يعاملها بوقار. ولم يكن ينقص سوى مناداتها بالسيدة. عندما كان يتلفظ باسمها فإنه كان يضيف إليه الألقاب: ابنتي المعلمة السيدة أنطونيا.

بينما يجلس إشبيريداو عند سلم الشرفة، وناتاريو عند حافة المقعد الخشبي، كان العقيد، بين زلمتيه، يفكر في الحياة والشيخوخة والمباهج القليلة التي بقيت له. ومن المطبخ كان يصل صوت ساكرامنتو مع جرحة موال تغنيه:

"الزرزور عصفور أسود،

والعندليب بلون القصب..."

كان فنتورينيا يغرق نفسه في ملذات الريو دي جانيرو. وكانت السيدة أرنستينا، زوجته المقدسة، تصلي وتضع النذور في إيلايوس، وأدريانا، فتاة الهوى، على طريق القداسة، هي الأخرى، لم تكن تفارق حلقات الروحانيين؛ الزوجة والعشيقة كلتاهما مع دعوتيها الإلهيتين: إنهما أخصاؤه من ناحية الإثراء، أما في المزرعة، حيث كان يطيل الإقامة أكثر فأكثر، فإن ناتاريو، وإشبيريداو، وساكرامنتو هم أخصاؤه أيضاً، من الناحية الثانية. وحتى لا يموت في وحدته، فقد منحته الحياة الصبية ساكرامنتو، ومن المؤسف أن تكون هذه قد تأخرت إلى هذا الحد.

أوقفت ساكرامنتو الغناء وظهرت عند الشرفة مع إبريق القهوة الطازجة الحارة والمعطرة تصب القهوة في فناجين صغيرة، وانتفض العقيد وقال:

– إن لدى إشبيريداو رغبة في كأس كاشاسا...

– هل هو وحده الذي يرغب؟ – مازحت الصبية المعتادة على عادات المزارع الكبير.

– أعتقد أن ناتاريو قادر على القبول. فماذا تقول يا ابن العم؟

– إذا كان لمرافقتك فأقبل بكل سرور...

ضحك العقيد مرتاحاً، إذ كان يحس بأنه بين أخصائه، وكان مجرد حضور الصبية يعادل منظر حقول الكاكاو فيدفئ قلبه. وجمعت ساكرامنتو الفناجين وعادت مع الإبريق والكؤوس الأخرى – التي كانت كؤوساً ناعمة وسريعة العطب لا تتسع الواحدة منها لأكثر من جرعة من الكاشاسا، وعندما عادت ساكرامنتو لتنحني أمامه، وهي تقوم بالخدمة، لمح العقيد تحت صدريتها انحناء وحجم الثديين وأحس بهما عند أعلى يده التي ارتفعت عمداً، فإذا الرغبة تصعد إلى عينيه وتحرق صدره ممتزجة بجرعة كاشاسا.

عند شرفة الدار الكبيرة كان العقيد يفكر في الحياة، والشيخوخة، والقليل من المسرات، والكثير من المشقات التي لا يخضع لها إنسان: فمع تقدم العمر تبدأ المسافة تتسع بين الرغبة والاحتراق، وبين التفكير في أن يظل منيعاً والحقيقة في أنه لا يستطيع أن ينتصب. وكان ناتاريو وإشبيريداو يحترمان ساعات صمته، ولم يكن قط ضرورياً أن يتبادلا بينهما الكلمات ليتفاهما: حتى إن النقيب كان يتكهن.

إن الاحتفال بالزياح يعتبر لهواً للشباب، ولكن بحق الشيطان ماذا لديه ولدى ليوكاديا ما يفتشان عنه مع الأغنام والراعيات؟ هي، وإحدى قدميها في القبر، وهو على حافة الانحناء: على الحافة؟ إن العجوز الشمطاء تريد أن تموت فرحة. إن الناس الأقوياء لا يسمحون لأنفسهم بالانهيار: كانوا قد فقدوا اثنين في الوباء، شاباً وفتى. العجوز زي أندرادي أيضاً كان قد تمادى في المجون إلى أن مات.

إن زياحه فهو حقول الكاكاو... وراعيته هي الطيبة ساكرامنتو والسيدة الإلهة التي تحرسه. هذا كل ما بقي له. قلب كأس الكاشاسا إلى جوفه. وأمر، بين جد ومزاح:

– اتركي القنينة هنا، فهذه ليست جرعة تقدم إلى إشبيريداو.

ثم توجه إلى ناتاريو، بصوت متعب:

– قل لليو كاديا إنني لا أعد بالمجيء، والأرجح أنني لن آتي. كنت أرغب في ذلك. إما أن تأتي أرنستينا إلى هنا، أو أنني سأذهب لتمضية العيد في إيلايوس.. إن الوعد وعدم الوفاء به مسألة لا تعجبني.

كان الأصيل يتلاشى فوق حقول الكاكاو... وعند النهر كانت زقزقة طائر ليل تنازع في فم أفعى. في الصالة الداخلية، كانت ساكرامنتو، صبية العقيد، قد أشعلت قنديل النفط.

7

انطفأت الشمس في النهر بعدما اغتسلت بالدم. ظلّ الزنجي كاستور أبدووين، ابن شانغو وعصبتي أوشوسي وأوشالا، واقفاً، دون حركة، قرب مدخل محل الحدادة الذي ولجت إليه الزنجية إيبيفانيا مفتشة عن الطفل. إنه ابني، قالت، ثم دخلت. كانت الغيوم حمراء تطوف في السماء، وامتزجت العتمة بالضوء. في الجو

الملـــبد، إنذار بالتهديد، وإعلان عن خطر، فما العمل؟ - سأل كاستور نفسه: - كيف يواجهها ويقول لا؟

ها هي الريح تهب مفاجئة، مرطبة، آتية من الشرق، تحرك صفحة مياه النهر، وتجـــتاز الغابـــة، ووسط الفلاة بين المستودع الكبير ومخزن التركي، امتدت الريح حاملة معها طبقة كثيفة من الغبار، تقسم العالم إلى نصفين: أعلى وأسفل: في ضوء النهار دفء الحياة، وفي الآخر ظلمات الليل وبرد الموت. وبالتالي فإن طبقة الضوء لم تعـــد كـــثافة غبار بل ظهوراً عملاقاً ومخيفاً. إن القسم الأسفل يغرق في الليل ويـــرتدي أطماراً قذرة اتسخت بالقيء والبراز، وأما القسم الأعلى فيضيء بالنور ويتقد بالمشاعل الملتهبة.

إن الصورة الكاملة مع شعرها الذهبي ومعطفها المكون من النجوم، لم تتضح إلا لاحقاً عندما ارتدى الأفق الظلمة وغاص راحلاً إلى الأبد. لم يعد شيئاً من هذا العالم.

رآه تيـــساو أبدووين يأتي من الفراغ، عاصفاً منطلقاً، ممتطياً الإعصار، مرتفعاً بـــشكل دائـــري ليطال السماء... ركن الزنجي إلى خوفه، وانحنى احتراماً، ثم أقفل عينيه ليتجنب العمى وتلفظ بتحية الأموات: إيبا بابا: وبينما يلوك جملاً في المناجاة، أمـــره "الأوغـــون" بفتح عينيه والتقدم لسماع ما كان عنده ليقول. وجاعلاً من الضعف قوة، تقدم الزنجي لملاقاة "بابا" وهو يهز رجليه: كان قد فقد السيطرة على حـــركاته. وعندما أصبح على مقربة منه أحس بعبء يثقل على صدره، وبدوخة وتعـــب، كما لو أنه سيموت هنالك وفي تلك اللحظة بالذات. كان "أوغون" ديفا الذي أعلن عن نفسه، ولسبب طارئ جعله يمتطي ريحاً من النار الصحراوية: كان قـــد جاء من الماوراء تفتيشاً عنه. لقد آن الأوان، تعصف في رأسه تيارات الذهول، وتخذلـــه رجلاه. لذلك لم يتمكن، بغير صعوبة، من الوصول إلى حجر يجلس عليه مطـــيعاً أمـــر "بابـــا" ووجد نفسه عند مداخل الليل التي لا تزال مقفلة، أمام أحد "أوغونات" إيمانجا، ولكنه لم يره إلا من الخصر إلى الأسفل، أطمار مقرفة تكسوه، تفـــوح مـــنه عفونة الحمى، وتعرض قذارته القرفة بينما رجلاه مكبلتان بسلاسل شـــبيهة بتلك التي عرفها صغيراً في مزارع قصب السكر: كانت تلك السلاسل قد استخدمت لتكبيل أرجل العبيد لمنعهم من الهروب إلى الحرية.

لم يـستمكن تيساو من أن يميز الوجه المنعكس على الأعالي، ولكنه تعرف إلى تموج صوت ديفا يهمس في أذنيه كلمات الدلال والغنج التي غدت مألوفة لديه: يا أبـيض إلي "سـوداؤك" وأنا هنا. كان الصوت متألماً، تقطعه التنهدات، يخرج منه التذمر والألم. ما هو السبب في كل هذا الألم العميق؟ هل تريد أن تعرف؟ سأقول لـك فاسمع جيداً: لقد بدأت التهمة. سألت لماذا لا يعتقها في عالم لم يعد عالمها، ويتـركها مـربوطة إلى كراسي الحزن والتمرد؟ أنا التي مت في اجتياح الطاعون، مجـبرة على الحياة، وأنت الذي بقيت حياً، تبدو ميتاً، وكل شيء بنقيضه والعكس بـالعكس، وكـل شيء خلاف لما هو منصوص. الويل، يا أبيض، إن سوداءك، تقـضي العقوبة، لأنك حكمت عليَّ، ولم يعد لي سلام. لماذا تريدني عبئاً عليك. حرّر موتي واحتفظ في قلبك بذكراي حية. لماذا تحتفظ بأطماري قرب أطمارك في تنكة النفط؟ أطلق سراحي من السجون: خذ أطماري وأعطها للياو ودينورا، فإنها لا تزال صالحة للاستعمال. وضع المنحوتة في معبد "الأوريشاس" لأنني الآن مشرفة وغـدوت "أوغونا" لإيمانجا. استدعِ إيبفانيا ابنة أوشون وإيشو ابنة يانسان وارقص معهمـا رقـصتي المفضلة: إنك لم ترقصها حتى اليوم. حرّر موتي الذي تعتقله في صـدرك وعد إلى الحياة كما كنت تحياها قبل أن تعرفني. أريد أن أسمع ضحكتك النقية والمفرحة. لا أريد بكاءك ولا يأسك. عُدْ تيساو، عد من جديد رجلاً.

تـوقفت التنهدات، وما كان تذمراً "واتهاماً" ومعاناة أصبح أسلوباً شيقاً: يا أبـيض إلي، واسمـع ما سأقوله لك. قالت وكررت ما قالته ثلاثاً حتى يدخل قولها ويستقر في دماغه القاسي العنيد: إن ديفا نفسها، فقيدتك، سوداءك، أم توفو، من قـادت خطـوات إيبفانيا، وجعلتها تعود إلى محل الحدادة لتعتني بالطفل. إن رجلاً وحيداً لا يعرف كيف يقدم على تربية الأولاد، وتوفو لم يتعلم حتى الضحك، يبدو حـيواناً برياً أكثر منه طفلاً. إن ديفا نفسها هي من أرسلت إيبفانيا لتعتني بتوفو. عـندما مت لم أخلدك، يا أبيض أنت أيضاً قد تحولت إلى حيوان، إلى شكل، إلى إنسان – ذئب. لماذا تبكي ما دمت أريد أن أسمع ضحكتك؟

عـندها فقـط رأى الوجه المضيء. والصورة الكاملة لأوغون: لقد تحرر من العواطـف والأطمـار، وارتـدى النور. إن ديفا، بملامح الفتاة، وإيمانجا بشعرها الطويل، كانتا واحدة، وهذه الأمور ليست للتفسير بل للفهم.

وحلقـــت ديفـــا فوق النهر والفلاة.. وبشفتيها مسّت وجه الزنجي ونفخت الحياة فيه من فمها، وأيقظت رغبته، وبسلام مع الموت اختفت في اللاشيء.

الـــذين رأوا الزنجـــي كاستور أبدووين جالساً فوق حجر وعيناه باتجاه النور الذي تحول إلى غبار أخبروا أنه نهض وهو لا يزال غائباً وأخذ يقوم بحركات راقصة كأنها أعمال سحر. وإذ أخبر الآخرون فضول عبد الله فقد سارع الأخير إلى المكان قادما من مخزنه:

- هل تحس بشيء يا تيساو؟

وإذ تفاجأ، فإن الزنجي ابتسم:

- لم يكن شيئاً. كنت نائماً فصحوت.

لقد استيقظ مبتسماً: أخبار جيدة.

8

كـــان تيـــساو قد فكّر بتمثال مزخرف لإبيفانيا دي أوشون. في أيام الوحدة والمعانـــاة، الـــوحدة عبء ثقيل، والمعاناة خانقة. كانت أوشون قد جاءت لترافقه وتساعده في مهمة الجمع بين الذين كانوا يعيشون غير مكترثين، ومتباعدين، وكل واحـــد يعمـــل لجهته كما لو أن الجار لا وجود له. إن الاثنين معاً حطما الوحدة الموحشة وهيئا للعيد في زمن اللقاء والفراق.

أمـــا ديفـــا إيمانجـــا فقد صنع له كاستور أبدووين تمثالاً من الفضة في زمن الـــشكوك والانكسار: الشك جرح ظاهر والانكسار يستهلكه. كانت إيمانجا قد جـــاءت من سرجيبـــي على متن سفينة القمر وربطت المشكاة إلى أرجوحة النوم. يا أبيض، يا سودائي، كم كان الأمر طيباً: في الأرجوحة كان العالم يبدأ، وينتهي.

مـــع موت ديفا عادت الوحدة إليه مختلفة. الآن لم يكن منشأها الملل واتساع الوقت في المكان الذي فيه يقيم. لقد كانت الوحدة في صدره لا خارجه، ولم يرد أن يعطي الطفل إلى جدته، وعماته، ورفض عرض زيلدا: إني سأعتني به وأربيه مع أولادي.

ولكن وجود الطفل لم يكن يقلص من غياب ديفا، أو يعزي: بل على العكس كان يجعل الذكرى أكثر تأثيراً وأشد إيلاماً.

إنه طفل بلا أم يتربى في الإهمال. كان تيساو أحياناً يشعر بالذنب لإبقائه معه، ولكــن، كـيف ينفصل عنه؟ إن صرخة كوروكا، في ليلة اللعنة، ما تزال ترن في مسمعيه: هل نسيت يا أحمق أن لديك ابناً! ولكي يقوم بالواجب الذي تركته ديفا إرثاً له، لم يقتل الزنجي أبدووين نفسه. خلال الوحدة، وفي الإهمال، ثلاثة حيوانات تعيش في بيت الحجر والطين: توفو، تيساو، وألما بينادا. في مياه النهر وبين ذراعي الأب كــان توفــو يــتعلم السباحة، وفي محل الحدادة كان يتعلم المشي، ويدب، متمــسكاً بالكلب... وكان التركي فضول قد جاءه من إيلايوس بمصاصة صغيرة من المطاط كان توفو يعضها بأطراف أسنانه الطرية. إنه طفل بلا أم.

وقــف تيساو عند باب محل الحدادة. عندما سمع ضحكة الطفل، متجددة، آتية من الداخل، ظلّ واقفاً منتبهاً إلى ضحكة ابنه. إن توفو لا يعرف الضحك، كانــت ديفــا تراقب ذلك وتقول، إنه يبدو كحيوان غاب، بينما تيساو يبدو شــكلاً. كانت تلك هي الحقيقة. كان يسرع إلى الطفل عندما يبكي الأخير. فقط، لإعطائه ما يأكل أو لتنظيفه من البراز وكان يغسله صباحاً تحت الشجرة، وعند المساء في النهر. أما الباقي فيهتم به الكلب. أما هو فقد تحول إلى إنسان – ذئب.

كــان الــثلاثة يلهون على فراش القش: توفو، ألما بينادا، وإيبيفانيا... وجمع تيــساو نفــسه قربهم. كانت إيبيفانيا قد سمعت أن حذّاء الحمير لم يعد نفسه الذي عرفته، إذ نسي الضحك، وظلّ يعيش ليعيش. من اخترع هذه السخافة؟ لقد كان هــنالك، يــضحك، تيــساو الذي عرفته دائماً. لم يكن أحد يعرف أن يضحك بالسعادة التي يضحك بها.

– هل جئت لتبقي حقيقة؟

– ألم تسمعي أتكلم؟ ولن أغادر المكان حتى وإن طلبت مني.

لم تقــل ذلــك بصوت تحدٍّ، بل ليعرف ويوافق. رفعت عينيها إلى كاستور أبــدووين الــذي كان عشيقها في يوم. كانت قد أقسمت متمردة حانقة على ألا تعود أبداً إلى رؤيته.

ولكن ما كادت تعرف معاناته وشقاءه، وتحوله إلى كلب ملعون، حتى رأت رجليها عاجزتين عن الطاعة: وها هي أمامه. إنه لا يزال يحتفظ ببريقه السابق.

– لم آتِ لأحـــتل أرحوحتك، وتستطيع أن تملك كل النساء، لا يهمني. إذا كان عليَّ أن أنام هنا فمن أجل الطفلِ، وأستطيع أن أنام معه على فراش القش. لم آت بنية مصاحبتك وتبني الطفل، وأقسم بالله. كل ما أريد هو أن تتركني ألهو معه وأهتم به. كل من هو طفل يحتاج إلى أم، وكل امرأة تحتاج إلى طفلٍ أو طفلة على الـــسواء. هل تعرف أني كنت قد رزقت بولد. لم أخبرك بذلك أبداً، ولماذا أفعل؟ كان ابني قد مات وهو في سن توفو الآن... أردت في يوم أن أموت يا تيساو...

لقد فعلت جيداً بمجيئك. إنما هي من أتت بك.

– هـــي؟ يمكن. لقد علمت بكل شيء من كوسمي. كنت ذاهبة إلى إيتابونا، و لم أكد أجتاز نصف الفرسخ حتى أدركني فقادني إلى توكايا غراندي.

كان الطفل يتململ متدللاً مفتشاً عن الاستئناس بإبيفانيا.

– إن توفو يحبك. – تكلم الزنجي كما لو أنه يعلن عن ترحيبه.

– هل هذا اسمه أم لقبه؟

– إن اسمه "كريستوفاو" تيمناً بعمي. أما توفو فهو اللقب الذي أعطيته إياه.

مدَّ الطفل ذراعيه إلى أبيه، وغطى الكلب ألما بينادا جزءاً من رأسه، أما الزنجي كاستور أبدووين دا أسونسيون فقد انتهى من الوصول إلى البيت عائداً من أعماق الجحيم.

9

الله القديـــر على كل شيء، العليم، وحده، ولا أحد غيره يستطيع أن يعرف إذا كـــان زياح السيدة ليوكاديا سيتحول مع الوقت إلى تقليد في توكايا غراندي مكـــرراً ما حدث في أشتانسيا. لقد توقع السيد كارلينيوس سيلفا أن الحدث نفسه سيتكرر هناك.

كـــان الاستعراض بالمناسبة يتم في أشتانسيا منذ أربعين سنة: التمثيل الخرافي للـــثور والخروف كوبوكلو، وحبال الراعيات، والجوقة الموسيقية التي يميزها الطبل. كـــان الطـــبل يـــوقظ الشباب، ويجعل الأجنحة تنفتح، ويثير حماس الناس. إن ما ســـيحدث في زياح السيدة ليوكاديا في توكايا غراندي، بعد ذلك العام من الظفر والمجد، يعرفه الله وحده، إذا كان يعرف حقاً.

مـــا هـــو مـــؤكد وجميل أن الرقص، والحب، والعشق، والاحتفال الجنوني الجماعـــي، أثناء التدريبات، قد نشطت كلها، ومنذ أواسط كانون الأول/ديسمبر وحتى يوم الملوك المجوس.

خلال الليل والنهار من احتفالات الملوك المجوس ظلت الناس المتميزة تستذكر طيلة العمر، عندما شاهدت السيدة ليوكاديا في يومي الخامس والسادس من كانون الـــثاني/يناير وهي تجتاز باب المستودع الكبير، منتعلة، وقد فرقت شعرها الأبيض عـــند منتـــصفه. وتواكب خلفها موكب الراعيات بالملابس التي تمثل كل رمز من الـــرموز، ليرقصن في الفلاة حيث كان الشعب ينتظر، مجتمعاً، وفي البيوت الخاصة ابـــتداء مـــن دار النقـــيب ناتاريو دا فونسيكا حيث زيلدا تقلي شرائح لحم البقر المغمسة بطحين الذرة.

قـــبل تلـــك الـــنجاحات الـــتي لا مثـــيل لها من كانون الثاني/يناير، كانت التحـــضيرات خـــلال عشرين ليلة من العمل الدؤوب والمتواصل تم خلالها وضع الخطـــط الـــضرورية للالتحاق بالزياح. وكان النقاش عاماً - ولكن الفتيات كن يحتفظن بالتفاصيل المتعلقة بملابس الراعيات. أما القرارات فيمكن القول إنها اتخذت بالإجماع: كانت السيدة ليوكاديا تقرر وحدها، فيصفق لها الباقون بأكف ملتهبة.

كل يومين كانت الحيوية تزداد مع التدريب على الموسيقى وخطوات الرقص وعلـــى المـــراحل وإلقـــاء الأناشيد. ووفقاً لما قالت ليوكاديا إلى "المبجل" السيد كارلينـــيوس ســـيلفا - كانـــت قد حصلت على هدية الطبل - إن العيد بدأ، مع التدريب الأول وسيمتد طيلة شهر كامل.

الموجودون لاختيار الأدوار، كانوا يستعملون، بل يستغلون الحق في التصفيق للتعيينات التي تقوم بها السيدة ليوكاديا: إنها قائدة ماهرة. ولا تسمح بالاعتراضات وذات قبـــضة حديدية بائنة العظام... علّق النقيب ناتاريو دا فونسيكا أمام التركي فضول على وجه الشبه في تعيين المرشحين لانتخابات رئيس وأعضاء بلدية إيتابونا: مجلس السياسيين وهو يعلن الأسماء التي يقترحها العقيد بوافنتورا أندرادي. ألم يكن الاثنان قريبين، المزارع الكبير والعجوز الشمطاء؟

بيـــنما يجـــتمع المـــشاركون والفضوليون في المستودع الكبير - عملياً كانوا مجمـــوعة ســـكان توكايا غراندي - فقد وزعت السيدة ليوكاديا الأدوار... أما

حفيدتها آراكاتي فستقوم بدور السيدة الإلهة لأن سنيها الخمس عشرة قد مرّت، بسبب الحمى، كالغيوم البيضاء. أما فافا فقد ارتدى ملابس بهلوان وسيؤدي دور متى الذي تمّ توقيفه وسجنه على أيدي الجنود. وكان أمانسيو ليموت قرفاً، لو أن دور الجاراغوا وقع على الآخر. وسيحمل أوريليو جلد الثور حتى يكون أقرباء فانجي مشتركين في الزياح. أما زينيو، وإيدو، ودورفالينيو، وزيليتو وجايير، فإنهم سيشكلون زمرة الجنود الذين سيلقون القبض على المتهم بقتل الثور. أما تيس الغنم كابوكلو غوستوزينيو وهو الذكر الرئيسي الذي يقابل ويحاور السيدة الإلهة، فغداً صباحاً تذهب ليوكاديا إلى محل الحداد لتدعو كاستور أبدووين للقيام بدوره. وإذا كانت قد ذهبت قبل أسبوع فإنها قوبلت بالرفض... واستفادت ليوكاديا لتقدم عرضاً إلى الزنجية إيبيفانيا لتقوم بدور راعية ولكن الفتاة شكرت وانحنت للاعتذار بسبب الطفل.

10

ابتداء من التدريب الأول، والأفضل القول من اللقاء الأول لاتخاذ القرار في شأن بعض النقاط المهمة في زياح السيدة ليوكاديا مع الاستعدادات للاستعراض في توكايا غراندي الذي لم يكن شبيهاً بذلك الذي كان قد أفرج سكان أشتانسيا خلال أربعة عقود. فهذه، مدينة كبيرة ومكتظة بالسكان، في ولاية سرجيبي، غنية ومزدهرة، وقد استضافت الإمبراطور بطرس الثاني وكانت حاشيته ترتدي ملابس الحضارة في حين أن توكايا غراندي لم تكن تعدو كونها مكاناً متواضعاً للعاهرات ورجال القوافل مع دزينات قليلة من السكان، وكيف يمكن أن يكون موكب الراعيات مساوياً؟ ولكن، مع هذا فإن الاستعراض الذي نظمته السيدة ليوكاديا في توكايا غراندي اعتبر كبيراً ورائعاً.

وتجنباً للكذب والقول إن الزياح لم تشترك فيه أبداً فتاة ذات شهرة سيئة، فإن الملكيين أكثر من الملك تذكروا دولورس وهي تتلوى مع الحبل الذي شدّت به ابنة السيد روميو الخياط، فهذه كانت تذهب إلى الفراش مع أصحاب شركة النسيج مقابل المال، ولكن بابها لم يكن مفتوحاً لأي كان، وكان السيد روميو يخيط مجاناً زي متى وخياطته تقتضي يداً فتية ماهرة. وهي بعدما ذهبت لممارسة المهنة في

نـــزل نينيتا في أراكاجو فإنها لدى عودتها إلى أشتانسيا بمناسبة الاحتفالات، بقصد المـــشاركة في الاستعراض، وجدت أن دورها قد أوكل إلى بديلة عنها، ولم يعطوا تفسيراً لذلك لأن الكلام عن الأسباب ليس ضرورياً.

كـــيف يمكـــن في توكايا غراندي تنظيم مجموعات الراعيات دون مشاركة العاهـــرات؟ في الـــبدء يجب القول إنه لم يكن هناك عذارى بالعدد الكافي لتكوين الحـــبلين اللـــذين ســـيكونان مجموعتين تتألف كل واحدة منهما من ثماني فتيات. وبصورة عامة فإن المتزوجات والعاشقات كن يقدمن الاعتذارات بسبب الابن، أو الـــزوج، أو العـــشيق. إن الحل كان في الرجوع إلى فتيات الهوى إذ يستحيل في تـــوكايا غراندي إقامة الحدود بينهن وبين العائلات. ما هي مهنة جاسنتا كوروكا فلـــيقل من كان قديراً، وحباً بالله، هل هي قابلة أم امرأة هوى؟ شهيرة في المهنتين، لأنهـــا ذات يـــدين ماهرتين وخبيرة في الشؤون الأخرى على السواء، فإنها كانت تكسب خبزها من فراش الدعارة، ولكنها لم تقبل قط أن تتقاضى أي مال بدلاً عن أتعاب الولادات التي تقوم بها. لقد ولدت كل الأطفال الذين ولدوا هناك بمن فيهم أبـــناء هيلدا، فاوستا وزيفيريا، وقد حملت ابنة الأخيرة اسم جاسنتا تيمناً واعترافاً بالجميل، لأنها ولدت في ليلة الفيضان. إن من يحاول أن يمانع في حضور العاهرات ومشاركتهن في رعاية توكايا غراندي فإنه لن يتمكن من إقامة الزياح وسيدفع ثمن فعلته الشنيعة.

وهكذا فإن كتيبة كاملة من النساء تنكبت مسؤولية أزياء الراعيات، فقد أخذت الخياطة ناتالينا على عاتقها خياطة زي البهلوان من ثوب شيت موشى، كما تنكبت تجهيز قناع النور وإعداد العلم.. وبغية استكمال الشكل الكابوكلو غوستوزو فقد استعاروا من الإسطبل قبعة وسترة جلديتين. ولم يكن من أعباء لتـــشكيل فـــرقة من الجنود في توكايا غراندي، فهؤلاء قد تحولوا إلى مقاتلين وأزلام مـــسلحين مـــدججين بالبنادق وبيوت الرصاص والخناجر. أما السيدة لـــيوكاديا فإنهـــا اتخذت مسؤولية إعداد فستان السيدة الإلهة حفيدتها آراكاتي كـــونهم لم يستطيعوا الاحتفال بعيد ميلاد آراكاتي الخامس عشر بسبب الحمى الـــتي اجـــتاحت توكايا غراندي خلال الشتاء والسيدة ليوكاديا ستعوض عن ذلك، خلال الصيف.

كان الصيف قد حوّل الطين إلى غبار، وضوء الشمس يغذي أشجار الكاكاو معطياً إياها القوة لتزدهر وتتحول إلى ثمار لا مثيل لجمالها. كان الشعب يمشي مزهواً بالفرح، وقد نسي عام لعنة الطاعون والفيضان: فما مضى قد مضى.

11

ممتطياً جواده خبباً على مقربة من العقيد بوافنتورا أندرادي، فإن ناتاريو لاحظ أن العقيد قد أصبح متلاشياً. فبين ليلة وضحاها انقضَّتْ الشيخوخة على المزارع مضيفة التجاعيد إلى تجاعيده، ومطيلة فترات صمته الحزين.

كان يرافقهما إشبيريداو وحادي القوافل جويل في الطريق إلى محطة تاكاراس لانتظار السيدة أرنستينا التي كانت قادمة لقضاء الأعياد في مزرعة الزوج، وكان البغل همالايا، هكذا كانوا يسمونه لضخامة هيكله وارتفاعه، يرافق مطية حادي القوافل وعلى متنه العريض سرج خاص تمت التوصية عليه ليتمكن من احتواء أشياء زوجة العقيد القديسة.

إذ كان قد رآه خلال أيام متتالية في أتالايا فإن ناتاريو لم يكن قد انتبه إلى ما بلغته الشيخوخة من العقيد، ولكنه في ذلك الصباح، وخطى الحيوانين متوازية، فإن النقيب تمكّن من أن يتفحص آثار السن المتقدمة على الوجه المرهق ولاحظ التنفس المجهد: فأحس بالخوف.

أشار العقيد إلى ناتاريو ليرافقه عن قرب فلكز الأخير جواده بالمهماز وتقدم. أما المرافق وحادي القوافل فقد مكثا على مسافة ملائمة.

– قل لليوكاديا إنني لن أتمكن من الذهاب إلى الزياح مع أرنستينا. إني متألم لهذا لأن ساكرامنتو كانت ترغب في الذهاب؛ طلبت منها أن تذهب وتبيت مع ابنة العم زيلدا، وهل تعرف بما أجابت؟ تخيل فقط: قالت إنها لن تذهب، لأنها إن ذهبت فلن يبقى في البيت من يساعد أرنستينا؛ إنها صبية طيبة.

احتفظ بالصمت لبرهة كما لو أنه كان يفكر في رفض ساكرامنتو، ثم قال بصوت خفيض:

– اسمع جيداً يا ناتاريو فأنا أريد أن أقول لك شيئاً.

– أوامرك يا حضرة العقيد.

- إنك لم تتخلَّ عني في حياتي وأريد ألا تتخلى عني في مماتي.

وكأن تياراً قد مسّه فغدا ناتاريو مستنفراً، أي طلب سيطلبه منه العقيد؟ إنه لا شـك سوف ينتزع منه الوعد بالبقاء في خدمة الابن كما كان في خدمته، محتفظاً باللقب والموجبات الإدارية في مزرعة أتالايا. لم يكن في نيَّة النقيب أن يعطي وعداً كهـذا. إنه يعرف كم من الضرر سيلحق بمزرعة بوافيشتا إذا ظلت أراضي العقيد مـوكلة إلـيه: إن الأغراس، والمواسم، والأعمال، والعمال لعبء ثقيل ومسؤولية كبرى. لن يكون له سيد آخر.

لقـد كان العقيد بوافنتورا الأول والوحيد، وسيكون الأخير. بعد النقيب لن يعطيه أحد الأوامر. وظل ينتظر مستنفراً قواه:

- اسمع يا ناتاريو، عدني بأنني إذا مت فسوف تعتني بساكرامنتو. - كرّر: إنها صبية طيبة.

وإذ تحرر من المخاوف والارتباكات، وعده ناتاريو:

- إذا حدث أن مات سيدي، قبلي، فيمكنك أن تطمئن على الصبية. إن من تخصك كأنها ابنتي. سأصونها وأحافظ عليها.

قطعا مسافة وهما صامتان. اختفى القلق عن وجه العقيد المتعب الهادئ، وهدأ صوته. هكذا كان يحدث دائماً عندما يتخذ قراراً.

- إنهـا تـتحمل مـتاعب عجوز دون أن تستفيد من شيء. هل تعرف يا ناتاريو؟ سأشتري بيتاً في إيتابونا وأضعه باسمها.

عن إذنك يا حضرة العقيد؛ أعتقد أنك تفعل جيداً.

12

أضـيئت قناديل الراعيات، فانبعثت منها الأضواء باهتة على الطريق التي تقـود إلى دار النقـيب ناتاريو دا فونسيكا حيث سيبدأ زياح السيدة ليوكاديا بالعـرض ليلة يوم الملوك المجوس. خلفها كان جميع السكان: شخص واحد لم يهـتم بتقديـر تطورات مشهد الراعيات: هو السرتاوي التاميراندو. إن العيد بالنـسبة إليه يتلخص في ظهور ساو عند خيمة الماعز. لم يكن يحتاج إلى شيء آخر ليستمر في الحياة.

الصفان من الراعيات وبينهما التمثال تجمعا أمام الشرفة في بقعة الأرض الصغيرة الممتدة حتى جذع شجرة المولونغو. وبإشارة من السيدة ليوكاديا بدأوا بغناء نشيد يطلبون فيه الدخول إلى الصالة متوجهين إلى أصحاب البيت المباركين زيلدا والنقيب. منتظرين عند باب المدخل.

"لقد وصل الموكب،

موكب السمراوات.

لله كم هي رائعة، رقصة زياح الفتيان..."

لم يكن في صالة الاستقبال مكان كافٍ لحركة الاستعراض: التعبير عن سلطة الثور، والتطورات بين السيدة الإلهة أو الكابوكلو، وقفزات البهلوان متى، وهرولة بيستافيرا، ودخول الجنود، والأفضل القول: الأزلام. لا في بيت النقيب ولا في البيوت الأخرى التي تمّت زيارتها لاحقاً... عند كل المحطات في العرض اكتفوا بدورة واحدة، بالإضافة إلى طلب الصالة، كانت تغني الأناشيد تمجيداً للابن الإله:

"ليتبارك في الأعالي.

ليتبارك.

الابن - الإله - المولود..."

في البدء رقص الصفان معاً ثم افترقا. وقد بدأ النزاع على العلم وانقسم الجمهور إلى قسمين. وعندئذ قاموا بعرض شخصي للراعيات، واحدة إثر أخرى وسط الصالة، ودون نيّة الانتقاص من إحداهن، فقد كن جميعاً جميلات بمن فيهن السيدة فانجي الأنيقة، ومن الطراز الأول، والتي أشاعت بين الجميع أن برناردا كانت أجمل الموجودات. وبعد انتزاع التصفيق الحاد، وبينما هم يحملون سرير الخيزران الطفولي مع نجمة ورقية شفافة، فإن الراعية الرائعة سيفانينيا وبيدها الأخرى جاءت إلى الحلقة بطفل في الثانية من عمره ابن بالتبني لزيلدا ولد من بطن برناردا.

ورقصت الأم والطفل احتفالاً بتأسيس الزياح في ربوع توكايا غراندي.

كانت الهرمونيكا والأكورديون تبعث ألحاناً واهية، أما الطبل، الجديد، فقد قام بطبع الاحتفال بطابعه. بأثوابهن الزاهية، المزهرة، الملونة بالأزرق والوردي، الموشاة، وبقبعات القش المزينة بأوراق الشجر والزهور البرية، فإن راعيات توكايا

غراندي رقصن وغنين إلى الابن المولود في بيت لحم وهناك، يمكن معرفة لماذا رأوه في روما...

"لقد ولد الابن،
وشوهد في روما،
يرتدي كسوة موحدة،
عند أعلى المذبح..."

بعد انتهاء منح البركات، كانت هناك استراحة هي جزء من المشهد مخصصة للـــشرب، وللأكل الوفير الطيب، زجاجات الكاشاسا راحت تنتقل من يد إلى يد، وكانـــوا يجرعون منها مباشرة. وبعدما مسحوا أفواههم بأذرعهم فإن ممثلي الزياح بدأوا بغناء نشيد الوداع لأنهم سيذهبون للاحتفال في بيت آخر:

"تصبحون على خير،
سيداتي، آنساتي،
فذهابي من هنا،
سيجعلكم تبكون..."

وإذ أيقظـــتها الأناشيد وقرع الطبول، فإن الببغاء "اذهب ونل المتعة" اهتاجت في قفصها وراحت تصفق بجناحيها وتتلفظ بالشتائم البذيئة بينما كان جمع الممثلين قد انضم لإنشاد المقاطع النهائية:

"إني ذاهبة في الحال،
إلى بلادي،
وسأعود معي بأهلي..."

في الدورة الأخيرة من العرض كان الممثلون يلوحون بالوداع:

"كيلاريو كيلاريا"،
إن نجمة الفجر،
لا تسطع إلا فوق البحر...

نور القناديل الباهتة في أيدي الراعيات عند نـــزول الهضبة، وخلفهن سكان توكايا غراندي وقد انضم إليهم النقيب ناتاريو دا فونسيكا، والسيدة زيلدا، وأولاد الاثنين: المتبنون منهم والشرعيون.

رقصوا وغنوا، أكلوا وشربوا، وانطلقوا محتفلين على هواهم في بيوت ومواقع مختلفة، وحيوا الأشخاص الذين تباروا في المساعدة على خروج فكرة الزياح إلى حيّز التطبيق: الحرفيان كواراسيا وإيلوي كوتينو. لوبيسينيو. التركي فضول. السيدة ناتالينا. السيدة فالنتينا وجوكا نيفس صاحبا النزل المركزي ولم ينسوا كوروكا وبيت الخشب عند أسفل المنحدرات. وختموا طواف التعبير عن الصداقة في مستودع الكاكاو وعلى دوي الطبل الذي تبرعت به شركة كويفمان وشركاه. وشكر القطيع للسيد كارلينيوس سيلفا الاهتمام والمساندة: إن مشتري الكاكاو لم يتأخر عن حلقة تدريب واحدة مدوناً الملاحظات. عندما لا يكون منطلقاً في الهز وسط القلقين من الموجودين.

أما المشهد الأخير أو لنقل الذي لم يشاهد. فإن تسجيله واجب إذ حدث في الفلاة وأمام المستودع الواقع في مكان العرض الأسبوعي وكان الليل قد أظلم. لم يتأخر شخص عن الحضور سوى التاميراندو وفقاً لما رووه. أما زوجته داس دورس فكانت حاضرة ولكنها تأخرت قليلاً لأنها منذ أن غادرت السيرتاون لم تعد ترى سوى مجموعة من الراعيات: كانت تحب كثيراً المشهد! وقد جاء المقيمون عند ناحيتي النهر: الذين يسكنون في الحي السكني والذين يقيمون في الحقول النائية على السواء، الشيوخ، والشباب، والفتيات، والأولاد، أما الصغار الذين جاؤوا خلال موسم الولادة الأخير فقد شوهدوا متعلقين بثياب أمهاتهم.

من رأى ذلك الجمع الغفير من الناس في الفلاة يستطيع أن يعتقد بأن توكايا غراندي مكان مكتظ بالسكان، وقد وصل الكثيرون من المزارع بين أجراء، وقتلة، وأزلام، وأصبحت حركة العبور مكتظة على طريق القوافل في ليلة الملوك المجوس. أما العاهرات فلا تتكلمن. السكان الأصليون الذين لم يشتركوا في الزياح كانوا معتزين به وقد تباروا في الإطراء على أهمية وأناقة الاستعراض الذي نظمته السيدة ليوكاديا فهو خاص، على كل حال، بتوكايا غراندي. أما زياح تاكاراس الذي لا حياة فيه ولا حيوية والذي قامت به نصف دزينة من الراعيات مستعملات أكياساً عتيقة من القنب، مصبوغة، فإنه يعتبر زياحاً تافهاً وموسفاً إذا قورن ما بزياح توكايا غراندي.

عـــندما وصلوا إلى الصلاة فإن ممثلي القطيع كانوا قد بلغوا قمة حيويتهم في دفـء الـــرقص والجـــرعات الناشـــفة وأخذ العرق يتصبّب من الوجوه. وخلعوا أحذيتهم وأصبحوا زنوجاً بما كسى وجوههم من غبار...

تـــوازنت السيدة ليوكاديا فوق تنكة نفط فارغة كانوا قد جاؤوا بها من مخزن اللبـــناني، وبـــيديها البائنتي العظم، يدي امرأة ثمانينية، ضربت كفاً بكف وطلبت السكوت: إن الزياح سيبدأ باجتياز مراحله.

لم تكـــد تبدأ ضاربة كفاً بكف، معلنة عن بداية العمل، حتى توقف الصخب وســـاد صمت مطبق. لم يعد أحد يسمع همسة واحدة. ولم يعد هناك غير تنهدات مرتكبة وخفقان قلوب.

13

وبدأ العرض بنشيد الطلب والبركات، ورقصات الحبال، والراعيات، وهي مـــراحل كانت مشاهدها قد تكررت في البيوت ولكن الجمهور صفق لها. مع ذلك:

"لقد وصل الموكب،
موكب السمراوات،
لله كم هي رائعة،
رقصة الفتيات..."

من الآن فصاعداً غدا كل شيء جديداً، وتبجيلاً، ورفاهية. أفلت الثور من بـــين الأجنحة ليدخل إلى المشهد. لقد أخذ يحمل الموجودين على الهرب مهدداً بنطح الأكثر شجاعة، في حين أن الممثلين كانوا ينشدون نشيد دخول الثور:

"من لديه ثور
فليربطه في الإسطبل
فأنا لا أملك بستاناً
ليسرح فيه ثور..."

ودون توازن يخرجن من المكان، فإن الراعيات كن يحركن أرجلهن بخطوات رقـــص تعـــبيري، مستجيبات لألحان الفرقة الموسيقية. وكانت السيدة الإلهة تلوح

بـالعلم ذي الصفحة الزرقاء، والأخرى بلون الورد؛ على الزرقاء وبحروف وردية اسـم الـزياح، أما على الوردية فكانت الأحرف مخطوطة باللون الأزرق، زياح ليوكاديا بنفيندا دي أندرادي.

"من لديه ثور
فليربطه إلى الوتد،
فأنا لا أملك بستاناً
لثور لص..."

انطلـق الكابوكلو ليجيء بالثور إلى الوسط بعدما أجبر على تقدير الاحترام بالانحناء أمام النقيب وفضول، كوروكا والسيد كارلينيوس سيلفا، والسيدة ناتاليا، جـوزي دوس سـانتوس والسيدة كلارا. ثم دخل البهلوان متى يلهو مع الصغار، ويـداعب النساء. ثم توجّه إلى الكابوكلو عارضاً عليه أن يشتري الثور بعشرينات ثلاث:

"لديَّ عشرون
وجاسي منحتني عشرينين
لأشتري حبلاً
أربط به ثوري"
وكانت جوقة الراعيات تجيب:
"آوي"، "آوي"، "آوي"
ها هو الثور فخذوه..."

وفي حين كان متّى يغني مقطوعته، انطلق الجاراغوا من العتمة، وهو يستخف بملابـس بيستافيرا البشعة، وجسده مخبأ بحصير من قصب الخيزران مكسوة بقماش الـشيت، يرسـل الصفعات والركلات مبدداً المتفرجين ومولداً فيهم الخوف. أما الراعيات فقد رفضن استقباله.

"ها هو المخيف، أتى،
فيا له من حيوان شنيع..."

شـنيع وسيئ التربية، فقد قفز على الثور ونشب بينهما العراك - كان الثور يـستعمل قرنيه بينما الجاراغوا كان مسلحاً بقوى جهنمية - ويستمر القتال حتى

مـــوت أحـــدهما، وفقاً لما علق به متى متوجهاً به إلى الجمهور. وإذ أخذ الثور من قـــرنيه، فـــإن الجاراغوا ألقاه أرضاً، ودون رحمة، قتله، ثم أطلق ضحكة من أسنان رأس الحصان الذي يعتمره. وطلب مساعدة الجزار، واختفى في هذا العالم.

وإذ أطلعهـــا الكابوكلو على ما جرى، فإن السيدة الإلهة دخلت إلى المشهد فـــرأت متى قرب الثور، جريئاً، فأمرت باعتقاله ظناً منها أنه القاتل ولكن الراعيات اللواتي كن قد شاهدن كل شيء على براءة متى طالبن بالإفراج عنه:

"يا السيدة الإلهة

جئت أتوسل إليك

أن تطلقي متى حراً

لأنه صديقي..."

وبينما كانت تسير بين الحبال، رافعة علم الزياح عالياً، وباعتزاز، فإن السيدة الإلهة لم تستجب لتوسل الراعيات، إلاّ أنهنَّ لم يستسلمن ورحن يفتشن عن قرائن جديدة، فاستعملن كلمة حب:

"يا السيدة الإلهة،

جئت أطلب منك خدمة،

أطلقي لي متّى حراً

لأنه حبيبـــي..."

حطت عينا كليدي على زينيو، وعينا شيكا على بالبينو، أما ريكاردينا بعينها السليمة فراحت تفتش عن دودو بيرويا، سيد العصافير. وأما السيدة الإلهة وإذ أثّر فيها الحب فإنها استجابت لتوسلات الراعيات وأطلقت حرية متّى:

"ها هو حر،

ها هو حر،

فقد أطلقت سراحه"

بلـــغ نحـــيب الكابوكلو النهر والهضاب، وردد وادي توكايا غراندي صداه، بينما رافقته الراعيات بمرثية غنائية حزينة:

"من ثوري نال الردى

بفعل عين حاسدة"

كانـــت تلك المرثية إشارة إلى الكابوكلو غوستوزبنيو والسيدة الإلهة فسيبدآن بتوزيع لحم الثور، وهي أطيب المراحل في الزياح، فدنا الجمهور وعقد حلقة حول الممثلين، بدأ الكابوكلو بتقديم رأس الثور إلى النقيب ناتاريو دا فونسيكا:

– إن رأس الـــثور حصة النقيب. وعند كل جزء يشار إليه كانت الراعيات يرددن معاً:

وي. أويا. أوي

ها هو الثور فخذه...

وجاء دور السيدة الإلهة لتقديم الاحترام للسيد كارلينيوس سيلفا:

"إن لحم الفخذ،

حصة كارلينيوس..."

وهكذا، قطعة قطعة تمّ توزيع الثور... فنالت سينيا لحم الكتف، ونال جوزي دوس ســـانتوس الأمعـــاء، أما المعدة فقد نالتها كوروكا، وكالمعتاد نالت الفتيات الـــبطن، أما سلسلة الظهر فمن نالها هو لوبيسينيو، وبينما يستعمل الكابوكلو غو ستوزينيو بلسان تيساو المتفرنس الجزء الأخير فقد اعتبر التوزيع منتهياً.

"أما الجزء الخلفي

فللسيد فضول..."

لم يـــضحكوا أبداً إلى هذا الحد في توكايا غراندي ولكي تعم السعادة الجميع فإن المجموعة أنشدت مطالبة بقيامة الثور.

– من طالب بذلك أكثر من الآخرين، فهم بيستافيرا، جاراغوا، وتيميروزو:

"انهض أيها الثور.

وارقص أيها الثور.

لكل الناس..."

ونهض الثور بخطوة واثقة. قام بالانحناء هنا وهناك. ثم وجّه قرنيه نحو الأولاد وراح يـــركض وراءهـــم. وانـــضم إليهم الكابوكلو، والبهلوان متّى، وبيستافيرا، والراعيات، والجنود الذين جاؤوا من أشتانسيا فتحولوا في توكايا غراندي إلى أزلام وفي طلـــيعة الجمـــيع الـــسيدة الإلهة بكبرياء تحمل علم الزياح الريفي الذي نظمته السيدة ليوكاديا بنفيندا دي أندرادي. اجتمعوا لينشدوا أنشودة الوداع.

14

لـــيس من طيب ليدوم، وتهيأ المشاركون للانصراف، وعدّت الراعيات النقود المعدنـــية ليعرفن أي صف من الصفين سيربح العلم ويستلمه من يدي السيدة الإلهة آراكـــاتي حفيدة السيدة ليوكاديا. وتقدم دودو بيريبا الحلاق ومعلم العصافير ليضع قطعـــة معدنية من فئة الكروزادو، أو لنقل أربعمائة ريس في جعبة ريكاردينا: إنه الـــوله بالتحدي يقود إلى أعمال مجنونة كهذه وبحركة من السيدة ليوكاديا، بدأت المرحلة الأخيرة:

"إني ذاهبة في الحال

إلى بلادي

وسأعود معي بأهلي..."

في تلك الليلة، عندما تلاشى غناء الراعيات، وانطفأت قناديلهن وتمّ جمع أقنعة الـــثور والجاراغـــوا والعلـــم، وتمّ حفـــظ الطبل جيداً في مستودع الكاكاو، فإن الهـــرمونيكا والأكورديـــون دعت المقيمين في الناحية، ورجال الغابات إلى حفلة تذكارية بمناسبة استعراض الزياح الذي كان يودع:

"كيلاريو، كيلاريا

عندما أموت

يستطيع العالم أن ينتهي..."

كانـــت المشاعل آخذة بالابتعاد، فالتقى المنصرفون بفارس يتردد وقع حوافر حـــصانه في ظلمات الليل: كان يمتطي الحصان غير المسروج وينادي على النقيب. وعـــندما وصل أمامه، فإنه وبقفزة سريعة انتصب مترجلاً وراح يكلمه. لقد كان الفارس هو الزنجي إشبيريداو:

- ناتاريـــو لقـــد لفظ العقيد أنفاسه. لقد مات أمامي دون أن يتلفظ بكلمة. جحظـــت عيـــناه، ولـــوى عنقه، وجمدت شفتاه، ثم خرَّ واقعاً: - كان قد تكلم باحتـــراق، ربما أراد به أن يتحرر من المنظر الذي حمله في عينيه وصدره؛ لقد وقع العقـــيد بوافنـــتورا أندرادي ميتاً على مرأى إشبيريداو الذي كان يحرس باب غرفة السيد والزعيم ليدافع عنه ضد أي لص دفعه عدو لينال منه. ولم يتمكن إشبيريداو

بالبندقية، من مواجهة النوبة القلبية التي كانت متربصة في الكمين تنتظر الساعة. في البعيد، كان الموكب ينشد نشيد الوداع:

"كيلاريو. كلاريا
عندما أموت
يستطيع العالم أن ينتهي..."

انخـــنت زيلدا مجهشة بالبكاء: أما النقيب ناتاريو دا فونسيكا، بوجهه الجامد كأنـــه لـــوحة خشب أو حجر: عن إذنك يا حضرة العقيد، فأي خطب أجلّ من هذا!

"كيلاريو كلاريا
لقد انتهى العالم"

مدينة الخطيئة ومعقل اللصوص
زيارة البعثة المقدسة لتوكايا غراندي، للتحقيق، والإدانة، واللعنة الأبدية

1

حمـــلا صندوقين مكسوين بالأقمشة المخملية الزاهية، وضعت فيهما الأواني المقدســـة، والملابـــس الدينية الاحتفالية، والبخور، والماء المقدس، وخمر الذبيحة، وكلمـــة الله، ووصلت البعثة الدينية إلى توكايا غراندي بينما حلة الشتاء الثقيلة قد فرضت نفسها على المكان مطراً خفيفاً لا ينقطع وخطراً في الطرقات وضوءاً نهارياً مقلـــصاً وعتمة ليلية حالكة. راهبان نذرا نفسيهما للتعليم الديني كانا قد هبطا من أعلى سفوح نهر الأفاعي. على امتداد الوادي وتنسيقاً مع اطراد نمو أغراس الكاكاو كـــان المبشران قد لاحظا الدروب الجبلية تزداد، والدساكر تتعدد وتنمو، بعضها أكثـــر أو أقل بؤساً من سواها، ولكن الجميع في تلك الأماكن ودون استثناء كانوا يعيشون في الانحراف والخطيئة.

كـــان الأخ زيكمونت فون غوتشهامر، والأخ تايون داسانتا إيوكارستيا قد جـــاءا ليطوفا خلال شهرين من التبشير المتواصل والمتعب في ولاية الجهالة والكفر الواسعة. وعندما اقتربا من توكايا غراندي وقد امتطيا حمارين قويين ضخمين، كانا قـــد جـــاءا بقلبين مفعمين بالشفقة والغضب. بالشفقة: قلب الأخ الشاب تايون الهولندي المولد، المتدرج الذي سمي كاهناً في روما تمّ اعتماده من قبل سلك الرهبنة الـــتي ينتـــسب إليها مبشراً في البرازيل؛ وبالغضب: قلب الأخ زيكمونت النحيل، الجـــاف ذي السمات الشكاكة، والإصبع الدائم التهديد الديان، وذي الفم الناطق دائمـــاً بالـــتهديد والحرمان من الحقوق الكنسية والأحكام القاسية. واسم عائلته غوتشهامر أي: مطرقة الله.

كـــان وجه الأخ تايون المستدير ينم عن تعب من الرحلة التي لا تنتهي بعدما انـــتهت مع مهمته المقدسة الأولى رفاهية الأمكنة التي يسكنها. وتلك الأماكن التي يـــواجهها الآن تـــرى محرومة من كل شيء بالرغم من كونها غنية ووفيرة الإنتاج للكاكـــاو، السلعة التي لا يضاهيها ثمناً غير الذهـب. أما الأخ زيكمونت الذي يزيد رفيقه الطري العود عشرين سنة من العمل وعشر سنوات من الحياة المدنية اللادينية، فقد كان مرهقاً و لم يعد يستوعب شيئاً لشدة التعب ولكنه كان يستمر متقدماً بغية القيام بالمهمة في نـــزع الأقنعة عن بعل زبوب وجندلته.

علـــى ضـــفاف نهر الأفاعي كان غياب النظام والاحتقار للمناقب مسألتين كليتين ومطلقتين. ومهمة إشاعة القانون وجعل المبادئ مسيطرة وغرس خوف الله في الـــنفوس مسألة لم يتنكبها الأخ زيمكونت بأمر تلقاه من رئيس السلك الرهباني الـــذي أرسله إلى تلك المجاهل للتبشير وإعادة الناس إلى الطريق المستقيم، بل تلقاها مباشـــرة ودون وسيط من السيد المسيح. وفي وحدة الغرفة في ليالي السهاد والأرق فإنه كان يجلد نفسه بغية القضاء على الشهوة والسيطرة على الجسد وتحرير ذاته من مغـــريات هـــذا العـــالم، من الزنا والرفاهية وكان ما يزين جدار غرفته طبعة قلب المسيح والدم المقدس يسيل منها بسبب الخطايا المرتكبة ضد مجد الله، وكان الدم قد لطـــخ علـــى الصورة البطن والساقين مما يسبب عذاباً موجعاً "للراهـب" لقد أمره عيسى بالذهاب لمقاتلة الخطيئة بالحديد والنار إلى أن يجتثها نهائياً من جذورها.

وفي رأي الأخ زيكمونت أن الكنيسة المقدسة لم يكن لديها قديس ذو فضيلة أكـــبر وأكثـــر استحقاقاً للتشريف من تركيماو منقذ إسبانيا والبرتغال. لقد كان النقـــيب في جيش الله المكلف برفع شأن العقيدة والفضيلة، وتحت لوائه انضم الأخ زيكمـــونت، وانطلـــق للنضال ضد الكفار والفوضويين، وكان يسانده في نضاله حمـــاس المنورين... وهو قد تنور، بدوره، بنار الجحيم: وخلال الرحلة المتعبة، من دســـكرة إلى أخـــرى، فـــإن الكاهنين أخذا علماً بشهرة توكايا غراندي السوداء والمذريـــة. وكون توكايا غراندي المكان الأكثر ازدهاراً في الوادي فقد خيمت فيه الرذيلة والفوضى. ووفقاً لما سمعاه هنا وهناك، فإن بين سكان توكايا غراندي الذين يعيشون دون دين أو قانون ودون وصايا إلهية وطقوس، لأنهم وثنيون، ومتعايشون بالصحبة ومسترلمون ومتهتكون وكانا قد سمعا أن هناك أيضاً زنوجاً يعبدون الآلهة

الأفــريقية وعــرباً مسلمين. إن اسم المكان كان يقول كل شيء. ولو تمّت ترجمة الاســم إلى اللغة التوراتية فإن توكايا غراندي ستعني سدوم وعامورة وقد اجتمعا على ارتكاب الخطايا السبع المميتة.

2

علــى طــريق الراهبين، مرافقاً ومزاحماً لهما، كان يسير مشيراً بيده إلى اتجاه توكايا غراندي، عازف الهرمونيكا الشعبي والعاطل عن العمل بيدرو سيغانو الذي كـــان يصل كجزء مكمل لوجود رهبان وكهنة في مهمة تبشيرية: عبادة، زواج، اعتراف، حرمان، ويصل معه أيضاً الاستهجان لكل هذه الأمور، ولكنه كان دائماً يـــصل مع آلته الموسيقية لتفخيم الاحتفال الذي يقيمه الشعب بمناسبة الاحتفالات بالزواج والمعمودية.

ولكثـــرة معاشـــرته للبعثات المقدسة أصبح بيدرو سيغانو قادراً على أن يقوم بدور الشماس والمساعدة بالقداس. وبالرغم من ذلك، فإن الأخ زيكمونت عندما لمحه مصغياً إلى الكلمات الاحتفالية الملهبة جالساً إلى المقاعد الأمامية أحس بأحشائه تحتـــرق غـــيظاً. لقد رأى فيه صورة الشيطان وقد تجسدت لحماً وعظماً وابتسامة تهـــتك علـــى الـــوجه الأغبر. كان الإرسالي يحس في ذلك الزمان بامتعاض كبير لانحطاط العادات والتقاليد، ولنشاط المهنة المعروفة وللقضاء على العبودية.

3

مـــنذ أن بـــاع مـــستودع الكاكاو لشركة كويفمان وشركائه، فإن العقيد روبـــستيانو دي أراجو قلص مروره بتوكايا غراندي. ومع ذلك، فإنه من حين إلى آخر، كان يسلك الدرب الجبلي الوعر ويصل ليلقي بنظره على الإسطبل، ويتبادل بعـــض الأحاديـــث مع العربي فضول والنقيب ناتاريو، ويقوم بزيارة إلى كاستور أبدووين مانحاً البركة لفليونه.

كـــان الزنجي بالنسبة إليه ذا حظوة وتقدير، وكان قد ساعده على أن يؤسس عمـــلاً علـــى حسابه الخاص. وقد شعر العقيد بالقلق عندما رأى كاستور يائساً، حـــزيناً، غـــير مكترث بعد موت ديفا. ولم يبقَ أي أمل عند الشاب بعد ما كان

بحيويته يزرع المكان نكاتاً وألاعيب ويحيي بحماسة الشاب مزرعة سانتا ماريانا مبدلاً العادات في تلك الدسكرة.

إن خروج الحداد المفاجئ من أحزانه أشعر العقيد بالفرح. وقد أخبره كاستور على حدة بمسلسل إيشون، الذي ظهر عليه في البطاح معطياً إياه الأمر بإنهاء الحزن واستعادة جسده رغبة في الحياة. كان شبح إيشون قد نقر على رأسه وقلبه ونصفه السفلي. ولكي تأتي إيبفانيا لتهتم به وبطفله فإن إيشون قد غيَّر سكة حياة إيبفانيا وقاد خطاها. إن إيشون ديفا نجمة تلمع فوق أمواج المحيط في أبعد مسافات إيوكا.

وخلافاً لما حدث للكثيرين، فإن العقيد روبستيانو دي أراجو لم يكن يسعى لإخفاء الدم الزنجي الذي يسير في عروقه قوياً وغزيراً. إنه أبيض ناصع لكونه غنياً، ويملك من الكاكاو ما ينتج له أكثر من ستة آلاف أقة في الموسم الواحد، وهو صاحب إسطبل يحوي عدداً من العجول هائلاً، بالإضافة إلى مساندته الكنيسة وكونه والد زوجة رجل فرنسي - إن ابنته الصغرى كانت قد تزوجت من أحد أبناء أسرة لافاييت من شركة الإضاءة بالغاز - ومع كل ذلك لم يكن ينكر الآلهة الأفريقية. أما أمه، الزنجية روزاليا، السوداء الجميلة، فكانت قد صعدت إلى مركب من مراكب إيادس للقيام بالحج دون أن تدري أنها كانت حاملاً من السيد الأستاذ الابتدائي سيلفيو دي أراجو الجميل والفقير والضعيف الصدر. ونما الطفل معافى وقوياً، وإذ لا يزال فتى في مقتبل العمر انطلق إلى حرب الكاكاو ومنها عاد مظفراً.

وقبل أن يموت همس الأب في أذن الطفل: لم يعد لديه ما يتركه له غير اسم العائلة. وانضم روبستيانو الشاب إلى باسيليو دي أوليفيرا في الصراع الأسطوري ضد عائلة بادارو: فحطم الغابات، وقلب الأرض، وواجه القتلة؛ إن جسده مغلق ويحرسه أوشاغيان فلم يصب بأي أذى. زرع الكاكاو، وربّى قطعاناً من العجول وتزوج من فتاة غنية، بالمناسبة كانت من عائلة بادارو، واسمها إيزابيل، ولم يفز بأبناء ذكور، فأرسل بناته للدراسة في مدرسة الرحمة مع الراهبات الإرساليات وأصبحن معلمات ابتدائيات كجدهن ولكنهن لسن مضطرات إلى التعليم؛ سمراوات رائعات، ووريثات غنيات، لم ينقصهن متقدمون للزواج. وهكذا حدث: الطبيب إيستازل فيفا تزوج من البكر. والوسطى كاتيا ربحت في اليانصيب، يوم الكرمس، بمناسبة عيد الخضر، الأجنبي جون لافاييت المهندس المتخرج من الخارج.

وكان العقيد يساهم بمنح سخية للأعياد الكنسية، وأصبح متقرباً من الكاثوليك و لم يعد يرقص في حفلات الرقص، ولكنه في البيت كان يقدم الطعام لأوشاغيان.

4

كــان قد حدث في الصيف المنصرم أن العقيد روبستيانو دي أراجو تأخر في توكايا غراندي وقتاً أطول مما هو معتاد لدى توقفاته السابقة التي لم تكن تستغرق إلا ساعات قليلة لمراقبة الإسطبل والتحدث مع الأصدقاء. وكان قد تأخر كل ذلك الــوقت بناء على دعوة النقيب ناتاريو دا فونسيكا، وللأخير كان قد أبدى دائماً تقديــراً خاصاً. كان قد وعد بزيارة إلى مزرعة بوافيشتا التي كان إنتاجها قد أثار الدهــشة والتعلــيقات: إنهــا كــناية عن قطعة من الأرض صغيرة إذا ما قورنت بمــساحات مزرعة أتالايا أوسانتا ماريانا. وفي القطاف الأخير فاق الإنتاج ما يزيد علــى الخمسمائة أقة، وكان في نيَّة النقيب أن يضاعف الرقم خلال سنوات قليلة. وإذ وفى بالــوعد - كان قد طاف في المزرعة من نقطة إلى أخرى ومن غرسة إلى تاليــتها، وفحــص الأشــجار والجــذوع والأغصان وبيوت العمال فإنه أراد أن يــستجيب لفــضوله: كان قد علم بما حدث بين ناتاريو وفنتورينيا عندما أصبح الأخــير قــيماً على الأراضي كونه الابن والوريث للعقيد بوافنتورا أندرادي وسمع الشائعات حول الموضوع الحساس بينهما عن سوء تفاهم وتبادل الكلمات الغليظة.

عــندما وقعت وفاة الأب غير المتوقعة، كان فنتورينيا في بداية رحلة خططت لــتطول في ملاهي ومنتديات العواصم الكبيرة كلندن وباريس وبرلين وروما. و لم يكد يتوصل لزيارة برلين وروما حيث كان قد عشق وتوله، ومع الكثير من التأخير كــان قــد أقــيم جــناز السبعة واقترب جناز الأربعين وأوصت أرنستينا بتوزيع الصَدَقات على الفقراء لتساعد الميت على مغادرة الدوائر السفلية من العالم الآخر. وفي شوارع المدن، على الأخص في إيتابونا، فإن طويلي الألسن إزاء تلك الزياحات والظواهــر الدينــية الــسيكولوجية كانوا يعتبرون الدوائر السفلية حفراً عميقة في الجحيم: ألسنة لاذعة لم تكن تحترم الأموات.

وقــيل أيضاً، غمزاً ولمزاً أن السبب المباشر بالنوبة التي قضت على العقيد هو الرسالة التي وصلت من الريو دي جانيرو ويعلن له ابنه فيها الذهاب إلى لندن على

متن باخرة ملكية إنكليزية، وأن السفر إنما هو بغية الدراسة لمدة يحتمل أن تصل إلى ثلاثة أشهر. وطلب الابن في الرسالة تغطية قرض اقترضه من مصرف إنكليزي وهو قرض مخصص لتمويل الرحلة. سفرة تمّ تقريرها في الساعة الأخيرة ويتأسف فنتورينيا لأنه لم يكن لديه الوقت لإبلاغ والديه في الوقت المناسب: وعندما وصلت كان هو قد وصل إلى إنكلترا. وإذ لم يكن لديه عنوان ثابت بعد فقد أرسل بعنوان المصرف الذي يجب على الوالد أن يحول له بصورة مستعجلة مبلغاً كبيراً من المال: وكونه من كان فإنه لا يستطيع في أوروبا أن يظهر بمظهر بشع كما لو كان فقيراً معدماً لا حول له ولا قوة... وأظهر في الرسالة نفسه ساعياً إلى ترقية علمية سريعة ولكن مهمة: والدروس في أكسفورد والسوربون تكلف نور العينين.

وصلت الرسالة إلى تاكاراس ومن هناك أرسلت إلى العقيد. وإذ أطاع الأوامر التي كان قد حددها العقيد، فإن لورنسو، مسؤول محطة سكة الحديد، أرسل بالرسالة مع أحد أعوانه إلى أتالايا: "رسالة أو برقية من الأستاذ فنتورينيا يجب أن ترسلها في الحال وفي طليعة اهتماماتك بواسطة رسول يمتطي حصاناً"

ووفقاً لما رواه الزنجي إشبيريداو فإن العقيد أنهى بصعوبة قراءة الرسالة الرسولية. تقدم خطوة إلى السيدة أرنستينا وقدم لها الورقة، ولكنه لم يتمكن من تسليمها فخر منازعاً بين الرجل والقديسة، وعند قدمي العشيقة ساكرامنتو. كيف تستطيع أرنستينا أن تتحمل الحدث دون أن تقع ميتة هي الأخرى، وفي اللحظة نفسها قرب الزوج؟

وبصرخة مدوية انهدت فوق الجسد الهامد. وعندما تمكنت ساكرامنتو من جعلها تقف على قدميها، تعانقت الاثنتان باكيتين، الزوج ميت، والابن غائب، وحيدة وضائعة، فإن السيدة أرنستينا وجدت ملاذاً وتعزية في ساكرامنتو المخلصة المتفانية. وأخذتها معها في صبيحة اليوم التالي في قطار خاص حمل الجثة لتدفن في إيلايوس. ووصل ناتاريو سريعاً عند منتصف الليل حتى يتكفل بالقيام باللازم.. وجهه ثابت لا يتحرك ولا ينم عن شيء مما كان يحس ومما كان مقفولاً عليه بصمت قاسٍ ثقيل.

ومنذ ذلك الحين وإلى أن وصل فنتورينيا فإن ساكرامنتو قامت برفقة أرنستينا وبكت معها موت العقيد بوافنتورا أندرادي، مزارع الكاكاو، الثري الكبير، الزعيم، وسيد أراضي أتالايا، الآمر الناهي في إيلايوس وإيتابونا.

5

لو لاحظ العقيد روبستيانو دي أراجو، كما كان يتردد على ألسنة الناس، أن العناية التي قدمها النقيب ناتاريو لأشجار كاكاو مزرعة أتالايا هي نفسها العناية التي منحها لمزرعة بوافيشتا، لرأى أن فنتورينيا كان على حق في أن ينزعج من رفض ناتاريو الاستمرار في العمل.

ولكن الرفض لا رجوع عنه، وليس هناك عروض مالية ومكاسب، مهما تكن، بقادرة على أن تجعله يتراجع عن قراره. لأي سبب؟ - سأل العقيد روبستيانو دي أراجو، وقد تحرك فيه الفضول ظاهراً بين التمجيد لرؤية المشهد وقد ازدهرت الأشجار وبدأت تثقل بالديافير.

أصغى العقيد ناتاريو إلى الاستشارة التي واجهته دون أن يتحرك عضل واحد في وجهه الثابت: عينان نائستان، وعلى شفتيه ذاك الخيط من الابتسام الذي كان قد وصفه الشاعر جورج مدور في مطلع شبابه وشبهه بحدِّ سكين حاد. كانت الابتسامة لغزاً يظنها البعض حرداً، ويرى فيها البعض الآخر تحدياً.

- سأقول لك الحقيقة يا عقيد إذا كان لديك الصبر لتسمعني. جئت من سرجيبي وكنت صغيراً، وكنت قد ارتكبت حماقة هناك. مسألة تافهة. والرجل الذي قضيت عليه لم يكن يستحق الرصاصة التي أطلقتها. وجئت بتوصية إلى العقيد فاستقبلني.

كانت مهرة العقيد روبستيانو وبغلة النقيب ناتاريو تعدوان متوازنتين بخطى بطيئة واحتراز بين أشجار الكاكاو. فلم يعلق العقيد وتابع ناتاريو الوصف:

- كان العقيد بوافنتورا قد دخل في الصراعات، كما تعلم، لأنكما كنتما تسيران معاً. ومنحني الثقة وأعطاني مجالاً للانطلاق من جديد وأخذني معه. أستطيع أن أقول إنه رباني وعاملني دائماً كما يجب أن يعامل الرجل، وأنا مدين له بما أنا وبما أملك. ولا أتذكر أبي. الأب الذي عرفته هو العقيد بوافنتورا.

- ولكني سمعته هو نفسه يقول إنك أنقذت حياته أكثر من مرة. إن بوافنتورا لم يؤدِّ لك خدمة عندما أمر بتسجيل هذه القطعة من الأرض التي تدوس عليها الآن، باسمك.

– إن العقـــيد آواني ودفـــع لي أجـــر مـــستزلم لأنضم إليه. إنني سطحي في الإحـــساس والتفكير. قمت فقط بواجبي. لو أراد العقيد لكان بإمكانه أن يرفض إعطائي أرضاً أو رتبة نقيب. لن أقول لك إنني لا أستحق؛ استحققت جيداً غير أنه لم يكن مجبراً على أن يعترف بما قمت به لأني حصلت على المأوى والمرتب.

شـــدَّ النقـسيب اللجـــام إلى أعلى السرج وترك البغلة تنطلق على هواها عبر المسلك. وراح هو يجتاز طرقاً أخرى غير طرق الماضي حيث، لم يكن آنذاك أحياناً حتى الشعاب:

– إن العقيد بوافنتورا هو الرجل الأكثر شهامة ممن عرفتهم، و لم يكن يهمني أن أمـــوت مـــن أجله. ولهذا عندما امتلكت أرضاً وزرعت الكاكاو لم أتخلَّ عن خدمـــته ومكـــثت أهتم بمزرعة أتالايا. قلت له في أكثر من مناسبة: ما دمت حياً وتريدني فإنني رجل في خدمتك. بعد موته وعدته بشيء واحد وها أنا أفي بوعدي. ولكن هذا لا علاقة له ببساتين الكاكاو ووظيفة الإداري.

– قيل لي إن فنتورينيا قد عرض أن يدفع لك ما تطلبه.

– يا عقيد. أعتقد أن لكل رجل الإرادة في أن يكون سيد قدره. عندما بدأت الحـــياة في ســـان فرانسيسكو سمعت الناس يقولون إن قدر كل إنسان مكتوب في الـــسماء ولا يـــستطيع أحد أن يغيره. ولكن تفكيري مختلف. أعتقد بأن على كل شخص أن يهتم بنفسه، وكان لديَّ دائماً الرغبة في أن أكون سيد نفسي. خدمت العقـــيد بوافنتورا لأكثر من عشرين سنة: كان لي من العمر سبعة عشر عاماً عندما أقمت هنا، وها أنا في الثانية والأربعين. لم أعد أبداً بخدمة الابن أو الأرملة. وهو لم يطلب مني ذلك.

نظر إلى العقيد روبستيانو دي أراجو، وقال:

– قـــبل أن يرحل بقليل كنا نتحدث يوماً كما أحادثك الآن، ثم قال لي إنه يريد أن يطلب مني طلباً أحققه له بعد موته. خفت أن يطلب مني أن أبقى سركال أتالايـــا وكنت مزمعاً على أن أقول لا. إن السيد هو حده ولا أحد سواه. ولحسن الحـــظ أن مـــا طلـــبه كان شيئاً آخر وقلت له نعم. لقد ظنَّ فنتورينيا أنني كنت سأســـتمر في العناية بالمزرعة، وتعجبت عندما قلت له إني لن أفعل مقابل كل مال الأرض لا من أجل المال ولا التزاماً بالصداقة. إن الالتزام قد انتهى بموت العقيد.

تـــناول اللجام من جديد، وكانت المطيتان قد غادرتا بستان الكاكاو وبلغتا الطـــريق المـــؤدي إلى بيت ناتاريو الذي انتهى بناؤه. لم يكن العقيد روبستيانو قد تعرف بعد إلى البيت الجديد. وموَّج ناتاريو صوته:

– إني أحب جداً فنتورينيا، وعندما وصلت إلى المزرعة كان هو لا يزال غلاماً صـــغيراً، ولكـــنه مختلف عما كنت أحسه تجاه العقيد. إن العقيد مدَّ لي يده وأنا لم أكن أكثر من مطارد من العدالة. الآن من يأمر عليَّ هو أنا، وأنا من يقرر ما يفعل.

– وهل فهم فنتورينيا وجهة نظرك؟ هل وافق؟ هل علم بأنك رفضت؟

– لم أسأل. لم أرد أن أعرف. إنه سيتعاطى السياسة ويتسلم مكان أبيه. قلت له إذا احتجتني في يوم في الدفاع ضد أعدائك، يكفي أن تخطرني بذلك فأنا ما زلت أجيد التصويب. ولكن أن أكون مستخدمك، أو مستخدم أي شخص آخر، فلا.

وقبل أن يظهر أمام الدار، فإن العقيد روبستيانو وقد أشبع فضوله ختم المحادثة:

– إذا كـــان يهمـــك رأيي يا ناتاريو، فاعلم أنك تصرفت جيداً في خدمتك المخلـــصة للعقيد بوافنتورا وفي تنكرك لابنه فنتورينيا. لم يكن بين من يجب أن يأمر ومـــن يجـــب أن يطـــيع، المسافة اللازمة. – ثم بدَّل الموضوع: – يا لجمال البيت الكبير!! تهاني.

– بـــيت كبير؟ إنه بيت متواضع لزيلدا لتقيم فيه مع الأولاد. زيلدا لا تفوت علـــيها فرصـــة المجيء وإن مرة واحدة في الشهر إلى حقل الكاكاو. وبينما الأرملة تتكلم عن زوجها الميت وابنها الوريث الوحيد سمعت وهي تقول: في يوم، ناقصاً، أو زائـــداً، فإن كل شيء سيكون ملكه، وإن الله سوف يناديني قريباً للانضمام إلى زوجي، وما دام الأمر كذلك فلماذا اقتسام البساتين والبيوت والملكيات الأخرى، والرأسمال والفوائد؟ وما كاد فنتورينيا يترجل في الريو وبعدها في باهيا حتى كانت الأم قـــد سلمت الوصية وحق التصرف بالثروة. شيء واحد يخصها هي، احتفظت به لنفسها: الخادمة ساكرامنتو.

6

ظـــلُّ مَنْ عساه يكون هذا الظل الذي لمحه النقيب منعكساً على نور الفانوس الباهت، في منـــزل تيبورسينيو؟ من جاء، ولماذا، إلى المستودع في غياب المقيمين؟

ليس الأمر طبيعياً أو مستحباً. دفع ناتاريو الباب بيده اليسرى وشوهدت يده اليمنى شاهرة المسدس. التقى وجهاً لوجه مع ساكرامنتو وقد كساها الغبار: فأطلقت الفتاة صرخة صغيرة عندما رأته، صرخة قلق، بل مفاجأة ورضى:

– يا نقيب: كم هو جيد أن أراك: قيل لك إنك ذهبت لتوك.

– وأنت، ماذا تفعلين هنا؟ هل طردتك السيدة أرنستينا؟

أطرقت ساكرامنتو بعينيها إلى الأرض. – من أجل السيدة أرنستينا لم يكن بنيتي أن أخرج من هناك. إن المسكينة لا بدّ من أن تفكر سيئاً في وأنني لم أعد أصلح لها. لقد هربت من هناك دون أن أقول لها شيئاً، ولكن كيف يمكن أن أقول؟

– هل هربت من بيت العقيد؟ أية أفعى لدغتك؟

– إنه الأستاذ. أراد أن يغتصبني.

لم يبدُ على النقيب الاندهاش: على شفتيه ظهرت تلك الابتسامة اللغز التي يصعب فهمها.

– فنتورينيا؟ كيف أقول لك؟ غزا الغرفة التي أقيم فيها مترنحاً، قذراً تفوح منه رائحة الكحول.

من حسن حظي أن يكون ضائعاً غير متماسك. دفعته فوقع أرضاً. ولم يكن لديه القوة للنهوض. قال فقط إنه سيدفع لي. خفت إلى درجة لم أستطع معها أن أجمع حاجياتي. ورحت أهيئ نفسي بعشوائية إلى أن عثرت على المنديل الذي وضعت فيه بعض المال ورحت أنتظر القطار في المحطة. ومن تاكاراس إلى هنا جئت سيراً على القدمين لأرى أمي وأراك.

7

في مزرعة أتالايا، كانت مساكن العمال – وهي كناية عن أكواخ مصنوعة من الخشب وأحياناً من الأسمنت – تتجمع بين الدارة الكبيرة وحقول الكاكاو اللامتناهية، وهي تجانب الطريق، وبعض تلك البيوت ظلت معزولة ومنتشرة عبر الحقول البعيدة. وكان ناتاريو قد عمد إلى المرور بكل تلك البيوت ليعلن النبأ ويودع الجميع عارضاً عليهم القروض؛ كان قد حافظ مع العمال ورحال القوافل على علاقات عمل طيبة والبعض منهم كانوا من المقربين جداً. وهبط الليل على

حقول الكاكاو والغابة الكثيفة، وبالرغم من فصل الشتاء فإنها لم تكن تمطر في تلك الليلة. كان النقيب يشعر أنه متجاذب بمشاعر متناقضة: مشاعر الفرح والارتياح لأنه لم يعد مسوداً من أحد، ومشاعر الأسى والحنين لتخليه عن تلك الأراضي التي عاش فيها وناضل من أجلها عشرين سنة.

وفي جولته لاحظ ضوء فانوس مستودع تيبوسينيو وأصيب بالذهول وانتهى إلى ملاقاة السيدة أفيجينيا وهي تهتم بإيدليسيو، قاطف الكاكاو الشاب، وقد لدغته أفعى في ذلك المساء: معالجة قديرة فإن العجوز هرعت إلى نجدته. راحت تملأ فمها الخالي من الأسنان بالتبغ المعجون وتضعه فوق مكان اللدغة ثم تمتص السم وتبصقه وهي تتمتم بكلمات الرقية:

"أيا سيدي القدير

اقضِ على الأفعى

اقتل الأفعى لأنها تؤذي.

ونجني من السم،

ومن الوقوع في التجربة"

كان إيدليسيو عَرِقاً من الحمى التي أصابته ولكنه ظل يقاوم، وتمكنت العجوز من أن تقلص كمية السم وتقضي على تأثيره القاتل.

وبينما هي منهمكة بمعالجة الشاب الملدوغ عثر عليها وتكلم معها قبل أن يتخلى عن مزرعة أتالايا. تمنى لإيدليسيو الشفاء، وربما شفي بشفاعة القديس بنتو ومهارة المعالجة. تكلما عن ساكرامنتو فتأسفت إبيفانيا: كانت تشعر بالشوق إلى الابنة التي تأخرت في إيلايوس حيث كانت تهتم بأرملة العقيد أندرادي، وأدى تأخيرها إلى عدم تنفيذ المخططات التي وضعت. علمت أنها أصبحت تملك داراً في إيتابونا هي هدية العقيد بوافنتورا، مشكوراً.

ولكن السيدة أرنستينا كأنما قد ورثت ساكرامنتو في جملة ما ورثت من ملكيات في الريف والمدينة: الطرقات والبيوت، والمال بالفائدة، والثروة الكبيرة وإذا أحلام إبيفانيا تجد نفسها مؤجلة إلى حين يشاء الله.

لم تخضع ثروة العقيد لأي جرد أو توزيع، وهذه الثروة هي بيت القصيد في المحادثات والأقاويل عند أركان الشوارع وفي المحلات التجارية. لم يعلق النقيب

بشيء ولكن عينيه غدتا أكثر نوساناً وابتسامته دامت متمطية، ثم رفعت ساكرامنتو عينيها وحدقت فيه:

– لقـــد اغتـــصبني، بعد أن أوقعني أرضاً وضربني ثم عضني.. إذا كنت تشك فانظر. – أرته ذراعيها ملطختين وفي رقبتها علامات أسنان. وطال صمت ناتاريو. ومـــن يدري، فكرت ساكرامنتو، ربما لا يرى في هذه العلامات دليلاً كافياً لتبرير الهرب.

– كيف يمكنني أن أقبل بابنه معي؟ ليحرسني الله ولينجني! عندما دخل عرض علـــيَّ مـــالاً وقال إنني جميلة، ولا أعرف ماذا قال أيضاً، طلبت أن يتركني بسلام فراح يتكلم عن العقيد وصرخ إنه كان يعرف كل شيء، وأنه هو الآخر يريد.

– طلـــبت منه من جديد متوسلة أن يكف عني واستحلفته بأمه وروح أبيه. ولكـــنه كان قد نـــزع بنطاله وهجم عليَّ. وإذ كان السكر يطوح به تمكنت من الخلاص.

لم يتلفظ النقيب ناتاريو دا فونسيكا بكلمة واحدة ولكنه لمس برؤوس أصابعه وجـــه الفـــتاة ومسح الدموع عنه. فأخذت ساكرامنتو باليد التي كانت تؤاسيها وقبلتها:

– جئت في القطار مفكرة فيك ما عدا أمي التي لا تستطيع عمل شيء، فليس لي في الحياة سواك.

وأخفضت عينيها إلى الأرض:

– فكـــرت فـــيك كثيراً عندما كان عليَّ أن أرد على السيدة "ميزات" ووقع الاسم وقعاً خاصاً على مسمع النقيب:

– أعرف واحدة تدعى ميزات وهي تملك نـــزل فتيات في جزيرة الأفاعي.

– أرســـلت لي مرسالاً تطلب مني الذهاب إلى عمل في نـــزلها. وهنا فكرت فـــيك عندما كنت تقول لي إن العقيد لن يكون ممتناً إذا رآك تمارسين المهنة. كان من الأفضل أن أبقى خادمة في بيت أرنستينا، لكن كون الأستاذ مقيماً فليس الأمر ممكناً! أخذت القطار ونـــزلت في تاكاراس ومشيت إلى هنا: إني وصلت الآن ولا أعرف أين هي أمي. ولكن يكفي أني رأيتك وهذا يكفيني.

عادت تنظر إليه مؤكدة بصوت ثابت وناعم:

– بالمـــال أو عـــنوة لن يكون هناك من يتمدد معي. – وبابتسامة امتزجت بالدمـــوع تفحـــصت ذراعيها المغبرتين. وأمسكت بشعرها القوي بفعل التراكم، وتكلمــــت بصوت خفيض: إني أحتاج إلى حمام، فأنا مرعبة هكذا، حين تصل أمي سأذهب لأستحم في النهر.

قال لها ناتاريو أين كانت إيبفانيا وماذا تفعل.

– إذن سأذهب قبل أن تصل. إني مغبرة وبشعة إلى درجة أنك لا تنظر إليّ...

– نظـــيفة أو قذرة، فأنت جميلة كيفما كنت. لو لم يضع العقيد عينه عليك فأنا من كان سيتخذك امرأة له.

– ربمـــا، وكـــيف كنت سأقول لا ما دمت الوحيد الذي أفكر فيه؟ مشت باتجـــاه الـــباب ومرّت بقربه فلمست صدر الرقيب وهي تمر! عن إذنك يا حضرة العقيد! ثم اتبعها على طريق النهر.

إذ استوى إلى الطاولة في المشرب الذي يرتاده وبدا بتلمظ طعم العرق المعطر، مـــشروبه المفضل. ابتسم فؤاد كرم للبزرة التركية، الصديق فضول عبد الله وأعلن متحمساً:

– لقـــد هبطت فوق إيتابونا مجرة ذات تأثير جنسي على الناس وجميعنا نعيش تحـــت تأثيرهـــا الفلكـــي. وعـــني بتلك الغمزة الشعرية الغامضة وصول لودميلا غـــريغوريوفنا سيتيكينباوون؛ إنها قصيدة، فانتبه جيداً، وأعاد الكرة بحركة تعبيرية ويده مفتوحة وصوته منطلق متموجاً: – لقد جاءت من الغابات السيبيرية: لودميلا غريغوريوفنا سيتيكينباوون!

خـــلال برهة أمسك نفسه عن الكلام ليصغي إلى صدى اللفظ النقي للاسم المعظم، مع تصفيق لا بدّ منه لصوته:

– هـــل سمعـــت أحدهم يتحدث عن المرأة – القدر يا فضولي؟ إن لودميلا غـــريغوريوفنا هي التجسيد الكامل للكمال؛ إنها النموذج الأوحد؛ إنها المرأة القدر بعيـــنها، وكلـــنا على أهبة الاستعداد لتشريفها إيانا بالقدوم؛ إننا خدامها وسعداء بعبوديتنا من أجلها.

ابتلع فؤاد كرم رشفة من كأس العرق ليرطب بلعومه. ونم وجهه بوضوح عن ممازحة ثقافية عميقة المعاني. وتابعه فضول مصغياً باهتمام إلى متعة الكلام عن الحياة

الــــناعمة، وفــؤاد كرم هو أحد سميريه المفضلين: أما الآخر فهو ألفارو فاريا الذي كان يسكن في إيلايوس.

– إنهــــا مفترسة رجال يا "بزرة تركية" وهي تفضلهم سمراً وبقدر ما يميلون إلى الأفــريقيانية فــإنهم يسيلون لها لعابها ويرطبون متعتها. إنها تخص قانونياً سيدنا الجديد ولكنها لا تخصه عملياً، وهو كما تعلم، الأستاذ بوافنتورا أندرادي الأصغر، وريــــث المملكة المتحدة المكونة من إيتابونا وإيلايوس. نحن إذن في عهد بوافنتورا الثاني، السعيد، خلف بوافنتورا الأول أبي الأمجاد المالية التي لا تحصى.

بالنسبة إلى فضول المدفون بإله الموازنة في مجاهل توكايا غراندي، فإن مجيئه إلى شوارع المدن المكتظة لملء المخزن ودفع الفواتير وتوقيع فواتير جديدة والذهاب إلى المشارب والملاهي كان يستهدف أيضاً الامتياز الشعري مع العلمين المثقفين: ألفارو فاريـــا في مـــرفأ إيلايـــوس وفؤاد كرم في داخل إيتابونا. كان الاثنان يبدوان غير مستعجلين للقيام بغير عمل ثقافي: المحادثة، ولعب البوكر، والحديث عن الأحداث المحلية. وكان فؤاد كرم يحظى سراً بتفضيل فضول لكونه عربياً ويتكلم لغة الأنبياء والعسل والتمر مع السكر واليانسون. ما عدا الأحداث والابتداعات فإن فؤاد كان يصفها ويحللها بمعرفة وروحية طيبة. وكان فضول يصغي منتشياً.

– هل هي جميلة؟ – سأل فضول بصوت ينمّ عن شهية مفتوحة.

– إن كلمة جميلة هي وصف غير مناسب لتحديد لودميلا غريغوريوفنا.

– دعــــنا نقــــل: حلوة، من الأفضل! أريد أن أتأكد من أنها أورو – آسيوية حـــصيلة سلافي وسامية، وقد تكون نسيبة بعيدة لنا وبهذا يجب أن نعتز. أبعد من كـــونها حلوة، فإنها لغز لكونها روسية، ورومانسية وشيقة بسبب دمها العربي. إذا كان حظ البذرة التركية لا يزال مقبلاً فإنك ستتمكن من رؤيتها خلال النهار وهي تجـــتاز الـــشارع، وهي تبدو ملكة الليل في الملهى، ومن أذنيها تتدلى أقراط الجاد وتلمع العينان الخضراوان. – واختصر مشاعره بتعبير قاله بالعربي: أو هووو...

– وكيف جاءت إلى هنا؟

– جاء بها فنتورينيا... وإلا كيف يمكن أن تأتي؟

– ولمــــاذا جاءت مع الأستاذ؟ – ما زال فضول يعتبر أنه لم ينل بعد ما يريده من معلومات.

لأنها بغي، وهذا هو عملها، إنها تموّه الحقيقة بغناء أغان روسية شعبية.. تذبح زجاجة "الفودكا" وتبقى صاحية كلياً. إن أخاها، يقال إنهُ جاء في زيارة سريعة، يعزف على البلالايكا جيداً: يجب الاعتراف بهذه الحقيقة.

– هل هو حقاً أخوها؟

– رحت أتحقق واستنتجت أن الروابط التي تربط لودميلا غريغوريوفنا وبيوتر سركينوفيتس هي حقاً روابط دموية لا فراشية. إنهما شقيقان من ناحية الأم. أما كونها عاهرة فمسألة لا يجب أن تدان بسببها. بالمال تبيع نفسها فقط لبطلنا فنتورينيا. أما للآخرين فإنها تهب مجاناً رغبة في الأمر، ونحن نعلم يا فضول أن لا شيء يعادل في هذا العالم اللذة التي نتكلم عنها.

– لا شيء. لا.

إن مبالغات فؤاد كرم وتعليقاته كانت تلائم انفعال المدينة التي لا تزال تحت التأثير الصاعق للودميلا غريغوريوفنا سيتيكينباوون: في الملهى كما في البلدية تعليقات حيوية. وظهورها البارد الحار، متعلقة بذراع فنتورينيا، كان يسبب الانفعال ويحدث البلبلة: الجميع يريدون أن يروها، ويستدفئوا بابتسامتها، ويموتوا في اتساع عينيها. في الملهى كانت تصيب الضجيج بالصمت وفي الكنيسة كانت تقضي على صمت العبادة، وهنا وهناك تسمع الآهات... آهات الحماس والفوران، وشعلة من الرغبات تشتعل حولها كمحرقة إلهية...

8

إن نبأ وفاة العقيد بوافنتورا أندرادي قد أوقف دروس فنتورينيا الممتعة في "سوربون محلة بيغال"، فاستعجل العودة إلى البرازيل. في تلك الليلة غرق الأستاذ المتدرج في الفودكا والقرف وعذاب الضمير، وهناك أطفأ شقاء حياته.

وكذلك لودميلا غريغوريوفنا. عندما علمت بالمأساة التي حلّت بالأب، أصيبت بنوبة عصبية، ووقعت أرضاً تنازع، ولم يكن بكاؤها أياً كان، بل صاحبته دمعتان سالتا على الخدين: نواح على الطريقة السلافية وصلوات باللغة الروسية، وأصبح متولهاً حتى أصغر عظمة في مفاصله وآخر خلية من خلاياه فإن الأوروبي الجديد قرّر أن يأتي بلودميلا إلى البرازيل بصحبته وهذه هي الطريقة المثالية لاستيراد

الـــثقافة الأوروبـــية التي كانت تمثلها خير تمثيل. ورافقه آلان بيوتر سركينوفيش، ولكـــن العـــشيق قسطنطين إيفانوفيتش سوروكوف فقد بقي في باريس يهز بقفاه حسب التعبير الفولكلوري للمظفر فنتورينيا.

إن الكـــونت والعقيد في الحرس الإمبريالي قسطنطين إيفانوفيتش سوروكوف ابن العائلة الإمبريالية ولكنه على خلاف مع القيصر أباح بسر من أسرار الدولة إلى الـــبارون بوافنتورفيـــتش كما أصبح معروفاً في دائرة الهجرة السلاقية: إن للودميلا غـــريغوريوفنا أيضاً دماً نبيلاً ولكنها لا تعلن عنه بسبب الفاقة التي تجبرها على غناء المقطـــوعات الغنائـــية الحـــزينة في ملاهي باريس. وقد هربت من البلاط بسبب الاضـــطهادات التي مارسها الدوق الكبير نيكولاي نيكولايفيتش رومانوف الذي أرادهـــا خليلـــته. أما عم القيصر نيكولاي الثاني القائد العام للجيوش الروسية فقد جعـــل مـــن حـــياتها جحـــيماً وشرح قسطنطين إيفانوفيتش إلى حبيبه بوافنتورا بوافنتوروفيـــتش أن الصغيرة لودي، الناعمة الحساسة، لم تستطع تحمل رائحة الثوم في فم القائد العام: وكانت قبلات الدوق الكبيرة تسبب لها الدوخان، وتمنعها عن الـــتجاوب. لذلك رافقت قسطنطين عندما التجأ العقيد إلى باريس. كانت العلاقة مأســـاوية لأنهمـــا لم يـــستطيعا الزواج لأن له زوجة في موسكو، وكونها ابنة عم القيصر، ولكنهما أقسما على الحب الخالد وها هما يفيان بقسمهما. كان فنتورينيا يدفـــع الحساب وبكبرياء لها ما يبررها: فليس كل يوم يمكن وضع قرون لفرد من أفراد العائلة الإمبراطورية الروسية.

في "اللاداتشا" الملهى الموسكوفي في بلاس بلانش، يرافقها شقيقها بيوتر "أبو الـــبلالايكا - بيدرينيو، أخي، كان يرجوه فنتورينيا وهو في قمة الوله والسكر: - اضـــرب على كمنجاك هذه واجعلني أبكي. - كانت لودميلا تغني أغاني روسية وتـــرقص "باليه" قوقازي عارضة كمال جسدها؛ على طاولة قريبة، فإن الكونت قسطنطين وبوافنتورا الأصغر البارون الجديد كانا يصفقان وهما يستهلكان الفودكا والكونـــياك. وفي نهاية الليل ونهاية العرض كان بيوتر يسحب قسطنطين أبا القرنين تاركـــاً لعناية البرازيلي الخجولة والمتألمة، لودميلا: وفي الفراش، تبدو مهرة لا تتعب في فـــرقة الخيالة الإمبراطورية، بمجد بلاط القيصر. وفي اللحظة الحاسمة، كانت تنشد أغاني بوشكين وتردد الصلوات الأرثوذكسية.

وانتهى فنتورينيا بحل المشاكل كلها بتهذيب وكرم ودفع بالفرنكات الفرنسية والليرات الإنكليزية لعدم توفر الروبلات. واستقل إلى الريو عابرة المحيط من شركة النقل المتحدة. وجاء مع الحقائب بلودي وبيوتر والبلالايكا: لنقل بروسيا الإمبراطورية.

9

في الملهى، تأكد فضول عبد الله من صحة كلام فؤاد كرم وردّد الاندهاش الخارج من أعماق النفس: يا هووو... ووجد الحجة والظرف المناسب ليمس يد صاحبة السمو الروسية برؤوس أصابعه الضخمة عندما لمحه فنتورينيا وأدى له تحية قلبية. وإزاء هذه غامر اللبناني بالتقدم من طاولة الأستاذ ليحييه وينظر عن قرب إلى القدر الذي أحرق مدينة إيتابونا وبحر إيلايوس. على لسان فؤاد كرم، وهو لسان مسموم ومؤلم، فإن الروسية تميل إلى الزنوج: بالنسبة إليها يكون تيساو أبدووين المثل الأعلى، وهو على كل حال زنجي متعود على الأمور مع الأجنبيات.

لدى عودته إلى توكايا غراندي، ناقش الأمر مع النقيب ناتاريو دا فونسيكا وتأسف لكون الروسية متخصصة بالزنوج والمتمولين الكبار، وغير مكترثة بالعرب أصحاب الدكاكين الصغيرة. وعرفها النقيب وقد اهتم بعودة فنتورينيا معها. بالنسبة إليه كان فنتورينيا لا يزال الصغير الذي كان يأخذه رديفاً معه منذ عشرين سنة يعلمه الأشياء وإطلاق النار: الأولى التي عرفها الغلام فنتورينيا كانت جوليا سارويه، وكان النقيب من قدمها له:

– إن رأسه فارغ، ولا يستطيع أن يقاوم تنورة. مع هذه الروسية فإنه يصرف مالاً كثيراً. إنه لا يكتفي بها ويريد أن يعتدي على كل النساء. في الحقيقة إنه ليس أكثر من ولد جاهل.

– هل يصرف المال من أجل تركيب قرنين في رأسه؟

– إن القرون التي تضعها العاهرة على رأس رجل ليست قروناً حقيقية يا سيد فضول.

كان اللبناني قد فكّر في الاسترسال في الموضوع ولكنه امتنع عن ذلك. ربما كان الأمر سيسيء إلى النقيب الذي كان يحب فنتورينيا كثيراً، كما أن الأستاذ كان قريباً من أقربائه.

10

الإعـــلان عـــن الوصول المفاجئ للبعثة المقدسة شاع كصوت انفجار هائل أحـــدث انفعالاً وجعل سكان توكايا غراندي يشعرون برعشة: يا للخبر المثير على ضفتي النهر. ارتفع صوت واحد: الله يسدّد خطانا.

وراء ماكيـــنة الخـــياطة لم تعرف ناتالينا الراحة. التوصية على ملابس نسائية جـــاءت مـــن الجميع، وعلى الأخص من مخطوبات شهر أيار/مايو. النساء كن في أواســـط الشهر، وهو شهر الأمطار الأولى، وشهر مريم كما أطلعهم المبشران على ذلـــك. الخطيـــبة الوحـــيدة الجديرة باستعمال فستان العرس والمنديل الأبيض هي الـــصغيرة شـــيكا، ذات العلاقة الغرامية المحترمة مع بالبينو. كانت شيكا تعيش مع والدها في حين أن المرشحات الأخريات للزواج اللواتي قدمن للحصول على البركة الرسولية كن جميعاً مصاحبات وبعضهن أمهات لأولاد غير شرعيين طبعاً.

أمـــا شيكا، مع كونها لا تزال تعيش في المنـــزل العائلي، فمن الذي يتجرأ أن يضع يده على عذريتها؟ في توكايا غراندي وعلى غرار كل الأماكن الحضارية فإن الحب العذري كان يدوم قليلاً. وفي المزارع كانت النسبة امرأة لكل عشرة رجال؛ كانت الزهور تقطف براعم.

كانت شيكا قد شوهدت برفقة بالبينو عند منعرجات النهر التي تشكل مخابئ أمينة، أكثر أو أقل، وشوهدت في أعماق الغابة الظليلة. وإذا كانت لا تزال محتفظة بالقفـــل مغلقـــاً، فـــواحدة من اثنتين: فإما أن يكون بالبينو جاهلاً صفيقاً، أو أن أعجـــوبة ما قد حدثت. كائناً ما كان فإن السيدة ليوكاديا جاءت بنفسها لتوصي علـــى فستان العرس لحفيدتها وتشرح للسيدة ناتالينا أنها تريد الفستان على الموضة السرجيبية مع كل التفاصيل والتجاعيد والقطع الصغيرة الخاصة بعذراء.

الأخـــريات لم يطلبن إلى هذا الحد، وكن مكتفيات بملابس عادية، ولا يردن أن يتـــزوجن وهن مرتديات الملابس العتيقة. كليدي أيضاً حفيدة السيدة ليوكاديا وابـــنة عـــم شـــيكا أوصت على فستان أزرق سماوي هو أزرق السيدة العذراء. وتـــسجل أيضاً على لائحة الزوجات الصبية آراكاتي التي كانت سترتدي ملابس الـــسيدة الآلهة في مسيرة أيار المقدسة. وصاحبات قديمات أوصين أيضاً على فستان عند السيدة ناتالينا أو خيطنه في البيت. أبيغال جاءت بفستانها من تاكاراس حيث

هي وباستياو دا روزا كانا يعيشان منذ الطوفان: وكان في نيَّة الراهبين أن يصلا إلى هـــناك، ولكن تمّ تفضيل الزواج في توكايا غراندي وفي نفس الوقت الذي ستزوج فيه شقيقتها إيزورا: ومن المزارع وصل ثنائيون عديدون، إذ ليس بأمر شائع وصول بعثة مقدسة إلى ربوع نهر الأفاعي.

11

ولم يكـــن آباء الأطفال الذي سيتعمدون أقل اهتماماً من اللواتي سيتزوجن، حوالى دزينة من الوثنيين في توكايا غراندي ينتظرون المناسبة ليصبحوا كاثوليكيين تابعين لروما، موفرين على أنفسهم المرور بالمطهر إذا ماتوا صغاراً، ومن الجحيم إذا ماتـــوا شـــباباً.. وكان هناك حيوية في الترتيبات، واختيار العرّابين كان يقود إلى مناقشات وقهقهات لا تتوقف. وأرسلت زيلدا برسالة إلى برناردا:

– اختاري العرّابين لنادو لأنه سيتعمد أثناء مرور البعثة المقدسة.

وإلى ناتاريو جاءت برناردا بالموضوع:

– هـــل فكرت في أحد؟ – كانت تريح رأسها على صدر النقيب وكان هو يداعب شعرها:

– إذا أردت، فأنا أختار العرّاب، وأنت تختارين العرّابة.

– بالنـــسبة لي لا تستطيع أن تكون عرّابة إلا كوروكا. إني مدينة لها أكثر مما أدين لأمي.. المسكينة.

– كعرّاب فكّرت في فضول لأننا أصبحنا نعتبره عماً كبيراً.

12

– "انـــصرف بعيداً أيها الشيطان" أمر الأخ زيكمونت غوتشهامر في اللحظة الحاسمـــة مـــن اعتراف الصغيرة شيكا؛ ليست صغيرة لأنها كانت ستكمل الرابعة عـــشرة عـــشية القديس بطرس: وهي، بين خطيبات أيار/مايو المرشحات للزواج، الوحيدة ذات الإمكانية على استعمال الفستان والمنديل الأبيض في حفلة الزفاف.

وقـــد كشف عن التفاصيل والبراءة السخيفة مما هو متعلق بما كان أو لم يكن ومما هو خطيئة عرضية أو خطيئة مميتة، فإن الفتاة أخبرت المتفاجئ الأخ زيكمونت

عــــن المتع التي كان يشعرها بها الخطيب. كان بالبينو قد أقام في إيلايوس ويعرف اختراعات الأجنبيات ومنهن تعلمت شيكا ما تعلمته. وهي متمتعة بالحديث أخبرته تفاصــــيل جعلــــته يشعر أنه يمنح أذنه لسدوم. ومع ذلك فإن الخطيبة طالبت بحقها باستعمال القداح رمز الطهارة وأقسمت بالله أن بالبينو لم يذهب بعيداً... أين سمع الأخ المحتــــرم أن مــــثل هذه الأمور لا تمنع عن الزواج الطهور؟ في أشتانسيا كانت الفتــــيات يتزوجن عذراوات ولكن بانتظار الزواج كن يستعملن ما يستعملنه، ولا أحد مصنوع من حديد يا حضرة الأب الكاهن.

وأرســــلها الأخ زيكمــــونت باللغة اللاتينية: "انصرف بعيداً أيها الشيطان" وصلت شيكا ثلاث مرات الأبانا وثلاث مرات السلام لأن الأخ كان قد نسي أن يطب منها ترداد فعل الندامة.

13

الراهبان بموافقة السيد كارلينيوس سيلفا، كانا قد أقاما كرسيين للاعتراف في مستودع الكاكاو الجاف، كل كرسي في أحد طرفي المستودع. لم يكن هناك عادة الفــــصل بين المعترف والمعرف، ولكن النساء القليلات اللواتي ذهبن لتأدية الواجب الــــديني لم يكن قادرات على النظر إلى الكاهن في ساعة تفريغ كيس الخطايا، و لم يكن يعرفن، التعيسات، ما هي الطهارة.

نــــساء قليلات. ولا رجل واحد. إن الكنيسة والكاهن مسائل من اختصاص النــــساء كــــان يقول الرجال الكافرون. مجرمون يستحقون الموت ابتداء من ذلك النقــــيب ذي الــــشهرة العريــــضة في القساوة. وقد سمع الكاهنان عن ماضيه وعن إشــــارات وحكايــــات مخيفة عن معاركه في تلك الفراسخ البعيدة من حقول نهر الأفاعي.

وإذ عــــاد الكاهنان من الطواف من بيت إلى بيت واستقرا في مسكن السيد كارلينــــيوس ســــيلفا حيث تمّت استضافتهما فيما كان تايون بقلب مفعم بالحزن بسبب ما رآه من احتقار لشريعة الله – آه: هؤلاء الفقراء التعساء – أما زيكمونت وإذ سيطر عليه الرعب والقلق فإنه راح يغلي غضباً لرؤيته الحالة المتدنية التي يعيش فيها أولئك الكفار الملعونون.

أطفال بلا معمودية، أولاد حرام حبل بهم بالخطيئة كالحيوانات دون موافقة ومباركة الله. الانحلال، الجريمة، الجهل والاستخفاف بمسائل الكنيسة. والأكبر من الزواج فهو التجمع السكني المبني بالقش والخشب عند أسفل المنحدر والذي يدعونه باللغة العامية: المبغى.

من الجهة المقابلة للنهر حيث كانت تزرع الأشياء التي تباع في المعرض الأسبوعي لم تكن المناقب بأفضل حالاً، وكذلك الدعوة إلى الله. والسرجيبيون هناك، الذين كانوا يخافون الله، تخلوا عن واجباتهم الدينية، وأضاعوا الخوف نحو الله وسارعوا في سكة السكان المحليين.

أما العربي الذي كان يتاجر هناك، يسرق الشياطين الفقراء، المقيمين والعابرين، ويدين بالفائدة، فإنه منحط مسترسل بالخطيئة، وأنه لم يكن مسلماً في الحقيقة ولكن ينقصه القليل ليكون كذلك. وكونه بعيداً عن أن يكون الابن المثالي للكنيسة الرومانية، فإنه كان ينتمي إلى مذهب الموارنة الشرقي غير الجدير بالثقة المطلقة. لو أنه عاش في إسبانيا في الأزمنة السابقة لما استطاع أن ينجو من السيف المسيحي الذي باركه سانتياغو ماتاموروس.

أما بالنسبة إلى الزنوج عبدة السحر، وفي طليعتهم الحداد الساحر ذو الضحكة الدائمة فإنهم يعيشون في التجربة، وقد جعلوا مركز سحرهم في حدادة حداد حدوات الحمير الكافر.

الأخ زيكمونت مطرقة الله كان مزمعاً على إحياء الإيمان في النفوس أثناء الاحتفالات الدينية، ومن يدري فقد يتمكن من تحريضهم على تدمير مركز الدعارة الواقع خلف الحدادة والذي تسكنه شياطين أفريقية مرعبة تمكنت من الهرب من العبودية.

14

بينما كان البربري يرتاح من عناء عشاء الفاكهة والطرائد الشهية - العشاء الفاخر الشهي -، في أواخر اليوم الأول من البعثة المقدسة، فإن الأخ تايون، متأملاً ومحافظاً على هدوئه، تأسف لحظ أولئك الخاطئين ضحية الجهل والتخلف الذين كانت أرواحهم قد حكم عليها بالجحيم دون أن يستحقوا ذلك، ربما. إن ما

حداهم إلى ممارسة الأخطاء والحياة في الانحراف والجريمة إنما هو في الدرجة الأولى بسبب افتقاد القيم المناقبية وعدم وجود القانون وفرض العادات بالقواعد التشريعية المنصوصة بالمختارين من الناس.

أمـــا الـــسيد كارلينيوس سيلفا المتكلم بالألمانية بطلاقة وبلفظ المثقف المولّد، تأمـــل، والمفاجأة الكبيرة بالنسبة إلى الراهبين الرسوليين في البعثة المقدسة، وبصوت ثابـــت وغير مذنب، المنطلق كمن لا يريد شيئاً ولكنه يمضي في قول الأشياء، دافع عـــن المكان وعن سكان المكان. كان يبدو وكأنه محاضر يلقي في كاتدرائية ويمار، والأخ زيكمـــونت راح يحـــدق فيه بعينين من الشك. وبمنطق لا يقبل الجدل، فإن المتولد برأ ذلك الشعب الطيب من كل جريمة. إن سكان توكايا غراندي – قال – كانوا يعيشون هناك على هامش الأفكار المسبقة، غير ملتزمين بالحدود والقرارات المنـــصوصة بالقـــوانين، وأحـــراراً من الأحكام الأخلاقية والاجتماعية المفروضة بالتشريعات سواء كانت تلك الأحكام واردة في قانون العقوبات أو التعليم الديني. وأنـــاس أكثر نظامية من سكان توكايا غراندي بالرغم من الاسم السيئ والعادات الـــرديئة، لا يوجد في كل منطقة الكاكاو وفي كل المناطق الحضرية. وهل تعرفون لماذا يا أصحاب السيادة؟ لأن هنا لا أحد يحكم أحداً. وكل ما يفعل إنما هو باتفاق جماعـــي لا بخوف من العقاب. ولو أن الأمر كان متعلقاً بالسيد كارلينيوس سيلفا، فـــإن هذا السلام هنا، لم يكن ليعكر، والحياة السعيدة التي تعيشها توكايا غراندي إنما كانت في نظره تستحق نعمة الإله الحقيقي.

– إذا سمحـــتم يـــا محتـــرمين فـــإني أقول لكم: هنا لا يوجد النعيم الطبيعي لأصحاب المعرفة...

وتحـــرك الأخ زيكمونت غوتشهامر، مطرقة الله، بانفعال والسبحة بيده تكر بعـــصبية ضـــد الخطيئة والخاطئين، وعلى الملحد الذي أمامه. كانوا قد أعلموه في إيلايوس أن هذا المتولد هو ابن شرعي تربى في ألمانيا وكان ينطلق منه دخان أستاذ: عـــدو الكنيسة الرومانية وهو لوثري جاحد وربما كان أكثر نجاسة من العبيد ذوي الإيمـــان الأفريقـــي. وهو بالتأكيد أخطر من الماروني، وهو أسوأ نموذج في العالم: وبـــيت الأفكـــار الإلحاديـــة الفرنسية، والموسوعات العلمية، وأعداء الله والملكية، ونـــاقلات النفط وفي قبضته القنبلة الجاهزة ضد الأباطرة والنبلاء وبخنجر مشهور

ليطعن من جديد قلب عيسى ابن مريم. المتولد، أكثر من كونه لوثرياً فهو فوضوي.

15

النجارون لوبيسينيو، غيدو، وزينيو أقاموا في السهل وعند منتصف المسافة بين النهر والمستودع، مقابل موقع المعرض الأسبوعي، مذبحاً من الخشب البرازيلي الصلد، عملاقاً، ذا ارتفاع شاهق، وجاء عملاً هو بهجة للنظر ولا يقارن به غير المستودع الكبير. ومن ينظر وهو آتٍ من أعلى سفوح نهر الأفاعي أو مع محطة تاكاراس يرى من مسافات بعيدةٍ القديس لينيو وقد بلغ بعبوره توكايا غراندي مع أول بعثة رسولية امتدت إلى نهاية العالم هناك لغرض الفضيلة والقضاء على الخطيئة.

وعند مرتفع مسطح من الألوان المتناسقة، جعل أمام المذبح، وضع الإخوان المعدات والأدوات للذبيحة الإلهية، وكذلك بركات ومقدسات المعمودية والزواج. وكان الكاهنان يرتديان الملابس الكهنوتية المخصصة للفرائض الدينية والذبائح الإلهية.

وكان الأخ تايون يقيم القداس صباحاً في الأفخرستيا، بينما يقيمه الأخ زيكمونت "مساء" عند ساحة التبارك. وكان رأي السكان موحداً في اعتبار قداس الأخ زيكمونت أعلى مستوى بكل مظاهره من قداس الهولندي. لا مجال للمقارنة. إن الأخ تايون الذي يتكلم البرتغالية دون لكنة تقريباً يطيل الكلام على طيبة الله ورحمته ووصف الجنة والحديث عن جمالاتها ونعمها.

أما الألماني النحيل الطويل ذو الوجه المحفور واليدين البائنتي العظم، وهو يمزج البرتغالية بتعابير ألمانية ومفردات لاتينية وبلفظ شبيه بنباح كلب الصيد، فقد كان يلهب المسامع، مسامع ذلك الجمع الصغير ولكنه أكبر من الجمع الذي جمعه إيزادودي سيا ليوكاديا في الصيف. كان موضوع زيكمونت الجحيم. إن بعل زبوب، كبير الشياطين، هو الخطيئة والنار التي تستهلك الخاطئين. ومطرقة الله، كما يشير إليها اسم الأخ زيكمونت غوتشهامر، نال نجاحاً يعادل نجاح كارلينيوس يلفا بالمخادعات الأدبية. "هلوب" الأخ زيكمونت!

16

وشاعت المصادفة - والروايات مليئة بالمصادفات فما أحراك بالحياة - في اليوم الثاني والأخير من وصول البعثة الرسولية، أن وصل إلى توكايا غراندي قادماً من إيتابونا عائداً إلى مزرعة أتالايا، الأستاذ بوافنتورا أندرادي جونيور الذي، أكثر فأكثر، "أصبح ينادى بهذا الاسم، منه بفنتورينيا"، جاء ترافقه لودميلا غريغوريوفنا عشيقته - وعشيقة كانت اللفظة التي استعملها الخريج لأنها تشير إلى الأنثى النبيلة والغالية، ذات الكعب العالي، المتفرغة له. الموضوعة في أماكن عالية لا تصلها الصاحبات، والمدبرات، والسمسارات. غرة شعر ذات لون ناري، وعطر المسك القوي، وأناقة بزة الركوب الإنكليزية. "التراكسوت" وسلسلة النبالة التي تصلها بقيصر أو بحاشية الملك سليمان كما يفضل القول اللبناني فضول، قارئ التوراة.

في أزمنة الصراعات عندما كانت مجموعة من المقاتلين المستزلمين دليلاً على الأحداث الحسام وكان كل جذع جوافة كميناً، كان العقداء يسافرون محاطين بمجموعات من الأزلام لأن احتمال الهجوم كان قوياً. ولكن مع نهاية الصراعات، فإن الحراس قد تقلصوا إلى رجل ثقة واحد سريع التسديد. والعقيد بوافنتورا أندرادي الذي كانت حياته مهددة في أغلب الأحيان، كان يرافقه في السنوات الأخيرة من حياته إشبيريداو، وأحياناً كان ناتاريو يذهب معهما: للتحدث مع العقيد، ومناقشة ما يجب عمله، وليس بصفة "سركال" كالسابق.

أما فنتورينيا فلم يكن في تجوالاته بين إيتابونا ومزرعة أتالايا أو أي مكان يريد أن يبلغه يتخلى عن إبراز نفسه بمظهر جدير بباسيليو دي أوليفيرا أو وجيه من وجهاء بادارو أو أنريكي ألفس في الأزمنة الملتهبة.

وفي قيادة الدورية المؤلفة من أربعة رجال مسلحين حتى الأضراس كان مقاتل قد اشتهر في الصراعات السابقة ويدعى بينايا كوفارازا - ويعني القبر المسطح، وهو لقب سعيد، ولا شيء يضاف: عددت حتى العشرين، وبعدها توقفت عن التعداد، كان يقول بينايا وهو يتكلم عن عدد الذين أرداهم قتلى، والذين بعد العشرين كان يحفر لهم حفراً غير عميقة ويدفنهم فيها. كان قزماً صغيراً ونحيلاً ذا فم ممصوص وقليل الكلام، جيد في استعمال البندقية وأجود منه في استعمال السكين.

عـــندما قتل العقيد بيشوتو ظهر ثلاث مرات أمام المحاكم. في المحكمة الأولى حكم عليه بالسجن ثلاثين سنة، وفي الثانية بالسجن ست عشرة سنة، وفي المحكمة الثالـــثة أطلق سراحه بفضل المحامي المشهور روي بينالغا. وعندما أعيد إلى الحرية، تطـــوع جندياً في فرقة الشرطة العسكرية ومن هناك جاء به فنتورينيا ليكون رئيس حرسه الشخصي. أما العمل الأخير الذي قام به فقد كان قتل فتاة هوى تدعى بيرا لأنها رفضت استقباله بسبب نذر نذرته في الامتناع عن الممارسة. وهو يرتدي بزة عـــسكرية وبـــشهرته العريضة، فإنه زجّ في السجن بمحاسبين فقيرين صرفا بعض النقود على نـــزيلات ماريا ساكادورا.

17

نـــزولاً عند طلب لودميلا، قرّر فنتورينيا أن يتأخر في توكايا غراندي حتى ساعة مـــنح الـــبركة، والمعمودية والزواج، للاحتفال الأخير الذي سيقوم به الأخ زيكمونت فون غوتشهامر: يجب أن لا تفقد ذلك المشهد مقابل أي شيء آخر في الحياة.

– في مثل هذه الحالة يجب أن نسافر ليلاً لأنني أريد أن أنام في المزرعة.

– "فواياجي دان لافوري باندان لانوي، سي رومانطيك مون أمور" السفر في "الغابة أثناء الليل رومانسي يا حبيبـــي"

وافـــق الحبـــيب فاســـتحق قبلة، وبرفقة بيوتر والقبر المسطح كوفا رازا، هو ولودمـــيلا تـــناولوا طعام الغداء في بيت النقيب وزيلدا. وجيه سعيد ومعتز بنفسه ومـــشارك بالاحـــتفال. مع مرور البعثة المقدسة، فإن فنتورينيا اعتمد على وجود فضول عبد الله الذي ارتدى بزة السفر لمعمودية نادو. يوم عيد في بيت النقيب.

بعـــد ارتشاف القهوة، تمدّد فنتورينيا في الشبكة المعلقة، على الشرفة، وتناول سيجار "سوبرديك"، وظل يتحدث مع النقيب وفضول: تعاقد مع مهندس زراعي لـــيحل محل ناتاريو في إدارة مزرعة أتالايا وأطال الحديث عن مهارة المهندس الذي كان يقود ثورة في وسائل العمل والزراعة والحصاد ووعد بمضاعفة الإنتاج أضعافاً ثلاثـــة: فمـــا هو رأي ناتاريو؟ لم يكن ناتاريو يرى شيئاً و لم يعلق و لم يزمع على مقارنـــة المعلومات في الكتب بخبرة العقداء والعمال المجربين. ظهر فقط على شفتيه ذلك الخيط من الابتسام، علامة الشك أو الرفض، من يدري؟

خطر اسم إشبيريداو فلم يفهم فنتورينيا لماذا لم يقبل الزنجي، وبنفس طريقة ناتاريو، أن يتسلم مركز رئيس حرسه الشخصي الذي يقوم به بينايا كوفارازا، ولم يفهم لماذا تخلى إشبيريداو عن المزرعة ليذهب ويعيش برفقة ابنته المعلمة في تاكـــاراس.. اعتبر العجوز عقوقاً فلم يوافق ناتاريو. إذا كان من أحد يجب أن يقـــر بالفضل فليس إشبيريداو بفضل فنتورينيا، بل ابن العقيد بفضل إشبيريداو الـــذي أنقذ مراراً حياة الأب وحافظ على راحته خلال سنوات طويلة. وغيَّر الأستاذ الموضوع، فعندما كان صغيراً تعلم أن يحترم آراء ناتاريو؛ إذا فرض عليه الاحترام فهو لا يبرهن على ذلك.. لم يكن الإداري السابق يتكلم بلهجة اتهام أو بحق يريد أن يفرضه. كان يكتفي بالمحادثة بصوت حيادي ووجه لا يعبر عما يختلج في النفس.

مـــن طالب بحق فنتورينيا فهو فضول عبد الله مذكراً إياه لدى مرور سريع في تـــوكايا غـــراندي، بأن الأستاذ بدا متشائماً إلى حدٍّ كبير فيما هو متعلق بمستقبل المكان وتكهن له بحياة قصيرة متواضعة. لم ينس فضول الكلمات التي هزّته: ولولا المعاهـــدة التي تعاهد بها مع إله الموارنة لكان فقد حيويته وتخلى عن المكان: وبينما هو يضحك، اعترف فنتورينيا بأنه قد أخطأ بتقديراته:

– نعـــم سيدي، إني أقدم لك يدي لتضربها بالمسطرة الثقيلة. جهد في القول وهو يشرح أن المدينة هي في قوة التعبير، وكان يستعمل الكلمة ليشير إلى نمو البلدة إذا مـــا قورن بأماكن صغيرة في المنطقة فهو نمو، ولكن صفة المدينة بالمعنى الصحيح لا تنطبق لا على إيلايوس ولا إيتابونا عاصمتي منطقتين؛ وحتى باهيا عاصمة الولاية والـــريو دي جانيرو فإنهما ليستا مدينتين إذا ما قورنتا بباريس ولندن. عاصمتان؟ أجل. لله من نسائها: هل رأى الصديقان مثل الروسية التي اقتحمها؟

مـــثل هذه الروسية لم يريا سابقاً لا الصامت ولا اللبناني. ولكن ناتاريو تذكر أن المـــرأة الجمـــيلة هي الخبز اليومي وفراش السرير بالنسبة إلى الأستاذ الخريج. في تلـــك الأثـــناء، ومـــنذ ســـبعة أعوام عندما استنكر الحياة في توكايا غراندي فإن فنتورينيا، الأستاذ الحديث، كان قد جاء بصحبة (أرجنتينية). هل تذكر؟

تذكـــر فنتورينيا. أديلا بورتينيا، امرأة، كانت تغني الأغاني الشاعرية، وطنية المعشر. ولكنها قرب لودميلا غريغوريوفنا سيتيكينباوون تمر غير مرئية.

18

بيـــنما كـــان فنتورينيا يتحادث على الشرفة ويحمي خطواته بينايا كوفارازا هبطت لودميلا وبيوتر من بيت النقيب ليطوفا في توكايا غراندي.

كانـــت الروســـية قد أحبت تلك السفرة على ظهر الحصان عبر المزارع والدساكر. في مزرعة كاربيشو حيث كان التوقف الأول في الرحلة، فإن العقيد ديموســـتينس بربرت استقبل فنتورينيا وعشيقته استقبالاً بهياً. وكونه عازباً فإن ثـــلاث صبيات كن يعتنين بالبيت الكبير وبمتع الماجن الثري، الأربعيني السعيد المـــتحدر مـــن جدة فرنسية بمزيج دموي برازيلي. وهو يتكلم الفرنسية بطلاقة وفـــصاحة - تعلمهـــا مـــن جدته - قدم إلى لودميلا نعماته الثلاث: الهندية، والبيـــضاء والزنجية وكان العقيد ديموستينس الخبير المرهف والعليم الذواق قد اختارهن بإصبعه.

في أحـــراج الكاكاو كان صاحب مزرعة كارابيشو ظاهرة فريدة من نوعها: في البيت الكبير كان يمتلك مكتبة كبيرة، وقبواً للخمور، وبالإضافة إلى الغرامافون كـــان يمـــتلك معزفاً يعزف عليه بنفسه ليطرب حورياته الثلاث المصطفات أمامه تولهاً. أما فؤاد كرم، الضيف الدائم، فكان يشير إلى حريم العقيد ديموستينس، بينما ألفارو فاريا وقد ملَّ مشارب المرفأ فقد مكث هناك أسبوعاً وهو يجندل زجاجات النبيذ والكونياك البرتغالية والفرنسية. في رأي المثقف الإيلاوسي فإن العقيد بربرت كان المتحضر الوحيد في عالم المزارع.

علـــى طاولة الفطور الصباحي كان العقيد قد قدّم مأكولات الولاية الشهيرة! الكوسكوزس، والسمنة، والأجبان والألبان المصفاة، والموز المقلي، والخبز المصنوع بالفاكهـــة، والبطاطا الحلوة، وأنواع الشكولاته السميكة. وكانت لودميلا تتذوق الطعـــام الطيب، وتأكل قليلاً من كل شيء وتثني عليه بصوت متموج رخيم تملأه الألغاز.

زاروا حقـــول الكاكـــاو أثناء القطاف - كان عمل الأجراء يبدأ في الخامسة صباحاً - كما زاروا إسطبل البقرات الحلوب حيث، مستفيداً من انهماك فنتورينيا بالصنف السلاماقي، مرَّ العقيد بيده على خلفية لودميلا غريغوريوفنا الأرستقراطية، وهمس في أذنها:

– في أي يوم تريدين اعتبري هذا البيت بيتك؛ هكذا ببساطة اعتبريه بيتاً كأي بيت آخر تملكينه بمواجهة البحر: – قال ذلك بأفضل ما عنده من اللغة الفرنسية في همس شبيه بالنسيم الصباحي العليل.

أجابت لودميلا بابتسامة ونظرة غاضبتين كما هو مفترض أن تكون الابتسامة والنظـرة الروسـيتان المخدرتان. والعقيد الشجاع قبل أن يرفع يده عنها قرصها لتتذكر العرض وتعمل بموجب الاتفاق.

رحلـة بهرت عيني لودميلا غريغوريوفنا سيتيكينباوون. كانت الطريق بجانب حقـول الكاكاو: الثمار الصفراء تلمع تحت وهج شمس الصباح وزرع أجمل منها: لا. وكانـوا يتوقفون في مزرعة للاستراحة وقبول شربة ماء أو فنجان قهوة، تذوق حلـويات الموز أو البرتقال، والتلمظ بكأس عصير طازج ممزوج بالعسل فوقه ثمرة كاكاو ناضجة هي اختراع الآلهة.

وللتعـرف على المغنية الروسية التي كانوا يعرفونها بصاحبة الأستاذ فنتورينيا، كانت نساء العقداء يهملن المطابخ ويتخلين عن الأحكام المسبقة ويقدمن أنفسهن بأناقة بعدما يدخلن في أجسادهن ملابس العيد سريعاً. وكانت لودميلا تمد برؤوس أصـابعها ليقـبلها أصـحاب المزارع، وتبتسم بتألق وتواضع للسيدات وتقول: "ميرسي" "فوزت تري جانتي، مدام" مغنية روسية رائعة ومشرفة.

كـل ذلك الامتداد السرابي من العقداء الأثرياء والأجراء التعساء من البيوت الفخمة والأكواخ المتواضعة، كان النقيض والمثيل لامتدادات أراضي روسيا النبلاء والعبيد. وكانت لودميلا غريغوريوفنا تتبادل اللسان مع بيوتر، أخيها، عن الأمل في الحـصول، يـوماً أكثر أو أقل، من اليدين الكريمتين للأب الصغير بوافنتورا أو من يـدي الآخر، هدية حقول واسعة مع قرية من العبيد السود. كانت تعيش في توقد الاكتـشاف، وكـان كل شيء يبدو لها حباً رومانسياً، مع حذر واحد من خطر الأفاعي وقطاع الطرق.

أخـذت تمشي في الحقول، عبر الطرقات مشغوفة بتوكايا غراندي، ومرّت قرب المـستودع الكبير وتأخرت في محل الحدادة تنظر إلى الحداد ذي الصدر العاري والجلد اللمـاع وهـو يضرب على الحديد ليصنع سواراً من المعدن أرادت أن تشتريه ولكن الزنجي قدمه هدية ذكرى متواضعة لا مثيل لها: إنها تلمع تحت أشعة الشمس.

عندما عادت من المشوار، وعيناها متقدتان ووجهها مكسو بالعرق وبصوت يخنقه الانفعال فإن لودي سألت فنتورينيا الذي لا يزال متمدداً في الشبكة المعلقة كأرجوحة وقد أطال قيلولته:

- هل هذه القرية ملكك، يا أبي الصغير؟ وهل اللطفاء هؤلاء هم عبيدك؟

وانحنت فوق الأرجوحة بإثارة: إذا كنت تحبني حقاً فيجب أن تمنحني قرية وعبيداً دليلاً على عطفك.

الخطبة التي ألقاها خلال القداس الذي أقامه الأخ داسنتا أوخارستيا جاءت فصيحة ومثيرة للمشاعر، وفيها يتأسف على حالة الانحطاط الوثني التي يغرق فيها شعب توكايا غراندي ولكنه أشار إلى رحمة الله، الرحمة العلوية رحمة القلب الذي نزف ألماً للخراف الضائعة من قطيعه، ودعت الخطبة إلى الندامة والأسف.

لم يكن سكان توكايا غراندي قساة القلوب ومتحجري العواطف فشاع الخوف عالياً ومغالىً فيه وراحت أيديهم تقرع الصدور الخاطئة: يا ويلاه. كل سكان المكان، ودون استثناء، هم خطاة. وإنه لمما يثير الشفقة الإشارة إلى تسلسل الأحداث في توكايا غراندي وذلك التعبد المفاجئ خوفاً من معاقبة الجمع القليل الواجف أمام الصليب المقدس وهو يصغي بصمت نسبي إلى كلمات المبشر. وفي غمرة التساؤلات عن العقاب والثواب، لم يكونوا متفقين إلا على شيء واحد: أن المحترم كان يتكلم كلاماً جميلاً، بصوت جهوري ودافئ. وهو نفسه جميل في رأي النساء العاميات.

لم يكن هناك بكاء عند الصباح ولا صرير أسنان عند المساء. بل خوف مسيطر خلال خطبة الأخ زيكمونت، مطرقة الله. مع لفظه الشبيه بكلب سلوقي: غوتشهامر. وحظي الأخ تايون بالنجاح في الوسط النسائي: ففي حين كان مزجوجاً في أعلى منبر الخطابة فإنه كان يتمايل هناك ويتوجع على مصير الأحياء الذين كان إنقاذهم مسألة مشكوكاً فيها. وكانت النساء يتبادلن التعليقات برضى مشكوك فيه ونيَّة خفية ملحة فيما لو أعطين الامتياز للتعلق بذراعي الكاهن الشاب ذي الوجه الطفولي. بالمقابل، فإن الأخ زيكمونت بخطبته الملتهبة وتهديداته وشتائمه أثار حماس الرجال بنوع خاص لأنه أكثر رجولة.

ولم يبكِ إلا بعض الأطفال عندما جيء بحوض ماء معدني، جديد، أعاره التركي فضول وهو على كل حال قطعة غالية من مستودع الأدوات المعروضة

للبيع في الدكان.. أما فضول فقد تنكب مسؤولية في حفلة المعمودية الجماعية ووقفت عن يمينه كوروكا التي كانت تحمل بين ذراعيها الطفل نادو، وعن يساره برناردا والدة الطفل المتألقة الرائعة وهي ترتدي التنورة والسترة المشجّرة وبيدها شمعة مشتعلة.

وإذ كان الأطفال الوثنيون من كل الأعمار ومن كل المزارع قد اجتمعوا فإن الأخ تايون استقبلهم في صحن الكنيسة المقدسة ليحولهم إلى مسيحيين، ومرَّ على كل واحد بمفرده يضع على جبهته الملح والزيت ويبل رؤوسهم بالحوض المليء بالماء المقدس. وكان يطلب أن يردد الجميع وراءه: أؤمن بالله العلي العظيم. وكان الآباء والعرّابون يرددون بأصوات متشابكة تولد الارتباك وبحرية شبيهة بحرية الصباح في المعرض الأسبوعي الطلق.

العقيد روبستيانو دي أراجو وزوجته السيدة إيزابيل حضرا صباحاً إلى توكايا غراندي ليشهدا على معمودية توفو ابن ديفا وكاستور أبدووين: لقد كانا هناك في ساعة الدهن بالزيوت المقدسة.

الكلب ألما بينادا نبح على الكاهن وحاول أن يعضه عندما بدأ الطفل بالبكاء لدى تذوقه طعم الملح في فمه. حادث هزلي سبب الضحك الجماعي.

وفي طريقهما إلى محطة القطار، في تاكاراس، بعد حفلة المعمودية يرافقهما المرافق نازارينو، فإن العقيد والسيدة إيزابيل التقيا بحاشية فنتورينيا وخلال عدة دقائق تبادل الجميع الملاطفات وسط اللغط. من أعلى سرج الحمار مانسيدا تأملت السيدة إيزابيل في "من هي" التي جاء ابن المرحوم العقيد بوافنتورا الصديق الحميم بها.

لم تستطع أن تنكر عليها الجمال الأجنبي وهي تبدو نسخة طبق الأصل عن مريم وهي هاربة إلى مصر متواضعة طاهرة. النساء الشبيهات بالقديسات هن الأسوأ. علقت بذلك السيدة إيزابيل على مسمع زوجها عند متابعتهما الرحلة. أما ما هو متعلق بالخريج فإنه لم يكن يعدو في نظرها غير قليل أدب.

19

عروسات أيار/مايو، بعضهن حبالى والأخريات يرافقهن أبناؤهن المولودون في حمأة رذيلة المصاحبات، كن يقفن جنباً إلى جنب ووجوههن مرتفعة إلى الأعلى

باتجـــاه المـــذبح. وساعد الأخ تايون في ترتيب وقوف الأزواج وكل زوجين يقف قربهما الإشبينان.

كـــان تيـــساو أبـــدووين قد برم للعروسات الريفيات خواتم معدنية. وكان ضحوكاً وحيوياً عند الصباح خلال حفلة المعمودية، ولكنه بدا رصيناً وجدياً، بعد الظهر، عندما وقف إشبيناً لباستياو دا روزا وأبيغال. وكانت إيبفانيا وهي تقف بين الناس تحدق فيه قلقة: وكانت تعلم أن الزنجي كان يفكر في ديفا التي كان يمكن أن يتزوجها لو لم تستهلكها الحمى.

والقول من هي العروسة الأجمل والأكثر سعادة فمسألة صعبة وغير حكيمة؛ القـــول: من التي كانت الأصغر سناً فمسألة لا تقبل الشكوك وهي الصغيرة شيكا بـــسنيها الأربـــع عشرة غير الكاملة وعذريتها الأكيدة، لأن شيكا لم تفسح المجال لخطيـــبها بالبيـــنو وتزوجت غارقة بالدموع وهي تعبّر بتنهدات عالية عن أسفها للعذرية المعاقبة.

بالتـــزويج والتعميد وصلت البعثة المقدسة إلى النهاية: في اليوم التالي، عند الفجر، انطلق المبعوثان إلى تاكاراس، المكان الأكبر والأقل شقاء. وكانت خطبة الأخ زيكمـــونت قد أنهت القسم الديني من الحدث الذي هزّ توكايا غراندي وقلـــبها رأساً على عقب خلال الثماني والأربعين ساعة من الانطلاق والحيوية. أمـــا القسم الأخير فلم يعتمد فيه على مشاركة الأخوين الدينيين إذ كان تحت إشراف وإدارة بيدرو سيغانو العازف والمواطن الوجيه. وللاحتفال مرة واحدة بكـــل هذا العدد من المعمدين والمتزوجين، فإن العيد يجب أن يطول كما طال فعلاً. وبينما يرافقها فنتورينيا فإن لودميلا غريغوريوفنا سيتيكينباوون ذهبت إلى مزرعة أتالايا قبل أن ينتهي الرقص، ولكن ليس قبل أن ترقص الرباعية الفرنسية تحت قيادة كاستور أبدووين، الزنجي تيساو الذي خضع ذلك اليوم لانفعالات متعددة.

خطـــبة الأخ زيكمونت فون غوتشهامر جاءت بما يسمى بمفتاح الذهب والقفل علـــى جواهر البعثة المقدسة. الكلمات التأكيدية والحارة إن لم تغرس في الأرض الصلبة لـــنفوس ســـكان توكايا غراندي، فإنها وقعت على مسامع أكيدة جعلت المكان كله يغرق في التأمل ويحدد الإجراءات وفقاً للتعليمات وللعادات الجيدة.

إن اســـم المكـــان الذي أعطي إياه تكريماً لجريمة كان يقول على كل شيء: فانظـــر كيف بدأ المخلص الكبير خطبته. باختصار فإنه اتهم توكايا غراندي بمدينة الخطيـــئة ومعقـــل اللـــصوص، مكان بلا قانون، لا قانون الله ولا قانون الإنسان، وأرض الـــسقوط ومملكـــة الشيطان. إن توكايا غراندي هي سدوم وعمورة التي تـــتحدى غـــضب الله، وفي يوم فإن لعنة الله ستتجمد ناراً لتعاقب الملحدين وتدمر جـــدران الـــسوء والكفر وتحول إلى رماد ذلك الكهف من الفضائح والانحراف. هكذا تكهن.

في ســـاعة منح البركة، ومع منازعة الأصيل، فإن الأخ زيكمونت مطرقة الله حرك الكأس ودار بها، ثم رسم في الهواء إشارة الصليب ولعن المكان ومن فيه.

مع وصول القانون انتهت توكايا غراندي، وهي لا تزال في بدايتها، ليبدأ تاريخ مدينة إيروزوبوليس

1

ملجأ اللصوص والقتلة الذين لا قانون لهم ولا ملك، مسلحون بالبنادق، وعاهرات - استنكر المرسل من عند الله. كان لا بدّ من كبح العنف المتجذر ووضع حدٍّ للفوضى والانحراف: قرّر العالمون المرفهون. الشائعة كبرت بسرعة في قصر العدل والبلدية والمحافظة والملاهي.

التقليد كان في أن السطو والكمائن والاستزلام ينتج عنها القانون والملكية، وأمام جيشه امتطى الملك صهوة جواده الأصيل وانطلق ليفرض القاعدة والسلام، السلطة والطاعة، حيث لا شيء غير الحرية والحلم.

من بلاغة الخطيب المخلص إلى مسيرة الجنود، كانت الخطوة قصيرة، وتمّ اجتياز المسافة بدقة بين شتاء الاحتفالات وصيف الطلقات النارية، بين الحياة والموت، بين الرجل ومستعبده. وأقصر من الخطوة هو زمن المعركة: من الأخبار المتتالية إلى الاحتلال فإن ما حدث قد حدث خلال أيام قليلة.

2

وصلت رسالة العقيد روبستيانو دي أراجو إلى النقيب ناتاريو دا فونسيكا وهذا في طريق عودته من مزرعة بوافيشتا حيث القطاف كان قد انتهى وجاء إنتاج الغرسات الجديدة أكثر بكثير من الحسابات الأكثر تفاؤلاً.

كان النقيب قد توقع أن يزيد الإنتاج قليلاً على الستماية أقة، ولكنه زاد على السبعمائة. كاكاو كهذا معتنى به إلى هذا الحد، هو فقط كاكاو مزرعة أتالايا، ثم غدا أفضل منه بالرغم من مساعدة الأستاذ لويس سيزار غوسماو ونظرياته الحديثة

حـــول زراعـــة (الكاكاو) (المخصب)، الشجرة الأستركولياسية - بعبارة المهندس الزراعي التشخيصية.

مـــع كل علمه الزراعي فإن المهندس لويس سيزار غوسماو أوشك على الطرد مـــن وظيفـــته عندما عاد سيده فنتورينيا من الريو دي جانيرو حيث ذهب ليأخذ حمامـــاً من الحضارة برفقة لودميلا غريغوريوفنا وأخيها بيوتر، وعلم بهبوط الإنتاج بالمقارنـــة مع إنتاج العام السابق. أصابته نوبة من الغضب فهدّد الله والعالم وطلب تفسيرات. أما المهندس الزراعي وهو يقلب صفحات الكتب المتخصصة بالموضوع فقـــد فسّر أن الأمر هو كذلك: لأن النتائج الإيجابية لنظرياته العلمية الحديثة تحتاج إلى وقـــت وصـــبر. الوقت والصبر إلى حيث ألقت رحلها أم...: - تمتم فنتورينيا مغتاظاً. ولكنه عاد ليأخذ ببراهين الأستاذ غوسماو لأن ناتاريو رفض أن يأخذ علماً بالعروض المتجددة والمغرية ليعود إلى مركز إدارة المزرعة.

اغـــتاظ فنتوريـنـــيا وانفعل برفض ناتاريو بالرغم من أنه وعد ناتاريو سركال العقـــيد بوافنتورا بمنحه نسبة مئوية من الأرباح. وهذه مسألة لم تعرف سابقاً وهي مرفوضة وعرضة للنقد في آراء كبار المزارعين. وقاده الكلام إلى الغلظة في الكلام: لقد تكلم فنتورينيا لمن يريد أن يسمع عن عدم الوفاء واستعمل كلمة خيانة. وقال إن ناتاريو لم يحترم ذكرى رئيسه وحاميه الذي يدين له ناتاريو بكل شيء. وبالتالي إثـــر موت العقيد فإن النقيب أقام بيتاً ومنح مالاً لساكرامنتو صاحبة العقيد والذي وضـــع له قرنين وهو يثوي في مأواه الأخير. وكان يلفظ الكلمات بلهجة أستاذية بـــنفس اللهجـــة التي أشار بها المهندس الزراعي إلى (الكاكاو المخصب والشجرة الأستركولياسية).

3

سمعـــت محادثـــات وشائعات لم أحبها، فاحترز - كانت هذه رسالة العقيد روبـــستيانو دي أراجو، الغامضة، والتي جاء بها المسترلم نازارينيو رحل ثقة، ولكنه لم يعـــرف كـــيف يـــضيف التفاصـــيل. في البداية، ظنَّ النقيب أن المسألة متعلقة بانفعـــالات فنتوريـنـــيا التي لا تلبث أن تخمد والتي كانت تصل إلى ناتاريو فتحمله علـــى الـــضحك: حـــرد آمر صغير وعندما سيذهب إلى إيتابونا فسيشمط أذنيه،

وننتهي إلى كأس نتحدث معها عن النساء، وينتهي الحرد. وبينما هو يروي الحكاية لفـــضول عبد الله تفاجأ لمعرفته بأن اللبناني تلقى، وبفارق قصير من الوقت، ورقة كتـــبها فـــؤاد كرم بلغة أدبية مصقولة حتى لا نقول شاعرية. الأجير يزرع الواحة بـــستاناً من النخيل، ولكن من يقطف الثمر فهو "الزنكيل" انتبه جيداً، يا عزيزي فـــضول، لأن الـــثمار بدأت تنضج! هكذا أنذر بلغة عربية مخطوطة بإتقان. الورقة أوكلت إلى حادي القوافل زي - ريموندو الطبيب البيطري في المنطقة، لتسلم باليد إلى صاحب الدكان.

حـــاول الاثـــنان عـــصر دماغيهما: ناتاريو وفضول، ثم طلبا رأس كاستور أبـــدووين وكـــذلك لم يجـــدا مفتاح اللغز القادر على أن يضع تحت الضوء المعنى الواضح لما أعلمت به سفارة العقيد ولغة المثقف العويصة.

- خـــلال أسبوع سأذهب إلى إيتابونا لاستجلاء الأمر: - قال ناتاريو ذلك وهو لا يزال يحك دماغه.

- ماذا يمكن أن تكون تلك المحادثات التي لم تعجب العقيد روبستيانو؟ احترز من أي شيء؟ ما معنى نضج الثمر الذي ألمح إليه فؤاد كرم؟

ولمـــرافقة النقيب من كان في البدء عرّاباً في التعامل وأصبح الآن عرّاباً حقيقياً بعـــد معمودية نادو. ولكي يكون مع النقيب في المشرب، وفي نـــزل شاندو، قرّر فضول أن يقدم تاريخ سفرة الأعمال: لقاء مع المجهزين، تصفية حسابات، وتجديد المـــستودع. وفي نـــزل الفتيات، سيوقظ مع شاندو ذكرى دلال زيزينيا دو بوتيا وهـــي وقـــد تاهـــت في ســـرجيبـــي فإنها لم تعد تطمئن بأخبارها وأن حفيدها دورفالينيو، (خذ - و - جيب).

وإذا ظلّ لديه وقت فسيذهب للتفسح مع ألفارو فاريا ويرى البحر الذي، وهـــو فـــتى، اجـــتازه مع مجموعة من المهاجرين ليأتي من بلاد التمر إلى أرض الكاكاو.

4

لم يتمكـــنا من القيام بالرحلة المخططة، فلم يكن هناك متسع من الوقت لأن الأحداث بدأت تتعقد متتالية وانهارت عليهما بنسق أصابهما بالحيرة والغموض.

كان النقيب ناتاريو دا فونسيكا قد انتهى لتوه من الغداء عندما دخل ابنه بيبا راكضاً: لم يأت ليأكل. ومذعوراً توجه بالكلام إلى أبيه! في الخارج رجلان يطلقان النار على البقر، ويقال إنهما رجلا شرطة وقد قتلا...

لم يتـــرك النقيب ابنه بيبا يكمل الجملة، فأخذ بزناره مع مسدسه "البارابللو" وكان معلقاً على الحائط قرب طاولة الطعام وخرج من الباب الخلفي... وصل إلى الـــسهل في الوقت الذي كان فيه التاميراندو الذي استدعي على عجل يتجادل مع واحـــد مـــن المجهولين كانا قد ارتكبا مجزرة بقتل البقر التي كان معظمها يعود إلى (السرتوني).

التاميراندو الخنجر بيده والرجل الآخر الذي كان المسدس قد أفلتَ من يده، كانـــا يدوران على الأرض في عراك حاد. وإذ لا يزال بعيداً فإن ناتاريو لم يستطع أن يفعـــل شـــيئاً ســـوى الصراخ، عندما قام الرجل الثاني بتصويب مسدسه إلى الـــتاميراندو وأطلق عليه عدة طلقات: فسقط مربي البقر وانفتحت في ظهره حفرة تدفـــق منها الدم متخلياً عنه.. وفي اللحظة نفسها تقريباً وقع القاتل ميتا برصاصة واحدة من بارابللو النقيب. ووصل الناس من كل الجهات، فأخذ كاستور أبدووين الرجل الآخر من ذراعيه وكان قد أفلت من جسد التاميراندو محاولاً النهوض.

عـــندما رأى نفسه محاصراً وتلقى الصفعات الأولى ركع على ركبتيه وتوسل كيلا يسحبوا روحه، حباً بالله. كان له زوجة وأولاد يعيلهم. لقد وصل إلى هناك مـــع زميله بأوامر محددة يجب تنفيذها. وكلاهما شرطي أحراج في رئاسة البلدية في إيـــتابونا: وفي أراضـــي الـــبلدية كانت تقع البلدة الجديدة أو هي ما هي: توكايا غراندي.

جاءا لينفذا الأمر الذي تمنع بموجبه الحيوانات من أن تسيب في الطرقات. "إن من ينفذ الأوامر ليس مذنباً يا حضرة النقيب. اشفق على فقير مأمور"

أفلـــتوه في النهاية بعد أن أشبعوه تعنيفاً وسمحوا له بركوب الحمار الذي جاء به. قـــبل أي شـــيء جردوه من السلاح وهو بالإضافة إلى المسدس يحمل خنجراً وسكيناً وبيت رصاص - ثم نـــزعوا عنه ملابسه وتركوه عارياً كما جاء إلى هذا العالم.

على سرج الحمار، ربطوا جثة قاتل البقر، وليودعه النقيب أمر رجل الشرطة المـــرتعب: - قـــل لمـــن أرسلك إلى هنا، في توكايا غراندي، أي رجل من شرطة

الغابـــات لا يـــضع رجلـــه أو يده. من يقول هذا هو النقيب ناتاريو دا فونسيكا والدليل هو من تحمله معك. لا تنسَ أن تبلغ الرسالة.

5

بعد انتهاء توضيب الأشياء الضرورية لتمضية فترة الوقت المخصصة للمزرعة، جـــاءت زيلـــدا لتجلس قرب ناتاريو عند الشرفة. الأولاد، باستثناء نادو، في محل الحدادة، يساعدون تيساو، وكانوا يهبطون ويصعدون السفح وهم يحملون الصرات والـــصناديق إلى عربة الثيران، وينتظرون عند الأسفل. ظلت زيلدا صامتة لفترة من الوقت، ثم فتحت صدرها وتكلمت:

– إني ذاهبة رغماً عني. تخلَّ عن القرار إذا أمكن.

– لا أدري ســـبباً لهذا. اعتقدت أنك ذاهبة بفرح. منذ أن أصبح بيتنا جاهزاً فإنك لا تتكلمين إلا عن الحياة في حقول الكاكاو.

– كانـــت نيتي غير ما هي. منذ ظهور الشرطة هنا فقدت الرغبة. ماذا تعتقد أنهم جاؤوا يفعلون؟

مـــن أعلى المكان، وهو جالس على المقعد عند شرفة دار سكنه، كان النقيب يتأمل في توكايا غراندي. في يوم من الماضي البعيد، وحتى عندما لم تكن المقبرة قد حفـــرت، قـــال للعقيد بوافنتورا أندرادي وهو يعلمه بوجود الوادي المجهول: هنا ســـأقيم بيتاً لي عندما تنتهي الصراعات وتتقيد أنت بالاتفاقية. ثم عاد إلى الزوجة وتأمل في وجهها الذي يبقى بشوشاً بشكل عام، ولكنه في تلك اللحظة بدا مظلماً مـــن القلق. لم تكن زيلدا يوماً قطعة من الجمال ولكنها كانت ذات ملامح ناعمة ولا تزال تلك الملامح بادية على الوجه الضعيف الذي لا يزال فيه شيء من طراوة الـــشباب: السنوات والأبناء الذين ولدهم والذين تبنتهم، كلها لم تستطع أن تحطم ذلك الوجه وتقلصه إلى وجه شوهته المسؤولية. حتى في اللحظات الحازمة الخطيرة، في زمـــن الـــصراعات، فإن ناتاريو لم يخفِ عنها الحقيقة حين كانت زيلدا تهمل واجباتها اليومية وتتابع أخبار المعارك.

– يمكن ألا يكون الأمر أكثر من نـــزوة من نـــزوات الرقيب أو ريجيني يريد بها أن يظهر نفسه، أو من نـــزوات رئيس البلدية الأستاذ كاسترو.

إن رئـــيس بلدية إيتابونا ظلّ يحمل اسم الأستاذ ريكاردو كاستور الذي، منذ عـــشرة أعـــوام، وبعـــدها، خدم الأستاذ الياس دالترو، وانتهى إلى خدمة العقيد بوافنـــتورا أنـــدرادي وهو يحمل معه سلاحه وحقائبه. إن سلاحه وحقائبه كانت الخدمـــة والطموح. انتخب وأعيد انتخابه، دون مزاحمة فإن الأستاذ كاستور كونه قبضة حديد كان يرغب في إظهار القوة والسلطة لإحكام قبضته.

– عـــندما أذهب إلى إيتابونا، سأقول لفنتورينيا ليمسح هذه الإشكالات: في زمـــن العقيد لم يكن أحد منهم يتجرأ على خطوة كهذه، وكانوا يعيشون في حيّز ضيق، ولكن فنتورينيا يترك الأشياء تمتد وتتسع.

– هـــل تعـــتقد أن مجيء الشرطة إلى هنا كان على غير علم منه؟ استعجلت زيلـــدا في الاستطراد: – أرى رأيك أيضاً، يمكن أن يكون قد فعل ذلك بنية تعقيد الأمـــر. وافـــق النقيب برأسه. من يدري يمكن أن تكون هذه فكرة أوريجينس: إن الأســـتاذ كاســـتور كان تافهاً جداً ولا يصل إلى مثل هذا التفكير. وبدت المحادثة كأنهـــا قـــد انتهت ولكن ناتاريو تابع الكلام. لا يريد أن يضع زوجته، أم أولاده، علـــى علم فقط بنصف المشاغل: إنه مدين لها بالإخلاص مقابل تفانيها من أجله. أحياناً لم يكن يكلمها في هذا أو ذاك من المواضيع ولكنه لم يخفِ عنها يوماً أي أمر حين تفتح فمها لتسأل.

– ويمكـــن أن يكـــون الأمر مسألة ذات أبعاد أخرى. يمكن أن يكون هناك شرك خلف عمل الرقيب والأستاذ. إن توكايا غراندي تكبر وتنمو. سابقاً لم تكن ذات قيمة ولكنها الآن موضع حسد وطمع بسبب السياسة والحركة. إن هناك من يريد أن يثبت أقدامه هنا، ولكني لن أسمح بذلك.

وإذ أوضح فكرته، اعتبر الحديث منتهياً:

– اذهبي في رحلتك مع الأولاد.

– لديَّ الرغبة في البقاء.

حـــاد النقيب بنظره عن المنظر المهيب في ذلك الصباح الصيفي، وألقاه على وجه زيلدا المنقبض:

– هـــل تذكرين أنك في زمن الحمى كنت تريدين أن تذهبي مع الأولاد إلى الحقـــول وأنـــا قلت لا؟ لأنها لم تكن ساعة خروجنا من هنا لا أنا، ولا أنت، ولا

الأولاد. وكنا قد بقينا وحتى لو أن البقاء سيكلفنا حياتنا. أنا من يقول: اذهبي وخذي معك الأولاد. في الوقت الحاضر يكفي أن أبقى وحدي.

– أليس من الأفضل البقاء معك؟

– منذ متى نحن معاً؟ قولي. ماذا كنت أفعل من أجل البقاء معك؟ هل نسيت؟ قالها في اللهجة العادية التي لا نبرة عالية فيها ولا توقد كما لو أنه كان يشير إلى أشياء عادية؛ إن قلقه على المرأة التي حظي بها بتبادل الرصاص ظلّ جسيماً في صدره. كانت حظوته بها قد كلفت حياة رجل سيئ في وسط الطريق العام. وتزوج منها عند الكاهن مستفيداً من بعثة دينية كانت قد وصلت إلى ذلك المكان، وأنجبها عدة أولاد، وهي، غير مكتفية بهم، فإنها كانت تأخذ الأولاد الآخرين لتربيهم كما لو أنهم كانوا أولادها. وكان الجميع من صلبه.

– لقد كنت تبقين دائماً مع الأولاد، وهذا فعل حسن ومستقيم. أنا أعرف كيف أعتني بنفسي، وكما تعلمين كانت مهنتي في الحياة مهنة الشريد المسلح. اذهبي، خذي الأولاد معك، رتبي البيت وانتظريني هناك.

– هل ستتأخر في الذهاب إلى هناك؟

– يمكن أن أتأخر ويمكن أن أستعجل. لديَّ عمل كثير في الحقول ولكن قبل كل شيء يجب أن أذهب إلى إيتابونا لأعرف حقيقة ما يجري.

من أسفل المنحدر كان ضجيج الأولاد يصعد إلى مسامعها وهم ينقلون الحاجيات إلى غرفة الثيران. وجاء بيبا يعلن أن كل شيء كان جاهزاً للرحيل. وهبط النقيب مع زيلدا ليودع الأولاد ويباركهم. ومدّت زيلدا برؤوس أصابعها إلى النقيب فالتقت الأيدي وبحركة رقيقة منه لمس وجه المرأة.

6

كان هدوء الصباح المشمس يغطي توكايا غراندي كأنه معطف سلام. الضجيج هو نفسه ذلك المعهود دائماً، وكان نسيم الصباح يلفح وجه ماء النهر، والنساء يغسلن الملابس وينشدن الأغاني، والبقر تتمتع بأكل الثمار المهترئة تحت الأشجار. كان فضول واقفاً عند باب الدكان، ودورفالينيو ينتشل ماء من البئر وكانت تسمع طرقات المطرقة على الحديد الحار في محل حدادة

كاستور أبدووين. وكانت برناردا وكوروكا قد اقتربتا لتتمنيا سفراً سعيداً لزيلدا وتقبلا الطفل نادو.

في المقبرة، كان نعش آخر يوارى التراب، وفي قبر قليل العمق كسائر القبور: إنها جثة التاميراندو، راعي الماعز والبقر كانوا قد دفنوه بجوار ساو متكهنين بإرادته في ذلك.

كانا عاريين بسبب الحر الشديد، في ذلك اليوم، ومنذ بداية الليل: النقيب ناتاريو دا فونسيكا وبرناردا عشيقته، عندما شعرا أن أحداً يفتح قفل الباب ويدفعه إلى داخل الباب الخشبي. يجب أن تكون كوروكا قد عادت من الضفة الثانية حيث ذهبت في زيارة إلى فانجيه. وهكذا فكّر النقيب وأراد أن يسترسل في نومه، ولكن برناردا شكت في الأمر وبجفلة جفلتها انتصبت واقفة. إنها منذ مجيء شرطة الغابات ومجزرة البقر كانت تسير حذرة ويثقل على قلبها عبء، ويسيطر على تفكيرها شيء غامض. في ظلمة الغرفة الدامسة لاح نصف أعلى لرجل كان قد وصل وصرخ:

– جاء اليوم الذي تموت فيه، يا ناتاريو دا فونسيكا، نقيب البراز. – صوب إلى النقيب ولكن من تلقى الرصاصة كانت برناردا التي ركضت مسرعة لتحمي النقيب بصدرها. مزّقت الرصاصة صدرها مخترقة الثدي الأيسر، فوقعت فوق ناتاريو.

في اللحظة نفسها انطلقت رصاصة من جهة الباب وأردت المسلح قتيلاً. إنه الزنجي إشبيريداو، الذي كان قد حضر كساحر، ولكنه لم يدخل الغرفة فظل ينتظر في غرفة الانتظار الصغيرة. كانت برناردا تموت بين ذراعي العرّاب كما تكهنت لها بذلك الغجرية التي قرأت كف يدها في يوم سحيق في القدم. – يا حبي... – تمتمت وهي تنزف الدم من صدرها وفمها. وللمرة الأولى تقول يا حبي، لحبها الوحيد في الحياة. ورددت مرة ثانية قبل أن ينطفئ صوتها إلى الأبد:
– يا حبي...

غطى دم برناردا جسد ناتاريو وأخذ يسيل على ظهرها وفخذيها فرفعها بذراعيه ومددها فوق الفراش وغطاها بالشرشف. الوجه لا حراك فيه، الخدان قاسيان، الأسنان تصطك، العينان غائرتان، خيط قاطع على الشفتين؛ هكذا تأخر ناتاريو واقفاً هناك أمام الجسد. شيء موجع وشيء يستدعي الخوف.

7

– إنـــه دالفيـــنو، هل تتذكر؟ – قال الزنجي إشبيريداو وهو يدفع جثة القتيل بقدمه.

كان ناتاريو يتذكر جيداً الأبيض الأشقر الذي كان واحداً من الذين أقسموا أنهـــم ســيقتلون النقيب في أزمنة الصراعات والمعارك الدموية السابقة ثم تخلوا عن الفكـــرة لأن ناتاريـــو في الـــصراعات ضد العقيد دالتوميلو، هو الذي غدا يحرس خطوات العقيد بوافنتورا. وفي أحد نـــزل غيتابونا تواجها مرة أخرى بسبب امرأة ولكـــن الخلاف لم يؤدِّ إلى نجاح دالفينو في أن يبر بوعده لأنه كان مُتَعْتَعاً بالسكر ولم يكن قادراً على أن يقف على رجليه. كان لسان الشتائم بسبب الكاشاسا قد قلّص التهديدات والقسم بالانتقام، وجاءت إحدى فتيات النـــزل وأخذته معها إلى الغرفة.

حـــسن المظهر، فإن دالفينو قد أصبح مرتكباً لعدة جرائم في الكمائن المسلحة ولحـــساب عدة آمرين. وعندما مات العقيد دالتون وقد أكلته الحمى، راح دالفينو يقـــتل حتى القرود، ثم تحول إلى قناص يؤجر سمعته ودقة تصويبه لأي واحد يعرض عليه عملاً أو مالاً؛ ثم اختفى، فظنوا أنه مات في داخل جاكيبـــي، من حيث جاء وإلى حـــيث رجـــع. وها هو يظهر من جديد في توكايا غراندي، وقد قرّر تصفية ناتاريـــو. تصفية حساب تهديدات قديمة وثأر بعد مدة متأخرة إلى هذا الحد، مسألة صـــعبة التصديق. لقد تمّ التعاقد معه للقيام بالعمل في خدمة أحد على علم بصك الملكية وعادات النقيب ومعاهداته وغرامياته.

– إن تاكـــاراس هي هكذا بقتلتها، وكل يوم تصلها دفعة من هؤلاء قادمين من إيتابونا. – وتابع إشبيريداو: – إذا أردت أن تعرف السبب فأنا أقول لك: إنهم يجمعون صفوفهم لمهاجمة توكايا غراندي.

إذ كـــان قـــد استغرب تدفق تلك الزمر من المستزلمين في محطة تاكاراس فإن إشبيريداو فتّش عن معرفة سبب هذا التلاقي بين الواصلين والذي يثير الفضول. منذ زمـــن بعيد لم تكن تشاهد هذه الأعداد من حملة البنادق مجتمعة دون سبب معلوم لأن الـــسلام كان قد شاع في ملكيات العقداء، والأراضي اقتسمت بين الوجهاء والـــسياسة تـــسير بتفاهم، والانتخابات لا تزال بعيدة. وخرج إشبيريداو لالتقاط

الأخـــبار: لماذا يتجمع في تاكاراس هذا العدد من المستزلمين وبينهم أصحاب شهرة مخـــيفة مـــستحقة؟ كلهم مسلحون حتى الأضراس، والمال فائض في جيوبهم؟ وفي نـــزل الدعارة كانت الكاشاسا تسيل كما يسيل النبع.

أغلبـــية المدعوين لم تكن على علم كثير سوى أن دعوة قد وجهت إليهم من قبل أوريجينس للقيام بعمل يمكن أن يعود عليه بأرباح كبيرة مع التأكيد بأن وظيفة في الـــشرطة العـــسكرية وحسب تصرف الشخص يمكن أن تعطى لمن يبلي البلاء الحـــسن. إن الانتـــساب إلى الشرطة العسكرية مع الحق الذي يلازمه، هو طموح أغلـــب المـــستزلمين العـــاطلين عـــن العمل: في تاكاراس، مكان اللقاء، سينقلون التوجـــيهات في ســـاعة الـــصفر. واحد أو آخر، مع ذلك، كان يعرف أكثر من الآخـــرين، وتردد اسم توكايا غراندي بالنتيجة عدة مرات. بينما دالفينو في نـــزل مارا وقد تعتعه السكر طلب أن توكل إليه مهمة خاصة تسبق تحرك المستزلمين. إن مهمة صعبة ستسمح له بأن يستعيد مكانته السابقة.

وانتهى بالإشارة إلى اسم النقيب، وابتدأ من هنا؛ فإن إشبيريداو لم يعد يغفل عنه لحظة، ووضع نفسه في إثره يرافقه خفية ويراقب من بعيد لقاء القاتل - بالآمر شيكو رونكوليو مساعد آمر شرطة إيتابونا الذي وصل في القطار، وهو يحافظ على المسافة حتى لا يشاهد. ثم اختفى أثر دالفينو عندما اتخذ الأخير الطريق باتجاه توكايا غراندي. وما تبقى من الحبكة يعرفه الصديق ناتاريو.

كـــان الزنجـــي إشـــبيريداو قد تأسف فقط على عدم إطلاق الرصاص وقتل المـــستزلم التعـــيس قبل أن يقتل برناردا، ولكنه من الباب لم يستطع أن يميز جيداً داخـــل الغـــرفة، وعلى الأخص أن الظلام كان كثيفاً. خاف أن يصيب الصبية أو ناتاريو، و لم يستطع أن يفرغ سلاحه إلا على ضوء طلقة دالفينو.

إنـــه أمـــر محـــزن موت برناردا: كانت في نظره الفتاة الأجمل في أراضي نهر الأفاعي؛ ولا واحدة تضاهيها جمالاً؛ "طبعة جديدة"

8

كـــان لجاســـنتا الملقبة بكوروكا متسع من الوقت، ولكنها في النهاية بدت عجـــوزاً منتهـــية كأن السن والتعب قد هبطا عليها مرة واحدة وبشكل مفاجئ؛

جـثت على ركبتيها أمام سرير موت برناردا وهي تحدق في وجهها. سرير الموت، علـى فـراش كانـت تمارس عليه المهنة خلال سنوات عديدة، وخلال كل تلك السنوات كانت امرأة لرجل واحد، هو العرّاب.

إن بـرناردا هـي فليونة كوروكا مرتين. كانت كوروكا القابلة يوم ولدت بـرناردا، وكانت العرّابة يوم معمودية البعثة الدينية. أكثر من كونها فليونة، فهي ابنة، لأنهما عندما التقيا فإن كوروكا تبنت برناردا، وكانت الأخيرة لا تزال طفلة يحفـر فـيها الألم: كانـت أمها مقعدة في الفراش، فنمت مع شقيقتها في الجوع والبؤس. لو كانت برناردا ابنتها بالولادة لما كان ممكناً أن تحبها أكثر.

خـلال تلـك السنين، سكنت الاثنتان في الكوخ الخشبي الذي أمر النقيب ناتاريو ببنائه، فلم تسمع كوروكا كلمة سيئة، ولم يبدر عن برناردا أي عمل قاسٍ تجاههـا، ومن أي نوع كان، ولم يظهر بينهما أي شك أو عدم ثقة في يوم ما. يا إلهي، كيف سأكون من الآن فصاعداً؟

حنت كوروكا رأسها، لا تريد أن تفكر.

لم تعد تفكر في شيء، لم تعد تتذكر الماضي، والأحداث والمحادثات والمشاريع وساعات الفرح والحزن، والمخاطر والأحلام، والأعياد. كانت ناشفة وفارغة كما لـو أنهم انتزعوا قلبها وأحشاءها بخنجر مسنون. غسلت جسد برناردا وألبستها، وسـرحت شـعرها السابل وعلقت في أذنيها الأقراط التي كان العرّاب قد أهداها إليها.

رويداً "رويداً" السكان يتوافدون إلى الكوخ. وأغلقت فتيات الهوى أماكنهن حداداً.

9

أقول لكم بصمتي: في الأزمنة السابقة، في هذه الأرض التي تنمو فيها أشجار الكاكـاو، الأجمل والأغنى من كل بقاع العالم التي تزرع وتحصد، كان هناك التزام بكلمة العهد، وشرف في التعامل، ولم يكن ضرورياً استعمال الورق الموقع أو تقديم الوثائـق. كـان لـدى المواطنين، الأغنياء منهم والفقراء، العقداء والمستزلمين، نيَّة صادقة، محترمة، وشريفة. وكان ثمن الخيانة الموت.

أشياء كثيرة تبدلت، من الخارج والداخل، وفي الماضي عندما كانت الطرقات تعج برجال القبضات النبيلة، والثقة بين النبلاء والرجال الشجعان كان المال ثميناً موثوقاً. الآن من يأمر فأناس آخرون؛ كان ناتاريو كحجر لا يفصح عن أفكاره المرة ولا يعكس وجع غياب من كانت حبيبته وتكاد تكون ابنة بالمعاملة الطيبة. ولكن الجميع كانوا يعرفون خطبته دون أن يلقيها، يعرفونها عبر صمته الضاج.

ليحدث ما حدث، فهو سيشرف كلمة العهد، الكلمة المضمرة وسيتقيد بالاتفاقية التي وقعها في سفرة الاشتباكات والأحداث، الصغيرة منها والكبيرة، المباركة والملعونة؛ إنها المعاهدة الموقعة مع الحياة.

10

سمع إشبيريداو، هنا، وهناك: على المقاعد الخشبية في محطة سكة الحديد، وفي دكاكين الكاشاسا الصاخبة، ونزل الفتيات المليئة بالفرح، سمع شائعات، وحكايات، وقال قائل ما قال، عن الحركة الصاخبة في البلدية، وفي المكاتب الحكومية، وفي دابريوزا، والسجن، وشوارع إيتابونا. إن ما هو في طور الإعداد، إذا صدق اللفظ، يدل على أن هناك استعدادات متباينة ومتنوعة.

إشارات عديدة ولكن غامضة، لا تكفي للوصول إلى استنتاجات دقيقة. وفكّر النقيب في الذهاب إلى إيتابونا ليعرف تفاصيل ما كان يتعاقب من روايات فيضع كل شيء في صحن نظيف. ولكن الثلاثة الباقين، وبعدهم جاءت كوروكا أيضاً وهي ذات نصيحة مخلصة، نصحوا النقيب بعدم الذهاب، لأن مثل هذه السفرة خطيرة حيث يجب الاحتراز! إنها شبيهة بالارتماء أمام العدو، مغلول الأيدي ومكبل الأرجل.

وفي رأي إشبيريداو الأكبر والمتوازن أنهم إذا كانوا قد أرسلوا قاتلاً إلى توكايا غراندي ليقضي على ناتاريو، فسيكون عند كل ركن من إيتابونا لص قاتل بانتظاره، في كمين. وافق فضول عبد الله وكاستور أبدووين بالإجماع وكان إشبيريداو قد كلّف ابنته - المعلمة أنطونيا التي كانت تقيم علاقات مع الجميع وتستحق الثقة والاحترام من أصحاب العيون المرتمية عليها - كلفها بالحصول على كل المعلومات وإرسالها إلى شخص خاص مكتوبة باليد. والكتابة واضحة، وبأحرف جميلة؛ لم يكن هناك اثنتان بل معلمة واحدة هي أنطونيا.

ومع كل ذلك، لم يذعن النقيب للأمر لولا وصول السيد كارلينيوس سيلفا إلى توكايا غراندي. كان في إيلايوس لتقديم التقرير الشهري، وكان قد جاء بأنباء أكيدة وأمر سريع أمر به كورت كويفمان، شخصياً، لتفريغ وإقفال مستودع الكاكاو والرجوع بكل شيء إلى مقر الشركة العام.

11

توقفت فانجي أمام مدخل الشرفة في بيت النقيب ناتاريو دا فونسيكا ومعها أولادها الثلاثة: جواوزي وإغنالدو وأوريليو.

– عن إذنك يا نقيب، أريد أن أتكلم معك.

كان النقيب جالساً على مقعد خشبي ينظف مسدسه "البارابللو" ويتحدث مع فضول وتيساو. الأسلحة المكومة في غرفة الاستقبال عند أسفل الغرامافون استرعت انتباه السرجيبية.

– تفضلي بالجلوس يا خالة فانجي – وأشار ناتاريو إلى المقاعد الفارغة: – وأنتم أيضاً. توجد أمكنة للجميع.

إن جواوزي قد عاد من تاكاراس بعينين زائغتين، وأذنين مليئتين بما شاهد وسمع. كان قد ذهب إلى المعرض برفقة أخيه أوريليو، وأخذ معه على ظهر الحمار حمولة من الدجاج البياض والفواكه والخضار، وعاد مرتبكاً مستنفراً وبمشية وئيدة. كان قد شاهد حركة المستزلمين وهم يسيدون ويميدون في المعرض، وسمع دمدمات ودندنات أزقته.

– يا حضرة العقيد، هل تعلم بما سمعه جوازيه في معرض تاكاراس؟ لقد أخبرنا ولكني لا أصدق أن ما أخبره يمكن أن يكون حقيقة.

ذهب النقيب يفتش عن أقداح ليقدم الكاشاسا إلى الواصلين الجدد.

– تفضلي بمتابعة الكلام يا خالة فانجي، إني مصغٍ إليك.. وقبل أن يجلس، زاد الكمية في قدحي الزنجي واللبناني وفي قدحه. ووضع الزجاجة عند متناول يده.

– نعم، إنهم يقولون عنا مجرمين، وأننا نحتل أراضي الغير دون استئذان صاحبها.

– أجل هذا ما سمعته – أكد الابن: – يقولون إننا لصوص أراضٍ. وأخذت فانجي الكلام من جديد:

– إنهم سيطردوننا وأن أصحاب الأرض سيصلون قريباً.
– ويرافقهم مستزلمون... – أوضح جواوزي.
– مـــع المـــستزلمين. – أراد جواوزي الاعتراض ولكنهم أكدوا المقولة: إن القانـــون هـــو الـــذي سيصل. كونه مكاناً متخلفاً لم يكن هناك من قانون ولكن سيكون هناك قانون. هل صحيح؟ قل لي يا نقيب، إني فقط أؤمن بما تقول.
وضـــع النقيب ناتاريو فونسيكا "البارابللو" على المقعد وتأخر نظره إلى وجه العجوز السرجيبية المرتبك، ثم ارتشف بلعة كاشاسا وبيده مسح فمه:
– هناك أناس يريدون هذا، يا عمة فانجي. وإذا تركناهم فسيفعلون.
– وضح يا حضرة النقيب؛ إني لم أستطع أن أفهم.
الإخـــوة الثلاثة، ومعهم فضول وكاستور، كانوا يتابعون الحوار بين النقيب والعجـــوز وهـــم صامتون، يتلمظون بالكاشاسا بلعات صغيرة. كان هناك ضغط نفسي واضح وقوي يكاد الواحد يكون قادراً على تبينه بيده. بصق جواوزي بصقة كبيرة إلى خارج الباب.
– مـــنذ كم سنة وصلت إلى هنا مع المرحوم إمبروزيو وعائلتك؟ أجيبيني إذا كـــان لـــلأرض آنذاك سيد أو إذا كانت مشاعاً؟ وصلتم إلى هنا ونظفتم الحقول وبدأتم بزراعة الذرة. هل كان أحد يدعي أنه سيد الأرض؟
– لم يظهر أحد قط.
– ولا يمكـــن أن يظهـــر، لأنه لم يكن هناك من مالك. منذ كم سنة؟ الآن وقد غـــدت الأرض نظيفة ومزروعة وفيها بيت طحين وأنتم تبيعون هنا وفي تاكاراس، فقد وضعوا أعينهم عليها. ألم تري بعينيك عملية الشرطيين؟ لمن كانت الأبقار التي قتلاها؟ ألم تكن تخص التاميراندو؟ وقتلاه أيضاً. هل هو القانون الذي يجب أن نطيعه؟
فـــتح إغنالدو فمه، وتمكن من القول منفعلاً: القانون.. براز.. ولكن الأم لم تدعه يكمل:
– انتظر يا بني. يا نقيب، قلت منذ برهة إنهم سيهتمون بالأرض إذا تركناها، أليس كذلك؟ – وكررت رغبتها في الحصول على المعلومات: – إذا تركناها؟
هذه هي الحقيقة يا عمة فانجي. إن الرجال في إيتابونا قد حاكوا مؤامرة ويقولون إن لهذا المكان المقفر الذي سكناه سيداً، وأن سيده كان يملكه قبل أن تأتي إلى هنا. إن

هذه الأراضي على ضفتي النهر، حيث شجيرات الكاكاو التي زرعتموها مع زي دوس سانتوس، والتاميراندو والسيدة ليوكاديا، وحيث تقع بيوتنا، والبيوت التي جرفها الطوفان وعدنا فأقمناها من جديد. هذه الأراضي التي تملكونها ونملكها يقولون إن لها سيداً منذ كانت، وهذا مكتوب ومسجل في دائرة العقارات و لم يعد لنا إلا أن نوافق.

– نوافق على أخذهم الأرض التي تخصنا؟

– انتبهي جيداً يا خالة فانجي. انتبهي إلى ما سأقوله. وأنتم أيضاً يا جواوزي، إغنالدو وأوريليو. فإما أن نقول بأن هذا صحيح ونتفق معهم: وإما أن نقاتل للدفاع عما نملكه.

– هل يستحق الأمر العناء؟ بصق جواوزي من جديد: – لم أرَ في حياتي مستزلمين بهذا العدد...

– إن القتال سيكون بشعاً... ونظر النقيب إلى السرجيبين بعينين نائستين، وخفض صوته: – من الأرجح أننا سنخسر المعركة.

ومع ذلك، فإن جواوزي، كان من الرأي الذي اعتبر أن المسألة تستحق العناء وكذلك فضول والصديق تيساو فكرا في الأمر. لقد قرروا شراء القتال.

وطال التأمل في وجه العجوز، ذلك الوجه الذي وشمته الحياة بوشمها.

– إن من صنع توكايا غراندي هم أنتم يا خالة فانجي، وكذلك إمبروزيو والتاميراندو، والطيبة ميرنسيا، والذين يرقدون الآن في المقبرة. هل أنا كاذب؟ ما دمت حياً فلن يستغلنا أحد.

أراد إغنالدو أن يقاطع، ولكن النقيب قام بحركة طلب فيها الصبر.

– سأنهي كلامي يا إغنالدو، وبعدها تتكلم. كل واحد حر في أن يفعل ما يريد يا خالتي. أنت وأولادك أحرار. تتفقون، أو تغادرون للرجوع، أو نهائياً، أو تمكثون وتواجهون.

– بالنسبة لي أعرف ما أقول. لن يكون الأمر كالمرة الأخيرة.. – انفجر إغنالدو بالصراخ.

أخذت فانجي الكلام، و لم تبدل من صوتها:

– هل تتذكر يا نقيب عندما التقينا على الطريق آتين من سرجيبي؟ كانت تلك المرة الثانية التي حصل فيها ما حصل لأرض والدي. إني أفهم تفكير

إغنالدو، وهو لم ينس بعد. لا أعرف ما يفكر فيه الآخرون، وكل واحد يعرف نفسه. ولكني أستطيع أن أقول لك يا نقيب ناتاريو، لك أنت الذي كنت أباً لنا: من هذه الأرض التي كانت غابة وحشية عندما وصلنا، لن أعطي لأحد لا النصف ولا الثلث. لن أعطي أحداً. لن أخرج منها إلا جثة. أما الآخرون فلا أعلم.

– نحن نفعل ما تأمرين به يا أمي. وقف جواوزي لأنه لا يستطيع أن يترك الشجر المثمر في الإهمال.. دعينا نعمل.

– يكافئك الله يا نقيب – قالت فانجي ولحقت بأبنائها.

لكن أوريليو، الأصغر سناً. الذي لم يكن قد تلفظ بكلمة واحدة خلال اللقاء، تطلع إلى الوراء.

– هل تدبر لي سلاحاً ما يا حضرة النقيب؟ في البيت لا يملك أحد سلاحاً غير إغنالدو ولست سيئاً في التصويب.

12

هو القانون أيها السيدات والسادة. بعصا الطاعة الغليظة، وفوهات المسدسات وعلى ألسنة حملة البنادق يعلن القانون عن وصوله. ها هو القانون يصل بعد الطوفان والطاعون.

من أراد أن يذهب فبإمكانه الذهاب، يتخذ سكة، ويدرك طريقاً عريضاً، أو يبقى بعيداً بانتظار أن ينتهي الصراع، فيعود بهدوء، بصوت خفيض، ليتلقى الأوامر ويطيع نظام الآمرين، من أراد يستطيع أن يقود ويضع قدميه في مهماز ويجهز حاجياته ويفر. لم يعد من مكان في توكايا غراندي للعاجزين العاطلين.

بعدما قرّر ما يفعل، وقبل أن يتخذ الاحتياطات النهائية فإن النقيب ناتاريو دا فونسيكا، قائد المستزلمين سابقاً، المقاتل المر، مرة يرافقه كاستور، وأخرى فضول، ومرات الاثنان معاً، راح من بيت إلى بيت، على ضفتي النهر، وشرح لكل مخلوق هناك الذي كان يجري وما الذي سيجري.

للكثيرين منهم، ولمعرفته بهم، أعطى النصيحة بالحذر واستحثهم على الفرار. إذا كانت تنقصهم الشجاعة فإن لديهم أسباباً أوجه من الخوف لكيلا يحملوا

السلاح ويقاوموا. كان الأمر أصعب بكثير من مواجهة الفيضان. إن القانون، أيها السادة، هو أشد فتكاً من الطاعون.

فقــــط يستحق الأمر العناء بالنسبة إلى أولئك الذين كانوا قد تعاهدوا وقرروا أن يـــشرفوا معاهـــداتهم. معاهدة مع الله، مع إله الموازنة الصالح، هو وضع فضول عـــبد الله، ومعاهـــدة مع الحرية كانت معاهدة كاستور، ومعاهدة مع الأرض التي تكتسب بعرق الجبين كما هو شأن السيدة فانجي. وفي حالة كوروكا هي معاهدة صارمة مع الحياة. وأما شأن النقيب ناتاريو دا فونسيكا فهو شأن من انتزع القيادة والسلطة وتعهد بموجبات يجب أن يلتزم بها.

13

في اللـــيلة الأخيرة من تلاحق الأمور. ظهر إله الموازنة في الحلم لابنه فضول عبد الله كمـــا حصل سابقاً في عدة مناسبات مختلفة؛ كان الاثنان يعيشان بتماس متواصل، ويتبادلان الانطباعات حول الأحداث، وكان العربي يشكر أو يطالب، وفقاً للظروف، ممجداً العناية التي يحيطه بها السيد أو متهماً إياه بعدم الانتباه والخفة في تحمل المسؤولية. بظهـــوره المجـــيد - غيمة كبيرة قد اتخذت شكلاً إنسانياً للتحدث مع فضول، شكل عمـــلاق عتيق ذي لحية طويلة وشعر مشعث أسود، فإن الإله الطيب قطع على فضول لـــيلة كـــان الأخـــير قد بدأ يفكر فيها بالأرملة يسرى راموس رباط، التي غدت الآن متـــزوجة، ومـــنذ فترة، بعد وصول أحد المواطنين اللبنانيين الواصلين حديثاً، الذي مع مـــسؤوليته الـــتي تنكبها في محلات الأثاث الشرقية فقد تنكب مسؤولية القرنين اللذين حملـــهما ســـابقاً المرحوم خليل. بعد ذلك وضع فضول عبد الله على اللائحة شقيقتين وكلـــتاهما متـــزوجتان ومتفتحـــتان، ومعهما بدأت علاقات كان الشيطان يسهلها له لـــيورطه مـــع فتيات ثريات ووريثات كبيرات بغية إبعاده عن توكايا غراندي. كانت الاثنـــتان شـــقيقتين لأدما البشعة كالحاجة، السيئة كالكلب، وكاد أن يتزوجها. قصة وقعـــت في بدايـــة تحول توكايا غراندي إلى دسكرة، ولكنها قصة مختصرة في تاريخ تـــوكايا غـــراندي لأن أحداثها وقعت في إيتابونا. وكان يمكن أن تكون ذات وصف فـــضولي ممتع مع أشخاص معروفين مثل فؤاد كرم ووجوه أخرى كأديب بارود خادم المشرب المذهل، مثلاً - ولكن الوقت قد تأخر كثيراً لإعادة روايتها.

وليستكمل متعة الأحلام في تلك الليلة من الوحدة، فإن الصبية أروزة التي اختفت من السرير الواسع ومتعه، منذ أن أوصلها أحد الخريجين إلى حيث لا يجب أن تصل، فإنها ظهرت له شبيهة بزيزينيا دو بوتيا المتعة بلا نهاية. في الليالي الأخيرة، عندما كان الانتظار طويلاً وبطيئاً، فإن زيزينيا رافقته باستمرار.

دقّ إلـه المـوازنة الصالح على كتفه، وأخذه من ذراعه ساحباً إياه من عالم النساء ليحذره من الخطر المحدق به والمقترب من توكايا غراندي. فتح عينيه، فتحول إلى دورفالينيو، محاسب الدكان، الذي أعلمه، متوقداً:

– يا سيد فضول! إن الرجال قد وصلوا يا سيد فضول!

سيطر عليه هيجان غير معتاد: إنه شخص يمتاز أكثر ما يمتاز بالحركة الدائمة، فتأمل كيف هي حاله الآن. وقف فضول منتفضاً.

– كيف عرفت؟

إنه السيد بيدرو سيغانو من قال لي ذلك. إنه في المحل يريد أن يتكلم معك ومع النقيب. ولكن النقيب ليس في البيت.

وبينما كان يغسل وجهه في الحوض، طلب اللبناني تفاصيل، ولكن دورفالينيو أخبره بالقليل الذي يعرفه:

– إن السيد بيدرو التقى بهم آتين إلى هنا. اختبأ ولحق بهم إلى أن اقتربوا من المكان.

كان الخادم "اذهب بهذا وعد بذاك" يفرك يديه ثم يشد على خصيتيه ولا يستطيع أن يخفي عصبيته. وانتهى فضول من تنشيف وجهه:

– إنك ستذهب اليوم بالذات.

– أنا؟ أذهب إلى أين؟ أتطردني؟ ماذا فعلت؟

– ليس الأمر كذلك. أنت لم تفعل شيئاً. أنا لا أريد أن تبقى هنا. لا أريد أن تحملني خالتك غداً المسؤولية إذا ما حدث لك شيء.

ضحك دورفالينيو في وجه معلمه:

– إن خالتي زيزينيا عندما أرسلتني إلى هنا قالت يا لينينو، هكذا تناديني، ستبقى مع السيد فضول، وتهتم به، ولا تبتعد خطوة عنه لأن هذا اللبناني طفل كبير يعيش حياته كلها بالمجازفات، ومجازفة أكبر من هذه التي نعيشها الآن لا يوجد. كيف تريدني أن أذهب؟ ماذا ستقول خالتي عني إذا ذهبت؟

نظـــر بجدية إلى المعلم، جازف بالكلام، ووضع رأيه فوق كل تلك التفاصيل التي كانوا يرددونها:

– ســـترى يا سيد فضول أننا سنموت بين أيدي هؤلاء القتلة. لن يبقى أحد منا حياً، وسوف ترى.

14

مـــرتفقاً إلى لوح المشرب، كان بيدرو سيغانو، وعلى حسابه الخاص، يتناول جـــرعة الصباح ليغسل فمه. كان قد أمضى جزءاً كبيراً من الليل وهو يضرب في الغابات جاداً وراء حركة المستزلمين الآتين من تاكاراس بمسيرة ثابتة الخطو.

عـــادة آلـــية هي عادة فضول في قلب البقية الباقية في زجاجة الكاشاسا إلى جـــوفه. رفـــع كتفـــيه، والـــوقت لم يكن ملائماً للمطالبة. من المحتمل أن يكون دورفالينـــيو على حق ولن يتمكن من الخلاص، في حالة الحرب التي يعيشها تسقط كل تفاهات التجارة. واكتفى بالتحدث بثقة عالية بالنفس.

– لقـــد اخترت ساعة غير مناسبة، سيئة الطالع، للمجيء إلى هنا. إنها أسوأ لحظة للمجيء.

– لماذا يقول الصديق فضول شيئاً كهذا؟ هل أزعجتك بشيء.

– مـــن يعرف السبب أكثر من سواه هو أنت، أنت الذي رأيت المستزلمين، قادمين، ألم ترهم؟ إنهم قادمون لمهاجمة توكايا غراندي، ألا تعرف هذا؟

– وهـــل تأخـــرت يـــوماً قل لي: من الذي كان هنا عندما قلب مانـــزينيو وشيكو سييرا جانجاو كل شيء رأساً على عقب؟ وأثناء الطوفان، من الذي خرج تفتيـــشاً عـــن سيسرو مورا وساو المسكينة؟ وأثناء الطاعون من الذي ذهب ليأتي بالدواء؟ لست ممن يجبنون يا صديقي فضول، فكيف أكون ممن يهربون في اللحظة الحاسمة. اسأل النقيب، فهو الذي يعرفني من زمان.

وضع الكأس على لوح المشرب.

– مـــا رأيك لو أننا ذهبنا لأكلة نكسر بها جوعنا؟ إن الكيس الفارغ لا يبقى واقفـــاً. ونحـــن بحاجة إلى ملء معِدنا قبل أن ترتفع الحرارة، وسلم الهرمونيكا إلى اللبناني: احتفظ بها رجاء، فسوف نُحيي حفلة بعد المعركة.

15

رؤيـــة الأنباء التي جاء بها بيدرو سيغانو، تطابقت مع ما هو في رسالة المعلمة أنطونيا التي أرسلتها مع أحد تلاميذها ويدعى لازينيو ابن لورانسيو مسؤول المحطة.

وإذ كـــان معتاداً على المجيء بالرسائل والبرقيات إلى العقيد بوافنتورا أندرادي في مزرعة أتالايا فإن الغلام وقد امتطى حماراً سريعاً سبق المستزلمين في الوصول إلى تـــوكايا غـــراندي جاعلاً اتخاذ الاحتياطات أمراً ممكناً، احتياطات ملحة ولكنها ليـــست دائمـــاً ممكنة. لم يكن سهلاً إقناع الزنجي إشبيريداو، بالذهاب إلى مزرعة بوافيـــشتا، ولكنه قرّر أن يقوم بذلك عملاً بصداقته مع ناتاريو الذي توسل إليه أن يحـــافظ على زوجته وأولاده ليتمكن، هو النقيب، أن يتولى القيادة باطمئنان دفاعاً عن توكايا غراندي. عندما حدثه النقيب بهذا الموضوع كاد الزنجي أن يزعل:

– إلى المـــزرعة؟ هـــل جعلتني، يا ناتاريو، أهرب من هنا، الآن، وأتحول إلى عجوز جبان؟ لست أنا من يفعل هذا.

– وهل في هذا العالم من يستطيع أن يعتبرك جباناً؟ تعجب النقيب إلى حدٍّ أنه انطلق في الضحك، وهذه مسألة لا تحدث معه إلا قليلاً.

– اطـــرد هـــذا التفكير من رأسك، وأصغِ إليَّ رجاء: وضع يده على كتف الزنجـــي بحركة عطوفة، ليقنعه بصورة أفضل: لماذا جئت إلى هنا؟ ألم تأت بسبب توكايا غراندي، ألم تأت لأننا كأخوين؟ هل أنا مخطئ؟

– إنك تقول الحقيقة؟

– إذن افهم جيداً. إنك تساعدني أكثر إذا ذهبت لتعيش مع زيلدا والأولاد، ولـــيس عـــندي سواك أثق به لمساعدتي عند الحاجة. ما لا ينقص هنا هم الرجال التافهون.

لم يعطِ ناتاريو الوقت لإشبيريداو ليفكر:

– إذا ظَهر أحدهم هنا فإن له رصاصة أولاً ثم أرسل ابني بيبا ليعلمني.

وبيده الموضوعة على كتف الزنجي، أسر إليه برغبته:

– بالـــرغم من أنني أردت لابني إيدو أن يذهب معك، ولكنه لم يشأ حتى أن يصغي إلى ما أقول. إني لم أعصِ أبداً أوامرك يا أبي ولكنها ستكون المرة الأولى في عصياني لشيء تقوله – كان يردد بقلق واعتزاز، راضياً عن تمرد ابنه.

- يجب أن يكون كذلك، لأنه ابنك.

سحب ناتاريو يده عن كتف إشبيريداو وأهمل مرة أخرى تماسكه المعتاد، وأخذه بين ذراعيه. منذ أن ماتت برناردا، كان النقيب قد بدأ يظهر بشكل آخر.

- قل لزيلدا أن تنتظر هناك، وألا تخرج من المزرعة مقابل أي شيء في هذا العالم؛ انتبه إلى الأولاد وانتظرني.

16

أصعب من ذلك كله إقناع الزنجية إيبفانيا بالخروج إلى مزرعة سانتا ماريانا، في أعالي مرتفعات نهر الأفاعي، وهي تحمل توفو "فليون" السيدة إيزابيل والعقيد روبستيانو دي أراجو.

ابن شانغو إله الحرب، تيساو أبدووين، وكان فيه جانب من أوشوسي هو الصياد، وآخر من أوشالا الأب الأكبر. وكانت في إيبفانيا من أوشون سيدة النهر والفتنة، وكونها ملكة فإنها لم تكن تقبل بتلقي الأوامر من كائن فان أياً كان.

عند الفجر، قبل شروق الشمس على السكان والمستزلمين، فإن حادي الحمير دعا ريسو لمساعدتهم وتقديم الضحية، ضحية الدم إلى إيبو: ضحوا بأربعة ديوك وخصصوا واحداً منها إلى يمنجا سيدة وحامية المرهفة ديفا.

صعدت يانسان إلى صهوة الجواد، ورقصت ريسو رقصة الحرب، وانطلقت إلى المعركة، وعادت في طليعة الموتى وفتحت الطريق لإيجون وإشيشيه.

ارتعد الزنجي، غطى عينيه بيده، مضطهداً، هرباً من مكان إلى مكان، وفمه أحمر من دم الديك الذي قدم للإلهة يمنجا.

وعصفت الريح بصورة غير متوقعة، وهبطت من السماء غيمة تحولت إلى كيان، كانت إلهة المياه، سيدة المحيط، السيدة جانايينا التي أخذت الطفل بين ذراعيها ورفعته إلى أعلى، وأرته للجميع قبل أن تسلمه إلى أوشون، ثم غنّت للفرح والحياة.

إنها أوامر إيجون، وإيبفانيا لا تستطيع سوى الطاعة. امرأة عراك وإقناع، قاسية في المكابرة، لم تشاهد عيناها أبداً تذرفان الدموع، ولم تحمل شفتاها أبداً تعبير التشاكي. حاولت إيبفانيا المقاومة، فلم تستطع، لأن إيجون كان يدلها على طريق الحياة بإصبعه النحيل، وكما فعل سابقاً، سلمها الصفة وفرض القرار.

انطلقت إيبفانيا باكية، ومن رآها تبكي لم يصدق. ورافقها الكلب ألما بينادا لمسافة قصيرة من الطريق ثم عاد لينضم إلى صديقه الذي كان قد شهر السلاحٍ.

عند الوداع، ضمّ تيساو الطفل إلى صدره: قولي للعقيد ليجعل منه رجلاً.

17

حوالى الساعة الحادية عشر صباحاً، أعلن القانون عن حضوره بشخص إيرينيو غوميز، رئيس القسم الجنائي في المحكمة - المكتظة بالمعاملات في إيتابونا. وصل إلى توكايا غراندي يرافقه جنديان من الشرطة العسكرية ليثبت وجود السلطة، ويفرضها إذا أمكن. كان الجنديان مسلحين حتى الأضراس، وإيرينيو يظهر على زناره مسدساً هي المنظر، محرقة ناره.

ودون أن يترجل عن مطيته، وعلى جانبه المؤجران الاثنان، فإن ضابط قصر العدل أعلن في المحلة العامة أو نقل إلى الحقل، أمام المذبح الذي شيّد للبعثة الدينية، عن القرار الذي أصدره القاضي، قاضي الحقوق المدنية، والذي تمّ نشره في مجلة "الأسبوع الريفي" وتوزيعه مع الرياح الأربعة.

إن القرار يأمر مواطني توكايا غراندي بإلقاء السلاح وإعادته إلى السلطات العليا التي يجب تسليم أنفسهم إليها ووضعها في تصرف العدالة، والامتثال للتحقيق في جريمة قتل شرطي الغابات، والظهور أمام اللجنة التحقيقية للمتهم ناتاريو دا فونسيكا الذي صدرت في حقه مذكرة توقيف وإيداعه السجن.

وإذ انتهت الخطبة العلوية، وبين هزء وضحكات الموجودين بدأ إيرينيو غوميز بالانسحاب. وقام بذلك بهدوء. ولكن السكان المجتمعين للإصغاء اكتفوا بتجريد الثلاثة من أسلحتهم. أما السكان الأكثر انفعالاً فقد أرسلوا القانون إلى المرحاض... والقاضي إلى بطن العاهرة التي خلفته...

18

تبودلت الطلقات الأولى عند الساعة الثانية بعد الظهر، في مخزن الطحين على حدود بساتين زي دوس سانتوس والعجوز فانجي، والطلقات الأخيرة بعد منتصف الليل عند بيت النقيب ناتاريو في أعلى القمة لدى صعودهم المنحدرات. تكدست

الجـــثث كما لو كان سياج البيت قد تمّ تشييده بمجموعة من المقاتلين الأشاوس. كانا يساويان كتيبة كاملة ولكنهما لم يكونا غير اثنين كمنا وراء جذع مولونغو.

المحاضـــرة، والهجوم والاحتلال دامت عشر ساعات وعشرين دقيقة، وكلها معـــدودة ثانية ثانية بساعة النيكل التي يحملها الرقيب العصبي أوريجينس. بين الثالثة والرابعة أو لنقل بين مذبحة السرجيبيين والهجمة الثانية التي قادها شيكو رونكوليو، حـــدث وقف لإطلاق النار. استغل الجميع وقف إطلاق النار، المهاجمون ليكملوا إعدادات الحصار، والسكان لدفن موتاهم في قبور مفتوحة على عجل والتي كانت الأخيرة من القبور الفردية التي تمّ حفرها. بعد ذلك لم يعد هناك وقت لدفن أحد. وأمـــا الحفـــرة، في الـــيوم التالي، التي تمّ فيها دفن جميع القتلى من الفريقين فقد تمّ حفرها بواسطة أصحاب الحظوظ.

لدى توظيف المستزلمين في إيتابونا، فإن المعدين للمخطط وعدوا بحفلة فوق العـــادة، واحـــتفال لا مثيل له، ولمحرقة لا نهاية لها في العيد الاحتفالي بالنصر.. وبـــسبب قلـــة الفتيات، فإن المتعة اقتصرت على الأكل والشرب، وماذا يفيد الأكـــل والـــشراب دون حيوية الفتيات؟ وحدهن قادرات على إحياء القلوب وإشـــعال الحمية لدى المتعبين من القتال؛ أبعد من ذلك لم يكن هناك إلا نهب الدكان الذي سيكون وفيراً؛ في بيوت السكن لم يحصلوا إلا على أشياء لا قيمة لهـــا. الـــذين كانوا قد تركوا توكايا غراندي قبل وأثناء الهجوم أخذوا معهم ملكياتهم على ظهور حمير القوافل المحملة... ومن حسن الحظ أن ماكينة خياطة الـــسيدة ناتاليـــنا كانـــت يدوية، وكانت قد حملتها فوق رأسها حين غادرت المكان.

لا مجال لإضاعة الوقت في الكلام عن الذين، جبناً أو تردداً، تخلوا عن توكايا غراندي ورفضوا حمل السلاح. ولكن يجب القول إن النقيب وفضول وكاستور لم يمـــنعوا أحـــداً عن أخذ القرار الذي يريده. فليس أشد خطورة من قيادة الخائفين، والنقيب هو الذي يعلم هذا أكثر من سواه.

والـــذين هربوا وأنقذوا حياتهم وبعض حاجياتهم فإنهم قد أضاعوا كل شيء آخـــر بما في ذلك الإقدام واعتبار الآخرين لهم، كما لو أنهم في تخليهم عن أهاليهم وجيرانهم قد أصيبوا بالجُذام الأسود والبرص. هكذا يحدث عادة.

لا تتضمن لائحة الجبناء أولئك الذين ذهبوا للقيام بواجب أو لمرافقة الجرحى والأطفال. فزينيو، ما عدا مرافقة لوبيسينيو، والده، الذي أصيب إصابة خطيرة بعد الظهـــر، راح يـــشيع نـــبأ موت ناتاريو بغية تهدئة عنف العدو، وفقاً لما أوصاه به النقـــيب نفسه. أما جواوزي، ويده مربوطة إلى عنقه وبكتفه المكسورة، فكان قد قاد باتجاه أعالي نهر الأفاعي قافلة من النساء الحوامل واللواتي ولدن لتوهن وأبناؤهن معهن، وكان قد ترك في مقبرة توكايا غراندي ابنه وإخوته الثلاثة وحماته وإحدى بنات الأخيرة، بالإضافة إلى العم جوزي دوس سانتوس.

زينـــيو، لوبيـــسينيو، وجواوزي وكل المصابين الآخرين، آلوي بالينيو، زي لويس وريسو فإنهم موجودون على لائحة الشجعان وهي لائحة يجب التلفظ بأسماء من فيها بصوت عال نظيف ليتذكروا إذا ما أتيحت الفرصة مرة أخرى عند وجود معطية جديدة مشكوك فيها.

وتحت إمرة كاستور أبدووين، وفضول عبد الله، والنقيب ناتاريو دا فونسيكا بقـــي من الأحياء ثمانية عشر رجلاً، ولكن سيكون ظلماً كبيراً ألا يتم تعداد النساء مـــع الـــشجعان بـــسبب عـــدم امتلاكهن الخصيتين. إن الخصيتين ليستا رجولة. وبالمـــساعدة في المعركة لا يمكن لأحد أن يتشبه بجاسنتا كوروكا. ما عداها، فقد غـــادرن الحـــياة وهـــن يقاتلن – السيدة فانجي، وليا، وباولينيا ماريسكا والسيدة لـــيوكاديا. وإذ اقتلع أحد المستزلمين عين ريسو بالخنجر وأصيبت بمدية في وجهها فإنها تحولت إلى شكل شبيه بشكل إنسان.

ومن الظلم أيضاً نسيان إيدو وناندو، بسبب عمريهما الصغيرين. كان ناندو قـــد وصل إلى توكايا غراندي صغيراً في الحادية عشرة وهناك نما إلى أن مات قرب أهلـــه. وكـــذلك ميرينيو، ابن تارسيسو، وحفيد السيدة ليوكاديا الذي، خلافاً لما أوصاه به أهله، جاء يضع الاثنتي عشرة سنة من عمره في تصرف ناتاريو، وكان ذا مـــنفعة كـــبيرة في التجسس علي حركات العدو. وإذ تمّ أسره في إحدى روحاته ومجياته فقد قتلوه بدم بارد، وانتزعوا خصيته. أما إيدو فقط سقط يقاتل إلى جانب اللبناني فضول عبد الله الذي ورث عن أبيه الغضب ودقة التصويب.

كانـــت الحـــصيلة النهائـــية للعـــشر ساعات من إطلاق النار، من الكمائن والمواجهات بالسلاح الأبيض والعصي الغليظة، تقارب الثمانية وأربعين قتيلاً، منهم

اثــنان وعــشرون من سكان توكايا غراندي من شيوخ وشباب وأطفال، وستة وعشرون قتيلاً من المهاجمين منهم الآمر شيكو رونكوليو والاستعراضي التافه بينايا كــوفارازا. حــتى في أزمنة الصراعات الدموية الرهيبة بين عائلتي بادارو وباسيليو أوليفيرا لم يحدث أن وقعت خسائر بهذه الفداحة خلال فترة قصيرة من الوقت.

19

لا يفــيد بــشيء توجيه الاتهامات، وتحديد المسؤوليات، وتحريم هذا أو ذاك، والتحدث عن الطريقة التي تمّ فيها تلاحق الأحداث، وعن عدم تكافؤ القوى الذي أدى إلى احتلال نهائي لتوكايا غراندي.

إن فــرقة الشرطة العسكرية المؤلفة من ثمانية رجال رسميين وأكثر من عشرين مؤجــراً لــيكفلوا ويعطــوا شرعية للعملية بقيادة الآمر شيكو رونكوليو والرقيب أوريجيــنس، تقلــصت إلى تسع رجال شجعان وامرأة واحدة هي كوروكا، فتاة الهــوى، التي اتخذت مكان فضول عبد الله وكاستور أبدووين اللذين سقطا معاً في المعــركة. أمــا الهجومات السابقة فقد قام بها المستزلمون الذين لا يرتدون الأزياء المــوحدة وهــم كــناية عن عشرين آخرين. كم كانوا قد شوهدوا في الطرقات يزرعون الفوضى في الدساكر الآمنة ويعيثون فيها فساداً مهددين الله والإنسان.

الحقــيقة التي يستحيل تجاوزها تجعل القول إن إغنالدو المتسرع لدى ظهور أوائل المــستزلمين قــررت المجزرة البدائية مسجلة طبيعية البعثة القاسية وحولت الصراع إلى مذبحة. زمرة من المستزلمين يتزعمهم فيلياو روزوريتا، تقدمت إلى الأمام سابقة الآخرين واحتلت بيت الطحين. أرسل ناتاريو كاستور ليتجاوز الهضبة مع أربعة من المتطوعين، بغــية تــضليل الغزاة، أو لمنعهم على الأقل من الوصول إلى البلدة. وقبل أن يدع زمرة المهاجمين الأربعة تقترب فإن إغنالدو تناول بندقية وانحدر إلى بيت الطحين.

منذ الأيام البعيدة، المرة، في سرجيبــي كان إغنالدو يحس بالتعطش إلى الثأر الــذي يحــرق صدره وحنجرته. كان يمكن أن يكون أمراً جيداً إطلاق النار على السينادور، ولكن من كان سيدفع الثمن هم الآخرون.

تقــدم وهــو يطلق النار من البندقية التي كان يحملها على كتفه صوب أي مــستزلم ثم ما لبث هو أن خرَّ ناخرةً جسمه الطلقات، وكان المستزلم إغنالدو أول

القتلى... في إثر إغنالدو، لتمنعه ربما، ومن يدري، كانت تسعى ليا زوجته: فتلقت رشـــقاً كاملاً من الرصاص فالتفت ثم وقعت فوق جثة زوجها. ومن خلفها انبعث أوريليو وبيده السلاح الذي أعطاه إياه النقيب، ولكن لم يتمكن من أن يشهره.

وإذ أصـــيب بالغـــضب للهجوم غير المتوقع، فإن فيلياو أمر بقمع عنيف بدأه الأزلام، ولكـــنهم لم يـــستطيعوا اســـتكماله. لم يكتفوا بتصفية وتحييد زي دوس ســـانتوس وجواوزي اللذين كانا مسلحين، فقد عمدوا إلى قتل فانجي التي هرعت بالصراخ والعويل وكل ما فعلت البريئة هي أنها كانت قد رفعت ذراعيها أمام حملة البنادق.

لم ينـــته المهاجمون من العائلتين السرجيبيتين – عائلة إمبروزيو وعائلة جوزي دوس سانتوس – لأن زمرة كاستور كانت قد وصلت من الجهة الأخرى وأخذت المهاجمين على حين غفلة، ففروا من بيت الطحين ليستمروا في القتل على هواهم. وراحوا يطلقون النار جماعياً أثناء الانسحاب.

20

عـــندما وجـــد اللبناني فضول نفسه وحيداً، وبالقرب منه إيدو ودورفالينيو مجـــندلان أرضـــاً، واحد ميت، والآخر ينازع أنفاسه الأخيرة، ولم يعد في مسدسه رصاصـــة واحدة ولا ذخيرة في زناده، قفز فوق أول مستزلم قربه. ولم يكن الآخر غير بينايا كوفارازا. وبيديه، تلك اليدان الغليظتان اللتان بهما كان يفض الخلافات ويقـــنع الأكثر عناداً، بتلك اليدين الحديديتين، بهما، أمسك اللص القاتل ولكنه لم يتمكن من أن يخنقه ويجهز عليه نهائياً، فبينما كان يشد على خناقه بغية كسر عظام بلعـــوم السافل ومنع الهواء عن رئتيه فإن فضول تلقى رصاصتين، واحدة في كتفه، والأخرى في عنقه، فأرخى يديه وتمايل. لم يقتلوا اللبناني في الحال: فقد تريثوا بأمر مـــن بينايا المهتاج، اللاهث، المتنفس بجهد، فربطوا العملاق وألقوا به في الإسطبل حـــيث كانـــوا مـــتجمعين. كان بينايا مزمعاً على الاهتمام بفضول عندما تنتهي المعركة.

خلال عدة دقائق ترك فضول نفسه بلا حراك مستجمعاً قواه. كان ينـــزف دماً من عنقه وكتفه، ولكنه تمكّن من أن يملأ صدره بالهواء، وينفخ أوداجه، ثم فك

الحبال التي ربط بها كما تربط الثيران، وبردة فعل انفعالية سريعة انقض على مسدس من مسدسات المستزلمين وراح يطلق النار منه، فأرسل اثنين إلى الجحيم وأكثر من ذلك لا يستطيع لأن بينايا أفرغ في جسده ست رصاصات. لم يتمكن بينايا من القضاء على فضول، بهدوء، كما كان قد خطط، لذلك اضطر أن يتخلص منه خائفاً وغاضباً.

هكذا مات فضول عبد الله، "البزرة - التركية" اللبناني فضول، سيد فضول العمال ورجال القوافل، بائع الحقيبة ذو التقليد العريق، "الكابحي"، المواطن الأصيل في البلدة الناشئة، المشهور بقياسه الكبير، المحترم لقوته، المنظور إليه بعين الرضى لإخلاصه في الوعد والمعاملة الراقية، المحبوب لطبيعته الصريحة والمتعاونة: ألم يكن هو من شرع في الأزمنة الغابرة في توكايا غراندي مبدأ "الجميع للواحد، والواحد للجميع"؟

في الأيام الأولى كان قد وقع عهداً مع إله الموارنة الصالح الذي جاء به إلى هناك آخذاً إياه من يده. ونفذ هو المعاهدة حتى النهاية، بالرغم من كل الأعباء الثقيلة، وفي ساعة الموت طلب من الله الغفران. وفي غيمة قريبة رأى أمام عينيه الزائغتين وكان قد فتح فمه، ولكن، بدلاً من أن يهمس همسة رقيقة فإنه صرخ صرخة النزع عندما رأى زيزينيا للمرة الأولى فنال منها. كان لديه في تلك اللحظة أناس طيبون عديدون ليفكر فيهم، ولكنه فكّر في زيزينيا عندما أسلم جسده إلى الله، إله الموارنة الصالح. إله صالح؟ فليرَ هذا من يشاء، وانتفض انتفاضة غضب قبل أن يتقيأ روحه: إنه صنم بلا كلام، حقير لا يلتزم بالعهد، سافل لم يفِ بالوعد.

21

بعد أن انقضى كل شيء، وعندما فرض القانون وترسخ بالقساوة اللازمة فإن حكايات عديدة راحت تروى في الطرقات العامة والمساكن والدروب الكثيرة في الأرض المدنية، وكلها حول الانقضاض على توكايا غراندي واحتلالها. ووفقاً للأنباء الصحفية فإنها أكبر معركة وأعنفها وقعت في المنطقة منذ نهاية الصراعات على ملكية الأرض، الصراعات التي انتهت مع الكمين الكبير الذي نصب في المكان

نفــــسه ومنه اشتقت التسمية. وفي شعاب الداخل، وحقول سرجيبـــي المتماوجة بالأخـــضر فـــإن المغــنين أمسكوا بآلاقم الموسيقية وعزفوا الأحداث الحزينة على أوتارهـــا، يصفون الثأر من الطيبة. وعقاب الأبرياء؛ من جهة، الخيانة والشر، ومن جهة أخرى الرجولة والتفاني؛ هكذا سحق الانحراف الحرية.

إذا كانـــت صحف العاصمة قد صدرت - بوثائق تدين هذا أو ذاك، وكل جريدة تصف حقيقتها هي، فإن العكس، قد حدث في أوساط سادة الحقيقة حيث جاء الحكم واحداً على المذبحة، وبموقف إلى جانب شعب توكايا غراندي... هؤلاء أوضـــحوا أسباب الجريمة - الحسد، والشهوة في الربح، وفرض القوة. واستهجنوا أسماء الذين أعلنوا أبطالاً في صحف الحكومة، ووشموا المنتصرين بخاتم الشر والعنف ودافعـــوا عـــن قضية المنهزمين. الأخبار الصاعقة التي رويت بإخلاص وصلت إلى مسافات بعيدة بلغت قصور العدل في بارايبيا وبرنامبوكو. كانت تلك المواقف تمثل ضـــوءاً خافتاً وبريق فانوس أضاء الوجه المظلم. في الأناشيد لعنت أسماء وأثني على أسمـــاء أخـــرى. وكانت أبيات الشعر قد تحدثت عن الظلم والقساوة، وعن الحب والرياء الحقيقية عن الدم والموت ولكنها أيضاً أشارت إلى الجمال والفرح. وأنشدوا للـــرجال ذوي القلـــوب اللطـــيفة الذين بنوا بيوقم وزرعوا الحقول بالفاصولياء السوداء.

"بيت النقيب
بيت حب وعطاء
وللعجوزة فانجي
كل حقول الفاصولياء..."

قصة النقيب ناتاريو دا فونسيكا الحقيقية روها "فيلوميناداس روزاس ألينكار" القريبة الفقيرة لعائلة ألينكار الغنية المشرفة على الدراسات الفلولكلورية، وكانت قد وصفت أفعال النقيب:

"كان نقيباً باسلاً
وقائداً مبرزاً
عشير نساء طيب،
ولعنة على الأعداء..."

كـــل العازفين على الكمان، ودون استثناء، تحدثوا عن فضول عبد الله، عن قـــوته العملاقة، عن قدرته وضخامته، وعن حبه للمتع والعمل، وتذكروا كوروكا الـــتي كانت أطيب في كل مرة تتقدم فيها السن، وكانت في القتال تساوي رجلين وأحياناً ثلاثة.

أمـــا جيـــزوس دا ماتا الذي لا يضاهيه أحد في السرد وبينما هو يعزف على الكمـــان بلـــسان أهل السرتون، روى القصة الكاملة لكاستور أبدووين، الملقب بتيساو، ومنذ حقول قصب السكر في ريكونكافو إلى بساتين الكاكاو في الجنوب، واعتبره رجل الألف حب والمغامرات التي لا عدَّ لها.

كانـــت الأبـــيات الـــشعرية التي نظمت في كاستور قد تحدثت إلى الأشعة والصواعق في الساعة الأخيرة من حياة كاستور أبدووين دا أسونسيون، أميرابيبانو المراهق وهو يسرح في سرير البارونة والمستخدمة، حذّاء الحمير، صانع الخشاخيش المعدنية، ابن شانغو، ونسيب أوشالا، ومحروس يمنجا؛ على وميض الأضواء، وعلى مـــتن الصاعقة، صعد إلى السماء الزنجي تيساو وكلبه ألما بينادا الذي لم يعرف من أين أتى: لعل الكلب كان هدية الإله إيشو، إذ لم يكن هناك تفسير آخر.

صـــعد إلى الـــسماء في عـــربة وهناك يمكن رؤيتهما حتى اليوم، بالزنجيات والمتولدات، والبيضاوات والوجيهات، على صفحة القمر، وفي حقل النجوم، وهما يحلقـــان فـــوق حقول سانتو أمارو نهر الأفاعي المحروسة بالقديس جورجي دوس إيلايوس.

22

أما في العاصمة فإن الصحف المشار إليها قد خاضت سجال إعلامي ومناظرة مسهبة ظلت تمثل العناوين الأولى في الصحافة الباهيانية بفضل المواهب الملتهبة التي شاركت في تصوير ملحمة النسور!

في الـــصحيفة الوحـــيدة المعارضـــة، فإن كتاباً مرتعشين من الحادثة وضعوا أفواههم في العالم عبر مقالات ذاتية أو مطلوبة، وكانوا جميعاً يلهثون غضباً ورفضاً ضد الرذيلة والدم، متحدثين عن الأزمنة الغابرة وعندما كانت منطقة الجنوب أرض المجـــرمين الـــذين لا أرواح لهم، الوحوش البشرية المجردة من الإنسانية، واللصوص

الـــذين يعيشون في الحياة بلا قانون أو رقيب. أما الصحف الحكومية الثلاث فإنها لم تكـــن أقـــل حماســـاً وراحت تؤكد أن المسألة هي على عكس ما هو مزعوم لأن العملية فرضت النظام والقانون في معقل للصوص والمجرمين، والهاربين من الشرطة. كانـــت العملـــية، في عـــرف هذه الصحف بسيطة وقد رمت إلى تنظيف القذارة ووضع حدٍّ لبقايا عصر الانحراف والبربرية.

23

بالـــرغم مـــن إلحـــاح السلطات العليا، المستعجلة لوضع حدّ، فإن الرقيب أوريجيـــنس انتظـــر، بغية إملاء الأوامر، مدة نصف ساعة بعدما توقفت الطلقات الـــنارية الآتـــية مـــن ناحية المذبح والمستودع الكبير، وهي إشارة إلى أن الجرحى والموتى من الذين لا يزالون يقاومون قد تمّ تحييدهم.

إن حذر الرقيب فرضته الخسائر الفادحة التي تكبدها.

لم يتوقع من هذه المشكلة في صفوف المستزلمين والجنود. ومن الوجوه الرسمية الثمانـــية، لم يـــبقَ إلا ثلاثـــة، وأما الخمسة فقد سقطوا قتلى بالإضافة إلى شيكو رونكولـــيو. خمـــسة عشر مستزلماً كانوا قد أسلموا أرواحهم لله أو للشيطان. أما رجـــال تـــوكايا غـــراندي والبعض منهم قد حمل السلاح لأول مرة فإنهم قاتلوا محترفين، وباعوا الحياة غالياً. لماذا أقدم الملاعين على هذا الفعل؟ إن الرقيب لم يكن يعلـــم. ولكن كونه مستزلماً في السابق فإنه قدر المواجهة حق التقدير. ومن حسن حظـــه أن النقـــيب ناتاريو دا فونسيكا كان قد مات. وبدون النقيب أصبح الباقي سهلاً للغاية.

إذ أطال التهدئة، وقد عبر نصف الساعة من الانتظار في ساعة الجيب البراقة، فـــإن أوريجينس أمر الكتيبة التي لا تزال كثيرة العدد بالرغم من الخسائر الفادحة، بالـــتقدم باتجاه المستودع، وبحذر، وعلى مهل، خوفاً من الأسلحة الجاهزة للإطلاق ربمـــا. ليس الحذر من مجنون بأمر يؤسف له، والمجانين موجودون في كل النواحي ويظهرون فجأة حيثما كان.

لو أنه راهن لربح. كانوا يتقدمون من المذبح عندما ظهرت في دياميس الليل صورة غريبة تحمل وتحرك شيئاً شبيهاً بالبيرق.

أمر الرقيب المتفاجئ بإطلاق النار فأطيع. ونالت الرشقات من الخطير المتعاون مـــع سكان توكايا غراندي، فوقع البيرق مترنحاً أمام صليب المذبح. كان المقدم قد اســـتخدم تلـــك القطعة الزرقاء كبيرق سلام، والذي استخدمه لم يكن إلا السيدة لـــيوكاديا الـــتي بدلاً من الالتحاق بعائلتها فإنها فضلت البقاء في توكايا غراندي مجازفـــة بحـــياتها. لتقدمها في السن وقد بلغت الثمانين، كانت قد ارتدت ملابس حفيدة آراكاتي ورفعت العلم وذهبت تعبر الحقل بسلام.

وتابـــع المستزلمون وقوادهم الزحف إلى الأمام واحتلوا المستودع. وهناك فإن الرقيب أوريجينس بريتو من الشرطة العسكرية في ولاية باهيا، والموفود المنتدب من إيتابونا، اعتبر المهمة العسكرية منتهية وراح ينظم مع المستزلمين غير الوديعين حرس الشرف لاستقبال، بشكل احتفالي، سلطات البلدية والبعثة الرفيعة المستوى المنتظر وصولها عند أسفل المنحدر. والرقيب لن يطلق الحرية لمرؤوسيه لينهبوا وينتهكوا إلا بعد الاحتفال بالنصر.

علـــى ضوء القمر المنعكسة أضواؤه على الأرض المغتصبة والنهر المذبوح، والمـــوت المطلقة أعنته، وعند منتصف الليل، قرب جذع المولونغو، عند أعلى بيت النقيب كانت تجلس جاسنتا كوروكا ومعها رشاشها. ناتاريو دا فونسيكا وبيده البارابللو، في الكمين، وهما يتمتعان بجمال المشهد المترامي أمامهما. هناك عـــند الأســـفل، كانت توكايا غراندي قد رقدت واحتلها المستزلمون ورجال الشرطة.

– إن أفضل شيء في هذا العالم – قالت كوروكا – والذي لا يضاهيه شيء هو أن تلد المرأة طفلاً، ورؤية تلك القطعة من اللحم تخرج حية من رحم المرأة لهو مـــشهد يجعلـــك تحـــس بالرغبة في البكاء... كان أول طفل قد جعلني أجهش في البكاء.

جعل النقيب خيط الابتسام يتمدد ظاهراً على شفتيه:

– لقد ساعدت في ولادة الكثيرين من الأطفال وأصبحت سيدة كبيرة.

– لقـــد تغيرنـــا ونمونا مع توكايا غراندي. أنت أيضاً يا ناتاريو لم تعد ذلك الرجل السيئ الذي كنت في السابق.

– أمر محتمل.. ممكن.

سيطر صمت قصير، وجاءت من ناحية النهر، في الليلة الرائعة، نسمة حملت معهـــا رائحـــة طيبة وفاح في الهواء عطر الياسمين. وفي صوت كوروكا عبر البحر والنسيم:

– لم أرَ في حـــياتي أحداً أحب شخصاً آخر، أو امرأة أحبت كما أحبتك برناردا. – ثم وقفت برهة عن الكلام مفكرة لتتابع: – أعتقد أن هذا هو الحب الـــذي يتكلمون عنه. أعرف كيف هو عرفته في زمن الصبا. كان اسمه أولافو، وكـــان ضـــعيف الصدر فمات يتقيأ الدم. أذكره كما لو كان ذلك قد حدث اليوم.

وصـــل بالقرب من هناك كشاف قافلة الوجهاء. كانوا اثنين من ملتقى أسفل المنحدرات: الأكواخ التي هجرتها فتيات الهوى وكان المستزلمون قد دخلوها بعدما قتلوا باولينيا ماريسكا الوحيدة التي بقيت تحرس المكان. كانت قد تعلمت الرمي في الأغـــواس مع حملة المسدسات من عائلتها في البيت الخشبي؛ وكان رئيس البلدية، والقاضـــي، والمدعي العام، والقائد العام والحاشية المرافقة، وأهل القصر السامون، والجمـــيع يلتجـــئون في الحفـــر المحروسة بانتظار لحظة الدخول المظفر إلى توكايا غـــراندي. انتظروا على ضوء القمر أن يقدموا بدخول مخبب على ظهور خيولهم، يـــستحق التـــصفيق: سمـــان، أقوياء، يرتدون الملابس الراقية، وقد بدوا في كامل الاســـتعداد لأنهم كانوا قد جاؤوا معهم بالقانون ليزرعوه هناك. أسندت كوروكا الرشاش إلى جذع الشجرة. وردد النقيب ناتاريو دا فونسيكا:

– إنه أجمل مكان ليعيش فيه الإنسان!

– ليس له مثيل. – وافقت كوروكا.

وبينما راح يمتطي مهرة أصيلة تنبهر العيون بجمالها، ووسط الحاشية المتقدمة، عـــن يميـــنه رئيس البلدية، وعن يساره الإلهية الجمال لودميلا غريغوريوفنا، كان الخـــريج الـــبدين بوافنتورا أندرادي جونيور، الزعيم السياسي والآمر الناهي، قد انفرجت أساريره بضحكة فرح.

صـــوّب ناتاريو مسدسه بثبات مستهدفاً صدغ رأس فنتورينيا. خلال عشرين سنة لم تخطئ طلقة من طلقات ناتاريو – فكيف تخطئ الآن؟

"عن إذنك يا حضرة العقيد"

24

وهـــنا يبدأ تاريخ مدينة إيروزوبوليس بعدما كانت توكايا غراندي ووجهها المظلـــم. إن مـــا حـــدث لاحقاً - التقدم، التحرير، وتغيير الاسم وقصر العدل، والبلدية، والكنيسة، والقصور، والدور المسدسة الأطراف والمحافظة، والمدعي العام والقاضي، والمحكمة والسجن، والنادي الاجتماعي، والمنتدى الأدبي، كل هذه هي الـــوجه المـــضيء. - لا يستحق عناء التحدث عنه ولا خير فيه. وإلى اللقاء لرؤية المزيد.

انتهت

كتب للمترجم

- غبار الهزيمة، مجموعة أحاديث.
- الرؤساء ألغاز وأسرار، سياسة.
- تيرزا باتيستا تعبة من الحرب، ترجمة عن البرتغالية، جورج أمادو، 1989.
- بوليفيا والبارود في الحلق، ترجمة عن البرتغالية، كيافيناتو، 1990.
- رقعة الشطرنج والرجل العاري، ترجمة عن البرتغالية، فرناندو سابينو، 1990.
- فمك المقمر - مجموعة قصص، كارلوس دروموند دي أندرادي، ترجمة عن البرتغالية.
- صهوة البراق، رواية.
- الميناء الأمين، رواية.
- الحركة الكردية في تركيا: إلى أين؟ - بحث.
- الوثيقة، رواية.

المترجم:

عوني الديري

ولد في بلـدة شكّا اللبنانية عـام 1943 وأكمل دراسته التكميليـة والثانوية في مدرسة ميفوق من أعمال بلاد جبيـل ثـم انتقل للإقامـة في بيروت حيـث انتسب إلى كليـة الحقـوق والسياسـة والاقتصـاد في الجامعـة اللبنانية.

عمـل أستاذاً للأدب والتاريـخ في عدة مدارس وكليات لبنانيـة ثم عمل مع وزارة الدفـاع الفرنسية مترجماً قانونياً في الرياض في المملكة العربية السعودية.

مقيـم في العاصمـة العراقية بغـداد منذ العـام 1980 حيـث عمـل مستشـاراً اقتصاديـاً وقائمـاً بأعمـال السفارة البرازيلية.

خـلال إقامتـه الطويلـة في بغـداد، عمل علـى ترجمة أعمـال منتقـاة لكبار الكتـاب البرازيليـين صدرت في بغداد وتونس والقاهـرة فقدّم للقارئ العربي «رقعة الشطـرنج والرجل العاري» ورواية «المتخلّف العقلي الكبـير» لفرنانـدو سابينـو، ومجموعـة قصصيـة لكارلوس دروموند دي أندرادي، و«بوليفيا والبارود في الحلـق» لكيافيناتـو، ولكـن أكـثر ترجماتـه عـن البرتغاليـة أهميـة هي نقـل روايات جورجـي أمادو الأخـيرة «تريزا باتيستا تعبة من الحرب»، و«توكايا غراندي – الوجه المظلم»، و«حرب القديسين».

«أقول «لا» حين يقولون «نعم»، وبصوت واحد لا يتبدل. أريد أن أكشف عن الوجه المظلم وأسلّط عليه النور، ذلك الوجه الذي محوه من مسيرة التاريخ بلؤم وجحود، أريد أن أهبط إلى أعماق البداية المنكرة، وأتحسس الصبر والتجلد على البناء بالنضال والدم، والقدرة على مواجهة العنف والسيطرة عليه، وأريد أن أفضح طموح ووضاعة وقوانين الإنسان (المتحضر).. وأتحدث عن الحب الإباحي ما دام صرح الفضيلة لم يرتفع بعد.. أقول «لا» حين يقولون «نعم»، وليس عندي عهد آخر».

جورجي أمادو

«وأخيراً أدركت هذه الرائعة لجورجي أمادو هدفها كاملاً، ولذلك نضع أنفسنا تحت وصايته، أسرى إبداعه السحري».

– جيرالدو فراس، مجلة استو آي

«إنها ملحمة، وكونها كذلك، وفي الوقت الذي يتناول فيه أشخاصاً من لحم وعظم، فإنه يمنحهم بعداً ميثولوجياً ذا بنية مثالية».

– إيليو بيللغريني، جريدة فوليا دي ساوباولو

«إنها تحفة روائي وتحفة شعب، فتوكايا غراندي، لا تترك المجال، كتحقيق تصوري، لأي من الروايات المهمة التي قرأتها في حياتي، والتي تم نشرها في العالم، مؤخراً، بأن تفوقها إبداعاً وأهمية».

– أنطونيو أولينتو

«من الصعوبة أن نعثر، على عمل أكثر مثاراً للإعجاب في الأدب البرازيلي».

– جوزي برازيلييريسيمو

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة

كلمة
KALIMA

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

ISBN 978-9953-87-344-2
9 789953 873442